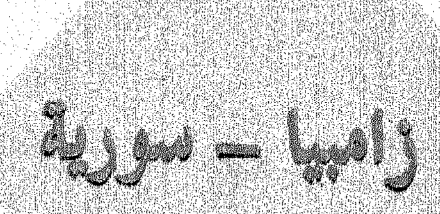
مَسعُود الخوَند

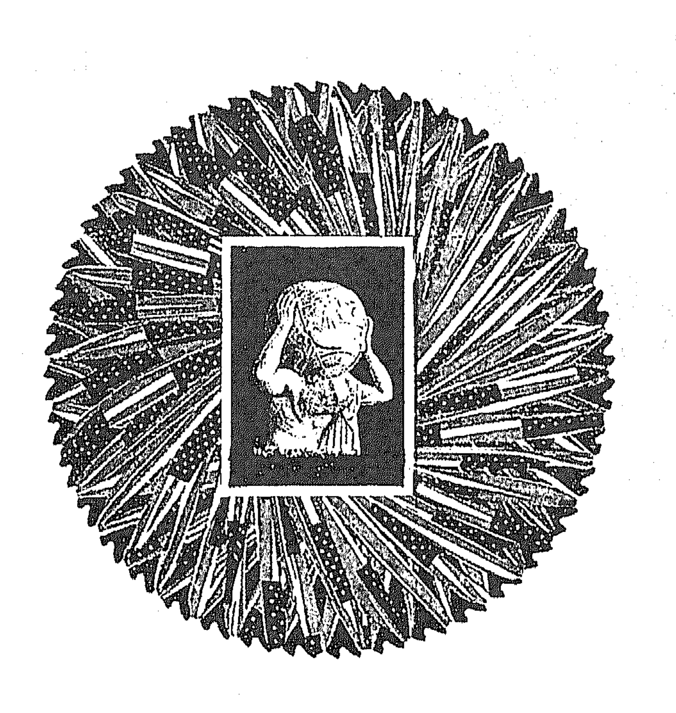
القَارّات . المنَاطِق . الدّوَل . البُلدَان . المُدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

الجزء التاسع

معَالِم . وَثَائِق . مَوضُوعَات . زُعَمَاء





مشاركون في التصحيح:

شربل الخوند جورج سليم خليل سمعان

المورّع: **مؤسسة هانياد**

سن-الفيل - القلعة

ص.ب: ٥٥٥٨٦ بيروت-لبنان

هاتف ٤٩٣٢٩٦

طبع في لبنان

مَسعُود الخوَند

القَارّات . المنَاطِق . الدّوَل . البُلدَان . المُدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

مَعَالِم . وَثَائِق . مَوضُوعَات . زُعَمَاء

الجزء التاسع

زامبيا ــ سورية

مقدمة أولى

همّ الغيارى علـى الفكـر، في هـذا العصـر المُلبَّـد بكـل أنـواع الاصطراعـات، أن تتـأمَّن لـه مُناخات مادية ونفسية تسمَح له بتخطي المفروض الجامح الـذي يَحـدُّ مـن قدرتـه علـى التحليـق في جواء الخلق والإبداع، ويرسم علامات استفهام حول المدى الذي يمكن أن يبلغه.

لكنّ الواضح، على رغم الجموح الماديّ الجارف، والانجرار وراء السطحي الهين، أن الإشـعاع العقلي الفكري يواجه هذا الجموح بثبات وعناد ليُحافظ على مـداره الطبيعي ويحمـل علـى ضبـط التطور المادي المذهل، في عملية تفاعل دقيقة وحثيثة ليكون ذلك في مصلحة الإنسان وجـودة حياتـه على مختلف بيئاته. والملاحظ أن بعض النتائج الإيجابية قد تحققت في حدود الممكـن، حتـى وإن بـدا للبعض،من زوايا نظرية متباينة، أن المَرْئيّ على صعيد الواقع الميداني لا يتناسب مع هذه المقولة.

على ان تصويب المسار بما يتلاءم والمرتبة التي تميّز الإنسان، لا يَتمّ تلقائيًا في ظل حتمية انتصـار الحـق على الباطل والمناقب على المثالب والوعي على الجهل، بل يتطلب صراعًا هادفًا ينطلق من حقيقة هـذا الوجـود ويؤمّـن أبعاده القيمية، شرط ألا ينحدر أو ينحرف في توسّله الهدف عما يتلاءم مع عظمة الإنسان وسُموه.

وكون الحقيقة الوجودية هي المدى الطبيعي للفعل الصراعي، فأنها تبقى في حالة كمـون أو في حالة اللاحقيقة، وبالتالي يفقد الفعل الصراعي أثره البنّاء، حتى تتأمّن المعرفة اليقينيـة العقليـة الواعيـة لهذه الحقيقة فيخرج الصراع من العالم الضبابيّ إلى عالمه الواقعي الحقيقي المشـرق. فالمعرفـة في عمـق شمولها إذًا هي إدراك الواقع الاجتماعي—حقيقة المجتمع، وكل معرفة أخرى يجب ألا تخرج عن كونها وسيلة تساهم في إغناء المعرفة الشاملة وتوضيح أبعادها وجزئياتها وتشعباتها.

وعليه فأن مهمة الفَعَلَة الفكريين شاقة ومضنية لأنها تضع على أكتافهم مسؤولية التركيز على انتقاء ما يُنمّي المعرفة الكلية الشاملة ويُرسّخ أسسها، وبالتـالي تـلافي كـلّ مـا يمكـن ان يُشـوّه وجـه الحقيقة ويثير خللاً وبلبلةً في المفهوم والممارسة.

ليست أهمية المعرفة في ما نجمع من معلومات أو ننسقها بقدر ما هي عملية انتقاء عقليّ دقيـق يهدف إلى تأمين التطور التصاعدي القيمي في مجرى الحياة الاجتماعية. فالمعرفة من اجل المعرفة ترف فكري لا يجدي في عملية البناء الشاملة المتكاملة «فالمعرفة التي لا تفيد هي كالجهالة الـتي لا تضـرّ»، كما أن المعرفة الناقصة قاصرة عن تحقيق الهدف الوجودي، أما تلك التي تتعارض مع حقيقة التجويد الحياتي، فمن أهم سلبياتها أنها تشكل عنصر عرقلة من جهة، وتعمق الشرخ بين المضطرب الفكري القليل الخبرة والدراية وبين الحقيقة الوجودية من جهـة ثانيـة. فمـن المنطقـي إذًا أن يكـون العقـل في أصفى فعله ركيزة الانتقاء المعرفي وتكون وسيلته الأساليب العقلية مـن استقراء واسـتدلال ومقارنـة واستنتاج وغيرها. ويبدو لي أن الأستاذ مسعود الخوند قد قصد ذلك في تمييزه بـين المعرفـة والمعلومـة خلال إجابته على سؤال من مجموعة اسئلة طرحها عليه جان صدقـة ونشـرت في جريـدة «النهـار» تاريخ ٢٣ نيسان ١٩٩٤: «في المعرفة هناك التفسير والمقارنة والأسلوب والإطار والرأي والمناقشة

نايف معتوق

كاتب واستاذ في الكلية الشرقية-زحلة، وفي معاهد اخرى

وهناك خاصة الكاتب، في حين أن المعلومة مجردة من ذلك». واضح إذًا أن هناك مسافة بين المعلومة والمعرفة ولا ترتقي الأولى إلى مستوى المعرفة إلا إذا اثبتت قيمتها الإنسانية خلال الإختبار الانتقائي.

إذا كانت المعرفة هي العنصر الأبرز في عملية البناء الحقيقية-وهي كذلك- فإن الثقافة تُشكِل مدارها الأوسع ومداها الأرحب ومعينها الدافق. أليست الثقافة «مجمل العلوم والفلسفات التي تتناول الحياة وما له علاقة بها، وما يَحصُلُ من ذلك على مستوى عقلي واتجاهات فكرية واعتقادات مناقبية وادراك الشؤون العامة»!؟ فالعلاقة بين المعرفة والثقافة يوطّرها المبدأ المعرفي المحدد سابقًا، بمعنى أن نغوص على جوهر كل الثقافات منطلقين من واقعنا الاجتماعي كغاية كبرى نهائية ونجيِّر ما في هذه الثقافات لصالح حياتنا الاجتماعية كما كان لثقافتنا «دور على صعيد المجتمعات الأخرى»، وهذا الدور «ساهم إلى حد بعيد في ترقية الثقافة العامة» وقد جمع «بين الزرع والغرس وسَلْك البحار والتجارة وإنشاء الحروف الهجائية والدولة المدنية».

وعلى هذا أظن وأميل إلى الترجيح أن الاستاذ خوند انطلق من مرتكزات تبدو في أكثر من جانب منها متوافقة مع هذه الاشراقة الفكرية الحقيقية، يدفعني إلى ذلك قوله: «كنت دائم التفكير والتحضير في آن لمشروعي الموسوعي الخاص أجمع فيه أكبر قدر ممكن من معارف وثقافة تاريخية وجغرافية وسياسية عامة شاملة وكونية لاعتقادي الذي كان راسخًا، ولا يزال، أن مثل هذه الثقافة إنما هي رافعة بالغة الاهمية تعوز مجتمعنا في اتجاهات المتلعثم صوب الوطن والدولة» («النهار»، السبت ٢٣ نيسان ١٩٩٤).

لن يخفى على المتبصر من خلال كل ذلك ان مثل هذه الورشة الفكرية تتطلب قدرات بشرية مميزة، ومدىً زمنيًا يرافق الانسان في مجرى استمراره، ولا يتوقف عند حدود المجلدات مهما كثر عددها وازداد، وهنا تكمن أهمية مغامرة الاستاذ خوند الواعية الهادفة والمركزة؛ لأن الاقدام على مثل هذه «الموسوعة التاريخية الجغرافية» يتطلب مستوى غير عادي من الجرأة والجهد والعمق والشمولية والارادة.

ولو لم تكن هذه الصفات من مزايا المؤلّف، ولولا فرادة الخصائص الحضارية التي تميز هذا الشعب، لما أبصرت هذه الموسوعة النور بكل ما تحمل من خصائص وفرادة في أكثر من موقع ومحطة، وليست نماذج يتيمة تلك المحطات البارزة التي تنمّ عن جُرأة في قول الحق والحقيقة في ما يتعلق بمسائل تاريخية دقيقة كمسألة «كيليكية واسكندرون» أو مياه «الفرات» أو «الموصل» أو حقيقة «الأمة السورية» وواقعها في المجلد (التاسع)... مما يجعل منها رائدة في هذا المجال.

يبقى أن نشير إلى أن هذا العمل الموسوعي الضخم الذي أنجز الاستاذ مسعود الخوند اجزاءه التسعة في سلسلة الاجزاء المتكاملة، يمكن أن تكونَ بعضُ الثغرات قد لاقت منفذًا إليه مما يُحتّم على الباحثين والنقاد الموضوعيين الولوج إلى عمق هذه الموسوعة لسدّ الثغرات إذا وُجدت فيكون لعملهم أثرٌ إيجابي في عقل المؤلف وقلبه لأن ذلك يتوافق مع إلحاحه الدائم على ذلك، وبالتالي يكون التكامل المعرفي سمة العاملين في حقول العلم والمعرفة.

مقدمة ثانية

«الحكمة هدف الانسان، عقلاً وسلوكًا، وللأمم والحضارات. وهي الصفات المثلى في الاحكام، وفي الافعال، ونداءات للفرد، وللجماعة، باتجاه الارفع والاشجع والأكثر عقلانيًا وتفطنًا. تدعو لجعل الانسان يعيش أفضل، وأسعد، وأكثر أخلاقية وتعقلاً، في حرية متعاونة، وفي واقع غير جارح، وفي انسانية متصالحة مع نفسها وقيمها».

(«الموسوعة الفلسفية العربية»، معهد الإنماء العربي، مجلد ١، ط١، ص٨٤٦)

«يستند فن إقامة الدول وحفظها إلى قواعد محدّدة كما الحساب والهندسة، ولا يستند إلى الممارسة وحدها كما اللعبة اليدوية... لكن هذه القواعد لا يمكن ان يكتشفها الفقراء الذين لامتسع من الوقت لديهم. أما أولئك الذين تَيَسّر لهم مثل هذا المتّسع فقد كان ينقصهم حتى الآن إما الفضول وإما المنهج...»

توماس هوبس

هذا الاصدار الجديد في سلسلة الموسوعة التاريخية الجغرافية، سيشكل حلقة أخرى من الجهد الخلاق والمجدي للصديق مسعود الخوند، وهو يفتح لنا مجالات جديدة للتعرف على بلدان وشعوب واماكن، يهمّشها الاعلام اليومي والمتداول في الغالب لخروجها على معايير اهتمامه المجحفة.

هذا الكتاب سيكشف لنا معلومات قيمة وحديثة عن ملايين من البشر، منتشرين في اصقاع مختلفة من عالمنا الواسع.... الصغير. وهذه المعرفة، معرفة الآخر، ولو بعيدًا في المسافة أو الزمن، هي فرصة الذات للخروج من جهل الانغلاق إلى رحابة الانفتاح، لاستشراف ما هو مشترك بين البشر على اختلافهم، لاستكشاف حجم ومعنى وجودنا، الفردي والمجتمعي، في هذا الخضم المترامي من الكل الانساني... ولا نتعرض هنا للابعاد الكونية اللانهائية...

إن العمل الموسوعي، بعلميته وموضوعيته، يوفّر أداة مفيدة لزيادة الحكمة في تكويننا الفكري، ويضفي استقلالية أكثر على مواقفنا إزاء معاناتنا الشخصية والمجتمعية، وترفعًا عن المؤثرات الظرفية والانفعالية. وفي ذلك خدمة كبيرة للذات ينعكس إيجابًا على ما حولها.

إن إنجازات عصرنا العلمية توفر لنا فرصًا للمعرفة لم يسبق لها مثيل. وإزاء الكم الهائل من المعلومات الموثقة، نجدنا ملزمين باعتماد منهج معين للبحث ومجال محدد للتبحر، بما يتوافق مع إمكاناتنا المحدودة من الطاقة والزمن. وبقدر ما نستطيع الافادة من معطيات الفكر والاكتشاف، نحقق تخطيًا للذات يلبي توقنا نحو الأفضل، افرادًا ومجتمعات.

إن تطبيق ديمقراطية المعرفة والاطلاع يؤدي إلى خلق تراكم نوعي جديد في التجمعات

نهاد محمود

دبلوماسي لبناني

البشرية، على درجات متفاوتة. ويساعد ذلك في تفعيل جدلية التغيير باتجاه الخروج من ظروف الجهل والتخلف القائمة، والتي ترسي بأثقالها على حياة أكثرية الناس في عالمنا المقبل على ألفية جديدة، وتجعلها فريسة حلقة مفرغة من البؤس والهدر.

إن قراءة موسوعة تهتم بجغرافيات الأمم وتواريخها، في هذا الوقت الذي نقبل فيه على عصر العولمة، ستكشف لنا مدى التمايز والتنوع بين البشر، لكنها ستؤكد ايضًا وحدة إنتمائهم وطبيعتهم في سعيهم لتحقيق الأفضل وتحاشي المسيء لذواتهم... فإذا ما يفرق الانسان عن الانسان، مهما نأى عنه في المصدر والمصير، أقل بما لا يقاس بما يجمعه به من توجهات ومشاعر.

إن الغد سيكون إذن عالم الشفافية والتعارف بين الأمم، وسيبقى للاعتلال في التوازن الحضاري مفاعيله في عمليات التواصل والتبادل، وبصورة أشدّ عما ألفناه منذ قرون. فهل تتيح المنجزات العلمية والتقنية مقاربة إيجابية أكثر جدوى للعلاقات بين الدول؟!... أم أنها ستكون وسائل أكثر فعالية لحسم الفوارق والاختلافات فيما بينها؟!...

إن هذا التساؤل الذي غيّبه عنا انتهاء الحرب الباردة، قد يعود بإلحاحه القديم مع أي تغير للأوضاع الإقليمية والدولية. وهكذا يبقى الانسان امام الإشكالية الأبدية التي تلازم وجوده: مسؤولية القرار بكل أبعادها. أو لم تكن محركة القادة والكهنة، وملهمة العلماء والأدباء على اختلافهم على مرّ العصور؟!

إنها إشكالية نعيشها في كل حين. فعسى اختيارنا يكون، غالبًا، ما يحقق إنسانيتنا التائقة دائمًا نحو الأفضل، وبما يجعل منا عناصر مفيدة لتقدم الجنس البشري في هذه القرية الكبيرة... كوكبنا الارض.

فهرست

الاحزاب

مدن ومعالم

زعماء، رجال دولة وسياسة

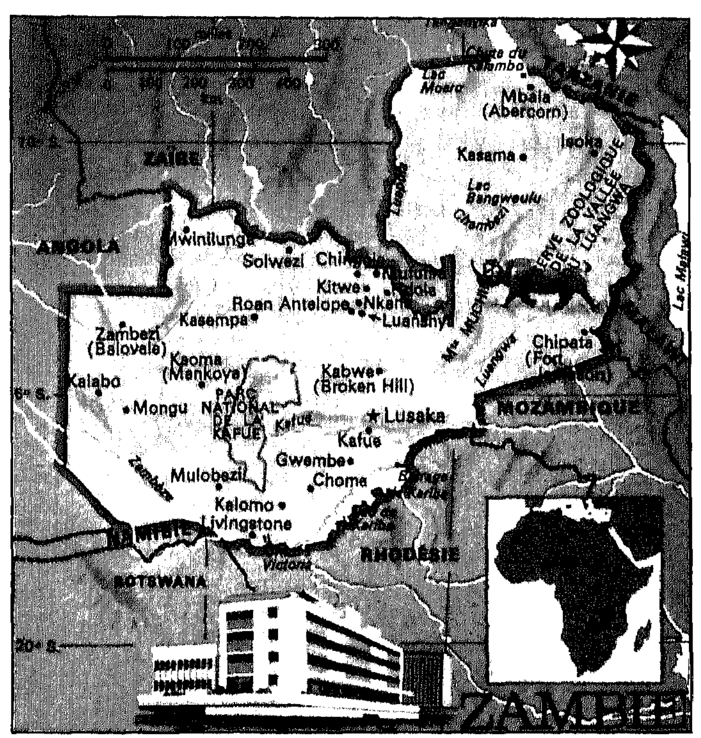
سورية الطبيعية
(مناقشة)

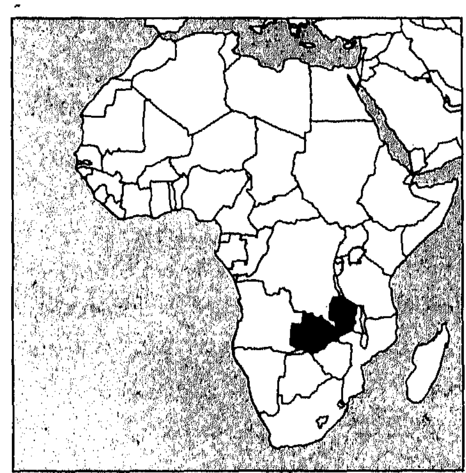
آخر المكتشفات الاثرية

في التاريخ القديم

في التاريخ الوسيط

(في التاريخ الحديث، وما يليه من ابواب وموضوعات، في الجزء التالي، العاشر).





زامبيا

بطاقة تعريف

الاسم: تأخذ زامبيا إسمها من نهر زامبيز الذي ينبع من أقصى شمال غربي البلاد وعلى ارتفاع نحو ١٥٠٠م. وعلى مسافة قريبة من أنغولا. وكانت زامبيا تدعى (قبل الاستقلال) روديسيا الشمالية.

الموقع: تقع زامبيا في وسط جنوبي افريقيا. بلاد داخلية لا منفذ لها على البحار. تحيط بها تنزانيا، أنغولا، ناميبيا، زيمبابوي (روديسيا سابقًا)، موزمبيق ومالاوي.

المساحة: ٧٥٢ ألفًا و٦١٤كلم م..

العاصمة: لوساكا. أهم المدن: كيتوي-نكانا، ندولا، كابوي (راجع باب «مدن ومعالم»).

اللغات: الانكليزية (رسمية). وهناك عدد من لغات القبائل الافريقية المحكية، أهمها: نيانجا،

بمبا، تونغا، لوزي، لوندا، لوفالي.

السكان: إحصاء ١٩٩١ أشار إلى ان عدد السكان بلغ ٨ ملايين و٢٠ ألف نسمة. وتقديرات ١٩٩٧ تشير إلى انهم بلغوا نحو ٩،٧٥٠ ملايين نسمة، وإلى أنهم سيبلغون نحو ١١ مليون نسمة في العام ٢٠٠٠. وهناك نحو ٤٧٪ منهم يسكنون المدن. ويتكون سكان زامبيا من ٧٣ عرقًا أو إتنية، أهمها: البامبا، اللوزي، التونغا، الغنوني والسيوا. وهناك نحو ٥٠ ألفًا من اصل أوروبي، و١٠ آلاف من أصل آسيوي. يؤلف المسيحيون (كاثوليك وبروتستانت) نحو ٨٠٪ من مجموع السكان، والباقون إحيائيون (ديانات افريقية محلية) بأغلبيتهم فضلاً عن أقلية مسلمة، وأقلية صغيرة من الهندوس (أصل آسيوي).

الحكم: نظام الحكم جمهوري. الدستور المعمول به يعود إلى ٢٤ آب ١٩٩١؛ وقبله كان نظام الحكم يعتمد حكم الحزب الواحد (حتى ١٩٩٠). وزامبيا عضو في الكومنولث. السلطة التنفيذية بيد رئيس الجمهورية الذي ينتخب لمدة خمس سنوات بالاقتراع الشامل والمباشر. وهو يعين رئيس الوزراء والوزراء. أما السلطة التشريعية فتتمثل بالجمعية العمومية المؤلفة من ١٥٠ عضوًا منتخبًا، يضاف إليهم ١٠ أعضاء يعينهم رئيس الجمهورية، لمدة خمس سنوات.

تقسم زامبيا إلى ٩ مقاطعات، وكل مقاطعة إلى عدد من الأقضية.

أهم احزابها: حزب «الاتحاد الوطني للاستقلال» الذي أسسه كينيث كواندا في ١٩٥٨، وجعل منه الحزب الحاكم الوحيد منذ ١٩٧٢ وحتى ١٩٩٠، حيث أقرت التعددية الحزبية. وحزب «الحركة من اجل التعددية والديمقراطية»، أسسه في ١٩٩٠ الرئيس الحالي فريدريك شيلوبا.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة على القطاعات الأساسية بالنسب التالية (في السنوات الاخيرة): في الزراعة ٦٥٪ من اليد العاملة في حين انها تشكل ١٤٪ من الانتاج العام، في الصناعة ٨٪ (٢٤٪ من الانتاج)، في القطاع المنجمي ١١٪ (١٥٪).

لا تتعدى نسبة الاراضي المزروعة ٧٪ من مساحة البلاد. والزراعة الاولى هي زراعة الذرة التي تحتل ٢١٪ من الاراضي المزروعة. والزراعة التجارية الاساسية هي زراعة التبغ (كما في البلد المجاور زيمبابوي) التي يحتل تصديرها، احيانًا، ٨٠٪ من مجموع الصادرات الزراعية.

يكاد الانتاج المنجمي في زامبيا ينحصر في مادة النحاس الذي يبلغ متوسط مداخيله السنوية ٢٠-٢٥٪ من الانتاج العام. ومن المواد المنجمية الاخرى مادتان تستحقان الذكر: الكوبالت والفحم. مع انخفاض اسعار النحاس في ١٩٧٧ و١٩٧٨، عاشت زامبيا ما يشبه الكارثة الاقتصادية.

تنحصر الصناعة في زامبيا بتكرير النحاس. أما الصناعات الاخرى فلا تزال تكتفي باشباع حاجات الاستهلاك المحلي من المواد الغذائية والتبغ والنفط المكرر ومشتقاته.

أما القطاع التجاري فيسجل ميزانه فائضًا سنويًا متوسطه السنوي نحو ٢٠٠ مليون دولار. وبالاضافة إلى معضلة اسعار النحاس التي تتغير باستمرار تقريبًا، هناك معضلة شحنه؛ إذ ليس لزامبيا حدود بحرية، فكان عليها ان تشحن نحاسها إلى مرفأ في بلاد مجاورة. وأولى السلع المستوردة هي النفط. وتتلقى زامبيا مساعدات من دول المجموعة الاوروبية .

نبذة تاريخية

قديمًا: كابوي kabwé هي، اليوم، مدينة (تقع في منطقة غنية بالمناجم) حديثة ولا شيء يميزها عن المدن الغربية الصناعية. هذه المنطقة نفسها كانت مأهولة منذ نحو خمسين ألف سنة، وثمة مغاور واقعة تحت بنايات شامخة حديثة تملكها شركات لاستخراج القصدير والزنك، يؤكد العلماء ان الانسان البدائي كان يلجأ للسكن فيها من خلال دراستهم للآثار المكتشفة في ١٩٢١ في كابوي، وتلك المكتشفة بالقرب من شلالات كالامبو Kalambo في وادي غويمبي Gwembe وفي ضواحي كالومو Kalomo.

إن حوض نهر الزامبيز، بما يوفره من بيئة صالحة للسكن، اوقف منذ القدم (خاصة منذ القرن الثالث عشر) استمرار نزوح البانتو في هجرتهم نحو الجنوب (والبانتو هم الشعوب التي عاشت في الصحراء الافريقية وعند اطرافها. ووحدة عرق البانتو تتمثل اساسًا في اللغة. وقد تشتت البانتو على اراض شاسعة، ويؤلفون الاغلبية الساحقة من السكان الذين يقيمون جنوبي الخط المنطلق من دويالا حتى مصب تانا في المحيط الهندي مرورًا بشمالي بحيرة فكتوريا).

أوروبيان في تاريخ زامبيا الحديث:
إن تاريخ زامبيا، قبل وصول الاوروبيين، في القرن الخامس عشر، لا يزال غامضًا وعاصيًا على الدارسين المنكبين على إيضاحه. وثمة مستكشفان برتغاليان، أو أكثر، مرّا بالبلاد في طريقهما من أنغولا إلى موزمبيق، فكانا من الغربيين الاوائل الذين غامروا في مجاهل تلك المنطقة التي استمرت صورتها التاريخية مهزوزة حتى وصول هذين المستكشفين الشهيرين: ليفينغستون وروودس.

قام المستكشف الاسكوتلندي دافيد ليفينغستون برحلته عبر افريقيا الجنوبية بين ١٨٥١ و١٨٧٣. في ١٨٥٥، اكتشف شلالات فكتوريا. في ١٨٧١، ضاع كل أثر له واعتقد انه لقي حتفه، لكن ستانلي عثر عليه في تنجانيقا.

أوروبي آخر أتى بدور مهم في تاريخ زامبيا، هو سيسيل جون رودس. حصل رودس على ثروة طائلة من ألماس جنوب افريقيا، لكنه حوّل أنظاره من مناجم الذهب في مقاطعة ترانسفال إلى مناطق الشمال حالمًا بقيام شركات (تروستات) بريطانية تغطي، في عملها واستعمارها، كل القارة الافريقية من رأس الرجاء الصالح حتى القاهرة في مصر. وتوصل، في ١٨٨٨، إلى عقد عدة اتفاقيات مع زعماء القبائل المحلية تعطيه حق استثمار المناجم في الاراضي كافة التي تشكل زامبيا الحالية. وقد أنشأ شركة دعاها «شركة افريقيا الجنوبية البريطانية»، وحصل من الحكومة البريطانية على ميثاق يؤهله لأن يحكم البلاد بكاملها اقتصاديًا وسياسيًا. وفي ١٩٢٤، تخلت الشركة عن حقوقها للحكومة البريطانية التي أعلنت على الفور قيام محمية بريطانية باسم «روديسيا

الشمالية» (زامبيا) تخليدًا لذكرى سيسيل رودس.

الاستعمار: بين ١٨٩٩ و١٩٦٤، بقيت زامبيا (روديسيا الشمالية قبل الاستقلال) مستعمرة بريطانية، وخضعت، منذ العشرينات خاصة بعد بدء انتاج النحاس، لسيطرة الشركات المنجمية.

في ١٩٥٣، شكلت كل من زامبيا (روديسيا الشمالية) وزيمبابوي (روديسيا الجنوبية) ونياسلاندا (مالاوي) اتحادًا في ما بينها. إلا أن أغلبية السكان السود عارضت هذا الاتحاد بسبب سيطرة البيض عليه سيطرة تامة. وفي ١٩٦٢، انسحبت نياسلاندا، وفي ٣١ كانون الاول ١٩٦٣ انفرط عقد الاتفاق.

الاستقلال، كينيث كاوندا: كان كينيث كاوندا ورفاقه الذين خرجوا من السجن في ١٩٦٠ بعد ان اعتقلتهم السلطات قبل سنة، قد أسسوا حزب الاستقلال الوطني الموحد. وواصلوا نشاطهم لفرط الاتحاد اولاً، ثم نيل الاستقلال. فأطلق كاوندا في ١٩٦١ حملته الداعية إلى العصيان المدني. وفي بداية ١٩٦٤، نالت البلاد حكمها الذاتي، ثم نال حزب الاستقلال الوطني ا لموحد أغلبية المقاعد في الانتخابات العامة التي جرت بعد قليل. وفي تشرين الاول ١٩٦٤، نالت البلاد استقلالها، واتخذت إسم زامبيا، وأعلنت الجمهورية، وأصبح كاوندا أول رئيس لها.

انتهج كاوندا خطًا سياسيًا واقتصاديًا دعاه «الاشتراكية الانسانية» لتخليص البلاد من التبعية الاقتصادية. واندفع ضد نظام الأبارتيد في روديسيا وجنوب افريقيا، وفتح ابواب بلاده امام ثوار زيمبابوي، وتحمل، نتيجة هذا الموقف، اضرارًا فادحة اصابت البلاد بسبب هجمات الجيش ا لعنصري الروديسي (قبل نيل زيمبابوي استقلالها) الذي كان يلاحق ثوار زيمبابوي.

معضلتا السنوات الاولى للاستقلال: دار التاريخ الاجتماعي والسياسي لأكثر من عقد من السنوات التي تلت الاستقلال حول معضلتين متكاملتين: إنتاج النحاس، واسترداد الحكم الاستقلالي للسلطات الاقتصادية والمالية التي تحكّم بها طويلاً الرأسمال البريطاني، والاميركي، والجنوب افريقي. وقد مرّت هذه العملية بعدة مراحل.

ففي نيسان ١٩٦٨، أجبرت ٢٦ شركة كبرى ان تتخلى عن ٥١٪ من رأسمالها للدولة. وقد توسعت هذه العملية في ١١ آب ١٩٦٩ حتى شملت الصناعات المنجمية. وفي تشرين الثاني ١٩٧٠، شملت كذلك المصارف والشركات المالية. وفي آب ١٩٧٣، بوشر بمرحلة جديدة من عمليات الاسترداد. ففي الوقت الذي أنشئت فيه شركة لتجارة النحاس (ميماكو)، أنشأت الدولة شركة زامبيا الصناعية والمنجمية (زيمكو) التي استردت ممتلكات شركتين كبيرتين كانتا تنشطان قبل الاستقلال: الشركة الانكليزية– الاميركية،، وشركة روان سلكشن

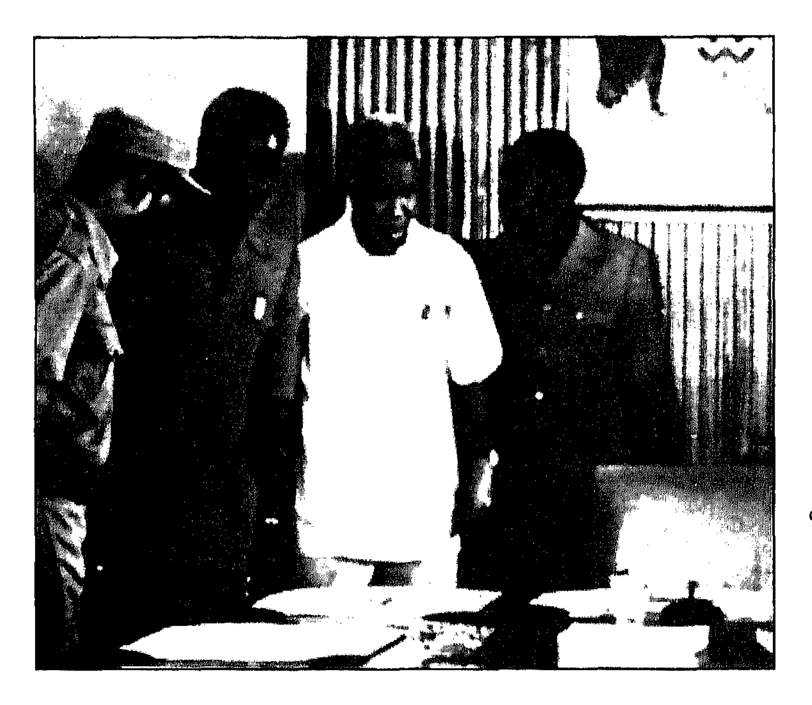
ترووست. وكان، في الوقت نفسه، يجري إحلال وطنيين زامبيين محل الاجانب في الاجهزة الادارية لهذه الشركات، كما في اجهزتها الفنية.

ان هذه الاجراءات، بالاضافة إلى بعض محاولات إنشاء الصناعات التحويلية، لم تمكّن اقتصاد زامبيا من تخطي عقبتين إثنتين: الهبوط العالمي في اسعار النحاس، وحصر النحاس داخل افريقيا الجنوبية. فكانت سياسة الحكم تتأرجح، نتيجة لذلك، وابتداء من ١٩٧٣، بين الاسعار التي تفرضها الشركات الاجنبية وأسواقها المالية، وبين رغبة الحكم المحلي (والطبقة البورجوازية المحلية) بزيادة الارباح. والمخرج الوحيد كان في زيادة انتاج النحاس.

وكمحاولة للتخفيف من حدة التبعية، وضعت عدة خطط بهدف تنمية صناعة تغني عن بعض السلع المستوردة، إلا ان الفشل كان من نصيبها. وقد زاد من خطورة الوضع الاقتصادي الداخلي النزاع في زيمبابوي، وذلك بسبب اعتماد اقتصاد البلاد على تلك الدولة المجاورة. فهناك ٨٠٪ من الكهرباء المستهلكة يؤمنها سد كاريبا، ويمر في زيمبابوي ايضًا مجموع كميات النفط و٩٧٪ من مستوردات زامبيا. وفي ايلول ١٩٧٨، رفع الحظر عن نظام إيان سميث (رئيس وزراء «روديسيا»- زيمبابوي، بين ١٩٦٤ و١٩٧٩)، ذلك الحظر الذي كان مجحفًا بحق زامبيا أكثر من سواها من الدول المسماة دول «الخط الاول» (موزمبيق، تنزانيا، أنغولا، مالاوي وزامبيا). وكان اغلاق الحدود مع زامبيا قد بدأ في كانون الثاني ١٩٧٣، فحرمها من الممر الذي يصلها بمرفأ بيرا Beira في موزمبيق. وبعد رفع الحظر (١٩٧٨)، أخذت زامبيا تسعى لايجاد حل سلمي مع نظام سالزبوري (عاصمة روديسيا، وأصبحت تدعى «هارار» عندما أصبحت البلاد تدعى زيمبابوي مع الاستقلال)، يسمح لها باعادة ادخال البلاد في نظام اقتصادي اقليمي تبقى جنوب افريقيا عموده الفقري.

معارضة حكم كاوندا: تضافرت كل هذه العوامل المتمحورة حول معضلتي «إنتاج النحاس واسترداد السلطات الاقتصادية والمالية» لتؤدي إلى أزمة داخل الحكم وداخل الحزب الحاكم والوحيد الذي فقد جزءًا كبيرًا من قواعده الشعبية وبات يعتمد اساسًا على الموظفين والتكنوقراط.

ولقد كان للنقاش الدائر حول أهمية إجراءات التأميم أن أبعد عن الحزب عددًا من اعضائه البارزين المرتبطين بشكل وثيق بالشركات الاجنبية. ومع ذلك، لم تستطع أية مجموعة سياسية (حتى ١٩٩٠، عندما جرى الإقرار بالتعددية الحزبية) ان تشكل بديلاً لحزب كاوندا الحاكم، حزب «الاستقلال الوطني الموحد». وكانت المعارضة الوحيدة، قبل ١٩٧٣، تتمثل بالمجموعة التي كان يتزعمها نكومبولا التي كانت تعتمد اساسًا على البيروقراطيين وصغار التجار، وتعارض بشدة كل قطيعة مع البلدان العنصرية. وكان لهذه المجموعة جذور في جنوبي البلاد، إلا أنها بقيت



الرئيس كينيث كاوندا (الثاني من يسار الصورة) في اجتماع قمة دار السلام في ٢٦ شباط ١٩٨٠ لزعماء بلدان «الجبهة»: زامبيا، موزمبيق، تنزانيا وبوتسوانا. وقد عقد الاجتماع عشية انتخابات روديسيا – زيمبابوي.

عاجزة عن تشكيل خطر حقيقي على الحزب الحاكم، لا بل انها عمدت، ومن اجل ان تحتفظ بمقاعدها في المجلس النيابي، إلى حل نفسها في ١٩٧٣، فانضم اعضاؤها إلى حزب الاستقلال ا لوطني الموحد.

وكان لمجموعة أخرى تزعمها سيمون كابويبي، وأطلقت على نفسها إسم «الحزب الاتحادي التقدمي»، ونشأت في ١٩٧١، بعض التأثير داخل صفوف البيروقراطية الحاكمة. ولكنها لم تنجح في الاستمرار، إذ تمّ منعها من العمل بعد مرور خمسة أشهر فقط من تأسيسها. لكن كابويبي عاد وتمكن من الاقتراب من الحكم وأصبح نائب الرئيس، وتوفي في كانون الثاني ١٩٨٠. أما المعارضة الجدّية فقد أتت من جانب القطاعات العمالية والطلابية. إذ رفضت نقابات عمال المناجم، في كانون الثاني ١٩٧٦، أن تصبح نقاباتهم تحت إشراف الحزب، ولاقت الجولات التي قام بها مسؤولون في الحزب في المقاطعات وفي الاحياء الفقيرة من لوساكا، فشلاً ملحوظًا في كسب ود القطاعات الشعبية. أما في الجامعة، فقد أدخلت حرب أنغولا نزعة تجذيرية لدى الطلاب، أصبح انتشار الحزب في صفوفهم، على أثرها، ضعيفًا إلى حد ما.

وفي هذا الوضع الذي أصبح مأساويًا فعلاً عند نهاية ١٩٧٨، وزعت الحكومة الزامبية سياستها على محاور ثلاثة: تقوية سلطة الدولة، مواصلة السعي وراء أكبر قدر من الاستقلال الاقتصادي، وحل معضلات افريقيا الجنوبية (العنصرية منها على وجه الخصوص). وجاءت انتخابات ١٩٧٨ لتعطي ثقة شعبية كبيرة (٨٣،١٪) بسياسة الرئيس كينيث كاوندا، خاصة سياسته الافريقية الداعية إلى الخلاص من الانظمة العنصرية والداعمة لحركات التحرر، على الرغم مما أصاب زامبيا من اضرار مباشرة

بفعل ملاحقة نظام إيان سميث في روديسيا (زيمبابوي) لمخيمات لاجئين وثوار «زابو»، وقصفه لهم داخل الاراضي الزامبية (خاصة بين تشرين الاول ١٩٧٨ ونيسان ١٩٧٩). وفي سياق سياسته هذه، لبّى الرئيس كاوندا دعوة الرئيس العراقي صدام حسين، فزار بغداد في كانون الاول ١٩٧٩، فكان خامس رئيس افريقي يزور العاصمة العراقية في فترة لا تتجاوز بضعة أشهر.

كرونولوجيا العقدين الاخيرين، الرئيس الحالي فريدريك شيلوبا: في تشرين الاول ١٩٨٠، جرت محاولة انقلابية فاشلة ضد نظام الرئيس كينيث كاوندا. في ١٩٨٢، ضربت البلاد موجة جفاف. في ١٩٨٢-١٩٨٥، وصلت الازمة الاقتصادية إلى أوجها، وبيع النحاس بأسعار خاسرة. في كانون الاول ١٩٨٦، اندلعت اضطرابات (نحو ٢٠ قتيلاً) بسبب المجاعة. في ٦ تموز ١٩٨٧، وقعت كارثة المركب «ماريا» الذي اصطدم بصخرة في نهر لويابالا وقضت الحيتان على ٤٠٠ راكب. في ٣ ايار ١٩٨٩، زار البابا يوحنا بولس الثاني البلاد. في ٣٠ حزيران ١٩٩٠، جرت محاولة انقلابية فاشلة؛ وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٠، أقرّ نظام التعددية الحزبية. في تشرين الاول ١٩٩١، قضى مرض الكوليرا على أكثر من ٣٠٠ شخص؛ وفي ٣١ من الشهر نفسه، جرت انتخابات نيابية ورئاسية، وفاز بالرئاسة فريدريك شيلوبا (مولود سنة ١٩٤٣ من أب كان عامل مناجم؛ بين ١٩٧٤ و١٩٩١، شغل منصب رئيس المؤتمر الزامبي للنقابات، واعتقل وسجن في ١٩٨١) بنيله ٧٩٪ من الاصوات ضد منافسه الرئيس كينيث كاوندا. في ٢٤ حزيران ١٩٩٢، زار الرئيس شيلوبا فرنسا، وفي تموز بدأ باتخاذ إجراءات التخصيص (الخصخصة Privatisation)، وفي تشرين الاول-تشرين الثاني عادت الكوليرا وحصدت عددًا من الزامبيين، وكانت سببًا، من جملة اسباب تتصل خاصة بالوضع الاقتصادي والاجتماعي، لاندلاع المظاهرات وقيام اضطرابات دموية في العاصمة لوساكا. في ٤ آذار ١٩٩٣، أعلن عن حال طوارىء في جميع انحاء البلاد بسبب ما قيل عن مؤامرة تعرض لها الحكم. وبعد اسبوع صادق برلمان زامبيا على إعلان الرئيس شيلوبا حال الطوارىء، في وقت قطعت زامبيا علاقاتها الدبلوماسية مع العراق وإيران واتهمتهما بالمشاركة في المؤامرة وبتدبيرها مع الحزب الوطني الموحد للاستقلال الذي كان بزعامة الرئيس السابق كينيث كاوندا. وكان ما يزيد على ٢٥ معارضًا اعتقلوا في غضون ايام قليلة سابقة على هذا الاعلان. وعقب ذلك اضطرابات في العاصمة إثر اعتقال عدد من طلاب جامعة زامبيا.

في ٨ تشرين الاول ١٩٩٤، زار شيلوبا القاهرة، للمرة الاولى منذ انتخابه رئيسًا، للبحث (مع الرئيس المصري حسني مبارك) في سبل إنهاء التوتر في رواندا وبوروندي وليبيريا وأنغولا، كذلك سبل تسوية الديون الافريقية التي تقدر بنحو ٣٠٠ بليون دولار. وجاءت زيارته في

سياق اقتراحه ألية لإنهاء النزاع في روانـدا تقـوم علـى ضـرورة التدخـل العسـكري الافريقي لإنهاء المذابح في هذا البلد، وتفعيل ألية فض المنازعات الافريقية بالطرق السلمية التي أقرتها القمة الافريقية التاسعة والعشرون في القاهرة في حزيران ١٩٩٣. كما دعا إلى وقـف القتـال الدائـر في أنغـولا بـين حركـة «يونيتـا» الانفصاليـة والقـوات الحكوميـة والسـعي إلى إيجـاد حـل سـلمي للمشـكلة الأنغولية.

تميز العامان ١٩٩٤ و١٩٩٥ بتصاعد وتيرة الخلاف بين الرئيـس شـيلوبا والرئيـس السابق كاوندا، حتى انه لم يبق مقتصرًا على الشأن السياسي فتعداه إلى قضايـا شـخصية، أهمهـا قضيـة نسـب كـلٍ مـن الرجلـين إلى المواطنية الزامبية.

فبعـد عـامين مـن الحكـم التعـددي (الـذي بـدأ منـذ ١٩٩٢)، وقـرار كـاوندا النأي بنفسه عن «جحيـم» السياسـة، رأى، اثـر جـولات قـام بهـا في ارجـاء البـلاد (١٩٩٤) ان النـاخبين يريـدون عودتـه إلى الحكم. فسارع إلى ترشيح نفسه على زعامة الحـزب الـذي كـان يتزعمـه اساسًا، ففـاز بفارق كبيرٍ على منافسه، ونشـط في قيادة حملات املاً بتتويجها بترشـيح نفسـه منافسًا لشيلوبا على رئاسة الجمهورية. وفي مساعي الأخير للحيلولة دون عـودة كـاوندا، سـعى إلى تضمـين الدسـتور نصًـا يمنـع أي مواطـن زامبي من ترشيح نفسـه لانتخابـات الرئاسـة إذا لم يكن والداه من مواليد زامبيا في اشارة واضحة إلى ان والدي كاوندا ليسا من اصل زامـبي. وسـرعان مـا فوجـــىء شـــيلوبا بالصحف المحلية تشن حملة عليه وتتهمه بأنـه «ليس زامبيًا خالصًا»؛ وتأخذ جـانب أحـد المواطنين، ويدعى تشابالا، الذي أدعى بأنـه والد الرئيس شيلوبا، وجـانب احـد المحـامين الذي انبرى مدافعًا عن ادعاء تشابالا؛ كمـا اتهمتـه الصحـف المعارضـة بأنـه مـن أصـل زائيري، في حين ابـرزت (في تمـوز ١٩٩٥) الوثائق التي قدمها كاوندا وتثبت بـأن أبويـه ولدا في زامبيـا؛ واستمرت صحـف أخـرى موالية على تقديم البراهين علـى أن كـاوندا ولد لأبوين ينتميان إلى مالاوي المجاورة.

في ايـار وحزيـران ١٩٩٦، شـهدت زامبيا موجة تفجيرات استهدفت مبنى قصـر الرئاسة وصحيفة «تـايمز زامبيـا» الرسميـة في اقليـم نـدولا ومطـار العاصمـة لوسـاكا. وأعلنت جماعة «مامبا السوداء» (دلالة على نوع من الثعابين السامة النادرة) مسـؤوليتها عـن هـذه التفجـيرات، وهـي تعـارض التعديلات الدسـتورية الـتي اجازهـا البرلمـان الزامبي. وشملـت هـذه التعديـلات ثـلاث نقاط:

الأولى، حرمـان أي شـخص مـن والديـن غير زامبيـين حـق الترشيح لرئاسـة الجمهوريـة. الثانيـة، إعـلان زامبيـا دولـة مسـيحية. الثالثـة، منـع القـادة المحليـين والتقليديـين مـن الترشـيح أو المشـاركة السياسية عمومًا إلا إذا تقدموا باستقالاتهم مسبقًا من مناصبهم.

ويضاف إلى هذه النقاط نقطـة رابعة تتمثل في اعتراف الرئيـس شـيلوبا باسـرائيل وإعادتـه العلاقـات الدبلوماسية معهـا مـع وصوله إلى السلطة في ١٩٩١ (كان كاوندا

قطع هذه العلاقات بعد حرب حزيران ١٩٦٧). وقام الرأي السياسي الموالي (والصحف الموالية) بعملية ربط بين إعادة العلاقات مع اسرائيل والتفجيرات التي شهدتها البلاد. فتكلم على ان الجماعة التي تقوم بالتفجيرات تنتمي إلى متطرفين اسلاميين يتخذون من شرقي افريقيا قاعدة لهم، وهم غاضبون على إعادة العلاقات مع اسرائيل وقطعها مع العراق وإيران. كما اتهمت الحكومة المعارضة، وتحديدًا حزب الرئيس السابق كينيث كاوندا، بالقيام بالتفجيرات على اساس ان كاوندا نفسه كان قد أطلق عليه الاستعمار الاسم نفسه «مامبا السوداء» بعد أن أعلن خطته الخماسية لاستقلال روديسيا الشمالية (زامبيا).

والجدير ذكره ان المعارضة ليست وحدها التي وقفت ضد التعديلات الدستورية المشار إليها. فهذه التعديلات وصفتها الكنيسة ونقابات المحامين والمنظمات الطوعية وغير الحكومية والدول المانحة بأنها «غير ديمقراطية». وهددت بلدان مانحة ومؤثرة مثل الولايات المتحدة وبريطانيا بايقاف المعونات وقطع المساعدات عن زامبيا ما لم تراجع حكومتها قرارها «غير الديمقراطي الذي اعتمدته من خلال أغلبيتها الميكانيكية داخل البرلمان».

مدن ومعالم

* **فكتوريا، شلالات:** اكتشفت هذه الشلالات في ١٨٥٥. وأضحت منذ سنوات عديدة إحدى أهم المراكز السياحية في زامبيا (وفي العالم)، ويبلغ ارتفاعها ضعف ارتفاع شلالات نياغارا الشهيرة في الولايات المتحدة الاميركية. ومن المراكز السياحية الأخرى في البلاد الحديقة الوطنية في كافو وهي تعتبر إحدى أكبر المحميات في افريقيا؛ وكذلك سد كاريبا والبحيرة التي يشكلها.

* **كابوي Kabwé:** إسمها سابقًا بروكن هيل. مدينة زامبية. عقدة مواصلات برية ونهرية. تعد نحو ٢٢٥ ألف نسمة. في وسط منطقة غنية بمناجمها، وأهمها مناجم الزنك والقصدير. في ١٩٢١، اكتشف في كابوي جمجمة «إنسان روديسيا» الذي يعود إلى عصر لم يحدّد بعد.

* **كاريبا Kariba، سدّ:** سدّ على نهر زامبيز. يبلغ ارتفاعه ١٢٨م، ويشكل بحيرة هي



سدّ كاريبا على نهر زامبيز الذي يشكل الحدود بين زامبيا وزيمبابوي.

إحدى أكبر البحيرات الاصطناعية في العالم، وتبلغ مساحتها نحو ٥١٨٠ كلم م.. وتؤمن منشآت السدّ الجزء الأكبر من الطاقة الكهربائية التي تحتاجها الصناعة المنجمية في البلاد.

* **كيتوي–نكانا Kitwé-Nkna**: مدينة زامبية. تبعد ٣٥٩ كلم عن العاصمة، وتعد نحو ٥٣٥ ألف نسمة. صناعات معدنية وكيميائية أساسها مناجم النحاس.

* **لوانشيا Luanshya**: مدينة زامبية. تقع جنوب غربي مدينة ندولا. تعد نحو ٢٢٥ ألف نسمة. استخراج النحاس وتكرير المعادن غير الصافية. صناعات معدنية وغذائية. خط سكة حديد.

* **لوساكا Lusaka**: عاصمة زامبيا. تقع جنوبي البلاد. تعد نحو مليوني نسمة. مركز إداري وتجاري. صناعات نسيجية، غذائية، إسمنتية (مواد بناء) وطباعة.

* **ندولا Ndola**: مدينة زامبية. تبعد ٣٢١ كلم عن العاصمة. تعد نحو ٦٠٠ ألف نسمة. صناعات معدنية (تكرير النحاس والكوبالت) وغذائية.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **شــيلوبا، فريدريــك .Chiluba,F**
(١٩٤٣-): راجع «النبذة التاريخية».

* **كـابويبي، سـيمون .Kapwepwe,S**:
راجع «النبذة التاريخية».

* **كـاتيلنغو، لورنـس .Katilungu,L**
(١٩١٤-١٩٦١): زعيم نقابي زامبي. بدأ حياته معلمًا في إحدى مدارس الارساليات، لكنه اضطر إلى ترك التعليم، فعمل في مناجم النحاس في منطقة نخانا. قاد عدة اضرابات ابتداء من ١٩٤٠ واضطر إلى مغادرة البلاد ملتجئًا إلى الكونغو البلجيكي (زائير). انتخب لدى عودته في ١٩٤٧ رئيسًا لنقابات عمال المناجم الافارقة الحديثة العهد، وعندما تأسس أول حزب سياسي باسم «المؤتمر الافريقي لروديسيا الشمالية» (١٩٤٨) انضم إليه. وفي ١٩٥٠، كان من مؤسسي مؤتمر نقابات روديسيا الشمالية الذي انتخب رئيسًا له ثم دخل اللجنة التنفيذية للمؤتمر الافريقي الوطني وعارض مشروع اتحاد روديسيا ونياسالند، وخاض حملة ناجحة بهدف إلغاء منظمة ممثلي القبائل التي كان يؤثر ارباب العمل التعاطي معها بدلاً من النقابات. كذلك نجح في توسيع قاعدة مؤتمر النقابات، ما أثار حفيظة حزبه. وعندما انقسم الحزب، أيد كاتيلنغو الجناح المعتدل الملتف حول رئيسه في حين أسست العناصر الاكثر جذرية «مؤتمر زامبيا الوطني الافريقي» بزعامة كينيث كاوندا (وقد تحول إلى «حزب الاستقلال الوطني الموحد»). وانعكس الانقسام على النقابات فواجه كاتيلنغو حملة أخذ عليه مدبّروها اعتداله السياسي. وبدأ نجمه بالافول لا سيما بعد ان قبل الاشتراك في لجنة مونكتون المكلفة من قبل الحكومة البريطانية استفتاء الرأي العام الافريقي في زامبيا في موضوع الاستقلال. شارك، في ١٩٦٠، في وفد المؤتمر الوطني الافريقي في اعمال مؤتمر روديسيا الدستوري المنعقد في لندن. لكنه فقد في هذه الفترة رئاسة النقابات (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٥، ط٢، ص ٢٠).

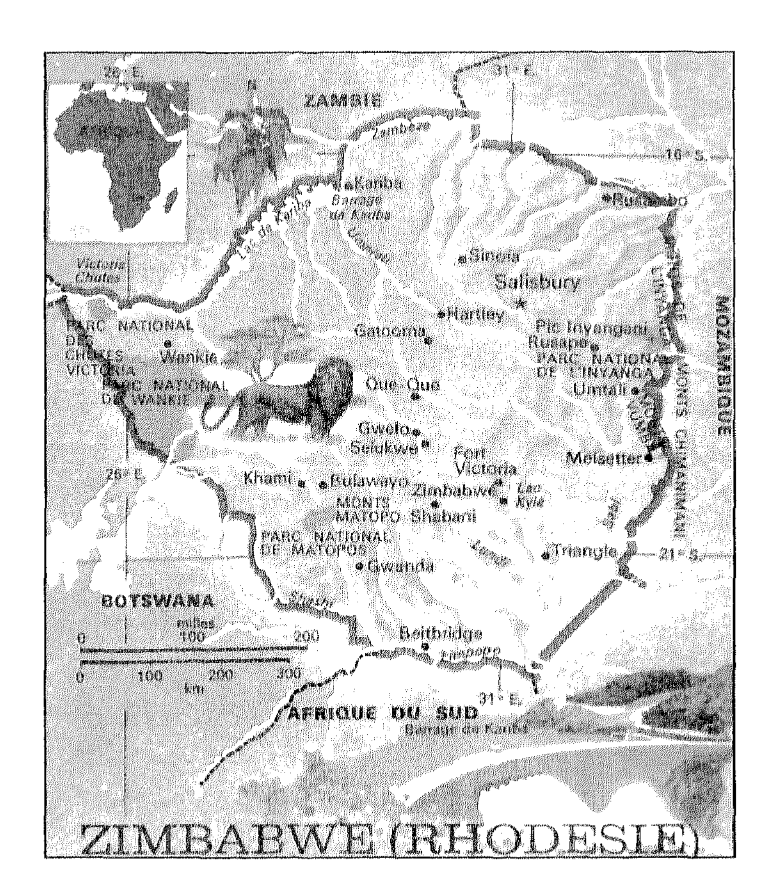
* **كـاوندا، كينيـث ريفرنـد ديفيـد .Kawunda,K.R.D** (١٩٢٤-): سياسي وأول رئيس جمهورية زامبيا المستقلة منذ ٢٤ تشرين الاول ١٩٦٤، وقد استمر رئيسًا دون انقطاع لأكثر من ربع قرن.

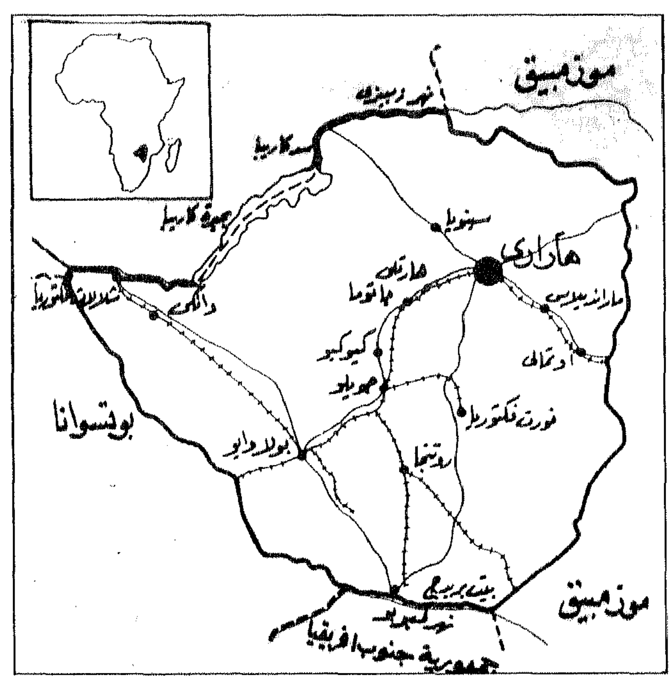
ولد كينيث كاوندا في مقاطعة شنسالي الشمالية، وتعلّم في مدارس الارساليات التبشيرية، ثم التحق بمدرسة مونالي الثانوية، وعمل معلمًا في الفترة ١٩٤٣-١٩٤٧، وبعدها عمل موظفًا في منجم نحاس شنجولا. بدأ نشاطه السياسي بالانضمام إلى حزب المؤتمر الوطني الافريقي في ١٩٤٨ وانتخب سكرتيرًا عامًا للحزب في ١٩٥٣، ثم انفصل عنه ليؤسس حزب «مؤتمر زامبيا الافريقي ا لوطني» في ١٩٥٨، ثم ترأس حزب الاتحاد القومي المستقل في ١٩٦٠. عين وزيرًا للحكم المحلي والشؤون الاجتماعية لروديسيا الشمالية بين ١٩٦٢ و١٩٦٤، وكان اول رئيس وزراء لروديسيا الشمالية من كانون الثاني حتى تشرين الاول ١٩٦٤، أي حتى استلامه مهام رئاسة جمهورية زامبيا. وإضافة إلى رئاسته الجمهورية، تولى وزارة الدفاع (١٩٦٤-١٩٧٠)، ووزارة الخارجية (١٩٦٩-١٩٧٠)، ووزارة التجارة والصناعة والمناجم منذ ١٩٦٩، ومدير شركة تنمية الصناعة والمناجم في زامبيا منذ ١٩٧٠. لم يستطع، وهو على رأس إحدى الدول الافريقية الأكثر مُدنيًا (السكن في المدن) والمعروف

بأنه من أكثر القادة الافريقيين حكمة ودراية وثقافة، سدّ الطريق امام استفحال الفساد والتدهور الاجتماعي ومعارضة الحزب الحاكم له وهو الذي كان أسسه في ١٩٧٢. في ١٩٩٠، وجد نفسه مضطرًا على الاقرار بالتعددية الحزبية التي كان يطالب بها خصمه فريدريك شيلوبا الذي فاز في انتخابات ١٩٩٢ (راجع «النبذة التاريخية»).

* **مونديا، نالومينو .Mundia,N**: سياسي زامبي أصبح رئيسًا للوزراء في ١٩٨١. ولد في مدينة مونياما في زامبيا، وبعد تخرجه في جامعة دلهي (في الهند) وجامعة أتلانتا (في ولاية جورجيا الاميركية) عمل معلمًا فترة من الزمن. انضم، في ١٩٦٠، إلى حزب «الاتحاد الوطني من اجل الاستقلال»، وشغل عدة مناصب وزارية بين ١٩٦٤-١٩٦٦. انفصل عن هذا الحزب (الحاكم) في ١٩٦٧، فتعرّض للاعتقال والاقامة الجبرية. انتخب نائبًا على لائحة حزب «المؤتمر الوطني الافريقي»، واعتقل مرة ثانية في ١٩٧٣ بعد ان صدر قرار يمنع حزب المؤتمر من ممارسة نشاطه. انضم مجددًا، في ١٩٧٤، إلى الحزب الحاكم (الاتحاد الوطني من اجل الاستقلال)، فأعيد انتخابه نائبًا. عيّن، في ١٩٧٤، وزيرًا للاقليم الشمالي-الغربي وأصبح، في ١٩٧٨، عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الحاكم. وفي شباط ١٩٨١، عهد إليه الرئيس كاوندا بتأليف الحكومة خلفًا لدانيال لوسيلو.

* **نكومبولا Nkompola**: راجع «النبذة التاريخية».


ZAMBIE
Zambèze
Kariba
Barrage de Kariba
Lac de Kariba
Victoria Chutes
Sinoia
Salisbury
Hartley
Gatooma
Pic Inyangani
Rusape
PARC NATIONAL DE L'INYANGA
Umtali
MOZAMBIQUE
MONTS CHIMANIMANI
Wankie
PARC NATIONAL DE WANKIE
Que Que
Gwelo
Selukwe
Fort Victoria
Melsetter
Khami
Bulawayo
Zimbabwe
Lac Kyle
MONTS MATOPO
Shabani
PARC NATIONAL DE MATOPOS
Gwanda
Triangle
BOTSWANA
Shashi
Lundi
Beitbridge
Limpopo
milles
km
AFRIQUE DU SUD
Barrage de Kariba
ZIMBABWE (RHODESIE)


موزمبيق
نهر زمبيزي
سد كاريبا
بحيرة كاريبا
سينويا
هاراري
هارتلي
جاتوما
مارانديلاس
اوتمالي
كيوكيو
جويلو
فورت فكتوريا
بوتسوانا
بولاوايو
روتنجا
بيت بريدج
نهر لمبوبو
موزمبيق
جمهورية جنوب افريقيا

زيمبابوي

بطاقة تعريف

الاسم: يعني (زيمبابوي) «بيت الحجارة» أو «قلعة»، وهو عادة مكان سكن الزعيم. كان اسمها، قبل الاستقلال، «روديسيا» الذي أطلق عليها في ١٩٢٣ تخليدًا لذكرى الاستعماري البريطاني الشهير سيسيل رودس (١٨٥٣-١٩٠٢) الذي أسس «الشركة البريطانية الجنوب افريقية» التي جرى حلّها لمصلحة الدولة البريطانية في ١٩٢٣.

الموقع: في افريقيا الجنوبية، بين نهري الزامبيز وليمبوبو. تحيط بها موزمبيق (وطول حدودها معها ١٢٠٠كلم)، زامبيا (٩٠٠كلم)، بوتسوانا (٨٠٠كلم) وجنوب افريقيا (٢٠٠كلم).

المساحة: ٣٩٠ ألفًا و٢٤٥كلم م..

العاصمة: هارار. وأهم المدن: بولاوايو، غويرو، موتار، كويكوي، كادوما، ماسفينغو (راجع «مدن ومعالم»).

اللغات: الانكليزية (رسمية). وهناك لغات قبلية محلية، أهمها: شونا ويتكلمها نحو ٧١٪ من السكان، ونديبيلي Ndébélé ويتكلمها نحو ١٦٪.

السكان: كان تعدادهم في ١٨٩٠ نحو نصف مليون نسمة. وبلغ في ١٩٦٢ نحو ٤،١ مليون، وفي ١٩٨٢ نحو ٧،٨٥ مليون، وفي ١٩٩٢ نحو ١٠،٤ مليون. وتشير التقديرات الحالية (١٩٩٧) إلى انهم في حدود الـ١٤ مليونًا. معظمهم (أي نحو ٨٥٪) من قبائل البانتو الذين يتوزعون على القبيلتين الرئيسيتين: شونا (٧٧٪)، ويسكنون مناطق الشمال والشرق، ونديبيلي (١٨٪) الذين يسكنون مناطق الجنوب والغرب. والباقون معظمهم من الاوروبيين (نحو ٢٥٠ ألفًا)، وبعدهم يأتي الخلاسيون (نحو ١٠٠ ألف)، ثم الآسيويون (الصين واليابان). ويتوزع السكان في معتقداتهم الدينية بين المسيحية (بروتستانت أنغليكان ٦٢٪ وكاثوليك ١٥٪) والمعتقدات الاحيائية الافريقية (٢٠٪)، وأقلية صغيرة من الهندوس.

الحكم: جمهوري منذ ١٨ نيسان ١٩٨٠. الدستور المعمول به صادر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٩. ينتخب رئيس الجمهورية لولاية ست سنوات من البرلمان المكون من ١٥٠ عضوًا: ١٢٠ منتخبين، ١٢ يعينهم رئيس الجمهورية، ١٠ يعينهم زعماء القبائل و٨ تعينهم حكومات المقاطعات.

في زيمبابوي حزبان أوروبيان (البيض): حزب «التحالف المحافظ لزيمبابوي»، تأسس في ١٩٦٢ وزعيمه إيان سميث و«حزب روديسيا»، تأسس في ١٩٧٢. أما احزاب السود: حزب المؤتمر الافريقي الموحد، تأسس في ١٩٧١ وزعيمه الأسقف آبل موزوريوا الذي استقال في ١٩٨٥، وأمينه العام الحالي ولتز موتيموكولو- الحزب الديمقراطي الزيمبابويي، تأسس في ١٩٧٩ إثر انقسام حزب المؤتمر الافريقي الموحد، وزعيمه جيمس شيكيريما -حزب الاتحاد الوطني الافريقي لزيمبابوي (زانو)، تأسس في ١٩٧٧ وزعيمه ريفريند ندابا نيغي سيتولي -منظمة الاتحاد الشعبي الزيمبابويي (زوبو)، تأسس في

١٩٧٦، وزعيمه جيريميا شيراو -حزب الاتحاد الوطني الفدرالي، تأسس في ١٩٧٨، وزعيمه كابيسا نديويني -حزب زانو فدرال، تأسس في ١٩ كانون الاول ١٩٨٩ إثر دمج تنظيمات سياسية وعسكرية (كانت تشارك في العمل المسلح من زامبيا وزيمبابوي) -حزب «زانو، الجبهة الوطنية»»، تأسس في ١٩٦٣ ويعتمد أساسًا على قبائل (إتنية) شونا، وزعيمه رئيس الجمهورية روبرت موغابي -حركة الوحدة الزيمبابوية، تأسست في ١٩٨٩، وزعيمها إدغار تيكيري.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة على القطاعات الاقتصادية الأساسية وفق ا لنسب التالية: الزراعة ٤٥٪ من اليد العاملة (وتساهم بـ١٤٪ من الناتج الاجمالي)، الصناعة ١٨٪ (٣١٪ من الناتج الاجمالي)، الخدمات ٣٠٪ (٤٥٪)، المناجم ٧٪ (١٠٪)؛ أما البطالة فقد كان متوسطها العام خلال السنوات الاخيرة نحو ٣٥-٤٤٪ من اليد العاملة.

كان التبغ الزراعة الأساسية في البلاد، ثم الذرة وتربية الماشية. وحوالي العام ١٩٥٠، بدأت تنشط زراعة القطن، وقصب السكر، ثم الشاي، والقمح والأرز.

الذهب والأمينت في مقدمة ثروات زيمبابوي الباطنية، ويأتي بعدها الكروم، والفحم، والحديد، والنحاس والنيكل. في زيمبابوي صناعات الصلب، ومواد البناء والآلات الزراعية؛ كما ان هناك مصافي لتكرير السكر، ومصانع نسيجية، وأخرى لانتاج الأسمدة والورق.

وكثيرًا ما عانى الاقتصاد في زيمبابوي من العقوبات التي كانت تفرضها الدول على النظام العنصري الذي كان قائمًا في البلاد قبل هزيمته النهائية في اوائل ١٩٨٠.

زيمبابوي الرابعة في العالم في إنتاج الأمينت، والخامسة في الكروم، والثانية عشرة في الذهب، والثالثة عشرة في الفضة، والرابعة عشر في الفحم.

في اوائل ١٩٩٤، عوّمت زيمبابوي عملتها وأنشأت سوق عملات أجنبية بدرجتين وخفضت سعر صرف عملتها الرسمية ١٧٪ ما جعل الدولار الاميركي يعادل ٨،٢ دولار زيمبابوي، إضافة إلى أنها اتخذت جملة تدابير اقتصادية ومالية وضعت موضع التنفيذ معظم إصلاحاتها الخاصة بتحرير التجارة التي تضمنتها خطة تعديل البنية الخمسية. وذلك بعد ان كان الاقتصاد يسجل ترديًا كبيرًا على غير صعيد وعلى مدى سنوات الاستقلال.

السياحة قطاع مهم في زيمبابوي، وقوامها الطبيعة وحيواناتها في الدرجة الاولى. واهتمت زيمبابوي بالطبيعة والحفاظ عليها؛ فاقامت المحميات العديدة وأكبرها وأهمها محمية هوانغي (يطلقون عليها «وانكي»). ومن أكثر المناطق المقصودة من السياح متوافرة في ولاية بولاوايو حيث الأماكن التي عاش فيها الانسان الاول في افريقيا والرسومات الحفرية في داخل الكهوف، وشلالات فكتوريا (ارتفاع ١٥٠٠م)، وجسر ليفينغستون الذي يصل إلى حدود زامبيا والذي يمارس الشباب عليه أغرب نوع من الرياضة وهو القفز من الجسر إلى اقرب نقطة في قاع الشلال وسط الجبال. وتنشط الحكومة في وضع خطط لاستقبال نحو مليوني سائح سنويًا.

الجدير ذكره ان البيض (ليسوا أكثر من ١٪ من السكان) لا يزالون يسيطرون على مختلف القطاعات الاقتصادية في البلاد، وخاصة على الارض والزراعة (راجع «أكبر المشكلات أمام الحزب والحكم» في آخر النبذة التاريخية).

نبذة تاريخية

زيمبابوي قديمًا: على بعد ٤٠٠كلم جنوبي سالزبوري (هارار)، وعلى مقربة من قلعة فكتوريا، توجد في منطقة تدعى «زيمبابوي» مجموعة خرائب فريدة من نوعها في افريقيا. وهذه الخرائب تطرح سلسلة أحجيات أثرية وتاريخية يصعب توضيحها، إلا انها تسمح بالاعتقاد بأن هذا الموقع الأثري كان عاصمة مملكة قوية استمرت حتى القرن الخامس عشر قبل ان تندثر بشكل نهائي. واسباب هذا الاندثار ما زالت مجهولة تمامًا. وقد اختارت الحركات الوطنية التي تناضل ضد النظام الروديسي العنصري إطلاق إسم زيمبابوي على نفسها، فكان الاتحاد الوطني الافريقي لزيمبابوي (زانو)، وكان جيش زيمبابوي الشعبي (زيبا). وبعد الانتصار الساحق الذي حققه الوطنيون في الانتخابات النيابية (آخر شباط ١٩٨٠)، ومن ثم تكليف زعيمهم روبرت موغابي تأليف الحكومة، حل إسم زيمبابوي بصورة نهائية محل إسم روديسيا.

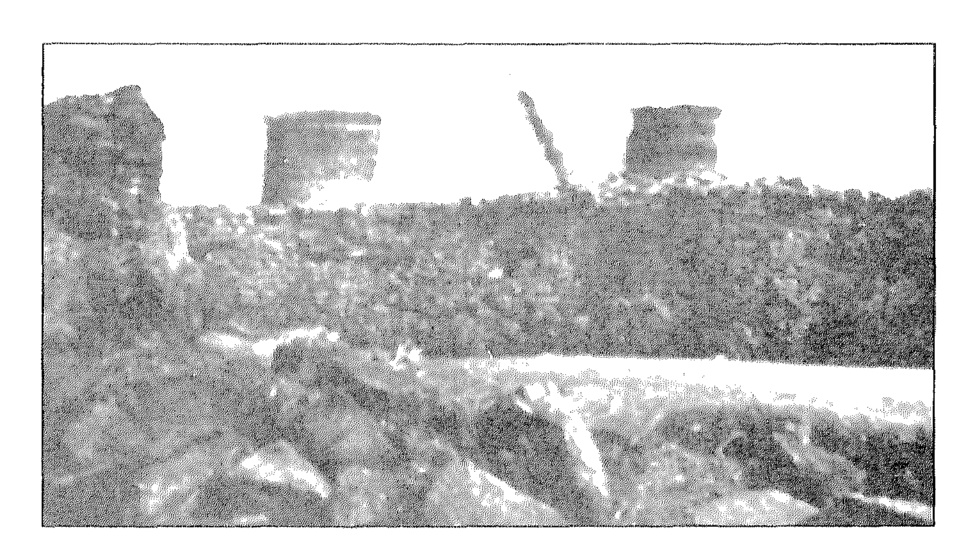
وكلمة زيمبابوي تعني البيت الحجري الكبير، وهو عادة مكان سكن الزعيم. والمنطقة مليئة بمثل هذه الخرائب. إلا ان أهمها في قلعة فكتوريا التي تكوّن، تاريخيًا، «زيمبابوي الكبرى». وقد اكتشف الالماني كارل موخ مدينة زيمبابوي في ١٨٧١ في منطقة غابات غير مأهولة. وفيها سور بيضاوي الشكل وبطول ٢،٥كلم، وبداخله جدر حجرية متهدمة، وبرج مخروطي الشكل. وعلى هضاب قريبة من السور بقايا جدر حجرية يبدو انها كانت تستعمل كمراكز دفاعية. وهذه الجدر الحجرية، الموجودة خاصة داخل السور، مصنوعة من الحجر الغرانيتي. وهي الوحيدة من نوعها، وعلى هذه الدرجة من الأهمية، في افريقيا السوداء. وهناك من يفترض أن بناة هذه المدينة هم إما العرب، وإما شعب مجهول قدم من الشمال.

إلا أن المرجح ان زيمبابوي هي من عمل السود، وقد مثلت في مرحلة تاريخية معينة، إحدى حضاراتهم القديمة، وقد كانت لهم علاقات وطيدة مع العرب والصينيين، خاصة في ذروة نشاط هؤلاء على امتداد اطراف المحيط الهندي.

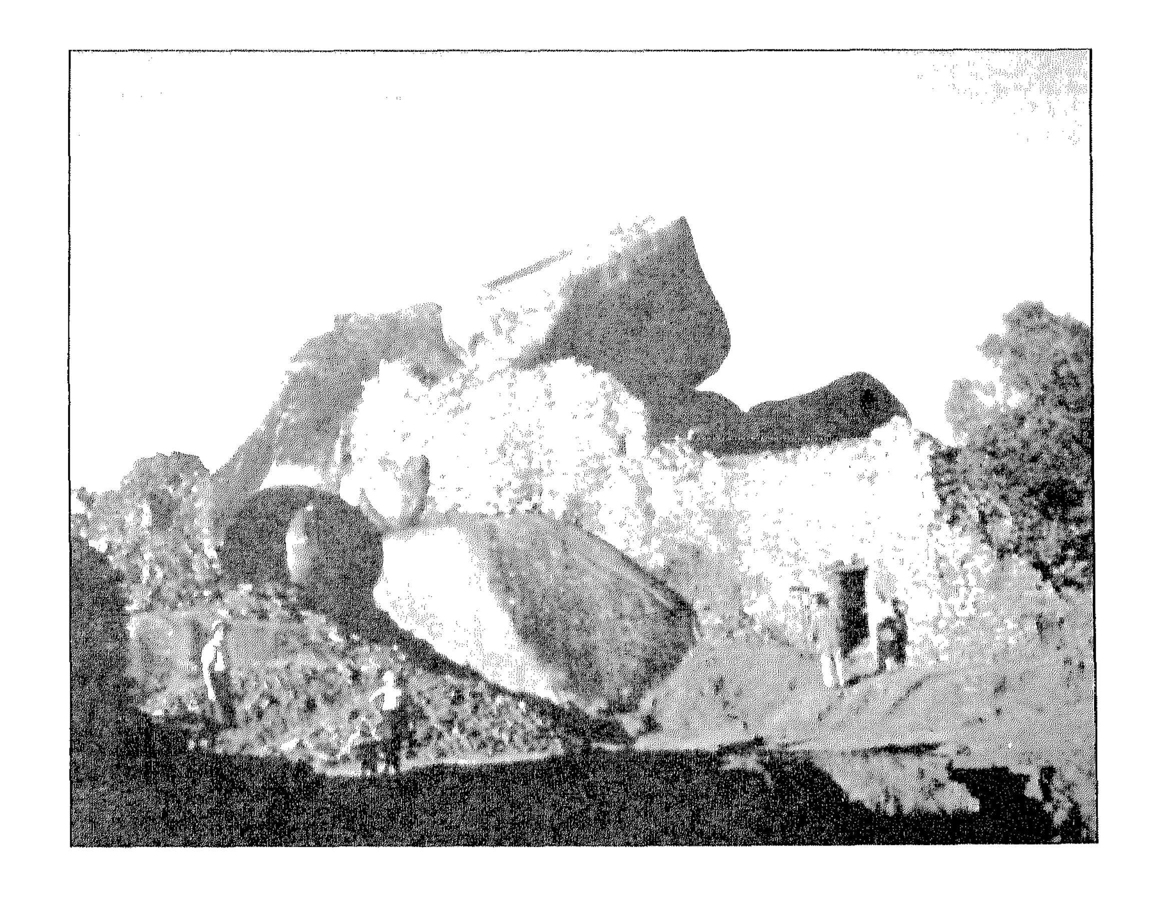
ويعود النشاط المنجمي في المنطقة إلى أقدم الأزمنة (ذهب، نحاس، قصدير). وهذا ما يفسر ثراء المملكة القديمة» («موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص٧٥).

«منذ نحو ١٠ آلاف سنة ق.م. سكنت المنطقة شعوب تدعى «البوشمان» Buchmen آتية من صحراء كالاهاري. ثم جاء البانتو Banthou من جنوبي السودان ومن حوض نهر الكونغو (نهر زائير) وطردوا البوشمان باتجاه الصحراء» (الكتاب السنوي الفرنسي «كيد»، ١٩٩٤، ص١١٨٨).

حديثًا: إن أشهر مجموعات البانتو تلك المعروفة باسم قبيلة «روزي» والتي



خرائب مدينة زيمبابوي التاريخية التي يعتقد ان قبائل البانتو بنتها في القرن السابع.



تشتهر ببأسها في الحرب، وقد أتت من منطقة منجمية أخرى إسمها اليوم شابا (كاتنغا سابقًا)، واجتاحت اراضي زيمبابوي، وأسست في اواسط القرن الخامس عشر مملكة مونوموتابا التي دامت نحو مائتي سنة على الرغم من انفصال مجموعات قبائل روزي في جنوبي البلاد بعد خمسين سنة من قيامها (مملكة مونوموتابا، أي «سيّد المناجم»). وقد ذكرت هذه المملكة على خرائط القارة الافريقية وتركت أثرًا في ذهن الاوروبي (أتى الشاعر الفرنسي لافونتين على ذكرها في إحدى أعماله).

وقبل قليل من حلول عام ١٧٠٠، توصلت قبائل روزي من إطاحة مملكة مونوموتابا، واقامت مملكة دامت نحو قرن كامل.

وقدم البرتغاليون، وكانوا أول من غامر بدخول المنطقة، وتدخلوا في النزاعات القبلية، وانتهى الامر بهم إلى تنصيب أحد أحفاد مونوموتابا ملكًا على المدينة (زيمبابوي)، وازدادت حملاتهم في التفتيش عن الذهب. وقضي على الباقين من مملكة روزي في زيمبابوي أثناء حملة الزعيم زولو زونغادابا، التي بدأت في ١٨٣٤ منطلقة من منطقة ناتال (في جنوب افريقيا) ومتجهة نحو الشمال في مسيرة بلغت ٣ آلاف كلم. وقد وضعت هذه الغزوة نهاية لمدينة زيمبابوي (حيث الخرائب).

البريطانيون: قبيل ١٨٩٠، كانت البلاد (زيمبابوي) خاضعة للملك لو-بنغيلا ملك قبائل ماتابيلي التي أتت من الجنوب وأخضعت البلاد واتخذت من بولاوايو عاصمة لها. وفي هذا الوقت كان الاستعماري البريطاني سيسيل رودس يحلم بفرض السيطرة البريطانية من «الرأس (الكاب) حتى القاهرة»، فكان عليه إذًا ان يمر بمملكة الماتابيلي. وتوصل عملاؤه، في ١٨٨٨، من الحصول على حق استثمار المناجم في المنطقة من الملك لو-بنغيلا. وأنشأ رودس شركة جنوب افريقيا البريطانية. وأطلق، في ١٨٩٠، موكبًا من ١١٧ عربة تجرها الابقار وتحمل ٥٠٠ رجل مسلح لحماية ١٨٠ مستوطنًا. وكانت نقطة الانطلاق جنوب افريقيا، واجتاز الموكب المناطق التي تشكل اليوم زيمبابوي خلال شهر حزيران من السنة نفسها (١٨٩٠).

واندلعت الحرب بين قبائل البانتو وبين المستوطنين في ١٨٩٣، ثم في ١٨٩٦. وكان المستوطنون يزيدون من عددهم وعدتهم يومًا بعد يوم. وتوصلوا في الحربين إلى سحق مملكة الماتابيلي وإخضاع سكانها، وبدأ مسلسل العنف العنصري، ولم ينته إلا بقيام دولة زيمبابوي المستقلة في ١٩٨٠.

في ١٨٩٣، أطلقت شركة جنوب افريقيا البريطانية إسم «روديسيا» (على إسم سيسيل رودس) على مناطق ماكونالند وماتابيلي (زامبيا، وزيمبابوي). ثم بعد سنوات، أصبح إسم البلاد روديسيا الجنوبية (زيمبابوي) لتمييزها عن روديسيا الشمالية (زامبيا) الواقعة على الضفة الأخرى من نهر زامبيز.

حكمت الشركة البريطانية روديسيا الجنوبية حتى ١٩٢٣. ومنذ ١٩٢٢، أخذ

البيض يعلنون عن رغبتهم في الحصول على الحكم الذاتي من بريطانيا. فانتخبوا مجلسًا تشريعيًا، وشكلوا حكومة وعينوا رئيسًا لها، وبدأت روديسيا الجنوبية تكون مستعمرة بريطانية.

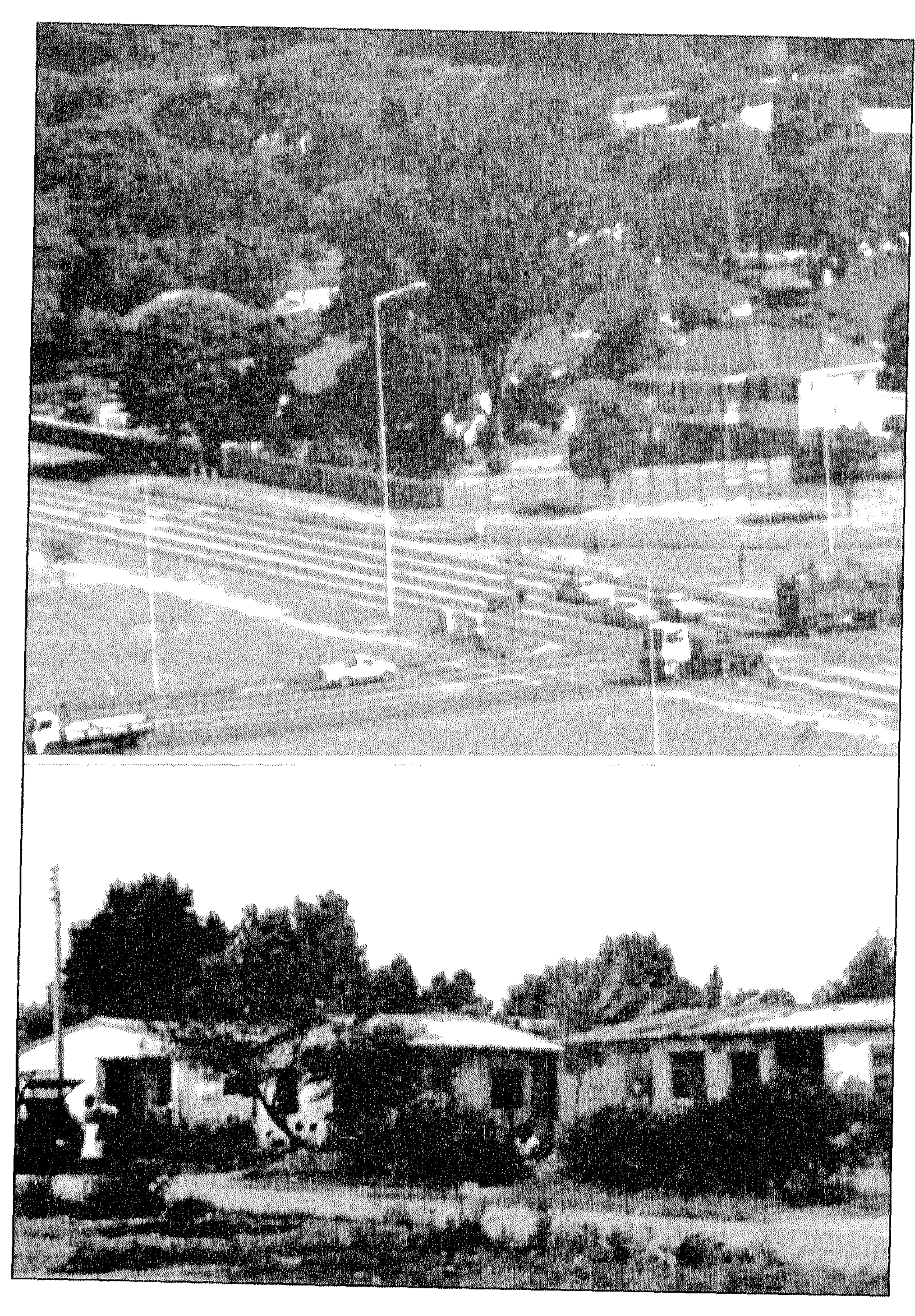
مع بزوغ فجر استقلال البلدان الافريقية، عملت بريطانيا (١٩٥٣) على إقامة اتحاد فدرالي يضم روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية ونياسلاند. إلا ان رفض السود لهذا الاتحاد، وقد أخذ هذا الرفض يأخذ شكل الانتفاضات القومية، قضى على هذا الاتحاد في ١٩٦٣.

وعندما حل الاتحاد، نالت روديسيا الشمالية استقلالها واتخذت إسم زامبيا، وكذلك نياسلاند التي اتخذت إسم مالاوي. أما روديسيا الجنوبية (زيمبابوي)، فقد رفضت بريطانيا منحها الاستقلال طالما انها لم تحصل من البيض (الذين كانوا يتحكمون بمقدرات البلاد) على وعد بأنهم سيعملون على إقامة مؤسسات ديمقراطية وإلغاء النظام العنصري. وقد شارك المجتمع الدولي، بحكوماته وشعوبه، بريطانيا في هذا الموقف.

النظام العنصري الروديسي: لم يستطع السود في روديسيا، ولا المعتدلون من البيض، اسماع صوتهم امام هجمة النظام العنصري وتعنته، وقد تمثل اساسًا في حزب «الدومينيون»، ثم في «الجبهة الروديسية» التي تزعمها رئيس الوزراء إيان سميث الذي أخذ على عاتقه الدفاع عن امتيازات البيض حتى النهاية. وعندما تراجع رئيس الوزراء العمالي البريطاني، هارولد ولسون، عن استعمال القوة في روديسيا (زيمبابوي)، أعلن البيض استقلال روديسيا من جانب واحد في ١١ تشرين الثاني ١٩٦٥ متحدين بذلك مشاعر الاكثرية السوداء في الداخل والخارج. ورفضت بريطانيا هذا الاستقلال واعتبرته غير شرعي. ومع مرور الوقت، كان وضع البيض يزداد عزلة في المجتمع الدولي، إذا لم تستطع اية دولة الاعلان عن أي دعم تقدمه لنظام إيان سميث العنصري (كان الدخل السنوي للفرد الابيض ٦٧٤٥ دولارًا، وللفرد الاسود ١٣٥ دولارًا، في حين كان هناك ٢٧٨ ألف أبيض، و٦،١١٠ مليون أسود).

وحاول هارولد ولسون، عبثًا، ان يفاوض إيان سميث، وقرر مجلس الامن الدولي فرض حظر تجاري على روديسيا. ولم ينجح المحافظون البريطانيون الذين عادوا إلى السلطة، بعد ولسون، حلّ المشكلة الروديسية، إذ لم تستطع التسوية التي توصل إليها السير ألك دوغلاس هيوم وإيان سميث ان تدوم طويلاً. وكذلك كان الفشل من نصيب لجنة بيرس التي كلفت الاتصال بالسود (١٩٧١)، ووقعت احداث دامية، واصدر نظام سميث دستورًا جديدًا، وأعلن الجمهورية في ٢ آذار ١٩٧٠.

نضال القوميين السود: كان القوميون السود قد بدأوا ينظمون صفوفهم ابتداء من الخمسينات. فتوصلوا، في ١٩٦١، إلى إنشاء «الاتحاد الشعبي الافريقي في زيمبابوي» (زابو ZAPU) بزعامة جوزوا نكومو. وقد منع هذا الحزب من العمل في



من أحياء ضاحية العاصمة: فوق، حي للبيض؛ تحت، حي للسود.

١٩٦٢، وسجن زعيمه و لم يخل سبيله إلا في كانون الاول ١٩٧٤؛ وتابع الحزب نشاطه بشكل سري. وفي ١٩٦٣، انفصل عنه سيتولي وأسس «الاتحاد الوطني الافريقي في زيمبابوي» (زانو ZANU) الذي منع من العمل في السنة التالية، وأمضى سيتولي عشر سنوات في السجن. وفي ١٩٧١، أسس الاسقف آبل موزوريوا «المجلس الوطني الافريقي» (أنك ANC)، وهو تنظيم ضم المحافظين والمعتدلين من السود.

ومع انهيار سلطة البرتغال في موزمبيق، طرأت تغييرات كثيرة على الموقف. ففي كانون الاول ١٩٧٤، أفرج عن نكومو وسيتولي. وجرت محاولة للاتحاد بين حركات التحرير، إلا أنها سرعان ما عادت وتباعدت من جديد. وفي ١٩٧٧، كان هناك تياران كبيران: الجبهة الوطنية المؤلفة من تنظيم نكومو وروبرت موغابي، والمجلس الوطني الافريقي، المحافظ. واضطر إيان سميث، تحت الضغوط الاميركية والبريطانية، إلى التفاوض للقبول بحكم الاغلبية، إلا انه زاد من مناوراته التسويفية، خاصة بعد فشل مؤتمر جنيف في تشرين الاول ١٩٧٦ الذي جمع القوميين وممثلين عن الحكومة الروديسية. أما بلدان «خط الجبهة» (تنزانيا، زامبيا، بوتسوانا، موزمبيق، أنغولا) فكانت تقدم الدعم للقوميين الراديكاليين. وعلى الرغم من ان العقوبات الدولية لم تكن تطبق بشكل دقيق على روديسيا، إلا ان الخناق ضاق على عنق نظام سميث، فأصبح تابعًا كليًا لجنوب افريقيا.

كان للاتحاد الشعبي الافريقي في زيمبابوي (زابو) الذي تزعمه نكومو قواعد خلفية في زامبيا وأنغولا، وحظي بتأييد الاتحاد السوفياتي ودعم زامبيا، واعتبر ممثلاً،

لجنة بيرس (من الكليز واعضاء في الكومنولث وبعض الشخصيات الروديسية) عملت طيلة كانون الثاني ١٩٧٢ واصطدمت برفض قاطع من السكان السود للاتفاقيات المعقودة بين الحكومة البريطانية وايان سميث.



إلى حد ما، للبورجوازية الوطنية الافريقية في زيمبابوي، في حين اعتبر مؤيدو روبرت موغابي من دعاة القومية السوداء، وماركسيون، يطالبون بانتقال السلطات السياسية والاقتصادية إلى السود.

وإذا كانت الخلافات الداخلية داخل الجبهة عميقة، فإن تعنت الاقلية البيضاء قد أجبر طرفي الجبهة على لجم خلافاتهما وإنقاذ وحدتهما وزيادة عملياتهما العسكرية.

خطة بريطانية–اميركية ومعاهدة داخلية وانتخابات: وأمام تفاقم الوضع، وضعت، في ١٩٧٧، خطة بريطانية–اميركية تعترف بضرورة نقل السلطة إلى الأغلبية السوداء ولكن تحت الوصاية الدولية، والعمل على إنشاء صندوق دولي يهدف إلى التعويض على المستعمرين البيض، وفي الوقت نفسه، تأمين نوع من السيطرة الاقتصادية لهم على الدولة المقبلة المستقلة. وبقي الخوف كبيرًا من فشل هذه الخطة بفعل تنامي الوعي الطبقي والوطني بين السود. فاستمر العمل لدى نظام إيان سميث (وكذلك لدى الغربيين) على إبقاء باب التأجيل مشرعًا. وجرت، في ١٩٧٨، عدة انتخابات بين الاقلية البيضاء من خلال عملية سياسية اشترك فيها بعض الزعماء السود المعتدلين (الاسقف موزوريوا، والراعي سيتولي، وشيرو)، واسفرت عن توقيع «معاهدة داخلية» في ٣ آذار ١٩٧٨ تشرك السود في السلطة إشراكًا محدودًا. كما جرت عدة محاولات قام بها إيان سميث باتجاه نكومو أملاً في تفكيك الجبهة الوطنية. وبخط مواز للخط الداخلي كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تدعوان لعقد مؤتمر يضم الاطراف المعنية كافة ويحقق لهما الحد الأدنى من الخسائر في مصالحهما، وذلك بعد ان شعرت الدولتان ان الانهيار الكامل لنظام إيان سميث (وصل معدل هجرة البيض إلى ألف شخص شهريًا في ١٩٧٨ تحت تأثير تنامي العمليات العسكرية للجبهة الوطنية) من شأنه ان يخلق مضاعفات خطيرة في ا لمنطقة تأتي لغير مصلحتهما.

وفي نيسان ١٩٧٩، جرت انتخابات عامة عارضتها الجبهة الوطنية، وفاز باصوات السود فيها تنظيم آبل موزوريوا (المجلس الوطني الافريقي) إذ نال ٥١ مقعدًا من أصل ٧٢ مخصصة للسود في المجلس النيابي؛ وفاز الاتحاد الوطني الافريقي في زيمبابوي (زانو) بـ١٢ مقعدًا؛ وحصل تنظيم ندويني على مقعدين فقط. أما البيض فقد خصص لهم ٢٨ مقعدًا لتسعين ألف ناخب ابيض، واحتفظ البيض بالوظائف الاساسية في حكومة موزوريوا. ونظرًا لأن هذه الانتخابات جرت في جو من التهديد والترهيب، فقد اتخذ مجلس الامن الدولي قرارًا بادانتها واعتبارها كأنها لم تحدث أصلاً (أغلبية اصوات مجلس الامن، تغيب الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وبريطانيا). وعلى الأثر، قام سميث بحملة دبلوماسية في العواصم الاوروبية للحصول على موقع أفضل له في الحقل الخارجي مستفيدًا من نجاح حكومة المحافظين برئاسة السيدة تاتشر في بريطانيا، ومن اقتراع جرى

في مجلس الشيوخ الاميركي في ١٥ ايار ١٩٧٩ ونال ٧٥ صوتًا ضد ١٩ حول تصريح يؤكد ان الانتخابات في روديسيا كانت «حرة».

مؤتمر لندن: في ١٠ ايلول ١٩٧٩، عقد في لندن مؤتمر ضم الحكومة البريطانية والحكومة العنصرية في روديسيا والجبهة الوطنية لتحرير زيمبابوي، استمرت اعماله حتى ٢٠ كانون الاول ١٩٧٩، عندما توصل اطراف النزاع في روديسيا (زيمبابوي)، بحضور رئيسة الوزراء في بريطانيا مارغريت تاتشر، إلى اتفاق تقرر بنتيجته وقف اطلاق النار، بأمل ان يؤدي ذلك إلى إنهاء الحرب العنصرية التي استمرت أكثر من سبع سنوات وكلفت أكثر من عشرين ألف قتيل أغلبيتهم الساحقة من السود. وقد وقع هذا الاتفاق وزير الخارجية البريطانية اللورد كارنغتون، ورئيس وزراء روديسيا موزوريوا، وزعيما الجبهة الوطنية جوشوا نكومو وروبرت موغابي.

تم الاتفاق في مؤتمر لندن على إلغاء اعلان الاستقلال من جانب واحد الذي كان إيان سميث قد أعلنه في ١٩٦٥، وبالتالي إعادة السيادة البريطانية على زيمبابوي لفترة انتقالية قصيرة تنتهي في آذار ١٩٨٠ حيث تجري انتخابات عامة في البلاد باشراف هيئة دولية تنتقل السلطة على اثرها إلى الاكثرية السوداء، وبعد ذلك تقوم الحكومة البريطانية بمنح آخر مستعمراتها في افريقيا الاستقلال بصورة رسمية. كما يُعمل على وضع دستور جديد يتيح للبلاد الانضمام إلى الامم المتحدة التي اتخذت قرارًا بمقاطعتها سياسيًا واقتصاديًا منذ ١٩٦٦ احتجاجًا على النظام العنصري القائم فيها.

وفور انتهاء اعمال مؤتمر لندن، وبموجبه، سارعت الحكومة البريطانية إلى تعيين اللورد سومز حاكمًا مؤقتًا على «روديسيا الجنوبية» (زيمبابوي)، كما بوشر بارسال قوة عسكرية من دول الكومنولث مؤلفة من ١٢٠٠ عنصر، بينهم ٩٠٠ جندي بريطاني، للاشراف على تنفيذ وقف اطلاق النار.

و لم تمض اسابيع قليلة على انتهاء اعمال مؤتمر لندن (غي لانكستر هاوس) حتى بدأ المجتمع الدولي يثير تساؤلات حول مصداقية نوايا بريطانيا في معالجتها للمهمات المتفق عليها في المؤتمر. ففي ٢ شباط ١٩٨٠ أصدر مجلس الامن الدولي قرارًا بأغلبية ١٤ صوتًا ضد لا شيء، ينتقد معالجة بريطانيا لانتقال الحكم في روديسيا (زيمبابوي) إلى الأغلبية السوداء. وفي النصف الاول من الشهر ذاته جرت محاولتان لاغتيال زعيم الجبهة الوطنية روبرت موغابي، في حين اتهمت اثيوبيا بريطانيا بمنعه من السفر لحضور اجتماع مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية الذي يناقش الشكاوى الافريقية بصدد انتهاك بريطانيا لاتفاقات لانكستر هاوس (مؤتمر لندن). وطالب بيان صادر عن المنظمة بانسحاب قوات جنوب افريقيا والمرتزقة الآخرين فورًا من زيمبابوي، وتقديم كل مساعدة مادية إلى الجبهة الوطنية.



جوشوا نكومو زعيم «زابو».

الاستقلال: وبدا ان هذه الضغوط والجهود قد أوتيت ثمارها، وجرت الانتخابات المقررة (في آخر شباط ١٩٨٠ بموجب مؤتمر لندن) في حينها، واسفرت عن انتصار ساحق للجبهة الوطنية بزعامة روبرت موغابي، وعن نهاية النظام العنصري الروديسي، وبدء نظام حكم الاغلبية السوداء، وقيام زيمبابوي المستقلة.

وقد وعد روبرت موغابي، فور تكليفه تأليف الحكومة، بانتهاج سياسة الحياد الايجابي (وكانت هذه العبارة «الحياد الايجابي» لا تزال مستعملة، وقد بدأ بها مؤتمر باندونغ) دوليًا وسياسة رصينة تقضي على مخلفات الحرب ا لعنصرية (التي أودت منذ ١٩٧٢ إلى ٣٠ تشرين ا لثاني ١٩٧٩ بحياة ٣٠ ألف شخص، منهم نحو ٥٠٠ من البيض، وبموجات من المهجرين واللاجئين إلى موزمبيق) وتفضي إلى إنماء البلاد داخليًا. وقد طلب من الحاكم البريطاني المؤقت اللورد سومز ببدء الاجراءات لانضمام دولة زيمبابوي المستقلة إلى الكومنولث.

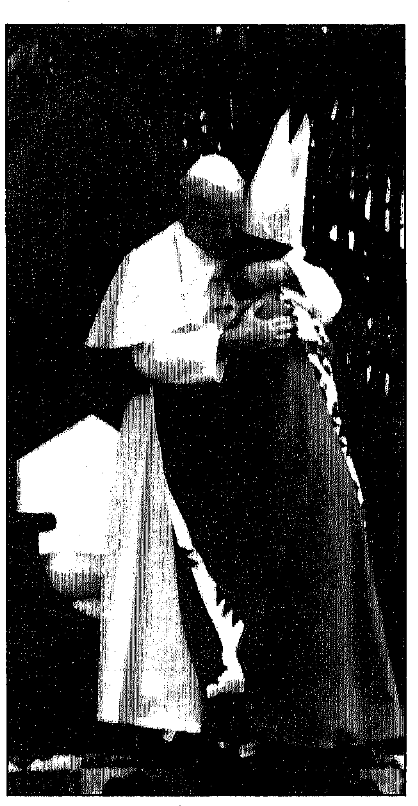
عند الساعة صفر من ١٧-١٨ نيسان ١٩٨٠، ارتفع علم زيمبابوي المستقلة معلنًا انتهاء ٩٢ عامًا من الاستعمار وسبع سنوات من الحرب العنصرية، بحضور ممثلين عن حوالي مائة دولة، بينهم الامير تشارلز ولي العهد البريطاني، وأنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند، وضياء الحق رئيس باكستان، وهوانغ هوا وزير خارجية الصين، وكورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة، وأندريو يونغ مندوب الولايات المتحدة السابق في الامم المتحدة، ووفد سوفياتي متوسط المستوى. وجاء في خطاب موغابي في المناسبة: «إذا كنتم قد كرهتمونا

(موجهًا كلامه للروديسيين البيض) في الامس، فإننا لا نستطيع تفادي ان يحب بعضنا البعض الآخر... وليس من الصحيح القول (موجهًا كلامه للسود) ان على السود اضطهاد البيض اليوم لأن البيض اضطهدوهم في الماضي».

وكان قد جرى اعتماد إسم «زيمبابوي» بدلاً من روديسيا، وأصبح إسم العاصمة هارار بدلاً من سالزبوري. وأول رئيس للدولة هو كنان بانانا، ورئيس الحكومة (السلطة الفعلية) روبرت موغابي، ورئيس هيئة اركان الجيش رجل أبيض هو الجنرال بيتر وولز.

كرونولوجيا احداث العقدين الاخيرين: في تموز ١٩٨٠، استقال الجنرال وولز ومعه ٦٠٪ من الضباط البيض على أثر إعلان فضيحة مفادها انه كان قد طلب من رئيس الحكومة البريطانية إلغاء نتائج انتخابات شباط ١٩٨٠ التي اسفرت عن فوز الجبهة الوطنية. وبعد اسابيع من استقالته طلب منه موغابي مغادرة البلاد. وفي اواخر آب ١٩٨٠، زار موغابي الولايات المتحدة واستقبله رئيسها جيمي كارتر. وفي ايلول ١٩٨٠، قطع موغابي العلاقات مع جمهورية جنوب افريقيا.

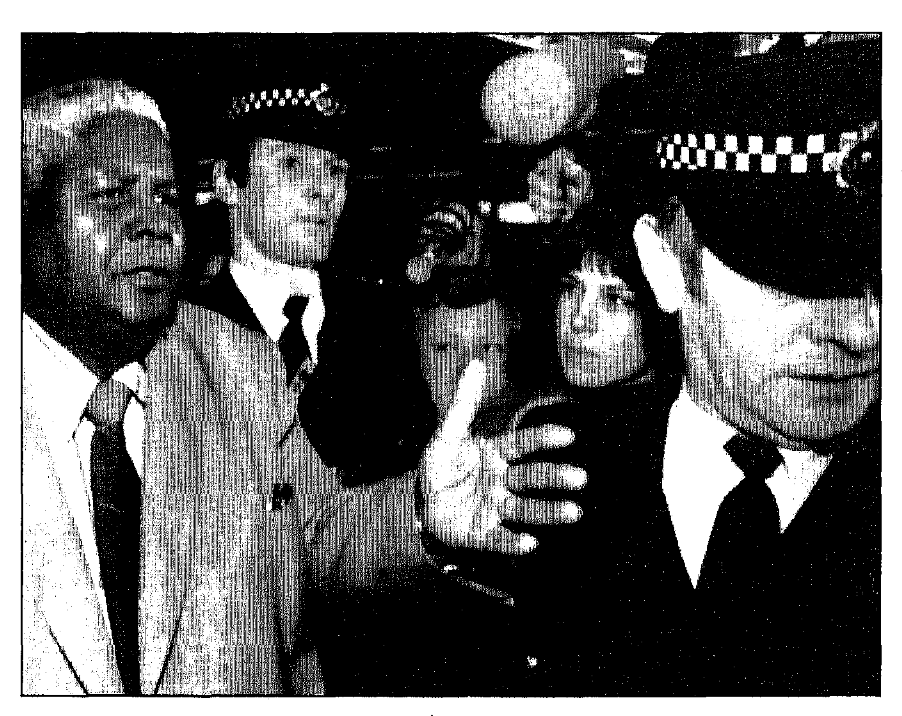
في الاشهر الاولى من ١٩٨١، عاد الخلاف متفاقمًا بين موغابي ونكومو (زعيم الجبهة الوطنية)، ما أدّى إلى تعديلات وزارية ومظاهرات قام بها انصار جوشوا نكومو، ومجابهات مسلحة تسببت في مقتل نحو ٣٠٠ شخص. وبين ٢٣ و٢٧ آذار



البابا يوحنا بولس الثاني معانقاً اسقف كينشاسا خلال زيارته للبلاد في ايار ١٩٨٠.

١٩٨١، عقد «مؤتمر إعادة بناء زيمبابوي وإنمائها» في العاصمة، حضره مندوبو نحو خمسين بلدًا، فضلاً عن بعض المنظمات الدولية كالأوبك والبنك الدولي؛ وبنتيجته حصلت زيمبابوي على مساعدة بنحو ١،٨ مليار دولار تستثمرها بأغلبها في القطاع الزراعي. وعلى رأس الدول التي قدمت المساعدة: الولايات المتحدة، بريطانيا، ألمانيا الغربية، السويد، المجموعة الاوروبية والصندوق الكويتي. ولم تساهم الدول الشيوعية بهذه المساعدة باستثناء يوغوسلافيا (٤ ملايين دولار).

في ايار ١٩٨٢، قام موغابي باول

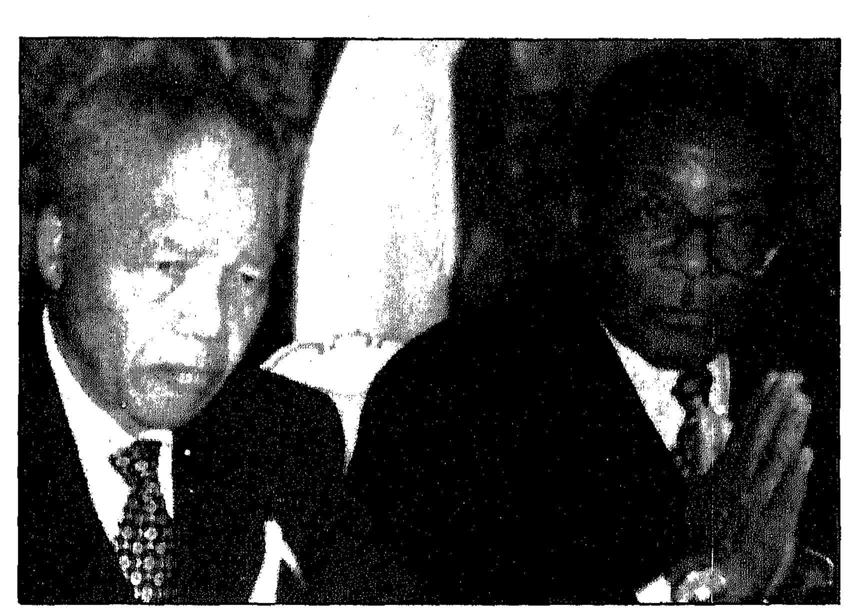


وصول جوشوا نكومو الى لندن (آذار ١٩٨٣)، وكان زعيماً للمعارضة واتهم رئيس حكومة بلاده بمحاولة اغتياله.

زيارة لـه منـذ الاسـتقلال إلى بريطانيا؛ وفي الشهر ذاته زار فرنسا. وبحث في لندن، كما في باريس، مسائل تتعلـق بالنظـام العنصـري في جنوب افريقيا، ومشكلة استقلال ناميبيا، فضلاً عـن سـبل دعـم زيمبـابوي. وفي آخـر تمـوز ١٩٨٢، اتهـم موغـابي حـزب زابـو المعارض (يتزعمه نكومـو) بخطـف وقتـل ٣ سياح أجانب. وفي شـباط ١٩٨٣، احتجـز نكومـو سـاعات عـدة للضغـط عليـه لعـدم مغادرة البلاد وحضور مؤتمر في بـراغ تقـرر عقده في اواخر الشهر. وبعـد اعمـال عنـف ذهب ضحيتها المئـات في غربـي البـلاد، فـرّ نكومـو إلى بوتسـوانا ومنهـا إلى لنـدن (١٣ آذار ١٩٨٣)، ثم ما لبث ان عاد إلى هـارار في ١٦ آب ١٩٨٣. في ٣١ تشـرين الاول ١٩٨٣، جـرى اعتقـال رئيـس الـوزراء السابق موزوريوا، ولم يتـم الافـراج عنـه إلا في ٤ ايلول ١٩٨٤.

عـرف العـام ١٩٨٥ اضطرابـات عنصريـة وسياسـية متفرقـة في منـاطق الماتـابيليلند. في ٢٢ تشـرين الاول ١٩٨٦، اندلعت مظاهرات معادية للبيض في هـارار. في ٢ نيسـان ١٩٨٧، علقـت عضويـة إيـان سميـث في البرلمـان لمـدة عـام واحـد. في ٢٦ تشرين الثـاني ١٩٨٧، قتـل ١٦ ابيـض و٤ سـود. في ٢٢ كـانون الاول ١٩٨٧، وقّـع الحزبـان زانـو وزابـو ميثاقـا يجعلهمـا حزبًـا واحدًا (برئاسة موغـابي، وجوشـوا نكومـو نائب الرئيس).

في ١١ ايلـول ١٩٨٨، زار البابـا يوحنا بولس الثاني زيمبابوي. في ١٩ كانون الاول ١٩٨٩، تم تشـكيل حـزب زانـو-



روبرت موغابي (الى يمين الصورة) ونلسون مانديلا خلال مؤتمرهما الصحافي (٢٠ آب ١٩٩٤).

الجبهة الوطنية (دمج زانو وزابو) وانتخب موغابي رئيسًا له. في ٢٨-٣٠ آذار ١٩٩٠، جرت انتخابات عامة فاز بها حزب زانو-الجبهة الوطنية، وانتخب موغابي رئيسًا للجمهورية، وكانت هذه أول عملية انتخابية رئاسية تتم بالاقتراع العام والشامل، وأول انتخابات برلمانية (المجلس الموحد) تتم على قاعدة غير عنصرية. وفي ٢٥ تموز ١٩٩٠، صدر قرار برفع حال الطوارىء عن البلاد، وكانت هذه الحال نافذة منذ ٢٥ عامًا.

في ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٢، عاد سيتولي (أحد مؤسسي زانو-الجبهة الوطنية) بعد ثمانية اعوام من النفي. في ٢٧ كانون الثاني ١٩٩٢، ماتت سالي موغابي (مولودة ١٩٣٣) زوجة الرئيس والمعروفة بـ«أم الامة». في ١٩ آذار ١٩٩٢، تمّ تأميم أكثر من ٥٠٪ من الاراضي، وفي الشهر التالي ضربت موجة من الجفاف البلاد وتسببت في مجاعة طالت نحو ٤،٦ مليون شخص.

في ايار ١٩٩٣، وضع مشروع لتأميم ٧٠ مشروعًا زراعيًا يملكها البيض وتطال نحو ١٩٠ ألف هكتار.

عرف شباط ١٩٩٤ قضية استرداد اثيوبيا لزعيمها السابق منغيستو هيلا مريام الذي كانت زيمبابوي قد منحته حق اللجوء السياسي بعد ان اطاحه الثوار في ١٩٩١. واثيرت قضية استرداده بعد تصريح، وصفته الحكومة الزيمبابوية بأنه ينتهك شروط منحه حق ا للجوء، إذ قال إن سلطات أديس أبابا قتلت واعتقلت نحو ١٠٠ ألف جندي عملوا أثناء حكمه. وطلب استرداد منغيستو لمحاكمته قدمته اثيوبيا رسميًا للسلطات في زيمبابوي، ولكن «لم يعرف بعد متى سيأتي الرد».

وعرف آب ١٩٩٤ اربعة مواقف اساسية للسلطات الزيمبابوية (إزاء السودان والصومال والاسلام في افريقيا والامبريالية

المالية):.

١- نفي السلطات (على لسان وزير الخارجية) تقارير افادت ان زيمبابوي قدمت أسلحة لـ«التيار الرئيسي في الحركة الشعبية لتحرير السودان» بقيادة العقيد جون قرنق لمواصلة التمرد في جنوبي السودان، ذلك ان حكومة زيمبابوي «ناشطة في بذل مساع دبلوماسية لانهاء الحرب في جنوبي السودان، و لم تقدم أسلحة إلى الحركة الشعبية و لم تتح لها تسهيلات للتدرب في اراضيها».

٢- وإزاء أزمة الصومال، ناشد موغابي الاطراف الصومالية والمجتمع الدولي إيجاد حل سريع للازمة، وقال: «يجب ان يكون واضحًا انه ليست لدينا رغبة في الابقاء على قواتنا منتشرة في الصومال إلى ما لا نهاية. وانا متأكد من ان دولاً أخرى لديها قوات في هذا البلد لديها الشعور نفسه». والجنود الزيمبابويون في الصومال كانوا يعملون في إطار عملية «يونوصوم-٢».

٣- أثناء زيارة لجنوب افريقيا، اتهم موغابي الاصوليين الاسلاميين بإثارة المتاعب في عدد من البلدان، وأكد ان لا مكان لهم في افريقيا، وقال: «لم أتحدث مطلقًا ضد الاسلام كإسلام، وإنما ضد الاصولية. يجب ان تكون هناك حرية دينية وليس للمرء ان يفرض ارادته الدينية على من لا يريدون... نتلقى تقارير من بلدان أخرى في افريقيا حيث يتحدثون عن هذا الخطر ويتخذون خطوات للحيلولة دون اهتزاز الاستقرار بفعل العنصر الاصولي الاسلامي... لا نريد أي اضطرابات في منطقتنا من أي مصدر، سواء كان دينيًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا. نريد استقرارًا في بلادنا».

٤- وأثناء الزيارة ذاتها (وكان موغابي أول زعيم افريقي يقوم بزيارة رسمية لجنوب افريقيا منذ انتهاء سياسة التمييز العنصري فيها)، شن موغابي هجومًا عنيفًا على البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وقال: «إن عالمنا النامي يئن تحت وطأة الامبريالية المالية لهاتين المؤسستين».

في ايلول ١٩٩٤، عقد حزب «الاتحاد الوطني الافريقي الزيمبابوي (زانو)- الجبهة الوطنية»، الذي يتزعمه الرئيس موغابي، مؤتمرًا تنظيميًا هو الثاني للحزب، وقال فيه موغابي امام حشد من ٧٧٠٠ شخص من اعضاء حزبه: «ستبقى الاشتراكية بوصلة حزبنا وحكومتنا، مهما اعتمدنا على بعض المبادىء الاقتصادية الليبرالية، ولجأنا إلى تكييف اقتصادنا الوطني على حاجة السوق بدلاً من المبادىء الايديولوجية (...) لقد آن الاوان لاعادة تحديد مفهوم الاشتراكية بصورة منطقية وعملية، ومتجانسة مع ثقافتنا، وتجاربنا التاريخية، آخذين في الاعتبار التحولات التي شهدتها الخريطة الدولية في السنوات الأخيرة، ومن دون إغفال آمال واحلام شعبنا».

في نيسان ١٩٩٥، جرت انتخابات نيابية وطّدت اقدام الرئيس روبرت موغابي في الحكم ثماني سنوات أخرى، و لم تجدِ مناشدة ثمانية احزاب من المعارضة الجماهير مقاطعة هذه الانتخابات. وهذه هي المرة

الرابعة التي يتوجه فيها الناخبون إلى صناديق الاقتراع منذ استقلال البلاد في نيسان ١٩٨٠ لانتخاب ١٥٠ برلمانيًا.

أكبر المشكلات امام الحزب والحكم: هي المشكلة المتعلقة بالارض وملكيتها وبالزراعة والسيطرة عليها.

على مدى سنوات الاستقلال سجل الاقتصاد الزيمبابوي ترديًا ملحوظًا على غير صعيد. فبعد مرور عقد على الاستقلال فقد الدولار الزيمبابوي ٥٠٪ من قيمته مقابل الدولار الاميركي، وترتبت على ذلك عواقب وخيمة، منها تفاقم البطالة التي طاولت نحو ٤٤٪ من اليد العاملة. وتعود هذه الازمة، التي لا تزال قائمة إلى حد كبير (ربيع ١٩٩٧) إلى عدم تطبيق الحزب الحاكم شعار «الارض للجميع» الذي رفعه إبان حرب التحرير.

فبعد مرور عقد ونصف العقد على الاستقلال يلاحظ لغاية الآن بأن البيض، الذين لا يتجاوز عددهم المئة ألف، أي ما يوازي ١٪ من مجمل السكان، يسيطرون كليًا على الحياة الاقتصادية. وما يبرهن على ذلك احتكار ٤٥٠٠ مزارع أبيض ٣٠٪ من مساحة البلاد الزاخرة بالخيرات الطبيعية، ويديرون ٧٠٪ من اراضي الدولة، ويشرفون مباشرة على القطاع الخاص الذي يتولى ٨٠٪ من صادرات زيمبابوي، ولا سيما التبغ. ويذكر ان زيمبابوي تحتل دوليًا المرتبة الثانية في تصدير التبغ، وتقدر عائداتها بنحو ٥٠٠ مليون دولار سنويًا. لهذا السبب يلاحظ ان الرئيس موغابي يشجع على التدخين، ويهاجم اعلانات منظمات الصحة الدولية حول أضرار التدخين، مع انه لا يدخن.

إن مسألة الارض (والزراعة) حيوية جدًا في زيمبابوي، لأنها تتحكم في الاحوال المعيشية والحياتية لسواد الشعب. لذا لا غرابة إذا ما ألحّ عامة الناس على الحكومة لكي تجري اصلاحات اقتصادية ترتكز بصورة اساسية على إعادة توزيع الارض بين كل سكان زيمبابوي بشكل عادل من دون أي تفريق عنصري بين البيض والسود. وفعلاً، أقدم الحزب على توزيع مليون و٥٣٣ ألف هكتار على السود، واحتفظ البيض بـ١١،٥ مليون هكتار. لكن التوزيع طال عددًا من أهل الحكم (منهم وزراء) والحزب فقط.

«يبدو ان الحزب الحاكم يواجه ضغوطًا دولية لعدم تجريد الاقلية البيضاء من الاراضي الزراعية. وما يدل على ذلك تقديم الاقلية البيضاء دعمًا ماليًا للحزب الحاكم يقدر بـ٣٦ مليون دولار ناصحة إياه بعدم المساس باراضي البيض. ولانقاذ حكومة موغابي، وللحؤول دون انفجار الاوضاع الاجتماعية تحت الضغط الاقتصادي، والاحباط السياسي، قرر البنك الدولي في اجتماعه الأخير في باريس (٨ و٩ آذار ١٩٩٥) تقديم مساعدات اقتصادية لزيمبابوي تقدر بحوالي ١٧٥ مليون دولار تضاف إلى الدعم العام للسنة الجارية (١٩٩٥) لتغطية عجز البلاد. والغريب انه في ما يعاني الشعب من مجاعة قررت

الحكومة في هارار رفع موازنة الجيش بنسبة ١٤٪ وشراء ٦ طائرات مروحية عسكرية من فرنسا بمبلغ ٣٠٠ مليون فرنك، علمًا ان زيمبابوي تملك جيشًا قوامه ٥٠ ألفًا ويعتبر من أكبر الجيوش في افريقيا الوسطى على رغم عدم وجود أي مبرر للاحتفاظ به قويًا إلى هذا الحد بعد استقلال البلاد» («الحياة»، عدد ٨ نيسان ١٩٩٥).

حركات التحرير
«زابو» و«زانو»

زابو: الاسم المختصر لـ«الاتحاد الشعبي الافريقي لزيمبابوي». حركة سياسية نضالية، افريقية، أسسها جوشوا نكومو، ورفعت شعار المساواة في الحقوق الانتخابية بين السود والبيض في روديسيا (زيمبابوي). حظرتها السلطات البريطانية في ١٩٦٢، وتعرضت لانشقاق تمخض عن ولادة «زانو» بقيادة سيتولي وموغابي.

عمل نكومو على التفاوض مع البريطانيين من اجل اقامة اتحاد افريقيا الوسطى دون نتيجة. في ١٩٦٤، اقدمت السلطات البريطانية على اعتقال الزعماء الافارقة في روديسيا، بمن فيهم نكومو الذي بقي قيد الاعتقال مدة تقارب العقد. وعندما أعلن إيان سميث استقلال روديسيا من جانب واحد تحت سيطرة البيض، اتجهت حركو زابو نحو النضال المسلح دون ان يتخلى نكومو عن محاولات (٣ مرات) التوصل إلى تسوية مع إيان سميث، ينتقل بموجبها الحكم إلى الافارقة مع تقديم بعض التنازلات الاقتصادية والسياسية للأقلية البيضاء. وفي ١٩٧٦، بدأ النضال المسلح، وقامت زابو باتصالات دولية اسفرت عن حصولها تدريجيًا على السلاح والمدربين والدعم السياسسي من دول كثيرة، بينها الاتحاد السوفياتي وكوبا ويوغوسلافيا والعراق، وما لبث جيش حركة زابو المتمركز داخل روديسيا وفي زامبيا والمعروف باسم «زيبا» ان وصل عدده إلى نحو ٢٥ ألف مقاتل في اواخر السبعينات.

في ١٩٧١، تجمع الزعماء الافارقة في المجلس الوطني الافريقي. وبعد أربعة اعوام، أعلن أنصار نكومو في زابو تعيين زعيمهم قائدًا للمجلس الوطني الافريقي على اثر تعرضه للانقسام، وعلى اثر اصرار رئيسه آنذاك ابيل موزوريوا على اشتراك القادة المنفيين في ا لمحادثات مع زعماء الاقلية البيضاء. وقد تابع قادة زابو المفاوضات، بينما قام موغابي وجناح زانو بادانتها وتمسكوا ببقاء زعامة موزوريوا. إلا ان حركة زابو ما لبثت، بعد فشل محادثات نكومو مع سميث في ١٩٧٦، ان قامت مع حركة زانو «الجبهة الوطنية» في تشرين الاول ١٩٧٦ التي صعّدت القتال داخل البلاد وعلى حدودها مع زامبيا وموزمبيق وانغولا، واستنزفت طاقات النظام العنصري المدعوم من جنوب افريقيا بحيث لجأت الاقلية البيضاء إلى خطة لتسليم الزعامة الشكلية للحكم إلى الافارقة المعتدلين والمتفقين معها بقيادة موزوريوا.

إلا ان صمود قادة زابو وزانو وتصعيد الكفاح المسلح ومساندة زعماء الدول الافريقية المجاورة أجبر بريطانيا والولايات المتحدة على الضغط على الحكم العنصري الروديسي لفتح مفاوضات مع زعماء زابو وزانو في الجبهة الوطنية

انتهت بالاتفاق على إجراء انتخابات نيابية حرة في زيمبابوي اسفرت عن فوز الأفارقة بغالبية الاصوات. أما نصيب زابو فكان ٢٠ مقعدًا من أصل ٨٠ مخصصة للافارقة ونسبة ٢٤٪ من مجموع الناخبين. وعلى الرغم من رفض زانو الاشتراك في قائمة انتخابية موحدة مع زابو وتوقعها لعب الدور الاول بعد ان تفشل زانو في الحصول على أكثرية مطلقة في البرلمان الجديد، فإن موغابي عرض على جوشوا نكومو وزابو الاشتراك باربعة مقاعد في الحكومة الاستقلالية الجديدة، وقد قبلوا هذا العرض بعد ان رفض نكومو عرضًا بتولي منصب رئاسة الجمهورية لكونه منصبًا فخريًا فحسب. وكانت زابو تقف موقفًا مساندًا من القضية الفلسطينية والقضايا العربية، في حين كان نظام إيان سميث على علاقات وطيدة بجنوب افريقيا واسرائيل (بتصرف، «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٢-٢٣).

زانو: الاسم المختصر ا لمتعارف عليه لـ«الاتحاد الوطني الافريقي لزيمبابوي»، الحركة الوطنية المتفرعة عن المجلس الوطني الافريقي (١٩٥٧) والمنشقة عن «الاتحاد الشعبي الافريقي لزيمبابوي» (زابو-١٩٦١). أما دوافع هذا التفرع أو الانشقاق فتعود إلى اسباب مختلفة اهمها الشعور لدى بعض الكوادر الجذرية بعقم وسائل المقاومة السلمية ضد «النظام الامبريالي» وسيطرة الاقلية البيضاء العنصرية على مقاليد البلاد. وقد تأثرت هذه الكوادر منذ ١٩٦٠ بآراء روبرت موغابي الذي عاد من غانا آنذاك ونادى بضرورة تدريب جيش تحرير لممارسة الكفاح المسلح كوسيلة لنيل الحرية والاستقلال. وهكذا تولى القس ندابينغي سيتولي رئاسة الحركة الجديدة عند ولادتها في ١٩٦٣ بينما تولى موغابي امانتها العامة.

وفي ١٩٦٤، أودع القادة الافارقة، ومن بينهم جوشوا نكومو وسيتولي وموغابي، السجن. إلا ان موغابي تمكن من مواصلة اتصاله بقادة وكوادر حركته واستطاع بناء جيش تحرير (زانلا) الذي بلغ قبل انتصار الحركة الوطنية (١٩٨٠) ما يقرب من ١٢ ألف مقاتل في الداخل و٢٥ ألفًا في المناطق الحدودية المجاورة، وتمكن من ممارسة الكفاح المسلح بفعالية متزايدة سواء في هذه المناطق أو في داخل زيمبابوي. وقد تمّ له ذلك بدعم من الصين ويوغوسلافيا وموزمبيق وتنزانيا، بينما دعمت موسكو وكوبا وبعض الاقطار العربية قوات زابو بقيادة جوشوا نكومو. وعرف عن حركة زانو تمسكها بالماركسية وانتقادها لبعض السياسات السوفياتية انطلاقًا من مواقع التشدد العقائدي. إلا ان تقاربًا نسبيًا حصل بعد ١٩٧٦ بين زانو وموسكو، كما ابدت زانو الكثير من المرونة إزاء شعاراتها وبرامجها الاشتراكية وإزاء موقفها من الاقلية البيضاء، إذ ابدت حرصًا على استبقاء أكبر عدد منهم لحاجة البلاد اليهم وبحكم الاتعاظ بتجربة بعض البلدان الافريقية التي عانت من فراغ إداري وصناعي وزراعي نتيجة الهجرة الجماعية المفاجئة بعد نيل الاستقلال مباشرة.

تكونت قيادة حركة زانو منذ مؤتمرها التأسيسي في مدينة غويلو Gwelu في زيمبابوي في ١٩٦٤ من لجنة مركزية مؤلفة من ٢٨ عضوًا، إضافة إلى الرئيس والامين العام. ولعل أهم الصراعات الداخلية التي وقعت داخل زانو كان انتصار روبرت موغابي، وهو في سجنه، على محاولة انفراد سيتولي بالزعامة في ١٩٧٤. وهكذا ادخلت بعض التجديدات والتعديلات على القيادة المركزية في ١٩٧٧، أي عندما تولى موغابي الرئاسة رسميًا. وعلى الرغم من بعض الخلافات التفصيلية والانقسامات الاقليمية والاتنية، إلا ان اللجنة المركزية لزانو وقفت موحدة خلف قيادة موغابي عندما توجه إلى محادثات لندن مع حليفه في الجبهة الشعبية جوشوا نكومو في ١٩٧٩.

وفي أثناء محادثات مؤتمر لندن كان من الواضح ان موقف حركة زانو السياسي والعسكري يفوق موقف زابو صلابة وقوة، وان موغابي أكثر تماسكًا وتصميمًا من نكومو رغم تمتع هذا الأخير بالذكاء والمكانة الوطنية والممارسة الطويلة.

وبعد التوصل إلى اتفاق لندن بتشجيع من زعماء الدول المجاورة لزيمبابوي، عاد قادة زانو إلى زيمبابوي وتعرض موغابي إلى محاولات اغتيال، ورفضوا خوض المعركة الانتخابية الاولى للدولة العتيدة على قائمة مشتركة مع زابو نظرًا لتقديرهم الدقيق لقوة مركزهم الانتخابي كنتيجة مباشرة لمتانة تنظيمهم واتساع قواعدهم القبلية الاتنية. وكانت النتيجة بمثابة فوز ساحق لزانو إذ كسبت ٥٧ مقعدًا من اصل ٨٠ خصصت للسود (خصص ٢٠ مقعدًا للبيض). وعندما شكل موغابي وزارته من ٢٣ وزيرًا كان نصيب اعضاء اللجنة المركزية لزانو ١٤ وزارة، واشترك جوشوا نكومو و٣ من رفاقه في الوزارة، فحقق موغابي بذلك وحدة الجبهة الوطنية، ولكن بقيادة زانو الحائزة على أغلبية شعبية قوية وواضحة. وقد فوجىء الكثيرون بالمرونة الكبيرة التي اظهرها موغابي وحزبه الذي انصرف لمهام بناء الدولة وتخطيط التنمية وتحقيق العدالة على نحو تدريجي ومعتدل. وقد وقفت زانو موقفًا مؤيدًا للقضايا العربية (بتصرف، «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٣، ط١، ١٩٩٠، ص ٣٠-٣١).

الجبهة الوطنية: تكونت هذه الجبهة إثر الائتلاف السياسي-العسكري المتكون من حركتي، أو حزبي «زابو»، و«زانو» الذي أعلن في تشرين الاول ١٩٧٦ بعد فشل محاولات جوشوا نكومو زعيم زابو في التوصل إلى تسوية سياسية مع إيان سميث زعيم الاقلية البيضاء الحاكمة. وقد صعدت الحركة الوطنية الافريقية في إطار الجبهة الوطنية من عملها السياسي وعملياتها العسكرية بعد هذا الائتلاف والذي ضمّ قوات التنظيمين، والتي بلغت في ١٩٧٩ قرابة ٥٠ ألف مقاتل، وتمكنت من فرض وجودها القوي في مؤتمر لندن (راجع «نبذة تاريخية»).

مدن ومعالم

* **بولاوايو Bulawayo:** يعني الاسم «مكان القتل» (قتل الذين يأتون إلى المكان من دون دعوة من الملك). مدينة زيمبابوية. في الجنوب الغربي من البلاد وفي منطقة ماتابيليلند Matabeleland. تبعد ٤٤١ كلم عن العاصمة، وتعد نحو ٥٥٠ ألف نسمة. بينهم نحو ٥٠ ألفًا من الاوروبيين، و٣ آلاف آسيوي، و٩ آلاف خلاسي. صناعات إسمنتية وزراعية.

* **غويرو Gweru:** كان إسمها غويلا. تعد نحو ٨٧ ألف نسمة (نحو ٩ آلاف أوروبي).



تمثال ليفينغستون الذي رأى الشلالات في ١٨٥٥ واطلق عليها اسم ملكته.

* **فكتوريا، شلالات:** إسمها الاصلي بلغة أهل البلاد «موساي-أوا-تونيا» ومعناها «الدخان الذي يلد الرعد». وكثيرون يخطئون في التمييز بين بحيرة فكتوريا وشلالات فكتوريا. فالبحيرة التي تعتبر المنبع الاول لنهر النيل الذي يخرج من شاطئها الشمالي باسم «نيل فكتوريا»، تقع في افريقيا الوسطى تحف بها أوغندا وكينيا وتنجانيقا وتعتبر ثاني أكبر بحيرات العالم العذبة بعد بحيرة «سوبيريور» الاميركية. وبحيرة فكتوريا واحدة من بحيرات الهضبة الاستوائية الثلاث التي تصنع النيل الابيض أي بحيرات ألبرت وإدوارد وفكتوريا.

أما شلالات فكتوريا فهي في منطقة نهر الزامبيز العليا على حدود زيمبابوي وزامبيا. أول من اكتشفها ونقل الخبر إلى العالم المستكشف الشهير ليفينغستون (١٨٥٥). وقد رُفع له في المنطقة تمثال تذكاري. بالقرب منها مطار وفنادق جعلت منها مدينة سياحية. «فندق شلالات فكتوريا» بدأت إنشاءه شركة قطارات جنوب افريقيا البريطانية في ١٩٠٤ مع بدء وصول السكك الحديدية إلى المكان.

تهوي الشلالات على صخور البازيليت السوداء، وتحدث هديرًا هائلاً ورذاذًا يغطي المنطقة. هي خمسة شلالات تلتحم معًا في موسم فيضان نهر الزامبيز، وتحدث ستارة مائية يبلغ اتساعها ١٧٠٠متر وتهوي ١٠٨ أمتار في أعمق مواضع الجرف. وإلى جوار الشلالات، «جسر ليفينغستون» المقام منذ ١٩٠٥، ويشتهر برياضة القفز إلى الوادي التي يمارسها شبان مغامرون بربط اواسطهم بالحبال.

* **كويكوي Kwekwe**: مدينة زيمبابوية. على بعد ٢٤١كلم من العاصمة. تعد نحو ٥٧ ألف نسمة.

* **ماسفينغو Masvingo**: كان إسمها قبل الاستقلال «فورت فكتوريا». تعد نحو ٣٥ ألف نسمة.

* **موتار Mutare**: كان إسمها «أومتالي». تقع شرقي البلاد، على بعد ٢٦٢كلم عن العاصمة. تعد نحو ١١٠ آلاف نسمة (نحو ١٠ آلاف اوروبي). مصفاة لتكرير النفط متصلة بخط أنابيب سوفالا في موزمبيق. صناعات ورقية، زجاجية، وأسمدة. مركز زراعي، تجاري وسياحي.

* **هارار Harare**: عاصمة البلاد. كان إسمها قبل الاستقلال ساليزبوري Salisbury. و«هارار» أو «هراري» يعني في لغة قبائل الشونا الزيمبابوية: «المدينة التي لا تنام». تقع شمالي البلاد، وعلى ارتفاع ١٤٧٠م. خط سكة حديد يصلها بمدينة سوفالا-بيرا (في موزمبيق) وبمدينة بولاوايو. تعد نحو مليون نسمة (١١٨ ألف أوروبي). صناعات زراعية وكيميائية وإسمنتية ومعدنية.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **سميث، إيان دوغلاس Smith,Ian D** (١٩١٩-): سياسي عنصري روديسي (زيمبابوي). زعيم «الجبهة الروديسية» ورئيس وزراء نظام حكم البيض العنصري إبان الحكم البريطاني. أعلن، في ١٩٦٥، ومن طرف واحد انفصال روديسيا عن بريطانيا وتفرد الاقلية البيضاء، التي يقودها، بالحكم. وقد أدّى ذلك إلى قطيعة سياسية واقتصادية مع بريطانيا والمجتمع الدولي ومعظم الدول الافريقية. وازداد اعتماد سميث أكثر فأكثر على نظام جنوب افريقيا العنصري. أجرى محادثات مع وزير خارجية الولايات المتحدة هنري كيسنجر الذي حذره من مغبة استمرار رفض مبدأ مشاركة السود في الحكم وفتح المجال لكي تكون الحصة الأكبر لهم في المستقبل، باعتبار ان ذلك حتمي، وان من شأن مثل هذا الموقف اضعاف اتجاه السود نحو المقاومة المسلحة والاتجاهات اليسارية. أجرى في ١٩٧٩ انتخابات نيابية عارضتها الجبهات الافريقية الثورية مثل زانو وزابو وفاز بها الاسقف موزوريوا الذي عين رئيسًا للوزراء دون ان يكون مسيطرًا فعليًا على سياسة البلاد التي ظلت عمليًا في يد إيان سميث الذي عين وزيرًا للدولة (بلا حقيبة وزارية). ولم يؤد هذا التغيير الشكلي إلى اعتراف الدول الافريقية بشرعية هذه الانتخابات، وأجريت انتخابات جديدة تحت إشراف بريطانيا نفسها، كانت نتيجتها انتصار الجبهة الوطنية بقيادة روبرت موغابي انتصارًا ساحقًا، وانتهاء حكم

سميث العنصري. استمر سميث ممثلاً للأقلية البيضاء في البرلمان الزيمبابوي.

إن أقسى ما يزال الناس يذكرونه عنه انه كان عندما يمر بسيارته فعلى كل السود الانبطاح على الارض، وإلا فسيارات المرافقين التي تسير خلف سيارته تطلق الرصاص فوراً على كل اسود لم يخّر على الارض منبطحًا (راجع «نبذة تاريخية»).

*** سيتولي، ندابانجي Sithole,N** (١٩٢٠): سياسي ورجل دين مسيحي (قسيس) وكاتب زيمبابوي. التحق بالتعليم في ١٩٤٢ وعين مسؤولاً دينيًا في إحدى الارساليات المسيحية (١٩٥٨). التحق بالحزب الوطني الديمقراطي في ١٩٦٠، وعين أمينًا للصندوق فيه. وفي ١٩٦١، عين نائبًا لرئيس حزب زابو. انفصل عنه وأسس حزب زانو في ١٩٦٣ وتولى رئاسته. اعتقلته سلطات الحكم العنصري لمدة عشر سنوات (١٩٦٤-١٩٧٤)، وفي اعقاب تكوين المجلس الوطني الافريقي في نيسان ١٩٧٤، عين عضوًا في المجلس التنفيذي الوطني كما تولى الشؤون الخارجية. أطلق سراحه مع الزعماء الآخرين وخرج إلى زامبيا حيث أخذ يزاول نشاطه السياسي من خارج روديسيا (زيمبابوي)، وقد تعرض حزبه (زانو) لانشقاق داخلي وتولى رئاسته روبرت موغابي الذي أصبح في ١٩٨٠ أول رئيس للوزراء في جمهورية زيمبابوي المستقلة.

في ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٢، عاد سيتولي إلى البلاد بعد نفي ثمانية أعوام (راجع «نبذة تاريخية» و«حركات التحرير»).

*** مابونديرا، بيتاندو Mapondera,P.** (-١٩٠٤): زعيم سياسي وبطل قومي زيمبابوي. كان أبوه زعيم شعب نيغومو في شرقي زيمبابوي. أما مابونديرا فقد فرض نفسه قائدًا عسكريًا فذًا في وجه الغزاة الاوروبيين والمجموعات الافريقية الاخرى. هزم أولاً قوات النديبيلي التي كانت تهدد مملكة أبيه. ورغم انه اقام علاقات جيدة، في البداية، مع التجار البرتغاليين والبريطانيين، إلا انه رفض الخضوع لهم. وقد عمد البريطانيون، في محاولة لتعزيز سلطتهم على منطقة مازوبي، إلى مهاجمة قرية مابونديرا في ١٨٩٢. فردّ باعلانه عن رفضه الاعتراف بلجنة روديسيا الجنوبية لشؤون المحليين (الافارقة) وحفز أتباعه على مقاومة جهود البريطانيين لفرض سيادتهم وعلى الامتناع عن دفع الضرائب. وفي ١٨٩٥، شكل مابونديرا فرقة صغيرة لمهاجمة المصالح الاوروبية والقوات البريطانية وحلفائها من الافارقة. وسرعان ما انضمت إليه الجموع، ما دفع مابونديرا إلى توسيع رقعة المقاومة لتطال موزمبيق الرازح تحت الاحتلال البرتغالي. وقد دعمت قواته ملك «البارو» في مواجهته البرتغاليين. وادرك مابونديرا من خلال تجربة موزمبيق ان المستعمرين لا يحافظون على سلطتهم إلا بالارتكاز على زعماء محليين متواطئين معهم. وقد عمل بهذا المبدأ في روديسيا بعد ١٩٠٠، فقاتل الاوروبيين وحلفاءهم على حد سواء. وكسب المزيد من الدعم إن في موزمبيق أو في روديسيا، فأصبح علمًا من اعلام النضال ضد الاستعمار في كلا البلدين. غير ان البرتغاليين تمكنوا اخيرًا من هزمه إذ احتلوا معقله وتغلبوا على حلفائه «البارو» في ١٩٠٢، وقبضوا عليه في السنة التالية وحكموا عليه بالسجن. وفي ١٩٠٤، توفي في السجن في ما كان مضربًا عن الطعام («موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص ٦٢٠-٦٢١).

*** مالفيرن، لورد غودفري مارتن هوغنز Malvern,Lord G.M.H.** (١٨٨٣-١٩٧١): سياسي روديسي (زيمبابوي) عنصري وأول رئيس

وزراء اتحاد روديسيا ونياسلند. ولد في انكلترا. بعد تحصيله العلمي مارس الطب في احد مستشفيات لندن. في ١٩١١، هاجر إلى روديسيا الجنوبية حيث فتح عيادة طبية. لكنه التحق بالهيئة الطبية في الجيش البريطاني عند اندلاع الحرب العالمية الاولى. بدأ نشاطه السياسي في ١٩٢١ حين انتخب عضوًا في المجلس التشريعي. وبعد عشر سنوات التحق بحزب الاصلاح، وقاد هذا الحزب في الحملة الانتخابية في ١٩٣٣ مطالبًا بادخال قوانين تفرقة عنصرية. وقد فاز حزب الاصلاح بالاكثرية فأصبح رئيسًا للحكومة، وتولى ايضًا وزارة شؤون السكان المحليين (الأفارقة السود) إذ أصر على الاشراف بنفسه على تنفيذ سياسته العنصرية القائمة على فكرة التطور المستقل لكل من المجموعتين الاوروبية والافريقية. ومنع هوغنز الافارقة من حق الاقتراع. وحين اعادة هذا الحق في ١٩٥٠ (مقتصرًا على أقلية من السود) قال إن نظام الانتخاب يجعل الاوروبيين والافارقة يسيرون في اتجاه واحد مثلما يجري «الفارس وحصانه». وفي ١٩٥٣، نجح في اقناع الحكومة البريطانية بانشاء اتحاد يضم روديسيا الجنوبية (زيمبابوي) وروديسيا الشمالية (زامبيا) ونياسلند (مالاوي). وأصبح رئيس الحكومة الاتحادية ووزيرًا للدفاع، ولم يغير شيئًا من سياسته العنصرية (هذا الاتحاد عارضه السود معارضة شديدة)، وظل يرفض اشراك الافارقة في السلطة. وفي السنة نفسها (١٩٥٣)، منحه ملك بريطانيا لقب لورد مالفيرن. وبعد ثلاثة اعوام، اعتزل العمل السياسي. ومع ذلك، قصد لندن عدة مرات لشرح موقف الاتحاد الروديسي. كذلك، اعترض في الستينات على خطوة إيان سميث الانشقاقية والتي أدت إلى إعلان الجمهورية والاستقلال من جانب واحد، وإلى تبديل العلم البريطاني بعلم جديد. إلا ان احتجاجه لم يكن نابعًا من اختلافات عقائدية جوهرية، بل من تعلقه ببريطانيا وولائه لها.

* **موزوريوا، أبيل .Muzorewa,A** (١٩٢٥-): سياسي زيمبابوي وأسقف مسيحي. اضطلع بدور مهم في تحرير بلاده من النظام العنصري، وترأس أول حكومة مختلطة في روديسيا-زيمبابوي.

ولد في مدينة أومتالي. سافر إلى الولايات المتحدة في ١٩٥٨ ليتابع تحصيله العلمي، فالتحق بمعهد لافايت الميتودي في ولاية ميسوري، ثم بمعهد سكاريت في ولاية تينسي. أصبح، لدى عودته إلى بلاده، مسؤولاً عن رعية الكنيسة الميتودية في مسقط رأسه، أومتالي. وفي ١٩٦٨، انتخب رئيسًا للكنيسة الميتودية في روديسيا. في ١٩٧١، أسس حزب المؤتمر القومي الافريقي الذي رفض مشروعًا انكليزيًا-روديسيًا لتعديل الدستور في روديسيا من اجل الحفاظ على امتيازات البيض، ونجح ولكن لفترة وجيزة من تحقيق التفاف شامل للقوى الوطنية السوداء من حوله. وفي ١٩٧٥، نفى نفسه طوعًا إلى تنزانيا. ولدى عودته إلى سالزبوري (هارار) في اواخر ١٩٧٦ لقي استقبالاً حافلاً من ابناء جلدته. في انتخابات نيسان ١٩٧٩، حقق حزبه نجاحًا ساحقًا في اول انتخابات شارك فيها السود، وعهد إليه بتشكيل أول حكومة مختلطة (بيض وسود). غير ان حكومته لم تعمّر طويلاً. ففي العام التالي (١٩٨٠)، تمكن الجناح الراديكالي في الجبهة الوطنية بزعامة روبرت موغابي من الفوز في الانتخابات ومن تشكيل حكومة بادرت إلى الاعلان عن استقلال زيمبابوي. وفي اواخر ١٩٨٣، وجهت إلى الاسقف موزوريوا تهمة الاتصال بالنظام العنصري في جنوب افريقيا. فجرى اعتقاله بعد عودته من زيارة قام بها إلى اسرائيل عبّر خلالها عن رغبته في تحسين العلاقات بين زيمبابوي والدولة العبرية. أطلق سراحه في ايلول ١٩٨٤، بعد ان أمضى في السجن عشرة أشهر (راجع «نبذة تاريخية» و«حركات



الاسقف آبل موزوريوا، رئيس المجلس الوطني الافريقي، يلقي خطاباً امام انصاره (شباط ١٩٨٠).

التحرير»).

*** موغـــابي، روبـــرت Mugabe,R.**
(١٩٢٤-): رئيس جمهورية زيمبابوي الحالي. استمر في الحكم منذ ترؤسه اول حكومة شكلها السود بعد الاستقلال في ١٩٨٠ وحتى اليوم (ربيع ١٩٩٧).

ولد في ارسالية كوتاما التبشيرية. كان والده عاملاً وراعيًا، وقد نشأ على غرار سواه من قادة الحركة الوطنية الافريقية في روديسيا، في ظل التعليم الديني المسيحي ورجال الدين. أصبح مدرسًا في الاربعينات، ثم التحق بجامعة فورثير في جنوب افريقيا. وقد انضم، أثناء وجوده في هذه الجامعة، إلى رابطة الشبيبة التابعة للمؤتمر الوطني الافريقي، أشهر حزب وطني يومذاك. وبعد تخرجه في ١٩٥١، رحل إلى زامبيا سعيًا وراء العمل، وتابع دراسته بالمراسلة مع احدى جامعات لندن، وحاز على دبلوم جديد. في ١٩٥٦، ذهب إلى غانا وعمل في حقل التعليم؛ وكان لاقامته في غانا اثرها الكبير في بلورة شخصيته السياسية، فقد أعجب بالزعيم كوامي نكروما، وتزوج من معلمة غانية ماركسية حملته على اعتناق الماركسية.

في ١٩٦٠، انضم إلى الحزب الديمقراطي القومي الذي أسسه جوشوا نكومو، واسند إليه فيه منصب أمين الاعلام. اعتقلته سلطات النظام العنصري، لكنه تمكن من الفرار إلى تنزانيا. وفي آب ١٩٦٣، انفصل عن نكومو مع مجموعة من العناصر الراديكالية وأسس مع سيتولي الاتحاد الوطني الافريقي لزيمبابوي (زانو). اعتقل في ١٩٦٤ ومكث في السجن زهاء عشرة اعوام تمكن

خلالها من متابعة تحصيله العلمي، والحصول على عدد من الشهادات العالية. وقد انتخب، وهو في السجن، رئيسًا لحزب زانو خلفًا للقس سيتولي. وعندما أطلق سراحه في ١٩٧٤، وافق، نزولاً عند رغبة الرئيس الزامبي كينيث كاوندا والتنزاني جوليوس نيريري، على وضع نفسه في إمرة سيتولي من جديد. رحل إلى موزمبيق ومن هناك أخذ يكثف اتصالاته مع قادة حركات الانصار الذين كانوا يشنون هجماتهم ضد النظام الروديسي انطلاقًا من اراضي موزمبيق. اختاره الثوار، في ١٩٧٦، ليكون الناطق بلسانهم، فرفض الاقتراحات التي كان قد تقدم بها وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر لحل الازمة الروديسية. ثم شكل، مع جوشوا نكومو، الجبهة الوطنية التي دعت إلى مواصلة الكفاح المسلح حتى النصر النهائي.

وعندما شكل الاسقف موزوريوا أول حكومة مختلطة في روديسيا (١٩٧٩)، رفض موغابي هذا الحل لأنه يخدم مصالح المستعمرين البيض. وقد دافع عن وجهة نظره بقوة واصرار في مؤتمر لانكستر هاوس (لندن) الذي دعت إليه الحكومة البريطانية، ووافق على الاشتراك في انتخابات حرة تحدد هوية النظام الجديد في البلاد. انفصل عن جوشوا نكومو من جديد لدى خوضه هذه الانتخابات التي حقق فيها حزبه (زانو) انتصارًا ساحقًا، والتي اعترفت الاسرة الدولية بنزاهتها وشرعيتها. شكل الحكومة في ١٩٨٠، وأعلن ا ستقلال زيمبابوي (راجع «نبذة تاريخية» و«حركات التحرير»).

في الاعوام الاخيرة (بدءًا من ١٩٩٤)، برز منافسون لموغابي على رئاسة الدولة يرون انه لن يكون قادرًا على قيادة البلاد حتى العام ٢٠٠٢ (موعد نهاية ولايته الرئاسية الأخيرة). وفي طليعة هؤلاء المنافسين:

- نائبه الاول سيمون موزنده الذي ينتمي مثله إلى قبيلة زيزورو الكبيرة والذي يعتمد على نفوذه الواسع في الاستخبارات المركزية.
- نائبه الثاني جوشوا نكومو الذي ينتمي إلى الأقلية الدبيلية، ويعتمد على قدرته السياسية وتجربته الفنية وشخصيته التاريخية.
- دوميزو ونغاوا وزير الداخلية وينتمي إلى الأقلية الدبيلية لكنه يتمتع بثقة الحزب وبدعم قبائل الشونا.

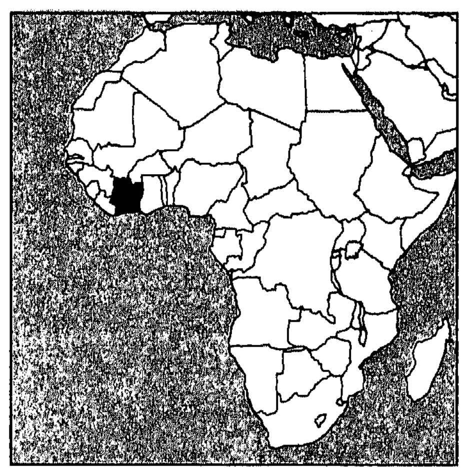
أنصار روبرت موغابي يلوحون بديك، شعار «زانو» الذي يتزعمه موغابي.

*** نكومو، جوشوا Nkomo,J.**

(١٩١٧-): أحد زعماء الحركة الوطنية في

زيمبابوي ورئيس المجلس الوطني الافريقي منذ ايلول ١٩٧٥. تلقى تعليمه الثانوي والجامعي في جنوب افريقيا. وعقب عودته إلى روديسيا اشتغل باحثًا اجتماعيًا في مصلحة السكك الحديدية، ثم أصبح عضوًا نشطًا في رابطة الافريقيين العاملين في السكك الحديدية التي كان لها نشاط ملحوظ في مواجهة اجراءات التفرقة العنصرية منذ ١٩٤٥، وقد اختير سكرتيرًا عامًا للرابطة المذكورة في ١٩٥٢، ثم رئيسًا لأول تنظيم سياسي للافريقيين في روديسيا (المؤتمر الوطني الافريقي). برز على المستوى الدولي عقب انتخابه عضوًا في اللجنة الدائمة لمؤتمر الشعوب الافريقية في أكرا في ١٩٥٨. وبعد حل حزب المؤتمر الوطني الافريقي (١٩٥٨)، شكل نكومو تنظيمًا سياسيًا جديدًا في ١٩٦٠ باسم «الحزب الوطني الديمقراطي» وأصبح رئيسًا له؛ وقد سعى نكومو إلى إقامة اتحاد عمال لنقابات العمال في روديسيا (١٩٦١)، فأعلنت الحكومة العنصرية حل حزبه وحرمت العمال من العمل السياسي. إلا ان نكومو أعاد تشكيل الحزب من جديد تحت إسم «اتحاد شعب زيمبابوي الافريقي» (زابو) في كانون الاول من العام نفسه. وفي ايلول ١٩٦٢، عادت الحكومة وحلت الحزب، واعتقلت نكومو في شباط ١٩٦٤، وظل معتقلاً في زيمبابوي إلى أن أفرج عنه في اواخر ١٩٧٤ مع بدء التفاوض لايجاد حل سلمي للمشكلة الروديسية. وقد تمّ تشكيل «المجلس الوطني الافريقي» ليضم حركات التحرر الزيمبابوية كافة، وفي ٢٨ ايلول ١٩٧٥، انتخب نكومو رئيسًا لهذا المجلس. في ٢٢ كانون الاول ١٩٨٧، وإثر توقيع ميثاق دمج بين الحزبين زابو وزانو، عين نكومو نائبًا لرئيس الدولة (راجع «نبذة تاريخية» و«حركات التحرير») .





ساحل العاج

بطاقة تعريف

الاسم: «ساحل الانياب» Côte des Dents، أي أنياب الفيل العاجية، كما كان التجار يسمون المناطق الساحلية من البلاد في القرن الرابع عشر. ومنه «ساحل العاج». وهؤلاء التجار أقاموا مراكز تجارية في مناطق أسينيا وباساميا الكبرى التي أصبحت تابعة رسميًا لفرنسا منذ ١٨٤٢.

الموقع: في وسط شمال غربي افريقيا. تحيط بها غانا (وطول حدودها معها ٦٤٠كلم)، بوركينا فاسو (٤٩٠كلم)، مالي (٣٧٠كلم)، غينيا

(٦١٠كلم)، ليبيريا (٥٨٠كلـم)، ويبلـغ طـول شاطئها ٥٠٠كلم.

المساحة: ٣٢٢ ألفًا و٤٦٢كلم م.. مسافة أبعـد نقطتين طوليًا ٦٠٠كلم، وأبعـد نقطتين عرضيًا نحو ٥٠٠كلم.

العاصمة: ياموسوكرو (ابتداء مـن آذار ١٩٨٣، وكانت أبيدجـان العاصمـة قبـل هـذا التـاريخ). وأهـم المـدن: أبيدجـان، بواكـي، دالـوا، كورهوغـو، مـان، غانيويـا (راجـع «مـدن ومعالم»).

اللغات: الفرنسية (رسمية)، وهنـاك عـدد مـن اللغات القبليـة المحكيـة. الديـولا والبـاولي لغتـان تجاريتـان متعـارف عليهمـا بـين مختلـف قبـائل البلاد.

السكان: يقـدر عددهـم حاليًا (ربيـع ١٩٩٧) بنحو ١٤،٥ مليون نسمة. وتشير التقديرات إلى أنهم سيبلغون نحو ١٩،٥ مليون نسـمة في العـام ٢٠٠٠. عـدد الاجـانب يقـدر بنحـو ٤ ملايـين (منهم نحو ٣٠٠ ألف من اللبنـانيين، نحـو ٦٥٪ من هؤلاء اللبنانيين هاجروا إلى البلاد في سنوات الحرب اللبنانية، ونحو ٦٠ ألف اوروبي). وهناك نحـو ٦٠ إتنيـة تشـكل شـعب سـاحل العـاج، أهمهـا: في الجنـوب: قبـائل الـبريني، الألادي، الأبولوني، الأديوكرو، الإبري. في الغرب: قبائل الكرو، الديدا، البيتي (١٨٪)، الوبيس، الغـيري، الدان، الياكوبا. في الوسط: الباولي، المانغوروس. في الشرق: الأنييس-أشنتيس، الأبـرون، البـاولي (٢٣٪). في الشمال: المانديس (مـالينكي ١١٪، ديولا)، السينوفو (١٥٪). في الشـمال الشـرقي: اللوبيس.

المعتقـدات الدينيـة: ٦٥٪ يعتنقـون المذاهـب الاحيائيـة التقليديـة؛ ٢٣٪ مسـلمون، و١٢٪ مسيحيون كاثوليك.

الحكم: جمهوري ورئاسي. السلطة التنفيذية من رئيـس الجمهوريـة المنتخـب بالاقـتراع العـام والمباشر لمدة خمس سنوات قابلة للتحديد، ومـن مجلس للـوزراء يعين رئيس الجمهوريـة كـامل اعضائه. أما السلطة التشـريعية فتتمثـل بالجمعيـة الوطنيـة المكونـة مـن ١٧٥ عضـوًا منتخبًا لمـدة خمس سنوات. المحكمة العليـا مـن عشـر أعضـاء قضاة و٢٦ نائبًا.

الاحزاب: نظام حكم الحزب الواحد: «الحـزب الديمقراطي لساحل العـاج-التجمـع الديمقراطـي الافريقـي» الـذي تأسـس في ١٩٤٦ واسـتمر الحزب الحاكم الوحيد حتى ١٩٩٠ حيث سمـح بنشوء احزاب أخرى، أهمها: «الجبهـة الشـعبية العاجيـة» الـتي كـانت قـد تأسسـت في ١٩٨٢ ويتزعمهـا لـوران غبـاغبو؛ «حـزب العمـال العاجي»، تأسس في ١٩٩٠، ورئيسه فرنسـيس بوديي.

الاقتصاد: تتوزع اليـد العاملـة علـى القطاعـات الاقتصاديـة الاساسـية بحسـب النسـب التاليـة: الزراعة، ٥٩٪ من اليدالعاملة (٢٩٪ مـن النـاتج العام)؛ الصناعة، ٩٪ من اليد العاملة (١٧٪ مـن الناتج العام)؛ الخدمات، ٣١٪ من ا ليـد العاملـة (٥٤٪)؛ المناجم، ١٪ (صفر ٪)؛ وهناك نحـو ٧ آلاف يعملون في قطاع البنـاء والاشـغال العامـة (كانوا ٧٥ ألفًا في العام ١٩٧٥).

يعتمد الاقتصاد على مبدأ السوق الحرة. والدخل الفـردي في سـاحل العـاج يزيـد بكثـير عنـه في البلدان المجاورة.

تحتل الاراضي المزروعة نسبة ٢٨٪ مـن المسـاحة العامة للبلاد. أهـم المزروعـات: البن والكاكـاو اللـذان يغطيـان ١١٪ و٥٪ مـن الاراضـي المزروعة؛ والبن على رأس المزروعـات المصـدرة، ويمثل مع الكاكاو ٨٥٪ من المنتوجات الزراعيـة المصدرة و٢٠٪ من الناتج العام، وتعتـبر سـاحل العاج ثالث دولـة مصدرة لهاتين المادتـين في

العالم. وهناك ثروة خشبية لا بأس بها.
يكاد القطاع المنجمي ان يكون معدومًا في ساحل العاج. أما القطاع الصناعي فيعمل به عمال وافدون بأعداد كبيرة من مالي وبوركينا فاسو. والصناعة كثيرة ومتنوعة: تجميع سيارات، تكرير النفط، الكحول، التبغ، الزيوت، الاقمشة والاسمنت. وساحل العاج هي الثانية في افريقيا الغربية، بعد الكاميرون، في انتاج الكهرباء.
يسجل الميزان التجاري فائضًا بشكل دائم تقريبًا. أما ميزان الخدمات والمدفوعات فيسجلان عجزًا دائمًا، وتساهم مساعدات المجموعة الاوروبية في سدّ هذا العجز. وفرنسا هي الشريك التجاري الاول لساحل العاج.
وكان للانطلاقة الاقتصادية التي حققتها ساحل العاج بين ١٩٦٠ واواسط السبعينات ان صاغت مقولة «الاعجوبة العاجية» ساهمت عوامل عديدة في ايجادها وفي استفادة فئة منها بشكل خاص. وعلى رأس هذه العوامل: اتخاذ ساحل العاج، بعد استقلالها، المسار الذي وضعها في حالة وصفها البعض بـ«الاستعمار الجديد» لأن فئة محدودة (في الحكم وخارجه) استأثرت بمقدرات البلاد الاقتصادية، وذلك بفضل العدد المحدود لليد العاملة الموجودة في أبيدجان، وبفضل الأسس القبلية التي أعطت النظام الاجتماعي الكثير من الاستقرار والتماسك، وبفضل المساعدات الخارجية، وخاصة الاستثمارات الخارجية، وتضاعف عدد الشركات الاجنبية واستثماراتها والتسهيلات الحكومية ووفرة الثروات المحلية ووجود اليد العاملة غير المكلفة (ملايين من العمال من البلدان المجاورة) .

نبذة تاريخية

قبل الاوروبيين: قبل ان يكتشف الرحالة الاوروبيون ساحل العاج بمدة طويلة كان ثمة ممالك في شرقي البلاد وشماليها. وفي القرن الحادي عشر بنى السنوفيون (لا يزال أحفادهم يعيشون في الجزء الشمالي من البلاد) مدينة كونغ التي تحولت إلى مركز تجاري كبير حيث كان التجار يأتون من الشمال لمبادلة الملح والماشية بالعاج والجوز.

الفرنسيون: كان البرتغاليون أول الاوروبيين الذين قدموا إلى هذه المنطقة التي دعوها ساحل العاج، ولم يحاولوا استعمارها، بل اكتفوا بانشاء مراكز لتجارة العاج والعبيد. ثم جاء بعدهم الاسبان والهولنديون والانكليز، وأخيرًا الفرنسيون.
عمل الفرنسيون على تقوية وجودهم في ساحل العاج بدءًا من ١٨٨٧، حيث

استطاع ضابط فرنسي يدعى لويس بنجي بين ١٨٨٧ و١٨٨٩ من التوغل في مناطق داخلية من البلاد، ومن توقيع عدة اتفاقيات حماية مع عدد من الزعماء المحليين. وعندما أصبحت ساحل العاج مستعمرة فرنسية رسميًا في ١٨٩٣، عين بنجي أول حاكم عليها (راجع «كوليبالي، غبون» في باب زعماء، رجال دولة وسياسة).

في بداية القرن العشرين، عملت فرنسا على تطبيق برنامج يقضي بتنشيط النمو الاقتصادي في مستعمرتها. وأهم ما جاء في هذا البرنامج إنشاء خط حديد أبيدجان-بوواكي الذي استكمل العمل به حتى وصل إلى أووا غادوغو في فولتا العليا (التي أصبح اسمها بوركينا فاسو).

الاستقلال: أصبحت ساحل العاج جمهورية مستقلة، داخل المجموعة الفرنسية في ١٩٥٨. ونالت استقلالها التام في ١٩٦٠، فيما اعتلى سدة الرئاسة فليكس هوفويت بوانيي الذي كان يعاد انتخابه رئيسًا حتى وفاته.

«الحزب الديمقراطي لساحل العاج»: كان بوانيي قد أسس، في ١٩٤٦، الحزب الديمقراطي لساحل العاج، وهو الجناح الاقليمي للتجمع الديمقراطي الافريقي الذي أسس أثناء انعقاد مؤتمر باماكو في ايلول ١٩٤٦، وانتخب بوانيي رئيسًا لهذا التجمع. وقد انصهر نواب التجمع، في البداية، بتجمع النواب الشيوعيين داخل البرلمان الفرنسي. إلا انهم لاحظوا، في تشرين الاول ١٩٥٠ «ان عمل جميع نواب اقاليم ما وراء البحار على قاعدة برنامج محدّد هو الصيغة الافضل للدفاع بفعالية عن مصالح افريقيا العليا»، فباشروا تحولاً ظاهرًا داخل البرلمان الفرنسي، وقرروا الانسحاب من تجمع «اتحاد الجمهوريين التقدميين»، وكان بوانيي في طليعتهم. وفي ١٩٥٦ و١٩٥٧، شغل هذا الاخير منصب عضو في ا لحكومة الفرنسية بصفة وزير مفوض في رئاسة مجلس الوزراء في حكومة غي مولي، ثم كوزير مستشار للشؤون الخارجية في حكومة دوبريه في ١٩٥٩-١٩٦٠.

مشكلات العقدين الاولين من الاستقلال: عرفت السنوات الاخيرة من السبعينات تحركات عمالية زعزعت صورة «الاعجوبة العاجية». فقد كان هناك بورجوازية قطاع الخدمات (خاصة القطاع السياحي) في كوكودي وريفييرا وأبيدجان، واستمرار الوجود الفرنسي القوي (٤٥ ألف فرنسي يتوزعون في ما بينهم ٦٠٪ من الدخل القومي). وكان في الجهة المقابلة، فلاحون ثائرون في غربي البلاد (انتفاضة نيسان ١٩٧٧) الذين وإن سحقت ثورتهم إلا ان أسبابها بقيت قائمة، واضراب عام للطلاب شمل كل المؤسسات المدرسية (كانون الثاني ١٩٧٧)، وإضراب عمال احواض الموانىء في أبيدجان وسان بدرو (شباط ١٩٧٨)، ومصادمات طائفية بالسلاح الابيض بين الجالية الموريتانية وأهالي العاصمة (نيسان ١٩٨٠)...

وقبل سنوات (أي في أواخر

الستينات) كانت الحكومة قد لجأت (١٩٦٩) إلى حل «الاتحاد الوطني للطلاب»، الامر الذي أدّى إلى اضراب طلابي دام ثلاثة أشهر تم خلالها توقيف عدد كبير من الطلاب وارسالهم إلى معسكر أكويدو وإبقاؤهم هناك حتى التماسهم «العفو». كما وقعت حوادث «اختفاء» بعض الشخصيات المعارضة، كما حصل بالنسبة إلى بياكا-بودا (عضو التجمع الديمقراطي الافريقي)، وأرنست بوكا (وزير التربية)، وغنابي (الذي قاد ثورة الفلاحين في غانيو الواقعة غربي البلاد). ومع اعلان «الاتحاد العام لشغيلة ساحل العاج» الولاء للحكم، قامت اضرابات متفرقة خارج نطاق التنظيم النقابي، وشملت بعض القطاعات: عمال احواض الموانىء (١٩٦٨)، اضراب سائقي الباصات (١٩٧٣).

الدور الخاص: كان لساحل العاج دور خاص (عقب الاستقلال وامتدادًا حتى اوائل الثمانينات) في استراتيجية الحكومة الفرنسية في افريقيا. فبفضل مداخلة الرئيس بوانيي (وإلى حد الرئيس السنغالي سنغور) في القمة الفرنسية-الاميركية في داكار (نيسان ١٩٧٧)، طرحت فكرة «كومنولث فرنسية» تكرس هيمنة فرنسا على «المجموعة الاقتصادية لافريقيا الغربية» يكون لها دور عسكري يستوجب إنشاء «جيش موحد من الدول الفرنكوفونية». وقد اختيرت برواكيي، في ساحل العاج، لتكون مقرًا لهيئة اركان هذا الجيش. إلا ان تغير الحكم



هوفويت بوانيي مغادرا الاليزيه اثر اجتماع للبلدان الفرنكوفونية الافريقية السوداء في باريس (تشرين الثاني ١٩٧٣).

في فرنسا في ايار ١٩٨١، دفع الحكومة الفرنسية الجديدة لصرف النظر عن مثل هذا المشروع السياسي-العسكري، ولكن مع الاستمرار بالابقاء على علاقات مميزة بساحل العاج وبافريقيا. فقد قام الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران بأول جولة له في افريقيا (ايار ١٩٨٢)، زار خلالها ساحل العاج، وألقى امام جمعيتها الوطنية خطابًا أكد فيه استعداد بلاده الدفاع عن افريقيا والعمل على إنمائها.

كرونولوجيا العقدين الأخيرين: في أواخر صيف ١٩٨٢، اجتمع اسحق شامير (وكان وزير خارجية اسرائيل)، سرًا، برئيس ساحل العاج فليكس هوفويت بوانيي، وبحثا في تفاصيل العملية التي اعادت اسرائيل إلى افريقيا، خصوصًا إلى كينيا

وافريقيا الوسطى والكاميرون وزائير، واتفقا على إبقاء العلاقات الرسمية بين بلديهما مجمدة على رغم العلاقات الاقتصادية الوثيقة القائمة بينهما.

في آذار ١٩٨٣، صادقت الجمعية الوطنية المنعقدة في دورة استثنائية على مشروع قانون يقضي بجعل مدينة ياموسوكرو (ولد فيها بوانيي وكانت قرية) عاصمة للبلاد مكان أبيدجان.

في ١٩٨٣-١٩٨٤، ضربت البلاد موجة من الجفاف وتسببت بأزمة اقتصادية نتيجة تدهور أسعار البن والكاكاو.

في ١٢ نيسان ١٩٨٦، زار البلاد رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك.

في ٢٥ ايار ١٩٨٧، جرى الاعلان عن حال إفلاس عام (مزيد من الهبوط في اسعار البن والكاكاو)، وديـن على الدولة بقيمة ٤،٥ مليار فرنك فرنسي؛ وفي تشرين الثاني، قدمت فرنسا قرضًا بقيمة ١،٤ مليار دولار (وكان أعلن عن مقتل ثلاثة فرنسيين في غضون ثلاثة أشهر).

في شباط ١٩٩٠، اندلعت مظاهرات طلابية، وأعلن عن ان الاجور (لنحو ١١٠ آلاف أجير) تدنت بنسب تراوحت بين ١٥ و٤٠٪. في ٢٦ آذار ١٩٩٠، وقعت اضطرابات دموية في أبيدجان، وفي نيسان أعلن عن تعليق ا لعمل بخطة تقشفية، وفي ايار سار الجنود بتظاهرة بسبب ظروف معيشتهم المتدنية والتأخر بدفع رواتبهم، وفي حزيران سُمح بالعمل لستة احزاب جديدة (منها حزب شيوعي وآخر لحماية البيئة). وفي ٩ ايلول، زار البابا يوحنا بولس الثاني البلاد ودشّن كنيسة (بازيليك) العاصمة ياموسوكرو؛ وفي آخر الشهر نفسه اتهم الرئيس بوانيي المعارضة بمحاولتها اغتيال البابا. وفي ٢٨ تشرين الاول (١٩٩٠)، جرت انتخابات رئاسية، فاز بها الرئيس بوانيي في وجه منافسه لوران غباغبو، وبعد أقل من اسبوع اغتيل سفير ايطاليا في ساحل العاج، وتقدمت الجبهة الشعبية العاجية التي يتزعمها لوران غباغبو والتي كانت قد تأسست في ١٩٨٢ بدعوى الطعون في الانتخابات الرئاسية بحجة ان اللائحة الانتخابية لم تنشر قبل ١٠ ايام من الاقتراع كما ينص عليه القانون. وفي ٢٦ تشرين الثاني (١٩٩٠ ايضًا) جرت انتخابات نيابية، وفي ٢٤ كانون الاول انتخابات بلدية حيث فاز الحزب الديمقراطي لساحل العاج (حزب الرئيس بوانيي) بـ١٢٣ كومونة من اصل ١٣٥، وفازت الجبهة الشعبية العاجية بست كومونات.

في ايار ١٩٩١، اندلعت تظاهرات طلابية قمعتها السلطات بشدة وعنف دموي، وعاقب الطلاب رفيقًا لهم يدعى تيري زيبي، بضربه وتعذيبه وعزله بتهمة عمالته للشرطة.

في شباط ١٩٩٢، تجددت التظاهرات، وفي آذار اعتقل لوران غباغبو وحكم عليه بالسجن لسنتين، وبادرت ثمانية احزاب معارضة لإنشاء «التحالف الوطني» في ما بينها، وفي آب (١٩٩٢)، أفرج عن نحو ٢٥٠٠ معتقل بينهم لوران غباغبو.

في ٢٩ آذار ١٩٩٣، تمرد عناصر من الحرس الجمهوري بسبب «الاجحاف

المالي»، فعقد بوانيي اجتماعًا طارئًا حضره اركان الحزب الديمقراطي الحاكم، ورئيس الوزراء الحسن قتره ووزير الداخلية إميل بومبي. ورافق التمرد أعمال شغب ونهب. و«الاجحاف المالي» عبارة ملطفة «للازمة الاقتصادية الخانقة التي تمر بها البلاد وتنعكس على اوضاع المؤسسة العسكرية».

في اوائل صيف ١٩٩٣، غادر بوانيي إلى باريس في «زيارة خاصة» اعتاد القيام بها كل صيف. لكن هذه المرة، مكث بوانيي في باريس مدة طويلة واجرى عملية جراحية فتحت الابواب امام حملات المسترئسين لخلافته. وتنص المادة ١١ من الدستور المعمول به على ان يتسلم رئيس مجلس النواب رئاسة الجمهورية في حال وفاة الرئيس ويكمل ولايته، الامر الذي يجعل رئيس مجلس النواب هنري كونان بيديي الخليفة الشرعي لبوانيي. وفي ١٩ تشرين الثاني ١٩٩٣، عاد بوانيي إلى بلاده بعد ستة أشهر من إجرائه عملية استئصال البروستات والعلاج. وتزخّم الصراع السياسي الداخلي على خلافته، خاصة بين كونان بيديي (رئيس مجلس النواب) والحسن قتره وزعيم الجبهة الشعبية العاجية لوران غباغبو. وبدا ان العامل الأهم في الحسم هو الموقف الفرنسي. وفي زخم هذا الصراع شهدت البلاد تظاهرات للباحثين والمعلمين والاطباء والممرضات ونقابة عمال الكهرباء والغاز لحض الحكومة على دفع الرواتب والاجور المتأخرة. وفي ٧ كانون الاول ١٩٩٣، أعلن رئيس الحكومة الحسن قتره وفاة الرئيس بوانيي في مسقط رأسه في ياموسوكرو، وتزامن اعلان الوفاة مع حلول الذكرى ٣٣ لاستقلال ساحل العاج. وبدأت بوادر الانقسام على خلافته حين اجتمع مجلس الوزراء ودعا المحكمة العليا إلى البت في أمر فراغ منصب رئيس الجمهورية، إلا أن بيديي توجه فورًا إلى مبنى التلفزيون وأعلن انه تسلم منصب رئيس الجمهورية بموجب الدستور (المادة ١١) داعيًا الشعب العاجي إلى التزام القرار الجديد. ثم توالت برقيات الاعتراف به رئيسًا من رؤساء الدول المؤثرة في سياسة ساحل العاج وأهمها فرنسا. وبعد اسبوع، شكلت الحكومة الاولى لعهد الرئيس الجديد هنري كونان بيديي برئاسة دانيال كابلان دنكان الذي كان وزيرًا للمال في حكومة الحسن قتره المستقيلة والمشرف على المفاوضات مع المؤسسات المالية الدولية. وكانت المفاجأة بتسلم وزادي زاورو، رئيس «تجمع الديمقراطيين الاجتماعيين» (ثالث احزاب المعارضة) حقيبة الثقافة في خطوة فسّرت بأنها في سياق سياسة الانفتاح التي اعلنها رئيس الجمهورية الجديد، في حين رفض زعيم المعارضة لوران غباغبو المشاركة في الحكومة بسبب رفض الرئيس بيديي الشروط التي وضعها وأهمها ان تكون الحكومة الحالية انتقالية.

الجدير ذكره، هنا، انه بعد ايام قليلة من وفاة بوانيي، وتحديدًا في ١١ كانون الثاني ١٩٩٤، «كانت افريقيا السوداء الفرنكوفونية تستعد لالقاء نفسها مكرهة، لتماسيح المؤسسات المالية الدولية وبصورة خاصة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ليس حزنًا على



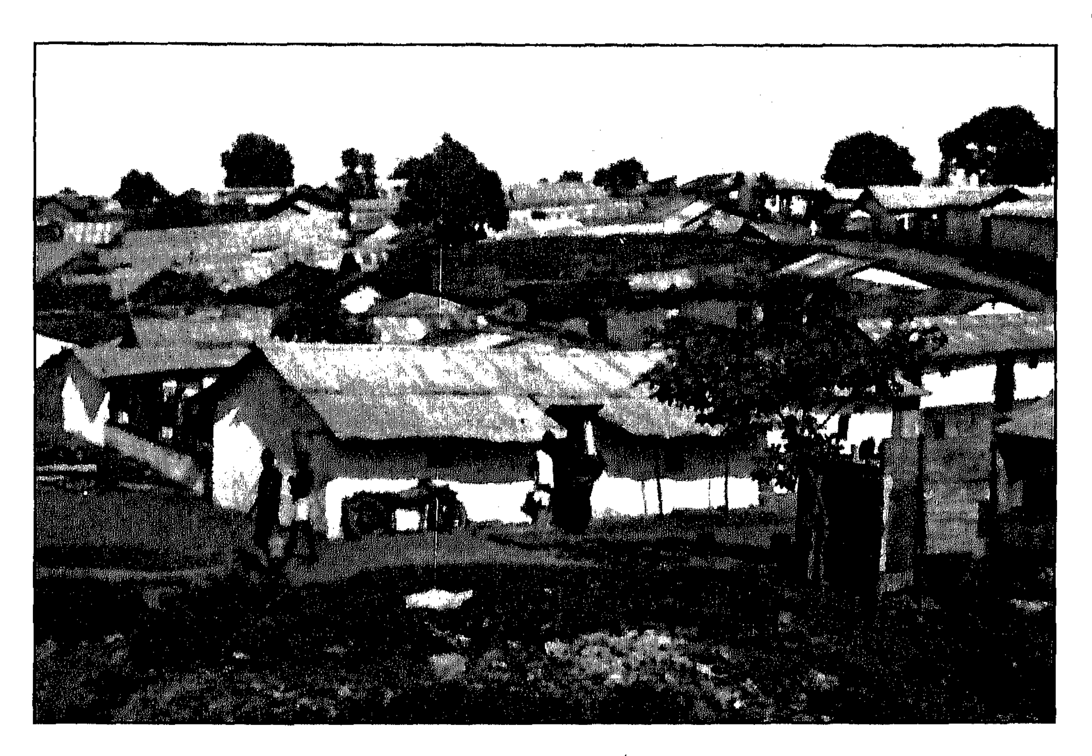
آلاف العاجيين يلوحون بصور الرئيس الراحل هوفويت بوانيي في ياموسوكرو.

الرئيس العاجي، عميد حكام افريقيا السوداء، بل يأسًا من جحود فرنسا الام الحنون لهذه الدول. هنا اكتشف رؤساء ١٤ دولة فرنكوفونية ان الحياة باتت مستحيلة بعدما قررت باريس «فطم» حلفائها الافارقة وبالتالي التوقف عن «ارضاعهم» بالمساعدات المالية من جهة وحمايتهم من تماسيح البنك الدولي وصندوق النقد من جهة أخرى. فالتقى ممثلو ١٤ دولة تنتمي إلى منطقة الفرنك الفرنسي في داكار عاصمة السنغال (في ١١ كانون الثاني ١٩٩٤، وقرروا تخفيض قيمة الفرنك الافريقي (C.F.A) بنسبة ٥٠٪ (الفرنك الافريقي كان يساوي ٢ سنتيم فرنسي). والدول التي اتخذت هذا القرار الاول في نوعه منذ ١٩٤٨، هي: مالي وبوركينا فاسو والنيجر والسنغال وساحل العاج والتوغو وبينن وتشاد وغينيا الاستوائية والغابون وجمهورية افريقيا الوسطى والكونغو والكامرون وجزر القمر. وقبل اتخاذ هذا القرار كانت فرنسا قد بعثت برسائل صريحة لقادة هذه الدول مفادها انها إذا لم تسوّ خلافاتها مع المؤسسات المصرفية الدولية فإنها ستحرم من المساعدات الفرنسية. وتسوية الخلافات تتعلق بالديون الخارجية واعادة جدولتها، وفي كل مرة يطرح موضوع من هذا النوع امام الهيئات المالية الدولية، يكون جوابها التقليدي تخفيض سعر العملة وخفض الانفاق العام ورفع الدعم عن السلع الضرورية، وباختصار دفع الدولة المديونة إلى تقليع شوكها بيدها» (فيصل جلول، «الوسط»، العدد ١٠٩، ٢٨ شباط ١٩٩٤، ص٣١-٣٢).

ما بعد بوانيي: في ٢٠ ايلول ١٩٩٥، أعلنت الحكومة منع كل التظاهرات «في الشوارع والاماكن العامة، لمدة ثلاثة أشهر، وهي الفترة التي ستجري فيها الانتخابات العامة بين تشرين الاول وكانون الاول». وجاء هذا القرار بعد ان عمدت قوى الامن إلى تفريق تظاهرتين قامت بهما المعارضة، قبل يوم واحد، وجرح وأوقف فيهما عدد كبير من المتظاهرين. لكن هذا القرار أدّى إلى مواجهات بين قوات الامن ومؤيدي المعارضة ذهبت بحياة عدد من الضحايا من الطرفين في النصف الاول من تشرين الاول، خاصة في منطقتي بوبوجون وماركوري وهما معقلان للمعارضة في ضواحي أبيدجان. وبرز منافس وحيد للرئيس هنري كونان بيديي في ثاني انتخابات تجري على قاعدة التعددية بعد انتهاء عهد حكم الحزب الواحد في ١٩٩٣، هو فرنسيس بوديي زعيم حزب العمال (حزب صغير) الذي خرج على إجماع مقاطعة احزاب المعارضة بعدم الاشتراك في الانتخابات.

في ٢٢ تشرين الاول ١٩٩٥، جرت الانتخابات الرئاسية (مقاطعة المعارضة، ونسبة من الناخبين متوسطة في مناطق وضعيفة في أخرى)، واشارت الارقام الرسمية إلى ان ٥٦٪ من ناخبي البلاد المسجلين البالغ عددهم ٣،٨ مليون ناخب ادلوا باصواتهم. لكن لوران غباغبو، زعيم المعارضة، قال ان نسبة المقترعين قليلة جدًا، وقد «شاركوا بعملية اقتراع مزيفة». واعلنت وزارة الداخلية بأن الرئيس بيديي حصل على أكثر من ٩٠٪ من إجمالي الاصوات وان أكثر من ٦٠٪ من الناخبين المسجلين مارسوا حقهم المدني في الانتخاب.

في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٥، جرت ثاني انتخابات نيابية على اساس التعددية الحزبية دون مشاركة زعيمي أكبر حزبين معارضين: لوران غباغبو (الجبهة الشعبية) ودجيني كوبينا (التجمع من اجل الجمهورية المنشق عن الحزب الديمقراطي الحاكم بعد وفاة بوانيي)، لكن بمشاركة المعارضة في تقديم مرشحين عنها. وقد فاز الحزب الديمقراطي بـ٦٤ مقعدًا من مجموع ١٧٥ مقعدًا، وفازت الجبهة الشعبية بـ٤ مقاعد، والتجمع من اجل الجمهورية بـ٣.



حي شعبي في ضاحية من ضواحي ابيدجان.

مدن ومعالم

* **أبيدجان Abidjan**: مدينة في ساحل العاج. عاصمة البلاد بين ١٩٣٤ و١٩٨٣. تقع داخل بحيرة إيبريي الشاطئية المتصلة بخليج غينيا بواسطة قناة فريدي Vridi. تعد (مع ضواحيها) نحو ٢،٧٥٠ مليون نسمة، وفيها حي كورودي حيث القصر الجمهوري ويعد نحو ١٥٠ ألف نسمة. ميناؤها الذي أنشىء في ١٩٥٠ ساهم إلى حد كبير بإنمائها ونهضتها. جامعة. مجمعات حرارية. مصفاة لتكرير النفط. صناعات مواد البناء واستخراج المعادن وتنقيتها. معالجة البن والكاكاو. صيد الاسماك.

* **بواكي Bouaké**: مدينة في ساحل العاج. تقع في وسط البلاد، وعلى مسافة ٣٧٨كلم من أبيدجان. تعد نحو ٣٧٠ ألف نسمة. عقدة مواصلات. صناعات نسيجية. حلج القطن. صناعة التبغ. جامعة (تأسست في ١٩٧٨). مناجم التنطال (عنصر فلزي شبيه بالفضة أو البلاتين).

* **دالوا Daloa**: مدينة في ساحل العاج. تبعد ٤٠٠كلم عن أبيدجان. تعد نحو ١٣٠ ألف نسمة.

* **غاغنوا Gagnoa**: مدينة في ساحل العاج. تعد نحو ٩٠ ألف نسمة. زراعات البن والكاكاو.

* **كورهوغو Korhogo**: مدينة في ساحل العاج. تعد نحو ١٢٠ ألف نسمة (راجع «كوليبالي، غبون» في باب زعماء، رجال دولة وسياسة).

* **مان Man**: مدينة في ساحل العاج. تقع عند اقدام جبال المان على بعد ٥٩٩كلم من أبيدجان. تعد نحو ٩٥ ألف نسمة. بن، كاكاو، مصانع آجر. (هناك جزيرة مان تابعة لبريطانيا وواقعة في بحر ايرلندا في وسط المسافة بين بريطانيا وايرلندا، مساحتها ٥٧٢كلم م. ويسكنها نحو ٧٠ ألف شخص، وقاعدتها دوغلاس).

* **ياموسوكرو Yamoussoukro**: عاصمة ساحل العاج منذ ١٩٨٣. على بعد ٢٥٠كلم شمالي أبيدجان. تعد نحو ١٧٥ ألف نسمة. مسقط رأس الرئيس بوانيي.

شهيرة بكاتدرائيتها، «سيدة السلام»، التي شيدت في ١٩٨٥-١٩٨٨، على رقعة ٩٠ ألف م.م.، وتتسع لـ٧ آلاف شخص جلوسًا، و١١ ألفًا وقوفًا، و٣٥ ألفًا في الفناء الذي هو على شكل صليب (١٩٠م×١٥٠م)، و٣٠٠ ألف في الباحة التي تقف على ٨٤ عمودًا، ارتفاع الواحد ٢٥م. دشّنها البابا يوحنا بولس الثاني في ٩-١٠ ايلول ١٩٨٩. طرازها مطابق (مع مزيد من الكبر والاتساع مع فارق انها من الباطون المسلح) لكاتدرائية القديس بطرس في روما، إذ ترتفع على ٢٧٢ عمودًا (ارتفاع الواحد ٢١م ومحيطه ٢،٢م). تعلوها قبة هي الأكبر في العالم (١٦٠م). تزينها ٧٥٠٠م.م. من الواجهات الزجاجية المصنوعة في النورماندي (فرنسا). هندسها وأشرف على تنفيذها المهندس اللبناني بيار فاخوري، والمهندس الفرنسي دوميز Dumez. مساحة منتزهها ١٣٠ هكتارًا (٣ مرات أكبر من الفاتيكان). التكاليف: مليار فرنك فرنسي. موّلها الرئيس فليكس هوفويت بوانيي، ووهبها للبابا. جرت جنازة بوانيي فيها، وكان أوصى بأن تعود فوائد ممتلكاته، كل سنة، للفاتيكان.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **بوانيي، فليكس هوفويت Boignie,F.H.** (١٩٠٥-١٩٩٣): سياسي افريقي، رئيس جمهورية ساحل العاج منذ ١٩٦٠ حتى وفاته في ١٩٩٣. لقب بـ«حكيم افريقيا». ينتمي إلى قبيلة باولي أكبر القبائل انتشارًا ونفوذًا في البلاد. وقد نصّب زعيمًا لها في سن مبكر (٥ سنوات) وكان معتنقًا إحدى المعتقدات الاحيائية. أعتنق الكاثوليكية وتلقى سرّ العماد وهو في الثالثة عشرة من عمره.

ولد في ياموسوكرو. درس الطب في مدرسة الطب الفرنسية في داكار، وامتهنه لمدة ١٥ سنة بعد تخرجه. انصرف إلى السياسة، فألّف نقابة العمال الزراعيين في ١٩٤٤ لتحسين زيادة انتاج البن والكاكاو، ثم أسس الحزب الديمقراطي لساحل العاج في ١٩٤٥. في ١٩٥٦، انتخب عمدة مدينة أبيدجان (عاصمة ساحل العاج آنذاك)، وفي السنة التالية، حضر دورة الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة مطالبًا بالمساواة في الحقوق والواجبات بين الافريقيين وشعوب الدول الأخرى. انتخب ممثلاً لساحل العاج في الجمعية الوطنية الفرنسية في باريس حتى ١٩٥٩ حين عين

وزيرًا في وزارة غي موليه الفرنسية، ثم رئيسًا لوزراء ساحل العاج في اول ايار من العام نفسه. وفي ٦ آب ١٩٦٠ حصلت بلاده على الاستقلال التام، وفي ٢٧ تشرين الثاني (١٩٦٠) انتخب أول رئيس للجمهورية. عمل على قيام وحدة اقتصادية بين ساحل العاج وفولتا العليا (أصبح إسمها بوركينا فاسو) والنيجر وداهومي (بينن).

تميز حكمه الذي امتد نحو ثلاثة عقود ونصف العقد، بتقربه الشديد من السياسة الفرنسية (يأتي إسمه في مقدمة السياسيين الفرنكوفونيين)، وبالاستقرار الخالي إلى حد كبير من العنف الذي عرفته أكثر البلدان الافريقية.

تحول وداعه (توفي في ١٩٩٣) إلى تظاهرة شعبية وافريقية ودولية تكريمًا لـ«حكيم افريقيا». وسارت في شوارع أبيدجان مئات ألوف المشيعين، فيما غصت كاتدرائية «سيدة السلام» في ياموسوكرو بالآلاف يتقدمهم الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران والرئيس اللبناني الياس الهراوي (في ساحل العاج، مئات آلاف من اللبنانيين المغتربين ومهندس الكاتدرائية لبناني) و٢٤ رئيسًا افريقيًا (راجع «نبذة تاريخية»).

* **بوديي، فرنسيس.Bodié,F** : سياسي عاجي، زعيم حزب العمال المعارض (حزب صغير). خرج على اتفاق الاحزاب المعارضة بعدم الاشتراك في الانتخابات الرئاسية بعد وفاة بوانيي، ورشح نفسه لمنافسة الرئيس الحالي هنري كونان بيديي، ونال نسبة ضئيلة من الاصوات (راجع «نبذة تاريخية».

* **بيديي، هنري كونان .Bédié,H.K** (١٩٣٤-): سياسي عاجي. الرئيس الحالي لساحل العاج (منذ ٢٢ تشرين الاول ١٩٩٥). وكانت فرص فوزه بالانتخابات الرئاسية أكيدة نتيجة الاحداث التي سبقتها (تأكيد فرنسا لتأييدها المسار الدستوري الذي بدا واضحًا انه يصب في مصلحة بيديي، مقاطعة المعارضة للانتخابات وعدم بروز مرشحين اقوياء).

ولد بيديي في داديكرو، وينتمي إلى قبيلة باولي مثل سلفه. تلقى تعليمه في معهد دابو للمعلمين قبل ان يحصل على شهادة «إل.إل.ب.» في فرنسا، ثم الدكتوراه في جامعة بواتيي (فرنسا). أصبح القنصل الدبلوماسي في سفارة بلاده في فرنسا، وأنشأ لاحقًا (١٩٦٠) بعثة ساحل العاج لدى الامم المتحدة. كذلك عين سفيرًا في الولايات المتحدة ولما يتجاوز ٢٦ عامًا من العمر وبقي في منصبه حتى ١٩٦٦. في تموز ١٩٦٦، عاد إلى أبيدجان ليتولى منصب وزير بالوكالة للشؤون المالية (بصفته خبير اقتصادي وأكاديمي)، وأصبح في ١٩٦٨ وزيرًا للاقتصاد والمال حيث استمر على رأس هذه الوزارة إلى أن عزل، مع ثلاثة وزراء بارزين في إطار تعديل وزاري في تموز ١٩٧٧. وإلى جانب منصبه الوزاري هذا كان بيديي حاكمًا في صندوق النقد الدولي ومسؤولاً اداريًا في البنك الدولي، ومستشارًا خاصًا لروكفلر، رئيس «شركة التمويل العالمية» التابعة للبنك الدولي، فأتاح له هذا الموقع ان يعبىء دعمًا دوليًا لبلاده في سنوات الازمة الاقتصادية اللاحقة.

في كانون الاول ١٩٨٠، انتخب رئيسًا للجمعية الوطنية (البرلمان)، وكان مسؤولاً عن تنظيم انتخابات رئاسية جديدة في حال حصول أي عارض للرئيس بوانيي الطاعن في السن، وأصبح المرشح الأكثر ترجيحًا لخلافة بوانيي.

أهم قضية ارتبط بها إسم بيديي في التاريخ السياسي لساحل العاج انه كان اول من طرح فكرة تبني نظام التعددية، وذلك في مطلع ١٩٩٠. وهي الفكرة التي تطورت إلى قيام حكومة ديمقراطية اثر الانتخابات في تشرين الثاني ١٩٩٠.

باعتباره رئيسًا للجمعية الوطنية، شغل منصب رئيس الجمهورية منذ وفاة بوانيي في اواخر

١٩٩٣ تطبيقًا للمادة ١١ من الدستور. انتخب رئيسًا للجمهورية في تشرين الاول ١٩٩٥. من خطبه وتصريحاته، منذ انتخابه رئيسًا، انه سيبذل ما في وسعه لمعافاة اقتصاد بلاده ومكافحة البطالة التي تحولت إلى سرطان ينهش السكان، والتصدي لاتهامات بالفساد طاولت كبار المسؤولين الحكوميين والحزبيين (الحزب الديمقراطي لساحل العاج، وبيديي ينتمي إليه). وقبل كل شيء، الحاجة إلى تحقيق مصالحة بين القبائل والاتنيات المختلفة التي كانت متآخية إلى وقت قريب (وكان بوانيي نجح، بزعامته التاريخية، في طمس تعارضاتها وتناقضاتها)، لكن القواعد الانتخابية التي صيغت قبيل المعركة الانتخابية الرئاسية التي تلتها بعد أسابيع المعركة الانتخابية النيابية، فرّقت صفوفها (راجع «نبذة تاريخية»).

* **غباغبو، لوران Gbagbo,L.**: سياسي عاجي. زعيم حزب «الجبهة الشعبية» وزعيم المعارضة. أمل بدعم فرنسي له، وحصل عليه إلى حد ما في عهد حكومة ميتران الاشتراكية في فرنسا. وبعد هزيمة الحزب الاشتراكي في فرنسا وفوز الرئيس جاك شيراك تضاءل الدعم الفرنسي للمعارضة العاجية (راجع «نبذة تاريخية»).

* **قتره، الحسن Quattra,Alassane**: سياسي عاجي. رئيس وزراء وأحد اقطاب الحزب الديمقراطي لساحل العاج. نافس بيديي على خلافة بوانيي. أيده، في هذه المنافسة، حزب «التجمع الجمهوري» المنشق عن الحزب الديمقراطي الحاكم. فعمد قتره، قبل ان يترك منصبه كرئيس للوزراء، في كانون ا لاول ١٩٩٣، إلى إعلان تحديه لصعود بيديي إلى الرئاسة بشكل تلقائي (أي من موقع بيديي كرئيس للجمعية الوطنية). وكان مثل هذا الامر معتبرًا كتحد دستوري من شأنه ان يهدد بتمزيق البلاد. إلا ان قتره عاد وانسحب بهدوء ليتولى منصب نائب رئيس صندوق النقد الدولي، ومقره الولايات المتحدة الاميركية.

في خريف ١٩٩٥، أي قبل اسابيع من موعد الانتخابات الرئاسية عاد قتره إلى البلاد. فحاول حزب «التجمع الجمهوري» تنظيم حملته الانتخابية، خصوصًا وان قتره يتمتع بتأييد سياسي قوي في الشمال ذي الغالبية المسلمة حيث مسقط رأسه. لكنه فضّل في الاخير عدم خوض هذه المعركة.

كان الحسن قتره أول من تسلم منصب رئيس الوزراء في ساحل العاج بعدما كان حاكمًا للمصرف المركزي لدول غربي افريقيا. وقد سعى، منذ ١٩٩٠، إلى تصحيح الاوضاع الاقتصادية للبلاد وإعادة ثقة المؤسسات المالية والدولية بساحل العاج وفق برنامج اصلاحي يحمل إسمه ويعتمد بالدرجة الاولى على مكافحة الفساد وتحديث الادارة، وعلى علاقاته الدولية التي اكتسبها نتيجة عمله فترة طويلة مديرًا لدائرة افريقيا في البنك الدولي. وقد حاول في فترة ١٩٩١-١٩٩٣ تجيير الدعم الاقتصادي والمالي الذي حظي به من الحكومة الفرنسية إلى دعم سياسي له ولحكومته.

لم يعلن نيته الترشيح لخلافة بوانيي عندما بدأ التنافس عليها (١٩٩٣)، كما انه لم ينف هذا الامر: «إن الامور مرهونة باوقاتها». وتقدم (في اوائل آب ١٩٩٣) بمشروع قانون إلى مجلس النواب (١٦٥ نائبًا من الحزب الديمقراطي الحاكم من أصل ١٧٥ نائبًا، والحسن قتره أحد أقطاب هذا الحزب) لتعديل المادة ١١ من الدستور وإعادتها إلى ما كانت عليه منذ سنوات، أي إجراء انتخابات رئاسية خلال ٦٠ يومًا بعد وفاة الرئيس في ما اعتبر موجهًا بشكل صريح ضد وصول بيديي إلى الرئاسة. لكن مشروع القانون سحب في الدقائق الاخيرة قبل التصويت عليه في مجلس النواب تلبية لرغبة بوانيي نفسه. وهكذا بدأت

الامور تسير لصالح هنري كونان بيدبي.

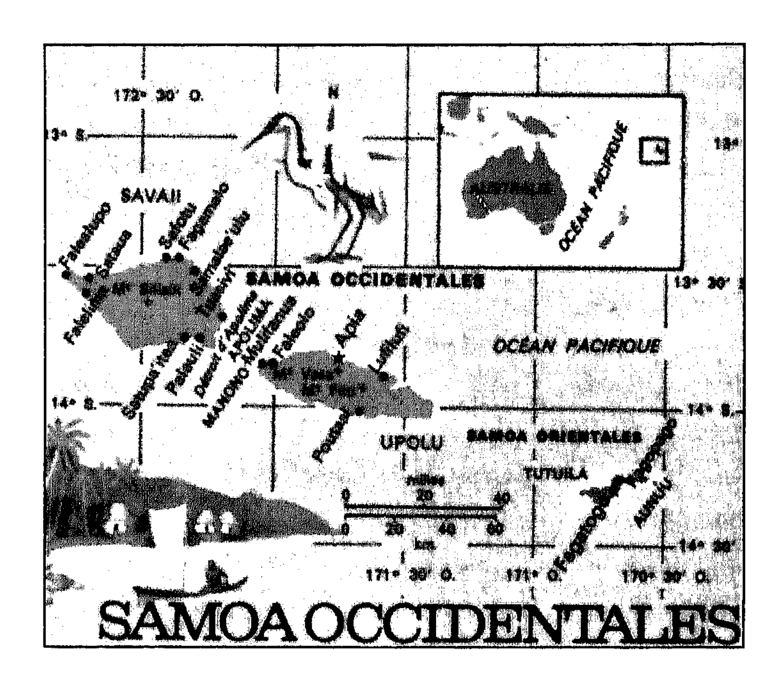
*** كوليبـالي، غبـون (بيلفـورو سـورو)** (١٨٦٠-١٩٦٢) **Coulibaly,G (P.S.)**: زعيـم افريقي من ساحل العاج. أبـوه زواكوغـانو سـورو زعيـم ولاية تييمبـارا في كورهوغـو. كـان إسمـه بيلفورو سـورو، غـير انـه لقـب بعـد ذلـك بلقـب «غبـون» أي «شمبـانزي» بلغـة سينوفو، واشـتهر بهذا اللقب.

خلف اباه، بعد ان تورطت كورهوغو (في ساحل العاج في ١٨٧٠ في الحرب الدائرة في غربي السودان الفرنسـي (مـالي) حيث قـاد جيش ابيـه لمساعدة دولة سيكاسو على صد الغازي سـاموري تـوري. وفي ١٨٩٤، تـوفي زواكوغـانو بمـرض الجدري فصار بيلفـورو حاكمًا على كورهوغـو. بعدهـا نقـض عهـده مع سيكاسـو وتحـالف مـع سـاموري قبـل ان ينقلـب عليـه مجـددًا وينحـاز إلى الفرنسـيين الذيـن كـانت مستعمرتهم في سـاحل العاج تمتد شمالاً لتضم كورهوغـو التي صارت في ١٩٠٠ عاصمة قضاء إداري. وكان كوليبـالي في ا لبداية حاكمًـا فعليًـا تحـت إشـراف الفرنسـيين وكـانت الادارة الفرنسية في طورهـا العسـكري الاول قد فضلت ان تحكم هذه الولايـة مـن طريـق غير مباشر. ثم ادخلت الادارة المدنية والتقسـيمات الادارية في ١٩٠٥. وكان لكوليبـالي علاقـة مميزة مع المستعمرين الذين وجدوا فيه زعيمًا قويًا واسـع النفـوذ. وكـان يجبي الضرائـب الاسـتعمارية الاساسية، ويجمع الحمّـالين والفلاحـين والجنـود ليعملوا مع الاوروبيين. وقيل انه تزوج خلال فترة حكمـه بـ٥٣٠ زوجـة. أمـا أكـبر أبنائـه (مولـود ١٨٩٨)، فقد أسلم وغيّر إسمه واستعان بمستشارين مسلمين، فاسلم كثير من اتباعـه، مـا أثـار حفيظـة الفرنسيين.

منحه (كوليبـالي) الفرنسيون عـددًا مـن الاوسمـة والالقـاب، وكافـاؤه بتـأمين جـولات ورحـلات لـه متعـددة في سـاحل العـاج وفرنسـا. وحين عاد زادت حماسته ودعوته للفرنسيين وعمل على تحديث مزرعته، وسحب أولاده من مدرسة القرآن وأدخلهم المدارس الحكومية.

بعد ١٩٣٠، تغير موقـف الفرنسـيين منـه، فتأزمت العلاقة بين الطرفين. رفض كوليبـالي الحـد من سلطته أو مشاركة أحد فيها. غير ان الفرنسيين أجـروا بعـض الاصلاحـات وعينـوا رؤسـاء قبـائل جددًا في كل افريقيا الغربيـة الفرنسية في ١٩٣٢. ومع ذلك، استمر الفرنسيون في إغـداق المكافـآت والأوسمة عليـه، ثـم عـين في ١٩٤٢ زعيمًـا لكـل كانتونات كورهوغو الثلاثة عشر. وعلى أثر ذلـك خلفه إبنه نيما زعيمًا على تييمباراس خلافًـا لـرأي الفرنسيين.

انضم كوليبالي في ١٩٤٢ إلى فرع التجمع الديمقراطي الافريقي في ساحل العاج، وكان يتزعم هذا التجمع فليكس هوفويت بوانيـي. وقـد دعمـه كوليبالي إلى أن أجبرتـه السلطات الفرنسية على التخلي عن ممارسة نشـاطه السياسـي. وحين نـال البلد استقلاله كان كوليبالي في عامـه المئـة، وكـان ضعيفًا خائرًا. وقد توفي في ١٩ ايلول ١٩٦٢ بعـد زعامـة دامـت ٦٨ عامًـا، فكرمـه الرئيـس بوانيـي بوسـام، ودفـن في مسـجد كورهوغـو («موسـوعة السياسـة»، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشـر، بـيروت، ج٥، ط٢، ص٢٥٨) .



ساموا الغربية

نبذة عامة

الموقع: مجموعة جزر (ارخبيل) واقعة في المحيط الباسيفيكي شمالي نيوزيلاندا وجنوبي جزر فينيكس. أهم هذه الجزر جزيرتا سافائي وأوبولي Upolu، Savaii، تليهما جزر مانونو، أبولينا وعدد من الجزر الصغيرة غير المأهولة.

المساحة: ٢٨٤٢كلم م..

العاصمة: آبيا Apia الواقعة في جزيرة أوبولي، وتعد نحو ٤٠ ألف نسمة.

اللغات: الانكليزية والساموية (لغة بولينيزية محلية)، واللغتان رسميتان.

السكان: يعدون نحو ٢٠٠ ألف نسمة. نحو ٨٨٪ منهم بولينيزيون، و١٠٪ خلاسيون، و٢٪ أوروبيون. نحو ٧٠٪ يعتنقون المسيحية البروتستانتية، و٢٠٪ الكاثوليكية، والباقون اصحاب معتقدات إحيائية محلية.

الحكم: كان ملكيًا مع الملك ورئيس الدولة ماليتوا ثانومافيلي الثاني (مولود ٤ كانون الثاني ١٩١٣)، وذلك منذ أول كانون الثاني ١٩٦٢ حتى وفاته، حيث الغيت الملكية وانتخب خليفته من قبل الجمعية الوطنية (البرلمان) المكونة من ٤٩ عضوًا (٤٧ منتخبًا من قبل «معاهد الزعماء» الذين يقال لهم «ماتائي» ومجموع المقترعين منهم ٢٥ ألفًا، وعضوان بالانتخاب العام والشامل، وذلك لمدة خمسة أعوام). وتنافس في انتخابات نيسان ١٩٩١، حزب حقوق الانسان الذي نال ٣٠ مقعدًا، وحزب الطليعة الوطنية (١٦ مقعدًا) وحزب الاستقلال (مقعد واحد). والدستور المعمول به صادر في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٠. في ١٩٩١، صدر قانون يحدد حق الانتخاب بالبالغين سن الواحد والعشرين وما فوق.

الاقتصاد: يعمل في الزراعة ٥٨٪ من اليد العاملة، وتساهم بنحو ٣٠٪ من الناتج القومي العام، وفي الصناعة ١٠٪ من اليد العاملة وتساهم في ١٢٪ من الناتج القومي العام، وفي الخدمات ٣٢٪ (٥٨٪). وتغطي الاراضي المزروعة نحو ٢٢٪ من مساحة البلاد. ليس في ساموا الغربية ثروات منجمية، وتنحصر الصناعة في المشغولات اليدوية. تصدر الكوبرا، الموز، الكاكاو. وتستورد

اللحوم، السكر، والعربات. صيد الاسماك قطاع مهم في حياة السكان (نحو ٤ آلاف طن سنويًا). ويزور البلاد عدد من السّواح معدله السنوي نحو ٤٥ ألف سائح. ومعدل قيمة المساعدات الخارجية نحو ٥٥ مليون دولار.

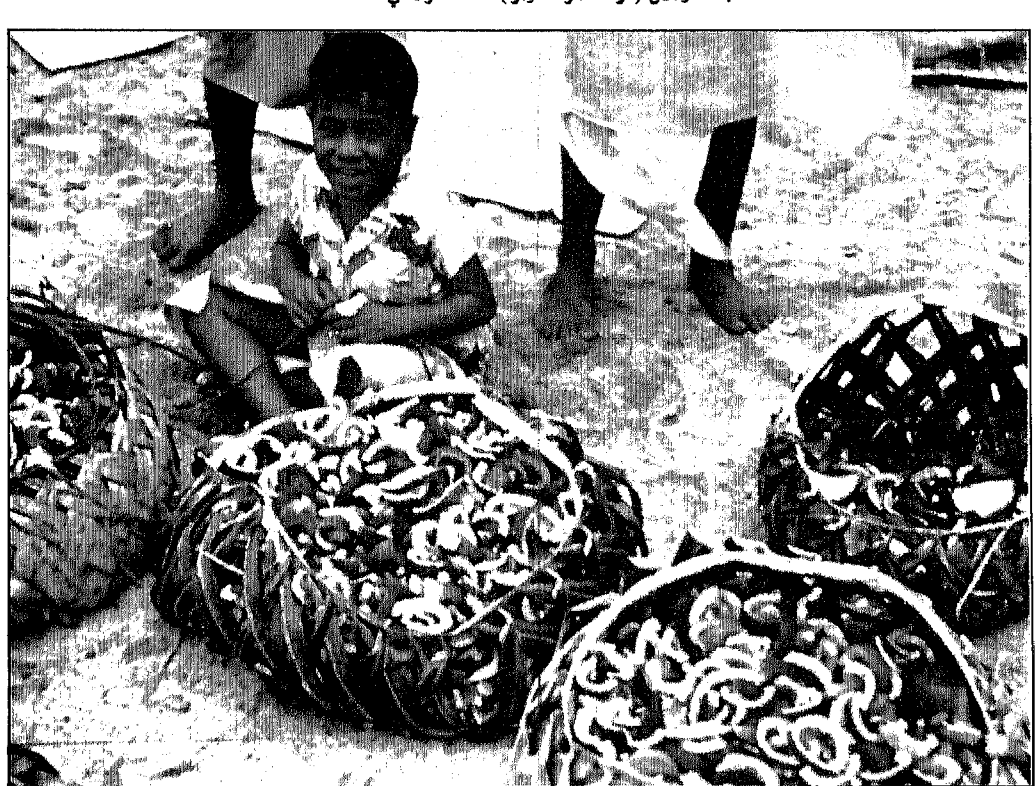
نبذة تاريخية: كان الرحالة الهولندي جاكوب روغيفين اول الاوروبيين الذين شاهدوا أرخبيل ساموا الغربية، وذلك في ١٧٢٢. وزاره الفرنسي لويس انطوان دو بوغنفيل في ١٧٦٨، وأطلق عليه إسم «أرخبيل البحّارة». أما الاتصال المستمر بالارخبيل فبدأ في ١٨٣٠ مع وصول المرسلين البروتستانت الانكليز؛ ثم المرسلين الكاثوليك الفرنسيين. واستطاعت المسيحية ان تنتشر في البلاد وتتدعم خلال سنوات قليلة على الرغم من الخلافات الحادة التي كانت تعصف بين المبشرين البروتستانت والكاثوليك.

تنازعت على جزر ساموا الغربية كل من بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية، لأهمية موقعها الجغرافي ولإنتاجها الكوبرا (لب النارجيل). أقامت الولايات المتحدة في منطقة تدعى باغو باغو محطة بحرية في ١٨٧٨. ثم ما لبثت بريطانيا ان حذت، وبعدها ألمانيا، حذو الولايات المتحدة، فاقامت كل منهما محطة بحرية لها في الجزر.

في ١٤ تموز ١٨٨٩، وقعت معاهدة تمّ بموجبها توحيد جزر ساموا الغربية ووضعها تحت حماية الدول الثلاث. وبعد سنوات، تخلت بريطانيا عن حصتها في ساموا الغربية لألمانيا كسبًا لدعم هذه الأخيرة لها في سياستها الافريقية، فقسمت الجزر بين المانيا التي نالت الجزء الغربي (جزيرة أوبولي وجزيرة سافائي)، والولايات المتحدة التي حصلت على الجزء الشرقي.

احتلت القوات النيوزيلاندية والاوسترالية


لب النارجيل (ثمرة شجر الكوبرا) الغذاء الرئيسي للسكان.

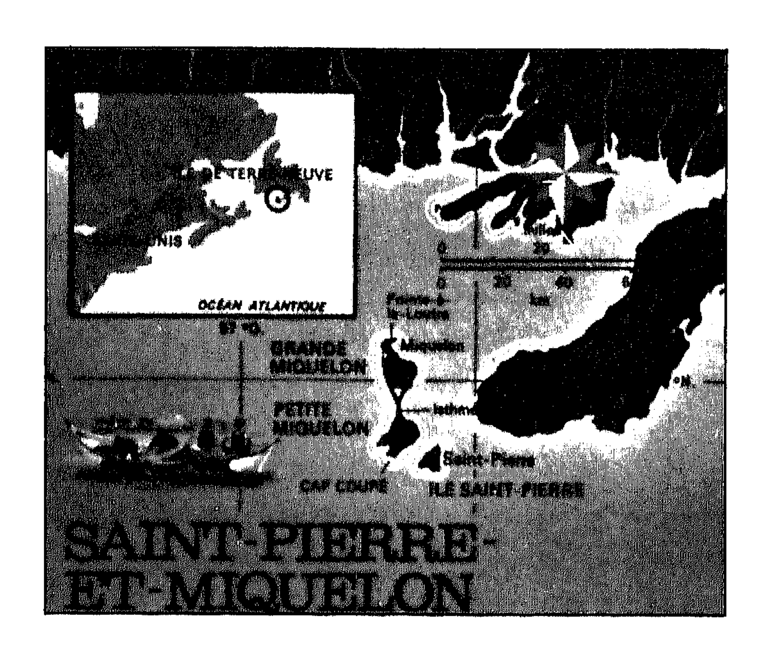


الجزر منذ بداية الحرب العالمية الاولى، وانتزعتها من المانيا بموجب معاهدة فرساي (١٩١٩). وجاءت عصبة الامم المتحدة ووضعت البلاد تحت انتداب نيوزيلاندا في ١٧ كانون الاول ١٩٢٠. وفي ١٩٤٦، وضعت تحت وصاية هيئة الامم المتحدة حيث تمتعت باستقلال إداري وتشريعي شبه كامل. وجرى وضع دستور حديث وأصبحت ساموا الغربية مستقلة في اول كانون الثاني ١٩٦٢. وهي عضو في الكومنولث، ولما تزل تحافظ على علاقات مميزة مع نيوزيلاندا، الدولة الوحيدة التي لها تمثيل دبلوماسي في ساموا الغربية.

وأظهر حكام ساموا الغربية، في سياستهم الاقتصادية وعلاقاتهم الخارجية، الكثير من الواقعية. وقد شكلت وزارة خاصة مكلفة تنمية نشاطات اقتصادية جديدة في البلاد، كالسياحة وتربية المواشي واستثمار الغابات. ووقعوا معاهدة صداقة مع نيوزيلاندا لتساعدهم في مجال العلاقات الدولية، وتقدم لهم الدعم التقني. وشارك الساموييون في أعمال «لجنة جنوب الباسيفيك».

أصبحت ساموا الغربية على لسان الكثيرين في العالم عندما حقق فريقها الرياضي في لعبة «الروكبي» نتائج باهرة في مباراة كأس العام.

في جزيرة أوبولي (حيث العاصمة آبيا) ضريح الشاعر والروائي البريطاني ستيفنسون Stevenson (روبير لويس بلفور ستيفنسون) الذي ولد في إدنبورغ في ١٨٥٠ ومات في ساموا الغربية في ١٨٩٤، وكان هائمًا على وجهه مكافحًا مرضه. فقصد جزر الماركيز، ثم تاهيتي وهونولولو إلى أن استقر في ساموا الغربية.



سان بيار وميكلون

نبذة عامة

الموقع: ثماني جزر صغيرة في المحيط الاطلسي عند الشاطىء الجنوبي من الارض الجديدة، وعلى بعد ٢١كلم منها وقرب الحدود الشرقية لكندا.

المساحة: ٢٤٢كلم م. منها ٢٦ كلم م. لجزيرة سان بيار والجزر الصغيرة القريبة منها، و٢١٦كلم م. لجزيرتي ميكلون الكبرى والصغرى اللتين تغطيهما طبقة ثلجية على مدار السنة.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٦ آلاف نسمة. ثلاثة أرباعهم يعيشون في جزيرة سان بيار. يتكلم السكان اللغة الفرنسية ويدينون بالكاثوليكية.

الاقتصاد: لا وجود للزراعة في الجزر. يعيش الاهالي من صيد الاسماك وتصنيعها والاتجار بها بواسطة مرفأ سان بيار. قطاع السياحة آخذ في النمو، ووحدتها النقدية الفرنك الفرنسي.

نبذة تاريخية: في القرن السادس عشر، طالبت فرنسا بملكية الجزر وكان صيادون فرنسيون يجوبون اراضيها ويقيمون لهم مراكز صيد ثابتة، وقد التقوا بمستوطنين فيها يعودون باصولهم إلى منطقة الباسك (بين فرنسا واسبانيا).

في ١٧٦٣، طردت انكلترا المستوطنين الفرنسيين الذين كانوا يقيمون في مناطق أكاديا (وهو الاسم الذي عرفت به في تلك الاثناء المناطق الساحلية الاطلسية من كندا) فتوجهوا، بأغلبيتهم إلى سان بيار وميكلون. ومن أولئك يتحدر الاهالي الذين يسكنون الجزر اليوم. وبعد أن ألحقت هذه الجزر ببريطانيا لأكثر من سبعين سنة في القرن السابع عشر واوائل القرن التاسع عشر، عادت لأن تصبح من الممتلكات الفرنسية بدءًا من ١٨١٤ (معاهدة باريس).

في ١٩٤٠، أصبحت هذه الجزر خاضعة لحكومة جزر الانتيل. في ١٩٤١، احتلها الجيش الفرنسي بامر من الجنرال ديغول (حكومة فرنسا الحرة) الذي اجرى استفتاء لسكانها جاء لمصلحة سياسته؛ وأصبحت الجزر «إقليمًا ما وراء البحار» بدءًا من ١٩٤٦، وحصلت على نظام «المقاطعة ما وراء البحار» (أي الدخول في المتروبول الفرنسي) على أثر استفتاء ١٩٧٦ (وكان الجنرال ديغول زارها في ١٩٧٦) حيث اصبحت شؤونها تدار بواسطة حاكم يعينه المتروبول الفرنسي ومجلس عام مكون من اعضاء ينتخبهم سكان الجزر. وفي ١٩٨٥، أصبحت عضوًا في «المجموعة الاقليمية للجمهورية» (الفرنسية).

سانت لوسيا

نبذة عامة

(للخريطة راجع «الانتيل، جزر»، ج٣، ص٢٥٧)

الموقع: جزيرة من مجموعة جزر الانتيل الصغرى، تقع بين المارتينيك وسان فانسن وجزر الغريناد.

المساحة: ٦١٦كلم م.

العاصمة: كاستريز Castries وتعد نحو ٧٥ ألف نسمة. وفيها المرفأ الاساسي في البلاد. وقد سميت بهذا الاسم تخليدًا لذكرى المارشال دو كاستريز (شارل أوجين غبريال دو لا كروا) الضابط الفرنسي الذي قام بدور كبير في حرب السنوات السبع في اوروبا والذي أصبح وزيرًا للبحرية الفرنسية في ١٨٧٠.

اللغات: الانكليزية (رسمية). ويتكلم معظم السكان الفرنسية ايضًا.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ١٤٥ ألف نسمة. يعودون (الأغلبية) بأصولهم إلى السود الافريقيين (٩١٪)؛ وهناك خلاسيون (٥٪) وهنود (٣،٢٪)، وبيض ٠،٨٪). نحو ٩٢٪ منهم كاثوليك، ٧٪ بروتستانت، والاقلية الباقية من اصحاب المعتقدات الاحيائية.

الاقتصاد: زراعي في الدرجة الاولى وارضها خصبة للغاية. وزراعة قصب السكر والموز (الذي يصدر لبريطانيا) تشكل المورد الاقتصادي الاساسي للسكان. ويزرع فيها ايضًا الجوز والكاكاو ومختلف انواع الخضار والفاكهة. وتستخدم الاشجار التي تنبت عند المنحدرات الجبلية لصناعة المفروشات. أما صيد الاسماك والصناعة اليدوية فصناعتان تقليديتان لدى سكان الجزيرة. وتنتج المصانع الحديثة (التي بدأ بناؤها منذ نحو عقدين ونصف العقد) المواد البلاستيكية، والالبسة، والجعة، والغاز الطبيعي. وتعرف البلاد نهضة سياحية حديثة وسريعة. وفي العاصمة مطار دولي.

الحكم: دولة من دول الكومنولث. الدستور المعمول به صادر في ٢٢ شباط ١٩٧٩. رئيس الدولة الملكة اليزابت الثانية. الحاكم هو السير ستانيسلاس جيمس (منذ ١٩٨٨). رئيس الوزراء: جون كونتون (منذ ٧ ايار ١٩٨٢). مجلس الشيوخ من ١١ عضوًا، منهم ٦ يعينهم رئيس الوزراء و٣ يختارهم زعيم المعارضة و٢ تعينهم الحكومة. مجلس النواب من ١٧ عضوًا ينتخبون لمدة خمس سنوات.

الاحزاب: «حزب العمال اللوسي»، تأسس في ١٩٥٠، ورئيسه جوليان هونت؛ «حزب العمال التقدمي»، تأسس في ١٩٨١، ورئيسه جورج أولدوم؛ «حزب العمال الوحدوي»، تأسس في ١٩٦٤، ورئيسه جون كونتون.

نبذة تاريخية: يعتقد ان هنود جزر البحر الكاريبي كانوا أول من أقام في جزيرة سانت لوسيا. ويعتقد ايضًا (والأرجح) ان كريستوف كولومبوس نزل الجزيرة في ١٥٠٢. وفي ١٦٦٠، وقّع الفرنسيون معاهدة مع سكان جزر الكاريبي ومنهم سكان جزيرة سانت لوسيا. وتنازعت فرنسا وبريطانيا على ملكية الجزيرة، حتى آلت في نهاية المطاف إلى بريطانيا في ١٨٠٣. وبدءًا من هذا العام، أصبحت مستعمرة بريطانية، وثبتت معاهدة باريس (١٨١٤) هذا الاستعمار.

في١٩٦٧، أصبحت سانت لوسيا عضوًا يتمتع بحكمه الذاتي في إطار «اتحاد جزر الأنتيل». وفي ١٩٧٩، نالت استقلالها وبقيت عضوًا في الكومنولث. وكان جون كونتون اول رئيس وزراء في العهد الاستقلالي، ووضع برنامجًا طموحًا لانماء البلاد. إلا انه خذل في انتخابات ١٩٧٩، وحلّ محله ألن لويزي. وما لبث ان عاد إلى منصبه بعد اضطرابات ١٩٨٠-١٩٨١. ففاز حزبه في انتخابات ايار ١٩٨٢ بأكثرية المقاعد (في هذه الانتخابات، فاز حزب ثوري قريب من كوبا بمقعد واحد)

سانت لوسيا هي مقر «منظمة دول شرقي الكاريبي».

سانت هيلانة

نبذة عامة

الموقع: جزيرة في المحيط الاطلسي، بين افريقيا واميركا الجنوبية، على مسافة ١٩٥٠كلم من أنغولا، و٣٥٠٠كلم من البرازيل.

المساحة: ١٢٢كلم م.. طولها ١٧كلم وعرضها ١٠كلم.

العاصمة: جيمستاون (نحو ألفي نسمة). وثاني تجمع سكاني هو في لونغوود حيث اقام نابوليون بونابرت طيلة فترة منفاه حتى وفاته.

اللغة: الانكليزية.

السكان: تعدادهم نحو ٦ آلاف نسمة، منهم نحو ٢٠٠ من المنفيين (دفعة من المنفيين وصلت إليها في العام ١٩٨٧).

الحكم: ترتبط بالتاج البريطاني. حاكمها العام ألان هول (منذ ١٩٩١)؛ المجلس التنفيذي من ٧ اعضاء إضافة إلى الحاكم. المجلس التشريعي من ١٢ عضوًا منتخبًا.

وهناك مناطق تابعة للجزيرة إداريًا وسياسيًا، هي:

– أسنسيون Ascension: جزيرة مساحتها ٨٨كلم م.، على بعد ١١٣١كلم شمال غربي سانت هيلانة. ويسكنها نحو ١٥٠٠ نسمة (تقديرات ١٩٩٧) أتوا من سانت هيلانة وبريطانيا واميركا. اكتشفت في العام ١٥٠١، وكانت غير مأهولة. ضمتها بريطانيا في ١٩٢٢. يعيش عليها نوع فريد من السلحفاة، وعلى أرضها قاعدة اميركية.

– تريستان دا كونها Tristan da Cunha: جزيرة، مساحتها ٩٨كلم م.. ويسكنها نحو ٤٠٠ نسمة. تبعد ٢٦٠كلم من الكاب (الرأس) في جنوب افريقيا، و٤٠٠٠كلم من مونتيفيديو، و٢١٢٠كلم من سانت هيلانة. في آذار ١٥٠٦، اكتشفها البرتغالي تريستاو دا كونها. في ١٤ آب ١٨١٦، ضمتها بريطانيا إليها، وبعد نحو ثلاثة أشهر ارسلت إليها حامية عسكرية من ٥ ضباط و٣٦ صف ضابط وجنودًا مع عائلاتهم، بهدف ضبط أمر الحراسة على نابوليون خشية هربه أو تهريبه. ومع وفاة نابوليون، سحبت الحامية، لكن ثلاثة عسكريين عادوا للاقامة فيها. في ١٨٢٥، كان يسكنها ٢٥ رجلاً مستوطنًا، فاستقدموا إليهم نساء سوداوات من جزيرة سانت هيلانة، وأصبح عدد السكان (في ١٨٨٠) ١٠٩ اشخاص خلاسيين، وأصبح العدد ١٣٥ في العام ١٩٢٧. في ١٢ كانون الثاني ١٩٣٨، أصبحت الجزيرة تابعة لسانت هيلانة. في ١٠ تشرين الاول ١٩٦١، احلت السلطات البريطانية السكان الـ٢٨٠ إلى بريطانيا خشية انفجار بركاني، لكنهم ما لبثوا ان عادوا إلى الجزيرة بين ١٩٦٣ و١٩٦٧.

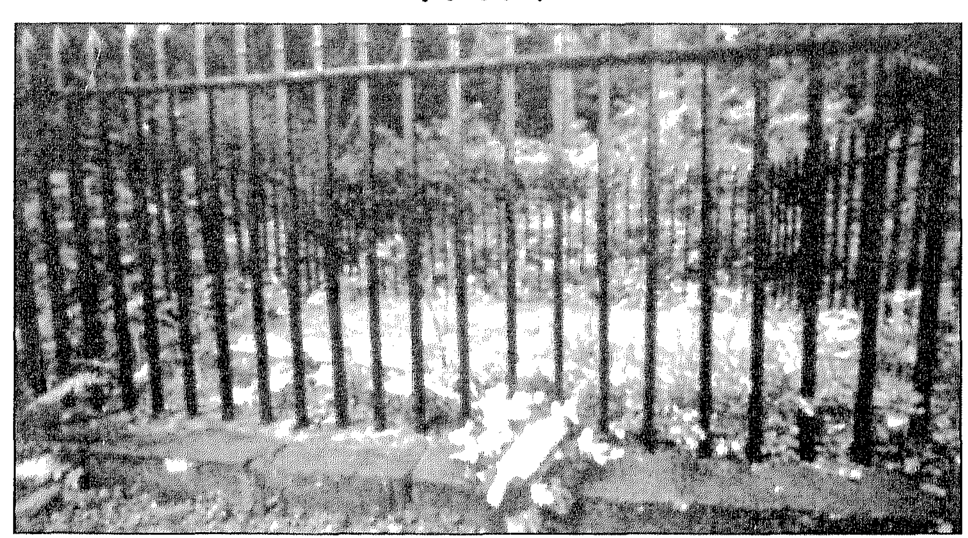
– ومن الجزر التابعة ايضًا لسانت هيلانة: جزيرة إيناكسيسيبل (١٠كلم م.، يعيش فيها طائر البطريق)، وجزيرة نيغتينال (٢ كلم م.)، وجزيرة غوغ (٩١كلم م.–مركز رصد جوي).

الاقتصاد: يعتمد اقتصاد سانت هيلانة اساسًا على الزراعة وتربية المواشي. زراعة الكتان الذي أدخلته الحكومة البريطانية في ١٨٧٤ بعد أن جلبته من نيوزيلاندا، وزراعة البطاطا. صناعتها الاساسية في غزل ونسج خيوط الكتان الذي يخصص بكامله تقريبًا للتصدير. وليس في الجزيرة مطار ولا ميناء. وإلى سنوات قليلة، كان هناك مرفأ بريطاني واحد يتوقف عند شواطئها مركب مرة كل شهر لشحن البضائع ونقل نحو ١٢ راكبًا. والموسم السياحي الوحيد الذي عرفته الجزيرة كان في ١٩٦٩ بمناسبة الذكرى المئوية



منظر عام لجيمستاون.

قبر نابوليون بونابرت.



الثانية لولادة نابوليون الاول. لكن هناك من يدأب على الذهاب إلى الجزيرة، زائرًا وسائحًا، وأغلبهم من المتمسكين والداعين للحفاظ على إرث الامبراطور الفرنسي، السياسي والعسكري.

نبذة تاريخية: اكتشف رحالة برتغاليون جزيرة سانت هيلانة في ٢١ ايار ١٥٠٢، بينما كانوا عائدين من رأس الرجاء الصالح، وكانت غيرمأهولة. أحتلها الهولنديون في ١٦٤٥، واقاموا عليها قلعة عسكرية. واستولى عليها البريطانيون في ١٦٥٩، وتركوا شؤونها بيد «شركة الهند الشرقية».

نفي إليها نابوليون بونابرت (١٨١٥). قام السير هيدسون لوي، الحاكم البريطاني على الجزيرة، بتحرير العبيد الموجودين فيها. وأثناء حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢) نفى الانكليز إليها عدة آلاف من السجناء، فقضى عدد كبير منهم من جرثومة التيفوس.

عرفت الجزيرة، ابتداء من القرن السابع عشر، قفزة مهمة باعتبارها كانت تشكل مركزًا لتموين السفن على طريق الرأس (الكاب)، وطريق الهند. إلا ان شق قناة السويس وتشغيلها (١٨٦٩) خففا كثيرًا من أهمية هذا الدور.

كان لها دور استراتيجي خلال الحرب العالمية الثانية.

في ١٩٦٨، قام سكانها بانتفاضة عامة احتجاجًا على «شركة جنوب افريقيا» التي تأسست لأعمال الصيد والتجارة بالاسماك، إذ خشي السكان المحليون من ان يصبحوا مجرد عبيد للجنوب افريقيين. فعقد، في آذار ١٩٦٩، اتفاق يعطي حكومة الجزيرة حق الاشراف على الشركة.

من تحقيق ميداني: وحدهم «السياح النابوليونيون» لم يتحولوا عن سانت هيلانة وواظبوا على قطع آلاف الاميال لرؤية الاشياء التي وقعت عليها عينا بطلهم العظيم والاحتراق بنار الذكرى الملتهبة ابدًا. وهؤلاء المهووسون بالقائد-الاسطورة شكلوا جمعيات خاصة (مثل «فيلق الشرق» و«ذكرى نابوليون») غايتها التواصل مع الماضي النابوليوني الذي ملأ على عسكريين أكاديميين حياتهم.

القلعة القديمة لم تزل على شموخها. وتزنر العاصمة جيمس تاون اسوار مرتفعة تتوزع عليها مدافع بالية ردت عنها في الماضي السحيق خطر الغزاة. وتضم المدينة كنيسة صغيرة وبرجًا مربع الشكل يقف وسط بيوت عتيقة يسكنها حوالي ٥٠٠ نسمة جيء باجداد معظمهم عبيدًا من افريقيا وآسيا. وهم يعيشون في الجزيرة مع أقلية اوروبية غالبية أبنائها من اصول بريطانية.

تحول البناء الذي سكنه الامبراطور المنفي متحفًا تعشش فيه ذكرى السجّان هيدسون لوي، وهو عسكري متزمت قاد حامية زاد عدد افرادها على ٤ آلاف جندي كان شغلهم الشاغل مراقبة الامبراطور الاعزل وتنغيص حياته.

وبعيدًا من العاصمة، هناك بناء آخر ارتبط باسم نابوليون، وهو اشبه بدارة تقوم وسط بستان، ومعروف باسم «لونغوود». وبعدما توفي الامبراطور، أهدت بريطانيا إلى فرنسا «قصر لونغوود» والحقول الواسعة المحيطة به. ومع وصول القنصل الفرنسي الجديد (في ا لخمسينات) نذر نفسه للعناية بالمبنى وحدائقه. وتابع ابنه المهمة الدبلوماسية، وورث عنه شغفه بنابوليون وقصر لونغوود الذي أصبح مقرًا للقنصلية الفرنسية، اعاد القنصل ترميمه، واهتم بصورة اساسية بالغرفة التي لفظ الامبراطر فيها انفاسه الاخيرة، وبالممر الضيق في عمق البستان المودي إلى نبع ماء دأب نابوليون على قضاء بعض يومه بجواره، وأوصى أن يدفن إلى جانب النبع الذي شغف به. والقبر بسيط، كان نابوليون قد أوصى بألا ينقش إسمه عليه عسى أن يبقى الضريح مغمورًا يليق بميتة صاحبه منفيًا عن وطنه وميادين انتصاراته (من تحقيق أعده عمار الجندي، «الوسط»، العدد ١٨٤، ٧ آب ١٩٩٥).

سان فانسن وغرينادين

نبذة عامة

(للخريطة راجع «الانتيل، جزر»، ج٣، ص ٢٥٧).

الموقع: سان فانسن جزيرة من جزر بحر الانتيل. مغطاة بالغابات. وتتبعها عدة جزر (غرينادين) أهمها: بيكيا، موستيك (اشتراها الانكليزي كولن تونان في ١٩٦٠ وأتبعها بحكومة سان فانسن)، كانوان، مايريو، برون، سان فانسن الصغرى، أونيون (١٠كلم م.).

المساحة: المساحة الاجمالية لسان فانسن والجزر التابعة لها٣٨٩كلم م. (تحتل سان فانسن وحدها مساحة ٣٤٤كلم م.) وسان فانسن مغطاة بالغابات، وأعلى قمة جبلية فيها هي بركان سوفريار Soufriere (١٢٤٥م). وقد ثار هذا البركان في ١٩٧٩ وخرب ٧٠٪ من انتاج الموز وقضى على حياة ١١٧٨ شخصًا.

العاصمة: كينغزتاون (نحو ٢١ ألف نسمة).

اللغة: الانكليزية (رسمية).

السكان: يبلغ تعدادهم (١٩٩٧) نحو ١٣٠ ألف نسمة. السود ٦٥،٥٪، الخلاسيون ٢٣،٥٪ الهنود ٥٪، البيض ٣،٥٪، وأميركيون هنود ٢٪. نحو ٩٤٪ مسيحيون (٨١٪ بروتستانت و١٣٪ كاثوليك)، والباقون ٦٪ من أديان مختلفة.

الحكم: جمهورية مستقلة. عضو في الكومنولث منذ ٢٧ تشرين الاول ١٩٧٩. الدستور المعمول به صادر في ٢٧ تشرين الاول ١٩٧٩. رئيس الدولة الملكة اليزابت الثانية. الحاكم دافيد جاك منذ ٢٠ ايلول ١٩٨٩. رئيس الوزراء جيمس ميتشل. البرلمان من ٢١ عضوًا (١٥ منتخبين، و٦ معينين).

الاقتصاد: ٣٥٪ من اليد العاملة تعمل في الزراعة، ١٥٪ في الصناعة، ٥٠٪ في الخدمات. تشكل الاراضي المزروعة ٥٣٪ من إجمالي المساحة. وأهم المزروعات، الموز، وبعدها البطاطا الحلوة والجوز والكوبرا والكاكاو والبن. وقطاع السياحة يعرف تقدمًا ملحوظًا. ويبلغ متوسط عدد السواح السنوي (السنوات العشر الاخيرة) نحو ١٧٥ ألف سائح.

نبذة تاريخية: الهنود القادمون من فنزويلا كانوا أول الذين اقاموا في جزيرة سان فانسن. لكن كريستوف كولومبوس لم يعثر لهم على أثر عندما اكتشف الجزيرة في ٢٢ كانون الثاني ١٤٩٨. والمعتقد أن نزاعاتهم المستمرة مع جيرانهم هنود جزر الكاريبي قضت عليهم.

بعد نزاع طويل بين الفرنسيين والبريطانيين، أعلنت سان فانسن أرضًا محايدة. ثم ما لبث الفرنسيون أن تخلوا عنها للانكليز في ١٧٦٣، ليعودوا من جديد لاحتلالها في ١٧٧٩. ولكن، بعد أربع سنوات فقط عادت الجزيرة إلى الانكليز الذين بقوا فيها حتى ١٩٦٩ حيث أعلنوا قيام نظام الحكم الذاتي فيها في إطار «اتحاد جزر الانتيل». وفي ٢٧ تشرين الاول ١٩٧٩ نالت سان فانسن استقلالها. وفي ٥ كانون الاول ١٩٧٩ جرت فيها انتخابات عامة نال فيها حزب العمال بزعامة فانسن بيتش ١١ مقعدًا. وبعد يومين جرت محاولة تمرد فاشلة. في ٢٩ تموز ١٩٨١، قامت محاولة انقلابية فاشلة ايضًا. وفي ٢٥ حزيران ١٩٨٤ جرت انتخابات عامة نال بنتيجتها الحزب الديمقراطي الجديد ٩ مقاعد وحزب العمال ٤ مقاعد. ثم عاد الحزب الديمقراطي ونال ٢١ مقعدًا في انتخابات ١٦ ايار ١٩٨٩.

سان كيتس–نفيس

نبذة عامة

(للخريطة راجع «الانتيل، جزر»، ج٣، ص ٢٥٧).

الموقع: جزيرتان صغيرتان من مجموعة جزر الانتيل الصغرى.

المساحة: ٢٦١،٦كلم م. مساحة سان كيتس ١٦٨،٤كلم م.، ومساحة نفيس ٩٣،٢كلم م.، وتقع على بعد ٣كلم جنوب شرقي سان كيتس أو سان كريستوفر.

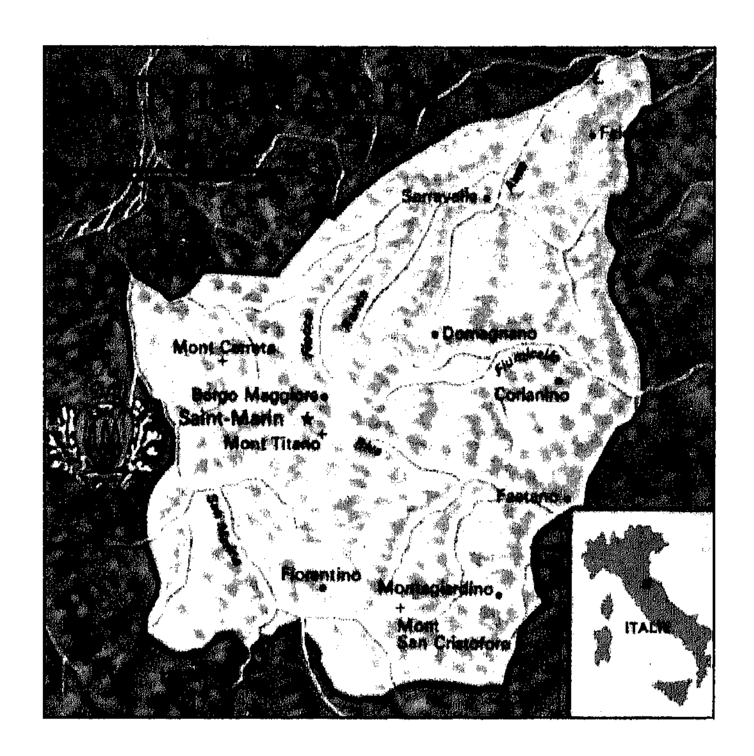
العاصمة: قاعدة سان كيتس «باستير» Basseterre وتعد نحو ١٦ ألف نسمة. وقاعدة نفيس «شارلزتاون» Charlestown وتعد نحو ٢،٥ ألف نسمة.

السكان: تعدادهم نحو ٦١ ألف نسمة (تقديرات ١٩٩٧). يعيشون بأغلبيتهم في جزيرة سان كيتس، ويعودون بأصولهم إلى السود الافريقيين الذين استقدموا للعمل في زراعة قصب السكر.

الحكم: نظام فدرالي يجمع بين الجزيرتين. الدولة عضو في الكومنولث. الجمعية العمومية من ١٣ عضوًا (٩ منتخبين، ٣ معينين وواحد حكمًا). الحاكم هو كليمان أتيلسون أرندل، منذ ١٩ ايلول ١٩٨٣. رئيس الوزراء كينيدي ألفونس سيموندس (مولود ١٩٣٦).

الاقتصاد: ارض الجزيرتين خصبة ودائمة الاخضرار. منذ اواسط القرن السابع عشر، وقصب السكر يزرع على نطاق واسع، وتشرف الحكومة منذ أكثر من عقدين على زراعته واستثماره وكذلك على صناعة تكريره وتحويله، خاصة في جزيرة سان كيتس، بينما بقيت أجزاء كبيرة من اراضي جزيرة نفيس بتصرف مزارعين صغار. وتشكل السياحة (نحو ١٥٠ ألف سائح سنويًا)، والصيد، والصناعة اليدوية والخفيفة موارد اقتصادية أخرى لسكان الجزيرتين.

نبذة تاريخية: اشرف كريستوف كولومبوس على ادارة الجزيرتين باسم ملك اسبانيا، في ١٤٩٣، ولكن دون ان تشكلا مستعمرة اسبانية. وفي ١٦٢٣، أسس الانكليز مستعمرة في سان كيتس، ومنها انطلقوا، بعد خمس سنوات، لاستعمار جزيرة نفيس. واقام الفرنسيون ايضًا في سان نفيس واقتسموا الجزيرة مع الانكليز حتى ١٧١٣. وكجزء من «اتحاد دول الانتيل» نالت سان كيتس–نفيس (ومعها جزيرة أنتيلا) حكمها الذاتي في ١٩٦٧، لكن سرعان ما أعلنت أنغيلا انفصالها عن الاتحاد (وثبت هذا الانفصال في ١٩٨٠). وفي ١٩ ايلول ١٩٨٣، نالت سان كيتس–نفيس استقلالها، وبعد أقل من اسبوع احتلت مقعدها في الامم المتحدة حيث أصبحت الدولة الـ١٥٨ العضو وأصغر الدول الاعضاء.



سان مارينو

نبذة عامة

الاسم: من إسم الناسك مارينو الذي أسس هذه الجمهورية في العام ٣٠١.

الموقع: جيب داخل الاراضي الايطالية. وهي هضاب تشرف عليها قمة جبل تيتانو (٧٥٠م.). ويعود الفضل في وجود سان مارينو إلى هذا الجبل الذي يشكل ملجأ طبيعيًا. تبعد سان مارينو ٢٠كلم عن مدينة ريميني Rimini.

المساحة: ٦٠،٥كلم م.. وطول حدودها نحو ٧٠كلم.

العاصمة: سان مارينو (نحو ٤،٥ آلاف نسمة). وتقع على قمة جبل تيتانو. وأهم تجمعين سكنيين، بعد العاصمة، مورغو ماجيوري وسيرابالي.

اللغة: الايطالية.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٢٥ ألف نسمة. نحو ٥٠٪ منهم يعيشون خارج سان مارينو، في ايطاليا، فرنسا، الولايات المتحدة وبلجيكا. يدينون بالكاثوليكية.

الحكم: تتميز سان مارينو (أصغر دول العالم، أصبحت عضوًا في الامم المتحدة في ٢ آذار ١٩٩٢) بمحافظتها على استمرار مؤسساتها منذ القرون الوسطى. تخضع لدستور موضوع في تشرين الاول ١٦٠٠، جرت عليه تعديلات في ١٩٠٦ و١٩٦٠ (حق النساء في الاقتراع). الحكم بيد «قائدين حاكمين»، ومدة ولايتهما ستة أشهر ويرئسان «مجلس الدولة» المكون من عشرة اعضاء. وهذان ينتخبهما، كل ستة أشهر، «المجلس الاعلى» المكون من ٦٠ عضوًا منتخبًا لمدة خمسة اعوام؛ ويمارسان السلطة التنفيذية مع «حكومة» مؤلفة من ١٠ اعضاء.

أحزابها شبيهة إلى حد كبير بالاحزاب الايطالية: في انتخابات ٢٩ ايار ١٩٨٨، نال الحزب الديمقراطي المسيحي ٢٧ مقعدًا، والحزب الشيوعي ١٨، والاشتراكي الاجتماعي ٨، والاشتراكي ٧. عيدها الوطني في ٣ آذار (سان مارينو)، وكذلك في ٥ شباط الذي يقع فيه عيد القديسة أغاتيا.

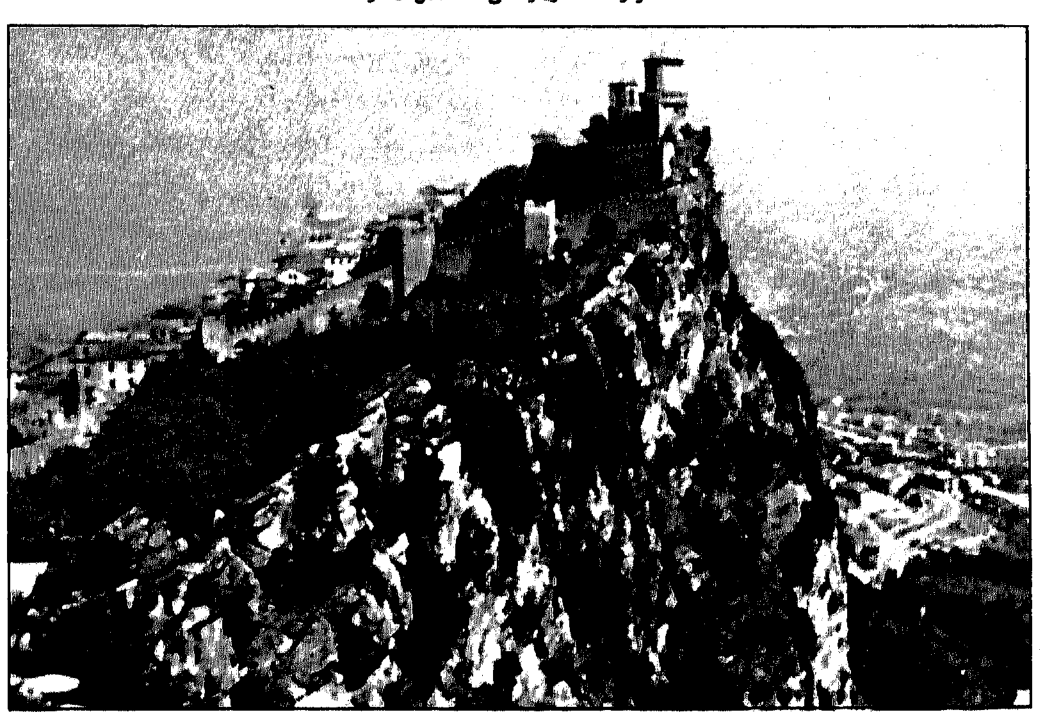
الاقتصاد: دخلها الفردي السنوي بلغ في ١٩٩٠ نحو ٢٠ ألف دولار. اراضيها المزروعة نحو ٦ آلاف هكتار، والغابات نحو ٥ آلاف هكتار. القمح والنبيذ أهم منتوجاتها الزراعية. الأقمشة، الإسمنت، الورق، السيراميك، القرميد، الكاوتشوك أهم منتوجاتها الصناعية. أما مواردها الاساسية فمن السياحة (نحو ٣ ملايين سائح سنويًا)، ومن النتاجات الحرفية وخاصة من عمليات إصدار الطوابع البريدية. وحدة جمركية مع ايطاليا.

نبذة تاريخية: في القرن الرابع أسس راهب ناسك (القديس مارينو)، لجأ إلى جبل تيتانو هربًا من اضطهاد الامبراطور ديو كليسيانوس، سان مارينو. وقد التف حوله اهالي المنطقة وكانوا من المزارعين. دافع هؤلاء السكان عن استقلالهم ضد البابوية والبطاركة المجاورين في مقاطعة ريميني في القرن الحادي عشر-الثالث عشر، وإن كانوا قبلوا الخضوع كنسيًا ودينيًا، بشكل أو بآخر، لسلطة البابا. وفي القرن الرابع عشر، خضعت سان مارينو لسلطة الدوقيات الايطالية القائمة آنذاك، ولم تصبح جمهورية مستقلة، بين الدول الايطالية، إلا في ١٤٦٢.

احترم نابوليون بونابرت حدودها. واعترف مؤتمر فيينا (١٨١٥) بسيادتها. ولجأ إليها العديدون من اللاجئين والعسكريين والسياسيين (لجأ إليها غاريبالدي، مع قواته، في ١٨٤٩ بعد سقوط الجمهورية الرومانية).

وضعت سان مارينو نفسها تحت حماية المملكة الايطالية في ١٨٦٢، ووقعت معها ثلاث معاهدات حسن جوار. وبعد انجاز الوحدة الايطالية ثبتت اتفاقيات الصداقة وحسن الجوار مع ايطاليا في الاعوام ١٨٧٢

أسوار سان مارينو على قمة جبل تيتانو.



و١٨٩٧، و١٩٣٩ و١٩٥٣. أصبحت «فاشية» في عهد موسوليني، وتعرضت لقصف عنيف في ١٩٤٤، واستقبلت نحو ١٠٠ ألف لاجىء في ١٩٤٣.

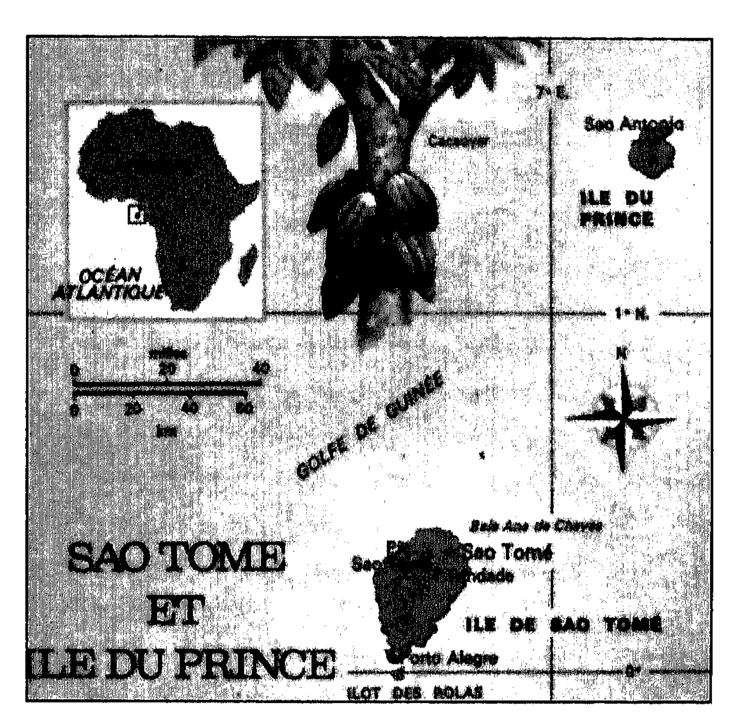
وعلى الرغم من تعلق سان مارينو بقوانين القرون الوسطى وتقاليدها، فإنها لم تر حرجًا في ان تنتخب لمصلحة حكومة شيوعية استلمت مقاليد الحكم فيها لمدة ١٢ سنة بدءًا من ١٩٤٥. وقد كانت المفاجأة الكبرى لأنها كانت الحكومة الشيوعية الوحيدة في اوروبا الغربية. ولكن هذه الحكومة لم تؤمم الاراضي، ولم تضع الدولة يدها على الاقتصاد. ونشبت أزمة سياسية حادة في ١٩٥٧، جرى حلها إثر تدخل من الولايات المتحدة وحصار ضربه الجيش الايطالي لمصلحة الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاجتماعي الديمقراطي. في ١٩٦٨، أعيد النظر بالمعاهدة بينها وبين ايطاليا.

في ١٩٧١، اعادت سان مارينو حقها في ضرب عملتها الوطنية (وحدة نقد «سان مارينو»؛ إضافة إلى اللير الايطالي ولير الفاتيكان)، كما جرى، في ١٠ ايلول ١٩٧١، إلغاء النصوص التي تتكلم على صداقة ايطاليا «الحامية» من المعاهدة الموقعة بين البلدين في ٣١ آذار ١٩٣٩.

في ٢٦ آب ١٩٨٦، تشكلت حكومة ائتلافية ضمت الديمقراطيين المسيحيين والشيوعيين.

في ١٦ كانون الاول ١٩٩١، وقعت سان مارينو اتفاقية تعاون ووحدة جمركية مع المجموعة الاوروبية.

وفي ٢ آذار ١٩٩٢، احتلت مقعدها في الامم المتحدة .



ساو تومي وبرنسيب

نبذة عامة

الاسم: «ساو تومي» (القديس توما) لأنها اكتشفت في ٢١ كانون الاول ١٤٧١، أي يوم عيد القديس توما، على يد المستكشف بيترو إيسكوبار وجوان غومس. «برنسيب»، أي «جزيرة الامير» تكريمًا للأمير ألفونس (الذي أصبح ملك البرتغال باسم ألفونس الخامس).

الموقع: جزيرتان في خليج غينيا مقابل الغابون وغينيا الاستوائية وعلى بعد ٢٠٠كلم من شواطىء هذه الاخيرة.

المساحة: ٨٣٦كلم م. مساحة ساو تومي، و١٢٨كلم م. مساحة برنسيب. وبالقرب منهما عدة جزر صغيرة غير مأهولة.

العاصمة: ساو تومي (نحو ٣٠ ألف نسمة)، وبعدها أهمية تأتي ساو انطونيو.

اللغات: البرتغالية (رسمية)، وهناك لغات محلية افريقية.

السكان: تعدادهم نحو ١٤٠ ألف نسمة. ينتمون إلى قبائل فورو (وتجمعهم الأساسي في ساو تومي)، مونكو (في برنسيب، وعددهم نحو ألفين)، أنغولار (وهم خليط من ذوات الاصول الانغولية والكونغولية، وعددهم نحو ١١ ألفًا)، التونغا (وهم خلاسيون، نتاج إختلاط قبائل فورو بالمهاجرين) واقلية من جزر الرأس الأخضر قدمت إلى الجزيرتين في اوقات متفاوتة. نحو ٨٢٪ من السكان كاثوليك، والباقون اصحاب معتقدات إحيائية افريقية.

الحكم: جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ١٠ ايلول ١٩٩٠. رئيس الجمهورية: مانويل بينتو دا كوستا (مولود ١٩٤٠) منذ ١٢ تموز ١٩٧٥، وأعيد انتخابه في ٣٠ ايلول ١٩٨٥، ولجأ إلى أنغولا من ١٩٩١ إلى ١٩٩٣؛ خلفه ميغيل تروفويادا، منذ ٣ نيسان ١٩٩١ (راجع النبذة التاريخية). الجمعية العمومية (البرلمان) من ٥٥ عضوًا منتخبًا لاربع سنوات.

الاحزاب: الحزب الاجتماعي الديمقراطي (وكان قبلاً «حركة تحرير ساو تومي

وبرنسيب»)، تأسس في ١٩٧٢، الحزب الحاكم والوحيد حتى ١٩٩٠، رئيسه كارلوس دا غراسا.

الاقتصاد: نحو ٨٢٪ من اليد العاملة تعمل في الزراعة التي تساهم بنحو ٧٠٪ من الناتج العام؛ ونحو ٣٪ في الصناعة (٥٪ من الناتج العام)؛ ونحو ١٥٪ في الخدمات (٢٥٪). تشكل الاراضي المزروعة ٣٧٪ من المساحة العامة. وأهم المزروعات الكاكاو، ثم البن، ولب النارجيل (كوبرا)، والجوز، والموز. ويأتي عمال، خاصة من أنغولا وموزمبيق، للعمل في زراعة الكاكاو التي تستثمرها شركات اوروبية. متوسط صيد الاسماك السنوي نحو ٣ آلاف طن. في الجزيرتين شبكة خطوط حديد ومطار ومرفأ.

نبذة تاريخية: اكتشف البحاران البرتغاليان بيترو إيسكوبار وحوان غومس جزيرة ساو تومي في ١٤٧٠، ثم جزيرة برنسيب في ١٤٧١، وكانتا غير مأهولتين. وبدأ استعمارهما عندما حمل إليهما البرتغاليون والاسبان والفرنسيون زراعة قصب السكر. وعمد المستعمرون، لاستثمار هذه الزراعة، إلى استقدام عبيد من مناطق افريقية أخرى، هي اليوم الغابون وأنغولا. في ١٤٩٣، أبعد الملك البرتغالي، جان الثاني، إلى الجزيرتين، نحو ألفين يهودي كانوا قد هربوا من اسبانيا إلى البرتغال. و لم تمض سنوات على وجودهم في الجزيرتين حتى قضى معظمهم و لم يبق منهم على قيد الحياة سوى نحو ٦٠٠ شخص.

في ١٥٢٢، أعلن رسميًّا ان الجزيرتين اصبحتا مقاطعتين برتغاليتين. وعرف القرن السادس عشر سلسلة من انتفاضات السكان المحليين ضد البرتغال، كانت أهمها انتفاضة السود الذين قدموا من أنغولا، وكانوا بزعامة رجل يدعى أمادور. وقد استطاعت هذه الانتفاضة ان تخضع ثلثي جزيرة ساو تومي طيلة عدة عقود قبل ان تستسلم. وفي اواخر القرن السادس عشر، بدأ انتاج الجزيرتين من السكر بالانخفاض بفعل مزاحمة البرازيل، وبقيت الجزيرتان تستعملان كمحطة لتجارة العبيد. وفي بداية القرن التاسع عشر، ادخل اليها البرتغاليون زراعة البن والكاكاو.

كان للقسوة الهائلة التي استعملها البرتغاليون ضد السكان المحليين ان اضطرت الدول الاوروبية الاستعمارية نفسها لمقاطعة الكاكاو المستورد من الجزيرتين. واستمر الوضع بالتدهور بين الحربين العالميتين.

بعد ١٩٤٥، ارسلت البرتغال حاكمًا عسكريًّا، هو الجنرال كارلوس غارغولو، لاعادة النظام إلى الجزيرتين. إلا ان طريقته البالغة القسوة والتعسف أدت إلى انتفاضة السود المحليين، في ١٩٥٣، التي أدت إلى مقتل نحو ألف شخص. وأسس المنفيون من ابناء البلد «حركة تحرير ساو تومي وبرنسيب» في ١٩٦١، واتخذوا مركزًا لهم مدينة ليبرفيل في الغابون، كما نالوا اعتراف منظمة الوحدة الافريقية في ١٩٦٤.

وبعد حركة نيسان ١٩٧٤ في البرتغال، باشرت ليشبونة باجراء مفاوضات مع «حركة تحرير ساو تومي وبرنسيب» التي كانت تطالب بالاستقلال التام والناجز. وأعلن استقلال الجزيرتين في ١٢ تموز ١٩٧٥، وأصبح أمين عام الحركة، مانويل بينتو دا كوستا، رئيسًا للدولة، وميغيل تروفوادا، رئيسًا للوزراء. وغادر معظم البرتغاليين الجزيرتين. وانتهج الحكام الجدد سياسة عدم الانحياز في الخارج ووقعوا معاهدة لومي التي تسمح للبلاد بأن تكون شريكًا في السوق الاوروبية المشتركة، وقام مسؤولون بزيارات لموسكو، وبكين، وليبرفيل، وياونده، وبرازافيل.

وأهم المصاعب التي واجهتها الحكومة في الداخل محاولة غزو الجزيرتين من مرتزقة اجانب في شباط ١٩٧٨. وفي ايار ١٩٧٨، قام رئيس الدولة بزيارة رسمية للجزائر وطرابلس الغرب. واستقدمت الحكومة وحدات أنغولية وكوبية لدعم قوات



شارع في العاصمة.

الامن في الجزيرتين. واستمرت الولايات المتحدة بمنح الجزيرتين مساعدات مهمة. وجرت محاولات انقلاب عسكري في السنوات ١٩٧٨، و١٩٧٩ وفي ٨ آذار ١٩٨٨، وكان للنفوذ السوفياتي في سياسة البلاد أثره في إحباط هذه المحاولات.

في ٢٢ آب ١٩٩٠، جرى استفتاء عام حول دستور جديد يضع حدًا لحكم الحزب الواحد ويقر التعددية الحزبية، فنال ٧٢٪ من الاصوات.

وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٩١، جرت اول انتخابات تشريعية على اساس الدستور الجديد، وبعدها بأقل من شهرين جرت انتخابات رئاسية، وفي آخر السنة تم جلاء آخر جندي أنغولي عن البلاد (يعود وجودهم إلى العام ١٩٧٨).

في اواسط آب ١٩٩٥، وقع انقلاب عسكري، أبرز قادته اللفتنانت كوينتاس دا ألميدا الذي أعلن عن بدء مفاوضات مع الاحزاب ترمي إلى تشكيل «حكومة ادارية» بدل «حكومة إنقاذ وطني» وكان رئيس الجمهورية المنتخب ميغيل تروفويادا قيد الاعتقال. ونتيجة لهذا الانقلاب اعلنت الولايات المتحدة وقف مساعداتها للبلاد، كما دعا الامين العام للامم المتحدة، بطرس غالي، القوات المسلحة في ساو تومي وبرنسيب احترام دستور بلادها لتمكين الرئيس تروفويادا من «استعادة ولايته الديمقراطية». وكان الانقلابيون قد بادروا إلى تعيين رئيس الجمعية الوطنية فورتو ناتو بيرس رئيسًا للبلاد بالوكالة. لكن هذا الاخير سارع إلى التأكيد ان قرار العسكريين «لا ينطبق على القواعد الدستورية». وإزاء هذا الوضع، وقبل انقضاء عشرة ايام على الانقلاب، اعاد العسكريون السلطة إلى الرئيس ميغيل تروفويادا (٢٢ آب ١٩٩٥). وقد تمّ الاتفاق بين المدنيين والعسكريين بوساطة من وزير خارجية أنغولا فانسيو دو مورا بعد بضع ساعات من تصويت الجمعية الوطنية بالاجماع على قانون عفو عن منفذي الانقلاب. وكان وصل إلى العاصمة ساو تومي الرئيس الأنغولي إدوارد دو سانتوس ليدير مهمة الوفاق.

سري لانكا

بطاقة تعريف

الاسم: عرفها العرب قديمًا باسم «سرنديب» عندما كانت إحدى محطاتهم التجارية (وكانت كذلك محطة تجارية للصينيين). ثم عُرفت، مع توافد البرتغاليين والهولنديين والانكليز على استعمارها ابتداء من القرن السادس عشر، باسم «سيلان» أو «سيلون». وهي كلمة مختصرة من كلمة «سنهالا» (الأسد) و«دفيبا» (جزيرة) في اللغة السنهالية، فيكون المعنى «جزيرة الأسود». وفي ١٩٧٢، اعادت رئيسة الجمهورية حينذاك السيدة سيراموفو باندرانيكا الإسم السنهالي القديم للجزيرة فعرفت باسم «سري لانكا» وتعني باللغة السنهالية «البقعة المقدسة»؛ والسنهال هم أكبر وأقدم شعب يقطن سري لانكا.

الموقع: في المحيط ا لهندي. على بعد ٥٠كلم من الطرف الجنوبي من الهند. ويفصل بينهما مضيق بالك **Palk**.

المساحة: ٦٥ ألفًا و٦١٠كلم م.. طولها عند أطول نقطتين ٤٣٥كلم، وعرضها ٢٢٥كلم. طول شواطئها نحو ١٤٠٠كلم.

العاصمة: كولومبو. أهم المدن: دهيفالا-مونت لافينيا، موراتوا، جافنا، كوتي، كاندي، غال (راجع «مدن ومعالم»).

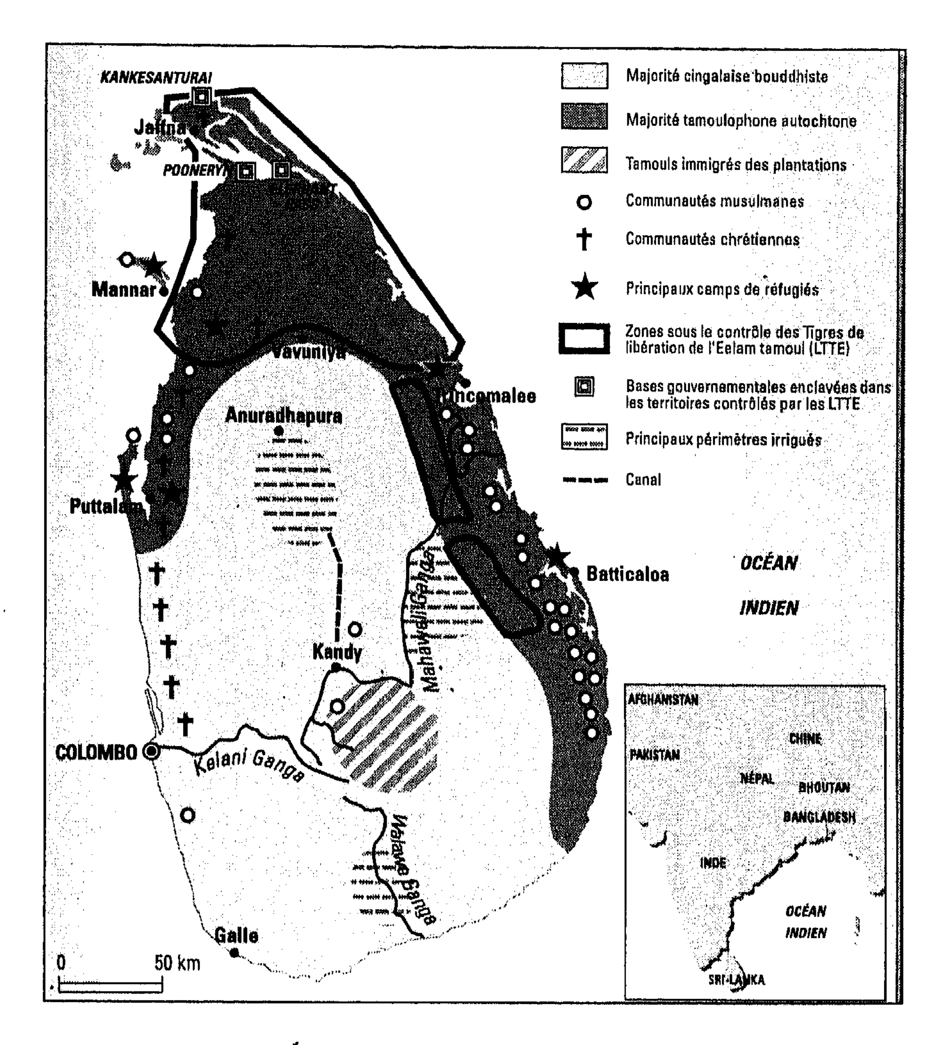
اللغات: السنهالية (رسمية) ويتكلمها نحو ٧٢٪ من السكان؛ التاميلية (٢٠،٥٪) التي اعتبرت رسمية ايضًا ابتداء من ١٩٧٧؛ والانكليزية، رسمية كذلك ابتداء من ١٩٨٣.

السكان: كان تعدادهم في ١٨٧١ نحو ٢،٤ مليون نسمة، وأصبح في ١٩١١ نحو ٣،٦ مليون نسمة، وفي ١٩٧١ نحو ١٢،٧، وفي ١٩٨٣ نحو ١٥،٤، وفي ١٩٩١ نحو ١٧،٦ مليونًا. وتشير التقديرات إلى انهم سيبلغون ٢٠،٨ مليون نسمة في العام ٢٠٠٠.

يشكل السنهاليون ٧٤٪ من إجمالي السكان، والتاميل الأصليون ١٢،٦٪ وغالبيتهم تسكن المناطق الشمالية. يتوزع السكان دينيًا: بوذيون ٧٠٪ من مجموع السكان (٩٠٪ منهم سنهاليون)؛ هندوسيون ١٥٪ (٨٠٪ منهم تاميليون)؛ مسلمون ٧،٥٪ (بعض المراجع العربية الاسلامية تقول ١٠٪)؛ ومسيحيون كاثوليك ٧،٥٪ (٧٠٠ ألف من السنهاليين، و٣٠٠ ألف من التاميليين).

الحكم: جمهوري ديمقراطي اشتراكي منذ ١٩٧٨. الدستور المعمول به صادر في ٧ ايلول ١٩٧٨، يعطي رئيس الجمهورية سلطات كاملة (قبل هذا الدستور كانت سلطاته إسمية). الرئيس ينتخب لمدة ست سنوات بالاقتراع الشامل والمباشر. جمعية الممثلين (البرلمان) من ٢٢٥ عضوًا منتخبًا لمدة ست سنوات. وتقسم البلاد إلى ٢٩ محافظة و٢٤ قضاء.

الاحزاب ومختصر الاحداث الانفصالية الحالية:
الاحزاب: «الحزب السيلاني للحرية»، تأسس في ١٩٥١، وزعيمته السيدة سيريمافو باندرانيكا، مولودة ١٩٢٦ (وهو حزب يسار



خريطة سري لانكا نشرتها «لوموند ديبلوماتيك» (عدد آذار ١٩٩٥، ص ١٣) وعيّنت عليها:

باللون الرمادي الفاتح: أغلبية سنهالية بوذية.

باللون الرمادي الغامق: أغلبية تاميلية اصلية.

منطقة الازياح الرمادية الفاتحة العريضة: تاميل استقدموا للعمل في الزراعة.

الدائرة: مناطق إقامة المجموعات المسلمة.

الصليب: مناطق إقامة المجموعات المسيحية.

النجمة: مخيمات اللاجئين.

المناطق المحددة بالخطوط السوداء الغامقة المقفلة: تحت سيطرة نمور جبهة تحرير إيلام تاميل.

المربعان في أقصى شمالي الجزيرة: قواعد حكومية هي جيوب في قلب المنطقة التي يسيطر عليها نمور التاميل.

مناطق الازياح المنقطة أفقيًا: مناطق زراعية مروية.

الزيح المنقط بالاسود الغامق: قناة للري.

الوسط)؛ «الحزب الوطني الموحد»، تأسس في ١٩٤٧، وزعيمه رناسينغ بريماداسا (اغتيل في اول ايار ١٩٩٣)؛ حزب «لانكا ساما ساماجا»، تأسس في ١٩٣٥، ورئيسه برنارد سويسا؛ الحزب الشيوعي، تأسس في ١٩٤٣، ورئيسه ك.ب. سيلفا؛ «الجبهة الموحدة لتحرير التاميل»، نشأت في ١٩٧٦ بعد دمج «حزب التاميل الفدرالي» (في ١٩٧٢) الذي كان تأسس في ١٩٤٩، بحزب «مؤتمر التاميل» الذي كان تأسس في ١٩٤٤؛ «مؤتمر العمال السيلاني»، تأسس في ١٩٤٠؛ «مؤتمر العمال الديمقراطيين»، تأسس في ١٩٧٨؛ «حزب شعب سري لانكا»، يساري، تأسس في ١٩٨٤، واغتيل زعيمه في ١٦ شباط ١٩٨٨؛ «مؤتمر مسلمي سري لانكا»، تأسس في ١٩٨٠، رئيسه م.هـ.م. أشرف؛ «الجبهة الديمقراطية الوطنية الموحدة»، تأسست في ١٩٩١.

تعصف بالبلاد أحداث مصيرية، أقساها مطالب التاميل (يقال لهم ايضًا التامول Tamouls) القاضية بالانفصال وإقامة دولة تاميلية مستقلة في الشمال: إيلام Eelam. في ١٩٩٢، تمكن التاميل (التاميليون) من جمع ٢٠ ألف مقاتل و٤٠ ألف إحتياطي في مواجهة ٧٥ ألف جندي حكومي. في ايار ١٩٨٥، ثلاث مجموعات مسلحة من أصل خمس اتحدت في «جبهة تحرير إيلام التاميلية»، ثم في «منظمة تحرير إيلام» التي تأسست في ١٩٧٣ على يد طلاب، منهم الطالب تنغاتور (حكم بالاعدام في ١٩٨٢، ومات في السجن)، الذين دعمتهم الهند وكانوا مناصرين للاتحاد السوفياتي. وهناك كذلك «النمور المحررون لإيلام التاميلية» (النمر هو رمز مملكة جافنا في القرن الثامن عشر)، وهي منظمة حلت محل «نمور التاميل الجدد»، ومن زعمائها أنتن بالا سينغام، برابهاكاران فيلوبيلاي الملقب بـ«تامبي» (أي «الأخ الصغير») الذي فقد ساقه في ١٩٨٧، ولجأ إلى اوروبا، وساتاسيغام كريشناكومار (مات في ١٦ كانون الثاني ١٩٩٣). وتمكنت هذه المنظمات من السيطرة على منطقة جافنا في الشمال ابتداء من اوائل ١٩٩٢.

وهناك كذلك «الجبة الثورية لتحرير شعب إيلام»، تأسست في ١٩٨١، ماركسية، زعيمها ماراتاراجا تيرومال، وتشرف على مجلس المقاطعة الشمالية والشرقية، تتلقى سلاحها من الهند وتقف معارضة (وبالسلاح) لـ«النمور».

و«منظمة إيلام الثورية»، تأسست في ١٩٧٥ في لندن على يد ألياتبي راتناساباتي (ماركسي).

و«منظمة تحرير شعب تاميل الإيلامي»، لم تدخل في الجبهة، تأسست في ١٩٨٠، زعيمها سيدتادتان (ماركسي).

و«الجيش الوطني التاميلي»، تموله الهند لمواجهة «النمور».

ثمة منظمات سنهالية متطرفة مواجهة للمنظمات التاميلية، وكذلك زعماء سنهاليون متطرفون على رأسهم روهانا فيجيويرا الذي كان قد طرد من جامعة موسكو في ١٩٦٤ لآرائه الماوية، وحكم عليه بالسجن لمدى الحياة في ٢٠ كانون الاول ١٩٧٤، وأفرج عنه في ١٩٧٧، واغتيل في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٨٩، وكان قد أسس (١٩٦٤) «جبهة التحرير الشعبية» التي بدأت ماركسية ثم تحولت قومية، وتوصلت إلى ضم نحو ألفي عضو (من الشباب القادمين من الجنوب)، وتمكن بعض اعضائها من اختراق الاكليروس البوذي والادارة والجيش والشرطة، وأصبح بمقدورها شل الحياة الاقتصادية في البلاد في أي لحظة. لكن الحكم نجح في تفكيك هذا التنظيم وتصفيته في ١٩٨٩.

قوات السلام الهندية: كان عديدها قد بلغ ٣ آلاف رجل في ١٩٨٧، و٧٠ ألفًا إلى ١٠٠ ألف في ١٩٨٨. وتم سحبها على دفعات من اول كانون الثاني ١٩٨٩ إلى ٢٣ نيسان ١٩٩٠. وقد بلغت كلفة تدخل هذه القوات نحو ٢٠٠ مليون دولار.

أما ضحايا حرب العصابات التي عرفتها البلاد بين ١٩٨٣ واواسط ١٩٩٣ فبلغت نحو ٣٨ ألف ضحية.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة في القطاعات الرئيسية بحسب النسب التالية: ٥٤٪ في الزراعة (و٢٧٪ من الناتج العام)؛ ١٣٪ في الصناعة (٢٦٪)؛ ٣١٪ في الخدمات (٤٦٪)؛ ١٪ في المناجم (١٪ من الناتج العام). ويبلغ المعدل السنوي (السنوات الاخيرة) للبطالة نسبة نحو ١٧٪.

اشتهرت سري لانكا بجودة إنتاجها من الشاي، ويعود الفضل في ذلك إلى الانكليزي الكابتن جيمس هيلر الذي أدخل زراعة الشاي في ١٨٣٩ باحضار شجيرات الشاي من الصين ووجد بعد تجارب ان منطقة نورالي الجبلية والواقعة وسط الجزيرة من احسن المناطق المناسبة لهذه الزراعة. وهنالك ثلاثة انواع للشاي في سري لانكا من حيث الجودة، وأجوده الذي يزرع على ارتفاع أكثر من ألف متر. ومعروف ان السكان الاصليين، وهم السنهال، رفضوا ان يعملوا في مزارع الشاي تحت وصاية الانكليز، ما اضطرهم لجلب عمال لزراعة الشاي من جنوبي الهند. و هكذا توافد الهندوس التاميل إلى الجزيرة وبقيت ملكية مزارع الشاي مع حكومة السنهال. وتحتل سري لانكا المرتبة العالمية الثالثة في انتاج الشاي.

ويحتل المطاط المرتبة الثانية، بعد محصول الشاي في اقتصاد سري لانكا. فأشجار المطاط تزرع بكثافة في المنطقة الجنوبية من الجزيرة، فهناك نحو ٧٩٤ هكتارًا مزروعًا بأشجار المطاط. وتأتي سري لانكا في ا لمرتبة العالمية السادسة في انتاج المطاط.

وبعد المطاط يأتي جوز الهند، وهو من المحاصيل التقليدية في شبه القارة الهندية، وزيته يستعمل في صناعة بعض الادوية، إضافة إلى كونه من الزيوت النباتية.

وتشتهر سري لانكا بأن اراضيها تحوي نوعًا من الاحجار الكريمة يطلق عليها إسم «جيمس» ــــــ التي تأتي في المرتبة الثانية بعد احجار الألماس. وتوجد احجار جيمس في مناطق متعددة من سري لانكا، وبخاصة في رتنابورا التي تعرف باسم مدينة المجوهرات، وبلمدولا، وبلانجودين وغيرها. ومعروف انها توجد ايضًا في تايلاندا وبورما والبرازيل وجنوب افريقيا، إلا ان سري لانكا تأتي في مقدمة هذه البلدان. وتقول الروايات «ان سليمان الحكيم قد أهدى ياقوتة حمراء كبيرة الحجم إلى بلقيس ملكة سبأ من جزيرة سيلان»؛ ووصف ماركو باولو المجوهرات الموجودة في سري لانكا، وخاصة حجر الروبي الاحمر الذي يعتبر نادرًا، وحجر الزفير الازرق الذي يزن ٤٠٠ قيراط والذي يرصع التاج البريطاني مأخوذ من سري لانكا.

أما الصناعة، فتكاد تنحصر في معالجة الشاي، الكاوتشوك (صناعة دواليب السيارات)، السكر، القطن، جوز الهند. وهناك مصفاة لتكرير النفط. والغرافيت (نوع من الكربون أسود طري تصنع منه اقلام الرصاص) هو المادة المنجمية الوحيدة في البلاد.

وأما السياحة، فالحكومة عاكفة على ايلائها (منذ منتصف الثمانينات) جانبًا مهمًا من سياستها. فإضافة إلى المناخ المعتدل والخضرة الدائمة اللذين تتمتع بهما غالبية مناطق البلاد، هناك المواقع الاثرية التي تنم عن حضارة عريقة، وهناك الشواطىء الطويلة المشمسة ذات الرمال البيضاء، وخاصة ساحل مرجان وساحل بنتونا.

نبذة تاريخية

قديمًا: السنهاليون هم أكبر وأقدم مجموعة من الشعوب التي تقطن سري لانكا، وقد أتوا من شمالي الهند عن طريق البحر. وقد جرت أكبر هجرة إلى الجزيرة في ٥٠٤ق.م. من الشعوب الهندية. وفي القرن الثالث ق.م. وصلها مبشرون بوذيون غرسوا فيها معتقداتهم الدينية، وذلك في ايام الملك ماهاتيسان وكانت تيساماهاراما عاصمة البلاد وتقع في جنوبيها، وقد تلقت مناطق داهيلا غزوات من شعب التاميل. وفي ١٠٠-١٠١ق.م. تمكن الملك السنهالي داتا-غاموندي من طرد التاميل.

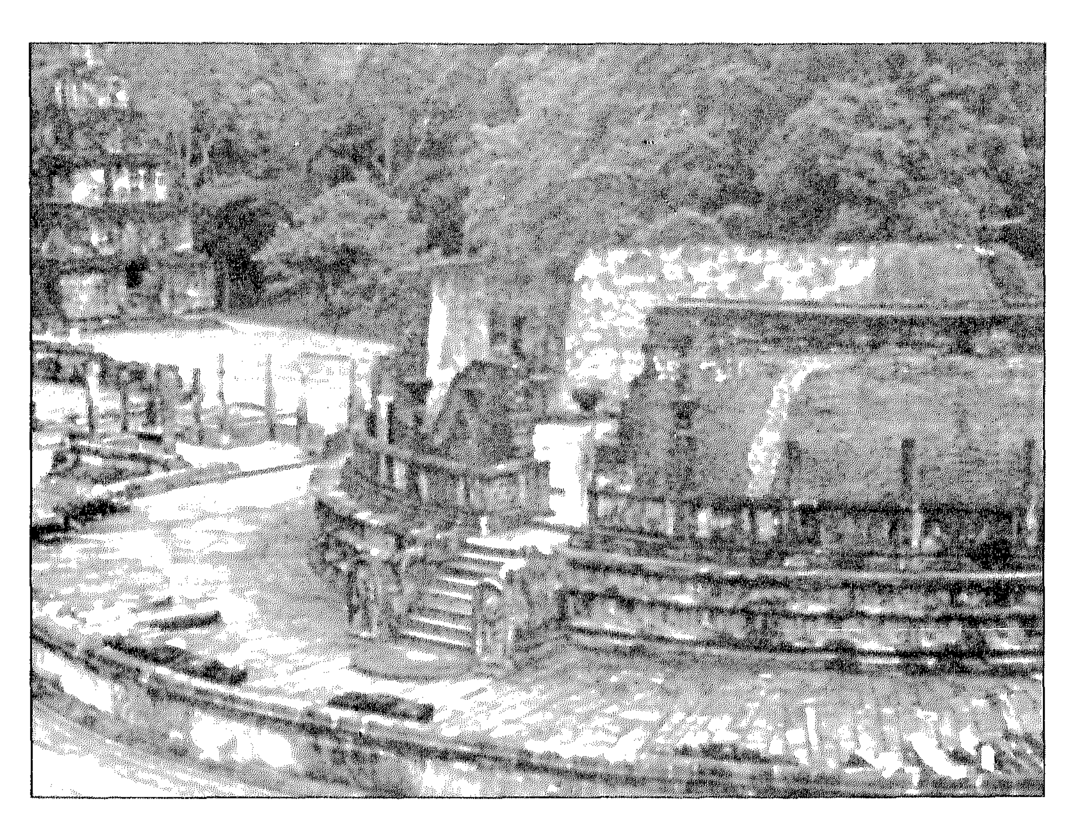
في اواسط القرن الميلادي الاول، جرت علاقات تجارية وبحرية مع الامبراطورية الرومانية. في العام ٢٠٠، دخلت اللغة السنسكريتية إلى البلاد في ايام الملك فيهارا تيسّا. وفي ٢٤٠، دخلت البرهمانية على يد الملك فيجاهندو. وفي ٢٦٠، دعم الملك سنغابو أبهايا الدين البوذي الذي زاد من انتشاره.

بين اواسط القرن الرابع والقرن الحادي عشر، عرفت البلاد أوج نهضتها وحضارتها السنهالية، وكانت عاصمتها أنورادابورا. في ٤٨٠، توصل الملك إلى طرد التاميل من لانكا. في ٤٩٠، اندلعت ثورة قضت على الملك، وبدأت حرب أهلية امتدت إلى ٥١٠، وبين ٧٧٢ و٧٧٧، أعاد التاميل غزواتهم للبلاد، ودمّروا العاصمة بين ٨٣١ و٨٥١. وفي هذه السنة، تمكن الملك سينا الثاني من طردهم إلى خارج البلاد. وعرف القرن الحادي عشر حركة نزوح واسعة النطاق من سكان المناطق الشمالية من سري لانكا باتجاه المناطق الجنوبية بسبب عدم الاستقرار السياسي الذي أدت إليه الغزوات المستمرة من جنوبي الهند.

وبسبب موقع سري لانكا على الطريق البحري الذي يصل شرقي افريقيا بآسيا الجنوبية عرفها الاغريق منذ القديم، واكتشفها العرب في القرن الثامن، ونزل على ارضها ماركو باولو (١٢٩٣)، وقامت بدور محطة تجارية للعرب والصينيين (احتل الصينييون جزءًا من الجزيرة بين ١٤٠٨ و١٤٣٨) عدة قرون.

في التاريخ الحديث: كان البرتغاليون اول الاوروبيين الذين نزلوا إلى الجزيرة (يتقدمهم فرنسيسكو دو ألميدا) وتوصلوا إلى السيطرة عليها باستثناء مملكة كاندي، وحملوا معهم المعتقد الكاثوليكي، فأصبح هناك نحو ٥٪ من ا لسكان كاثوليك. وفي ١٥٣٤، كان هناك ملك تاميلي في جافنا وثلاثة ملوك سنهاليين.

في ١٦٠٢، وصل الكابتن الهولندي جوريس سبيلبرغ، وما لبث الهولنديون ان عقدوا تحالفًا مع الكانديين (سكان مدينة ومنطقة كاندي)، وأخذوا يشجعون التجارة ومد شبكات الري وبعض الزراعات، وأدخلوا البروتستانتية والقانون الروماني الهولندي، وتوصلوا في نهاية المطاف إلى طرد البرتغاليين من البلاد؛ لكنهم واجهوا مقاومة عنيفة في كاندي التي عمل ملكها



موقع اثري يعود الى القرن الثاني عشر.



تمثال لبوذا
يعود الى القرن الثاني عشر.

على محاربتهم وتشجيع الكاثوليكية (١٦٨٧-١٧٣٩).

في ١٧٩٦، وقعت شواطىء سري لانكا تحت السيطرة البريطانية. وفي ١٨٠٢، أصبحت هذه المناطق مستعمرة بريطانية، وفي ١٨١٥ توغلت بريطانيا في الداخل وضمت كاندي إلى مستعمرتها، وقام السكان بحركات تمرد استمرت حتى ١٨٤٥. في ١٨٢٨، أدخل الانكليز زراعة البن، والشاي في ١٨٦٧، وشجرة الهيفا التي اتوا بها من الامازون في ١٨٧٦، وشجرة الكاكاو في ١٨٨٠.

الاستقلال: في ٤ شباط ١٩٤٨، نالت سري لانكا (باسم سيلان، دولة علمانية) الاستقلال، وقررت حكومتها ان تبقى عضوًا في الكومنولث البريطاني، واستلم السلطة فيها المحافظون في «الحزب الوطني الموحد» الذين كانوا قد حققوا انتصارًا كبيرًا في انتخابات ١٩٤٧.

وفي الفترة التي تلت الاستقلال، عرفت سري لانكا ازمات سياسية واقتصادية عاصفة، كان انخفاض اسعار الزراعات المحلية الأساسية (الشاي، الجوز، المطاط) في أساس هذه الازمات، وكذلك مطالب التاميل في الانفصال (راجع باب «حرب إنفصال التاميل»)، ما اضطر الدولة إلى ان تستنجد بالمساعدات الخارجية.

في ١٩٥٩، اغتيل رئيس ا لوزراء سولومون دياز باندرانيكا، فخلفته، في السنة التالية، زوجته سيريمافو باندرانيكا، وكانت اول امرأة في العالم تحتل مثل هذا المنصب.

وفي اساس الاضطرابات الداخلية العداوات المتأصلة بين أكبر مجموعتين من المجموعات التي تشكل شعب سري لانكا: السنهاليون والتاميل. ففي ايام الاستعمار

من شعارات الشيوعيين السري لانكيين في الستينات.



البريطاني كانت الانكليزية هي اللغة الرسمية، ولكن في ١٩٥٦، استبدل البرلمان هذه اللغة باللغة السنهالية وحصر استعمال لغة التاميل بنطاق ضيق. فأثار هؤلاء أعمال شغب اضطرت الحكومة على اثرها، في ١٩٦٦، إلى جعل لغة التاميل لغة رسمية كذلك.

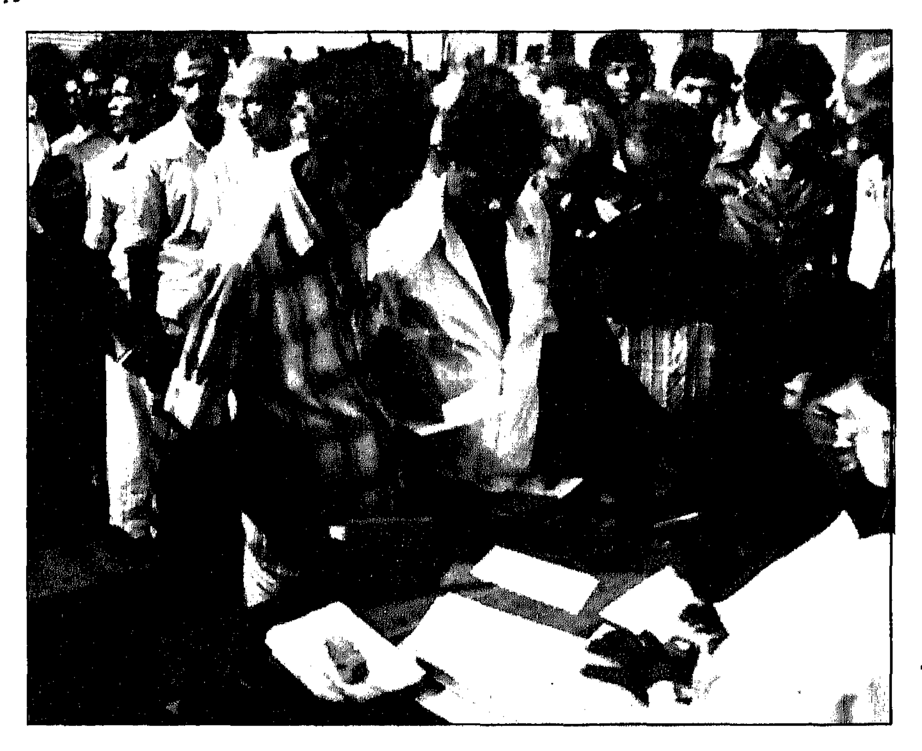
وثمة مشكلة أخرى عصفت بالبلاد مدة طويلة هي مشكلة مليون تاميلي هندي يقيمون في سري لانكا منذ نهاية القرن التاسع عشر. وقد كان الكثيرون من هؤلاء لا يحملون الجنسية الهندية ولا السري لانكية. وقد جرت مفاوضات طويلة ومعقدة بين البلدين، حول هذا الموضوع، اسفرت في ١٩٦٤ عن توقيع اتفاق بين السيدة باندرانيكا (سري لانكا) والبهادور شاستري (الهند)، يقضي بأن تمنح سري لانكا حق اللجوء لـ٣٠٠ ألف تاميلي، وبأن تستقبل الهند ٥٢٥ ألفًا منهم. أما الذين لم يشملهم هذا الترتيب، فقد سوّي وضعهم في ١٩٧٤، بمنح نصفهم الجنسية السري لانكية، والنصف الآخر الهندية.

وفي نيسان ١٩٧١، عرفت البلاد، مع تفاقم الاوضاع المعيشية، انتفاضة مسلحة اتخذت طابعًا يساريًا، توصل المتمردون خلالها إلى احتلال نحو ١٠٠ مركز شرطة في انحاء مختلفة من البلاد. إلا ان الحكومة، وقد كانت مدعومة بغالبية القوى السياسية، استطاعت ان تسيطر على الوضع بعد ان وقع نحو ٧ آلاف قتيل بالاضافة إلى اعتقال نحو ٢٠ ألفًا.

وما كادت الحكومة تباشر سلسلة اصلاحات (قانون الاصلاح الزراعي في ١٩٧٢) حتى فاجأتها الازمتان العالميتان، ازمة النفط وازمة التضخم؛ فارتفع عدد العاطلين عن العمل إلى أكثر من مليون شخص. وازداد الوضع السياسي تفاقمًا بدءًا من ١٩٧٥، خاصة بعد طرد عدد من الوزراء في الحكومة. ولم يستطع مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في كولومبو في آب ١٩٧٦ ان يخفي النكسات التي مني بها نظام الحكم القائم. وانتشرت موجة من الاضطرابات في آخر ١٩٧٦ واوائل ١٩٧٧ بدعم من المعارضة اليمينية واليسارية على السواء. ثم جاء فشل رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي في الانتخابات الهندية ليغذي جانبًا من الهبوط في شعبية زميلتها في سري لانكا، السيدة باندرانيكا.

في تموز ١٩٧٧، جرت انتخابات نيابية (نسبة المقترعين ٨٦٪، وهي نسبة قلما عرفت دول العالم الثالث مثيلاً لها) خرج منتصرًا منها حزب المعارضة «الحزب الوطني الموحد» بزعامة ج.ر.جاياوردن. وفي تشرين الاول ١٩٧٧، جرى تعديل دستوري انتخب جاياوردن بموجبه رئيسًا للجمهورية في شباط ١٩٧٨. وبدأت ولايته باضطرابات قام بها التاميل مطالبين بتكوين دولة مستقلة لهم. وقد ردّ جاياوردن برفض هذه المطالب وقمع المنادين بها. إلا ان مسألة الوحدة الوطنية عادت لتطرح مجددًا وبحساسية أكبر.

على الصعيد الخارجي، استمر النظام القائم بانتهاج سياسة عدم الانحياز ورفض توقيع اية معاهدة دفاع مشترك على الرغم



في ذروة التوتر بين السنهاليين والتاميل: بعض التاميل ينتظرون الحصول على اوراق تخولهم اللجوء الى الهند (آب ١٩٨٣)

من ضعف امكانياته الدفاعية.

كرونولوجيا احداث العقدين الاخيرين: في ١٦ تشرين الاول ١٩٨٠، صوت البرلمان على نزع الحقوق المدنية لمدة سبع سنوات عن السيدة سيريمافو باندرانيكا (رئيسة الحكومة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥، و١٩٧٠ إلى ١٩٧٨) بعد ادانتها بسوء استعمال السلطة والفساد. وعلى اثر ذلك، اعلنت السلطات حال الطوارىء لمنع المظاهرات المؤيدة لباندرانيكا، واعتقلت بعض قادة حزب الحرية (التقدمي). وردت باندرانيكا ان هذا الاجراء اتخذ لمنعها من الاشتراك في انتخابات ١٩٨٣، وانها ضحية «اغتيال سياسي» نفذه حزب الوحدة الوطنية (الليبرالي) الحاكم من خلال الرئيس جاياوردن.

في ١٧ آب ١٩٨١، أعلن جاياوردن حال الطوارىء عقب صدامات دموية بين السنهاليين والتاميل. وقد طالب القادة التاميل (لا بل أعلن بعضهم) بدولة منفصلة مستقلة. في حين اتهمت السلطات «قوى اجنبية» بوقوفها وراء هذه الاضطرابات الاتنية.

في تشرين الاول ١٩٨٢، أعيد انتخاب جاياوردن رئيسًا للجمهورية. وقد عكس الاقبال الشديد على هذه الانتخابات اهتمام الناخبين باول انتخابات رئاسية تجري بالاقتراع العام. وفي تموز ١٩٨٣، جرت اعمال عنف بين التاميل (اقلية هندوسية) والسنهال (أكثرية بوذية) ذهب ضحيتها خلال ايام قليلة أكثر من ألفي قتيل، وشرّد أكثر من ١٣٥ ألف شخص (أكثرهم من التاميل). وأعلن جاياوردن،

إثر هذه الاحداث، حظر الحركات والتنظيمات الانفصالية والتنظيمات اليسارية المتطرفة. وصوّت البرلمان على تعديل للدستور يمنع أي مطالبة انفصالية، في حين استمرت «الجبهة الموحدة لتحرير التاميل» بالمطالبة بحق التاميل في تقرير مصيرهم، وقيام دولة تاميلية منفصلة باسم «إيلام».

خلال ١٩٨٤، استمرت اعمال العنف، واستعملت احيانًا اسلحة ثقيلة كما في معركة آب ١٩٨٤ بين الشرطة والثوار الانفصاليين. وتميز الشهر الاخير من السنة (١٩٨٤) بتصاعد موجة العنف. وعلى الصعيد الخارجي، كانت النقطة المميزة اعلان منظمة التحرير الفلسطينية وغالبية البلدان العربية عن ا ستيائها من استخدام حكومة سري لانكا خبرات عسكرية واستخباراتية اسرائيلية لتدريب قواتها المسلحة والمساعدة على قمع الثوار التاميليين (صيف ١٩٨٤).

تصاعدت حرب انفصال التاميل (راجع الباب الخاص بهذه الحرب) في السنوات ١٩٨٥-١٩٨٧، وقضت على آلاف الاشخاص. وفي ٢٩ تموز ١٩٨٧، اتفقت سري لانكا والهند على اعتبار منطقة التاميل منطقة نزاع اقليمي يكون على الهند ضمان السلام فيها ونزع سلاح «النمور» التاميل. لكن الجبهة الشعبية للتحرير (التاميل) رفضت هذا الحل ودعت الطلاب إلى حمل السلاح. ودخلت قوات السلام الهندية مدينة جافنا في ٥ آب ١٩٨٧، وعصفت الخلافات (والاشتباكات) بين التنظيمات التاميلية وذهبت بحياة العشرات منهم. وجرت محاولة اغتيال الرئيس جاياوردن داخل البرلمان (١٨ آب ١٩٨٧) فقتل احد الوزراء وجرح عدد من الحضور. ولم تتوقف الاحداث الدامية في ١٩٨٨ التي عرفت انتخابات محلية اشترك فيها ٦٥٪ من المقترعين في مناطق التاميل رغم مقاطعة تنظيماتهم المسلحة.

في ١٩ كانون الاول ١٩٨٨، جرت انتخابات رئاسية حملت إلى الرئاسة راناسنج بريماداسا (مولود ١٩٢٤) الذي نال ٥٠،٤٣٪ من عدد المقترعين المشتركين (٥٥٪) في حين نالت منافسته السيدة باندرانيكا ٤٤،٩٪، ونال أوسي أبيغونيسيكا (يسار) ٤،٥٪.

في ١١ كانون الثاني ١٩٨٩، رفعت حال الطوارئ، وبعد أقل من شهر واحد، تعرضت باندرانيكا لمحاولة اغتيال وجرحت. وفي ١٥ شباط ١٩٨٩، جرت انتخابات تشريعية اشتركت فيها غالبية الحركات والتنظيمات التاميلية. وفي اول حزيران ١٩٨٩، طلب الرئيس بريماداسا إنسحاب قوات السلام الهندية. وبين ٢٥ حزيران و١٥ تموز من العام نفسه، وقع نحو ٥٤٢ حادث اغتيال سياسي. وفي تشرين الاول (١٩٨٩) قتل ٣٥ طالبًا في إحدى الجامعات، وأعلن «النمور» عن استعدادهم لايقاف القتال اذا انسحبت قوات السلام الهندية وجرى إلغاء نتائج انتخابات تشرين الثاني ١٩٨٨.

في ٢٤ آذار ١٩٩٠، انسحب آخر جندي هندي، وبسط «النمور» التاميل سيطرتهم على المناطق التي كانت هذه



اطفال من التاميل في مخيم للاجئين في كولومبو يقفون في طابور للحصول على الحليب (١٩٨٣).

القــوات متواجــدة عليهــا. وفي ٣ آب ١٩٩٠، قتل أكثر مــن ١٤٠ مسـلمًا في مسجدين.

في ١١ ايار ١٩٩١، جرت انتخابات محلية. وفي آب، وقعــت اشـتباكات بـين الجيش والتاميل اسفرت عن مقتل ٢٢٠٠ (في غضون أقل من شـهر واحد). وفي ٣٠ آب، علّق الرئيس بريماداسا أعمال البرلمان.

في اول ايـار ١٩٩٣، اغتيل الرئيـس بريماداسـا، وانتخب مكانه رئيس الـوزراء دينجيري بـاندا ويجيتونغا (مولـود ١٩٢٢) لفـترة انتقاليـة تنتهـي في كـانون الاول ١٩٩٤)، في ما الجيش واصل عملياته ضد التاميل لكن «نمور» هـؤلاء تمكنـوا، في ١١ تشرين الثـاني ١٩٩٣، مـن قتـل نحو ٤٠٠ مـن الجنـود والبحـارة في قـاعدة عسـكرية معزولة في شمالي سري لانكا.

في آب ١٩٩٤، واجه الحزب الحاكم منذ ١٩٧٧، الحزب الوطني الموحد، تجربة انتخابية صعبة في منافسته لجبهة «تحـالف الشعب» (تشكيلات يسارية) المعارضة الـتي تقودهـا شـاندرانيكا كاماراتونغـا، ابنــة سولومون وسـيريمافو باندرانيكـا (وكلاهمـا قاد البلاد). وبالفعل، حصلت المعارضة على ١٠٥ مقـاعد مـن اصل ٢٢٥ في البرلمـان، بينما حصل الحزب الوطني على ٩٤ مقعدًا.

ونصبت كاماراتونغا رئيسة للوزراء وسارعت إلى اتخاذ أولى مبادراتها لاجراء مصالحة وطنية مع التاميل الانفصاليين. فأعلنت (آخر آب ١٩٩٤) رفع الحظر الاقتصادي الذي يلقي بثقله على المناطق التي يسيطر عليها «نمور تحرير إيلام تاميل» شمالي البلاد. وكان هؤلاء ألحوا إلى أنهم مستعدون للقبول بمفاوضات سلام مع الحكومة الجديدة.

لكن انفجار ٢٤ تشرين الاول ١٩٩٤، الذي أودى بحياة أبرز مرشحي المعارضة لرئاسة سري لانكا غاميني ديسانايكي (مولود ١٩٤٢) ونحو ٦٠ قتيلاً بينهم أمين عام الحزب الوطني الموحد في العاصمة كولومبو، أدى إلى فرض الحكومة منع التجول في العاصمة وإلغاء اجتماعًا كان مقررًا مع ممثلي حركة «نمور إيلام».

وفازت رئيسة الوزراء، شاندرانيكا كاماتونغا، في هذه الانتخابات الرئاسية (١٠ تشرين الثاني ١٩٩٤)، وحصلت على أكثر من ٦٠٪ من الاصوات. فاعتبرت هذه النتيجة «تفويضًا لها لمتابعة عملية السلام مع نمور التاميل». وكانت منافستها إلى الرئاسة سريما ديسانايكي الذي كان زوجها اغتيل قبل اسبوعين. ويشار إلى ان النظام الرئاسي المعمول به في سري لانكا يعطي رئيس الجمهورية صلاحيات كبرى. فهو الذي يتحكم بقوات الامن والجيش ويحق له حل البرلمان. لكن الرئيسة الجديدة وعدت باصلاحات دستورية للعودة إلى النظام البرلماني الذي كان معمولاً به قبل العام ١٩٧٨. وفي اول مؤتمر صحافي لها، قالت الرئيسة انها ستعين والدتها السيدة باندرانيكا في منصب رئيسة الوزراء (فتكون هذه الولاية الثالثة في هذا المنصب لباندرانيكا التي كانت أول امرأة في العالم تنتخب على رأس حكومة في ١٩٦٠ بعد اغتيال زوجها سولومون باندرانيكا). وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٤، اعلنت حركة «نمور» التاميل هدنة من جانب واحد لمدة اسبوع.

وفي الشهر الاول من ١٩٩٥، التزمت شاندرانيكا بوعودها، وأمرت برفع الحصار عن شبه جزيرة جافنا، المعقل الرئيسي لجبهة نمور تحرير إيلام كخطوة اولى لبدء المفاوضات بين الجانبين. وكان زعيم جبهة النمور، باراباخ هاران، طالب برفع الحصار عن الجزيرة قبل بدء المفاوضات كعربون سلام ولاثبات حسن النوايا الحكومية. لكن جنرالات الجيش تحفّظوا على قرار الرئيسة لأنهم يعتبرون هاران ليس اهلاً للثقة، وان اصراره على هذه الخطوة ما هو إلا مناورة لكسب الوقت والتزود بالامدادات الغذائية والعسكرية تمهيدًا لتحضير هجوم جديد على القوات الحكومية. وبرأيهم ان هاران هو من إرث ملوك التاميل القدامى، ودموي يهدف لاخضاع سري لانكا بكاملها والحاقها بجنوبي الهند حيث تسود اللغة التاميلية.

وكان اتفق، أثناء المفاوضات، على هدنة استمرت من ٨ كانون الثاني حتى ١٨ نيسان ١٩٩٥. وفي اول ايار ١٩٩٥، أعلن ان المعارك استؤنفت في شمالي البلاد





الرئيسة شاندرانيكا كاماراتونغا.

بعد هجوم «النمور» على سفينتين تابعتين لسلاح البحرية، واستخدمت صواريخ ارض-ارض للمرة الاولى من قبل نمور التاميل. وأخذت الحكومة في تعزيز وجودها في جافنا.

وفي آب ١٩٩٥، طرحت الحكومة خطة حل قوامها إعطاء اقلية التاميل الحكم الذاتي في إطار نوع من الفدرالية يطلق عليه إسم «اتحاد المناطق». لكن النمور رفضوا هذه الخطة.

وبعدما جرى اعتقاد (في اواخر تشرين الاول ١٩٩٥) ان القوات الحكومية باتت مرغمة على الانسحاب من جافنا بعد ان بدأت أكبر عملية عسكرية ضد نمور التاميل منذ ٦ آب (١٩٩٥) تخللتها أعمال عنف «عنصري» ارتبطت بأسماء ٥٠-٦٠ ضابطًا، أعلن في ١٩ تشرين الثاني (١٩٩٥) ان القوات الحكومية دخلت جافنا، معقل الانفصاليين التاميل، واستولت على المعبد الهندوسي الرئيسي في نالور الذي يبعد ٢،٥كلم عن قلب المدينة جافنا (وهذه هي المرة الاولى التي يتمكن فيها الجيش من الدخول إلى جافنا منذ ١٩٩٠، وهو العام الذي اقامت فيه حركة الانفصاليين التاميل دولة مستقلة بحكم الامر الواقع).

ومع ذلك استمرت مقاومة التاميل وعملياتهم. فخلال شهري كانون الثاني وشباط ١٩٩٦، نفذ الثوار التاميل أكثر من ٢٠ عملية خاطفة استهدفت المقرات الرسمية المدنية والعسكرية، وأخطرها كانت العمليات الانتحارية الثلاث التي نفذتها مجموعة «إيلالان فورس» ثأرًا وانتقامًا في قلب العاصمة كولومبو، سقط فيها أكثر من ٧٠ ضحية و١٥٠٠ جريح. وتضم المجموعة نخبة من التاميليين الذين يطلق عليهم «قافلة الانتحاريين لاستقلال شعب التاميل وسيادتهم على ارضهم أو انضمامهم إلى الوطن في تاميل نادو الهندية»، ويغلب على اعضاء المجموعة العنصر النسائي. وفي تموز اعاد التاميل سيطرتهم على إحدى ثكنات الجيش في الشمال المعتبرة المعبر الوحيد للامدادات الحكومية إلى شبه جزيرة جافنا، ما اضطر الرئيسة شاندرانيكا إلى قطع زيارة خاصة لبريطانيا والعودة إلى بلادها. كما اعاد الثوار سيطرتهم على مدينة كيلينوكشي التي اصبحت قاعدتهم السياسية بعد سقوط جافنا. واستأنفت القوات الحكومية حملاتها، وسيطرت في ٢٩ ايلول (١٩٩٦) على كيلينوكشي. وعرف الشهر الأخير من ١٩٩٦ نقلة نوعية في الصراع، إذ تم في باريس اغتيال قياديين تاميليين (الجالية التاميلية تعد نحو ٢٠ ألفًا في فرنسا)، حضر تشييعهما نحو ٧ آلاف تاميلي توافدوا من انحاء العالم. وقد ترافقت حادثة الاغتيال هذه مع تعاظم الحديث عن ان نمور التاميل تمكنوا من نسج شبكات واسعة لتهريب السلاح والتجارة بها، خاصة داخل الهند. كما ان السكرتارية الدولية للنمور نجحت في الحصول على مساعدات مهمة من جانب الجاليات التاميلية المنتشرة في اوروبا والولايات المتحدة، أضف إلى ذلك تعاظم الحديث عن دور الهند التي تحولت إلى طرف في النزاع منذ اغتيال رئيس وزرائها راجيف غاندي

وتوجيه اصابع الاتهام إلى «النمور»، إضافة إلى انها تجد في أي حل لا يـؤدي إلى هزيمة النمور تهديدًا لأمنها.

في مطلع ١٩٩٧، تظاهر الصحافيون ضد «قانون الارهاب» الذي سمح للحكومة بملاحقة الصحافيين والضغط عليهم. وبعد اسابيع بدأت الحكومة تتراجع عن بعض الاجراءات لمصلحة حرية الاعلام، خاصة وان الائتلاف الحكومي (منذ ١٩٩٤) كان وضع حرية الاعلام في مركز الصدارة ضمن برنامجه الانتخابي.

في النصف الاول من شباط ١٩٩٧، نفذ ثوار التاميل أعمال عنف جديدة قضت على ٢٤ جنديًا و١٥ شرطيًا، في ما أسفرت المواجهات بين التاميل والمسلمين في شرقي البلاد عن قتل ١١ شخصًا.

حرب انفصال التاميل

اسباب التحول في موقف جبهة نمور التاميل: أدت مجموعة من العوامل إلى تغيير موقف جبهة نمور التاميل، أهمها:

– نجاح الحملة العسكرية الحكومية المسماة «عملية الشمس المشرقة» ضد نمور التاميل في تحقيق اهدافها بعد سيطرة القوات الحكومية على معاقل نمور التاميل في شبه جزيرة جافنا، وأهمها العاصمة الاقليمية جافنا لاول مرة منذ ١٩٩٠. تلك العملية التي بدأت في تشرين الثاني ١٩٩٥ وانتهت في تشرين الاول ١٩٩٦، والتي تم خلالها طرد المتمردين إلى الاحراش والجبال بعدما لحق بهم من خسائر فادحة وتم القاء القبض على زعيمهم، ثم اطلقت الحكومة سراحه بعد قبول نمور التاميل بمبدأ التسوية السلمية.

– فقدان التعاطف الداخلي خاصة من قبل شعب ا لتاميل حيث اقترنت أكثر عملياتهم بانتهاكات صارخة لحقوق الانسان.

– إضافة إلى الانقسامات الداخلية في الحركة بين نمور تاميل إيلام التي تسعى للانفصال وإنشاء دولة تاميل إيلام وحركة «قوة إيلام» المتطرفة التي لا تختلف في اهدافها عن النمور، ولكنه صراع على من له أحقية تمثيل التاميل.

– التناقض الحاد في عدد المقاتلين حيث تتمسك قيادة الحركة بمذهب قتالي متشدد يفرض على المقاتل تناول كبسولة من السيانور لينتحر بها بدلاً من الوقوع في الأسر، إضافة إلى الخسائر البشرية في مواجهتهم لجيش نظامي أكثر عددًا وعدة وتمويلاً.

– انخفاض شعبية قضيتهم في الخارج خصوصًا في اوروبا إثر المذابح التي نفذوها ضد المدنيين السنهال والمسلمين وابناء التاميل انفسهم، علاوة على انخفاض الدعم الهندي السياسي والمادي لهم خاصة بعد تورطهم في حادثة اغتيال راجيف غاندي في ايار ١٩٩١.

طبيعة الصراع: يعد الصراع في سري لانكا صراعًا عرقيًا طائفيًا ممتدًا وعنيفًا منذ القرن

السادس عشر حتى الآن في ما بين التاميل والسنهال. ومن أهم مصادر هذا الصراع:

– الخريطة الاجتماعية العرقية لسري لانكا التي يبلغ عدد سكانها ١٨ مليون نسمة، منهم ٦٩٪ سنهال، ١٧٪ تاميل، ٨٪ مسلمون، ٨٪ اقليات أخرى أهمهم المسيحيون.

والواقع ان سري لانكا تعيش وضعًا غريبًا. ففي الشمال يوجد بالفعل كيان تاميلي مستقل يغطي الجزء الأكبر من الاقليم الشمالي وعاصمته جافنا ثاني أكبر مدن الجزيرة، وهو الاقليم الذي يشكل التاميل فيه ما يزيد على ٩٥٪ من سكانه، بينما يشكلون ٤٣٪ من إجمالي سكان الاقليم الشرقي.

فبالاضافة إلى الاختلاف العرقي بين السنهال من أصل أيرياني والتاميل من اصل درافيدي، هناك الاختلاف الديني. فالسنهال يدينون بالبوذية والتاميل يدينون بالهندوسية. ولكل طائفة لغة وثقافة خاصة بها حيث تنتشر ثلاث لغات في سري لانكا هي: السنهالية، التاميلية والانكليزية.

– شعور التاميل بالعزلة والتهميش الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. إذ يعاني التاميل من سيطرة الاغلبية السنهالية على المناصب القيادية الهامة مع حرمان التاميل من هذه المناصب والوظائف العامة العليا بصفة خاصة، والتفرقة في المعاملة في ما بينهم وبين السنهال وسوء الاحوال التعليمية، إضافة إلى فرض التعليم الحكومي الذي يكرس سيطرة السنهال عليهم، فضلاً عن تردي الاحوال الاقتصادية والمعيشية في المناطق الشمالية والشرقية حيث تتجاهلها الحكومة إلى تركز اهتمامها على المناطق ذات الاغلبية السنهالية، إذ لا يزيد نصيب الفرد التاميلي في المتوسط السنوي عن ٦٠-١٦٠ دولارًا من الدخل القومي. لذا يطالب التاميل، باعتبارهم يشكلون أكبر الاقليات بعد السنهال، بمساواتهم بهم داخل الوطن الواحد.

–ولأن الحكومة التي يغلب عليها العناصر السنهالية رفضت الاعتراف بحقوقهم السياسية كأقلية تشكل خمس السكان، وتبعًا لذلك أخذ التاميل يطالبون بقيام حكم ذاتي لا يخضع للمركز إلا في سياستين: الخارجية والدفاع. وعندما واصلت الحكومة رفض مطالبهم، أصر التاميل عليها وأعلنوا في ١٩٧٨ الانفصال وقيام «دولة تاميل إيلام». غير ان هذا التطور حرّك ضدهم السنهال، وأعلنت الحكومة الحرب على التاميل الذين تعرضوا لأعمال عنف وحشية ضدهم. ومع بداية آب ١٩٨٣، شهد الوضع الطائفي في سري لانكا تدهورًا خطيرًا بعد إصدار البرلمان قانونًا يقضي بتجريم كل الدعاوى الانفصالية بهدف القضاء على جبهة نمور تحرير إيلام، ما اضطرها إلى تشكيل مجموعات عسكرية وصل عدد افرادها إلى المليون، كما تمتلك وحدات عسكرية نسائية لا تقل كفاءة أو ضراوة عن باقي افراد القوات من الرجال، ولديهم قوى انتحارية يطلق عليها «النمور السوداء» راحت تثار لأبناء جلدتها. وهكذا اختار التاميل اسلوب حرب العصابات لتحقيق مطالبهم بعد ان اجبرتهم الدولة على التخلي عن اسلوبهم السابق المتمثل في العمل السياسي وعبر المؤسسات الشرعية.

– وقد مورست مختلف صور العنف من اساليب الاحتجاجات السلمية والمظاهرات إلى استخدام السلاح في عمليات الاغتيالات السياسية وحوادث تدمير المنشآت والمصالح العامة والحكومية، إضافة إلى اساليب حرب العصابات. وأدت الحرب الاهلية حتى الآن (اوائل ١٩٩٧) إلى مصرع ٢٨٠ ألف شخص وإعاقة ١٢٥ ألف آخرين. وقد دمرت المعارك احياء بكاملها وقرى خصوصًا في جافنا، وأدت هذه الحرب إلى تشريد نصف مليون فرد داخل البلاد و٢٥٠ ألفًا خارجها، كما قام المتمردون بأعمال تخريبية واسعة النطاق في كولومبو.

ولقــد كــانت التأثــيرات الاقتصاديــة والاجتماعية للحرب الاهلية جلية خصوصًا في شرقي البلاد حيث بارت الارض بعد ان هجرها مئات الالوف من الفلاحين الذين لجأوا إلى المدن الواقعة جنوبي البلاد، الامر الذي أدّى إلى زيادة نسبة العاطلين عن العمل.

كما قام المتمردون بعمليات اغتيال سياسي عديدة اهمها اغتيال راجيف غاندي رئيس وزراء الهند في ايار ١٩٩١، واغتيال رئيس سري لانكا راناسنج بريماداسا في ٢٨ آذار ١٩٩٣، واغتيال زعيم المعارضة لاليت أتولاثمود في اواخر نيسان ١٩٩٣، و٢٩ شخصًا من أبرز السياسيين السنهال في العام نفسه.

وامتد العنف الذي يمارسه التاميل ضد المسلمين الذين يشكلون ٨٪ من جملة السكان لاجبارهم على الدخول في الصراع الطائفي إلى جانبهم. ويهدف التاميل من هذه العمليات إلى إجبار الحكومة على التخلي عن مواصلة العمليات العسكرية واسعة النطاق على مواقع التاميل وتحويل اهتمام الحكومة إلى حماية المواطنين(فقرات هذا الباب من: مختار شعيب، «السياسة الدولية»، العدد ١٢٧، كانون الثاني ١٩٩٧، ص ٢٢٣-٢٢٤).

مسار الاحداث ومحاولات التسوية: راجع النبذة التاريخية .

المسلمون في سري لانكا

الجذور: تعد سيلان (سري لانكا) مركزًا للنشاط التجاري منذ أقدم العصور لما اشتهرت به من انتاج التوابل والاخشاب والجواهر. وكان العرب من اقدم الامم التي لها علاقات تجارية مع سيلان، لذا اتخذوها موطنًا لهم واطلقوا عليها إسم سرنديب أو جزيرة الياقوت. ومع ظهور الاسلام وانتشاره ازداد هذا النشاط التجاري، فكانت البضائع تنقل من سيلان إلى اليمن، ومنها بالقوافل إلى انحاء العالم الاسلامي، وبالتالي كانت التجارة هي القنطرة التي عبر عليها الاسلام إلى جزيرة سيلان. وكان انتشار الاسلام في سيلان شبيهًا إلى حد كبير بانتشاره في اقطار جنوب شرقي آسيا، كما كان لمسلمي جنوبي الهند دور بارز في نشر الاسلام في سيلان. واستطاعت المجموعة الاسلامية في سيلان ان تحظى بنفوذ كبير، إلا ان الدول الاستعمارية التي احتلت سيلان (البرتغال، هولندا، انكلترا) قلصت نفوذ المسلمين في الجزيرة. حتى ان هذه الدول أبادت قرى مسلمة بأكملها وحاولت إزالة الوجود الاسلامي من الجزيرة. وأخذ المسلمون يتلمسون طرقًا يستطيعون من خلالها إثبات وجودهم، فكان الاهتمام بالتعليم الحديث والاستفادة منه.

مصلحون ومشكلات: حاول المصلح الاجتماعي محمد قاسم سيدي لبي تطوير دراسة اللغة العربية بين السيلانيين، خاصة وانه كان قد ازدهر اسلوب جديد لتدريس اللغة التاميلية، لغة مسلمي سيلان، وذلك عن طريق كتابتها بالاحرف العربية، واللغة التاميلية تشبه إلى حد



المدخل الرئيسي للجامعة النظيمية في مدينة بيرادلي.

معبد بوذي في مدينة كاندي.

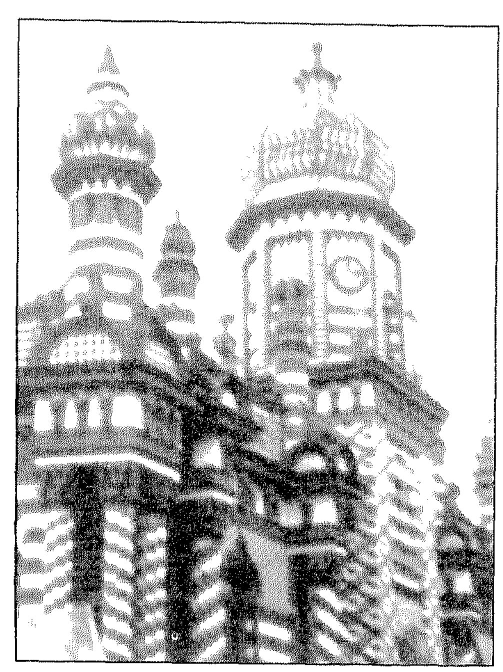


كبير اللغة السواحلية، كما قام في الفترة ذاتها علماء من جنوب الهند بزيارة سيلان وحضوا المسلمين على التعليم، وكان من بين هؤلاء العلماء عالم يدعى «مابلي» الذي يعد من كبار مفكري جنوب الهند، وقد كتب عدة مؤلفات باللغتين العربية والتاميلية أشهرها كتابه «فتح الديانة» في الفقه الاسلامي، وقد ترجم إلى الانكليزية وشرح فيه اصول الفقه الاسلامي باسلوب شائق بعيدًا عن تعقيدات المصطلحات الفقهية.

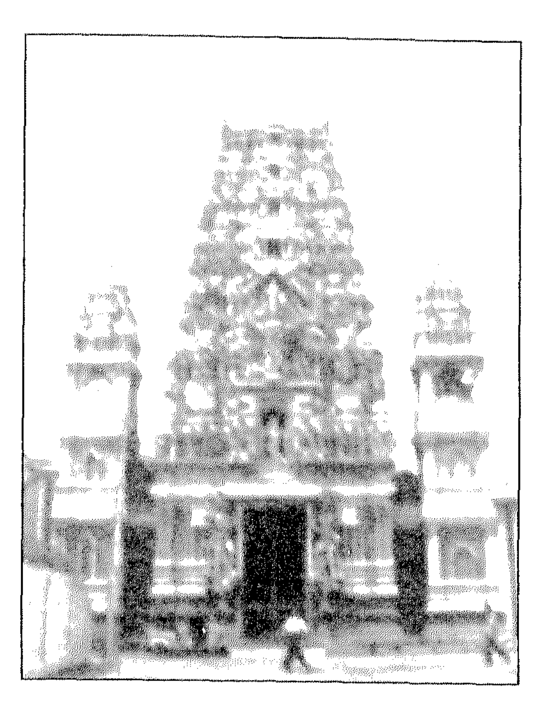
ومع استقلال سيلان (١٩٤٨) أصبح المسلمون يلعبون دورًا مميزًا في الحياة العامة ولهم دور في المجالات الاقتصادية والادارية. وقد خطوا خطوات واسعة في التعليم، ودخلت اعداد كبيرة منهم الجامعات، وهم الآن يشغلون جانبًا من الوظائف الادارية في الدولة. كما يعملون في التجارة، وخاصة تجارة الأقمشة والاحجار الكريمة، كما ان لهم محاكمهم القضائية الخاصة بهم. وتخصص اذاعة سيلان ساعة كل يوم لبث البرامج الاسلامية، ويعد عيد الفطر والاضحى عطلة رسمية في البلاد.

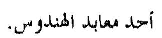
ومن المشكلات التي يواجهها المسلمون هناك هجرتهم اللغة التاميلية وإقبالهم على تعليم اللغة السنهالية التي اصبحت لغة الحياة اليومية، والمشكلة انه لا توجد مؤلفات اسلامية باللغة السنهالية. أما كبرى مشكلات المسلمين فتنحصر في مشكلة التاميل وحروبهم في ا لمناطق الشمالية والشرقية من سري لانكا. فالمسلمون في هذه المناطق يواجهون حربًا يشنها «نمور التاميل» الذين يحاولون طردهم.

الجامعة النظيمية الاسلامية: من الانجازات الاسلامية التعليمية في سري لانكا إنشاء الجامعة النظيمية التي جاءت بمبادرة شخصية من احد الوجهاء المسلمين السيلانيين وهو الحاج محمد نظيم إسماعيل. تحتل الدراسات الاسلامية، في هذه الجامعة، جانبًا مهمًا رئيسيًا إلى جانب تدريس بعض العلوم العصرية الحديثة وتلقينها للشباب المسلمين «الذين تخلفوا عن البوذيين والهندوس في مجال العلم». وقد تأسست الجامعة في ١٩ آب ١٩٧٣، وانفق الحاج نظيم ما يقرب من ٦٠ مليون روبية سيلانية. وقد دعا كبار العلماء وخبراء التعليم من مسلمي الجزيرة وكوّنوا لجنة لدراسة متطلبات الجامعة، ووضعت الخطط والمناهج الدراسية. وبمؤازرة من بعض الجامعات الاسلامية مثل جامعة الأزهر، وجامعة الامام بن سعود الاسلامية، وجامعة أم القرى، وجامعة عمر آباد في جنوبي الهند، وندوة العلماء في لكنهو في الهند، وبعض المعاهد ا لاسلامية الباكستانية تمّ وضع منهج متكامل للجامعة ولا سيما في العلوم الدينية. ولقد «تخرج من الجامعة حتى الآن (اواخر ١٩٩٥) نحو ٣٥٠ طالبًا يتقنون العلوم الدينية الشرعية وكذلك العلوم الحديثة». وتقوم في سري مجموعة من المدارس الاسلامية بتدريس اللغة العربية والعلوم الاسلامية، لكنها تسير وفق منهج قديم، وهذا ما تحاول الجامعة النظيمية تعويضه («العربي»، العدد ٤٤٤، تشرين الثاني ١٩٩٥ ص ١٣٩-١٤١).

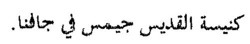


مسجد اسلامي في سري لانكا.





أحد معابد الهندوس.



كنيسة القديس جيمس في جافنا.



مدن ومعالم

* **بيرادلي:** مدينة سري لانكية. متميزة بسياحتها، وبأن غالبية سكانها من المسلمين، وفيها الجامعة النظيمية الاسلامية (راجع باب «المسلمون في سري لانكا»).

* **جافنا Jaffna:** مدينة سري لانكية. تعد نحو مليون و ١٠٠ ألف نسمة. تقع في شبه جزيرة تحمل الاسم نفسه، قرب الشواطىء الهندية، وتشرف على مضيق بالك Palk. البرتغاليون، وبعدهم الهولنديون جعلوا منها عاصمة لممتلكاتهم في الجزيرة في القرن السابع عشر. غالبية سكانها من التاميل الذين يعودون بأصولهم إلى الهند، وهي في قلب النزاعات الدائرة بين التاميل والسنهال (راجع النبذة التاريخية).

* **دهيوالا–مونت لافينيا Dehiwala-Mount-Lavinia:** مدينة سري لانكية، تعد نحو ٢١٥ ألف نسمة.

* **رتنابورا:** في مقدمة المدن السري لانكية وجودًا للاحجار الكريمة واستفادة من استخراجها وصناعتها والاتجار بها، وتعرف باسم «مدينة الجوهرات» (راجع «بطاقة تعريف»).

* **سيغاريا:** مدينة سري لانكية، قريبة من العاصمة كولومبو. شهيرة بحديقتها الكبيرة المخصصة للفيلة المفقودة والصغيرة لرعايتها وتربيتها، ويهتم بها المربّون والسيّاس، ثم تقوم الحكومة باهداء هذه الفيلة إلى حدائق حيوانات الدول الصديقة أو تباع بعضها كحيوانات مدربة لألعاب السيرك. وفي سيغاريا قلعة صخرية أثرية تعود إلى القرن الخامس الميلادي.

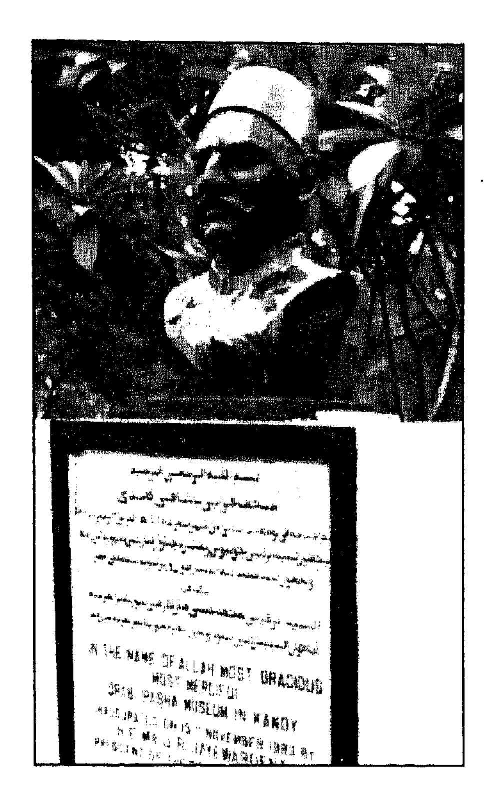
وبين سيغاريا ومدينة كاندي «الحديقة الملكية للتوابل» وتبلغ مساحتها نحو ٨٥ هكتارًا، وهي حديقة سياحية فريدة، تحوي العديد من اصناف اشجار التوابل المختلفة مثل اشجار الفلفل بانواعه، وكذلك القرنفل والهيل (الحبهان) واشجار جوزة الطيب والقرفة واشجار خشب الصندل والزنجبيل وانواع لا حصر لها من التوابل.

* **غال Galle:** مدينة سري لانكية. قاعدة المقاطعة التي تحمل الاسم نفسه. مركز تجاري. تعد نحو ٨٥ ألف نسمة. انشأ البرتغاليون هذه المدينة في ١٥٠٧، واحتلها الهولنديون في ١٦٤٣، واقاموا عليها قلعة، وجعلوا منها عاصمة ممتلكاتهم في الجزيرة. تراجعت أهمية مينائها بصورة سريعة وكبيرة إثر إنشاء مدينة كولومبو.

* **كاندي Kandy:** مدينة سري لانكية. تبعد ١١٥ كلم عن العاصمة لجهة جنوب غربي الجزيرة، وتقع على ارتفاع ٥٥٨م، وتعد نحو ١٣٠ ألف نسمة. مركز ديني بوذي حيث معبد ماليغاوا أو «معبد الضرس»، أي «ضرس بوذا» (Temple de la Dent)، وحيث الأعياد الحافلة الواقعة في آب وتموز. تحيط بالمدينة حقول زراعات الشاي. جامعة. عاصمة المملكة السنهالية حتى القرن التاسع عشر، في حين ان السواحل كانت مستعمرة قبل ذلك بمدة طويلة.

ومعبدها «معبد الضرس» يرجع تاريخه إلى ١٥٩٣ عندما بني في عهد الملك «فيلا مادرما سوريا». وامامه بحيرة صناعية حفرت في عهد الملك «سرويكلامارا جاسنها» في ١٧٨٢.

وفي كاندي حديقة عامة مخصصة للزهور بجميع انواعها، تقدر مساحتها بنحو ١٤٧٠ هكتارًا وتحتوي على نحو ١٠ آلاف نوع من الاشجار والزهور. وقد تأسست هذه الحديقة، التي كانت جزءًا من غابة تحيط بمدينة كاندي، في



تمثال الزعيم المصري احمد عرابي على مدخل متحفه في كاندي.

١٩١٢ إبان الاستعمار البريطاني، وهي أكبر الحدائق العامة في سري لانكا قاطبة.

وفي كاندي أقيم متحف للزعيم المصري أحمد عرابي الذي نفاه البريطانيون هو ومجموعة من رفاقه بعد فشل ثورته إلى جزيرة سيلان. فاقام في كاندي بين ١٨٨٣ و١٩٠١. وهذا المتحف هو عبارة عن منزل من طابقين يضم تمثالاً كبيرًا لعرابي مع صور فوتوغرافية وزيتية لمختلف اطوار حياته ولرفاقه الذين كانوا معه في المنفى، وهم مجموعة من الضباط منهم علي باشا فهمي، والشاعر محمود سامي البارودي. ويضم المتحف صورًا لبعض القرارات التاريخية التي اصدرها مجلس الامة المصري بوجوب اعادة الزعيم عرابي إلى وزارة الجهادية والبحرية بعد تنحيته عنها. افتتح هذا المتحف في ١٣ تشرين الثاني ١٩٨٣.

* **كولومبو Colombo**: عاصمة سري لانكا. تعد نحو ٧٥٠ ألف نسمة. محطة رئيسية على الطريق البحري لجنوب آسيا. أسسها البرتغاليون في ١٥٠٧، ووقعت تحت سيطرة الهولنديين في ١٦٥٦، ثم البريطانيين في ١٧٩٦. الحركة الأساسية التي يشهدها ميناؤها تتعلق بتصدير الشاي والغرافيت والاحجار الكريمة. وفيها بعض الصناعات الميكانيكية.

عرفت كولومبو ولادة منظمة دولية باسم «**خطة كولومبو**» تأسست في ١٩٥٠ بمبادرة من ٧ دول اعضاء في الكومنولث تحت إسم «خطة كولومبو للتعاون الاقتصادي من احل التنمية في جنوب وجنوب شرقي آسيا». ثم انضم إليها في ما بعد العديد من الدول في آسيا والمحيط الهادىء بما فيها الولايات المتحدة واليابان.

تتألف هذه الخطة من هيئة عليا مؤلفة من وزراء خارجية الدول الاعضاء وتجتمع مرة كل سنتين في بلد عضو، ولها مجلس يجتمع مرتين أو ثلاث مرات في السنة، وكذلك مكتب دائم مقره في كولومبو، وهو الاداة التنفيذية للخطة.

في الثمانينات، اعتمد إسم جديد هو: «خطة كولومبو للتعاون الاقتصادي والتنمية الاجتماعية في آسيا والمحيط الهادىء».

* **نورالي**: مدينة سري لانكية. تبعد ١٦٠كلم عن العاصمة. تقع على تلة هي أجمل تلال آسيا. ومن نورالي يمكن الوصول إلى أعلى قمة جبل في سري لانكا وهو جبل بيوبلاجرا (نحو ٢٧٠٠م). ومن هذا الجبل تتكون الانهار الستة وروافدها التي تجري في الجزيرة وأشهرها نهر «مهاولي». وتشتهر نورالي بفنادقها الجميلة وبيوتها وادارتها المبنية وفق الهندسة الانكليزية المعمارية حتى ان كثيرين يطلقون على نورالي «انكلترا الصغيرة».

*** هيكاردوا:** مدينة سري لانكيـة، شهيرة بقلعتها الهولندية التي ترجع إلى القرن السابع عشر.

*** يالا:** مدينة سـري لانكيـة، على مسـافة قريبة من نورالي. شهيرة بحديقة حيواناتها المفتوحة.

زعماء، رجال دولة وسياسة

*** باندرانيكـــا، ســـولومون (ســـليمان) Bandranaika,S.** (١٨٩٩-١٩٥٩): رئيس وزراء سيلان (سري لانكا) في ١٩٥٦. درس في كلية سان توماس (كولومبو)، وكريستشـرس (أوكسـفورد). مارس المحاماة ثم تركها. تخلى عن المسيحية واعتنق البوذية. أنشأ الحزب القومي الذي انضم في ما بعد إلى أحزاب وتنظيمات أخرى وأصبح إسمه «الحـزب الوطني الموحد». أصبح عضـوًا في مجلس الدولـة (١٩٣١)، ووزير الادارة المحليـة (١٩٣٦)، ووزيـر الصحـة في الحكومـة المحليـة (١٩٤٧). اسـتقال في ١٩٥١ ليؤلف حزب الحرية، وصار زعيمًا للمعارضـة بعد انتخابات ١٩٥٦، ثـم رئيسًـا لجبهـة الشـعب الموحدة التي عملت على أسـس وطنيـة واتبعـت الاشـتراكية المعتدلة في السياسة الداخلية والحياد في السياسة الخارجية. وقعّ اتفاقيـة تنـازلت فيهـا بريطانيـا تدريجيًـا عـن قواعدهـا في سـيلان. اتهمـه (١٩٥٨) القوميـون المتطرفـون بالفشـل في الدفـاع عـن المصـالح الوطنية. رأس في ايار ١٩٥٩ الـوزارة التي ألفهـا مـن اعضاء حزب الحرية. اغتيل في ايلول من العـام نفسه، تـابعت زوجتـه سياسـته وأصبحـت زعيمـة سـيلان (سري لانكا) القومية ومن أبرز زعماء العالم الثالث.

*** باندرانيكـا، سـيريمافو Bandranaika,S.** (١٩١٦-): رئيسة وزراء سـري لانكـا. خلفـت زوجها سولومون باندرانيكا بعد اغتياله في ١٩٥٩، وقادت حـزب «الحرية» الـذي أصبح يعرف باسـم «تحالف الشعب». وإضافة إلى منصبها كرئيسة وزراء سيلان، كانت وزيرة للخارجية والدفاع. وبالرغم من انها لم تكـن عضـوًا في البرلمان، إلا انهـا كـانت أول امرأة في العالم تصبح رئيسـة للـوزراء في دولـة ذات نظام برلماني حديث.

تنحدر من أسرة عريقة غنية من ملاك الاراضي. تزوجـت مـن سـولومون باندرانيكـا (١٩٤٠)، وأنجبـت ثلاثة أبناء. ومع أنهـا نشـأت مسيحية، إلا أنهـا اعتنقـت البوذية هي وزوجها في ما بعد.

لم تسع إلى تطبيق سياسة زوجها في قوميـة اللغة فحسب، بل عملت ايضًا على تنفيـذ برنـامج اقتصادي اشتراكي، إلا انه بـاء بالفشـل، مـا أوقـع البـلاد في ازمـات خانقـة. وواجهـت البـلاد، في ١٩٧١، عندما كانت سيريمافو باندرانيكـا رئيسـة للـوزراء للمـرة الثانيـة، تمـردًا كبـيرًا مـن جـانب الجماعات اليسارية بسبب نسبة البطالة الكبيرة بين الشباب. لكن الديمقراطية التي تمسكت بهـا رئيسـة الوزراء استمرت في البلاد رغم ذلك.

بقيت رئيسة للـوزراء (ووزيـرة التخطيـط، والاقتصاد، والخارجية) حتى منتصف ١٩٧٧ حين خسر حزبها الانتخابات العامـة، وفـاز جايـاوردن برئاسة الجمهورية.

في اواخـر ١٩٩٤، وبعـد فـوز إبنتهـا شاندرانيكا كاماراتونغا برئاسة الجمهوريـة، عيّنـت

هذه الاخيرة والدتها سيريمافو باندرانيكا رئيسة للوزراء، وكلفتها على الفور اتخاذ الإجراءات اللازمة لبدء انسحاب القوات الحكومية من مناطق التاميل في الشمال، وفتح المعابر امام البضائع والاشخاص، وتشكيل لجنة اتصالات مع الثوار لتنظيم بدء المفاوضات بين الحكومة والثوار التاميل. غير ان السيدة باندرانيكا، وهي سياسية مخضرمة رأت ضرورة تريث ابنتها الرئيسة، وضرورة أخذ وجهة نظر الجيش في الاعتبار والابقاء على اماكن مراقبة طرق الامدادات الحربية بشكل لا يزعج عبور المدنيين. وجاء تطور العلاقة بين الحكومة والثوار ليثبت أهمية رأي الجيش وموقفه من النزاع الانفصالي الدائر في شمالي البلاد (راجع النبذة التاريخية). لا تزال رئيسة حزب «الحرية»، وابنتها شاندرانيكا كاماراتونغا، رئيسة الجمهورية الحالية، زعيمته الفعلية.

*** بريماداسا، راناسنج Premadasa, Ranasinge** (١٩٢٤-١٩٩٣): رئيس جمهورية سري لانكا. اغتيل في ا يار ١٩٩٣، وخلفه لفترة انتقالية رئيس الوزراء آنذاك دينجيري باندا ويجيتونغا (راجع النبذة التاريخية).

*** جاياوردن، جونيوس ريتشارد Jaya Warden,J.R.**: رئيس جمهورية سري لانكا المنتخب بعد فوز حزبه «الحزب الوطني الموحد»، وعلى أثر التعديلات الدستورية (١٩٧٧). وأعيد انتخابه رئيسًا في ١٩٨٢ (راجع النبذة التاريخية).

*** ديسانايكي، غاميني** (١٩٤٢-١٩٩٤): ابرز زعماء المعارضة في سري لانكا، وأبرز مرشحيها لرئاسة الجمهورية. مات بحادث تفجير قنبلة في العاصمة كولومبو، وكانت زوجته سريما ديسانايكي منافسة الرئيسة الحالية شاندرانيكا كاماراتونغا في معركة رئاسة الجمهورية في تشرين الثاني ١٩٩٤ (راجع النبذة التاريخية).

كان غاميني ديسانايكي أبرز مهندسي الاتفاق السري لانكي-الهندي (مع راجيف غاندي رئيس وزراء الهند) في ١٩٨٧. وقد أدّى هذا الاتفاق إلى تدخل عسكري هندي في شمالي سري لانكا كلف جبهة نمور التاميل خسائر كبيرة. وغاندي اغتيل بقنبلة في ١٩٩١ في اجتماع انتخابي في ولاية تاميل نادو في جنوبي الهند. وفي حالة اغتيال ديسانايكي، كما في حالة اغتيال راجيف غاندي، تمت العملية الانتحارية على يد امرأة، ووجهت اصابع الاتهام إلى نمور التاميل. وعرقلت حادثة الاغتيال هذه مسار المفاوضات التي كانت الحكومة السري لانكية قد استأنفتها مع ثوار التاميل، والتي كان ديسانايكي من منتقديها بعدما خسر حزبه، «الحزب الوطني»، الانتخابات في آب ١٩٩٤ بعد ١٧ عامًا في ا لحكم.

*** سينانايكا، دون ستيفن Senanayake, D.S.** (١٨٨٤-١٩٥٢): سياسي سيلاني (سري لانكي). دخل الحياة السياسية في ١٩٢٢، وأصبح زعيمًا بارزًا قبل نيل سيلان الاستقلال في ١٩٤٨ من بريطانيا، وهو من السياسيين المتعاونين معها. فاحتل منصبًا مهمًا كوزير للزراعة والاراضي (١٩٣١-١٩٤٧)، وأصبح أول رئيس للوزراء بعد الاستقلال (١٩٤٨-١٩٥٢)، وقد خلفه ابنه دادلي سينانايكا في رئاسة الوزراء.

*** سينانايكا، دادلي Senanayake,D.** (١٩١١-١٩٧٣): سياسي سري لانكي. تتلمذ في السياسة على يد والده دون ستيفن سينانايكا، وخلفه في تولي وزارة الزراعة والاراضي (١٩٤٧-١٩٥٢)، ثم في رئاسة الوزراء التي شغلها ثلاث مرات: ١٩٥٢-١٩٥٣، و١٩٦٠، ثم من ١٩٦٥ إلى ١٩٧٠. ترأس الحزب الوطني الموحد المعارض لنظام حكم باندرانيكا. عرف بميله نحو الغرب.

*** كاماراتونغا، شاندرانيكا (١٩٤٥-):**
الرئيسة الحالية لجمهورية سري لانكا (منذ تشرين الثاني ١٩٩٤)، وكانت رئيسة للوزراء قبل فوزها بالرئاسة، كما شغلت حقيبة مستحدثة في الحكومة هي حقيبة وزيرة الشؤون العرقية والتكامل الوطني، كما تولت وزارتي المال والتخطيط.

رغم اغتيال والدها (١٩٥٩) سولومون باندرانيكا عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، دخلت المعترك السياسي منذ مستهل الولاية الثانية لوالدتها رئيسة الوزراء (سيريمافو باندرانيكا). فساعدت زوجها فيغايا كاماراتونغا الذي قاد إنشقاقًا على حزب «الحرية».

اغتيل زوجها في ١٩٨٨ على أيدي يساريين، فسافرت إلى الخارج مع طفليها. لكنها عادت في ١٩٩٠ وانضمت إلى حزب «الحرية» الذي يشكل الفصيل الرئيسي في «تحالف الشعب».

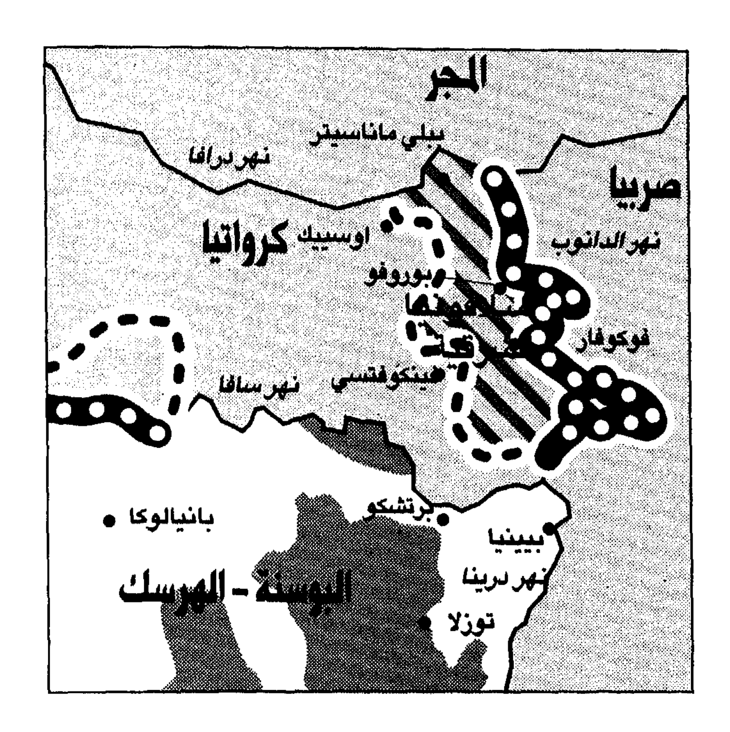
حصلت على درجة جامعية في العلوم السياسية من جامعة باريس، وسلطت عليها الاضواء منذ اوائل ١٩٩٤، فقادت «تحالف الشعب» إلى الفوز في انتخابات المجالس المحلية (الاقليمية)، بعد ان كانت رئيسة للمجلس الاقليمي الغربي الذي يضم العاصمة كولومبو لمدة تزيد عن ١٢ شهرًا.

وردًا على خشية رجال الاعمال السري لانكيين من ان يعود حزب «الحرية» و«تحالف الشعب» إلى السياسات الاشتراكية التي كانت مطبقة في ايام والدها، وبعده والدتها، قدمت كاماراتونغا تأكيدات بأنها (وحزبها) ستواصل سياسات السوق الحرة الحالية: «نحن نؤيد التطور الاقتصادي واقتصاد السوق ا لحرة، لكن ليس بطريقة تنطوي على مخاطر». وتعهدت بخفض تكاليف المعيشة وإنهاء انتهاكات حقوق الانسان الواسعة النطاق ووضع نهاية للاسراف والفساد.

في تشرين الثاني ١٩٩٤، فازت بالانتخابات الرئاسية متقدمة بنحو مليوني صوت على منافستها، سريما ديسانايكي، وهي أول امرأة تتولى رئاسة الجمهورية في سري لانكا (راجع النبذة التاريخية).



سيريمافو باندرانيكا.



سلافونيا الشرقية

نبذة عامة

الاســـم: Slavonija في اللغـــة الصربيـــة والكرواتيـــة. إســـكلافونيا Esclavonie، إسمهـــا القديم.

الموقع: منطقة في شرقي كرواتيا واقعة بـين الـدراف والسـاف بمحـاذاة الحـدود مـع جمهوريـة صربيـا، والمسافة بين سلافونيا الشرقية وبلغـراد (عاصمة صربيا) لا تزيد عن ١٥٠كلم في حين ان العاصمـة الكرواتيـة زغـرب تبعـد عـن سـلافونيا الشرقية ضعف هذه المسافة.

المساحة والخلاف على سلافونيا الشرقية: غير محـددة تمامًا بعـد بسـبب الخـلاف عليهـا بـين الصـرب والكـروات، ومـا تـزال (١٩٩١-اواخـر ١٩٩٦) خـارج سـلطة الدولـة الكرواتيـة بسـبب استمرار سيطرة الصرب عليها.

تبلغ مساحة الارض الكرواتية الواقعة تحت سـيطرة الصـرب نحـو ٢٦٠٠كلـم م.، أي نحـو ٤،٦٪ مـن مسـاحة كرواتيـا، ويسـميها الصـرب «سلافونيا الشرقية وبارانيا وسريم الغربية».

ومن وجهة النظر الدولية (الامم المتحـدة)، هناك وثيقة باسم «خطة فانس» التي وضعها وزيـر الخارجية الاميركية السابق سايروس فانس باعتبـاره مبعوثًـا للامـين العـام للامـم المتحـدة في منـاطق يوغوسـلافيا السـابقة، تعتـبر (اي هـذه الوثيقـة-الخطـة) ان هـذه المنطقـة تتكـون مـن مدينـة بيلـي مناستير والاقسام الشرقية مـن بلديـة فينكوفتسـي. وكان عدد الصـرب في هـذه المنطقـة قبـل الحـرب البوسنية نحو ٨٠ ألف نسمة يقـابلهم العـدد نفسـه تقريبًا من الكروات، ويعيش معهم نحو ٣٠ ألفًا من أقليات أخرى غـالبيتهم مـن المجريـين (الهنغـاريين). وتشـكل سـلافونيا (الشـرقية والغربيـة إضافـة إلى كرايينا) مجموع الاراضي التي شملتها خطـة فـانس، أي نحـو ٣٠٪ مـن ا لاراضـي الكرواتيـة. وكـان الصرب يريدون، وفق مواقفهم المعلنة، فصلها كلها عـن كرواتيـا وإطـلاق إسـم «جمهوريـة كرايينـا الصربية». لكن الكروات تمكنـوا في ايـار ١٩٩٥ مـن اسـترداد سـلافونيا الغربيـة، ومـن ثـم في آب ١٩٩٥، كرايينا. وتردّد في حينه ان ذلك تمّ باتفاق

بين الرئيسين، الكرواتي فرانيو توجمـان، والصربـي سـلوبودان ميلوشـيفيتش، علـى ان تبقـى سـلافونيا الشرقية على وضعها تحت سـيطرة الصـرب إلى ان يتم وضع حـل نهـائي لهـا وفـق مسـاومات تدخـل ضمنها اراضي البوسنة-الهرسك.

الأهمية الاقتصاديـة لسـلافونيا الشـرقية: هي من أكثر المناطق الكرواتية التي سيطر الصـرب عليها بعـد تفكـك يوغوسـلافيا أهميـة مـن وجهـة النظر الصربية لأن الفـاصل الطبيعي الوحيـد بينهـا وبين صربيا هـو نهـر الدانـوب عنـد بدايـة دخولـه اراضي يوغوسـلافيا السـابقة الـذي يشـكل معظـم الحدود الشرقية لكرواتيـا مـع صربيـا، وان سـيطرة الصـرب علـى سـلافونيا الشـرقية الـتي تمتـد علـى الجانب الغربي من الدانوب، سيجعل الـ٥٨٨كلم من هذا النهر الملاحي الدولي المهم التي هـي حصـة يوغوسلافيا السابقة، داخل اراضي الصرب.

وإلى الدانـوب فإنهـا (سـلافونيا الشـرقية) تطل على نهر درافا الذي يجري إلى الغـرب منهـا. لذا فإنها تشكل سهلاً فسيحًا على هيئة مثلث يمثل نهر الدانوب ودرافا إثنين من اضلاعه، بينما الضلع الثالث هو الحدود مع المجر، ما جعـل هـذه المنطقـة من أخصب اراضي يوغوسلافيا السـابقة، كمـا ان النفط متوافر فيها بكميات جيدة.

في مدينـة فوكوفـار مصنـع كبـير للـوازم المنزلية الكهربائية، وفي مدينة بوروفو مصنع للمـواد الجلدية يعمل فيه أكثر من ألفي عـامل، وفي مدينـة بيلي ماناستير مجمّع للمنتجات الغذائية. أما خـارج المـدن فتمتـد مـع البصـر حقـول الحنطـة والـذرة والبنجر السكري ودوار الشمس وبسـاتين اشجار التفاح التي تشـبه الغابـات. وبـالقرب مـن الحـدود المجرية منطقة سياحية خاصة لصيد الطيور والاسماك والحيوانـات البريـة. وكــان اليوغوسـلاف (قبـل تفكك يوغوسلافيا) يطلقون على سلافونيا الشرقية «ارض الخير والعمل والفرح»، فهي أخصب بقعـة في جمهورية كرواتيا وأكثرها غنى بالموارد الطبيعية.

أهم احداثها بعد انهيار يوغوسـلافيا: مـع انهيار يوغوسلافيا، شهدت سلافونيا الشرقية قتـالاً داميًا استمر نحو شـهرين، تخللتـه أعمـال قتـل بحـق المدنيين خصوصًا في مدينة فوكوفار حيـث فتكـت الميليشيات المتطرفة الكرواتية بكل شـخص صربـي وقـع في قبضتهـا، ثـم عـادت الميليشـيات الصربيـة (بمؤازرة الجيش الصربي «اليوغوسلافي») وانتقمت من مئات الكروات الذيـن لم يتمكنـوا مـن الفـرار بعد احكـام سيطرة الصـرب علـى المنطقـة. ومنـذ ١٩٩١، بات العيش في سلافونيا الشـرقية مقتصـرًا على سكانها الصرب النازحين إليها مـن سـلافونيا الغربيـة وكرايينـا بعـد فـرض سـيطرة الكـروات عليهما.

في صيـــف ١٩٩٥، أصبحـــت مســـألة سلافونيا الشرقية الموضـوع الرئيسـي في خطابـات الرئيس الكرواتي توجمـان الـذي تكـرر «سنسـترد سلافونيا الشـرقية بـالقوة العسـكرية إذا لم يتحقـق ذلـك سـلمًا وسنشـرب القهـوة قبـل نهايـة العـام الجـاري (١٩٩٥) في فوكوفـار». ولم تخـل هـذه التهديدات من تحركات عسكرية وقصـف مدفعـي متقطع، «لكن المراقبـين عقبـوا دائمًـا عليهـا بأنهـا ضجـة مفتعلـة مـن اجـل الانتخابـات البرلمانيـة والتحركـات السياسـية». ويبـدو ان النـاخبين الكروات ادركـوا الحقيقـة، فخيبـوا آمـال الرئيـس توجمان ولم يسـمحوا لـه بتحقيـق حلمـه في هيمنـة حزبه «الاتحاد الديمقراطـي الكرواتـي» على ثلثـي اعضاء البرلمـان كـي يتمكـن مـن تعديـل الدسـتور «لتوسـيع سـلطاته الشـخصية وترسـيخ نظامـه الاستبدادي».

مستقبل غـامض: الواضـح مـن المؤشـرات والمسار العام لمسألة سلافونيا الشـرقية انهـا سـتبقى سـنوات عـدة علـى شـكلها الحـالي، علـى رغـم

الاتفاقات التي تجري حولها بمبادرات اميركية، وسيستمر الرئيس توجمان على مواقفه مع وقف التنفيذ والاستجابة لنداءات المجتمع الدولي باعادتها عن طريق المفاوضات. لكن هذه العودة، إن حدثت، ستبقى منوطة باتفاق سري مع الرئيس الصربي ميلوشيفيتش، كما حدث في سلافونيا الغربية وكراينا، ومرتبطة بتطورات قضية البوسنة، وهو أمر غير واضح في المستقبل المنظور.

وتردّد في بلغراد (اواخر ١٩٩٥-اوائل ١٩٩٦) ان ميلوشيفيتش لن يتخلى، ما أمكنه ذلك، عن سلافونيا الشرقية، لوجود اتفاقات سرية بينه وبين توجمان في شأنها تحتم بقاءها بيد الصرب بانتظار الحسم النهائي لجميع الامور المتعلقة بالنزاعات في منطقة البلقان، وهو ما يفسّره الصرب بمثابة بقاء سلافونيا الشرقية الدائم بيدهم مقابل وفائهم باتفاق التخلي عن سلافونيا الغربية وكراينا.

وإزاء أي إحلال كرواتي على الارض باتفاق بقاء سلافونيا الشرقية على وضعها الحالي، فان الرئيس ميلوشيفيتش سارع إلى ربط الحل النهائي للمنطقة بعودة نحو ٢٥٠ ألف من النازحين الصرب إلى ديارهم في سلافونيا الغربية وكراينا وتعويض الذين لا يرغبون بالعودة. وهو ما لا يمكن ان تقبله زعامة كرواتيا بعد ان تمكنت من جعل جمهورية كرواتيا مع المناطق التي تسيطر عليها في البوسنة من أنظف الاراضي في يوغوسلافيا السابقة عرقيًا.

ومع كل الاحتمالات المتداولة، فإن صيغة الحل التي ستنهي مشكلة سلافونيا الشرقية ما تزال غامضة، خصوصًا وان الوضع المستقبلي ليوغوسلافيا السابقة وعموم مناطق البلقان يجري تنظيمه وفق مخططات دولية تتم على مراحل، إذ إن المساعي الراهنة منصبة اساسًا على البوسنة-الهرسك وتقسيماتها بين الكروات والصرب. أما مسألة النزاعات الأخرى، ومنها سلافونيا الشرقية، فما تزال طي الكتمان (مرجعا هذه المادة «سلافونيا الشرقية»: فرعي، «بتي لو روبير»، ط١٩٩٤، ص١٩٤٠؛ وأساسي جميل روفائيل، «الحياة»، ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٥؛ والجدير ذكره ان روفائيل برز في مقدمة الصحافيين والكتاب العرب نتاجًا وفهمًا موضوعيًا ومعايشة لمختلف جوانب احداث وأزمات بلدان ومناطق يوغوسلافيا السابقة) .



سلفادور

بطاقة تعريف

الاسم: سلفادور (أو إلسلفادور El-Salvador)، وتعني «المخلّص» (السيد المسيح).

الموقع: في اميركا الوسطى. ووحدها السلفادور، بين دول اميركا الوسطى، لا تطل إلا على المحيط الهادىء (منذ الانفصال الذي وقع بينها وبين غواتيمالا في ١٨٣٩). وهي أصغر دول هذه القارة، ولكنها أكثرها كثافة سكانية (نحو ٥٩٠ شخصًا في الكلم م. الواحد). تحدها هندوراس، وطول حدودها معها ٣٤١كلم، وغواتيمالا (١٧٤كلم). وطول شاطئها نحو ٣٢١كلم. ويتراوح طول البلاد بين ١٧٥-٢٢٥كلم، وعرضها ٧٥-١١٠كلم. نحو ١٢٪ من ارضها سهول واطئة، والباقي جبال ذات تركيب جيولوجي بركاني.

المساحة: ٢١ ألفًا و٤٠كلم م.

العاصمة: سان سلفادور. وأهم المدن: سانتا آنا، سان ميغيل، زاكاتيكولوكا (راجع «مدن ومعالم»).

اللغات: الاسبانية (رسمية). وهناك لغتان اصليتان يتكلمهما أقل من ٣٪ من السكان: ناهيواتل Nahuatl، وبوتوم Potom.

السكان: كانوا يعدون ١،٨٦ مليون نسمة في ١٩٥٠؛ وأصبحوا ٢،٥١ مليون في ١٩٦١؛ و٥،٢٥ مليون في ١٩٩٠؛ وتشير تقديرات السنة الحالية (١٩٩٧) إلى انهم يبلغون نحو ٧،٢ مليون نسمة؛ وانهم سيبلغون نحو ٨،٧ مليون في العام ٢٠٠٠. منهم نحو ٩٠٪ خلاسيون، و٥٪ هنود، و٥٪ بيض. وهناك ٩٦٪ كاثوليك. تبلغ نسبة زيادة السكان ٣،٥٪ سنويًا، وتمتاز البلاد بأعلى كثافة سكانية في اميركا الوسطى. وتجدر

الاشارة إلى ان نسبة العلاقات الزوجية غير الشرعية تبلغ نحو ٣٠٪، كما ان نحو ٧٠٪ من الولادات غير شرعية.

الحكم: جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ٢٠ كانون الاول ١٩٨٣.

أهم الاحزاب: حزب العمل الديمقراطي، تأسس في ١٩٨١، ورئيسه ريكاردو غونزاليز كاماشو؛ التحالف الجمهوري القومي (أرينا anerA)، تأسس في ١٩٨١ على يد روبيرتو دوبويسّون (١٩٤٤-١٩٩٢)، وكان قائدًا لكتائب الموت، ورئيسه أرماندو كالديرون سول؛ حزب الائتلاف الوطني، تأسس في ١٩٦١، رئيسه سيرو زيبيدا؛ الحزب الديمقراطي المسيحي، تأسس في ١٩٦٠ على يد خوسيه نابوليون ديوارت (١٩٢٥-١٩٩٠)، رئيسه رودولفو كاستيلو كلارامونت (يضم نحو ١٥٠ ألف عضو)؛ حزب التوجه الشعبي، تأسس في ١٩٨١؛ الحزب الشعبي السلفادوري، تأسس في ١٩٦٦، رئيسه فرنسيسكو كوينونيز أفيلا؛ الحركة القومية الثورية؛ الحركة الشعبية الاجتماعية المسيحية، رئيسها روبن زامورا؛ الحزب الاجتماعي الديمقراطي، رئيسه رينيه رولدان منذ ١٩٨٧.

إن أهم حزبين هما «التحالف الجمهوري القومي» (أرينا Arena)، يميني متطرف، اصبح حزبًا حاكمًا نتيجة انتخابات ١٩٩٤؛ و«جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني» (FMLN) التي خاضت حرب عصابات انتهت بتوقيع اتفاق مع حزب «أرينا» في شباط ١٩٩٢ تحت رعاية الامم المتحدة. وكانت جبهة فارابوندو (منسّقها العام الحالي جورج شفيق هاندال) قد تشكلت من اتحاد خمسة احزاب، وذلك في ١٩٨٠. وهذه الاحزاب (الترتيب بحسب أهمية الدور): «قوات التحرير الشعبية»، منشقة عن الحزب الشيوعي السلفادوري، وأمينها العام ليونيل غونزاليز؛ «التعبير المتجدد للشعب»، أمينه العام جواكان فيلالوبوس (ضابط سابق في الجيش)؛ «الحزب الشيوعي»، أمينه العام جورج شفيق هاندال؛ «المقاومة الوطنية»، منشقة عن حزب «التعبير المتجدد للشعب»، أمينها العام ادواردو سانشو؛ «الحزب الثوري لعمال اميركا الوسطى»، امينه العام فرنسيسكو جوفيل.

خاضت هذه الجبهة حرب عصابات امتدت من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٢، وكانت قد ضمت نحو ٨ آلاف مقاتل، وقد تمّ تسريحهم في ١٩٩٢.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة: ٥٠٪ على الزراعة التي تساهم بـ١٦٪ من الدخل العام؛ ١٨٪ على الصناعة (٢٢٪ من الدخل العام)؛ ٣٢٪ على الخدمات (٦٢٪). وتبلغ نسبة البطالة نحو ٤٠٪.

تشكل الاراضي المزروعة نحو ٣٢٪ من مجموع مساحة البلاد. تزرع الذرة في مساحة تبلغ ٣٧٪ من الاراضي المزروعة، وبعدها تأتي زراعة البن التي تحتل ما نسبته ٢٢٪ (تأتي السلفادور في المرتبة العالمية العاشرة إنتاجًا للبن). وأهم ثلاث زراعات مخصصة لغذاء السكان: الذرة الصفراء والذرة البيضاء والفاصولياء، وتغطي جميعها ثلاثة أرباع الاراضي المزروعة. والزراعات المخصصة للتصدير هي من نوع المزروعات الصناعية، وأهمها البن وقصب السكر.

ليس في السلفادور ثروات منجمية مهمة؛ وهناك بعض المناجم الموزعة على الذهب، الفضة، الزئبق، الزنك والملح. أما صناعتها فما زالت في اطوارها الاولى. السلفادور ثاني منتج للجعة والدخان والقطن في اميركا الوسطى.

للمتوسط السنوي لصيد الاسماك يبلغ نحو ١٢ ألف طن. والمتوسط السنوي لعدد السياح نحو ١٣٠ ألف سائح.

نبذة تاريخية

الاسبان: في ١٥٢٤، انطلق الضابط بيترو دو ألفارادو على رأس قوة من الجيش الاسباني من المكسيك باتجاه الجنوب بحثا عن الذهب وعن بلدان جديدة لاكتشافها. وبعد ان ركّز الاسبان موقعهم في غواتيمالا، اجتازوا نهر ريو دو لاباز، ودخلوا منطقة تدعى كوسكتلن (بلاد الأشياء الثمينة)، واصيبوا بهزيمة عسكرية، في ١٥٢٥، في حروبهم ضد السكان الاصليين (الهنود) قبل ان يسيطروا على الوضع بشكل نهائي. وقد صادف انتصارهم ليلة عيد «القديس المخلص»، فعمدوا إلى بناء مدينة تحمل إسم «سان سلفادور» في منطقة كوسكتلن. وبعد ما يزيد على ثلاثة قرون، وبعد ان تحررت كل اميركا الوسطى من النير الاسباني، رأى سكان سان سلفادور، والمناطق المجاورة، بأن يطلقوا إسم «إل سلفادور» على الدولة الفتية.

الاستقلال: بقيت السلفادور تحت السيطرة الاسبانية من ١٥٢٥ إلى ١٨٢١. وباعتبار ان البلاد لم تكن غنية بالذهب فقد بقي عدد قليل من المستوطنين الاسبان فيها. وفي ١٨١١، وفي حين كانت اميركا الاسبانية تنهض مطالبة بالاستقلال، قاد الأب خوسيه مايتاس دلغادو ثورة غير موفقة. وكذلك، بعد ثلاث سنوات، مانويل خوسيه آرسي وخوان مانويل رودريغز اللذان لم يكتب لحركتهما الاستقلالية النجاح. وكانت السلفادور، في تلك الاثناء تشكل إحدى المقاطعات الخمس لمفوضية غواتيمالا العامة.

بعد إعلان استقلال المقاطعات الخمس في ١٥ ايلول ١٨٢١، اجتمع المجلس الاستشاري (أعضاؤه جميعًا من الكريول Créole، أي من البيض المولودين في المستعمرات الاوروبية في القارة الاميركية) وقرّر انضمام جميع المقاطعات إلى المكسيك بهدف ضمان المحافظة على امتيازاتهم وخوفًا من الانتفاضات الشعبية. وكان الامبراطور أغسطس إيتوربيد (١٧٨٣-١٨٢٤) يحكم المكسيك في تلك الفترة. وقد عارضت السلفادور وحدها قرار الانضمام؛ فاجتاحها الجيش المكسيكي.

وفي خضم النزاعات الداخلية، فكّر الحكام المحليون في السلفادور بضم بلادهم إلى الولايات المتحدة الاميركية. إلا ان النهاية السريعة التي لقيها الامبراطور إيتوربيد (اعتزاله في ١٨٢٣، ثم اعدامه رميًا بالرصاص) حلّت المشكلة، فقامت الجمهورية الفدرالية لوسط اميركا (دستور ٢٢ تشرين الثاني ١٨٢٤) التي انتخبت اول رئيس لها وهو الرئيس السلفادوري مانويل خوسيه آرس. واحتفظت دولة السلفادور، داخل هذه الفدرالية بمميزات خاصة، منها انها أكثر بلدان اميركا الوسطى كثافة سكانية (ولا تزال)، وان أكثر من نصف سكانها الذين يبلغ تعدادهم نحو ٢٥٠ ألفًا هم خلاسيون (اختلاط العنصر الاوروبي-الاسباني بالسكان المحليين، خاصة بهنود البيبيل الذين قدموا من المكسيك حوالي العام ألف).

صراع ما بعد الاستقلال (القرن التاسع عشر): يمثل تاريخ السلفادور في القرن التاسع عشر غموضًا وعنفًا طبعا اميركا الوسطى بأكملها. فالصراع بين «المحافظين» و«الليبراليين» ازداد تعقيدًا بوجود الصراع بين «الانفصاليين» و«الوحدويين»، أو بين الذين ناصروا الفدرالية وبين اعدائها. وقامت هناك سلسلة من الاحلاف والحروب بين بلدان الاتحاد الفدرالي (كانت تعم احيانا جميع بلدان اميركا الوسطى) كانت السلفادور في خضمها تسعى دائمًا لأن تحتفظ بشخصيتها المميزة في وجه غواتيمالا. واستطاع دكتاتور غواتيمالا المحافظ رافائيل كارّيرا ان يسحق نهائيًا نشاط الوحدويين في الهندوراس الذين كانوا بقيادة الزعيم الليبرالي فرنسيسكو مورازن، والذين اكتسبوا تأييد السلفادور لهم. وكانت السلفادور آخر دولة استرجعت سيادتها الكاملة في ١٨٤١.

وعلى رغم وصول الليبراليين إلى السلطة في غواتيمالا بقيادة جوستو روفينو باربوس، لم تعد روح الوحدة ولا افكارها ولا الحماس لها إلى دول المنطقة بسبب الطرق الوحشية التي استعملها باريوس في تعامله مع الدول المجاورة التي استعدته، ولقي مصرعه (١٨٨٥) اثناء حربه ضد السلفادور.

من جهة ثانية، فإن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رغم توتراته وحروبه السياسية والقومية، عرف وضعًا اقتصاديًا ومعيشيًا مزدهرًا في السلفادور، إذ دخلتها، في ١٨٦٠، زراعة البن التي أصبحت، منذ ١٩٠٠، المصدر الاساسي للعائدات المالية التي استثمرت بغالبيتها في شق الطرق والخطوط الحديدية وإنشاء المرافىء. إلا ان الازمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩-١٩٣٢) وضعت حدًا لهذا التطور.

تدخل الولايات المتحدة الاميركية: المعارك (بين «المحافظين» و«الليبراليين») التي شهدتها بلدان اميركا الوسطى سهلت تدخل الولايات المتحدة بشؤونها، خاصة وان الولايات المتحدة قد قررت، مع وصول روزفلت إلى الحكم في ١٩٠١، إنشاء خط يربط المحيطين بأميركا الوسطى. ثم نشبت خلافات بين السلفادور وغواتيمالا (١٩٠٦-١٩٠٧) سويت بتوسط الولايات المتحدة وعلى ظهر بارجة حربية اميركية. بالاضافة إلى ذلك، كان على السلفادور ان تقبل، دون استشارتها وبالرغم من معارضتها، معاهدة بريان-شامورو التي ابرمت بين الولايات المتحدة ونيكاراغوا (١٩١٤) والتي تنص على إقامة قاعدة بحرية اميركية في خليج فونيسكا.

الجنرال مارتينيز: لمواجهة حالات التململ المتفاقمة، حمل الجيش إلى رأس السلطة في السلفادور الجنرال ماكسيميليانو هرنانديز مارتينيز (الملقب «بريجو» أي الساحر) في ١٩٣١. فأنشأ هذا المصرف المركزي الوطني، وأكمل القسم الخاص ببلاده من الخط الدولي العابر للقارة الاميركية، فكانت السلفادور اول دولة في اميركا الوسطى تنجز هذا العمل.



اعضاء في «الجبهة الديمقراطية الثورية» في مأتم قادتهم الستة يوم ٣ كانون الاول ١٩٨٠ الذين اغتيلوا قبل ستة ايام. وبعد أيام قليلة اعلنت الجبهة الثورة في جميع انحاء البلاد.

لكن مارتينيز حكم بالحديد والنار، وأغرق البلاد في حمام من الدم (قتل، في ١٩٣٢، نحو ١٥ ألفًا من الفلاحين الهنود المتضورين جوعًا بعد ان اتهمهم بـ«الشيوعية»). وقد رفضت الطبقة الأوليغارشية التي كانت تساند مارتينيز إجراء أي اصلاح اجتماعي، ولم تبذل أي مجهود لايقاف حالة البلاد المتدهورة. وإذا كانت زراعة القطن قد عرفت بعض النمو، فذلك بسبب الحاجة التي فرضتها الحرب العالمية، وليس بسبب مبادرة من الحكومة القائمة أو الطبقة التي ساندتها. وقد أطاح اضراب عام (أفسح في المجال لانقلاب) حكم الجنرال مارتينيز في ١٩٤٤.

عسكريون إصلاحيون: منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، استمرت السلطة فترة موضوع تجاذب بين تيارات عسكرية متخاصمة: الحزب الثوري التوحيدي الديمقراطي الذي كان يتزعمه الكولونيل أوسكار أوسوريو، وخليفته الكولونيل خوسيه ماريا ليموس من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠، واللذان انتهجا سياسة التصنيع والعصرنة، ولجآ إلى تنفيذ برامج إنماء وإعمار واسعة، وضمّا السلفادور إلى «السوق المشتركة لاميركا الوسطى».

ثم جاءت الادارة المدنية–العسكرية (المختلطة)، ففسحت بالمجال امام الكولونيل خوليو أولبرتو ريفييرا (١٩٦٢) وحزبه «الوفاق الوطني»، والذي خلفه، في ١٩٧٦، وبشكل عادي ودستوري، الكولونيل فيدل سنشيز، وبذلت (بقيادة

هؤلاء الضباط) جهودًا للاستمرار في تحديث البلاد وتنويع اقتصادها (على خطى الكولونيل أوسوريو)، فدعمتها النقابات العمالية.

تدهور من جديد: .إلا ان هؤلاء الرؤساء، وعلى الرغم من نجاحاتهم في كثير من الميادين، عجزوا عن ا لصمود في وجه الطبقة الأوليغارشية الثرية المؤلفة من «العائلات الـ١٤ الشهيرة» التي تحكمت بمقدرات البلاد، فامتلكت غالبية اراضيها؛ كما عجزوا عن المضي في اصلاحاتهم الاساسية، خاصة في ما يتعلق بالاصلاح الزراعي والضرائبي. فتفاقم وضع السكان المعيشي حتى أصبح مستوى حياة الفلاح السلفادوري أدنى مستوى في اميركا الوسطى.

وفي حزيران ١٩٦٩، نشبت حرب بين السلفادور وهندوراس، كان من أهم اسبابها وضع الجالية السلفادورية التي تسكن المناطق الغربية من هندوراس. وبعد وساطة منظمة الدول الاميركية وضغوطاتها، سحبت السلفادور جيشها من المناطق التي كان قد احتلها داخل هندوراس.

في ١٩٧٠، وقع انقلاب في السلفادور قاده نابوليون ديوارت، وهو ديمقراطي مسيحي ليبرالي، إلا انه فشل. وبعد تزوير الانتخابات الرئاسية في ١٩٧٢ لمصلحة الكولونيل أرتيرو أرماندو مولينا برّازا، مرشح حزب الائتلاف الوطني الحاكم، وبعد محاولة انقلابية فاشلة قام بها مؤيدو خصمه نابوليون ديوارت زعيم حزب الاتحاد الوطني المعارض (آذار ١٩٧٢، أي بعد قليل من الانتخابات الرئاسية)، استلم مولينا سلطاته رسميًا في تموز ١٩٧٢. وحصلت عملية التزوير نفسها في انتخابات ١٩٧٧ الرئاسية. وكان المرشحان هذه المرة الجنرال كارلوس همبرتو روميرو عن الحزب الحاكم (الائتلاف الوطني)، والكولونيل أرنستو روزفيل عن الحزب المعارض (الاتحاد الوطني). وقد نفي روزفيل إلى كوستاريكا بعد استلام روميرو السلطة في تموز ١٩٧٧.

فرز بين يمين ويسار: منذ ١٩٧٢، وفي ظل تعدد الاحزاب وإطار الخلافات السياسية وواقع الازمة الاقتصادية الخانقة وتصاعد الحرب الباردة (على المستوى الدولي) ونمو الحركات الثورية وعقائدها (على مستوى أميركا الوسطى وأميركا الجنوبية على وجه الخصوص)، بدأ الفرز الشعبي في السلفادور، بين يمين ويسار يتبلور أكثر فأكثر؛ وتزايد نشاط رجال العصابات. وفي نيسان ١٩٧٧، اغتيل وزير الخارجية موريكو بورغونوفو. وبعد هذا الحادث، تضاعفت اعمال الارهاب والعنف والاختطاف بين اليمين واليسار، وجرى تصعيد القمع ضد المعارضة تحت شعار «الامن القومي» الذي كان الحكم في الارجنتين وفي التشيلي سباقًا إليه، والذي ركّز حملته على «الشيوعية العالمية». وطال القمع قادة العمال والطلاب والفلاحين الذين بدأوا يختفون بالعشرات، ثم تظهر جثثهم وآثار التنكيل بادية عليها. ولمع إسم

«كتائب الموت» التي كثيرًا ما كانت تعلن صراحة مسؤوليتها عن هذه الاعمال.

وظهرت منظمات ثورية تمتلك كل واحدة منها جناحًا عسكريًا. فقد أعلن عن تشكيل «الكتلة الشعبية الثورية» التي تعتبر الجناح الجماهيري والديمقراطي للمنظمة اليسارية «قوات التحرير الوطني» (فارابوندو مارتي-FMLN). وكانت هذه المنظمة أقوى منظمة جماهيرية في السلفادور، وضمت منظمتين فلاحيتين رئيسيتين، وأهم نقابة للمعلمين وعددًا من النقابات العمالية وتجمعات من الجامعات والمدارس الثانوية بالاضافة إلى مجموعات عديدة من سكان احزمة البؤس. وإضافة إليها: «روابط الشعب»، الحزب الشيوعي وغيره (راجع «بطاقة تعريف»).

ثورة عامة: في ١٥ تشرين الاول ١٩٧٩، وقع انقلاب اطاح الدكتاتور كارلوس همبرتو روميرو، وشكلت مجموعة من الانقلابيين (مدنيين وعسكريين) مجلسًا حاكمًا، ووعدت باجراء اصلاحات في البلاد، وطلبت ايقاف عمليات الثوار. وقد جرى في حينه كلام على دور الولايات المتحدة في هذا الانقلاب بهدف امتصاص النقمة الشعبية المتصاعدة على حكم روميرو، خاصة بعد نجاح ثورة «الجبهة السندينية» في نيكاراغوا.

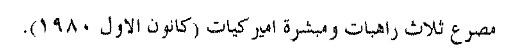
لم يتوصل المجلس الجديد إلى إيقاف العمليات الارهابية التي كان يذهب ضحيتها العشرات يوميًا، وذلك على الرغم من إصداره لقانون الاصلاح الزراعي في ٦ آذار ١٩٨٠ الذي أدّت تطبيقاته في ايامه الاولى إلى طرد مئات العائلات من اراضيها وقتل العشرات من الفلاحين. وفي ٢٥ من الشهر نفسه (آذار ١٩٨٠) قتلت جماعة يمينية متطرفة المونسنيور أوسكار روميرو، مطران العاصمة سان سلفادور، داخل كنيسته وهو يقوم بتقديم الذبيحة الإلهية، وذلك بعد ساعات من صدور بيان رسمي من الجيش يتهمه بـ«التحريض على الاقتتال، واليسارية، والتخريب». وعلى أثر ازدياد الالتفاف الشعبي حول الثوار (خاصة بعد حادثة اغتيال المطران المذكور وقد كان شعبيًا جدًا) في المدن والارياف، اشترك جيش هندوراس، جنبًا إلى جنب مع القوات المحلية، بتنفيذ بعض عمليات القمع ضد الثوار السلفادوريين، تخللتها مجازر جماعية ذهب ضحيتها المئات بين رجال عصابات وثوار وبين مدنيين منهم عدد كبير من الاطفال والنساء.

في اول تشرين الثاني ١٩٨٠، أُعلن عن تشكيل حكومة ثورية مسلحة من قبل «الجبهة الديمقراطية للسلفادور» تضم منظمات المعارضة الرئيسية. وفي الشهر نفسه، تمت عملية اغتيال لستة من كبار قادة الثورة في الجبهة الديمقراطية، من بينهم رئيس المنظمة أفريكي ألفاريت كوردوما، والقائد النقابي خوان تشاتون. وكانت السلطات قد ألقت القبض عليهم قبل ايام من اكتشاف جثثهم مشوهة ومقطعة في ضواحي العاصمة.

في ٢ كانون الاول ١٩٨٠، اغتيلت اربع راهبات اميركيات، قررت الولايات



الاسقف روميرو وقد سقط على ارض الكنيسة لحظة اغتياله إبان احتفاله بالقداس الالهي.



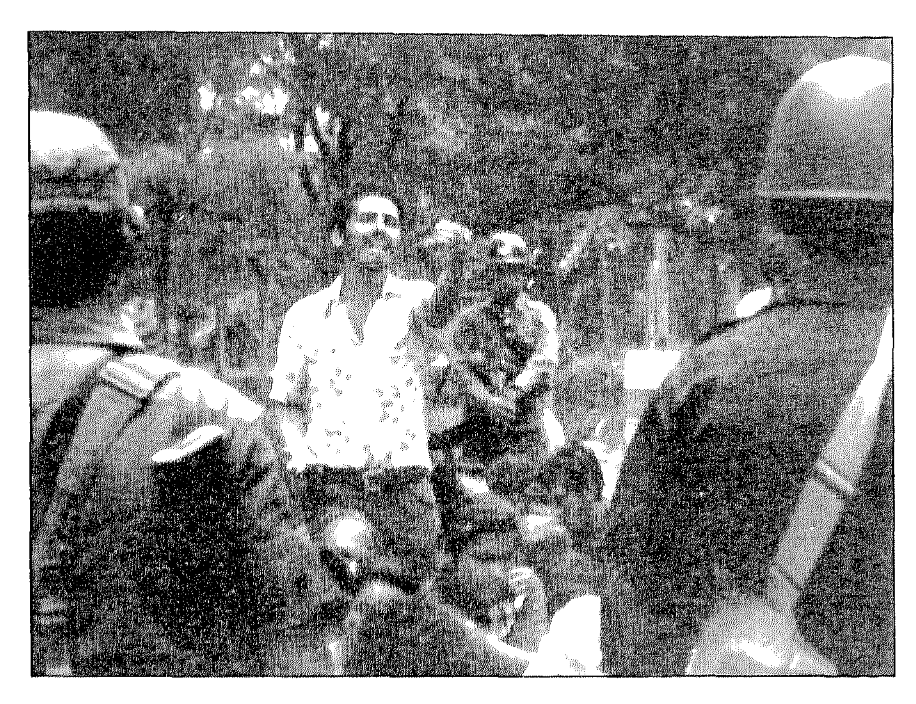
مصرع ثلاث راهبات ومبشرة اميركيات (كانون الاول ١٩٨٠).

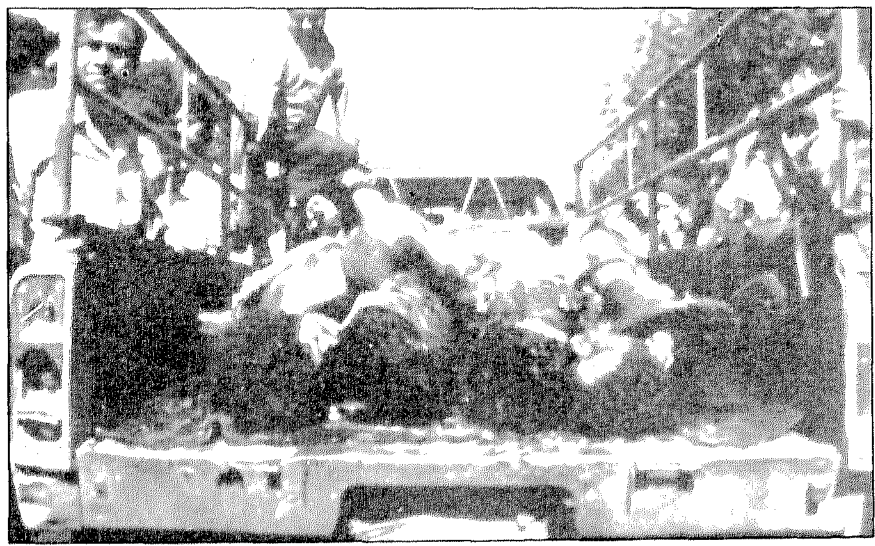


المتحدة على أثره ايقاف المساعدات للسلفادور. وبعد هذا الحادث، كرّت سبحة الاستقالات من الحكومة التي كان يرئسها الكولونيل ماخانو. فأزيحت وجيء بحكومة جديدة برئاسة خوسيه نابوليون ديوارت في ١٣ كانون الاول ١٩٨٠. وبعد ذلك بايام قليلة، أصدرت جبهة التحرير الوطني (يسارية) بيانًا اعلنت فيه الثورة العامة في البلاد. وفي ١٠ كانون الثاني ١٩٨١، قامت انتفاضة عامة شملت أكثر انحاء البلاد، وادعى الجيش بأنه توصل إلى كبح جماح العصيان.

موقف الولايات المتحدة في عهد ريغان: في ١٣ كانون الثاني ١٩٨١، اعلنت واشنطن، قبل اسبوع من مغادرة الرئيس جيمي كارتر البيت الابيض ليخلفه الرئيس الاميركي الجديد رونالد ريغان، استئناف شحن الاسلحة وتقديم كافة المساعدات للحكومة والجيش في السلفادور. وكان كلما مرّ يوم من بداية ولاية ريغان (٢٠ كانون الثاني ١٩٨١)، زادت الولايات المتحدة تصلبًا في مسألة السلفادور. فتدفقت الاسلحة الاميركية بكثرة على الحكم العسكري، وبدأت واشنطن تتهم الاتحاد السوفياتي وكوبا بالتدخل مباشرة في شؤون السلفادور، وتحذر من انها لن تسمح بأن تتحول السلفادور إلى كوبا أخرى، أو حتى نيكاراغوا أخرى (حيث حكم «الجبهة السندينية»). وفي اواسط شباط (١٩٨١)، زادت حدة التصريحات الاميركية الرسمية بشأن السلفادور تصلبًا حتى أصبح يشتم منها ان المحافظة على الحكم القائم في السلفادور وإنهاء الثورة ضدها يشكلان الهدفين الرئيسيين للولايات المتحدة في اميركا الوسطى. وفي زحمة اتهامات الرئيس ريغان الثورات في العالم بـ«الارهاب العالمي» اتهمت واشنطن رسميًا (٢٢ شباط ١٩٨١) منظمة التحرير الفلسطينية بمساندتها الثوار اليساريين في السلفادور، مثلها في ذلك مثل الكتلة الشيوعية وخصوصًا كوبا وفيتنام. وقد جاء هذا الاتهام عقب اجتماع نائب الرئيس الاميركي (الرئيس في ما بعد) جورج بوش بوزير الخارجية الاسرائيلي (رئيس الوزراء في ما بعد) اسحق شامير. وفي اليوم التالي، هددت واشنطن باتخاذ اجراءات مباشرة ضد كوبا، من بينها فرض حصار شامل، لمنع الامدادات العسكرية إلى الثوار. إلا ان الرئيس الاميركي ريغان أعلن في خطاب له بعد ساعات من هذا التهديد بأن «الولايات المتحدة لا تنوي التورط في حرب في السلفادور شبيهة بحرب فيتنام»، في حين ذكرت وزارة الدفاع الاميركية ان أكبر تجمع للسفن الحربية الاميركية في العالم موجود حاليًا في منطقة الكاريبي «لمنع تدفق الاسلحة من الدول الشيوعية إلى الثوار في السلفادور».

كرونولوجيا احداث السنوات التالية: في ٢٨ آذار ١٩٨٢، جرت انتخابات نيابية (قاطعها الثوار والمعارضة) اسفرت عن فوز التحالف الحاكم، وابرزت





في ١٩٨٠، حمام دم: جثث مكدسة اصبحت من المشاهدات شبه اليومية.

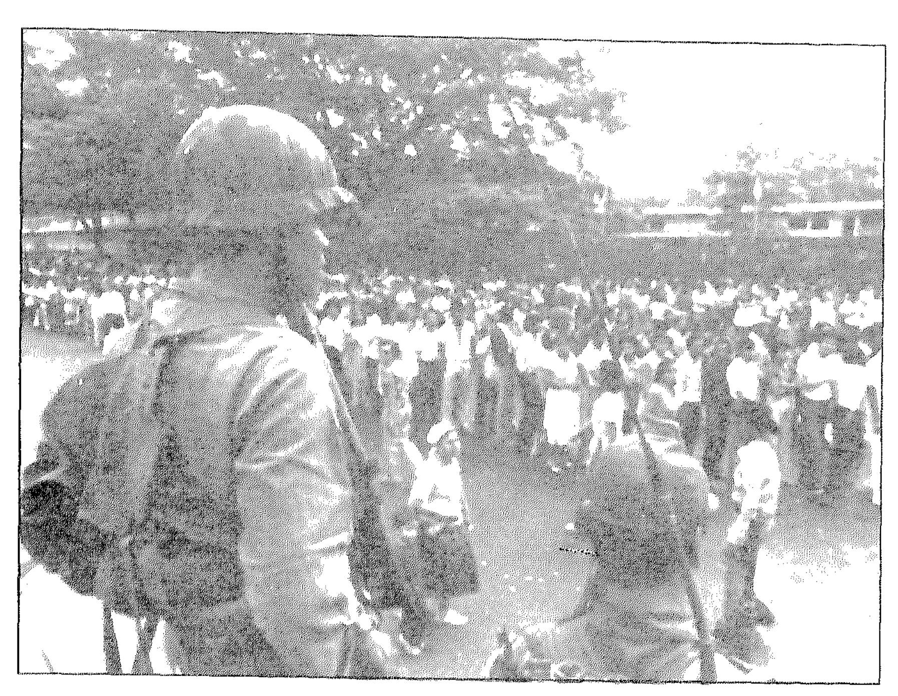
زعيم حزب «التحالف الجمهوري القومي» الميجر روبرتو دوبويسّون (١٩٤٤-١٩٩٢) كالرجل الاقوى في الحكم الجديد. وقد أقلق الفوز المعتبر فوزًا لليمين المتطرف العاصمة الاميركية مخافة ان لا يعمد الحكم الجديد إلى إجراء اصلاحات ضرورية في البلاد في حال احتكاره السلطة. وفي ٤ ايار ١٩٨٢، شكلت حكومة جديدة برئاسة الرئيس الموقت للبلاد ألفارو بورجي، عقب مفاوضات شاقة استمرت أكثر من شهر بين اليمين المنتصر والحزب الديمقراطي المسيحي الذي يتزعمه الرئيس السابق نابوليون ديوارت. وفي غضون ذلك، كان الثوار يستمرون بعملياتهم المسلحة (في كانون الاول ١٩٨٢، تمكنوا من قتل ٢٠ جنديًا من ضمن استعدادهم لشن هجوم واسع النطاق).

في ايار ١٩٨٤، انتخب نابوليون ديوارت رئيسًا للجمهورية ضد منافسه روبرتو دوبويسون. وبعد ايام، زار ديوارت واشنطن لطلب مساعدات «دون شروط مهينة». وفي تموز ١٩٨٤، قام بجولة شملت بريطانيا وألمانيا (الغربية) وفرنسا وبلجيكا واسبانيا والبرتغال. وقد استمرت هجمات الثوار واستمرت الثورة في الاتساع. وبعد أشهر فقط من انتخابه، بدأ نابوليون ديوارت يفقد التأييد الذي كان قد حظي به لأنه لم يتمكن من تحقيق وعوده بانهاء الحرب الاهلية ومعالجة الظلم والمساوىء الاجتماعية. وفي آخر ايلول (١٩٨٤)، دعا ائتلاف احزاب الوسط، الذي كان قد دعم ديوارت بحماس، إلى تظاهرة ضخمة للمطالبة بوقف النار وإجراء محادثات مع الثوار اليساريين. وبالفعل، رضخ ديوارت، وبدأت المحادثات في لابالما داخل كنيسة برعاية الصليب الاحمر بين الحكومة وزعماء جبهة «فارابوندو-مارتي الوطنية للتحرير (تضم خمس منظمات من الثوار، راجع «بطاقة تعريف»). وانقضت سنة ١٩٨٤، دون ان تصل هذه المفاوضات إلى نتيجة ملموسة.

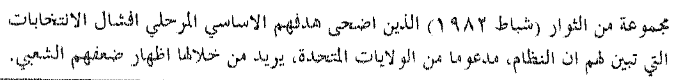
والجدير ذكره ان في السلفادور، كما في غالبية بلدان ا ميركا اللاتينية، مظالم ومساوىء اجتماعية دفعت بالرئيس ــــ



داخل حرم جامعة سان سلفادور (حزيران ١٩٨٠).



في العاصمة سلفادور، طوابير الناخبين بحماية عناصر من الجيش،
ما اعتبر فشلا لجبهات الثوار التي دعت الى المقاطعة (آذار ١٩٨٢).



مجموعة من الثوار (شباط ١٩٨٢) الذين اضحى هدفهم الاساسي المرحلي افشال الانتخابات
التي تبين لهم ان النظام، مدعوما من الولايات المتحدة، يريد من خلالها اظهار ضعفهم الشعبي.



الاميركي السابق، جيمي كارتر، إلى ان يقول امام رجال أعمال (بعد انتهاء ولايته وفي عهد سلفه الرئيس ريغان) ان سبب الثورة في نيكاراغوا والسلفادور الاقطاع والفقر وليس هافانا أو موسكو؛ قال: «عندما تختار عائلة جائعة بين الخبز والحرية، تكون الحرية هي الضحية».

في ٥ كانون الثاني ١٩٨٥، قتل اليمين المتطرف بيترو رينيه يانس الذي كان مستشارًا للرئيس؛ وفي ٢٤ تشرين الاول، أطلق الثوار إينيس ديوارت إبنة الرئيس بعد اختطافها واحتجازها لديهم مدة ١٤٤ يومًا في مقابل اطلاق سراح عدد من الثوار و٢٢ سجينًا سياسيًا.

في ١٠ تشرين الاول ١٩٨٦، ضرب زلزال أرضي البلاد وقضى على نحو ١٥٠٠ شخص.

في ٣١ آذار ١٩٨٧، قتل الثوار ١٠٠ جندي في منطقة إلباريسو.

في ٢٤ كانون الثاني ١٩٨٩، طرحت الثورة فكرة مشاركتها في الانتخابات الرئاسية، ثم ما لبثت ان عادت عنها ودعت إلى مقاطعتها. وجرت هذه الانتخابات في ١٩ آذار. لكن نحو ٥٠٪ قاطعوا بسبب عمليات الثوار المستمرة، وسقوط مناطق تحت نفوذهم.

تصاعدت عمليات الثوار الذين نفذوا عددًا منها في قلب العاصمة (١٩٩٠-١٩٩١). وفي ١٠ آذار ١٩٩١، جرت انتخابات تشريعية أفقدت الحزب الحاكم (التحالف الجمهوري القومي-أرينا Arena) الأغلبية في البرلمان. وبعد نحو شهرين، بدأت مفاوضات بين الحكومة والثوار، (الحكومة هي حكومة الرئيس المنتخب ألفريدو كريستيان)؛ وفي ١٣ ايلول، أعلنت جبهة الثوار الاساسية (فارابوندو مارتي) الهدنة تحت رعاية الامم المتحدة.

في ١٦ كانون الثاني ١٩٩٢، وقعت اتفاقات سلام بين الحكومة والثوار (إتفاقية شابولتيبيك Chapultepec)، أهم بنودها: تخفيض عدد القوات المسلحة الحكومية (٥٥-٦٣ ألف رجل) إلى النصف في مدة أقصاها انقضاء عامين كاملين، وتفكيك البنية العسكرية لجبهة «فارابوندو مارتي» في مدة تبدأ في اول شباط وتنتهي في ٣١

ثائر سلفادوري.



تشرين الاول (١٩٩٢)، وتسليم سلاحها باشراف مراقبين دوليين (تعينهم الامم المتحدة).

في ١١ ايلول ١٩٩٢، نجحت الحكومة في تسوية النزاع المزمن بين السلفادور وهندوراس حول منفذ للسلفادور على المحيط الهادىء. وفي ١٥ كانون الاول (١٩٩٢)، أعلن رسميًا عن نهاية الحرب الاهلية في البلاد التي كان قد مضى عليها أكثر من عشر سنوات.

في ٦ شباط ١٩٩٣، قررت الحكومة تخفيض عديد جيشها من ٦٢ ألفًا إلى ٣١ ألفًا. وفي ٢٣ آذار، صدر عفو عن العسكريين المتهمين بالقيام بأعمال عنيفة غير مشروعة (في إطار قانون عفو عام عن جرائم الحرب). وفي ايلول ١٩٩٤، اقتحم نحو ٥٠ شخصًا من العسكريين المسرّحين مبنى البرلمان مطالبين بالتعويض عليهم؛ وفي كانون الثاني ١٩٩٥، سار أكثر من ألف من المقاتلين السابقين، من الجيش كما من الثوار، وغالبيتهم من مشوّهي الحرب، في تظاهرة مشتركة مطالبين بالتعويضات الموعودة؛ وقمعت التظاهرة بعنف وجُرح نحو خمسين منهم.

تقرير دولي: وقانون العفو هذا جاء بعد أقل من اسبوع من التقرير الذي نشرته الامم المتحدة عن الانتهاكات البشعة لحقوق الانسان التي رافقت الحرب والتي حمّلت المنظمة الدولية مسؤولية غالبيتها الساحقة للاجهزة العسكرية وتنظيمات اليمين المتطرف المرتبطة بها. وقد اندرج هذا التقرير الدولي في اطار خطوات التسوية التي انهت الحرب الاهلية التي استمرت طوال الثمانينات وقتل فيها ما يزيد على ٨٠ ألف شخص. وكان التقرير أوصى باقالة ٤٠ ضابطًا في الجيش، معظمهم من الأركان، بما في ذلك وزير الدفاع رينيه إيميليو بونسي، بعدما حمّلهم المسؤولية عن غالبية الانتهاكات، إضافة إلى ١٤ قاضيًا من المحكمة العليا لعرقلتهم سير القضاء. واعتبرت عملية اغتيال كبير اساقفة سان سلفادور، أوسكار روميرو (١٩٨٠) أثناء تأديته الصلاة في كاتدرائية العاصمة، واحدة من أبشع جرائم هذه الحرب الملصقة باليمين المتطرف؛ إضافة إلى جريمة مقتل ستة من رجال الدين اليسوعيين وخادمتهم وابنتها التي دين بالتورط فيها عسكريان حكم عليهما بالسجن ٣٠ سنة (في ١٩٨٩).



ثوار قبل اتفاقهم مع الحكومة برعاية الامم المتحدة.



امين عام الامم المتحدة، خافيير بيريز دي كويلار، يشرف على بدء التفاوض بين الحكومة والثوار (١٩٩٠).

مناقشة: مخاوف ما بعد نهاية الحرب الاهلية

في نيسان ١٩٩٤، جرت انتخابات عامة برعاية الامم المتحدة، اسفرت عن فوز ممثل التحالف الجمهوري القومي اليميني الحاكم (أرينا) أرماندو كالديرون (مولود ١٩٤٨) بنسبة ٦٦،٣٥٪. وجاء هذا الفوز مثيرًا للمخاوف من ان تتنكر الحكومة الجديدة للوعود الاصلاحية التي التزمت بها الحكومة السابقة (حكومة ألفريدو كريستيان) الموقعة على إتفاقية انتهاء الحرب مع الثوار. وما زاد من هذه المخاوف علامات الاستفهام العديدة حول نزاهة الانتخابات (نيسان ١٩٩٤)، وبالتالي حول مدى نجاح الامم المتحدة في تحقيق السلام في البلاد. إذ ثبت مقاطعة ٥٥٪ من أصل ٢،٧ مليون ناخب بسبب منع آلاف الناخبين المسجلين من الادلاء باصواتهم بعد حذف اسمائهم من القوائم، كذلك عدم استلام عشرات الآلاف الآخرين بطاقاتهم الانتخابية إطلاقًا على رغم انهم ارسلوا الاستمارات الخاصة بها في الموعد المطلوب. كما ان مراقبي الامم المتحدة اشاروا حينذاك إلى قرار المحكمة الانتخابية العليا الحكومية القاضي بتحديد مراكز الاقتراع في مناطق معدودة، ما أدّى إلى طوابير طويلة عند مواعيد اغلاق الصناديق فلم يتسن للكثيرين المشاركة في الانتخابات على رغم انهم قطعوا من اجل ذلك آلاف الاميال. غير ان اخطر مظاهر التلاعب المفضوح كانت تلك التي وقعت في المناطق التي تتمتع فيها جبهة «فارابوندو مارتي» للتحرير الوطني بتأييد قوي، ومنها منطقة مورازان، تشالاتيناجو، سويابانجو...

«أودع السلفادوريون ثقتهم في المجتمع الدولي آملين ان يضمن القواعد. إلا ان الدرس الذي تعلموه هو ان وجود مجتمع مدني متماسك هو الضمانة الوحيدة لانتخابات ديمقراطية حقيقية»، هذا ما قاله هيكتور دادا، وهو عالم سياسي سلفادوري يترأس «بنك الادمغة» («الحياة»، ١٨ تشرين الاول ١٩٩٤). ومع ذلك، هناك استبعاد عام لفكرة عودة جبهة «فارابوندو مارتي» إلى التمرد بسبب التغييرات العالمية خصوصًا لجهة انهيار الاتحاد السوفياتي.

ومع ان قيادة جبهة فارابوندو مارتي أعلنت، في محاولة منها، لطي صفحة الحرب نهائيًا وترسيخ السلم الاهلي، انها ستقبل النتائج وانها ستقود المعارضة سلميًا، إلا ان مخاوفها من امكانية تراجع الحزب القومي الحاكم (أرينا) عن الاصلاحات سرعان ما بدأت تجد طريقها إلى أرض الواقع. إذ أعلن الرئيس كالديرون (مطلع ايلول ١٩٩٤) في تصريح ناري: «انه لا يتفق مع جميع الاصلاحات التي فرضها الارهابيون (في إشارة واضحة إلى جبهة فارابوندو مارتي) وإن للمجلس التشريعي الحق في إلغاء ما يراه مناسبًا وإقرار بديل له يعبر عن رغبة الأكثرية التي منحتنا ثقتها في الانتخابات». وأخذ يلوّح بامكان فتح ملف الحرب الاهلية، وبنيّته تحميل الجبهة مسؤولية نتائجها من خلال تقديم قادتها التاريخيين إلى المحاكمات على رغم قانون العفو العام الذي اقر باشراف الامم المتحدة كعنوان للمصالحة الوطنية في البلاد. وبدا ان تحالف «أرينا» اليميني عازم على ان يقطع الطريق امام احتمال وصول الجبهة مستقبليًا إلى الحكم من خلال إبراز قادتها كمجرمي حرب، لأن التحالف مقتنع تمامًا بأنه لن تقوم للجبهة الماركسية، التي كانت تتبنى الاشتراكية في مشروعها التغييري، قائمة بعد اليوم.

وردًا على تصريحات كالديرون، قال روبن زامورا ممثل جبهة فارابوندو مارتي في انتخابات الرئاسة: «لقد قبلنا النتائج على رغم التزوير الفاضح الذي عبّر عنه عدم مشاركة ٥٥٪ من الناخبين لأننا خشينا ان يفسر اعتراضنا على انه



مهرجان للمعارضة (أيلول ١٩٩٦).

انسحاب من العملية السلمية في البلاد. إلا اننا لن نقبل بأي شكل من الاشكال تراجع «أرينا» عن الاصلاحات، وعلى المجتمع الدولي ان يتحمل مسؤولياته في هذا المجال» («الحياة»، ١٨ تشرين الاول ١٩٩٤).

ومن مقال طويل كتبه موريس لوموان، بعنوان «نقاهة مرة في السلفادور» («لوموند ديبلوماتيك»، ايلول ١٩٩٦، ص١٠-١١)، هذه الفقرات المختارة:

في نهاية شهر تموز ١٩٩٦، التقى يساريو أميركا اللاتينية برمتها في العاصمة السلفادورية سان سلفادور للبحث في إمكانيات نزع التحدي الذي يثقل كاهل القارة بصورة خاصة عند نهاية هذا القرن. إنه تحدي بناء مجتمع جديد في عالم تسيطر عليه الولايات المتحدة والرأسمالية، ولكنه تحدٍ يجب ان لا يماشي النموذج الكوبي. تطارحوا الآراء ولم يصلوا إلى نقطة مشتركة، وتوزّعوا بين الحنين الثوري والرغبة في بناء الديمقراطية على أسس العدالة والواقعية. هذه التناقضات نفسها تجتاح مختلف اطراف الثورة السلفادورية (التي استمرت طيلة الثمانينات) والحركات التي انبثقت عنها، وهي، الآن، بين فكي كماشة الازمة الاقتصادية من جهة، والتفكك الايديولوجي من الجهة الاخرى. ويُجهد رفاق الامس النفس في محاولاتهم استعادة مكانهم، خاصة (وان نضالهم (وإن لم يستفيدوا منه هم مباشرة) أدّى إلى اصلاح سياسي أنهى هيمنة عسكرية عمّرت نحو

ستين سنة...

منـــذ ١٩٨٣، انقســـمت جبهـــة «فارابوندو مارتي للتحرير الوطني» إلى جناح اجتماعي ديمقراطي «جيش الشعب الثوري، المقاومة الوطنية»، وجناح ماركسي «جبهة التحرير الشعبي» (الحزب الشيوعي والحزب الثوري لشغيلة اميركا الوسطى). ومع ذلك استمر مبدأ المقاومة على اساس برنامج «الثورة الاشتراكية» قائمًا، وجرى تبنيه في اتفاق الجناحين عام ١٩٨٧. لكن الخلاف استمر في العمق؛ وعندما سقط جدار برلين، لم يتردد زعيم الجناح الاجتماعي الديمقراطي (الذي كان الأقوى عسكريًا إبان سنوات الثورة)، جواكيم فيلالوبوس من القول: «لقد كان الحق إلى جانبنا».

ومع ذلك، لا يزال الائتلاف السياسي بين قوى ثورة الامس قائمًا، أقله حتى «انتخابات القرن»، حيث هناك، في داخل هذه القوى، ميل قوي للوقوف إلى جانب مرشح الديمقراطية المسيحية للرئاسة ابراهام رودريغيز، في حين ان الأجنحة اليسارية المتصلبة تفضل تقديم مرشحها الخاص روبن زامورا.

هرم مدينة تازومال الاثرية على بعد كيلومترات قليلة من سانتا آنا.



مدن ومعالم

* **زاكاتيكولوكا Zacatecoluca**: مدينة في السلفادور. تبعد ١٣٨كلم عن العاصمة، وتعد نحو ١٠٠ ألف نسمة.

* **سانتا آنا Santa Ana**: مدينة في السلفادور. قاعدة المقاطعة. تقع عند اقدام بركان «سانتا آنا». تبعد ٦٦كلم عن العاصمة. تعد نحو ٢٥٠ ألف نسمة، وهي ثاني مدينة في البلاد. مركز تجاري مهم وسط منطقة زراعية غنية (البن). صناعات نسيجية. وهناك مدينة سانتا آنا الاميركية (في كاليفورنيا)، وتعد نحو ٣٠٠ ألف نسمة، ٦٥٪ منهم من أصل ابناء شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا).

* **سان سلفادور San Salvador**: عاصمة السلفادور. تقع على ارتفاع ٦٨٠م. وعند أقدام جبل سان سلفادور البركاني، وتبعد أقل من ٥٠كلم عن ساحل المحيط الهادىء. تعد نحو ٦٠٠ ألف نسمة، ونحو ٢،٧٠٠ مليون مع الضواحي. استضافت المدينة، بسبب الحرب الاهلية (١٩٨٠-١٩٩١)، نحو نصف عدد سكان البلاد. ضرب منطقتها زلزال قوي في ١٩٨٦، وحول المنطقة الأكثر تضررًا قامت أحياء ومدن ضمت مئات آلاف البائسين.

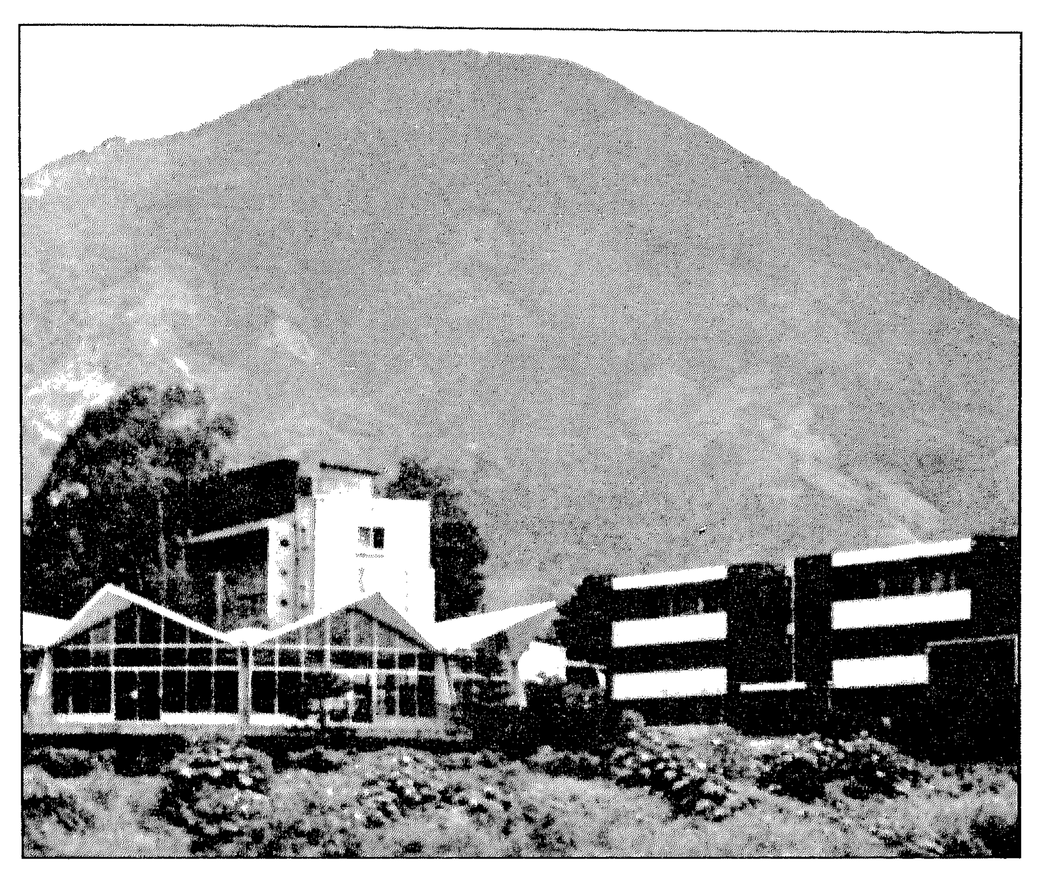
تأسست سان سلفادور في ١٥٢٨، ومع ذلك لا تضم إلا القليل من الآثار والمباني التي تعود إلى العهد الاستعماري. المركز الثقافي والاقتصادي الأهم في البلاد. صناعات نسيجية وغذائية. صناعة التبغ. البطالة تطال نحو نصف عدد سكانها.

* **سان ميغيل San Miguel**: مدينة في السلفادور. قاعدة المقاطعة. تقع على بعد ١٣٨كلم عن العاصمة، وعلى الطريق عابر القارة الاميركية. تعد نحو ٢٠٠ ألف نسمة. تأسست في ١٥٣٠ عند اقدام جبل سان ميغيل البركاني (٢١٣٠م)، وتحتضن عدة كنائس تعود إلى أيام الاستعمار. شكلت، طيلة الحرب الأهلية، نقطة عبور باتجاه الهندوراس

زعماء، رجال دولة وسياسة

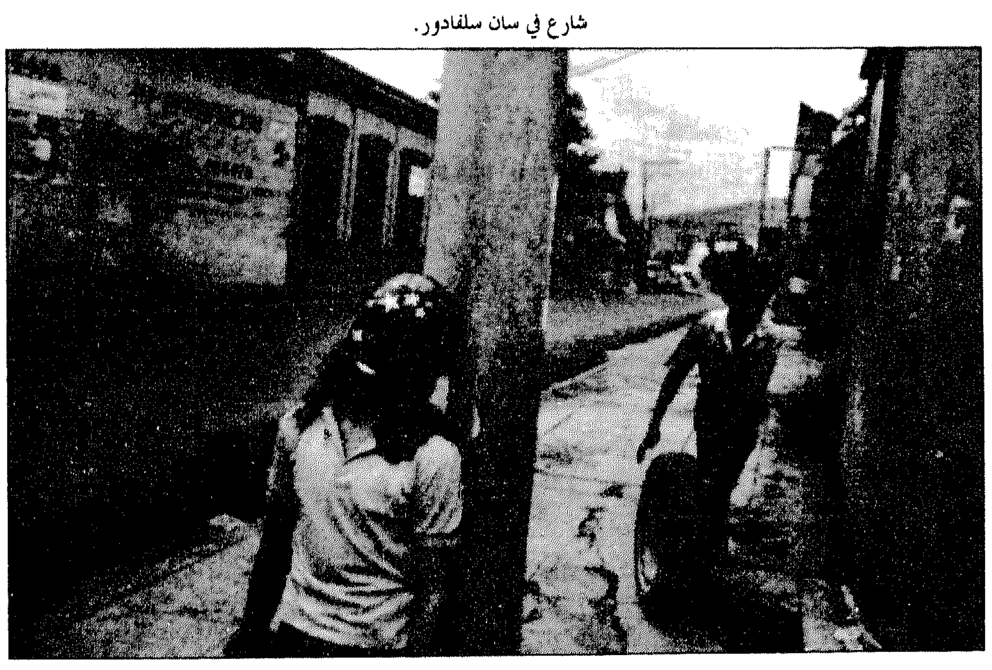
* **دوبويسون، روبيرتو D"Aubuisson,R** (١٩٤٤-١٩٩٢): مؤسس «التحالف الجمهوري القومي» (أرينا). عرف بتطرفه اليميني. اتهم، في شباط ١٩٨٩، بوقوفه وراء اغتيال الأسقف روميرو. ثم جاء التقرير، الذي نشرته الامم المتحدة عن الانتهاكات البشعة لحقوق الانسان التي رافقت الحرب الأهلية، ليؤكد التهمة (راجع بطاقة تعريف والنبذة التاريخية). مات دوبويسون بالسرطان.

* **روميرو، أوسكار .Romero,O** (- ١٩٨٠): رجل دين (أسقف، مطران) كاثوليكي



المبنى الحديث لجامعة سان سلفادور التي تأسست في ١٨٤١.

شارع في سان سلفادور.



وناشط سياسي-اجتماعي-وطني سلفادوري، فاز بشعبية قلّ نظيرها في السلفادور وأميركا اللاتينية والعالم. كان يعرّف عن نفسه بأنه «صوت الذين لا صوت لهم». أخرجت هوليوود عنه فيلمًا سينمائيًا أحرز نجاحًا عالميًا بعد سنوات قليلة من اغتياله. عرّفت به «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٢، ط١، ص٨٦٣-٨٦٤) على الشكل التالي:

اشترك (الاسقف روميرو) في مؤتمر الابرشيات اللاتينية الذي عقد في منطقة «مدلين» في جمهورية كولومبيا سنة ١٩٦٨. فبرز في عداد الكهنة الذين طالبوا الكنيسة بأن تقوم بدورها كمرشدة «روحية واجتماعية» للشعوب، وبالتالي كحليفة للفقراء والمضطهدين، وان تتخذ مواقف المعارضة الصريحة للانظمة الدكتاتورية. وتمكن من انتزاع اعلان من المؤتمر يطالب بـ«وجوب قيام الكنيسة بدور اجتماعي ايجابي يتخطى حدود التبشير».

وعندما عين روميرو اسقفًا لسان سلفادور في ٣ شباط ١٩٧٧، استفاد من موقعه البارز والمؤثر وراح يصعّد عنف مواجهته لنظام الرئيس روميرو (لا توجد اية علاقة قربى بين الرجلين) المتسم بالقمع الوحشي للمواطنين والحامي مصالح ٢٪ من سكان البلاد والمالكين أكثر من ٦٠٪ من اراضيها. وشعر الرئيس روميرو بخطورة الدور الذي يقوم به الاسقف أوسكار روميرو، خاصة وان شاغل هذا المنصب كان دومًا حليفًا للسلطة، فراح يتودد إليه وأهداه سيارته الرئاسية. لكن الاسقف اعاد الهدية لصاحبها، وجاهر بمقاطعته للحكومة، واعلن صراحة انه يعتبر نفسه معارضًا للنظام. وتمكن ان يستقطب الاكثرية الساحقة من كهنة السلفادور إلى جانبه، كما حوّل الكنائس إلى أماكن تجمع لانطلاق المظاهرات المطالبة بسقوط النظام العسكري واطلاق المعتقلين السياسيين الذين بلغ عددهم عدة آلاف. وازداد نفوذ الكنيسة في اوساط المزارعين والفئات الشعبية المحرومة، وبات روميرو هو المحرّك الفعلي لها.

وبعد ان قام فريق من الضباط الشباب بانقلاب عسكري في ١٥ تشرين الاول ١٩٧٩، واعلنوا عن إيمانهم بضرورة قيام نظام ديمقراطي في السلفادور، ووعدوا باجراء اصلاحات ديمقراطية، سارع الاسقف روميرو إلى اعلان تأييده المشروط للحكم الجديد. ومن الشروط التي وضعها: «اطلاق سراح المساجين السياسيين، وإجراء اصلاحات اقتصادية تتناول بشكل أولي القطاع الزراعي، وإقامة نظام ديمقراطي وانسحاب العسكر من الحياة المدنية».

ولكن روميرو لم يلبث، ومعه قادة الوسط واليسار، ان اكتشف ان هؤلاء الضباط ليسوا إلا واجهة في الحكم، وان السلطة الفعلية في يد كبار الضباط والعائلات الثرية المدعومة بقوة من حكومة الولايات المتحدة الاميركية. وفي اواخر كانون الثاني ١٩٨٠، قام روميرو بزيارة لحاضرة الفاتيكان حيث اجتمع بالبابا يوحنا بولس الثاني الذي حذّره من التعاون مع اليسار، فردّ الاسقف لتوه: «لا، يا صاحب القداسة، إن اليمين المتطرف هو أسوأ أعدائنا». وبعد الفاتيكان، توجه روميرو إلى باريس حيث اجتمع بعدد من السياسيين المعارضين في اميركا اللاتينية، كما التقى الصحافة واطلعها على طبيعة الخلاف بينه وبين الكرسي الرسولي (البابا).

وعندما أخذ الجيش السلفادوري ينقضّ على القرى والمزارع، ويفتك بالمزارعين لاجلائهم بالقوة عن الاراضي التي كانوا قد احتلوها، والمملوكة اصلاً من ١٧ عائلة، متذرعًا بتطبيق قوانين ٦ و٧ آذار ١٩٨٠ (حيث وقعت مذابح حقيقية أودت بحياة المئات من المزارعين)، أدرك روميرو ان عليه ان يلعب أخطر وأقوى ورقه، وهي دعوة الجيش ضباطًا ورتباء وأفرادًا إلى «عدم الامتثال للاوامر المخالفة لشريعة الله والكنيسة»،

وذلك في عظة ألقاها يوم الأحد في ١٣ آذار ١٩٨٠. وبعد ذلك بساعات، صدر بيان عن قيادة الجيش، وصف خطبة الاسقف بأنها تحريضية تهدف إلى شق الجيش وارتكاب «أخطر جريمة بحق السلفادور». وفي اليوم التالي، اقدمت منظمة يمينية متطرفة على قتل الاسقف روميرو وهو يقوم بالذبيحة الالهية (القداس) داخل كاتدرائية سان سلفادور.

(راجع «دوبويسون، روبيرتو» في باب زعماء ورجال دولة؛ و«تقرير دولي» في النبذة التاريخية).

*** سانشيز، فيدل هيرنانديز Sanchez, F.H.** (١٩١٨-): أحد العسكريين الذين تعاقبوا على الحكم في السلفادور منذ ١٩٣١، أي منذ استيلاء الجنرال ماكسيميليانو هيرنانديز مارتينيز على السلطة لشدة بطشه وتعسفه. وبعد إبعاد هذا الأخير، في ١٩٤٢، تعاقب على الحكم عسكريون راحوا ينشئون الاحزاب السياسية الضامنة لاستمرار سياستهم. في هذه الاجواء، جاء فيدل سانشيز إلى الحكم؛ فانتهج سياسة معادية للشيوعية، ولكنه في ا لوقت نفسه عمل على إنماء الشعور القومي وقام بمحاولات إصلاح لتحسين حياة الفلاحين الفقراء. وتميز حكمه بالحرب التي جرت في ١٩٦٩ ما بين السلفادور والهندوراس، والتي أشعل فتيلها خلاف على نتيجة مباراة في كرة القدم. إلا ان الاسباب الحقيقية قديمة ومتصلة بحروب ونزاعات سابقة بين البلدين؛ كانت آخرها الاتفاقات حول هجرة اليد العاملة السلفادورية إلى الهندوراس. إذ كان هناك نحو ٣٠٠ ألف عامل سلفادوري يعملون في الهندوراس التي تتميز بقلة سكانها واتساع اراضيها بعكس السلفادور المتميزة بأعلى كثافة سكانية في أميركا الوسطى. دامت الحرب مائة ساعة تغلبت فيها السلفادور على الهندوراس، لكن تدخل «منظمة الدول الاميركية» أوقف الحرب دون ان يحل الخلافات. أما الرئيس سانشيز فإنه أضاف نتيجة هذه الحرب رصيدًا على مواقفه الوطنية. ففي انتخابات رئاسة الجمهورية في ١٩٧٢، فاز مرشحه، الكولونيل أرثورو مولينا، على خصمه خوسيه نابوليون ديوارت (راجع النبذة التاريخية).

*** نابوليون ديوارت، خوسيه Napoleon Durate,J.** (١٩٢٦-): ثاني رئيس جمهورية مدني عرفته السلفادور منذ ١٩٣١. درس الهندسة، ودخل المعترك السياسي، فأسس (١٩٦٠) الحزب الديمقراطي المسيحي، وانتخب (١٩٦٤) عمدة العاصمة سان سلفادور. كان في مستهل حياته السياسية يشاطر زعيم جبهة «فارابوندو مارتي للتحرير الوطني» الذي قاد ثورة الثمانينات، غويير مو أونغو، حلمه في القضاء على سيطرة العسكريين على الحياة السياسية في البلاد من خلال الحزب الجمهوري القومي (أرينا Arena)، وعلى هيمنة الأوليغارشية على مقدرات البلاد الاقتصادية (١٤ عائلة اقطاعية). خاض نابوليون، في ١٩٧٢، معركة الانتخابات الرئاسية بدعم من الشيوعيين ومن غويير مو أونغو الذي كان نائبه على لائحة الترشيح. وأُعلن، في حينه، من مصادر الرجلين والقوى الداعمة لهما في السلفادور وفي الخارج، أنهما فازا في هذه الانتخابات، لكن العسكريين حالوا دون هذه النتيجة باعلان فوز خصمهما الكولونيل مولينا. وقد أدرك نابوليون، يومها، ان طريقه إلى الحكم لا بد ان يمر عبر الطريق العسكري لذلك دعم حركة انقلابية نظمها بعض «الضباط الاحرار». وفشلت هذه المحاولة، فاعتقل خوسيه نابوليون ديوارت، وعذّب ثم نفي إلى فنزويلا.

في تشرين الاول ١٩٧٩، حصلت محاولة انقلابية اخرى في السلفادور كللت بالنجاح. وقد أيدها غويير مو أنغو، إلا انه عاد بعد ثلاثة أشهر

وأعلن معارضته لها لأن برنامجها الاصلاحي لم يكن بالجذرية التي اشترطها. وأيدها كذلك نابوليون، فانتخب في ١٩٨٠ رئيسًا للجمهورية، واستمر في هذا المنصب إلى ١٩٨٢، وقد بادر، في حكمه، إلى تأميم المصارف والمباشرة في تطبيق الاصلاح الزراعي. بيد أن قوى اليسار اتهمته بالخيانة لأنه أمّن تغطية مدنية لحملة قمع عسكرية رهيبة ذهب ضحيتها أكثر من ١٢ ألف سلفادوري، من بينهم «أسقف الفقراء أوسكار روميرو»، ولأنه سكت عن جرائم «كتائب الموت» (تنظيمات اليمين المتطرف) التي عاثت فسادًا في البلاد. انتخب رئيسًا للجمهورية مرة أخرى في ايار ١٩٨٤، ولم ينجح في وضع حد للحرب الاهلية (راجع النبذة التاريخية).

سلوفاكيا

بطاقة تعريف

(للخريطة راجع «تشيكيا»، ج٦، ص٣٥٦).

الموقع: في اوروبا. تحيط بها أوكرانيا (وطول حدودها معها ١٩٦كلم)، وبولندا، والنمسا، وهنغاريا (المجر)، إضافة إلى تشيكيا التي كانت تشكل معها دولة واحدة باسم «تشيكوسلوفاكيا» قبل اعلان سلوفاكيا سيادتها في ١٧ تموز ١٩٩٢، واستقلالها في اول كانون الثاني ١٩٩٣.

يعتبر رسامو الخرائط وعلماء الجغرافيا ان مركز القارة الاوروبية يقع على تل «كرافوله» قرب مدينة كريمنتسا التاريخية التي تقع بدورها في وسط سلوفاكيا.

جغراسية سلوفاكيا محكومة، في الدرجة الاولى، بنزاعات التشيك والهنغاريين (راجع «أبرز احداث الاقليات» في باب «كرونولوجيا جمهورية سلوفاكيا» المستقلة).

المساحة: ٤٩ ألف كلم م..

العاصمة: براتيسلافا (بريسبورغ سابقًا). وثاني أهم مدينة كوزيس (كاسوفيا سابقًا) (راجع «مدن ومعالم»).

اللغات: السلوفاكية (يتكلمها نحو ٩٠٪ من السكان)، ولغات الاقليات من هنغارية وتشيكية وسواهما.

السكان: كان تعدادهم ٢،٧٨ مليون نسمة في ١٩٠٠، وأصبح ٣،٤٦ مليون نسمة في ١٩٥٠، و٥،٢٧ مليون نسمة في ١٩٩١، وتشير التقديرات الحالية (١٩٩٧) إلى انهم يعدون نحو ٦،٤٠٠ مليون نسمة. منهم نحو ٨٥٪ سلوفاك، ونحو ١٠،٨٪ (أي نحو ٦٠٠ ألف) هنغاريون، ونحو ١،٥٪ (٨٢ ألفًا) غجريون، ونحو ١٪ (٦٠ ألفًا) تشيكيون، ونحو ٠،٣٪ (١٩ ألفًا) روتينيون، ونحو ٠،٣٪ (١٩ ألفًا) أوكرانيون، ونحو ٠،١٪ ألمان، ونسبة الالمان نفسها تقريبًا للمورافيين والبولنديين ولغير المدونين. وهناك نحو ٣٢٥ ألف سلوفاكي يعيشون في تشيكيا.

الأكثرية كاثوليك رومان، يليهم الروم كاثوليك، ثم الأرثوذكس، ثم البروتستانت. وهناك أقلية صغيرة يهودية (راجع «أبرز احداث الاقليات» في باب «كرونولوجيا جمهورية سلوفاكيا» المستقلة).

الحكم: جمهوري. الدستور المعمول به صادر في أول ايلول ١٩٩٢، الرئيس ميكايل (ميخائيل) كوفاتش (مولود ١٩٣١)، وقد استلم السلطة في ١٥ شباط ١٩٩٣. رئيس الوزراء فلاديمير ميتشيار (مولود ١٩٤٢). الجمعية العمومية (البرلمان، المجلس الوطني) يُنتخب اعضاؤه لمدة خمس سنوات، وعددهم ١٥٠.

أهم الاحزاب: «حركة سلوفاكيا الديمقراطية»، تأسست في ١٩٩١، ورئيسها فلاديمير ميتشيار (رئيس الوزراء)؛ «الحركة المسيحية الديمقراطية»، رئيسها جان كارنوغورسكي، وتضم نحو ٣٠٠ ألف عضو؛ «الحزب الوطني السلوفاكي»، تأسس في آذار ١٩٩٠، رئيسه جوزف بروكس، ويضم نحو ألفي عضو؛ «حزب اليسار الديمقراطي»، رئيسه بيتر واير، ويضم نحو ٤٢ ألف عضو؛ «جمهور ضد العنف»، تأسس في تشرين الثاني ١٩٨٩، ورئيسه جوزيل كوسيراك؛ «الحزب

الديمقراطي»، تأسس في ١٩٤٤، وأصبح في ١٩٤٨ يحمل إسم «النهضة السلوفاكية»، وأعيد تأسيسه في كانون الاول ١٩٨٩، رئيسه جان هولتشيك؛ «الحزب الشيوعي السلوفاكي»، تأسس في آذار ١٩٩١، ورئيسه جويس فيجيس، ويضم نحو ١٠ آلاف عضو.
ويبلغ عديد الجيش السلوفاكي نحو ٣٥ ألف جندي.

الاقتصاد: يبلغ معدل الدخل الفردي السنوي نحو ٦ آلاف دولار. ولا تزيد نسبة النمو عن ٢٪. وتصل نسبة البطالة إلى ١٣٪. المصرف المركزي السلوفاكي بدأ اصداره العملة الوطنية منذ اول كانون الثاني ١٩٩٣.

بعيد الانفصال (والاستقلال) صدر تقرير عن مكتب الاحصاء السلوفاكي اشار إلى ان انخفاض الانتاج الصناعي والزراعي في البلاد، استمر في ١٩٩٢، وان نسبة هبوطه بلغت نحو ١٣٪، في ما ازدادت نفقات المعيشة بنسبة ١١٪.

وقد كان للانفصال عن تشيكيا عواقب حادة على الاقتصاد السلوفاكي. إذ من المعلوم ان تشيكيا هي تقليديًا أكبر شريك لسلوفاكيا في مجالات الانتاج والتجارة. وكان إلغاء الوحدة النقدية الذي استتبع إعلان الانفصال والاستقلال بين الجانبين قد أثار خفض قيمة الكرون السلوفاكي.

وبصورة عامة، تأخذ سلوفاكيا جانب اقتصاد السوق و«الخصخصة»، ولكن بتؤدة وتحفظ مقارنة بغيرها من بلدان اوروبا الشرقية سابقًا (راجع باب «كرونولوجيا جمهورية سلوفاكيا» المستقلة).

القطاع السياحي آخذ في النمو. وأهم مناطقها السياحية جبال «تاترا» ذات الحواف المدببة والمحميات الطبيعية في مالافاترا، وتظهر مميزات هذه المنطقة أكثر في الشتاء عندما تتحول معظمها إلى ملاعب لهواة التزلج من كل اوروبا؛ ومدينة بُشتاني التي تضم عددًا من المصحات العلاجية المقصودة من جميع انحاء العالم (راجع «بشتاني» في مدن ومعالم).

وما يمكن إضافته، إيجازًا، عن الاقتصاد السلوفاكي، انه ولعدة قرون كان العصب الاساسي لاقتصادها هو الزراعة، لكن ارضها كانت «طاردة» وقد شهدت موجة وراء أخرى من الهجرات. ويعيش في ا ميركا وحدها الآن نحو مليوني شخص من اصل سلوفاكي. وهي لم تشهد أي نمو صناعي إلا بعد ان ارتبطت بتشيكيا في ١٩١٨. ولكن اثناء الحرب العالمية الثانية تحولت كل مصانعها إلى مصانع حربية كي تفي باحتياجات الجيش الالماني. وعندما جاء الشيوعيون إلى الحكم استمرت هذه الصبغة العسكرية تدعيمًا لاحتياجات الجيش. وهكذا كان ٦٥٪ من العتاد العسكري الذي يحتاج إليه الجيش التشيكوسلوفاكي يأتي من سلوفاكيا. وعندما انهار الحكم الشيوعي، جرت محاولات تحويل هذه الصناعات إلى صناعات إنتاجية، لكنها اصطدمت بتخلفها عن العصر. وبدأت البلاد تعاني من انخفاض المستوى الصناعي والزراعي دفعة واحدة، وارتفع التضخم وارتفعت معه نسبة العاطلين عن العمل، وبدأت الخصخصة تأخذ طريقها. المزارع التعاونية الآن اصبحت ملكًا للعاملين فيها. وتمتلك سلوفاكيا قوة عمل ضخمة مدربة ومتعلمة، ١٠٪ منها متخرجة في جامعات، و٣٧٪ متخرجة في مدارس عليا. وبرغم هذا فإن الاجور متدنية ومعدلها نحو ٢٠٠ دولار شهريًا.

نبذة تاريخية

تمهيد: اقام السلوفاك شرقي بوهيميا-مورافيا، في بقعة جبالها هي الأكثر ارتفاعًا واراضيها الأفقر خصبًا في المنطقة؛ فبقوا قابعين في عزلة و لم يقفوا على الحضارة الغربية إلا في أوقات متأخرة.

وكان للسيطرة الهنغارية التي خضعوا لها بشكل مباشر، في احيان كثيرة، طيلة نحو ألف سنة، أن أبقتهم في حالة من الترجيع والاحتزار الثقافي والاقتصادي، ما دفع بنخبة من الوطنيين لشق طريق الاعتراض، ثم التحرر، ابتداء من اواخر القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من هذه الظروف غير الملائمة، لم يكف السلوفاك عن إجراء اتصالات وعقد روابط مع باقي السلافيين الغربيين، وخاصة منهم التشيك. لكن الخصوصية السلوفاكية ما انفكت تطرح مشكلات التعايش «السلوفاكي-التشيكي» حتى ظفر المنادون بها، أخيرًا، بانفكاك «تشيكوسلوفاكيا» واستقلال سلوفاكيا.

الغزوات: كانت اراضي سلوفاكيا موضوع نزاع شرس بين الجرمان والرومان. وهذا ما تشير إليه الكتابات اللاتينية المحفورة في صخرة في ترنسن Trencin التي تعود إلى حوالي العام ١٧٠ بعد الميلاد. والاراضي التي قطنها السلوفاك في اوائل القرن السادس، سرعان ما أصبحت تحت سيطرة الأفار Avars. و لم يلتحق السلوفاك بالتشيك إلا في القرن التاسع، وذلك في إطار دولة «مورافيا الكبرى» حيث تسنى لهم الاتصال بالحضارة الاوروبية واعتناق المسيحية. وابتداء من العام ٩٠٦، أجبروا على قطع علاقتهم بالتشيك بسبب غزو المجريين (ماغيار Magyars) القادمين من آسيا لأراضيهم، فبدأت السيطرة الهنغارية على سلوفاكيا، واستمرت حتى في ايام امبراطورية آل هابسبورغ، وذلك حتى العام ١٩١٨.

اضطرهم المجريون (ثم المستوطنون الالمان) إلى العيش في المناطق الأفقر من بلادهم، فعرفوا تقهقرًا ماديًا وثقافيًا طيلة عدة قرون تخللها غزو مغولي لبلادهم في ١٢٤٠-١٢٤١. لم يستكينوا، وقاموا ببعض الانتفاضات، أخصها تلك التي انطلقت من ترنسن Trencin، وقادها ماتوس كاك Matus Cak حتى مماته في ١٣٢١. وكان لهم ان يحصدوا بعض الإفادة من النهضة الاوروبية في القرن الرابع عشر-الخامس عشر التي وضعتهم على صلة مع البلدان المجاورة، خاصة بوهيميا وبولندا (بولونيا)، ما جعلهم ينكبون على استثمار بعض مناجم الذهب والفضة المتوافرة في ارضهم وأنشأوا لها «غرفة كريمنيكا الملكية» في ١٣٨٢، وعلى إنماء مدنهم القديمة (براتيسلافا، نيترا، ترنافا) والجديدة مثل كوزيس وبريسوف، واستلهام الفن الروماني والقوطي، والتأثر بجامعة براغ وأفكار المصلح التشيكي هس، واعادة اكتشاف بعض معالم الثقافة السلوفاكية القومية (أنشئت جامعة براتيسلافا على يد الملك ماتياس كورفن، لكنها لم تدم سوى

ربع قرن ١٤٦٧-١٤٩٠).

هذا النهوض أوقفه انتصار الاتراك على الملك الهنغاري لويس الثاني في معركة موهاكس (١٥٢٦)، وسقوط جميع المناطق الجنوبية-الشرقية من سلوفاكيا في يدهم حتى نهاية القرن السابع عشر. أما المناطق المتبقية من البلاد فقد عانت من قسوة أشرافها على الفلاحين المستعبدين الذين حاولوا الانتفاض في مرات عدة، لكنهم كانوا يقمعون ويتعرضون لمذابح، مثل مذبحة ١٥١٤، ومذبحة ١٧١٣ التي أعدم قائدها جانوسيك (البطل الاسطوري في الرواية التاريخية السلوفاكية حتى اليوم). وكانت الكنيسة الرومانية قلقة من زحف البروتستانتية اللوثرية هناك، فنظّم اليسوعيون «اصلاحهم الكاثوليكي» انطلاقًا من مدينة ترنافا ومدينة زيلينا. وأما النهضة الاقتصادية التي عرفتها أوروبا في القرن الثامن عشر، فكانت بطيئة جدًا في سلوفاكيا ومتأخرة عما كانت عليه في بوهيميا.

ولادة الوعي السلوفاكي: النهضة الثقافية (ابتداء من القرن الثامن عشر) لم تجار النهضة الاقتصادية بالبطء والتخلف عن الجوار، بل جاءت موازية لها واتبعت وتأثر النهضة الثقافية التشيكية. وكانت نتاج نخبة قليلة جدًا كوّنت عقلها في المؤسسات التعليمية الكاثوليكية (جامعة هنغاريا في ترنافا التي نقلت إلى بودابست في ١٧٧٦) أو البروتستانتية (معهد برتيسلافا-بريسبورغ الانجيلي). وقد دعم أفكار هذه النخبة شعور شعبي عام، غير مرتكز على وعي قومي واضح ولكنه مجمع على كره المجريين. في ١٧٩٠، طبع رجل الدين أنتون برنولاك ونشر كتابه في قواعد اللغة السلوفاكية المحكية في المناطق الغربية من البلاد. وفي ١٧٩٢، أسس في ترنافا Trnava «جمعية العلوم السلوفاكية». وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر، عرفت البلاد جدل ثقافي ومناقشات ومنتديات. فنظم الشاعر جان هولي قصائد تمتدح الاصول السلافية، لكن غالبية المثقفين كانوا يكتبون باللغة التشيكية، وبرز بينهم جوزف هوربان وميشال هودزا اللذان كتبا ونشرا في «الجريدة الوطنية السلوفاكية» (أنشئت في ١٨٤٥). النفس القومي السلوفاكي الآخذ بالبروز خيبّ آمال التشيك وأثار غيظ المجريين الذين أصدروا في ١٨٤٧ قانونًا يشدّد على اعتبار اللغة الهنغارية لغة رسمية وحيدة على كامل اراضي المملكة

نحو اتحاد مع التشيك: استقبل السلوفاكيون (السلوفاك) ثورة ١٨٤٨، التي عصفت في عدد من البلدان الاوروبية، بحماس كبير. فبادر أحد قادتهم، ويدعى ستور Stur (وكان نائبًا في مجلس الديت الهنغاري، وكان قد تقدم بطلب الاعتراف بالسلوفاكية كلغة رسمية قبيل صدور قانون ١٨٤٧) ونظّم «مؤتمرًا سلافيًا» في براغ في حزيران ١٨٤٨. وفي جلساته، كان المؤتمر ينشد قصيدة «فوق تاترا يلمع البرق» Nad Tatrou sa blyska. وهذا النشيد شكّل في ما بعد الجزء الثاني من النشيد الوطني

التشيكوسلوفاكي.

لكن الهنغاريين، وعلى الرغم من ثورتهم ضد فيينا، لم يستسيغوا مبدأ المساواة بين القوميات في إطار العرش الهنغاري. فقاموا بقمع الاقليات القومية بقسوة، ما جعل السلوفاكيين يشيحون بوجوههم عنهم ويفضلون عليه العلاقة مع النمساويين. وعاشت سلوفاكيا نحو عقد من الزمن خالية الوفاض وكأنها «أرض مستريحة».

مع بداية ستينات القرن التاسع عشر، وعلى وقع اقلام كتّاب تخلوا عن الرومانسية لمصلحة ا لواقعية، نشأت الـ«ماتيس سلوفنسكا» (الجمعية الثقافية السلوفاكية) التي جرى افتتاحها بصورة احتفالية في ١٨٦٣، والتي سارع المجريون (الهنغاريون)، وقد دعّموا موقفهم بالتسوية التي توصلوا إليها مع النمساويين في ١٨٦٧، وأصدروا قرارًا بمنعها في ١٨٧٥، وتأكيد اعتبار الهنغارية اللغة الوحيدة المعترف بها. أضف إلى ذلك تأخر سلوفاكيا الاقتصادي، وموجات الهجرة منها التي حالت دون نموها الديمغرافي.

ومع ذلك، جاء مطلع القرن العشرين ليسجل أنعطافًا تاريخيًا ويدشّن عهدًا جديدًا لسلوفاكيا.

الزعيم التشيكي، توماس مازاريك (مولود من أب سلوفاكي) أشار إلى حفنة من الشباب الوطنيين السلوفاك، وفي مقدمتهم سروبار وميلان هودزا، باصدار مجلة سلوفاكية. ونشأت مجلة «هلاس» («الصوت»)، واستمر صدورها من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٥ عندما انتخب هودزا نائبًا في برلمان بودابست وشكل كتلة نيابية من النواب السلوفاك والصرب والرومانيين، في حين تأسس ايضًا حزب احتماعي ديمقراطي سلوفاكي. وبدأ الفلاحون السلوفاك، الذين يشكلون ثلثي السكان، بالتحرك الذي عجز عن مقاومته الملاك الكبار وكبار رجال الدين. وانخرط الفلاحون بالحزب الشعبي الذي يتزعمه الأب أندرج هلينكا الذي عرفت قريته (مسقط رأسه) كرنوفا احداثًا دامية في ١٩٠٧. وعشية اندلاع الحرب التي قضت على امبراطورية آل هابسبورغ، كانت فكرة الاتحاد مع التشيك تنمو باطراد لدى السلوفاك. وفي تشرين الاول ١٩١٨، صوّت «المجلس الوطني السلوفاكي»، بعد «المجلس الوطني التشيكي»، لصالح إقامة «الجمهورية التشيكوسلوفاكية» التي أعلن قيامها في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٨.

تشيكوسلوفاكيا: راجع «تشيكيا» في الجزء السادس.

كرونولوجيا «جمهورية سلوفاكيا» المستقلة

اليوم الاول من الطلاق بالتراضي:
استقبل السلوفاكيون (والتشيكيون) سنة ١٩٩٣ في دولتين منفصلتين ومستقلتين بعد ٧٤ عامًا من الوحدة بينهما في إطار دولة «تشيكوسلوفاكيا» التي أنشئت على انقاض الامبراطورية النمساوية-الهنغارية.

وفي اليوم الاخير من عمر تشيكوسلوفاكيا (آخر ١٩٩٢)، قال بيتر فيس، رئيس حزب اليسار الديمقراطي السلوفاكي (الشيوعي سابقًا) المعارض لرئيس الوزراء فلاديمير ميتشيار «إن سلوفاكيا لم يسنح لها الوقت الكافي للاستعداد للاستقلال... وهذه الدولة الجديدة (سلوفاكيا) ستفقد إلى حد كبير النفوذ الدولي الذي كانت تتمتع به كجزء من تشيكوسلوفاكيا الموحدة برئاسة فاتيسلاف هافل».

ووافق محللون دوليون رأي بيتر فيس، وزادوا عليه ان سلوفاكيا ستخسر ايضًا قسمًا كبيرًا من الخبرات التشيكية الضرورية لانقاذ اقتصادها المشرف على الافلاس بسبب تفشي البطالة وارتفاع معدل ا لتضخم؛ كما ستعاني من هجرة الادمغة إلى الجمهورية التشيكية التي تنعم بمستوى اقتصادي أفضل، ومن شحة الاستثمارات الاجنبية، إضافة إلى ان نفقات بناء دولة جديدة من الصفر بدءًا باصدار عملة وطوابع وصولاً إلى بناء الملاجىء المحصنة للطائرات المقاتلة وانتهاء بتشكيل جهاز دبلوماسي كامل وخسارة برتيسلافا مساعدات سنوية من براغ تقدر بنحو ٥٠٠ مليون دولار، تعني ان سلوفاكيا ستواجه اوقاتًا اقتصادية عصيبة.

وقبل ستة أشهر فقط (أي في اواسط ١٩٩٢)، كان السلوفاكيون قد رفضوا سياسة «العلاج بالصدمة» التي اعتمدها رئيس الوزراء التشيكوسلوفاكي فاتيسلاف كلاوس، واعادوا القوميين إلى السلطة الذين يريدون توجيه الاقتصاد تدريجيًا نحو السوق الحرة. وكانت سلوفاكيا قد اجتذبت ليس أكثر من ١٠٪ من مجموع الاستثمارات التي حصل عليها التشيكيون، رغم انها حوّلت ٥٤٪ من موسسات المفرق إلى القطاع الخاص، أي بوتيرة أسرع من التشيكيين. وعلمًا ان يدها العاملة أرخص مما في الجمهورية التشيكية.
وينصب التفكير الاقتصادي لحكومة سلوفاكيا على إنهاء سدّ الدانوب الذي تقوم بسببه حرب كلامية مع هنغاريا التي تدعي ان السدّ سيؤدي إلى اضرار بيئية كبيرة. كما ان جهودها لإلغاء الاسماء الهنغارية للشوارع يثير غضب ابناء الاقلية الهنغارية لديها (نحو ٥٧٠ ألفًا).

وكان معارضو تفكيك تشيكوسلوفاكيا طالبوا باستفتاء على التقسيم معتمدين على استطلاعات للرأي تشير إلى ان عددًا كبيرًا من مواطني الجمهوريتين يعارض الفكرة. إلا ان الاستفتاء لم يجر في أي منهما. وبعد ستة أشهر من المفاوضات المضنية (طيلة النصف الثاني من ١٩٩٢) بين الطرفين لاقتسام كل شيء بدءًا بفرق رياضة الهوكي وانتهاء بالطائرات الحربية، لم يبق حتى آخر ١٩٩٢ إلا القليل من الشكليات العالقة. وأعلن وزير الخارجية التشيكي يوزف (جوزف) زيلنيك ان زيارته الاولى «للخارج» ستكون «طبعًا» إلى سلوفاكيا.

وتكمن جذور الطلاق بين الجمهوريتين في الخلافات على الاصلاحات السياسية والاقتصادية التي برزت عقب اسقاط الحكم الشيوعي في «الثورة المخملية» (راجع «تشيكيا» في الجزء السادس) عام ١٩٨٩. وعلى رغم الخلافات، نفذ الزعماء التشيكيون والسلوفاكيون تعهداتهم بتجنب اراقة الدماء.

١٩٩٣: مضى كانون الثاني من دون ان يفلح البرلمان السلوفاكي في انتخاب اول رئيس للبلاد، إذ لم ينل أي من المرشحين الرئيسيين لكرسي الرئاسة تأييد غالبية ثلاثة أخماس النواب (أي ٩٠ من أصل ١٥٠ نائبًا) الضرورية للفوز. وأظهرت نتائج الدورة الثانية (من دون ان تكون حاسمة) ان المرشح الأقوى رومان كوفاتش الذي يتمتع بتأييد «الحركة من اجل سلوفاكيا ديمقراطية» بزعامة رئيس الحكومة فلاديمير ميتشيار، حصل على ٧٨ صوتًا، في ما أيّد ٣١ نائبًا منافسه النائب ميلان فتاتشنيك مرشح حزب اليسار الديمقراطي (الشيوعي سابقًا). وبموجب الدستور يتوجب ان يبدأ البرلمان دورة اقتراع اخرى من جولتين كذلك في غضون اسبوعين.

وفي الموعد الدستوري المحدد، أي في ١٥ شباط ١٩٩٣، انتخب كوفاتش، آخر رئيس لبرلمان تشيكوسلوفاكيا السابقة وأحد قادة «الحركة من اجل سلوفاكيا ديمقراطية» الحاكمة في براتيسلافا، رئيسًا للجمهورية السلوفاكية، إذ حصل على تأييد ١٠٦ نواب.

في ٢ آذار، شارك رؤساء تشيكيا وهنغاريا والنمسا وبولندا، في العاصمة السلوفاكية براتيسلافا، في حفل تنصيب ميكال كوفاتش اول رئيس لجمهورية سلوفاكيا. وقال في خطاب القسم الدستوري إنه بقيام الجمهورية السلوفاكية نشأت في اوروبا دولة جديدة واحتل «شعب قديم حضاري» مكانه في اسرة الدول الديمقراطية.

وقد تزامن هذا الحدث (انتخاب اول رئيس) مع تصاعد الخلاف بين براغ وبراتيسلافا في شأن مستقبل الوضع على الحدود المشتركة، حيث يخطط التشيكيون لفرض رقابة مشدّدة على حركة الاشخاص عبرها، فيما يعارض السلوفاكيون ذلك انطلاقًا من الاتفاق المعقود بين البلدين والذي ينص على حرية التنقل بينهما. وجاءت زيارة كوفاتش لبراغ (في اوائل نيسان) لتوقف التدهور في العلاقات ولتعيد التزام الجانبين بتطبيق مختلف تعهداتهما.

وفي آب، أثار عزم هنغاريا على تحديث جيشها ونيتها إنفاق مليون دولار في هذا الصدد مخاوف لدى جيرانها اخصهم سلوفاكيا. فقام رئيس الحكومة السلوفاكية فلاديمير ميتشيار بزيارة لبودابست لاقناع الزعماء الهنغاريين بالعدول عن صفقة سلاحهم مع روسيا وألمانيا. لكن مساعيه باءت بالفشل. واللافت لدى السلوفاكيين وغيرهم من جيران هنغاريا ان هذه الأخيرة تربط بين مشروعها في تقوية الجيش وتحديث أسلحتها وبين تصاعد «اهتمامها المبالغ فيه» باوضاع الاقليات القومية الهنغارية في الدول المجاورة، الامر الذي ترى فيه هذه الدول تدخلاً في شؤونها الداخلية وتعترض عليه بشدة. وتتحدث بودابست عن «الحال السيئة» للاقليات الهنغارية، لا سيما في سلوفاكيا ورومانيا، وحرمانها من التمتع بجميع حقوقها القومية. ويذكر، في هذا السياق، ان هنغاريا خسرت إثر هزيمة الامبراطورية النمساوية-الهنغارية في الحرب العالمية الاولى ونشوء دول جديدة على انقاضها، كثيرًا من اراضيها وسكانها. وتقدر المصادر الهنغارية بـ٧١٪ من الاراضي و٦٤٪ من السكان. ونتيجة لذلك تحول ثلث الهنغاريين اقليات عرقية في الدول المحيطة. وتقطن أكبر هذه الاقليات اليوم في رومانيا (١،٧ مليون)، وسلوفاكيا (٥٧٠ ألفًا)، وصربيا (٤٥٠ ألفًا) وأوكرانيا (١٦٠ ألفًا).

في تموز، قررت سلوفاكيا إلغاء صفقة تسليحية مهمة لتزويد سورية دبابات قتال رئيسية جديدة من طراز «ت-٧٢»، وهي دبابات سوفياتية الاصل تنتجها المصانع السلوفاكية بموجب ترخيص يعود إلى ايام الاتحاد السوفياتي السابق. ورفض المسؤولون اعطاء أي اسباب لالغاء الصفقة مع دمشق، لكنهم حرصوا على تأكيد ان «الالغاء لم يكن ناجمًا عن أي إخلال مالي أو قانوني من

جانب سورية ببنود العقد».

١٩٩٤: عقب أزمة (في اوائل شباط) واجهتها حكومة فلاديمير ميتشيار بانشقاق اثنين من وزرائه وعشرة نواب من الحزب الذي يتزعمه (من اجل الديمقراطية في سلوفاكيا) ليشكلوا معارضة تسعى إلى إسقاطه وحكومته، دعا ميتشيار إلى إجراء انتخابات مبكرة قبل نهاية حزيران (١٩٩٤). وفي نيسان استقال ميتشيار، وحلّ محله وزير الخارجية جوزف مورافشيك، فتزايد الحديث عن «عدم الاستقرار» في سلوفاكيا. وفي اواخر السنة (١٩٩٤)، جرت الانتخابات المبكرة التي خرج ميتشيار وحزبه منتصرين فيها. ومنذ ذلك الحين عاد ميتشيار إلى السلطة (للمرة الثالثة في غضون اربع سنوات) تحت شعار إيجاد مخرج من الأزمة. وبدا ان رئيس الوزراء، ميتشيار، لم يغفر لرئيس الجمهورية ميكال كوفاتش دوره في اسقاط حكومته في ربيع ١٩٩٤ بعد خروج عدد من نواب حزبه في انشقاق أفقدها أكثريتها البرلمانية. فاضيفت، خلال ١٩٩٥، إلى الازمة الاقتصادية المزمنة أزمة أخرى هي أزمة السلطة.

١٩٩٥: حمل هذا العام أزمة واضطرابات، عناوينها الرئيسية: رئيس وزراء (ميتشيار) يريد تنحية رئيس الجمهورية (كوفاتش) الذي يرفض الاستقالة، ورئيس جمهورية تعرض ابنه إلى الاختطاف ثم السجن، وحرب مكشوفة بين المخابرات السلوفاكية «إس.أي.إس» والشرطة بسبب الحادث، وأقلية هنغارية لها مطالبها، ومعارضة تتهم الحكومة بضلوعها في عملية الاختطاف وايقاف بيع ممتلكات الدولة التي كانت توزع أسهمًا على المواطنين لتبيعها (الحكومة) إلى أزلامها بطرق ملتوية واسعار بخسة.

فمنذ عودته إلى السلطة، راح ميتشيار يعمل على تنحية رئيس الجمهورية. ولكنه يحتاج إلى ٩٠ من مجموع ١٥٠ صوتًا في البرلمان لحجب الثقة عن الرئيس وليس لدى حكومته الائتلافية سوى ٨٢ مقعدًا. لذا، اخذ يعمل جاهدًا لاجبار الرئيس على الاستقالة. وذهبت الحكومة إلى حد اصدار بيان اتهمت فيه رئيس الجمهورية بالخيانة لتصريحه خلال زيارة قام بها إلى واشنطن (صيف ١٩٩٥) بأن الولايات المتحدة تشعر بالقلق على مصير الديمقراطية في سلوفاكيا.

واتخذ الصراع منحى دراميًا في آب باختطاف ابن رئيس الجمهورية وإجباره على تناول كمية كبيرة من الكحول ورميه خارج أحد أقسام الشرطة في النمسا حيث اعتقل بموجب أمر القاء قبض صادر عن البوليس الدولي (أنتربول) بناء على طلب من الادعاء العام في مدينة ميونيخ الالمانية، إذ كان كوفاتش الابن متهمًا بالتورط في صفقات مشبوهة بين شركات سلوفاكية واخرى المانية. وانطلقت اصوات تربط عملية الاختطاف بالحكومة التي رفضت التدخل لدى السلطات النمساوية لصالح ابن الرئيس. وازدادت التكهنات حول ضلوع اوساط الحكم باعفاء المسؤول الذي كلفته الشرطة بالتحقيق في عملية الاختطاف بعد ان طلب مقابلة عناصر في المخابرات السلوفاكية.

في اوائل تشرين الاول، أفرج عن ابن الرئيس بكفالة مالية قدرها مليون شلن نمساوي. وقد أثار حجم الكفالة تكهنات جديدة حول الجهة التي دفعت هذا المبلغ. ونشرت إحدى الصحف وثيقة قالت انها من بنك نمساوي تثبت ان لدى رئيس الجمهورية رصيدًا قدره ٢٤ مليون شلن. ولكن البنك أصدر تكذيبًا، وتراجعت الصحيفة، ورفع الرئيس دعوى قضائية بحقها. وفي غمرة أزمة السلطة هذه ضاعت، إلى حين طبعًا، مطالب الاقليات، خاصة الاقلية الهنغارية، باعادة النظر في قانون لغة الدولة الجديد.

أبرز احداث الاقليات: وأخصها الاقلية

الهنغارية التي تشكل نحو ١٠،٨٠٪ من إجمالي عدد السكان، وتشكو الغبن اللاحق بها جراء عدم التوزيع العادل لامكانات التنمية في مناطقها. وهذا ما دفع بـ«حركة التعايش» و«الحركة الديمقراطية المسيحية» الهنغاريتين الممثلتين في برلمان براتيسلافا إلى الدعوة للانفصال أو على الاقل اقامة حكم ذاتي لهم في جنوبي البلاد حيث يشكلون الغالبية السكانية في ٤٣٧ بلدة وقرية.

في مطلع ١٩٩٤، عقدت الاقلية الهنغارية مؤتمرًا لها في مدينة كومارنو الواقعة على الحدود السلوفاكية-الهنغارية. ورفض المؤتمرون دعوة المتطرفين منهم للانفصال، إلا انهم شددوا على مطالبة الحكومة بالاعتراف بحقوقهم المحلية في ادارة شؤونهم في المجالات الثقافية والتعليمية واعترضوا على مشروع الحكومة المتعلق بالتقسيم الاداري الجديد للبلاد، لأنه باعتقادهم «يدعم التذويب المنظم للعنصر القومي الهنغاري في سلوفاكيا».

وأكد رئيس المؤتمر، إيشتفان باستور، وهو عمدة مدينة كومارنو، في تصريحاته هذه المواقف: «لا نريد اعلان حكم ذاتي اقليمي لكننا لن نتنازل عن تطوير مناطقنا اقتصاديًا وعن المحافظة على تراثنا وتاريخنا».

وتقف المعارضة السلوفاكية مع هذه المطالب للأقلية الهنغارية وتعتبرها عادلة.

أما الأقلية الأخرى، الغجر، فليست لهم مطالب محددة وليس لهم تجمعات أو منظمات سياسية تنطق باسمهم، بل يتوزعون على الاحزاب القائمة في البلاد ويعتبرون انفسهم كاملي المواطنية. وهم يعتنقون الكاثوليكية، ويهاجرون تلقائيًا إلى تشيكيا حيث يجدون فرصًا أكبر للعمل.

وأما الأقلية اليهودية فهي أفضل حالاً من الاقليتين الهنغارية والغجرية، فلا تواجه أية مضايقات لا بل ان نفوذها في الدولة يحميها من اية نزاعات عرقية محتملة في المستقبل، إذ انها، توصلت في مطلع ١٩٩٤، إلى اتفاق فريد في نوعه مع حكومة فلاديمير ميتشيار يقضي باعادة جميع املاكها التي صادرتها الحكومات الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية .

مدن ومعالم

* **براتيسلافا Bratislava**: بوسزوني Poszony في اللغة الهنغارية، وبريسبورغ Pressburg في الالمانية. عاصمة سلوفاكيا. تقع على الدانوب قرب الحدود النمساوية والهنغارية. نحو ٥٠٠ ألف نسمة. من أشهر آثارها: قصر يعود بناؤه إلى القرن العاشر (اتت عليه النيران في ١٨١١، وأعيد بناؤه)، فندق المدينة (القرن الخامس عشر، حُوّل إلى متحف)، عدة كنائس قوطية (القرن الثالث عشر)، فنادق وقصور تعود إلى العهد الباروكي. توسعت الاحياء السكنية من المركز باتجاه الشمال-الشرق والجنوب (حي بتفازالكا على الضفة اليسرى من الدانوب)، ونمت بعض الصناعات من الجهة الشرقية من المدينة. جامعة. مركز تجاري مهم (مرفأ نهري)، وعقدة مواصلات لاعادة توزيع المنتوجات الغذائية



إحدى البحيرات التي يؤخذ منها الطين الفوسفوري.

والصناعية، وطرقات تصل المدينة بالنمسا، وهنغاريا، وتشيكيا ومختلف المناطق السلوفاكية). مصاف لتكرير النفط، صناعات كيميائية، وغذائية، وميكانيكية وكهربائية.

تأسست براتيسلافا في القرن العاشر. وكان إسمها بريسبورغ. في ١٥٤١، اتخذتها هنغاريا عاصمة لها بعد احتلال الاتراك لمدينة بودا Buda. شهدت قمة ازدهارها في عهد ماري تيريز ملكة النمسا.

أشهر أحداثها التاريخية «معاهدة بريسبورغ» التي وقعها في ٢٦ كانون الاول ١٨٠٥ غداة انتصار الفرنسيين في معركة أوسترليتز، الامبراطور فرنسوا الثاني، فتخلى بموجبها لفرنسا عن فينيسيا Vénetie، ولبافاريا عن التيرول وفورالبيرغ وترنتن. وأصبحت، بعدها، بافاريا وورتمبرغ مملكتين. وجاءت هذه المعاهدة لتضع نهاية للامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة.

قام الموسيقار الشهير فرانز ليست بزيارة براتيسلافا ١٥ مرة، والاوبرا الموجودة فيها تماثل ارقى وأعرق دور الاوبرا في اوروبا. متحفها الوطني يحتوي على خليط من الحفريات القديمة والآثار والتاريخ الطبيعي. وبالقرب من المتحف مبنى البلدية الذي كان قصرًا للحكم، وفيه قاعة المرايا حيث وقع نابوليون بونابرت معاهدة سلام مع فرانز الاول في ١٨٠٥. وهناك المكتبة الوطنية التي كانت مقرًا للبرلمان المجري، ومنه صدر في ١٨٤٨ القانون الشهير الذي انتهى بموجبه الاقطاع في كل الامبراطورية النمساوية-الهنغارية. وهناك قلعة براتيسلافا (رومانية) على حافة نهر الدانوب، وقد تمّ بناؤها عدة مرات وكانت مقر الاسرة الحاكمة المجرية حتى احترقت في ١٨١١، ثم أعيد



تمثال مريض يكسر عصاه ويستعد لمواصلة الحياة على المدخل الذي يؤدي الى جزيرة الاستشفاء في بشتالي.

ترميمها في الستينات من هذا القرن وتحول الجزء الاكبر منها إلى متحف للتاريخ.

* **بريسوف Presov**: مدينة سلوفاكية. على نهر توريسا. تعد نحو ٩٣ ألف نسمة. سوقها، البيضاوي الشكل، يرجع إلى القرون الوسطى. مركز ثقافي تاريخي وتقليدي في نظر السلوفاك. صناعاتها حديثة: ادوات كهربائية، وصناعات نسيجية وغذائية.

* **بُشتالي**: مدينة صغيرة (فيها شارع رئيسي واحد) تقع في الجنوب الغربي من سلوفاكيا على ضفاف نهر «فاه». شهيرة بأنها في مقدمة مناطق الاستشفاء في العالم. ففيها عشرة ينابيع

معدنية يتدفق منها يوميًا نحو ٣ ملايين ليتر من المياه الكبريتية تبلغ درجة حرارتها من ٦٧-٦٩ درجة مئوية، وكل ليتر يحتوي على ١،٣ ملليغرام من المعادن والمواد الفوارة. والمياه الكبريتية ليست هي مصدر العلاج الوحيد في بشتاني، فهناك ايضًا الطيني الكبريتي وهو أفضل نوع في العالم من حيث خصائصه العلاجية. ويدخل بشتاني يوميًا آلاف السواح والمرضى (حالات الروماتيزم وامراض الاعصاب) من أهل البلاد ومن الاجانب. مركزها العلاجي شيّد منذ ١٩١٢، وبرغم انه لا يزال يحتفظ من الخارج بطابعه التقليدي القديم فإنه من الداخل يحتوي على كل وسائل التقنية المعاصرة. على مدخل المدينة ينتصب تمثال «المريض الذي يكسر عكازه» والذي يرمز للأثر الذي يحدثه العلاج بواسطة ينابيع المدينة.

* **جاسلوفسكي:** مدينة سلوفاكية شهيرة بالمفاعل النووي السلوفاكي الذي بني على ارضها في ١٩٧٠ وفق تصميم سوفياتي. وهو يمد سلوفاكيا بنصف حاجتها من الطاقة الكهربائية. ولكن التساؤلات اخذت تثار حول درجة الامان المتوافرة في المفاعل بعد حادثة مفاعل تشيرنوبيل.

* **زيلينا Zilina:** مدينة سلوفاكية. على نهر فاه Vah. تعد نحو ٨٨ ألف نسمة. عقدة مواصلات نهرية وبرية. شهيرة بمعهدها العالي المختص بعلوم الشحن والمواصلات. صناعات ميكانيكية وخشبية. مركز سياحي.

* **كوشيتسي Kosice:** كاسا Kassa في الهنغارية، وكاشاو Kaschau في الالمانية. مدينة سلوفاكية. على نهر هورناد. أهم مدينة في المناطق الشرقية من سلوفاكيا. تعد نحو ٢٥٠ ألف نسمة. جامعة. مبان قديمة لا تزال قائمة فيها: كاتدرائية قوطية على اسم القديسة اليزابت (اواخر القرن الرابع عشر)، كنيسة سان ميشال (اوائل القرن الرابع عشر)، كنيسة للرهبان الدومينيكانيين (القرن الرابع عشر، وأعيد بناؤها تبعًا للطراز الباروكي في ١٧٠٠)، بيت ليفوتشا (القرن الخامس عشر، وأعيد ترميمه). المدينة عقدة مواصلات نهرية وبرية، وتشكل سوقًا زراعيًا ومركزًا صناعيًا كبيرًا: صناعات حديدية (المجمع الصناعي VSZ يشغل نحو ٢٥ ألف شخص)، مواد بناء، طباعة.

كانت كوشيتسي أول مدينة في تشيكوسلوفاكيا (السابقة) حرّرها الجيش السوفياتي في ١٩٤٥، والمقر المؤقت للحكومة الوطنية التي أصدرت «برنامج كوزيس الحكومي» الموقع في ٥ نيسان ١٩٤٥ والذي أعلن اعادة ولادة استقلال تشيكوسلوفاكيا ووحدتها.

* **نيترا Nitra:** مدينة سلوفاكية واقعة في غربي البلاد على نهر نيترا. تعد نحو ١٠٠ ألف نسمة. قصر. كاتدرائية ذات طراز يمزج بين القوطي والباروكي (القرن الثالث عشر، الرابع عشر، والسابع عشر). كنيسة تعود إلى القرن الثاني عشر. مركز إداري وديني قديم.

سلوفينيا

بطاقة تعريف

الموقع: في اوروبا (البلقان)، تحيط بها ايطاليا، والنمسا، وهنغاريا، وكرواتيا. وتطل سلوفينيا، عند أقصى حدودها الجنوبية الشرقية، وعبر شريط ضيق بين حدودها مع ايطاليا وحدودها مع كرواتيا، على البحر الادرياتيكي. واقرب مدينة من مدنها إلى هذا البحر هي كوبر Koper، وهي مرفأ. ويذكر ان ساحل يوغوسلافيا السابقة على البحر الادرياتيكي يبلغ طوله (محسوبًا بتعرجاته) ١٩٩٣كلم، وهو مقسم بين ثلاث جمهوريات سلوفينيا (٤٦كلم)، والجبل الاسود-مونتينيغرو-(١٥٠كلم)، والباقي يخص كرواتيا.

المساحة: ٢٠ ألفًا و٢٥١كلم م..

العاصمة: ليوبليانا Ljubljana. وأهم مدنها: كرانج، بليد، ماريبور وكوبر (راجع «مدن ومعالم»).

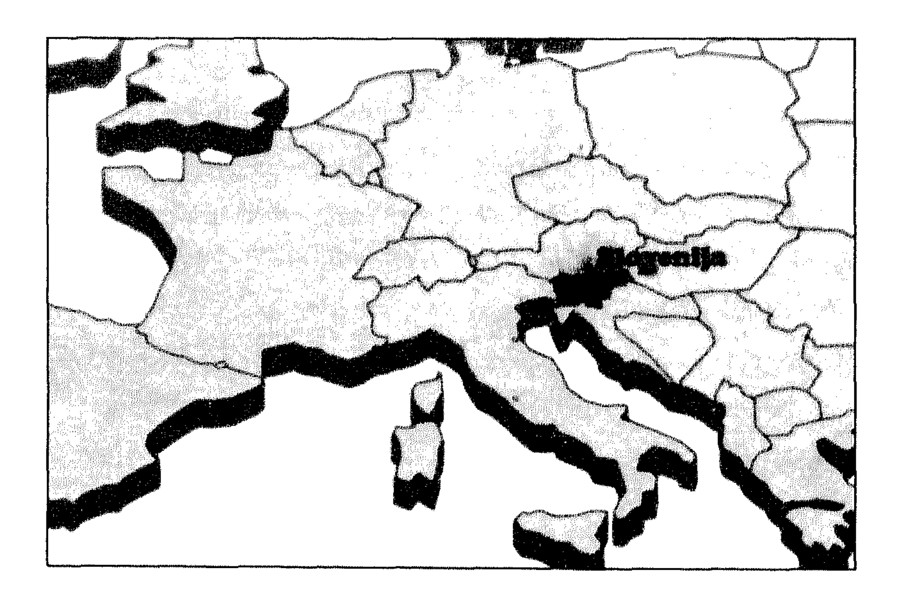
اللغة: السلوفينية.

السكان: يعدون نحو ٢،٢٢٥ مليون نسمة. منهم نحو ٩١٪ سلوفينيون، ٢،٧٪ كروات، ٢،٢٪ صرب، و١٪ مسلمون/ و٠،٤٤٪ هنغاريون، و٠،١ ايطاليون. وفي سلوفينيا نحو ١٠٠ ألف لاجىء جراء الحرب في البوسنة. «نظام المجموعات القومية» يعترف (ومطبق) بالاقلية الهنغارية والاقلية الايطالية، ولا يسمّي الصرب والكروات (كانت سلوفينيا، مثل صربيا وكرواتيا وغيرهما، في عداد دول وبلدان الاتحاد اليوغوسلافي). الغالبية الساحقة كاثوليك.

الحكم: استقلت سلوفينيا في ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٢، وبعد وقت وجيز اعترفت بها دول المجموعة الاوروبية (ثم نحو ثلاثين دولة بما فيها المانيا). وفي ٦ كانون الاول ١٩٩٢ جرت فيها اول انتخابات نيابية ورئاسية.
نظام حكمها جمهوري. رئيسها ميلان كوكان الذي كان قد انتخب قبل الاستقلال، أي في ٨ نيسان ١٩٩٠ (٥٨،٣٪ من الاصوات، مقابل ٤١،٧٪ لخصمه جوزي بوكنيك. وأعيد انتخاب كوكان في ٦ كانون الاول ١٩٩٢.
أهم الاحزاب: الحزب الليبرالي الديمقراطي، المسيحيون الديمقراطيون، حزب التحديد الاجتماعي الديمقراطي (حزب «رابطة الشيوعيين» سابقًا).

الاقتصاد: اقتصاد سلوفينيا على ارتباط وثيق بطبيعتها الجغرافية التي تنقسم إلى أربع مناطق طبيعية: الألب السلوفينية، سياحية ومجهزة بمختلف وسائل سياحة ورياضة الشتاء؛ احواض وهضاب المناطق الواقعة عند اقدام جبال الألب السلوفينية حيث تنتشر غالبية المدن السلوفينية؛ سلسلة هضاب منطقة كارست المكسوة بالغابات والواقعة في الجهة الجنوبية-الغربية؛ وساحل إيستريا الضيق والذي تقع عليه مدينة كوبر والميناء.
وبسبب هذا الموقع الذي تميز، حتى ١٩١٨، بوجوده بين المراكز الداخلية الحيوية للامبراطورية النمساوية-الهنغارية وبين مرفأ هذه


HONGRIE
SLOVÉNIE
LJUBLJANA
ZAGREB
CROATIE
ROUMANIE
VOÏVODINE
BELGRADE
BOSNIE-
HERZÉGOVINE
SARAJEVO
SERBIE
YOUGOSLAVIE
MONTÉNÉGRO
KOSSOVO-
METOHIJA
SKOPJE
MACÉDOINE
TIRANA
ALBANIE
ITALIE
ABRUZZES
MOLISE
MARCHES
POUILLES
GRÈCE


Slovenija

الامبراطورية الأهم، أي مرفأ تريستا على البحر الادرياتيكي، فقد تمتعت سلوفينيا بتجهيزات نهرية وبصناعات مبكرة نسبة إلى غيرها من اجزاء يوغوسلافيا السابقة. وقد عرفت سلوفينيا كيف تستفيد من سبقها هذا، فحققت، منذ ١٩٨٠، دخلاً وطنيًا يعادل ضعفي الدخل الوطني الذي حققته باقي دول وبلدان يوغوسلافيا السابقة. وتمتلك سلوفينيا من الثروات الباطنية القصدير والزنك والزئبق والفحم والنفط (النفط متوافر خاصة في منطقة ليندافا Lendava) والخشب. وصناعاتها متنوعة: الحديدية، النسيجية، والالكترونية. وتعاني زراعتها (تربية المواشي، الفواكه، الكرمة) ضيقًا في اسواق التصدير، إذ ان اسواقها الطبيعية هي بلدان يوغوسلافيا السابقة التي تعيش ازمات سياسية وعسكرية كبرى. وأهم مناطقها السياحية: الساحل (على الادرياتيكي)، بحيرات بليد وبوهيني، منطقة بوهوري وكرانيسكا غورا. الحميات الطبيعية في تريغلاف، ومغارة بوستونيا. تشكل الصناعة ٥٦٪ من الناتج العام (ويعمل فيها ٤١٪ من اليد العاملة)؛ والزراعة ٤،٥٪ (١٨٪ من اليد العاملة).
وضعت سلوفينيا عملتها الوطنية (ووحدتها النقدية هي «تولار») اواخر ١٩٩١، معتمدة كأساس لها الوحدة النقدية للمجموعة الاوروبية «إيكو» Ecu

نبذة تاريخية

في القرون الوسطى: في القرن الرابع، جاء السلوفينيون، وهم شعب سلافي، وسكنوا البلاد المعروفة اليوم باسمهم، لكنهم عجزوا عن إقامة دولة موحدة لهم، فرضخوا لسلطة بافاريا (Baviere، في الالمانية Bayern) ابتداء من العام ٧٤٥.

في القرن الثامن، دخلت المسيحية (على يد أسقف سالزبورغ) واعتنقها جميع السلوفينيين على مدى قرنين. غزا المجريون البلاد في القرن العاشر-الحادي عشر. وبين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، عمل آل هابسبورغ على جمع شتات امراء سلوفينيا، كما عملوا على طبع البلاد بالطابع الجرماني.

في التاريخ الحديث: استنجدت بعض المقاطعات السلوفينية (متأثرة تاريخيًا بالثقافة الفرنسية) بفرنسا ضد هيمنة الثقافة الالمانية، وذلك بين ١٨٠٩ و١٨١٣، التاريخ الذي عادت فيه للحماية النمساوية.

في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٨، أعلن استقلال اقاليم سلوفينيا وكرواتيا وصربيا بانسلاخها عن الامبراطورية النمساوية-الهنغارية المهزومة في الحرب. وبعد نحو خمسة ايام، دخلت الجيوش الايطالية



آثار تعود الى العصر الروماني.

والبريطانية والفرنسية واحتلت مناطق غوريتسا وغراديسكا وإيستريا وتريستا وجنوب غربي كارنيولا.

في اول كانون الاول ١٩١٨، أصبحت سلوفينيا جزءًا من مملكة تضم الصرب والكروات والسلوفينيين. وفي ١٢ آب ١٩١٩، ضمت إليها منطقة تسمى «ما بعد مورا». وبعد نحو شهر واحد عقدت معاهدة سان جرمان تم بموجبها ضم وادي ميزيكا وجيزيرسكو في كارنثيا وجنوبي ستيريا (أصبحت يوغوسلافيا في ١٩٢٩). وفي ١٣ تشرين الاول ١٩٢٠، جرى استفتاء في كارنثيا الجنوبية الشرقية (سلاف ٧٠٪، وألمان ٣٠٪) اقترع ٥٩،١٤٪ لمصلحة ضم كارنثيا إلى النمسا. وبعد شهر واحد، عقدت معاهدة رابالو كسبت ايطاليا بموجبها كونتيات (قديمة) غوريتسا، غراديسكا، تريستا وجنوب غربي كارنيولا.

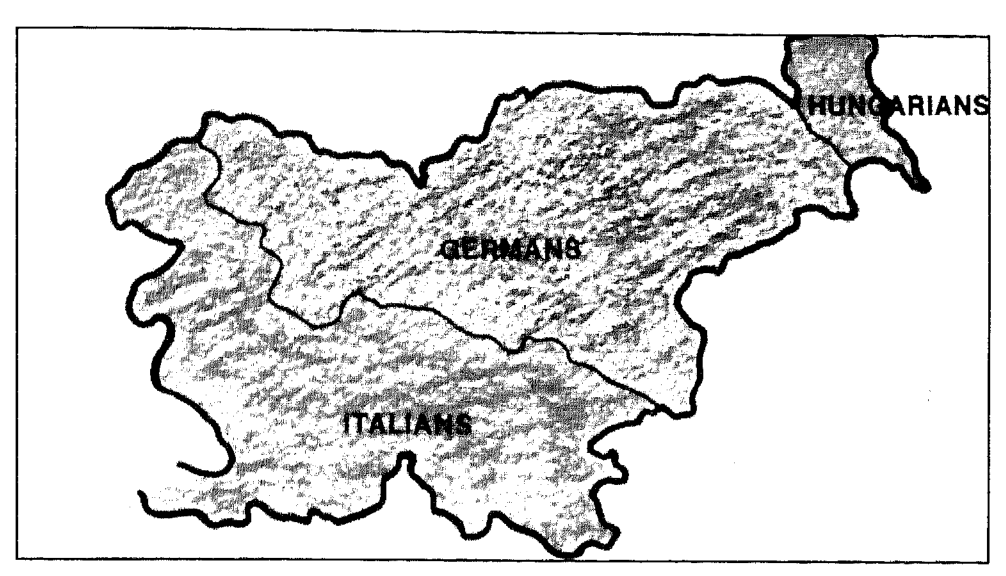
في الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا بين ١٩٤١ و١٩٤٥ قسمت سلوفينيا بين المانيا وايطاليا. وفي ١٠ شباط ١٩٤٧، عقدت معاهدة سلام ايطالية-يوغوسلافية استردت يوغوسلافيا بموجبها قسمًا من فينيسيا وإيستريا، فضمّ الجزء الشمالي إلى سلوفينيا والجزء الجنوبي إلى كرواتيا.

كرونولوجيا السنوات الاخيرة: في ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٨، تظاهر نحو ١٥ ألف شخص في العاصمة ليوبليانا نصرة لحقوق الانسان (وكانت يوغوسلافيا لم ينفرط عقدها بعد).

في ١١ كانون الثاني ١٩٨٩، انشقت مجموعة سياسية «مستقلة» عن الحزب الشيوعي وأعلنت معارضتها له.

في ٨ نيسان ١٩٩٠، جرت انتخابات عامة؛ وفي ٢ تموز اعلنت سلوفينيا انفصالها عن يوغوسلافيا. وفي ٢٣ كانون الاول اجرت استفتاء عامًا صوّت ٨٨،٢٪ تأييدًا للاستقلال.

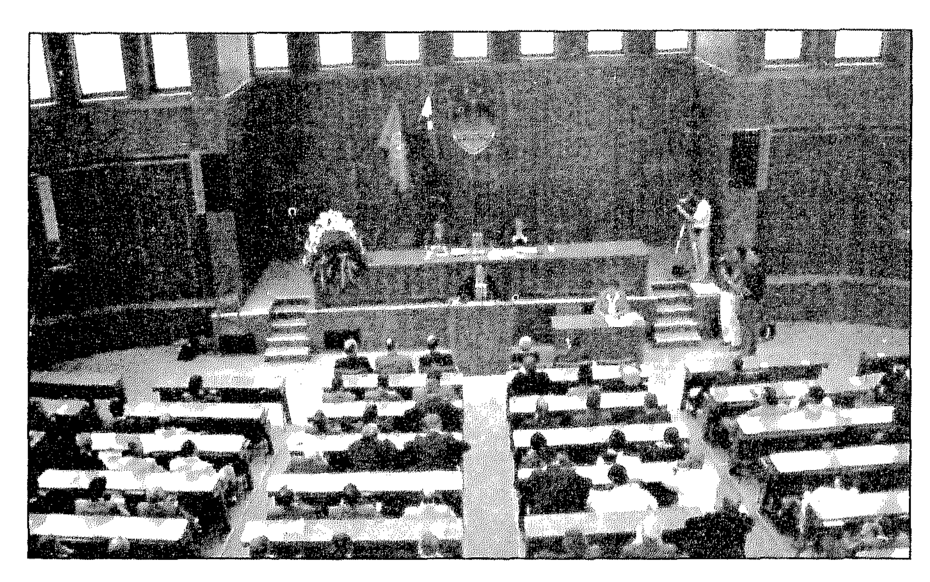
في ٢٥ حزيران ١٩٩١، أعلنت



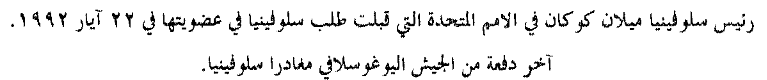
في ١٩٤١، قسمت سلوفينيا بين الايطاليين والالمان والهنغاريين.

سلوفينيا استقلالها واوقفت المبلغ المترتب عليها للخزينة الفدرالية (١٢٪ من مجموع المبلغ)؛ لكن في ١٠ تموز (أي بعد اسبوعين من اعلان الاستقلال) صدّق البرلمان بأغلبية ١٨٩ صوتًا ضد ١١ على اتفاقية «بريوني» التي تقضي بتعليق اعلان الاستقلال لمدة ثلاثة أشهر، تحت ضغط رفض الحكومة الفدرالية لاستقلال سلوفينيا وكرواتيا، وتدخل المجموعة الاوروبية. فاندلعت حرب أهلية، وتدخل الجيش الفدرالي. وبين ٢٦ حزيران و١٨ تموز، انقادت صربيا للاعتراف باستقلال سلوفينيا، وانسحب الجيش الفدرالي منها. وكانت دول المجموعة الاوروبية أولى الدول التي بادرت إلى الاعتراف باستقلال سلوفينيا (١٩٩٢)، وكانت سلوفينيا أولى الجمهوريات المستقلة التي انبثقت مما كان يشكل في السابق جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية، كما كان استقلالها متميزًا إلى حد عن غيره من عمليات الانفصال، وذلك من حيث انه كان سلميًا إلى درجة كبيرة (رغم بعض عمليات الاقتتال التي استغرقت نحو اسبوعين، حزيران-تموز ١٩٩١) بالمقارنة مع ما حدث مثلاً عقب استقلال كرواتيا، أو طبعًا مع الحرب التي دارت في البوسنة.

وأولى ممارسات السيادة على صعيد العلاقات الخارجية التي قامت بها الجمهورية السلوفينية طلبها الذي قدمته، في ربيع ١٩٩٣، إلى الامم المتحدة من اجل تخفيف الحظر التسليحي الدولي الذي كان مفروضًا على كل الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة واخراجها (سلوفينيا) من اطار ذلك الحظر لتمكينها من التعاقد على اسلحة ومعدات عسكرية قالت إنها تحتاج إليها لتزويد قواتها العسكرية المستقلة التي تمّ إنشاؤها عقب انفصالها عن الاتحاد اليوغوسلافي (وكانت سلوفينيا، في حينه أي في ربيع ١٩٩٣، تتمتع بقوات مسلحة قدّر مجموعها بنحو ١٥ ألف جندي). وفي طلبها هذا، ركزت سلوفينيا على واقع انها ليست طرفًا

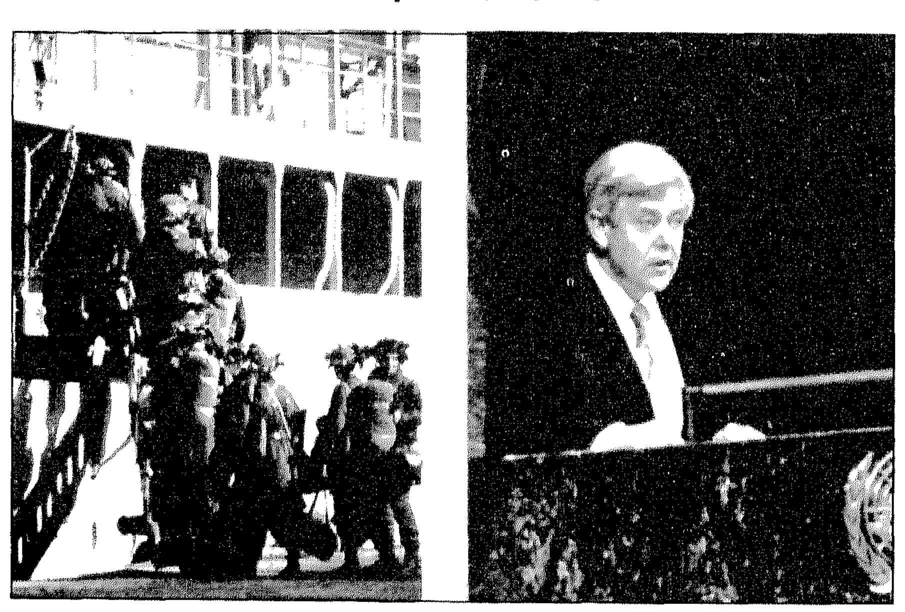


الجميعة العامة لجمهورية سلوفينيا في جلسة تصديق الدستور الجديد في ٢٣ كانون الاول ١٩٩١.



رئيس سلوفينيا ميلان كوكان في الامم المتحدة التي قبلت طلب سلوفينيا في عضويتها في ٢٢ آيار ١٩٩٢.

آخر دفعة من الجيش اليوغوسلافي مغادرا سلوفينيا.



في أي نـزاع كـان دائـرًا في اجـزاء يوغوسلافيا السابقة.

في نيسان ١٩٩٣، استقبلت سلوفينيا إحدى أكبر موجات اللاجئين المسلمين البوسنيين جراء الحرب في البوسنة، فوصل عددهم فيها إلى ١٢٠ ألف لاجىء توزعوا على ٥٧ مخيمًا. وتميزت سلوفينيا بأنها كانت «المنطقة الأساسية التي عومل فيها اللاجئون المسلمون معاملة لائقة وكأفضل ما يمكن بفضل سياسة الحكومة في هذا الشأن ومساعدة الصليب الاحمر السلوفيني». وكان للموقف السلوفيني السياسي المؤيد للبوسنة، والموقف الانساني ازاء اللاجئين البوسنيين اثر إيجابي في عدد كبير من الدول الاسلامية في العالم، كما كان مدخلاً لزيارة وزير الشؤون الاسلامية والاوقاف والدعوة والارشاد السعودي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي لسلوفينيا (اوائل تشرين الثاني ١٩٩٤) حيث استقبله رئيس الجمهورية ميلان كوكان، ورئيس الوزراء يانيس درنوفشيك.

في ١٩٩٦، جرت في سلوفينيا انتخابات برلمانية، فجاء الحزب الليبرالي الديمقراطي الذي يتزعمه رئيس الوزراء يانيس درنوفشيك (وكان درنوفشيك ممثل سلوفينيا في آخر هيئة رئاسة ليوغوسلافيا السابقة ورئيسًا لها في ١٩٨٩) في المقدمة، ما وفّر للائتلاف الحكومي ان يتواصل في دورة أخرى. ومرّت هذه الانتخابات بهدوء، وهذا ما اعتبرته الاوساط الدولية دليلاً على ان سلوفينيا تلتزم المعايير الديمقراطية ما يمنحها افضل الفرص بين دول يوغوسلافيا السابقة للاقتراب من الاتحاد الاوروبي والاندماج مع جميع المؤسسات الاوروبية والدولية. واللافت كان خلو الحملة الانتخابية من التهجم على الزعماء الذين كانوا من كبار المسؤولين في النظام الشيوعي السابق، ومنهم رئيس الجمهورية ميلان كوكان (أو كوتشان) ورئيس الوزراء يانيس درنوفشيك، كما كان لافتا الاقبال الضعيف (أقل من ٥٠٪) على الانتخابات.

وجاءت هذه الانتخابات في سلوفينيا في سياق موجة انتخابات شهدتها دول اوروبا الشرقية والبلقانية (في ١٩٩٦) التي كانت تحكمها انظمة شيوعية إلى ما قبل سنوات قليلة. وقد أدت غالبية هذه الانتخابات، في بلدان كثيرة (أخصها صربيا) إلى موجة احتجاجات وصلت، أحيانًا، إلى مواجهات عنيفة. ووصلت هذه الموجة إلى سلوفينيا، إذ تجمع زهاء ألف متظاهر، في ٧ شباط ١٩٩٧، من مؤيدي «حركة المجتمع المدني» المعارضة امام البرلمان في ليوبليانا العاصمة، وتركزت شعاراتهم على المطالبة بوضع حد لتفشي الفساد». وحاول المتظاهرون اقتحام مبنى البرلمان لكن شرطة مكافحة الشغب صدّتهم. وكان رئيس الحكومة المستقيلة يانيس درنوفشيك قد فشل في نيل ثقة البرلمان على تشكيله لحكومة يسار الوسط جديدة.

مناقشة:
علاقات سلوفينيا-كرواتيا-صربيا

من مقال مطول كتبه جميل روفائيل («الحياة»، العدد ١١٣١٦، تاريخ ٨ شباط ١٩٩٤، ص ٧).

تسكت وسائل الاعلام العالمية، جهلاً أم عمدًا، عن النزاع الكرواتي-السلوفيني الخفي، الذي يمكن ان يثور بركانه في أية لحظة.

لقد صرح وزير خارجية جمهورية سلوفينيا لويزي بيتيرلي اخيرًا، ان «العلاقاتت بين سلوفينيا وكرواتيا مقطوعة كليًا، بسبب الخلافات المتنوعة، وقد انفصمت عرى التحالف السابق المتين بيننا، الذي كان على أشده أثناء تفكك يوغوسلافيا».

وتطرق الوزير إلى إحدى نقاط الخلاف الرئيسية مشيرًا إلى مسألة الحدود في خليج بيران الذي يشكل القسم المهم من الـ٤٦كلم التي هي كل الساحل السلوفيني على البحر الادرياتيكي، وتعتبر سلوفينيا هذا الخليج ملكًا لها، بينما تصر كرواتيا على تقسيمه متذرعة بنتوء من اراضيها يحيط به من الجهة المقابلة للساحل.

ومشاكل الحدود البرية بين البلدين كثيرة، وقضية محطة الطاقة الكهربائية النووية المسماة «كرشكو» في الاراضي ا لسلوفينية التي أنشئت أصلاً في عهد يوغوسلافيا السابقة لتمد الجمهوريتين بالكهرباء تزداد تعقيدًا، إذ تعتبرها سلوفينيا ملكًا لاراضيها بينما تصر كرواتيا على ان لها حصة أبدية فيها، علمًا ان هذه المحطة تبعد عن الحدود الكرواتية نحو عشرين كلم.

وتطالب كرواتيا بإعادة مبلغ يزيد عن بليون مارك ألماني كان المدخرون الكروات قد وضعوها في فرع بنك ليوبليانا السلوفيني، بينما لا تعير سلوفينيا اهتمامًا لذلك باعتباره جزءًا من المشاكل المالية لعموم يوغوسلافيا السابقة التي ما تزال معلقة.

وبلغ التوتر إلى حد أن حذر رئيس وزراء سلوفينيا يانيس درنوفشيك في كلمة بثها تلفزيون العاصمة ليوبليانا مطلع العام ١٩٩٤، القيادة الكرواتية انه بمقدور حكومته ان تتخذ موقفًا أشد حزمًا في حل المشاكل القائمة بين الطرفين، واتهم درنوفشيك كرواتيا بـ«أنها السبب في ما وصلت إليه العلاقات بين البلدين من ترد لأنها ترفض رسم حدود بحرية جديدة».

وفي ١٢ كانون الثاني ١٩٩٤، اجتمعت لجنة الدولة السلوفينية التي تضم رئيس الحكومة ووزراء الدفاع والخارجية والداخلية، وقررت قطع التيار الكهربائي من محطة كرشكو إلى كرواتيا بذريعة أنها لم تسدد فاتورة الكهرباء البالغة نحو ٥٠ مليون مارك الماني. وردت كرواتيا بأنها لن تقف مكتوفة الايدي «لأن المحطة بكاملها ملك مشترك للجمهوريتين، فهي أنشئت كمشروع فدرالي في عهد يوغوسلافيا السابقة، وستأخذ الكهرباء بغض النظر عن التهديدات السلوفينية».

ويبدو ان كرواتيا حذرة الآن في ردها الشامل على سلوفينيا بسبب مشاكلها الكثيرة مع الصرب وفي البوسنة وداخل بلدها. لكن إلى متى يطول السكوت؟

بعد تأجيلها ثلاث مرات، تمت زيارة رئيس وزراء كرواتيا نيكيتسا فالينتيتش، وهي الأولى من نوعها منذ انفصال سلوفينيا وكرواتيا عن يوغوسلافيا السابقة، يرافقه وزير خارجية حكومته ماتي غرانتش، إلى ليوبليانا في ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٤، وبعد محادثات طويلة مع رئيس الوزراء السلوفيني لم يتم فيها حل حاسم لأي مشكلة، وقد وصفها الاعلان المشترك بأنها خطوة مهمة باتجاه الاتفاق.

وعلق المراقبون على ذلك، أن الاعلان اتصف باللغة الدبلوماسية التي تقتضي المجاملة وأنه أوحى إلى أن الخلافات السلوفينية الكروانية ستجر سنين طويلة.

وإذا كان رئيسا الحكومتين قد توصلا إلى شيء من الاتفاق من اجل استمرار تزويد كرواتيا بالكهرباء بالسبل الطبيعية فإنه جاء بهدف تبريد هذه القضية الساخنة التي يمكن ان تشعل الحرب بين الطرفين، ولجأ في شأنها إلى حل وسط يقضي بأن تدفع كرواتيا لسلوفينيا ١٤ مليون مارك الماني، والمتبقي من الديون الخاصة بالكهرباء يسدد باقساط شهرية لا تتجاوز ٣،٥ مليون مارك شهريًا، مع محاولة مستقبلية لحل هذه المسألة وقضية مدخرات الكروات في بنك ليوبليانا في آن واحد. أما ا لامور الأخرى سواء عائدية محطة كرشكو أو غيرها فلم يذكرها الاعلان المشترك واعتبرت الاحزاب السلوفينية المعارضة موقف حكومة بلادها تجاه كرواتيا بأنه «يعبر عن نهج يتسم بالخوف والحذر وتأجيل اتخاذ القرارات والتلكؤ في الرد على المواقف، وان كرواتيا تعمل على استغلال هذا التردد بأفضل صورة لمصلحتها».

وبدا واضحًا ان سلوفينيا ليست مرتاحة لتطبيع علاقات جارتها كرواتيا مع الصرب. فقد رحبت وزارة الخارجية السلوفينية به بلهجة اتسمت بالبرود والشكوك في ما وصفت وسائل الاعلام فيها، حتى المؤيدة للحكومة، هذا التطبيع بأنه «مساومة مصلحية بين تودجمان وميلوشيفيتش اللذين بقدر ما يريدان السلام بينهما فهما تاجران ماهران يعرفان كيف يتقاسمان كل شيء بالمناصفة. أما الديون اليوغوسلافية السابقة فعلى الجمهوريات الاخرى ان تدفعها». وبالمناسبة، النمسا ليست مرتاحة هي الاخرى لتطبيع العلاقات الصربية الكرواتية. فقد حذّر معلق التلفزيون الرسمي النمساوي الرئيس تودجمان من انه «دخل لعبة خطيرة من خلال تقربه من صربيا».

وتنتقد سلوفينيا الصرب بعنف وتدعو إلى القطيعة معهم لأنهم «المسؤولون عن كل ما حدث ويحدث». ولكن الآخرين يعلمون جيدًا ان علو صوت السلوفينيين ليس نابعًا من قوتهم وإنما لأن سلوفينيا هي الوحيدة بين الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة التي ليست لها حدود مع جمهورية الصرب، ولأنها أكثر هذه الجمهوريات نقاءً عرقيًا وتخلصًا من المشاكل القومية.

ولا شك ان السلوفينيين هم الأكثر تضررًا اقتصاديًا بانهيار يوغوسلافيا. فعلى رغم قلة عددهم فقد كانوا الاسياد فيها إذ أقيمت في اراضيهم أهم المنشآت الصناعية وتجمعت عندهم الاموال إلى حد اعتبروا أرقى اليوغوسلاف، ومع ان موارد سلوفينيا الزراعية والمنجمية ضئيلة إلا انها كانت تصدر إلى الخارج، وفق الاحصاءات الرسمية، نحو ٢٢٪ من مجمل صادرات يوغوسلافيا السابقة في حين ان سكانها نحو ٨٪ من مجموع سكان الاتحاد اليوغوسلافي السابق.

ويقال ان الفضل في ذلك يعود إلى ما وفره لها الشخص الثاني بعد تيتو وهو إدوارد كارديل (سلوفيني) إضافة إلى أن الجمهوريات اليوغوسلافية الأخرى كانت سوقًا واسعة لمصنوعاتها، إذ كانت تقدم لسلوفينيا المواد الاولية بأسعار زهيدة، وبعد تصنيعها تبيعها لها بأثمان باهظة. وفي هذا المجال ما يزال المقدونيون يرددون: كنا نزرع العنب ونحرص عليه أشهرًا ثم نحوله إلى نبيذ ونرسله إلى سلوفينيا بالحاويات، وهناك يتم فقط توزيعه على القناني التي تحمل ورقة «صنع في سلوفينيا» وتبيعه لنا ولغيرنا بأكثر من ضعف الثمن الذي اشترته.

السؤال هنا، لماذا شاء السلوفينيون الانفصال؟ الحقيقة انهم وجدوا تضاؤل مكانتهم بصورة عامة مع تعاظم قوة الصرب في نهاية الثمانينات، وعرضوا ان يقتصر الاتحاد اليوغوسلافي على الجوانب الاقتصادية، الأمر الذي رفضه الصرب بشدة. وهنا يكمن أحد اسباب حقدهم الشديد على الصرب، حتى انهم رفضوا بعنجهية غريبة اعتراف رئيس وزراء الاتحاد اليوغوسلافي (جمهوريتي الصرب والجبل الاسود) السابق، الصربي الاميركي الجنسية الذي عرف باعتداله، ميلان بانيتش، بدولتهم الذي ارسله إليهم برقيًا في اواسط ١٩٩٢.

مدن ومعالم

* **إيستريا Istrie**: شبه جزيرة على البحر الادرياتيكي، بين خليج تريستا وخليج كفارنر. مساحتها ٣٥٠٠كلم م.، ويقطنها نحو ٣٢٠ ألف نسمة. تمتلك كرواتيا الجزء الأكبر منها، إضافة إلى مرفأ بولا، في حين تمتلك سلوفينيا الجزء الشمالي والجزء الذي تقع عليه مدينة كوبر.

ضمتها روما في العام ١٧٧ق.م.، واحتلها، ابتداء من القرن الخامس، القوطيون، ثم الهون، ثم السلافينيون وبعدهم اللومبارديون. وفي القرن الحادي عشر، غزتها البندقية وبقيت تسيطر عليها حتى ١٧٩٧ عندما اكتسبتها منها النمسا التي تخلت عنها لنابوليون بونابرت في ١٨٠٥، ثم استعادتها في ١٨١٥. وجاءت معاهدة رابالو (١٩٢٠) لتعيدها إلى ايطاليا، وضُمت إلى يوغوسلافيا في نهاية الحرب العالمية الثانية بموجب معاهدة باريس (١٠ شباط ١٩٤٧) ما جعل أكثر سكانها الايطاليين يغادرونها إلى ايطاليا. وعلى أثر انهيار الاتحاد اليوغوسلافي، كانت شبه جزيرة إيستريا من نصيب كرواتيا (في جزئها الأكبر) وسلوفينيا.

وهناك مدينة قديمة في رومانيا (قرب مدينة كوستنتا) تحمل الإسم نفسه «إيستريا» Istria. وقد تأسست في القرن السابع ق.م. على يد مستوطنين اغريقيين. وهي أقدم المدن على الساحل الروماني، وكانت أهمها اقتصاديًا وثقافيًا في منطقة الدانوب.

* **بوستونيا Postojna**: مدينة (ومنطقة) في سلوفينيا، شهيرة بوجود إحدى أكبر المغارات الطبيعية في العالم. أولى الكتابات عن هذه المغارة تعود إلى القرن الثالث عشر. وأول كتيّب خصص للتعريف بها صدر في ١٨٢١. وقد وجدت آثار في هذه المغارة تدل على انها استعملت بواسطة الاحياء الحيوانية أو الانسانية من ايام العصر الجليدي، كما وجدت آثار لرسوم نقشت بيد الانسان وأكثرها موجودة عند مدخل المغارة. وبعد ان أصبحت المغارة مركزًا يشد السائحين بدأت الانارة فيها باستعمال الشموع حتى ١٨٣٠ حيث ثُبتت بعدها فوانيس زيتية، ثم استبدلت بالانارة الكهربائية ابتداء من ١٨٨٤. وحتى نهاية القرن التاسع عشر أصبح طول المغارة المكتشفة نحو ١٣كلم. ويقدر العلماء ان طول مغارة بوستونيا يبلغ نحو ٢١كلم.

* **كوبر Koper**: مدينة سلوفينية. كوبار Kopar في اللغة الكرواتية، وكاب إيستريا (رأس إيستريا) في الايطالية. تقع على الادرياتيكي. تعد نحو ٢٧ ألف نسمة. كاتدرائية وقصر مبنيان على الطراز القوطي. مرفأ للصيد والتجارة.

بالقرب من كوبر مدينتان أخريان: إيزولا وبيران. والغالبية الساحقة من سكان المدن الثلاث ايطاليون.

* **ليوبليانا Ljubljana**: عاصمة سلوفينيا. في الالمانية «ليباخ» Laibach. تعد نحو ٣٣٠ ألف نسمة. تقع عند اقدام جبال الألب الشرقية عند ملتقى وادي ساف، الذي يودي إلى مدينة زغرب (عاصمة كرواتيا)، ومحور الطريق الذي يصل ما بين فيينا (عاصمة النمسا) وتريستا. لعبت ليوبليانا دورًا تجاريًا مهمًا منذ القديم، ولكن الصناعة لم تدخل إليها إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (خاصة الصناعة الالكترونية)، شهيرة بكنائسها القوطية.

خضعت، على التوالي، للفرنكيين (الفرنسيين)، للسلاف، لدوق بافاريا، للنمسا، كما كانت مقرًا للحكومة العامة الفرنسية الخاصة بالمقاطعات الإيلليرية بين ١٨٠٩ و١٨١٣.

بعد تأجيل مؤتمر تروبو Troppau، انعقد في ليوبليانا مؤتمر ضم دول الحلف المقدس الخمس من ٢٤ كانون الثاني إلى ١٢ ايار ١٨٢١. وقرر مترنيخ (مندوب النمسا) مساندة ملك نابولي فرديناند الاول ضد النظام الدستوري الذي قام على اساس انتفاضة ١٨٢٠. وبدءًا من ١٩٤٥ اصبحت ليوبليانا عاصمة لسلوفينيا التي كانت إحدى الجمهوريات اليوغوسلافية الست، والتي اعلنت استقلالها في ١٩٩١.

أما عن مؤتمر تروبو المذكور، فقد عقد في هذه المدينة (تروبو، عاصمة سابقة لسيليزيا النمساوية، وتدعى اليوم أوبافا، وهي في الجمهورية التشيكية) في ١٨٢٠، وضم الدول الاوروبية الخمس التي شكلت الحلف المقدس (النمسا، فرنسا، بريطانيا، بروسيا وروسيا)، والتي تنادت في هذا المؤتمر لوضع حد لاتساع رقعة الحركات الثورية في البرتغال واسبانيا ونابولي وتورين... فقررت الانتهاء من هذه الحركات إما عن طريق الوساطة والدبلوماسية، وإما عن طريق القوة. ورفعت جلسات مؤتمر تروبو، ثم عادت لتستأنف في ليوبليانا.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **درنوفشيك، يانيس**: راجع النبذة التاريخية، والمناقشة.

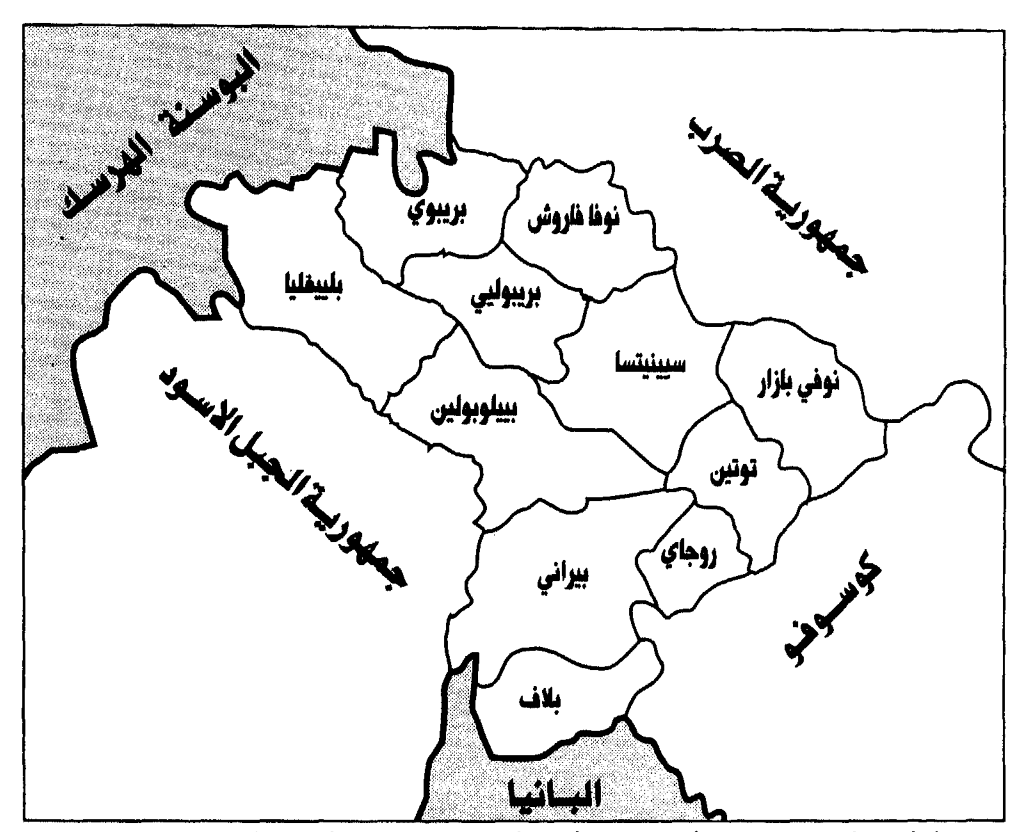
* **كارديل، ادوارد Kardlj,Ed.** (١٩١٠-١٩٧٩): قائد ومفكر سياسي شيوعي يوغوسلافي من سلوفينيا. انتمى إلى الحزب الشيوعي في العشرينات، وبرز قائدًا في المقاومة اليوغوسلافية للاحتلال الالماني اثناء الحرب العالمية الثانية، واصبح أحد المقربين من جوزف تيتو، والمنظر الرئيسي في يوغوسلافيا بعد الحرب ولا سيما بالنسبة إلى طروحات «الطريق اليوغوسلافي للاشتراكية» المستقلة عن المحورين الرئيسيين لها: موسكو وبكين، كما لعب دورًا في بلورة الخطوط العامة للسياسة الخارجية اليوغوسلافية والعلاقات مع الاحزاب الشيوعية الأخرى. رشحه الكثيرون لخلافة تيتو رغم انه كان يعلن دائمًا تفضيله البقاء حيث هو، خاصة في المجال الثقافي والفكري.

ولد كارديل في ليوبليانا (عاصمة سلوفينيا) في عائلة عمالية اشتراكية. أتمّ دراسته في معهد المعلمين، و لم يمارس التعليم مكرسًا وقته للنشاط الحزبي والسياسي. انضم في السادسة عشرة من عمره إلى الشبيبة الشيوعية، وأصبح منذ ١٩٢٩ سكرتير اللجنة الاقليمية لهذه المنطقة. وكان قبل ذلك بعام قد انضم إلى الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذي كان محظورًا. واعتقل بسبب نشاطه وسجن عامين (١٩٣٠-١٩٣٢)، ولكنه، ما لبث، بعد الافراج عنه، ان اندفع ليعيد تنظيم

الحزب في سلوفينيا، وترقى بسرعة ليصبح سكرتير اللجنة الاقليمية للحزب. وإلى جانب ذلك، برز كارديل كمثقف ثوري من خلال نشره لعدة مجلات وصحف كان يوقع فيها بأسماء مستعارة. ارسله الحزب في ١٩٣٤ إلى موسكو حيث درس في معهد لينين، وعلّم في الجامعة الشيوعية المتخصصة بالاقليات القومية في الغرب. بعد عودته إلى يوغوسلافيا، وتنفيذًا لتعليمات الحزب، أسس حزبًا شيوعيًا سلوفانيًا (نيسان ١٩٣٧) كان هو عضوًا في لجنته المركزية. إلا ان مساهمته الأساسية كانت في عملية اعادة تنظيم الحزب الشيوعي اليوغوسلافي التي كان تيتو قد بدأها منذ ١٩٣٧، وقد وقف منذ ذلك الحين إلى جانب تيتو وظل وفيًا له طيلة حياته. كان عضو هيئة الاركان العليا أثناء الحرب العالمية الثانية (ضد الاحتلال الالماني).

وبعد انتهاء الحرب، لعب دورًا اساسيًا في اقامة النظام الاشتراكي وفي تنظيم أطره ومؤسساته. شغل منصب نائب رئيس الحكومة في اول وزارة شكلها تيتو بعد الحرب، ومنصب وزير العلاقات الخارجية من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٣ (وهي الفترة التي تأزمت فيها العلاقات مع ستالين) ونائب رئيس الوزراء من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٣. وظل يحتل باستمرار المركز الثاني بعد تيتو إضافة إلى منصب عضو مجلس الدولة وعضو رئاسة رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف، حتى وفاته.

ومن أهم مؤلفاته: «الاشتراكية والحرب» (١٩٦٠)، «في الديمقراطية الشعبية» (١٩٤٩)، «الديمقراطية الاشتراكية في التجربة اليوغوسلافية» (١٩٥٤)، وغيرها .



خريطة السنجق في جمهوريتي صربيا والجبل الاسود («الحياة»، العدد ١١٢٧٩، تاريخ اول كانون الثاني ١٩٩٤، ص ١٤).

السنجق

نبذة عامة

الاسم: «السنجق» إسم اطلقه الاتراك العثمانيون على هذه المنطقة التي حكموها من ١٤٦١ حتى ١٩١٢، ويعني «اللواء».

الموقع: منطقة تحيط بها البوسنة–والهرسك من الشمال، وصربيا من الشرق، وإقليم كوسوفو وألبانيا من الجنوب، والجبل الاسود من الغرب.

الوضع السياسي والتقسيم الاداري: تتقاسم السيادة عليها صربيا والجبل الاسود (مونتينيغرو)، والاثنان يشكلان دولة واحدة. هي «الاتحاد اليوغوسلافي» الذي تشكل بعد انهيار يوغوسلافيا السابقة.

ظلت منطقة السنجق، على رغم خصائصها الجغرافية والتاريخية والقومية والدينية والثقافية، بعيدة عن أي ادارة ذاتية، منذ ان غادرها العثمانيون في اعقاب مؤتمر برلين ١٨٧٨، وأدّى الضغط المتواصل عليها، بعد ان تقاسمتها صربيا والجبل الاسود، ان تفقد الكثير من سكانها واصولها ومعالمها المتوارثة.

تتكون منطقة السنجق، بحسب التقسيم الاداري الحالي، من ١١ بلدية، تقع ست منها في جمهورية صربيا وهي: نوفي بازار، تويتن، سيينيتسا، بريبوليي، نوفا فاروش، وبريبوري؛ وتقع الخمس الأخرى في جمهورية الجبل الاسود، وهي: بلاف، روجاي، بيراني، بيلوبوليي وبلييفيا. والسنجق يكوّن، رغم ذلك، وحدة جغرافية مترابطة.

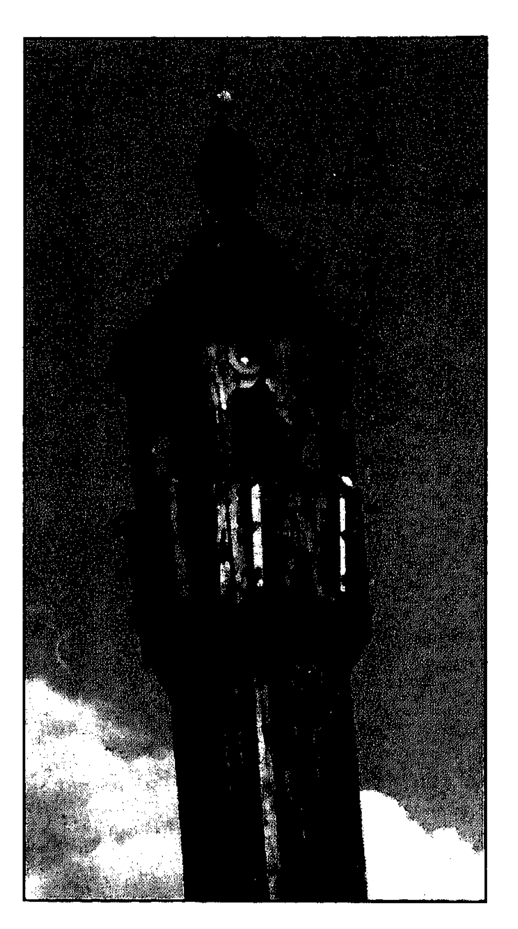
المساحة: ٨٦٨٧كلم م.، أي نحو ٨،٥٪ من مجموع اراضي جمهوريتي الصرب والجبل الاسود.

العاصمة: نوفي بازار. وتشكل، مع منطقتها، وحدة بلدية من الوحدات الست التابعة لصربيا. ويعني إسمها «نوفي بازار» السوق الجديدة.

السكان: يبلغ عدد سكان السنجق نحو ٤٥٠ ألف نسمة، بينهم نحو ٢٥٥ ألف مسلم (بوشناقي)، والباقون (١٩٥ ألفًا) من قوميات أخرى.

كان وضع السنجق، منذ انهيار يوغوسلافيا، وخاصة في سنوات الحرب البوسنية (ولا يزال إلى حد كبير) بالغ الحساسية السياسية والقومية. والحزب الذي يتمتع بالسيطرة على الساحة السياسية في السنجق هو «حزب العمل الديمقراطي» (الاسلامي)، ويقود من تأسيسه، في ١٩٩٠، حركة المسلمين التي تهدف إلى تحقيق بعض المطالب السياسية والقومية والدينية. وهذا الحزب مرتبط (خاصة إبان الحرب البوسنية) بحزب العمل الديمقراطي في البوسنة-الهرسك الذي يقوده رئيس جمهورية البوسنة-الهرسك علي عزت بيكوفيتش. وزعيم فرع هذاالحزب في السنجق هو الدكتور راسم ليايتش الذي هو أحد القادة الاربعين الذين وقعوا مع الرئيس بيكوفيتش طلب تأسيس الحزب في البوسنة-الهرسك. من مبادىء الحزب في السنجق ان سكان السنجق جزء من الكيان القومي المسلم في منطقة يوغوسلافيا السابقة، وان موقع جميع المسلمين في هذه المنطقة متعلق بالوضع في البوسنة.

ويقدم السنجقيون المسلمون (يكتبون وينشرون) ادلة تاريخية وعرقية على ان مسلمي السنجق هم امتداد لمسلمي البوسنة الذين كان إسمهم المتداول «البوشناق». وطغت تسمية «المسلمين» عليهم خلال عهد يوغوسلافيا السابقة، أي منذ ١٩٤٦. لكنهم على رغم الفصل



مئذنة جامع في نوفي بازار.

الاداري ومحاولات التفريق المتعمدة بين البوسنة والسنجق من جهة، وتجزئة السنجق نفسه بين صربيا والجبل الاسود من جهة أخرى، لم تتأثر (حتى الآن) الارتباطات والعلاقات في المجالات الفكرية والانسانية بين البوسنة وجزءي السنجق.

نبذة تاريخية: أولى العثمانيون، في ايام حكمهم للبلقان، أهمية كبرى لموقع هذه المنطقة (السنجق)، وقاموا عبره بربط العاصمة اسطنبول ببلغاريا ومقدونيا وكوسوفو وصولاً إلى البانيا والبوسنة، حتى يمكن الدفاع عنه بسهولة وضمان بقائه آمنًا ومفتوحًا لبعده عن الأماكن التي كانت فيها جيوب مقاومة من الصرب إلى الشمال

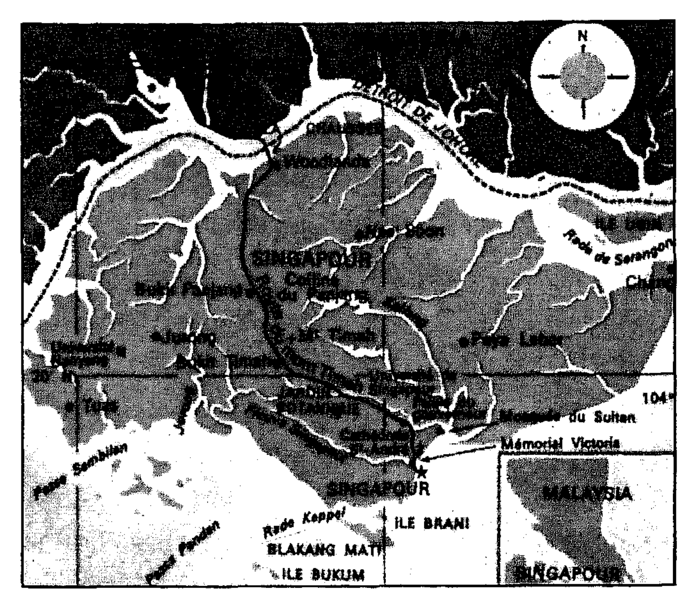
وسكان الجبل الاسود في الجنوب التي شكلت إزعاجًا متواصلاً للعثمانيين في وسط البلقان. وشكل العثمانيون إدارة خاصة لهذه المنطقة منذ ١٤٨٥ تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية واطلقوا عليها «السنجق» (اللواء أو المحافظة) وجعلوا مركزها مدينة نوفي بازار، وعدّوها كأقليم كامل المقومات في ١٥٧٨ باعتبارها احد السناجق السبعة التي تكونت منها ولاية البوسنة (اي السنجق كان سنجقًا من سبعة سناجق كوّنت ولاية هي ولاية البوسنة).

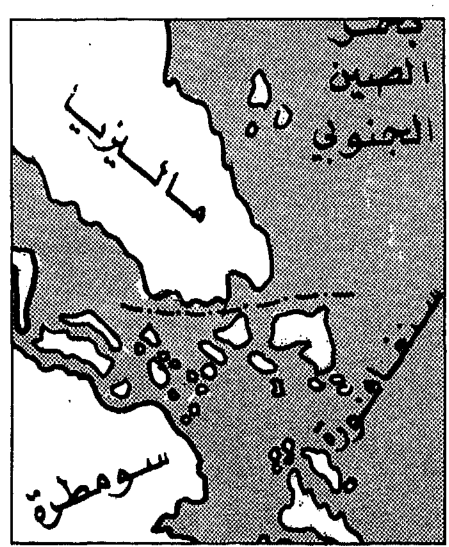
في مؤتمر برلين (١٨٧٨)، اعترفت اوروبا بالحدود التي رسمتها الدولة العثمانية للسنجق الذي يتكون من البلديات الحالية. لكن اوروبا، اعادت تقسيمه اداريًا وسلّمت معظم أجزائه لصربيا والجبل الاسود. وقد جاء ذلك في إطار التغيير الكبير الذي أحدثه المؤتمر المذكور في منطقة البلقان. واقتصرت السيادة العثمانية بعد المؤتمر على قسم قليل من السنجق والبانيا ومقدونيا وبعض المناطق الاخرى في شرقي البلقان وجنوبيه. ونقل المؤتمر البوسنة-الهرسك من ادارة الدولة العثمانية إلى املاك الامبراطورية النمساوية-المجرية، وأقر استقلال صربيا والجبل الاسود.

في ١٩١٢، وبعد سيطرة صربيا والجبل الاسود على كامل السنجق، حدثت منه هجرة جماعية كبيرة إلى تركيا، ثم، اعقبتها هجرة مماثلة في ١٩١٨ بعد تشكيل يوغوسلافيا. وتواصل النزوح بعد ذلك باتجاهين، احدهما إلى تركيا حيث الروابط التاريخية وتشجيع السلطات القومية فيها لذلك، والاتجاه الثاني نحو البوسنة لتوافر مقادير افضل من الأمان بسبب الكثافة السكانية الاسلامية فيها.

حاليًا: الوضع السياسي العام، حاليًا، في السنجق هو الوضع المتماشي مع نتيجة الاستفتاء الشعبي الذي أجري فيه في تشرين الاول ١٩٩١، والذي اقرّ «الحكم الذاتي لعموم المنطقة بجميع خصوصياتها السياسية والادارية والاقتصادية والثقافية وفق المعاهدات الدولية وقرارات حقوق الانسان الاوروبية والعالمية»، وذلك بتأييد ١٨٣ ألف صوت أي ٧٠٪ من عدد المسجلين في اللوائح الانتخابية آنذاك في كل منطقة السنجق.

ومنذ تاريخ هذا الاستفتاء والحوار قائم بين «حزب العمل الديمقراطي» (الاسلامي) والحكومة. توقف في صيف ١٩٩٥، واستؤنف في اوائل ١٩٩٦. كما ان الحزب في السنجق يبذل جهودًا لاقامة تعاون مع الاحزاب الديمقراطية المعارضة وعلى رأسها «حركة النهضة» في صربيا، و«الاتحاد الليبرالي» في الجبل الاسود.





سنغافورة

بطاقة تعريف

الاســم: «سـنغافورة» Singapour، مــن اللغــة السنسـكريتية حيـث «سـنغا بـورا» يعـني «مدينـة الاسد». في القرن الرابع عشر ، أطلـق عليهـا إسـم «تيماسيك» Temasek، وهو إسـم مـاليزي ويعـني «مدينة البحر». أطلق اليابانيون عليها إبان احتلالهم لها في ١٩٤٢-١٩٤٥، إسـم «سيونان» Syonan الذي يعني «شمس الجنوب».

الموقع: ارخبيل من ٥٩ جزيـرة، أكبرهـا جزيرة سنغافورة. في بحر الصين الجنوبي. قبالـة، وعلى مقربة، من ماليزيا شمالاً، وسومطرة الاندونيسية غربًا.

المساحة: المساحة الاجمالية ٦٣٩كلم م. جزيرة سـنغافورة وحدهـا ٥٨٠،٦كلـم م. (بطـول ٤٢كلم وعرض ٣٢كلم). الجـزر الأخرى:

بولاو (٤٥،٦كلم م.)، وتتبع لها تيكونـغ بيسـار (٢٣،٨٨كلم م.)، أوبـن (١٠،١٩كلـم م.)، سـنتوزا (٣،٣٠كلـم م.)، بوكـوم بيسـار (١،٤٥كلم م.)، مرليماو (٠،٥٥كلم م.)، آيـر شاوان (١،٦٥كلم م.). مضيق جوهور Johore يفصل سنغافورة عن ماليزيا وعرضه بـين ٦٤٠م و٩١٤م؛ ومضيـق سـينغ Sing يفصلهـا عـن أندونيسيا.

العاصمة: سنغافورة (راجع «مدن ومعالم»).

اللغات: الماليزية، الصينية، التاميلية، والانكليزية، وكلها لغات رسمية في الدولة.

السكان: كـان تعدادهـم في العـام ١٨٦٠ نحـو ٨١ ألـف نسـمة، منهـم ٦٢٪ مـن الصينيـين. وأعطى الاحصـاء الرسمي لعـدد السـكان الـذي جـرى في ٣٠ حزيـران ١٩٩٠ الرقـم ٣ ملايـين وألفـين و٨٠٠ نسـمة. وكـان هنـاك (في العـام ١٩٩١) مليونـان و٧٦٢ ألفًـا و٧٠٠ شـخص يقيمون في البلاد. منهم ٧٧،٧٪ مـن الصينيـين، و١٤،١٪ مـن المـاليزيين، و٧،١٪ مـن الهنـود، و١،١٪ كذلك مـن حملـة الجنسيات المختلفـة. وتقدّر الاحصاءات ان عدد السكان سـيبلغ نحـو ٣ ملايين نسمة في العام ٢٠٠٠.

نحو ٦٠٪ من مجمـوع السـكان يدينـون بالتاويـة والبوذية، و١٥٪ بالاسلام، و١٢،٦٪ بالمسيحية (منهم ٤٪ كاثوليك)، و٣،٦٪ بالهندوسية.

الحكم: جمهـوري. ودولـة سـنغافورة أقـرب إلى «المدينة-الدولة». الدستور المعمول به صـادر في ١٩٥٨. عضو في الكومنولث. رئيس الجمهورية منتخب من البرلمان لمـدة أربـع سـنوات، يسـمّي رئيس الـوزراء. البرلمـان مـن ٨١ عضـوًا منتخبًـا لمدة خمس سنوات بالاقـتراع الشـامل إضافـة إلى عضوين معينين.

الاحزاب: «حزب العمل الشعبي» الذي نـال في أنتخابات ٣١ آب ١٩٩١ أكثرية المقاعد (٧٧ مقعدًا)، و«الحزب الديمقراطي السنغافوري» (٣ مقاعد)، و«حزب العمال السـنغافوري» (مقعـد واحد).

الاقتصاد: يعمل في الزراعة ١٪ من اليد العاملة، وتساهم الزراعة بـ٠،٠٤٪ من الدخـل العـام؛ وفي الصناعة ٣٤،٥٪ (٢٨،٥٪ من الدخـل العـام)؛ وفي الخدمات ٥٨٪ (٦٣،٥٪). وتشكل النسـاء ثلث اليـد العاملـة. معـدل البطالـة في السـنوات الأخـيرة لم يتجـاوز ١،٥٪. ومعـدل الدخـل الفـردي السـنوي نحـو ١٢ ألفًـا و٥٠٠ دولار. وسنغافورة هـي أول دولـة في العـالم مـن حيـث ارتفاع نسبة دخل قطاع الخدمات.

تبلغ مساحة الاراضي المزروعة بالخضار ١٠،٨٪ من إجمالي المساحة الصالحـة للزراعـة، والغابـات ٢٨،٦٪، والمسـتنقعات ١٥،٧٪. الصناعـة مزدهـرة، والصناعـات الرئيسـة: تجهـيزات المواصلات، والآلات الكهربائيـة والالكترونيـة، ومصـافي البـترول ومنتوجاتـه، والصناعـات الكيميائيـة، والألبسـة، والأصبـاغ والعقاقـير... متوسـط عـدد السياح السـنوي نحـو ٦ ملايـين سائح. وفي سنغافورة ١٣٤ مصرفًا. ويبلغ معدل الاستثمارات الاجنبية السـنوي نحـو ١،٥ مليـار دولار، منهـا نحـو ٥٩٠ مليونًـا مـن الولايـات المتحـدة الاميركيـة، و٤٠٠ مليـون مـن اليابـان، و٢٤٠ مليونًا من اوروبا.

ليس في سنغافورة أي انتاج منجمـي. وصناعتهـا الناشـطة تعتمـد كليًـا علـى المـواد المسـتوردة. وبعكس صناعـة هونـغ كونـغ الـتي هـي صناعـة متخصصة، فإن صناعة سـنغافورة متنوعـة. وقـد شـكّل العـام ١٩٧٩ إشـارة بـارزة علـى طريـق التحول الاقتصادي في سنغافورة. فهـو بدايـة مـا سمّي بـ«الثورة الصناعيـة الثانيـة». وهـدف هـذه الثورة التخلي عـن الصناعـات الخفيفـة والتوجـه نحو الصناعات المتطورة جدًا والتي تتطلب من

جهة مالاً كبيرًا، ولا تحتاج من جهة أخرى إلى يد عاملة وفيرة.
وقد نجحت سنغافورة إلى حد كبير في هذا التحول. فطبقًا للتقرير السنوي الذي أعده الملتقى الاقتصادي الذي انعقد في جنيف (اوائل صيف ١٩٩٦)، فإن الدولة الأكثر تنافسية في العالم حاليًا ليست اليابان الأكثر تطورًا من الناحية التكنولوجية، ولا الولايات المتحدة، أو المانيا ودول الاتحاد الأخرى وكندا التي تؤلف في مجموعها الدول الصناعية الأكثر تقدمًا، بل هي سنغافورة التي نجحت في التحول الى أكبر مركز مالي إقليمي، كما هي أهم مركز تجاري، إلى جانب انها باتت أكبر نقطة تجمع للشركات العالمية متعددة الجنسيات، ويجتذب من الرساميل والاستثمارات ما يفوق ما تجتذبه اية دولة أخرى في العالم، بالمقارنة مع ناتجها المحلي الاجمالي، إلى جانب النجاح الذي على صعيد تطوير منتجات تكنولوجية ذات جاذبية كبيرة في مجال التصدير.
وكان الملتقى الدولي اشار إلى انه استند في تحديد الدولة الأكثر تنافسية، إلى مجموعة معايير أبرزها: الانفتاح، التمويل، البنى التحتية، التكنولوجيا، الادارة، العمالة، المؤسسات المدنية العامة.

نبذة تاريخية

بدايةً، دور تجاري: كانت سنغافورة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر مركزًا تجاريًا مزدهرًا. وتأسيس هذه «الجزيرة-المدينة» يعود إلى ١٢٩٨ لتكون مرفأ لماليزيا. ولكن، إنشاء مرفأ مالاكا أو «ملقة» (الموجود في ماليزيا حاليًا) في بداية القرن الخامس عشر، افقد سنغافورة هذه الأهمية التجارية، وأخذ سكانها يقصدون المناطق القريبة للعمل والعيش.

البريطانيون: في ١٨١٩، وصل إلى الجزيرة السير توماس رافلز وكانت خالية تقريبًا من السكان. فاختار رافلز قرية في الجزيرة كان يسكنها ١٢٠ ملاويًا و٢٠ صينيًا، واتخذها مقرًا إقليميًا لـ«شركة الهند». وفي ١٨٢٦، ضمت هذه القرية (سنغافورة) إلى مركزين آخرين تابعين للشركة هما مركز بنابغ ومالاكا (ملقة) تحت إسم «مستعمرة المضيق» التي تحولت إلى مستعمرة تابعة للتاج البريطاني في ١٨٦٧.
وكان مصيرها بين ١٨٢٦ و١٨٦٧ متعلقًا بشبه جزيرة ماليزيا. وقد ارتكز نموها الاقتصادي على انتاج القصدير والكاوتشوك. إذ بعد ١٨٦٧ بعامين، شقت قناة السويس التي سهلت المواصلات بين

اوروبا وآسيا. وبسبب وجودها عند مفترق طرق في جنوب شرقي آسيا، عرفت سنغافورة وثبة جديدة من النمو.

مع اوائل القرن العشرين، بدأ البريطانيون يقيمون في الجزيرة قواعد بحرية وجوية (انتهى العمل بها في ١٩٣٨)، ما أضفى عليها المزيد من الاهمية الاستراتيجية. ولم يحول هذا الأمر دون ان يتمكن اليابانيون من إخضاعها وسيطرتهم عليها من ١٩٤٢ إلى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥).

مستعمرة منفصلة: في ١٩٤٦، اصبحت سنغافورة مستعمرة منفصلة عن باقي اتحاد ماليزيا، إذ اعتبرت الحكومة البريطانية في حينه ان لمستعمرة سنغافورة مصالح مختلفة عن باقي البلاد التي تجاورها، سواء من حيث الاغلبية الصينية لسكانها، أو من حيث موقعها الاستراتيجي عند مداخل مضيق مالاكا (ملقة).

الاستقلال: أخذت سنغافورة تخطو الخطى نحو الاستقلال. فانتخبت في ١٩٥٥ مجلسًا تشريعيًا، وأجرت مفاوضات في ١٩٥٦ و١٩٥٧ في لندن أسفرت عن قيام «دولة سنغافورة» (٢١ تشرين الثاني ١٩٥٨) تكون مستقلة في شؤونها الداخلية مع احتفاظ الحكومة البريطانية بمسؤولية الدفاع والشؤون الخارجية. ووضع دستور وبدأ العمل به في ٣ حزيران ١٩٥٩، وجرت اول انتخابات عامة أسفرت عن فوز «حزب العمل الشعبي» الذي أعلن، في ايام تأسيسه، انه حزب اشتراكي والذي فاز بـ٤٣ مقعدًا من مجموع ٥١ مقعدًا، وأصبح زعيمه لي كوان يو رئيسًا للوزراء.

كان لي كوان يو يؤمن ان نمو بلاده مرتبط بنمو ماليزيا، فشارك بقوة في قيام ماليزيا الكبرى التي رأت النور في ١٦ ايلول ١٩٦٣، وضمت ساراواك، صباح، سنغافورة، والاحدى عشرة دولة التي تؤلف اتحاد ماليزيا المكون منذ ١٩٤٨. وقد أثار هذا الاتحاد، في حينه، غضب الجار الاندونيسي الذي لم يكتف زعيمه احمد سوكارنو المتحفّز وقتذاك للعب دور ريادي في المنطقة بخلع الصفات الاستعمارية والامبريالية على الاتحاد الوليد، بل راح يبشر بانفراط عقده سريعًا على خلفية ما كان يختبىء تحته من تناقضات وتباين في المصالح والاهداف واختلاف في درجات النمو، إضافة إلى الحساسيات العرقية. ولئن صدقت نبؤة سوكارنو بعد عامين فقط بخروج سنغافورة من الاتحاد متهمة بطموحها إلى ممارسة ادوار هيمنة تفوق حجمها الجغرافي والسكاني من خلال توظيفها لقدراتها الاقتصادية ومستواها التنموي الأعلى في المنطقة، فإن ما تبقى من الاتحاد الماليزي ظل صامدًا في مواجهة اندونيسيا. وحافظ في الوقت نفسه على روابط حسن الجوار والتعاون مع سنغافورة (راجع المناقشة).

في ٨ آب ١٩٦٥، انسحبت سنغافورة من الاتحاد. وقد أورد لي كوان يو اسبابًا سياسية لهذا الانسحاب (خوف من هيمنة السكان الملاويين)، واسبابًا اقتصادية (احتجاج على الحصة المرتفعة المخصصة لانماء صباح وساراواك). وفي اليوم التالي (٩ آب) اعلنت سنغافورة استقلالها التام، ودخلت الكومنولث

البريطاني، ثم الامم المتحدة (٢١ ايلول ١٩٦٥). واجرت تعديلات على الدستور اصبحت سنغافورة بموجبها جمهورية، وأصبح رئيس الدولة «رئيس الجمهورية»، والجمعية التشريعية «برلمانًا».

كرونولوجيا أهم الاحداث: منذ الاستقلال والحياة السياسية في البلاد تحت قيادة لي كوان يو زعيم «حزب العمل الشعبي» حتى ١٩٨٩ عندما خلفه غوه تشوك تونغ (مولود ١٩٤١). وكان الحزب المذكور يضم في صفوفه (في الخمسينات) بعض القادة الشيوعيين. وتحت تأثير لي أعلن الحزب (في ١٩٥٩) انه حزب اشتراكي ديمقراطي وغير شيوعي. فانفصل عنه القادة الشيوعيون المقربون من الصين، وأسسوا «الجبهة الاشتراكية» التي فازت بـ١٣ مقعدًا في انتخابات ١٩٦٣، والتي دخلت في صراع مفتوح مع الحكم، سجن على أثره عدد من قادتها. ولم تشترك الجبهة في انتخابات١٩٦٨، وصفا الجو تمامًا لحزب العمل الشعبي الذي استأثر في انتخابات ٢٣ كانون الاول ١٩٧٦ بكل المقاعد النيابية (وكانت ٦٩ مقعدًا).

في السنوات التالية، كان الهم الرئيسي لرئيس الوزراء لي كوان مطاردة الشيوعيين الملاويين. فأُبعد حزب العمل الشعبي عن «الأممية الاشتراكية» في ١٩٧٦. والتقت سياسة لي الداخلية بسياسته الخارجية التي اتبعت نهج التقرب من الغرب وسياساته الدولية ونظامه الاقتصادي، وخاصة الولايات المتحدة الاميركية. ففي ٢١ آذار ١٩٨١، أعلن انه قد وصلت إلى سنغافورة قوة بحرية اميركية من سبع سفن و١٨٠٠ جندي من مشاة البحرية. وقد جاء هذا الاعلان متزامنا مع ما قد أعلنه مسؤولون اميركيون بأن هذه القوة ستنضم إلى سفن حربية اميركية في بحر العرب، وذلك في معرض كلامهم عن اهمية منطقة الخليج العربي بعد احداث ايران وأفغانستان. ومع هذا، حاولت سنغافورة، بقيادة لي كوان يو، المحافظة على الاستقلال وعدم التبعية لأية دولة، بما فيها الصين، مع بذل جهد خاص لاقامة تعاون وثيق مع دول جنوب شرقي آسيا.

وأهم أحداث السنوات التالية، نشوب أزمة البورصة، في تشرين الثاني ١٩٨٥، التي تخطتها سنغافورة بأقل الاضرار الممكنة؛ وانتخاب غوه تشوك تونغ رئيسًا للوزراء خلفًا للرئيس السابق (والزعيم التاريخي لسنغافورة) لي كوان يو في ١٩٩٠ الذي تنحى له عن المنصب؛ وحل البرلمان في ١٤ آب، تلته انتخابات تشريعية (بعد اسبوعين) أسفرت عن فوز حزب العمل الشعبي مرة جديدة. ولأن سنغافورة آخذة في إنجاح «اعجوبتها الاقتصادية» رغم ضآلة حجمها وعظم التحديات المحيطة بها بسبب وضعها الجيوبوليتيكي وموقعها الاستراتيجي فائق الأهمية، فإنها تطمح للعب ادوار سياسية واقتصادية إقليمية وعالمية. وقد لبّى وزراء خارجية دول الاتحاد الاوروبي الـ١٥ ونظراؤهم في دول رابطة جنوب شرقي آسيا دعوتها لاجتماع على ارضها، في ١٣ شباط ١٩٩٧، يتمحور حول التنمية والتعاون الاقتصادي.

مناقشة

تجدد الحديث عن اتحاد مع ماليزيا: في مطلع حزيران ١٩٩٥، فاجأ زعيم سنغافورة التاريخي لي كوان يو العالم في لقاء صحافي بالدعوة إلى قيام اتحاد بين بلاده وجارتها الكبرى ماليزيا، أي العودة إلى الاتحاد الماليزي الذي كانت سنغافورة خرجت منه في ١٩٦٥. وقد قابل رئيس الحكومة، غوه تشوك تونغ الذي كان لي قد تنحى عن الحكم لمصلحته، هذه الدعوة بقوله إن هذه المسألة ليست من اولويات برنامجه الحكومي، مؤكدًا في الوقت نفسه ان كل شيء قابل للحدوث في الوقت المناسب.

تناولت الصحافة العالمية هذه الدعوة الصادرة من صانع «المعجزة السنغافورية» نفسه، لي كوان يو، بالتعليق والتحليل. فمن «لوموند ديبلوماتيك» (عدد آب ١٩٩٥، ص٢) وبقلم برنار كاسّن بعنوان: «تصور قياسي وُلد في سنغافورة وكوالا لامبور-انه الاستعمال الأفضل للقيم الآسيوية»؛ ومن «الحياة» (عدد ٧ حزيران ١٩٩٦)، وبقلم عبد الله المدني بعنوان: «سنغافورة وحديث الاتحاد مع ماليزيا: كيف، ولماذا الآن؟»، هذه الفقرات التي تلخص ما جاء في المقالين:

إن اوساطًا، في سنغافورة، وفي ماليزيا، كما في الدول الاجنبية، ترى في اطلاق مثل هذه الدعوة في هذا الوقت بالذات الذي تشهد فيه سنغافورة تزايد ظواهر الترف والاسترخاء والحياة السهلة وسط اجيالها الصاعدة، مقابل احتواء الكد والصبر والمعاناة التي ميّزت حياة جيل الآباء والاجداد المؤسسين لنموذجها الجذاب، نوعًا من المناورة الذكية التي يجيدها عجوز السياسة السنغافورية، لجهة حث شعبه على المزيد من العمل والعطاء والتآلف إن كانوا يريدون حقًا لنموذجهم الاستمرار والبقاء. وكأن لي كوان يو اراد ان يقول لشعبه مداورة إن تقاعسهم سوف يؤدي لا محالة إلى ابتلاع ماليزيا لبلادهم، خاصة وان ماليزيا تعرف ايضًا قفزات اقتصادية كبرى.

وأجرت صحيفة «ستريتس تايمز» السنغافورية الواسعة الانتشار استفتاء حول الموضوع من خلال عينة عشوائية ضمت مئة شخص من مختلف الاعمار والمهن والاعراق. فإذا بالنتيجة ان ا ربعة فقط من كل عشرة اشخاص يؤيدون دعوة زعيمهم السابق لأسباب تراوحت ما بين ضرورات الالتحاق بكيان جغرافي أكبر يمكنه توفير المزيد من فرص العمل التي باتت مستنفدة في دولتهم الصغيرة، والأمل في ان يساهم مثل هذا الاتحاد في تخفيض اكلاف الحياة اليومية والمستويات الضرائبية التي باتت تتصاعد بحركة جنونية في جزيرتهم. فيما تراوحت حجج الاشخاص الرافضين للفكرة ما بين المخاوف من التحول إلى اقلية وسط بحر من المسلمين الماليزيين والاندونيسيين (٢١٠ مليون مسلم)، وما قد يستتبع ذلك من ضرورة خضوعهم لأنماط معيشية مغايرة لما تعودوا عليه وقيود فكرية متشدّدة تطال حركة الابداع وحرية التعبير، والقلق من تحول مستوياتهم المعيشية المرتفعة إلى ما يوازي مستويات المعيشة الادنى في ماليزيا.

وما بين خروج سنغافورة من الاتحاد الماليزي في ١٩٦٥ وعودة الحديث عن التحاقها به اليوم، تغيرت وجوه ومعالم كبيرة. فقد تغير الخطاب الثوري الاندونيسي (سوكارنو) بوصول الجنرال سوهارتو إلى الحكم في جاكرتا، ونجحت ماليزيا في تعزيز وحدتها وتأسيس كيان فريد في نوعه في مؤسساته وطريقة تعاطيه مع التحديات التي فرضتها قضايا «الديمقراطية» و«الاسلام» والتنمية والتصنيع، وبدأت الفجوة بينها وبين سنغافورة تضيق شيئًا فشيًا، فيما كانت الاخيرة تزهو بتفوقها على نفسها وتحقيقها لنموذج

اقتصادي زاهر أصبح في ما بعد مضربًا للامثال وحلمًا يراود الدول الصغيرة النامية عند الحديث عن الطموحات المستقبلية.

أما الثابت الوحيد الذي ظل يلقي بظلاله خلال هذه المرحلة من التحولات فانحصر في الحساسيات العرقية ما بين المجموعات الملاوية والصينية والهندية التي تشكل في مجموعها شعبي البلدين، وما افرزتها هذه الحساسيات من هموم ومطالب حول العدالة والمساواة وحقوق الاقليات وتكافؤ الفرص. ومن هنا فإن لي كوان يو لم يفته، وهو يفتح ملف «الاتحاد» بعد ان ظل مطويًا طوال ثلاثة عقود، ان يربط عودة سنغافورة إلى الاتحاد الماليزي بتحقيق عدة شروط محددة:

أولها، ان تلتزم الدولة الجديدة بنظام ميريتوقراطي Meritucracy على شاكلة النظام السنغافوري الراهن، بمعنى الالتزام بالمساواة في ما يتعلق بالحقوق والواجبات والامتيازات دونما هيمنة أو تفضيل لعرق من الاعراق الثلاثة على سواها.

وثانيها، ضرورة الالتزام بأن يكون الهدف الاول والأخير من أية سياسة وبرامج هو تحسين مستويات المعيشة للشعب بمختلف فئاته واعراقه وعلى قدم المساواة.

وبطرح مثل هذه الشروط فإن لي كوان يو بدا كمن يحاول الايحاء بأن أية خطوة وحدوية لن تتم في ظل تمسك ماليزيا بسياسة «الملايزم» Malayism التي تعطي الهيمنة للعرق الملاوي على حساب الاعراق الاخرى لا سيما الصيني.

ورغم ان ماليزيا تخلت رسميًا عن مثل هذه السياسة في ١٩٩٠ بعد ان ظلت لسنوات طويلة متمسكة بها بهدف دفع الغالبية الملاوية نحو مستويات معيشية تضاهي تلك التي حققتها الاقلية الصينية مثلاً، (بفضل جدها ومثابرتها المعروفة)، فإن هناك من الدلائل ما يشير إلى ان النهج القديم قد ترسّخ وان شيئًا من مفاهيمه لا يزال سائدًا في صورة تفضيل العنصر الملاوي عند توزيع الحصص والعقود والتراخيص الرسمية.

وعلى أية حال فإن ردود الفعل الماليزية حيال الدعوة الوحدوية اتصفت في شقها اللارسمي بالبرود. وهو موقف بدا متوقعًا ومفهومًا من شعب يدرك ان قيام مثل هذا الاتحاد المقترح يعني بين ليلة وضحاها قدوم أكثر من مليوني نسمة من ذوي الاعراق الصينية ليشاركوه الهوية.

ويقول البروفيسور تشاندرا مظفر من جامعة بينانغ الماليزية للعلوم (وهو لا ينتمي إلى الاتنية الملاوية) ان إضافة مثل هذا العدد الهائل من ذوي الاصول الصينية إلى سكان ماليزيا، لا بد وان يخل بالتوازنات العرقية ويجعل الملاويين في حالة رعب وقلق من احتمال تصدع وحدتهم الوطنية وفقدان امتيازاتهم الكثيرة. ويضيف ان «الامر ببساطة يشبه تقديم وصفة جذابة لصنع وجبة شهية سرعان ما تخلق لمتناولها اضطرابًا معويًا».

وبعيدًا عن تفسيرات الاوساط الاجنبية حول مغزى عودة لي كوان يو إلى الحديث عن الاتحاد مع ماليزيا بعد كل هذه السنوات الطويلة، فإن الذين يعرفون الرجل وتاريخه وطموحاته وكراهيته للفشل، لا يستبعدون رغبته، وقد تقدم به العمر، في ان يختتم حياته بانجاز تاريخي ثان من بعد دخوله التاريخ فعلاً عبر تحويل جزيرته الصغيرة الفقيرة إلى صرح صناعي ومالي عالمي. وليس هذا الانجاز الذي يسعى إليه الزعيم السنغافوري اليوم سوى تحقيق ما فشل فيه قبل ثلاثة عقود حينما اطاح رئيس وزراء ماليزيا الاسبق الامير تنكو عبد الرحمن باحلامه وقذف به خارج الاتحاد الماليزي، واصفًا إياه بالساق الموبوءة بالصديد والقروح التي يجب قطعها والتخلص منها! وهي إهانة يبدو ان لي كوان يو ظل يكتم مرارتها طويلاً، ولا يريدها ان تنتقل معه إلى مثواه الأخير حينما تحين الساعة.

اسرائيل في سنغافورة ومنها: استنادًا إلى المراجع التالية: ١-عندما تشرق الشمس، بنيامين

نتانياهو، دار الجليل، الاردن، عمان، ١٩٩٥؛ ٢- مقابلة مع الباحث هول بولتين؛ ٣-F.G. George the Singapore Sage Singapore General, pr. and pub. service,١٩٨٥,
-٤Nathan, History of Jews of Singapore (Singapore, Oxford University Press,١٩٨٤
كتب ا لباحث والاقتصادي السوري نبيل السمّان («الحياة»، العدد ١٢٤٢١، تاريخ ٢ آذار ١٩٩٧، ص ١٨) مقالة مطولة، منها هذا الايجاز:

نجح تجار اسرائيليون، بتسهيلات ماليزية واندونيسية، باقامة شركات كبرى في سنغافورة كمركز للانطلاق إلى جنوب شرقي آسيا. ويقوم الاسرائيليون باخفاء نشاطاتهم التجارية والعسكرية التي قد تثير الذعر بين المواطنين إذا اكتشفت على حقيقتها إذ تقوم اسرائيل حاليًا بتدريب بعض فرق الجيش السنغافوري.

لليهود جذورهم التاريخية في هذه المنطقة إذ دخلوها بعد وقت قصير من توقيع الحاكم العربي المسلم محمد علي في ١٨١٩ اتفاقية مع القائد البريطاني اليهودي سير ستافورد رافلز تدعى وثيقة الاستسلام. بعدها قام بانشاء مدينة سنغافورة، ومنذ ذلك الحين تطورت المدينة كمجتمع متعدد الاعراق وتقلص عدد السكان المحليين من الماليويين المسلمين نتيجة الهجرات الصينية واليهودية وأصبحوا الآن اقلية لا تزيد عن ١٥٪ من سكان سنغافورة الحاليين.

وبحلول ١٨٤٦ أصبح للجالية اليهودية الصغيرة شأن في الحياة التجارية في سنغافورة إذ امتلكت ستة من البيوت التجارية الـ١٨ في المدينة. وظهر على الصعيد السياسي دافيد مارشال وهو تاجر عراقي يهودي كأحد المناضلين السنغافوريين حين لعب دورًا في حصول سنغافورة على استقلالها في بريطانيا وتقلد لاحقًا منصب الوزير الاول للبلاد.

مرّ وجود الجالية اليهودية في سنغافورة بأزمات في العقود الماضية: احتلال ياباني للبلاد، خوف الشيوعيين، عداء الدول الاسلامية المجاورة، الفوضى السياسية التي سبقت قيام دولة في ١٩٦٠. لكن، منذ سنوات، وتحديدًا من مؤتمر مدريد، عاد اليهود يتدفقون على سنغافورة. فقد فتح هذا المؤتمر الاسواق الدولية، وعلى رأسها السوق الآسيوية، امام الاختراق الاسرائيلي وساعد على تقويض المقاطعة العربية لاسرائيل.

عبر رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتانياهو عن أهمية ربط عملية السلام بالاقتصاد قائلاً: «عمليًا لا يعتبر السلام مع الدول العربية عنصرًا مهمًا إلى هذه الدرجة في مجال التجارة المستقبلية معها. فبعد ١٥ سنة من السلام مع مصر، بلغت التجارة الاسرائيلية معها حوالي ٢٠ مليون دولار سنويًا. وفي ضوء الصادرات الاسرائيلية المصنعة والموجهة بشكل رئيسي إلى الاسواق المتقدمة في اوروبا والولايات المتحدة لا يوجد الكثير مما يمكن عرضه على اقتصادات الدول العربية التي في معظمها متأخرة جدًا عن الاقتصاد الاسرائيلي. لكن لا شك في ان إنشاء علاقات سلام سيفتح امام الشركات الاسرائيلية نافذة نحو الشرق إلى الاسواق الواسعة في جنوب شرقي آسيا واليابان والصين. كما ان موقع اسرائيل الجغرافي القريب من اوروبا قد يمكنها من ان تكون جسرًا بين الشرق والغرب، وبين الشرق واوروبا الوسطى، ورابطة الدول المستقلة وهذه ثروة اقتصادية كبيرة. لقد بنت سنغافورة امبراطورية اقتصادية كاملة على اساس كونها جسرًا بالاتجاه المعاكس من الغرب إلى الشرق».

تطمح اسرائيل إلى زيادة علاقاتها التي تطورت على مدى السنوات السابقة مع حوض جنوب شرقي آسيا، وتحديدًا دول النمور السبعة الآسيوية، إذ ارسلت عدة وفود تجارية على مستوى عال لعقد صفقات مع كل من تايلاند وتايوان وسنغافورة والصين. وعلى هامش المؤتمر

الوزاري الاول للمنظمة التجارية العالمية الذي عقد في سنغافورة بين ٨ و١٣ كانون الاول ١٩٩٦، قام رئيس الوفد الاسرائيلي المدير العام لوزارة الصناعة والتجارة الاسرائيلية يهوه شاغيلمتن بعقد مفاوضات تجارية بدأها وزير المالية الاسرائيلية افرام شاحوط في كل من تايلاند وفيتنام وهونغ كونغ وكوريا الجنوبية والهند وانتهى بعضها بسلسلة من العقود التجارية. وعلى هامش اجتماع منظمة التجارة العالمية في سنغافورة وقعت اسرائيل مع الحكومة اتفاقًا لانشاء صندوق للاستثمارات في سنغافورة (...).

إن محاولة اسرائيل توسيع اسواقها التجارية العالمية بالاتجاه شرقًا بالتعاون مع النمور الآسيوية السبعة هدفه تخفيف الاعتماد على السوق الاميركية والاوروبية، وبالتالي تحقيق هامش من استقلالية القرار الاقتصادي الاسرائيلي.

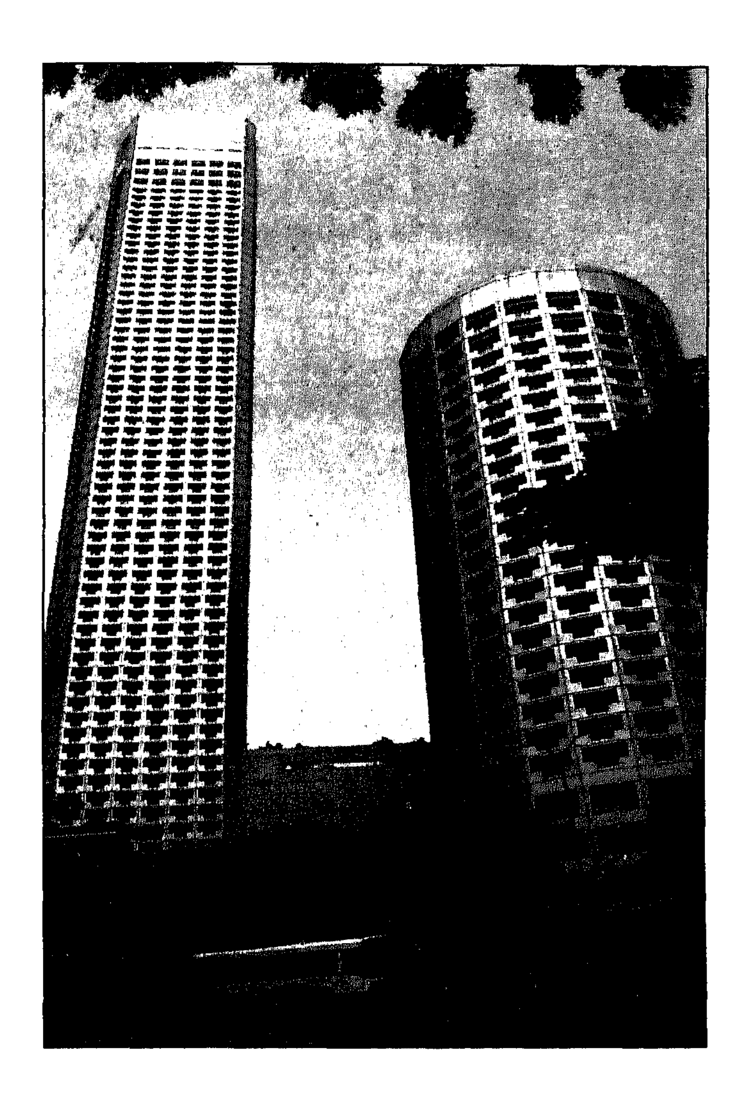
مدن ومعالم

* **سنتوزا Sentosa:** جزيرة صغيرة تقع على بعد نصف كلم جنوبي جزيرة سنغافورة العاصمة. قبل عقود قليلة، وتحديدًا قبل ١٩٨٦، لم يكن فيها سوى تلال سوداء، يمرح في وديانها وعلى سفوحها القراصنة والمهربون، وكان إسمها «جزيرة الموتى السوداء»، إذ كانت منفى القراصنة الملاويين.

حين اكتشف الانكليز موقعها الاستراتيجي مع نزول الجنرال ادوارد ليك عليها في ١٨٢٧، كان اول ما قاله: «إن أي عدو يتمكن من النزول بقواته على ارض هذه الجزيرة، يستطيع ان يكون سيد المنطقة كلها». ولهذا فقد جعلها الانكليز قاعدة مدفعيتهم الثقيلة، للسيطرة على جنوبي الصين، وذلك في ١٨٨٠، وبنوا فيها قلعة «سيلوزو» (لا تزال قائمة وهي إحدى المعالم الرئيسية في الجزيرة). ولكن هذه القاعدة المحصنة لم تستطع الصمود طويلاً حين غزا اليابانيون سنغافورة في الحرب العالمية الثانية، إذ كانت المدفعية كلها موجهة نحو البحر، وفاجأهم اليابانيون ونزلوا على الجزيرة وتقدموا منهم من البر ومن جهة الشمال، فعجز الانكليز عن تحويل فوهات مدافعهم بالسرعة الضرورية.

تسلمتها الحكومة السنغافورية في ١٩٦٨ وجعلتها منتجعًا سياحيًا للسنغافوريين والسواح الأجانب واطلقت عليها إسم «سنتوزا»، أي «جنة الأحياء».

في كل مكان من سنتوزا تتناثر الملاعب



ناطحات سحاب في سنغافورة.

الرياضية للكبار والصغار، ومنتجعات الاستجمام والراحة على شاطىء البحر. وفيها «متحف المرجان» حيث أجمل التشكيلات المرجانية وأندر البقايا البحرية التي احتيرت من مختلف انحاء العالم.

* **سنغافورة Singapour**: عاصمة سنغافورة. تقع في الجزيرة التي تحمل اسمها. تعد نحو ٢،٧ مليون نسمة. جامعة. متحف ومكتبة وطنية. الشوارع والساحات العامة والمباني (ناطحات السحاب) لم تبق إلا على قليل من المباني العائدة للعصر الاستعماري ومن مراكز العبادة. فقد امتصّ النمو الحديث والعصري، الذي انطلق من مركز المدينة القديمة الواقع جنوبي الجزيرة بين نهر روشور ومرفأ كيبيل وامتد حتى الاطراف الشرقية والغربية والشمالية للجزيرة، كل المشاهد والمعالم القديمة. فالسكان جميعهم اليوم مدنيون، وباتت مقولة «المدينة-الدولة» التي تطلق على سنغافورة مقولة صحيحة. أشهر معالمها:

– مطار شانغي الذي افتتح في تموز ١٩٨١، ويشكل صلة الوصل بين ١١٣٠ مدينة في ٥٤٣ بلدًا بمعدل ٢٥٠٠ رحلة اسبوعيًا. يفوز، سنويًا تقريبًا، بجائزة افضل مطار في العالم.

- المعابد: المعابد البوذية منتشرة في كل مكان من سنغافورة، وتقوم وسط المباني القديمة (خاصة في الحي الصيني). منها معبد «يثان هوك كينغ» الذي بناه في ١٨٤١ مهاجر صيني ليقدم الشكر للاله لوصوله وصاحبه سالمين في بر الصين. وفيه تمثال بوذا وتماثيل الاباطرة التسعة الالهيين. ومعبد «تومو كونغ» المخصص لعبادة الأباطرة والمقام منذ ١٨٨١ في شارع سيرانغون.

- الاوبرا: في الساحة الخارجية لمعبد «تومو كونغ»، وهي تقدم عروضًا تاريخية ودينية، إضافة إلى الوان حديثة من الاوبرا والغناء.

- حي (أو مدينة) سلالة تانغ: وهو عبارة عن منتزه تاريخي وترفيهي، يبرز معالم الصين القديمة منذ ١٣٠٠ عام (عصر الصين الذهبي)، أي الفترة التي تميزت بوجود سلالة تانغ، حتى ان الصينيين في العالم كله يطلقون على انفسهم إسم «تانغ رن» (شعب تانغ). وبناء هذه المدينة الاثرية ومنتزهها استحضرت لهما كل لوازم البناء، كالقرميد المحروق الأخضر والجاد الابيض، من الصين. ومن معالم هذه المدينة ومبانيها «متحف الشمع» الذي يعرض ١٠٠ شخصية مشهورة في تاريخ الصين، مثل كونفوشيوس، جنكيزخان وفوزيتيان الحاكمة الوحيدة في تاريخ الصين.

- المعبد الهندي الرئيسي الواقع على مقربة من المعبد الصيني وفي قلب الحي الصيني.

- الحي الهندي الذي يقال فيه انه «صورة طبق الاصل عما يُشاهد في الهند وخاصة في مدينة بومباي الهندية». يمثل «الهند الصغرى». يخترق هذا الحي شارع سيرانغون الرئيسي، وتتفرع منه عدة طرقات تمثل اقاليم شبه الجزيرة الهندية حيث حطّ القادمون منها ليستقروا ويعيشوا منذ أكثر من قرن. وفي الحي الهندي معابد هندوسية يقوم كل منها وسط دكاكين لبيع الشموع والبخور وتماثيل الآلهة وهياكل القرابين وكل ما يرتبط بالعبادات من الصور والأضحيات. أجمل وأكبر هذه المعابد الهندوسية معبد «يرى بيرومال» الذي يقوم فوق مدخله الرئيسي برج بطول ٢١م يسمونه «راجا جويورام» تمثل تماثيله الملونة جميع الآلهة الهندية وروايات العقائد الهندوسية. وإلى يسار المعبد يقوم «حرم قدس الاقداس» حيث هيكل الاله «فينا جايار» وأخيه «موروجان». وفي الوسط الهيكل الرئيسي المخصص لتمثال الاله «فشنو».

- الحي الاسلامي، الملاوي والعربي: الوصو ل إلى الحي العربي يتم من خلال طريق غيلانغ سيراي حيث اسواق الحي الملاوي. فهذا الحي كان قرية صغيرة للصيادين تحمل إسم «غيلانغ كيلابا» نسبة إلى جوز الهند الذي كان يزرع في ذلك المكان وسط شجر الليمون («سيراي» باللغة الملاوية)، وفيه استقر الملاويون. وفي ١٩٦٠، حدثت تغيرات سريعة في غيلانغ. فمع زيادة النسل والتزاحم الشديد بين الملاويين، وُسّعت المنطقة ورُدم بعض جوانب النهر الذي يقسم القرية إلى نصفين وأقيمت مبان رأسية ما لبثت ان هُدمت لتحل محلها ناطحات السحاب.

الحي العربي ملاصق للحي الملاوي والتزاحم الشديد إياه في الحيين وبينهما. تحمل شوارعه أسماء مدن عربية واسلامية مثل بغداد ومسقط وقندهار. في نهاية شارع مسقط يقوم «مسجد السلطان» الذي شيد في ١٩٣٤، وهو أكبر المساجد التي يشرف على غالبيتها «المجلس الاسلامي الاعلى» الذي يرعى الدعوة الاسلامية التي دخلت سنغافورة مع قدوم التجار من العرب والمسلمين من اليمن وخاصة من حضرموت. هندسة مسجد السلطان مزيج من الفن الهندي والصيني، وبجواره يقوم قصر السلطان. حول المسجد والقصر يعيش خليط من العرب والاندونيسيين والملاويين والهنود المسلمين.

- غابة تل القصدير التي تقع على بعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة من قلب المدينة. كانت مليئة بالنمور المفترسة، وأصبحت شبه خالية منها؛ لكنها

لا تزال المكان الوحيد الطبيعي بعد ان جُعلت محمية طبيعية منذ ١٩٥١. قائمة على تل من صخور الغرانيت (١٦٠م)، وهي منتجع ومنتزه لأبناء المدينة.

– المعلم الرئيسي العصري العام في سنغافورة هو معلم سلوكي لدى السكان يعكس حسًا عاليًا بالمسؤولية عند الحكام. فسنغافورة، رغم ما تعانيه من اكتظاظ سكني، أنظف مدينة في العالم، والخدمات الصحية فيها متقدمة عن أكثر البلدان المتقدمة في هذا المضمار.

السنغال

بطاقة تعريف

الاسم: من إسم وادي «نهر السنغال». و«سنغال» منحول من إسم «زيناغا» أو «سنهادا» وهو الاسم الذي يطلق على البربر الصحراويين؛ أو من إسم «سونو غال» Sunu Gaal، ويعني في لغة قبائل الولوف «زورقنا» (كانوا يستعملون زورقًا مصنوعًا بتجويف جذع شجرة).

الموقع: في الشمال الغربي من افريقيا. تحيط بها موريتانيا، مالي، غينيا، غينيا-بيساو، والمحيط الاطلسي (طول شواطئها نحو ٧٠٠كلم).

المساحة: ١٩٦ ألفًا و١٩٢كلم م.

العاصمة: داكار. وأهم المدن: تييس، كولخ، زيغنكور (راجع «مدن ومعالم»).

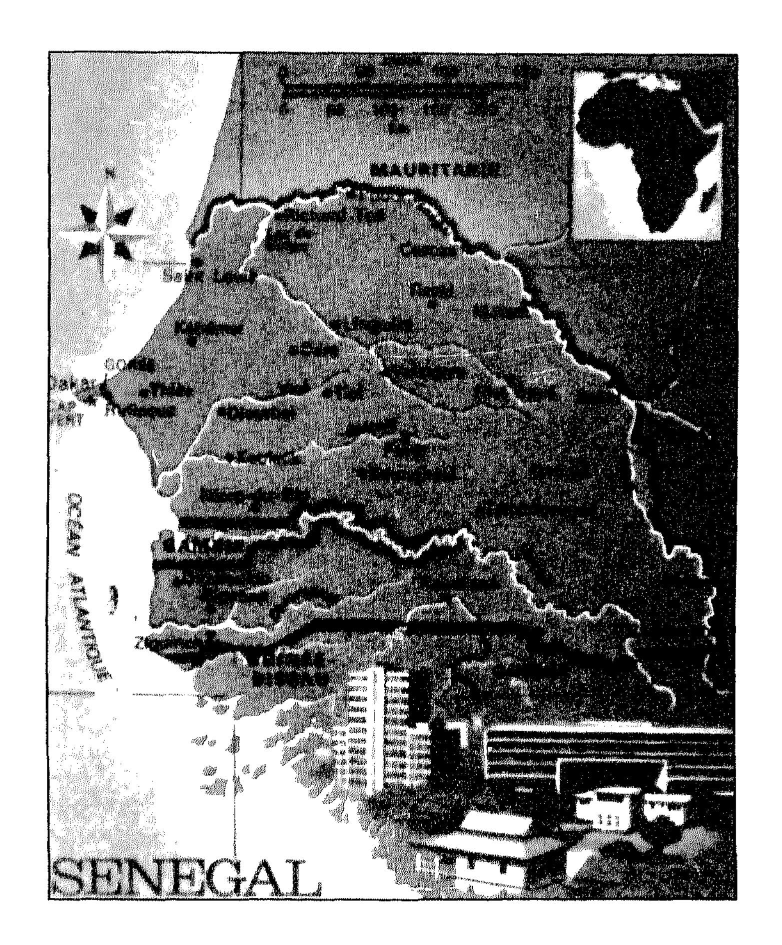
اللغات: الفرنسية (رسمية)، ولغة قبائل الولوف التي يتكلمها نحو ٨٠٪ من السكان. والعربية آخذة في الانتشار.

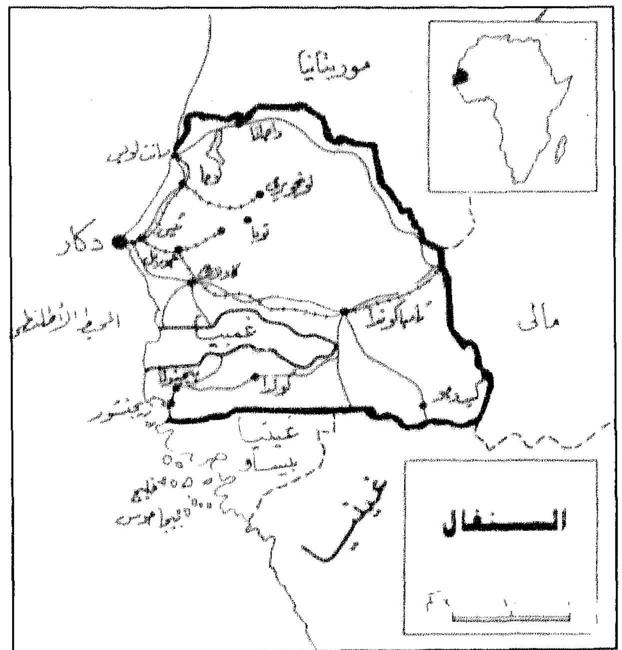
السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٩ ملايين نسمة. وتشير التقديرات إلى انهم سيبلغون نحو ١١ مليونًا في العام ٢٠٠٠.

المراجع العربية والاسلامية تورد ان نسبة ٩٠-٩٤٪ من السكان مسلمون. المراجع الاجنبية تعطي المسلمين نسبة ٨٠-٨٥٪. وهناك نحو ٣٠٠ ألف كاثوليكي. ونحو نصف مليون من اصحاب المعتقدات الاحيائية الاصلية للقبائل الافريقية. والمسلمون يتوزعون على عدة طوائف، أهمها: التيجانية، المريدية، القادرية، اللايين (راجع باب «الصوفية السنغالية»).

السكان خليط من شعوب وقبائل شتى، زنجية في الدرجة الاولى تتكلم نحو ١٣ لهجة أو لغة. على رأس هذه القبائل قبيلة الولوف، وهم سكان الساحل ويشكلون نحو نصف سكان السنغال، ولغتهم هي الغالبة، وكانت في القديم تكتب بالاحرف العربية، وبعد الاستقلال اصبحت تكتب باللاتينية، ولا تزال المفردات العربية تشكل نحو ٢٥٪ من مفرداتها. وبعد الولوف تأتي قبيلة «الفلان» وهم سكان الصحراء الواقعة شرقي السنغال وكانوا اول من اعتنق الاسلام في غربي افريقيا، وهم رعاة. ثم قبيلة «التوكولور» Toucouleur ويسكن ابناؤها حوض نهر السنغال، وقد تأثروا بالموريتانيين في الشكل والملامح بحكم الجوار والزواج. أما رابع هذه القبائل فهي قبلية «السرير»، وهم اهل الغابات سكان الجنوب والغرب. وهناك قبائل أخرى صغيرة مثل قبيلة بولار وسوسيه ومانديكا وسنحاك والباينو ومانكان.

الحكم: جمهوري رئاسي. الدستور المعمول به صادر في ٧ آذار ١٩٦٣، وعدّل في ٢٢ شباط ١٩٧٠، ثم في ٢١ ايلول ١٩٩١. ينتخب الرئيس لمدة خمسة اعوام بالاقتراع الشامل، وفي الوقت نفسه تجري انتخابات الجمعية الوطنية (البرلمان) التي تتكون من ١٢٠ عضوًا، ولمدة خمسة اعوام ايضًا. وهناك مجلس القضاء الاعلى، والمحكمة العليا. والبلاد مقسمة (منذ ٢٤ آذار


MAURITANIE
SENEGAL


موريتانيا
دكار
مالي
السنغال

١٩٨٤) إلى عشر مناطق و٣٠ محافظة.
الاحزاب: راجع باب «الاحزاب» والنبذة التاريخية.

الاقتصاد: يعمل في الزراعة ٧٠٪ من اليد العاملة (وتساهم في ٢٢٪ من إجمالي الدخل)، وفي الصناعة ١٢٪ (٢٤٪)، وفي الخدمات ١٥٪ (٥٢٪)، وفي المناجم ٣٪ (٢٪). وتبلغ نسبة البطالة نحو ٣٨٪، وهي في اساس الازمة الاقتصادية في البلاد.
زراعة الفستق تحتل ٢١٪ من مساحة الاراضي المزروعة؛ وتأتي بعدها زراعات قصب السكر والسورغو والارز والذرة والمانيوك والقطن...
في البلاد مناجم لفوسفات الكلس، والألومين، والملح البحري. هناك النفط في منطقة كازامنس (آبار دوم-فلور)، والغاز والتيتان. الصناعات: الغذاء، النسيج، الجلود، الأسمدة، مواد ا لبناء، الاسمنت، مصفاة لتكرير النفط في مباو. والسنغال في المرتبة العالمية الاولى في انتاج الفستق، والتاسعة في الفوسفات.

من حيث الاهمية الاقتصادية يأتي صيد الاسماك في السنغال في المرتبة الثانية بعد إنتاج الفستق (الفول السوداني)، إذ تشتهر سواحل غربي افريقيا بصورة عامة، والسواحل المواجهة للسنغال وموريتانيا بأنها من أكبر المناطق التي تتكاثر فيها الاسماك بل من المواقع المشهورة بالصيد في العالم. ثم تأتي السياحة كركيزة ثالثة للاقتصاد، إذ تعد سواحل السنغال وغاباتها امكنة مناسبة للاصطياف وبخاصة للاوروبيين. ثم تأتي صادرات السنغال من خام الفوسفات في المرتبة الرابعة من ركائزها الاقتصادية.
حاليًا، تعمل السلطات على مشروع قناة غيور الذي من شأنه ان يزود العاصمة داكار بالمياه العذبة من بحيرة غيور. المشروع الآخر الذي يُعمل على دراسته اليوم هو مشروع ايصال المياه من نهر السنغال إلى الأنهر التي تكون في اشهر الصيف جافة، والهدف منه تمكين المزارعين من زراعة اراضيهم طوال السنة ووقف نزوحهم إلى المدن. ويبقى مشروع حوض نهر السنغال هو الأهم (راجع في «مدن ومعالم»).

نبذة تاريخية

قديمًا: يعود الوجود البشري في السنغال إلى حقبة موغلة في القدم كما تشهد عليه الاواني المعدنية التي وجدت في مقابر منطقة أووالو واحجار منطقة سالوم، وكميات من الجواهر والأواني المعدنية والفخارية في مناطق أخرى.

إلا ان التاريخ المعروف للسنغال يبدأ في القرن العاشر حيث أكد المؤرخون ان المنطقة كانت مقرًا لمملكة «تكرور» أو «توكورور» (سمّاها الفرنسيون توكولور Toucouleur).
وفي القرن الحادي عشر دخل الاسلام القادم من مراكش المغرب، من وراء نهر السنغال. واعتنق الكثيرون الدين الجديد واشتركوا على نطاق واسع في نشره

في افريقيا الغربية. وقد صمدت مملكة تكرور في وجه غزوات الغانيين والماليين، ولكنها سقطت في النهاية تحت ضربات قبائل الولوف الذين بنوا، في القرن الخامس عشر، مملكة مهمة على طول السواحل، قبل ان تتجزأ بدورها إلى ممالك صغيرة متخاصمة.

توصيف عربي: ثمة دراسات تؤكد ان العرب هم أول من كتب عن السنغال. فقد ذكرها الرحالة ابن حوقل في القرن العاشر ضمن وصفه لسكان بلدة «تكرور» والتي زارها اثناء رحلته لغانا، قال: إنهم طوال القامة، سمر البشرة يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية (المؤرخون لم يذكروا إسم السنغال في كتبهم أو رحلاتهم لأنه إسم حديث لم يعرف إلا في القرن التاسع عشر). ولقد أطلق مؤرخو العرب وصف السودان على اصحاب البشرة السوداء ويقصدون بها سكان غربي افريقيا. فالأصطخري يصف هذه البلدان بأن «سكانها ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة إلا انهم اشد سوادًا من الجميع وأصفى». وكما أطلق المؤرخون والرحالة العرب على غربي افريقيا «بلاد السودان» فقد سموا منطقة الشمال الافريقي «بلاد البيضان».

الاوروبيون: لم يبدأ ظهور امبراطورية سنغالية ذات شخصية مميزة (امبراطورية ولوف) إلا في القرن الرابع عشر بين نهر السنغال والرأس الأخضر. وما يزال من الصعب القول في ما إذا كان النورمانديون أو البرتغاليون أول الذين نزلوا على الشاطىء السنغالي. إلا انه من المؤكد ان بحارًا من البندقية كان يعمل في خدمة البرتغاليين نزل على الشاطىء الأخضر في ١٤٤٦. ولم يهتم البرتغاليون كثيرًا، في تلك الفترة، بالاتجار مع هذه المناطق الافريقية الغربية بالمقارنة مع الهند أو أميركا في ما بعد.

وفي القرن السابع عشر، ظهر الهولنديون الذين سعوا بأن يكون لهم نقاط ارتكاز على طريق الرأس (الكاب، جنوبي افريقيا)، فبنوا مرفأ في جزيرة غوريه الصغيرة قرب داكار حاليًا، في حين اقام الانكليز في منطقة نهر غامبيا. أما الفرنسيون فقد بدأوا بدورهم يهتمون بالتجارة اولاً في مناطق افريقيا الغربية بناء على أمر من رئيس الوزراء الشهير ريشيليو **Richelieu**. وقد استمر الصراع بين الهولنديين والانكليز والفرنسيين-عبر شركاتهم التجارية-على الشاطىء الافريقي الغربي طيلة قرن ونصف.

الفرنسيون: توغل الفرنسيون، دون سواهم، إلى داخل البلاد بمحاذاة النهر حتى منطقة غالام وقلعة سان لوي (لويس) السنغالية التي شيدت في ١٦٥٩. أما بالنسبة إلى الباقين (الهولنديين والبرتغاليين والانكليز)، فقد انحصر وجودهم بوكالات تجارية تقايض القبائل الساكنة على الشاطىء الاصماغ العربية والعبيد والذهب والعاج والجلود بمنتوجاتها الاوروبية المختلفة.

وجاءت معاهدات ١٨١٤-١٨١٥

لتعطي السنغال لفرنسا، وقد منعت معاهدة فيينا (١٨١٥) تجارة العبيد.

في ١٨٤٨، الغت الجمهورية الفرنسية الثانية العبودية في مستعمراتها مقلدة بذلك الانكليز الذين اتخذوا هذا الاجراء في مستعمراتهم منذ ١٨٣٣. وعلى أثر منع تجارة خشب الإبنوس نشطت زراعات اخرى على الشاطىء الافريقي الغربي (وخاصة السنغال) على رأسها زراعة قصب السكر وشجر النيلة والقطن. إلا ان هذه الزراعات بقيت قليلة الأهمية تجاريًا بالمقارنة مع الاصماغ العربية التي ظلت مصدر الثروة الوحيد حتى ١٨٥٠.

كان منتصف القرن التاسع عشر منعطفًا رئيسيًا في تطور السنغال. فالفتح العسكري لغالبية البلاد قاده الجنرال الفرنسي فيديرب Faidherbe الذي كان نصيرًا متحمسًا لنظام الجمهورية الثانية في بلاده. وللتعويض عن ضعف وسائله العسكرية، شكل فيديرب فرقًا من القناصة السنغاليين، كما أحاط نفسه بعسكريين خلاسيين من منطقة سان لويس الذين ظهر بينهم قادة عسكريون على مستوى رفيع. وخلال ١٨٥٤-١٨٦٥، انطلق فيديرب من سان لويس واجتاز صحراء فرلو، وتوغّل في اتجاهين: اتجاه وادي نهر السنغال، واتجاه يقوده إلى داكار (المدينة التي بناها معاونه بينه لابراد) وإلى داخل البلاد حتى منطقة كازامنس. واثناء هذه الفترة تمّ تصدير ٥٤٠٠ طن من الصمغ، وكانت بدايات زراعة الفستق الذي بدأ بانتاج ٥٠٠٠ طن.

إكمال الغزو الفرنسي ونهضة داكار: في بداية القرن العشرين كان قد تم الاحتياح الفرنسي لكامل البلاد وتوحيدها. فأصبحت مستعمرة فرنسية يسكنها (في اوائل القرن العشرين) نحو مليون نسمة، اضافة إلى نحو ٣٥ ألف اوروبي، و٣٥ ألفًا من الخلاسيين (نتيجة الاختلاط والتزاوج). كما شهدت بداية القرن نزول أول المهاجرين اللبنانيين والسوريين على ارض السنغال.

وانطلقت فرنسا من السنغال لإكمال غزوها العسكري في قلب القارة السوداء. وكانت مدينة داكار تتحول تدريجيًا لأن تصبح أهم قاعدة لتغلغل الاستعمار الفرنسي. وأصبح سكانها، وسكان مدن سان لويس، وغوري، وروفيسك يعتبرون مواطنين فرنسيين يتمتعون بكامل حقوق المواطنية الفرنسية بما فيها حق الانتخاب. لكن غالبية السكان ظلت متمسكة بالاسلام وبثقافتها الافريقية. وانطلاقًا من العام ١٩٠٠، ازداد اصرار السنغاليين على مطلبهم القاضي بضرورة الاشراف مباشرة على ادارة شؤونهم الخاصة.

في ١٩٠٢، اتخذت داكار مقرًا للحكومة العامة لافريقيا الغربية الفرنسية (AOF) التي أنشئت منذ ١٨٩٥, وبفضل موقع داكار ومينائها ومطارها، استمرت في التوسع والازدهار حتى الحرب العالمية الثانية. أما زراعة ا لفستق فقد شهدت نموًا كبيرًا بفضل خطين للسكة الحديد: خط داكار-سان لويس الذي أنشىء في ١٨٨٥، وخط داكار-كايس-باماكو الذي أنشىء

في الربع الاول من القرن العشرين. ووصل تصدير الفستق إلى ٦٠ الف طن في ١٨٩٠، وإلى ٢٨٠ ألف طن في ١٩١٤، وتخطى الـ٥ ملايين طن في ١٩٣٠. وفي ١٩١٤، انتخب اول افريقي في البرلمان الفرنسي، وكان سنغاليًا ويدعى بليز ديانيه.

الجمهورية السنغالية: بعد انضمامه إلى حكومة فيشي على اثر هدنة ١٩٤٠، استطاع بيار بواسون، الحاكم العام لافريقيا الغربية الفرنسية، ان يمنع محاولة انزال انكليزي-فرنسي حر (ديغول) على الشاطىء الافريقي. إلا ان الحكومة الفرنسية (الموالية لديغول) التي تشكلت في الجزائر في ١٩٤٣ اقالته من منصبه على الرغم من عودته عن موقفه السابق.

وبعد انتصار الحلفاء وتحرير فرنسا بدأت افريقيا السوداء الفرنسية تسير ببطء نحو استقلالها. ففي السنغال، بدأ أمادو لامين غيّي (أول رئيس بلدية اسود لمدينة سان لويس حيث أتم دراسته الابتدائية والثانوية وأول محام اسود في كل افريقيا الفرنسية) يبرز على الصعيد السياسي. فقام بزيارة لقصر البوربون في باريس (١٩٤٦). وبعده، برز ليوبولد سيدار سنغور، ثاني نائب سنغالي، ومحام وأديب وشاعر ومعتقل سابق في الحرب. ثلاثة رجال سود (بليز ديانيه، أمادو لامين غيّي، ليوبولد سنغور) من السنغال شكلوا طليعة النخبة السنغالية الاستقلالية، وطبعوا (خاصة سنغور) الفترة الاستقلالية بطابعهم الخاص.

حصل غيّي على حق المواطنة الفرنسية لجميع الافارقة في افريقيا الغربية الفرنسية ضمن إطار «الاتحاد الفرنسي»، وهي الصيغة التي ربطت بواسطتها الدولة الفرنسية مستعمراتها بها. وكان هو نفسه (غيّي) وزيرًا في حكومة ليون بلوم عام ١٩٤٦. وكان سنغور ايضًا وزيرًا في حكومة إدغار فور عام ١٩٤٥. واستمر، وهو في هذا المنصب، يطالب بوحدة افريقيا الغربية الفرنسية لتجنب امكانية «بلقنتها». إلا ان خصمه رئيس ساحل العاج هوفويت بوانيي استطاع في نيسان ١٩٥٧ ان يعمل على تمرير قانون يقضي بانشاء سلطة تنفيذية في كل إقليم من اقاليم ما وراء البحار (المستعمرات الفرنسية)، معارضًا بذلك هيمنة داكار.

وبعد وصوله إلى السلطة، أدخل الجنرال ديغول في الدستور الجديد (الجمهورية الفرنسية الخامسة) صيغة دعاها «الرابطة» (أي الرابطة الفرنسية) لربط أقاليم ما وراء البحار بفرنسا، مع إتاحة الفرصة امام هذه الاقاليم لبلوغ الحكم الذاتي. وجرى استفتاء في السنغال، أعلنت على اثره «الجمهورية السنغالية» في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٥٨ (٨٧٠ ألف صوت «نعم» و٢١ ألفًا «لا»).

الاستقلال: وفي ظل نظام «الرابطة» الديغولي الذي كانت الجمهورية السنغالية لا تزال في إطاره، أنشأ سنغور اتحادًا فدراليًا ضم السنغال ومالي (السودان الفرنسي سابقًا). ولكن ما لبث هذا الاتحاد ان انفصمت عراه بعد سنتين من قيامه على اثر

اعلان ديغول قبوله استقلال مالي. ثم اعلنت السنغال بدورها الاستقلال في آب ١٩٦٠.وفي الشهر التالي (٥ ايلول ١٩٦٠)، انتخبت الجمعية العامة (البرلمان) بكامل اعضائها ليوبولد سيدار سنغور رئيسًا للجمهورية التي تبنت دستورًا برلمانيًا شبه منسوخ عن الدستور الفرنسي.

أول انقلاب في افريقيا السوداء: إلا ان هذا النظام القائم على توزيع السلطة بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة فتح المجال امام اول انقلاب في افريقيا السوداء المستقلة. ففي كانون الاول ١٩٦٢، رأى رئيس مجلس الوزراء، مامادو ضيا، نفسه موضوع معارضة متزايدة من النواب الذين يحتجون على نزعته في حصر السلطات بين يديه. فوضعوا مذكرة احتجاج ضمن الاصول الدستورية. ولمنع التصويت على هذه المذكرة، أوقف مامادو النواب الذين وضعوا المذكرة، فاجتمع الآخرون في بيت أمادو غيّي (أكبرهم سنًا) واقترعوا على المذكرة وأسقطوا الحكومة. فاستعان أمادو ببعض الدرك لاحتلال مركز الاذاعة، إلا ان الجيش والشرطة احبطا محاولته واعتقل هو ومؤيدوه، واذاع سنغور نداء من الاذاعة.

عهد سنغور، «الانفتاح الديمقراطي»: قضى الانقلاب الفاشل على نظام ازدواجية السلطة التنفيذية في السنغال الذي كان بمثابة تجربة فريدة لم تعهد مثلها افريقيا السوداء. فجرى استفتاء على دستور جديد (دستور الجمهورية السنغالية الثانية) في آذار ١٩٦٣ الذي أخذ بالنظام الرئاسي. وفي كانون الاول ١٩٦٣ جدّد الشعب ثقته بالرئيس سنغور في الانتخابات الرئاسية حيث نال ٨٥٪ من اصوات المقترعين. إلا ان الانتخابات شهدت اضطرابات دموية في داكار. أما الانتخابات التشريعية (على اساس الدستور الجديد) فقد حملت إلى المجلس النيابي الأغلبية الساحقة من حزب «الاتحاد التقدمي السنغالي» الذي أنشأه سنغور في ١٩٥٨.

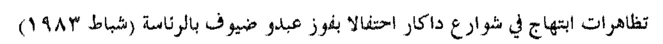
ومنذ لحظة التجديد له قرّر سنغور ان يمسك بزمام الامور وان يقود السنغال إلى ابواب المجتمع المدني والصناعي، ويقضي على البؤس والتخلف والمرض والامية. وكان الطريق الوحيد، بنظره، هو طريق «الاشتراكية الديمقراطية المتلائمة مع الحقيقة الافريقية».

في ربيع ١٩٦٨، ارتفعت اول عقبة كبرى في طريق سنغور عندما هزّت الاضطرابات الاجتماعية والجامعية مدينة داكار وشلّت اقتصاد البلاد على أثر اضراب عام. ثم وقعت اضطرابات مشابهة في حزيران ١٩٦٩. وفي ١٩٧٠، وصل التململ إلى الارياف لسوء الأداء الاداري ومعاملة الموظفين وهم يجبون الضرائب، خاصة بعد موجة الجفاف التي ضربت البلاد.

وكان سنغور، في كل مرة تحدث اضطرابات، يبادر إلى وضع الاصلاحات الضرورية. ففي ١٩٦٥، عهد بثلاث حقائب وزارية إلى ثلاثة من زعماء اليسار السنغالي، كما عمل على تحسين الوضع



ليوبولد سيدار سنغور وعبدو ضيوف (الى اليسار) يستعرضان مواكب الاحتفال في اول ايار ١٩٧٨.


تظاهرات ابتهاج في شوارع داكار احتفالا بفوز عبدو ضيوف بالرئاسة (شباط ١٩٨٣)



المعيشي للعمال والموظفين، وجعل جامعة داكار وطنية وافريقية تدريجًا، ثم سعى لاصلاح التعليم الابتدائي والثانوي بادخال اللغات المحلية، ومساعدة مزارعي الفستق على دفع ديونهم، وإصدار قرار بفتح المجال امام الشباب لتبؤ مراكز المسؤولية من ادارية وسياسية. وكان اهم القرارات الاصلاحية التي اتخذها سنغور الاصلاح الدستوري الذي طرحه على الاستفتاء في ١٩٧٠ والذي يعيد صلاحيات واسعة لرئيس الوزراء. وكان اول من تبوّأ هذا المركز شاب مبرز لم يبلغ سن الاربعين سارع إلى اختيار معاونيه من التكنوقراط، وهو عبدو ضيوف.

وفي صيف ١٩٧٢، وبعد توفير الاستقرار، استغنى سنغور عن خدمات قائد الجيش، جان ألفرد ديالو، لينشىء وزارة دفاع وطنية. وكان ديالو، ووزير الداخلية وصهر سنغور جان كولان، ركيزتين اساسيتين للنظام السياسي في البلاد.

في اجواء هذه الاصلاحات جرت الانتخابات الرئاسية (كانون الثاني ١٩٧٣) حيث كان سنغور المرشح الوحيد الذي فاز بـ٩٧٪ من الاصوات، والذي كان بامكانه ان يطمئن إلى مجلس تشريعي جديد كل اعضائه من حزب الاتحاد التقدمي السنغالي الذي كان الحزب الوحيد على الرغم من ان الدستور يسمح بتعدد الاحزاب.

لكن في ١٩٧٣، ضربت البلاد موجة جديدة من الجفاف الذي كانت موجاته تتعاقب قبل نحو ست سنوات، كما طالها التضخم العالمي، ونتائجه، على الاسعار حيث اضطرت الحكومة إلى اقرار الزيادات المرتفعة جدًا للأسعار وصلت إلى ٦٠٪.

في آب ١٩٧٤، قرر سنغور، فجأة، ان يطلق سياسة دعاها «الانفتاح الديمقراطي» لتجنب الغليان الشعبي وتكاثر الاحزاب وتأطير هذا الوضع في الاطار الدستوري. فاعاد النظر في الدستور (آذار ١٩٧٦) منتهجًا النمط البريطاني ومحددًا اطارًا دستوريًا يسمح بثلاثة اتجاهات سياسية: حزب الاتحاد التقدمي السنغالي، الحزب الديمقراطي السنغالي، والتيار الماركسي اللينيني (راجع باب «الاحزاب»).

لكن النصف الاول من ١٩٧٧ عاد ليشهد الاضطراب من جديد على اثر حركة احتجاج عنيفة قادها طلاب الجامعة في داكار، والاضراب الطويل الذي أعلنه عمال سكة الحديد. وقد زادت مشكلات البطالة والتسلط الاجنبي على الاقتصاد الوطني والتضخم وغلاء المعيشة من تفاقم الاوضاع. وكان على رأس هذه الحركات تنظيمان: النقابة الموحدة والديمقراطية للطلاب السنغاليين، واتحاد الشغيلة الاحرار في ا لسنغال.

ونما الحزب الديمقراطي السنغالي المعارض الذي يتزعمه عبد ا لله واد نموًا سريعًا خاصة في الارياف. فرأى الحزب الحاكم «الاتحاد التقدمي السنغالي» انه لا بد من التجديد. فهبّ سنغور، منذ كانون الاول ١٩٧٦، للحاق بالركب، فأقصى بعض «بارونات» حزبه الفاسدين، وغيّر إسم الحزب فأصبح «الحزب الاشتراكي».

وفي تموز ١٩٧٧، أطلق بنفسه الحملة الانتخابية وباشر الهجوم المضاد.

وتميز النصف الثاني من ١٩٧٧ بحرارة سياسية لم تعرفها البلاد من قبل (ولم تعرف مثيلاً لها، أقله إلى حينه، دول افريقيا قاطبة ومعها دول العالم الثالث): الموالون والمعارضون يتجابهون عبر وسائل الاعلام. وتوجه في ٢٦ شباط ١٩٧٨ نحو مليوني ناخب إلى صناديق الاقتراع. وكانت النتيجة ان الحزب المعارض (الديمقراطي السنغالي بزعامة عبد الله واد) لم ينل سوى ١٨ مقعدًا من أصل ١٠٠ مقعد في المجلس النيابي. وفي اليوم نفسه، جرت المعركة الرئاسية، ففاز سنغور من جديد على خصمه عبد الله واد بنسبة ٨٢٪ من الاصوات. وفتحت صفحة جديدة في تاريخ السنغال، صفحة تهيئة خليفة الرئيس سنغور، وفي الوقت نفسه صفحة الرهان على استمرار او صمود الديمقراطية في السنغال.

في نيسان ١٩٧٨، ذكر سنغور في مؤتمر صحافي انه يحضر في هدوء لما بعد السنغورية، ولم يعلن موعد اعتزاله الحكم. وتطرق في المؤتمر إلى بعض جوانب سياسته الخارجية. فدان التدخل السوفياتي-الكوبي في أنغولا «لأنه تدخل ليس لمساعدة دولة معتدى عليها، بل لمساعدة فريق أنغولي ضد آخر»، في حين أبدى تفهمه للتدخل السوفياتي في اثيوبيا لمساعدتها في صد «الاحتلال الصومالي». وعلى مستوى القارة الافريقية، أو منظمة الوحدة الافريقية، لم يبد حماسًا كبيرًا لقضاياها، من اجل ذلك يعرف في الدوائر السياسية الاعلامية والغربية بـ«المعتدل»، أو «الحكيم». كما انه لم يتحمس في اوائل السبعينات، كما فعل أكثر القادة الافارقة، لقطع العلاقات الدبلوماسية مع جنوب افريقيا واسرائيل. ولكنه في اواخر ١٩٨٠، قرر منح مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في داكار وضعًا دبلوماسيًا على مستوى سفارة بكل ما يترتب على ذلك من امتيازات وحصانات تمنح عادة للبعثات الدبلوماسية المعتمدة.

وفي آخر يوم من ١٩٨٠، قدّم سنغور استقالته من رئاسة الجمهورية، وجاء في كتاب الاستقالة: «... وان تقبلوا قسم السيد عبدو ضيوف رئيس الوزراء الحالي الذي سيحل مكاني». وفي ٢ كانون الثاني ١٩٨١، اقسم عبدو ضيوف، رئيس الوزراء منذ سنة ١٩٧٠، اليمين القانونية خلفًا لسنغور، ليشغل منصب رئاسة الجمهورية حتى نيسان ١٩٨٣ وفقًا لما جاء في الاصلاح الدستوري (نيسان ١٩٧٦) الذي ينص على ان يتولى رئيس الوزراء رئاسة الجمهورية حتى انتهاء مدة ولاية الرئيس في حالة استقالته أو خلو هذا المنصب. وبدأ ضيوف ممارسة صلاحياته بتعيين حبيب تياب رئيسًا للوزراء.

سنغامبيا (السنغال-غامبيا): في اواخر كانون الثاني ١٩٨٢، تمّ الاتفاق على تشكيل دولة كونفدرالية تضم السنغال وغامبيا (سنغامبيا) يرأسها الرئيس السنغالي عبدو ضيوف، فيما يتولى الرئيس الغامبي داودا جاوارا منصب نائب الرئيس. وقد

تشكلت هذه الدولة الاتحادية بعد الاحداث التي شهدتها غامبيا في تموز ١٩٨١ (راجع باب «سنغامبيا»).

عهد الرئيس عبدو ضيوف (كرونولوجيا): شدّد بيان سنغالي-تونسي مشترك في ٥ نيسان ١٩٨٢ على اثر زيارة رئيس الوزراء التونسي محمد مزالي للسنغال، على ضرورة ايجاد حلول سريعة لنزاع الصحراء الغربية، ولاستقلال ناميبيا، ولوحدة الشعب التشادي وللسلام في الشرق الاوسط على اساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة، وللسلام بين العراق وايران، ولادانة التدخل السوفياتي في افغانستان، كما شدّد على ضرورة اعطاء زخم جديد للتعاون العربي-الافريقي. وفي ايار، زار الرئيس الفرنسي ميتران السنغال. وفي بداية تموز، وقعت اضطرابات دموية بين لاجئين من غينيا-بيساو وبين فلاحين في منطقة كازامنس السنغالية. وفي اواخر العام، جرت مظاهرات في مدينة زيغنكور تطالب باستقلال كازامنس.

في ٢٧ شباط ١٩٨٣، انتخب عبدو ضيوف رئيسًا للجمهورية (وكان قبلا رئيسًا مكملاً لولاية سنغور)؛ وفي ايلول انتخب سنغور عضوًا في الاكاديمية الفرنسية. وفي الشهر الأخير، نشبت معارك بين قوات الجيش وانفصاليين في مقاطعة كازامنس أدت إلى مقتل ٢٤ شخصًا.

في شباط ١٩٨٧، جرت مظاهرات



عبدو ضيوف (الى يسار الصورة) وزعيم المعارضة عبد الله واد.

طلابية، وتمرد في صفوف الشرطة خلال نيسان.

في ٢٨ شباط ١٩٨٨، أعيد انتخاب ضيوف رئيسًا مرة جديدة بأكثرية ٧٣،٢٪ وكان منافسه عبد الله واد الذي اعتقل في اليوم التالي (راجع باب «الاحزاب»)، وبعد

يومين (في اول آذار) اعلنت حال الطوارىء (رفعت في ١٨ ايار). في ايـار، حكـم علـى واد بالسجن لعام واحد مع وقف التنفيذ.

في نيسان ١٩٨٩، نشـبت أعمـال شغب وعنف ضد الموريتانيين في السنغال، وضد السنغاليين في موريتانيا (نحـو ٦٠٠ قتيل) وتهجير متبادل للأقليتين في البلدين طال نحـو ١٥٠ ألـف شـخص، وتعليـق للعلاقـات الدبلوماسية بينهمـا في إطـار استمرار كل منهمـا المطالبة بالسيادة على الضفة اليمنى من نهر السنغال. في ٢٤-٢٦ ايـار، عقـدت القمـة الفرنكوفونيـة الثالثـة (بغياب موريتانيا). وفي ايار وحزيران، نـزح عـدد كبـير مـن الموريتـانيين السـود إلى السنغال. في ١٩ حزيران، مات عبد الأحد مباكي، الخليفة العـام للطريقـة الصوفيـة المريدية. في ٣١ تموز، نشـب نـزاع حـول الحدود البحرية بين السنغال وغينيا-بيسـاو. وفي ٣٠ ايلول، أعلن عـن حـل كونفدرالية سنغامبيا (راجع باب «سنغامبيا»).

في ايلول ١٩٩٠، جـرت مواجهـات دامية بين الجيش والانفصاليين في كـازامنس (٤٠ قتيـلاً)؛ ومظـاهرات في داكـار، وانتخابات بلدية في تشرين الثاني.

في ٧ نيسان ١٩٩١، شكل حبيب تيـاب حكومة جديدة ضمت عـددًا مـن المعارضين. في ٣١ ايـار، أعلن عـن وقـف للنار في مقاطعة كازامنس (نحـو ١٥٠ قتيلاً خلال عام واحد)، لكـن في الشـهر الأخير من السنة، اغتيل نـائب ومستشار ريفـي في كازامنس.

في ١٩-٢٣ شباط ١٩٩٢، زار البابا يوحنا بولس الثاني السنغال.

في ٢١ شباط ١٩٩٣، انتخب عبـدو ضيوف رئيسًا لمرة جديدة بأغلبية ٥٨،٤٪ من الاصوات، ونـال منافسه عبد الله واد ٣٨٪. وتجدد العنف الانفصالي في كازامنس في النصف الثاني من السنة (أكثر مـن ألـف قتيـل)، كمـا تجـددت المخـاوف مـن عـودة المواجهـة بـين موريتانيـا والسـنغال عندمـا عادت الاولى تضيّـق علـى السنغاليين على ارضهـا، وكـان البلـدان اعـادا العلاقـات الدبلوماسية بينهما قبل عام.

في شباط ١٩٩٤، نـددت المعارضـة بأعمال العنف، وأعاد زعيمها عبـد الله واد الكلام علـى الازمـة الاقتصاديـة ومسؤولية الحكم عنهـا، خرجـت علـى أثـر خطابـه تظاهرات كبيرة هـاجمت منشـآت حكومية بما فيها القصر الرئاسي؛ وكـانت السـلطات الفرنسية اعـادت خفـض قيمـة الفرنـك الفرنسـي الأمـر الـذي أدّى إلى ازديـاد المصاعب الاقتصادية والاجتماعية.

في آذار-نيسـان ١٩٩٤، تفجـرت الاوضـاع الحدوديـة السـنغالية-الموريتانيـة-الماليـة، وجـرى الحديـث علـى «تطـورات مجهولـة تبـدو في الافـق». وفي ٨ نيسـان، اجتمـع وزراء الداخلية في موريتانيـا ومـالي والسنغال في باماكو (عاصمة مالي) للبحث في هذه الاوضاع الحدودية والامور المتعلقة بتنقل الاشخاص والبضائع عبر الحدود.

نزاع سنغالي-موريتـاني: في كـانون الاول ١٩٩٤، قطعت السنغال وموريتانيا خطوات علـى طريـق اعـادة الامـور إلى مـا

كانت عليه قبل بدء النزاع في ١٩٨٩؛ واتفق وزيرا الداخلية في البلدين على فتح معابر حدودية. والنزاع كان حول نقاط عالقة بينهما، أهمها: مبالغ مالية كبيرة كانت تملكها الجالية الموريتانية في السنغال قبل ان تطرد في نيسان ١٩٨٩ إثر احداث عنف عرقية ويستولي السنغاليون على اموالها. وهناك اراض زراعية في الجزء الموريتاني من حوض نهر السنغال كان السنغاليون يزرعونها قبل ان تطردهم السلطات الموريتانية ردًا على طرد السنغال للجالية الموريتانية. وقبل بدء النزاع كان مربو الماشية الموريتانيون يتوغلون داخل الارض السنغالية بحثًا عن المراعي وهو ما لم يعد ممكنًا بسبب عصابات من السنغاليين والموريتانيين السود اللاجئين إلى السنغال. وعمل البلدان على توفير الامن في المراعي لكن الامر لم يكن سهلاً.

ومع ان العلاقات الدبلوماسية عادت منذ ١٩٩٢، إلا ان فتح الحدود ظل امرًا يتم التعاطي معه بحذر. فقد فتحت معابر تخضع لرقابة صارمة من الطرفين، ووضعت شروط استثنائية بالنظر إلى ما كانت عليه الاوضاع قبل النزاع وعادية بالمقارنة مع العلاقات بين الدول في مختلف انحاء العالم. فقد أصبح على السنغالي الداخل إلى موريتانيا والموريتاني الذاهب إلى السنغال ان يحمل معه اوراقه المدنية ومبلغ ٦٠٠ فرنك فرنسي أو ما يقابله من عملات دولية. وكان المواطنون في كل من البلدين يتنقلون عبر الحدود دون أي ضابط.

وأبدت موريتانيا خشية من ان يستغل معارضون موريتانيون سود مقيمون في السنغال ويشرفون على عصابات مسلحة أي تهاون في الرقابة على الداخلين والخارجين في تنفيذ أعمال تخريبية. وتطرح الاراضي الزراعية التي كانت موريتانيا تسمح للسنغاليين باستغلالها قبل النزاع مشاكل عدة. فبعضها أصبح، من جهة، يستغله سنغاليون من اصل موريتاني طردتهم السنغال ولا يريدون العودة، ومن جهة أخرى شكل استغلال سنغاليين لاراضي زراعية موريتانية إحدى الركائز التي قامت عليها مطالبة السنغال بجزء من التراب الموريتاني في أوج الازمة بين البلدين.

وأزمة المطرودين السود من موريتانيا إلى السنغال (عددهم نحو ٧٠ ألفًا) استمرت تتفاعل طيلة العامين ١٩٩٥ و١٩٩٦ من دون ان تجد لها حلاً (راجع «موريتانيا» في جزء لاحق).

إنفصاليو إقليم كازامنس: على خلاف بقية اجزاء السنغال، كان إقليم كازامنس يرزح تحت نير الاستعمار البرتغالي منذ ١٦٤٨ وتحول إلى مستعمرة فرنسية بعد مؤتمر برلين إثر اتفاق وقع بين ليشبونة وباريس في ١٢ ايار ١٨٨٦. وتعتبر قبائل ديولا التي تقطن ذلك الاقليم أقرب ثقافيًا وتاريخيًا وجغرافيًا إلى سكان مناطق الحدود مع كل من غامبيا وغينيا-بيساو.

يقدر سكان إقليم كازامنس بنحو مليون نسمة؛ ويعيش منذ امد طويل في حالة صراع دائم مع القبائل الشمالية التي استوطنت في المناطق الجنوبية وتمارس

نشاطات اقتصادية، لا سيما منها السياحة.

ثلاثة اسباب أثارت سخط قبائل ديولا، هي: ١- إن أبناء قبائل الشمال بدأوا يزاحمونهم في اسواق العمل؛ ٢- إن السيّاح شرعوا مع مرور الزمن يتلفون المعالم الطبيعية؛ ٣- إن دخل الاقليم الاقتصادي بات يوظف لتعمير بقية الاقاليم وإهمال كازامنس.

وشكلت هذه الانتقادات والمطالب الارضية السياسية لتأسيس «حركة القوى الديمقراطية الكازامنسية» في ١٩٤٧. ومنذ ذلك التاريخ ولغاية اليوم، لم تتوقف الحوادث العسكرية في جنوبي السنغال، وإن خبت نيرانها بين حين وآخر.

وبمناسبة الانتخابات الرئاسية (آذار ١٩٩٣)، وزعت الحركة الانفصالية الاستقلالية بيانات تحض فيها القيادات السياسية السنغالية الشمالية على عدم عقد اجتماعات شعبية في هذا الاقليم (كازامنس) لأنه غير معني بها لا من بعيد ولا من قريب.

وبما ان كل قادة الاحزاب السياسية السنغالية متفقة على ان كازامنس لا يعدو ان يكون جزءًا لا يتجزأ من بقية ارض السنغال، فإنها لم تعر أدنى اكتراث لتحذيرات الحركة الكازامنسية، وذهب الرئيس عبدو ضيوف إلى حد بدء حملته الانتخابية في أقصى جنوبي البلاد متحديًا الحركة الانفصالية المسلحة، ومتضامنًا مع بعض الشرائح الاجتماعية في هذا الاقليم الذي لا يرى أي مستقبل للكازامنس خارج الخريطة الجيوسياسية السنغالية.

ومع ذلك انتهزت حركة تحرير اقليم كازامنس فرصة سريان الانتخابات الرئاسية وقدوم عدد كبير من الصحافيين الاجانب هناك للقيام بعمليات فدائية عدة ذهب ضحيتها ما يزيد على ثلاثين شخصًا ينتمون إلى احزاب شمالية بما فيها الحزب الحاكم.

وكانت مطالب المقاتلين الانفصاليين بدأت تشتد منذ ١٩٨٢، وبدأ الاقليم يصبح تحت رحمتهم. ولم تفلح السلطات في التعاطي في شكل ناجح مع الموضوع. وقد أثبت الانفصاليون، يومًا بعد يوم، قدرتهم على مهاجمة الاهداف المدنية والعسكرية في شكل فعال. ولم تتضح بعد معالم واضحة لمفاوضات ممكنة بين السلطة والانفصاليين. وتصر السلطات على انها غير مستعدة اطلاقًا للحديث «عن كل ما يمس الوحدة الوطنية ووحدة الاراضي السنغالية». ومن الأساليب التي لجأت إليها السلطات إذكاء الانقسام في صفوف «حركة القوات المسلحة الديمقراطية في كازامنس». وتم بالفعل انقسام الحركة إلى مجموعتين قبلت احداهما التفاوض، لكن الاخرى اندفعت في العمل المسلح منذ آب ١٩٩٢. وازداد الوضع تعقيدًا باستمرار القوات المسلحة السنغالية في الهجوم على قرى ريفية يعتقد انها مؤيدة للثوار الانفصاليين، الامر الذي دفع معظم السكان إلى الالتحاق بهم أو تأييدهم فعليًا.

ومن آخر ما صدر عن الانفصاليين تصريح ممثل حركتهم في اوروبا (يقيم في باريس)، مامادو ناكروما سان الذي قال إن الحركة ستعمل على عرقلة اتفاق بين

السنغال وغينيا-بيساو حول اقتسام البترول والسمك وثروات بحرية اخرى في الاقليم. واضاف «إن وقف اطلاق النار المعلن في تموز ١٩٩٣ أصبح لاغيًا وباطلاً ولن يكون هناك وقف اطلاق نار آخر قبل التحرير الكامل لإقليم كازامنس». وكان وقف اطلاق النار انهار في الاقليم منذ اندلاع القتال في كانون الثاني ١٩٩٥.

الاحزاب

ممارسة رائدة: إذا كانت رياح التعددية الحزبية هبّت على افريقيا بعد تداعي الانظمة الشيوعية (وانهيار الاتحاد السيوفياتي) في اوروبا الشرقية، فان للسنغال باع طويل في مجال ممارسة الديمقراطية عبر التعددية الحزبية على رغم انفراد «الحزب الاشتراكي السنغالي» بالحكم منذ استقلال البلاد عن فرنسا قبل نحو ٣٥ عامًا.

ففي ١٩٧٤، اعتمد الرئيس ليوبولد سيدار سنغور نظام التعددية الحزبية وحصره بثلاثة احزاب لها مرجعيات عقائدية مختلفة: الاشتراكية والليبرالية والماركسية.

أما الرئيس عبدو ضيوف، فمنذ توليه السلطة في كانون الثاني ١٩٨١، اقدم على فتح باب التعددية الحزبية من دون قيود، وسنّ قانونًا سمح بموجبه لقادة احزاب المعارضة ان تنال قسطًا في وسائل اعلام الدولة المسموعة والمرئية، وان تطبع وتنشر أدبياتها لشرح سياساتها للشعب السنغالي. وحرص ضيوف منذ البداية على عدم الاستئثار بالسلطة، وبذل جهدًا كبيرًا للانفتاح على احزاب المعارضة التي استطاع إقناع اقطابها بضرورة المشاركة في حكم البلاد خدمة للمصلحة الوطنية. وقد نافسه على رئاسة الدولة عبد ا لله واد زعيم «الحزب الديمقراطي السنغالي»، احد أكبر احزاب المعارضة ووزير دولة في الحكومة.

أما الخريطة الحزبية في السنغال، بالشكل الذي كانت مرتسمة به في اوائل التسعينات وظهرت به في انتخابات آذار ١٩٩٣ ولا تزال، فيمكن تقديمها بالصورة التالية:

الحزب الاشتراكي السنغالي: هو الحزب الحاكم المرتبط بشخصية مؤسسه الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سنغور. يتمتع الحزب بخصائص عدة، أهمها استفادته من التجربة الاشتراكية الفرنسية، والاشتراكية الديمقراطية وفق الاسلوب الالماني والشمال الاوروبي والنهج البريطاني. وكان مؤسسه يحرص على قراءة اعمال ماركس وإنغلز «قراءة افريقية» على حد تعبيره، إذ أعطى الاولوية للمسألة الثقافية على العامل الاقتصادي، وركّز على حقوق الانسان والحريات العامة والديمقراطية بغية تفادي السقوط في فخ الشمولية.

وخطا الرئيس ضيوف خطوات أخرى

بالحزب عند توليه رئاسة الحزب والدولة. فعمل على تعزيز وحدة الحزب الداخلية باشاعة روح ثقافية على كل نشاطاته وإلحاحه على ممارسة «النفوذ والنقد الذاتي» للحيلولة دون تراكم الاخطاء، وانهيار سقف الحزب على قيادته وقاعدته.

إلى ذلك، ارسى ضيوف مبدأ عدم الانغلاق على الذات، والانفتاح على الآخر، حرصًا على عدم توليد قناعة لدى القاعدة الحزبية بأنها وحدها دون غيرها تملك أو تحتكر الحقيقة السياسية والتاريخية وان برنامجها الاقتصادي لا بديل له.

الحزب الديمقراطي السنغالي: برز للمرة الاولى في ١٩٧٤ وعقد مؤتمره الرسمي الاول في ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٦ بقيادة عبد الله واد.

يرى قادة هذا الحزب ان الدولة تسيطر على معظم المؤسسات الاقتصادية ما أدّى إلى سيادة الروح البيروقراطية في شتى المرافق الحيوية، وقتل في نفوس الكوادر الروح الابداعية التي لا يمكن ان ترى النور من دون اطلاق العنان للمبادرات الفردية الخلاقة. ويقترح واد على الصعيد الاقتصادي الاعتماد بصورة اساسية على القطاع الخاص، ثم يليه القطاع التعاوني، ويأتي القطاع العام في المرتبة الثالثة والاخيرة. وينطلق واد في تحليلاته السياسية من قناعة تامة بفشل كل المحاولات السياسية التي قام بها القادة الافارقة مثل الرئيس السنغالي السابق سنغور، والزعيم الزائيري نيكروما، والرئيس التنزاني السابق جوليوس نيريري. ويرى ان بناء اية دولة يقوم على مسألتين محوريتين: الرأسمال والعمل؛ وباعتبار «اننا لا نملك رأس المال فاننا سنلجأ إلى قروض اجنبية تتحول مع مرور الايام إلى ديون ثقيلة مقرونة بفوائد مالية لا إمكان لدينا لتغطيتها. وستقود هذه السياسة البلاد إلى فقدان الاستقلالية. وبناء عليه فان رأسمالنا الوحيد هو العمل. العمل الحرّ والخلاق لكونه ايضًا مصدر رأسمال وطني يوظف بدوره لاقتحام ميادين عمل جديدة».

ويعطي الحزب الديمقراطي الاولوية للزراعة ليس بهدف إشباع حاجات الاسواق الداخلية فحسب، وإنما لمحاربة ظاهرة البطالة. ويقول عبد الله واد: «أنا لا أنوي أن أحكم السنغال لوحدي ابدًا. لا مفر من فتح باب المشاركة لجميع الاحزاب بما فيها الحزب الاشتراكي، لأن في إطاره توجد شخصيات لها كفاءات عالية قادرة على القيام بدور ما في مسيرة النهوض بالبلاد».

التجمع الوطني الديمقراطي: ميزة هذه الحركة السياسية انها تجمّع تيارات سياسية وعقائدية، لكنها غير قادرة على تنظيم صفوف قاعدتها حول خطة سياسية محددة وخوض معركة سياسية ضد الحزب الحاكم وبقية الاحزاب المنافسة. وفي ادبيات هذه الحركة انها تهدف إلى «عتق السنغال من الدوران في فلك الامبريالية الفرنسية وترحيل كل المستشارين الفنيين الاجانب لرئيس الجمهورية لأن ذلك يمثل مساسًا مرفوضًا بالسيادة الوطنية، وإسناد كل الوظائف إلى السنغاليين، وتطوير اللغات الوطنية ورد الاعتبار إليها في الدوائر الحكومية وفي الجمعية الوطنية والمجالس الاقليمية، وجعل التعليم إجباري لغاية سن الـ١٥ على الاقل، والمساواة بين كل المواطنين في العلاج الصحي». ويطالب «التجمع» باعادة النظر في جميع الاتفاقيات «غير العادلة» التي ابرمها الحزب الحاكم مع اطراف اجنبية، ويشدّد على حماية الجاليات السنغالية في الخارج، وتأسيس السلطة على قاعدة غير مركزية حتى لا يكون الشعب تحت رحمة رئيس ما أو حزب ما.

الحركة الجمهورية السنغالية: يتمحور برنامجها على تقليص سلطة رئيس الدولة ونفوذه

ومضاعفة دور رئيس الحكومة علـى ان يكـون الاخير مسؤولاً في رسم سياسة حكومته وتطبيقها امام الجمعية الوطنية (البرلمان). وتقترح على الوزراء ان يدافعوا عن قراراتهم امام البرلمانيين الذين يحق لهم سحب الثقة من أي وزير وإجباره على الاستقالة الفردية متى تأكد لهم بأنه غير مؤهل لأداء مهماته على خير وجه لسبب او لآخر. أمين عام هذه الحركة أبو بكر غوي يرى انه لا يوجد على الصعيد الاقتصادي أي حل سحري لمشاكل البلاد المتعددة والمعقدة. ويعتقد ان تحرير المؤسسات من قيود الدولة وتشجيع الرأسمال الوطني يشكل المدخل الصحيح للخروج بالبلاد من الكساد الاقتصادي الذي اصابها منذ سنوات.

الحركة الثورية الديمقراطية الجديدة: يتزعمها لاندنغ سفان. الدولة الحالية، برأيه، تجسّد الاستعمار الجديد. فلا جدوى من اللهاث خلف اصلاحات ديمقراطية، والحل الوحيد لا وجود له خارج القيام بغربلة ثورية تسمح للشعب السنغالي باقامة حياة ديمقراطية جديدة وحقيقية لا شكلية كما هو الحال الآن. ويطالب لاندنغ سفان بالغاء كل المعاهدات العسكرية مع فرنسا، واغلاق قواعدها العسكرية والاعتماد على القدرات الوطنية للذود عن البلاد، واقامة علاقات على اساس المصالح المشتركة.

الاتحاد الديمقراطي الشعبي: أمينه العام حامدين راسين غيس الذي يعرّف الاتحاد بأنه «حزب ثوري ذو نمط جديد» يرمي إلى تخليص السنغال من هيمنة «الامبريالية الفرنسية وقيام سلطة وطنية مستقلة ترتكز على دولة ديمقراطية وشعبية». ويقترح الاتحاد اجراء تعديلات جوهرية على صعيد السلطة الاشتراعية والتنفيذية والادارية والقضائية حتى تسير على طريق «ديمقراطية الاحزاب الشيوعية المركزية لكي تكون قريبة من الشعب، هذا إذا لم تكن تحت سيطرة الشعب بواسطة الطليعة الثورية».

الحركة الديمقراطية الشعبية: يتزعمها ماماد ديا. تقوم على مبدأ الادارة الذاتية لشؤون الدولة مقابل الاشتراكية البيروقراطية التي تدار من قبل قيادات وكوادر الاحزاب اليسارية أو بتوجيه منهم في بعض المرافق. وفي المجال الاقتصادي، يزاوج برنامجها بين القطاع الموجه، والمستقل، والتعاوني. وعلى صعيد رئاسة، تعتقد الحركة ان رئيس الجمهورية يجب ان لا يكون طليق اليدين لمجرد ان الشعب انتخبه بصورة ديمقراطية، بل ينبغي تقييد نشاطاته ومراقبتها من قبل الجمعية الوطنية باعتبارها تمثل السلطة الشعبية.

الحزب الشعبي السنغالي: رئيسه الدكتور عمر وون. تتمحور اهدافه على نقاط خمس: - تصفية كل الوان ومظاهر الاستعمار الجديد. - اعادة بناء المجتمع السنغالي على أسس جديدة. - إرساء نظام اقتصادي جديد لاشباع حاجة الانسان السنغالي الضرورية وليس كماليات الشريحة المترفة. - توفير الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية والتعليم لكل السنغاليين. - إعادة بناء الانسان السنغالي الجديد في مناخ يسوده السلام والحرية والديمقراطية والرخاء.

الحزب لحرية الشعب: حدّد هذا الحزب أهدافه في «منيفستو» نشره في داكار (١٩٩٣)، جاء فيه: «إعادة السيادة الوطنية المفقودة إلى السنغال وتحسين الاحوال المعيشية للشغيلة وإعادة بناء الدولة على اساس وطني، ديمقراطي وشعبي».

الحزب الافريقي للاستقلال: أمينه العام محمود ديوب الذي يرى ان متاعب السنغال ناجمة من سيطرة المستعمر الفرنسي الجديد، والحالية

اللبنانية، والسورية، على خيرات البلد على أنقاض مصلحة أبناء السنغال. والحل في نظر قيادة هذه الحركة يكمن في خلق تحالف الشرائح الاجتماعية المقهورة وإعادة بناء دولة جديدة تخدم مصلحة الطبقة الكادحة.

الرابطة الديمقراطية: على غرار معظم «الحركات الثورية» في العالم الثالث من حيث تقديمها قراءة لواقع المجتمع السنغالي المحكوم بالحسابات الدينية والاقليمية والقبلية بحديثها عن «بورجوازية أجنبية (فرنسية واوروبية ولبنانية وسورية) وبورجوازية كومبرادورية وبورجوازية وطنية، وبروليتاريا، والفلاحين، والبورجوازية الصغيرة، والارستقراطية الاقطاعية». ولا يشذ برنامج الرابطة عن السياق العام المعروف لبرامج الاحزاب الشيوعية في دول العالم الثالث التي ترى، (أو، الأصح القول، كانت ترى قبل انهيار الاتحاد السوفياتي) ضرورة المرور بطور «الثورة الديمقراطية الوطنية» قبل بلوغ مرحلة «الثورة الاشتراكية».

المنظمة الاشتراكية للعمال (و«بابواب»): يتزعمها مابيا باثليه. وهي حركة تروتسكية تحاول الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من تعاليم الأب الروحي ليون تروتسكي. تشن معارك ايديولوجية ضد حركات يسارية صغيرة متهمة إياها تارة بـ«الردة» ومرة بـ«السقوط في حبائل الامبريالية».

وعن يسار ويمين هذه المنظمة، هناك مجموعات كانت منتعشة قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، وكانت تمتلك فعالية في تحريك الشارع والجامعة، أهمها منظمة «تحالف العمال والفلاحين» التي اختارت لها إسم «بابواب» (PAPOAP)، وهو إسم شجرة سنغالية عريقة لا يوجد منها إلا في السنغال وهي تشبه شجرة الزيتون.

«حزب الله»: جاء وليد الموجة الدينية التي عمّت العالم الاسلامي على أثر احداث ايران ونجاح الثورة الاسلامية فيها. تزعمه الشيخ أحمد نياس. منع هذا الحزب، وتراجع نياس عن الثبات عليه بعد نفي وسجن (راجع باب «الصوفية السنغالية»).

«الصوفية السنغالية»
طرق، جمعيات وقادة

(مراجع هذا المبحث: «العربي»، العدد ٤٣٦، آذار ١٩٩٥، ص ٤٢-٤٦؛ «الوسط»، العدد ١٥٤، ٩ كانون الثاني ١٩٩٥، ص ٣٢-٣٧؛ «لوموند ديبلوماتيك»، عدد تشرين الثاني ١٩٩٥، ص ٢١).

نبذة عامة: ينقسم المسلمون في السنغال (نحو ٩٠٪ -بعض المراجع تقول ٩٤٪- من مجموع السكان) إلى اربع طرق صوفية رئيسية تعترف بها الحكومة وتتعامل معها وبخاصة عند الانتخابات. وعلى رأس كل طريقة خليفة أوحد، أو خليفة يتبعه خلفاء صغار، والمعترف به هو الخليفة العام. والخليفة حر مع أتباعه وفي تنظيم البناء الهرمي، لطريقته سواء على مستوى الفروع أو السلّم القيادي، عنده السر الذي لا يلقن إلا



تمسير هويي.–«الشيخ أمادو بمبا» (١٩٨٠):
عنوان لوحة نشرتها «لوموند ديبلوماتيك» (عدد تشرين الثاني ١٩٩٥، ص ٢١) وعلقت عليها بالكلام التالي:
«لعبت الجمعيات والاخويات الدينية التي ظهرت في افريقيا في القرن الخامس عشر دور الوسيط بين الثقافات المحلية والاسلام العربي. استطاعت افريقيا، من خلال الطرق الصوفية، استيعاب الاسلام، فصنعت قديسيها وأولياءها الخاصين بها، واختطت دروبًا سار الشيوخ في طليعتها. إن إحدى السمات المميزة لخصوصيات الصوفية هو دور الشيخ القيادي على طلابه واتباعه، بحيث ان هذا الدور لا يتعلق بالشأن الروحي فحسب، بل يطال حياة الطلاب والاتباع الزمنية والدنيوية، فيفرض عليهم طاعة الشيخ حتى في ما يتعلق بحياتهم المهنية والعائلية...».

للمريدين، كما ان لديه كتب الطريقة وعهودها. والخليفة هو الذي يقوم بتنظيم الاحتفالات الدينية في مختلف المناسبات، وفي العادة تقوم الحكومة بايفاد ممثل لها في تلك المناسبات.

وتعد التيجانية من أكبر الطرق الصوفية إذ يمثل أتباعها نحو ٥٠٪ من السكان. ومؤسس هذه الطريقة هو الشيخ أحمد التيجاني، وهو من أصل جزائري.

تأتي الطريقة المريدية في المرتبة الثانية (البعض يعتبرها أكبر من التيجانية)، وصاحبها هو الشيخ أحمد بمبا. وهذه الطريقة سنغالية محضة وليس لها أي اتصال بالخارج. وهي ابنة شرعية للتربية الافريقية بأعرافها وموروثاتها.

ثم تأتي القادرية، والقادريون أصحاب محمد عبد القادر الجيلاني الذي توفي في بغداد (٥٦١هـ)، وهي من اقدم الطرق الصوفية، وقد دخلت إلى غربي افريقيا في القرن الخامس عشر. ويبلغ عدد القادريين نحو مليون شخص.

ويأتي اللايين في المرتبة الرابعة، وهم أقلية، إذ لا يتجاوز عددهم أكثر من ١٥٠ ألف نسمة.

ولكل طريقة عاصمة أو مدن معروفة مرتبطة بها. فمدينة طوبى مثلاً هي عاصمة الطريقة المريدية، ومدينة كمبرين هي عاصمة الطريقة اللايينية، ومدينة أنجاسان هي قاعدة الطريقة القادرية، ومدينة جنينة للتيجانيين.

وإذا كانت الطرق الصوفية قد استطاعت ان تلعب دورًا بارزًا في الحفاظ على الاسلام في السنغال وفي غربي افريقيا، فإن هذه الصورة قد بدأت في التغيير تدريجيًا منذ ان نالت السنغال استقلالها في اوائل الستينات. فقد ظهرت اجيال من المتعلمين احدثت متغيرات كثيرة ادت إلى اتساع رقعة الاستقلال الفكري والتحرر لدى المثقفين، الامر الذي أدّى إلى تقليص نفوذ رجال الطرق الصوفية. ففي السنغال الآن نشاط ديني اجتماعي منظم تديره هيئات وجمعيات ومنظمات اسلامية تشكلت من مجموعة السنغاليين الذين درسوا في بلدان عربية مثل الجزائر والمغرب والقاهرة الفقه واللغة العربية والدراسات الاسلامية، وقد التقت وجهات نظرهم على ضرورة ان يختاروا صيغة جديدة للتحرك تتجاوز الطرق الصوفية وجماعاتها وتتبنى الاسلام البعيد عن الخرافات. وإلى جانبهم نمت مجاميع تتمثل في الوعاظ والدعاة الذين يصبّون جهدهم على محاربة البدع، وكذلك جمعيات ومنظمات تغذيها بعض الدول العربية والاسلامية (مراكز صحية، مستشفيات، مساجد، مدارس، مساعدات).

اللايين: أتباع طريقة صوفية. خليفتهم الحالي «حسن لاي» (حسن ا لله). يشتق إسم طائفتهم (اللاهيون) من إسم الجلالة «ا لله» (لاي، باللهجة المحلية) أي بلغة عربية منحوتة من اللهجة «الولفية»، الـ(«ا لله»-يون). ولا يطلق ابناء الطائفة على انفسهم اسماء آبائهم، فبعد الاسم الشخصي يأتي «لاي» (ا لله).

ويعتقد اللايين بان إمامهم لم يمت بل بقي في الخلافة ثمانية اعوام وترك خمسة اولاد ثم استتر في مكان ما. ويقولون ان النبوة لا تنقطع، وان روح النبي تحل في روح إمام الطائفة الذي «خصه ا لله بالنبوءة»، لكنهم مع هذا يعتقدون بأن القرآن هو رسالتهم.

يعتبر مؤرخون للصوفية السنغالية ان طريقة اللايين نوع من التلفيقية الصارخة تجمع بين الوثنية الافريقية وبعض القصص الواردة في القرآن او في تراث الاسلام محرفة أو خارجة عن سياقها. ولا يميز «اللايين» بين الاسلام وثقافتهم الخاصة، وهم منغلقون عرقيًا ما جعل أنصار طريقتهم لا يتجاوز الـ١٥٠ ألفًا من قبيلة «ليبو».

والتعايش بين القديم الافريقي والاسلام يلاحظ لدى كل الطوائف لا طائفة اللايين وحدها. وهو يظهر اساسًا خلال الاعياد الاسلامية

الكبيرة، وحلقات الذكر والمناسبات الاجتماعية كالميلاد والزواج والوفاة.

المريدون: تأسست طريقة (طائفة) المريدية في ١٨٨٧ على يد آمادو بمبا الذي قاوم الاستعمار الفرنسي باسلوب يشبه اسلوب المهاتما غاندي، ما عرّضه للنفي إلى الغابون ثم إلى موريتانيا، وأوجد له هالة من الاحترام. وتعلم في موريتانيا العلوم الاسلامية والعربية، وأخذ الطريقة القادرية في التصوف على يد شيخ موريتاني. لكنه حينما عاد إلى بلاده أسس طريقته الخاصة باسم «المريدية» التي تعني ان اتباعها «يريدون وجه الله». ومثل معظم زعماء الطرق السنغاليين خرج آمادو بمبا بدعوته وعمره ٤٠ سنة. ونسجت المخيلة الشعبية حوله الاساطير والأعاجيب.

وتقوم العلاقة بين الشيخ وأتباعه على اساس الاستسلام الكامل. والمطلوب من «المريد الجديد» ان يمثل امام الشيوخ ويصرح بالعبارة التي تلخص كل شيء: «جبلو» أي «أسلمت نفسي»، وان يكون «مثل الميت في يد غاسله». وتنظم الطائفة نفسها في شكل دقيق. ويأتي «الخليفة العام» المنحدر من آمادو بمبا على رأس الهرم، وهو الزعيم الروحي والدنيوي الذي يدير شؤون الطائفة ويمارس نفوذًا مطلقًا. وهو في نظر الاتباع «قديس هدفه تحقيق ارادة المؤسس آمادو بمبا». ثم يأتي كبار الشيوخ، وهم إما احفاد الزعيم أو من خلصائه. ويملك كل شيخ (مارابو) ارضًا واسعة يزرعها الاتباع الذين يجدون في ثروة اسيادهم رمزًا لعظمة طائفتهم، وطريقًا إلى دخول الجنة.

التيجانيون: طريقة صوفية شهدت تراجعًا بعد ظهور الشيخ آمادو بمبا، لكنها ما زالت الطريقة التي تنظم حياة معظم مسلمي السنغال، إلا انها منقسمة طوائف متعددة متنافسة، ولا تحظى بالمكانة الاقتصادية الكبيرة التي جعلت المريدية متحكمة بشؤون البلد، وإن كانت حاضرة اقتصاديًا. ولهذه الطريقة نفوذ روحي واسع يتجاوز السنغال. وارتبطت التيجانية في اذهان الناس بالوقوف إلى جانب المستعمر الفرنسي، إلى ان جاء خليفتها الشيخ ابراهيما نياس (توفي في ١٩٧٥) فاعطاها الصبغة الوطنية، وتحولت مدينة كولخ في عهده إلى عاصمة يفد عليها الاتباع من داخل البلاد وخارجها. وتنشط هذه الجماعة في شكل لافت في صفوف الاميركيين السود، ووثقت صلاتها بالعرب. واقام ابراهيما نياس علاقات بالكثير من زعماء العالم العربي من بينهم عبد الناصر، وبرز في منظمة المؤتمر الاسلامي شخصية اسلامية مرموقة. ولا يشعر العربي ولا المسلم بالغربة وهو يزور مقرات الشيوخ التيجانيين.

إضافة إلى الفرع الكولخي من التيجانية وخليفته ابراهيما نياس، هناك فرع مدينة «تيواون» وخليفته الشيخ عبد العزيز سي (مولود ١٩٠٤). ويعتبره أتباعه «الخليفة العام للطريقة التيجانية». ويميل هذا الفرع إلى تقليد المريدية في التنظيم والانصياع لزعيم واحد، والاهتمام بالسيطرة الاقتصادية.

مدينة «غوناص» هي إحدى المدن التي تعود إلى فئة تيجانية «اصولية». تأسست في ١٩٣٦ في الريف بعيدًا عن قوانين الدولة السنغالية العلمانية، وضرب عليها مؤسسها صيدوبا العزلة عن باقي اجزاء البلاد لتبقى مدينة فاضلة.

قالت جماعة «غوناص» انها تريد اسلامًا نقيًا «من الشوائب التي لحقت في البلدان الافريقية». وازداد انصار الطائفة من قبيلة بولار التي تسكن الارياف، والتي هي في الاصل وثنية. وظلت مدينة غوناص على مدى ٤٠ سنة، أي حتى ١٩٧٧ «جمهورية معزولة» عن باقي البلاد وتطبق احكام الشريعة الاسلامية بطريقتها الخاصة: الصلوات إلزامية، والمراقص وما شابهها ممنوعة. ولعل الخاصية الاهم كانت منع اختلاط الجنسين.

و لم تتجاوز علاقة هذه المدينة بالدولة تسويق الفستق ودفع الضرائب. و لم يكن فيها مدرسة ولا مكتب بريد ولا شرطة. وقادت محاربة «حضارة الغرب» إلى اعمال عنف سببها احتجاج السكان على افتتاح فرع لمصرف في المنطقة، واحرقوا فندقًا لمنع اجتذاب السياح الغربيين.

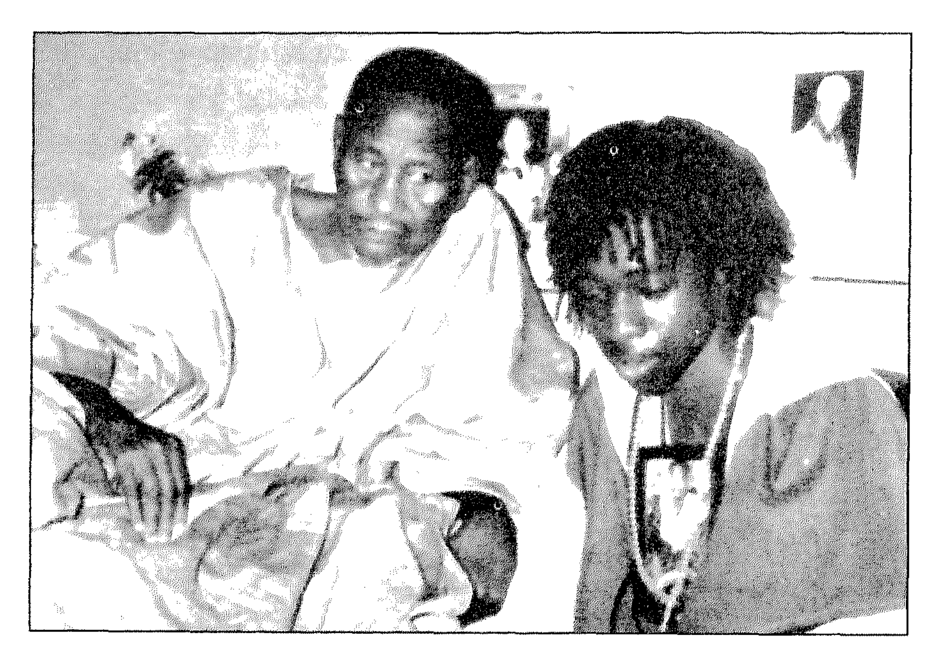
وعاشت الطائفة في غوناص، قبل ١٩٧٧، متضامنة متكافلة تنفذ نشاطها الزراعي في شكل جماعي. ويتولى زعيمها صيدوبا، الذي لم ينغمس مثل الآخرين في شؤون المال، تسويق الفستق. أما العام ١٩٧٧ فكان نقطة تحول أنهت حالة العزلة لدى المدينة. فقد نشبت فيها احداث عنف مع جماعات «الفلان» الوثنية السابقة أدت إلى تدخل الدرك لمدة شهور، ثم افتتحت الدولة لهم مركزًا دائمًا، وبعده مدرسة، ثم أدخلت زراعة التبغ، وأصبحت غوناص مدينة سنغالية مثل الأخريات.

«عباد الرحمن»: إحدى الجماعات الاصولية الصغيرة وأكثرها حركة وفعالية. وجودها الأهم في مدينة تييس (شرقي داكار). تحمل لواء مكافحة «الصوفية السنغالية» التي تعتبرها تحريفًا للاسلام. ناشطة وسمعتها طيبة، يلتف حولها الشبان الناقمون على من يصفونهم بـ«المتاجرين بالدين الغارقين في البدع». وكثيرون يعتبرون ان المستقبل لمثل هؤلاء الشباب الذين يتمتعون بوجود قوي في الجامعات. ولكن سيكون عليهم عمل الكثير لكي يتمكنوا من ان يكونوا اصحاب شأن بسبب وجود «امبراطورية الصوفية» المتحكمة والمعتمدة على قاعدة اقتصادية قوية.

«الصوفية السنغالية» سياسيًا: ظل الاسلام السنغالي مع الحاكم سواء أكان سلطة الاستعمار الفرنسي أو الرئيس الكاثوليكي ليوبولد سنغور أو خليفته المسلم عبدو ضيوف. وعارض الشيوخ الصوفيون الاستقلال عن فرنسا وقادوا حملة ضد الاستقلال في استفتاء «لا أو نعم» الذي منح الفرنسيون بموجبه الاستقلال لمستعمراتهم الافريقية. وقبل اسابيع قليلة من الاستفتاء، انتظم الشيوخ الصوفيون، وأتباعهم، في «رابطة الدفاع عن الجمهورية الخاصة»، وحاولوا بعدما صوتت الغالبية بـ«نعم» للاستقلال التأثير في الدستور الجديد ليضمن لهم بعض النفوذ، لكنهم لم ينجحوا. فردّوا بتأسيس «حزب التضامن السنغالي» برئاسة الشيخ التيجاني سي، احد الوجوه التيجانية البارزة، وبدعم من صناعيين ورجال أعمال فرنسيين. ودخل الحزب الانتخابات التشريعية لكنه لم يدخل البرلمان لعدم حصوله على أكثر من ١٢٪ من الاصوات. واندفع الزعيم التيجاني سي، بعد هذا في اثارة قلاقل دخل على أثرها السجن و لم يخرج إلا بالتزام من «الخليفة العام» (للتيجانيين) بحل الحزب.

ومن اسباب سلسلة الهزائم السياسية «للصوفيين السنغاليين» ان الزعامات الدينية كانت تسبح ضد التيار و لم يكن لديها الخبرة السياسية القادرة على اقناع الناخب. واستطاع الرئيس السنغالي سنغور ان يجتذبهم واحدًا بعد الآخر بالنقاشات الفردية والهدايا والمجاملات. وتحولت العلاقة منذ ذلك التاريخ إلى «تبادل للمنافع والخدمات». السلطة تقدم الهدايا والقروض المصرفية والتسهيلات وتعين الاتباع، والشيوخ يضمنون السيطرة على الشارع والاصوات.

لكن الطوائف تمكنت من تقوية مراكزها بالتغلغل داخل المجتمع المدني، واكتسبت المزيد من الاتباع في صفوف النخبة بسبب اقتدارها الاقتصادي. وكانت اول مواجهة حقيقية بينها وبين السلطة في ١٩٧٢ في شأن قانون الاسرة الذي تمكن رجال الدين من تعطيله عمليًا على رغم من فشلهم في اسقاطه. فقد اعطوا تعليمات لأتباعهم بعدم التوجه إلى المكاتب الحكومية في شؤون الزواج والطلاق وبجعل الاسلام محور



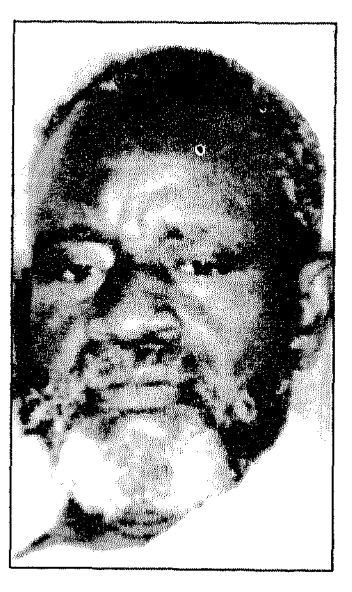
أحد شيوخ المريدية مع تلميذة.



حسن لاي إمام اللايين.



عبد الله نياس خليفة التيجانية.



الخليفة العام للمريدية الشيخ سامبو امبكي.

(صور هذه الصفحة من «الوسط»، العدد ١٥٤، تاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٩٥).

الاهتمام، وبدأت كل الاطراف تستغله لمصلحتها. وركزت المعارضة على الجانب الاسلامي من سياسة الحكومة وهو الجانب الأكثر حساسية فطرحت مسألة العلمانية في بلد ٩٥٪ من سكانه مسلمون.

«**خميني السنغال**»: وجاء نجاح الثورة الاسلامية في ايران في ١٩٧٩ عامل دفع للاسلام السياسي في البلاد. وكان من نتائجه المباشرة مغامرة الشيخ أحمد خليفة النياس، وهو سياسي ورجل دين له ثقافة اسلامية واسعة ويتقن العربية ويتحدث الفرنسية وينتمي إلى البيت التيجاني (الطريقة الصوفية الأهم في البلاد) في مدينة كولخ. دعا نياس، الذي لقب «آية الله الكولخي» و«خميني السنغال» إلى ثورة اسلامية، وحاول تشكيل حزب اسلامي باسم «حزب الله» بادرت السلطات إلى حظره، ووزع أشرطة فيديو تدعو الناس إلى ثورة اسلامية على الطريقة الايرانية، ودعا من باريس سلطات بلاده إلى طرد القواعد الفرنسية، ودفع اتباعه إلى اعمال عنف اعتقل على أثرها عدد من مؤيديه من بينهم أخوه سيدي لامين نياس الذي يصدر يومية «الفجر» **l'Aurore** المعتبرة في السنغال صحيفة الاوساط الاصولية.

وبعد رفض السلطات الفرنسية منح «خميني السنغال» وضع اللاجىء السياسي توجه إلى طرابلس الغرب في نهاية ١٩٧٩، وأحسن الليبيون استقباله، ما أدّى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين داكار وطرابلس. واعتقل نياس في النيجر في ١٩٨١، وسلم إلى داكار التي افرجت عنه بعد فترة في مقابل التزام وقف نشاطه السياسي. لكنه ما لبث ان استأنف هذا النشاط بحرق العلم الفرنسي امام جمهور اثناء زيارة الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران لداكار، وتوعّد الجالية الفرنسية بالعقاب إذا لم ترحل القواعد العسكرية، ورفع شعار «أمس ايران وغدًا السنغال».

وقادت هذه الاحداث إلى اعتقاله مجددًا مع ثلاثة من اخوته. وتقدمت مجموعة اخرى من الكوادر بطلب ترخيص لحزب «التجمع من اجل الانقاذ الوطني». وقالت هذه المجموعة في وثائق الحزب إنه يستلهم روح الاسلام، لكن السلطات منعت هذا الحزب.

(في آخر تحقيقها، تقول «الوسط»، المرجع المذكور في مقدمة هذا الباب، ما حرفيته):

وقال آية الله الكولخي (المقصود الشيخ أحمد خليفة نياس نفسه) ان «فكرة الحزب الاسلامي ما زالت قائمة ووجوده حق لكنه يصطدم بعقبتين ينبغي ازالتهما الاولى العلمانية التي تعتمدها السلطة، والثانية هي مصالح المشيخات (الشيوخ) الصوفية. ينبغي كسر حاجز العلمانية الذي يعمل على طمس الوجه الاسلامي والعربي للسنغال».

ويطرح موضوع علمانية الدولة التي توجب عدم الاشارة إلى الدين في شكل دائم في المحاضرات والخطب والمقالات التي تنشرها الصحف المقربة من الاوساط الاسلامية. وفجّر أحمد نياس هذا الموضوع خلال حضوره إلى المحكمة شاهدًا في قضية اغتيال رئيس المجلس الدستوري التي حوكم منفذوها في تشرين الاول ١٩٩٤.

وقال وهو يشهد «أحلف بالله...»، فصرخ فيه رئيس المحكمة، «قل أحلف... فقط، وإلا سترد شهادتك». ورد «خميني السنغال»: «إذا كنت جادًا في ما تقول فآتِ بي إلى صالة لا يوجد بها الله».

ويعتقد خليفة نياس ان تشكيل حزب اسلامي يتطلب الحصول على الكثير من المال الذي يسمح له بـ«استجابة المطالب المادية لزعماء الطرق الذين يحصلون على الملايين في شكل هدايا وتسهيلات من الحكومة». وهو يرى ان «الاصولية لا تهدد البلاد الآن لأن الشارع في يد المشيخات

الصوفية» التي يعتقد بأنها «زاهدة الآن في الحكم المباشر ومكتفية بالاستفادة المادية ورعاية المرشحين للانتخابات الرئاسية والبرلمانية»، وهي «تطرح في الواجهة اشخاصًا تستطيع التحكم بتصرفاتهم»، وتصر على «الابتعاد عن التبني الكامل لأي شخص لتتحاشى الانعكاسات السلبية لسلوك السياسيين وادارتهم للشؤون العامة».

لكن نياس الذي تحول من المعارضة إلى الموالاة يحذر من ان «سوء الاداء الاقتصادي والسياسي للحاكمين يزيد من ضغط الشارع. كما ان عجز السلطات عن تلبية المطالب الكثيرة التي تطرحها المشيخات من شأنه ان يعجّل بالطلاق بين الاسلام ومؤسسة الحكم» .

سنغامبيا
(السنغال–غامبيا)

البداية: اشتدت حمى المنافسة بين الفرنسيين والانكليز في غربي افريقيا عندما أنشأت فرنسا في عهد لويس الرابع عشر «شركة السنغال»، وكانت النتيجة بعد عدة عقود لصالح الانكليز الذين توصلوا إلى تثبيت اقدامهم في السنغال بانشائهم مستعمرة «سنغامبيا» (مناطق في السنغال وفي غامبيا). ولكن الفرنسيين تمكنوا من اعادة السيطرة على السنغال أثناء حرب الاستقلال الاميركية في ١٧٧٩، ولم يبقَ لبريطانيا، بموجب معاهدة فرساي (١٧٨٣) إلا غامبيا. ولم تصبح هذه الأخيرة مستعمرة تابعة للتاج البريطاني إلا في ١٨٢١.

وحاولت فرنسا بعد ذلك وفي مناسبات عديدة ان تضم غامبيا (باعتبارها جيبًا داخل السنغال، راجع «غامبيا» في جزء لاحق) إلى السنغال عارضة على انكلترا استبدالها بأقاليم فرنسية أخرى في ساحل العاج، أو الغابون، أو الهند. ولكنها لم تنجح في ذلك. وفي ١٨٨٩، توصل الطرفان الاستعماريان إلى التوقيع على اتفاق حول تعيين الحدود بين السنغال وغامبيا. وكانت غامبيا آخر المستعمرات البريطانية في افريقيا التي تنال استقلالها بعد ساحل الذهب (غانا) ونيجيريا وسيراليون، وذلك في ١٩٦٥.

بعد الاستقلال، محاولات تقارب: اعتقد البعض ان الاصلاح الدستوري في غامبيا (١٩٧٠) وكان داودا جاوارا رئيسًا لجمهوريتها، كان يهدف إلى تسهيل التقارب بينها وبين السنغال. وكانت الجهود الآيلة إلى انضمام غامبيا إلى السنغال قد بدأت مباشرة بعد اعلان الاستقلال في باتهورست (أصبح إسمها بانجول، عاصمة غامبيا). وتشكلت لهذه الغاية امانة عامة ولجنة وزارية مشتركة سنغالية وغامبية، كما وقعت معاهدة للتعاون في ميادين الدفاع والدبلوماسية والصحة والاقتصاد والاعلام، وغيرها.

خلافات: وبعد ذلك استمرت العلاقات في صعود وهبوط بين داكار وبانجول، وبقيت قضية الوحدة (المقبولة مبدئيًا من غامبيا) مؤجلة. وحتى الوحدة الجمركية لم تحقق اية خطوة ايجابية.

وقد أعلن الرئيس السنغالي سنغور، في خطاب القاه في ١٩٦٩، عن نفاد صبر السنغال من اعمال تهريب البضائع التي يقوم بها الغامبيون، ووصف هذه الاعمال بأنها اصبحت «خطرًا قاتلاً» للامة السنغالية. وكان سنغور يتهم الحكومة الغامبية بالمماطلة والتهرب من تحقيق الوحدة الجمركية والوحدة الشاملة.

ولم تنحصر الخلافات بين بانجول وداكار بالمسائل الاقتصادية، إذ اقامت غامبيا علاقات صداقة مع جمهورية غينيا، ودعمت ثوار الحزب الافريقي لاستقلال غينيا وجزر الرأس الأخضر في غينيا-بيساو، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين داكار وكوناكري متوترة، وفي حين كان الرئيس سنغور يدعم منظمة تحرير أخرى في غينيا-بيساو هي جبهة النضال للاستقلال الوطني لغينيا. وفي ١٩٧٣، أعلن جاوارا مرة جديدة ان الاتحاد بين البلدين «لا يمكن ان يتحقق في الوقت الحاضر». وفي ١٩٧٤، وقعت حوادث على الحدود زادت من تفاقم الوضع المتوتر بين عاصمتي البلدين.

أحداث تضغط باتجاه الاتحاد: بعد زيارة سنغور لغامبيا في ١٩٧٦، أعيد طرح مشروع الاتحاد الجمركي، ووقع اتفاق حول تعيين الحدود المتنازع عليها، وانسحبت السنغال من نحو ٢٠ قرية غامبية، كما جرى الاتفاق على قيام مشاريع مشتركة (أهمها سدود على نهر غامبيا)، اشتركت غينيا في ١٩٧٩ في بعض هذه المشاريع بعد تسوية الامور المعلقة بينها وبين السنغال.

وفي آخر تموز ١٩٨١، وقع انقلاب عسكري بينما كان رئيس غامبيا داودا جاوارا موجودًا في لندن بمناسبة زواج ولي العهد البريطاني

٦ آب ١٩٨١: جنود سنغاليون في شوارع عاصمة غامبيا التي عاد اليها الهدوء بعد ايام قليلة من محاولة الانقلاب.



الامير تشارلز من الاميرة ديانا. وأعلن الانقلابيون عن تشكيل «المجلس الوطني للثورة»، وعلقوا الدستور وحلوا الاحزاب والجمعية الوطنية (البرلمان)، ووعدوا باقامة «دكتاتورية البروليتاريا» بقيادة حزب ماركسي لينيني. وقام بالانقلاب وحدات تابعة لـ«القوة الميدانية» في غامبيا (وهي بمثابة الدرك وعدد افرادها لا يتعدى ٦٠٠ رجل، وليس في البلاد جيش). وقد ترأس المجلس الوطني للثورة كوكلي سامبا سانيانغ زعيم الحزب الثوري الاشتراكي المحظور. وجاء جاوارا إلى داكار وطلب من الرئيس السنغالي عبدو ضيوف التدخل عسكريًا بموجب اتفاق معقود بين الدولتين في تشرين الثاني ١٩٨٠ لاجهاض الانقلاب. فدخلت وحدات من الجيش السنغالي إلى غامبيا على الرغم من معارضة عدد من القوى والاحزاب السنغالية، بينها الحركة الديمقراطية السنغالية، وحزب الاستقلال والعمل الماركسي، وحركة الثورة الديمقراطية الوطنية. وقد وجه الانقلابيون في غامبيا نداء إلى «الرفاق في غينيا-بيساو وغينيا والاتحاد السوفياتي لمساعدة غامبيا على مقاومة العدوان السنغالي» ولكن بدون جدوى. وبعد ايام، احكم الجيش السنغالي سيطرته على العاصمة وباقي المناطق بعد سقوط عشرات الضحايا ووقوع اعمال تخريب؛ ثم انتقل جاوارا من داكار إلى بانجول، وطلب الاستسلام من المتمردين الذين كانوا يحتجزون رهائن من بينهم زوجته السابقة وعدد من الدبلوماسيين الاجانب في ثكنة «القوة الميدانية» قرب العاصمة. ونجحت الوحدات السنغالية في تحرير الرهائن، ودعا جاوارا السنغاليين للبقاء في غامبيا حتى يتسنى له تدعيم نظامه.

الاتحاد: كان قد سبق هذا الانقلاب نمو مطرد للحزب الثوري الاشتراكي حتى داخل «القوة الميدانية»، ما أسفر عن توتر سياسي عام ووقوع اغتيالات وبعض اعمال العنف في الشهرين الاخيرين من ١٩٨٠، فطلب جاوارا، في ذلك الحين مساعدة عسكرية سنغالية، فلبت داكار الطلب وابقت قواتها في غامبيا حتى زال الخطر عن نظام جاوارا، و لم تسحبها إلا بعدما وقع البلدان اتفاق تعاون أمني-عسكري في تشرين الثاني ١٩٨٠.

وانتظر المطلعون على سير الاحداث والمراقبون بعث فكرة الاتحاد بين البلدين (السنغال وغامبيا) وتحقيق دولة سنغامبيا بعد هذه الاحداث، خاصة وان الدول الغربية قد رحّبت بالتدخل السنغالي، فصدر عن وزارة الخارجية الاميركية «التهاني الحارة لنجاح القوات السنغالية بمهماتها في غامبيا»، كما صدر عن هذه الدول ما ينبىء عن خشيتها من حدوث تطورات لغير مصلحتها إن تركت غامبيا لشأنها.

وبالفعل، فقد أعلن في نهاية ١٩٨١ عن قيام اتحاد سنغامبيا Sénégambie، وهو اتحاد كرّس المزيد من ا لنفوذ الفرنسي وآذن بأفول النفوذ البريطاني في هذا الجيب الصغير (غامبيا). وقد اتفق على ان يدخل الاتحاد حيّز التنفيذ في شباط ١٩٨٢. وفي ٢ تموز ١٩٨٢، عادت الدولتان ووقعتا ثلاثة بروتوكولات مكملة لميثاق الاتحاد. أما مؤسسات الاتحاد الرئيسية فهي اربع: رئيس الاتحاد، نائب رئيس الاتحاد، مجلس وزراء الاتحاد، والجمعية العامة الاتحادية.

سار الاتحاد (كونفدرالية سنغامبيا) متعثرًا حينًا، ومعلقًا احيانًا، حتى كان يوم ٣٠ ايلول ١٩٨٩ الذي شهد نهايته وحلّه باعلان رسمي من الدولتين.

مدن ومعالم

* **تييس Thies**: مدينة سنغالية، على بعد ٧٠كلم شرقي العاصمة داكار. تعد نحو ١٧٥ ألف نسمة. صناعات ميكانيكية، ومعالجة فوسفات الألومين.

* **«حوض نهر السنغال» (سدّ دياما)**: راجع «سان لويس» في هذا الباب: مدن ومعالم.

* **داكار Dakar**: عاصمة السنغال. تقع في شبه جزيرة الرأس الأخضر على الطرف الغربي من افريقيا. تعد نحو مليوني نسمة. كاتدرائية. مسجد كبير. جامعة.

لا تزال داكار تحافظ على معالم عديدة تعود إلى عهد الاستعمار، خاصة في الأحياء المجاورة لمينائها، إضافة إلى مبانيها وشوارعها الحديثة. ونمت في ضواحيها «أحزمة البؤس» (مدن الصفيح) نتيجة للنزوح الكثيف من الارياف ومعدلات البطالة المرتفعة. ميناؤها أنشىء في ١٨٦٧ ومساحته ٢١٦ هكتارًا. عقدة مواصلات جوية خاصة مع اميركا الجنوبية، وسان لويس (في السنغال) وباماكو (في النيجر). مصفاة لتكرير النفط. صناعات غذائية (زيوت ومعجنات). سياحة ناهضة.

بدأ تأسيس داكار في ١٨٦٢ على ارض مدينة قديمة للصيادين. وكان أمر بإنشائها القائد الفرنسي فيديرب (راجع النبذة التاريخية). في ١٩٠٣، أصبحت المدينة مقرًا لحكومة افريقيا الغربية الفرنسية العامة التي كانت، قبل هذا التاريخ، تتخذ مدينة سان لويس مقرًا لها. وأول اتصال جوي بين فرنسا وداكار أمّنه الطيار الفرنسي جان مرموز في ١٩٢٧. في ١٩٦٠، اصبحت داكار عاصمة السنغال المستقلة. استقبلت اول مهرجان عالمي للفنون الزنجية في ١٩٦٦ (راجع «سنغور، ليوبولد سيدار» في باب زعماء، ورجال دولة وسياسة).

جامعتها على إسم «الشيخ انتجوب» أحد كبار العلماء في العلوم الطبيعية، ويعود تاريخ انشائها إلى ١٩٣٧، وتعد اقدم جامعة في غربي افريقيا، وكانت تسير وفق نظام الجامعات الفرنسية حتى استقلال السنغال فتحولت إلى جامعة وطنية. وبلغ عدد طلابها نحو ٣٠ ألف طالب وطالبة في العام الدراسي ١٩٩٣-١٩٩٤.

* **زيغنكور Zighinchor**: مدينة سنغالية واقعة على الضفة اليسرى من نهر كازامنس وقرب مصبه. تعد نحو ١١٥ ألف نسمة. تجارة الفستق والزيوت. مرفأ للصيد. منذ القرن السادس عشر كانت محطة تجارية برتغالية، وأصبحت من الممتلكات الفرنسية في ١٨٤٠. لا تزال تحتفظ بمعالمها التي تعود إلى العهد الاستعماري، خاصة في بيوتها المبنية من الخشب (راجع «كازامنس» في هذا الباب: مدن ومعالم).

* **سان لويس Saint Louis**: في لغة قبائل الولوف إسمها «ندار» N'Dar الذي يعني المسقى (مكان الشرب والسقي). مدينة سنغالية، وسط جزيرة في نهر السنغال وعلى مقربة من مصبه وعلى بعد ٢٦٤كلم من العاصمة داكار. تعد نحو ١٢٠ ألف نسمة، ولها ميناؤها. كانت أول مركز للفرنسيين (١٦٣٨) الذين اطلقوا عليها هذا الاسم تخليدًا لذكرى ملكهم لويس الرابع عشر. احتلها الانكليز عدة مرات. كانت عاصمة «افريقيا الغربية الفرنسية» (AOF) من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٢، ثم عاصمة السنغال حتى ١٩٥٧، ثم عاصمة موريتانيا حتى ١٩٦٠.

جرى في سان لويس إقامة مشروع ضخم هو سدّ دياما الذي يمثل الجزء الخاص بالسنغال من

مشروع حوض نهر السنغال (من المشاريع الاستراتيجية الذي تستفيد منه ثلاث دول في غربي افريقيا: السنغال، مالي، وموريتانيا). وهدف مشروع سد دياما استغلال مياه نهر السنغال في اغراض الري لزراعة مساحة اجمالية تقدر بـ٣٧٥ ألف هكتار وتوليد طاقة كهربائية بقوة ٢٠٠ ميغاواط، ومنع دخول مياه البحر المالحة إلى أعالي النهر في زمن الجفاف، إذ كانت قبل بناء السد تدخل على مياه السنغال العذبة لمسافة ٢٥٠ كلم. وقد أنجز العمل في سد دياما في آب ١٩٨٦، فأخذ السنغاليون يقومون بزراعة موسمين في السنة. أما الفائدة الأخرى التي حصلت عليها السنغال من بناء هذا السد فهي ان البحيرات التي كانت جافة سابقًا مثل بحيرة جيير داخل السنغال قد امتلأت بالماء؛ كما ان السد سمح للسفن بالملاحة من مدينة سان لويس إلى قرية كاكاي في جمهورية مالي، والمسافة تبلغ ٩٣٠ كلم.

* **طوبا:** مدينة سنغالية. شهيرة بأنها أهم مكان لتجمع طائفة المريدية الصوفية. فيها مسجد طوبا الكبير الذي يحج إليه نحو مليون من أتباع الطائفة لإحياء ذكرى نفي خليفتهم آمادو بمبا. ويطلق على هذا الاحتفال السنوي إسم «المجال»، ويستمر ثمانية ايام بلياليها.

* **غوناص:** مدينة سنغالية. انفردت، لفترة، بوضع ديني وسياسي فريد في نوعه (راجع باب «الصوفية السنغالية»).

* **كازامنس Casamance:** الإسم هو تركيب لإسمين «كازا» و«مانسا» اللذين يعنيان «ملك قبيلة كازاس». وكازامنس نهر في جنوبي السنغال، طوله ٣٠٠ كلم. وهو ايضًا إسم منطقة بين غامبيا والحدود مع غينيا. ثروتها الأساسية زراعة الفستق شمالي نهر كازامنس والارز في جنوبيه. وكانت موجات الجفاف المتعاقبة على الساحل وفي السهوب تدفع السكان إلى النزوح نحو كازامنس المتميزة برطوبة مناخها. ومنذ بداية الثمانينات، نشبت حركة انفصالية مسلحة داخل قبائل ديولا وغيرها من الاتنيات القريبة منها تطالب باستقلال الاقليم (راجع «انفصاليو إقليم كازامنس» في النبذة التاريخية).

* **كولخ (كوالاك) Koalak:** مدينة سنغالية تقع على مسافة ١٩٢ كلم من العاصمة. تعد نحو ١٤٠ ألف نسمة. هي قاعدة أحد بيوت الطائفة التيجانية (طريقة صوفية هي الأكبر عددًا في السنغال)، وخليفتها يسمّى «الخليفة الكولخي»، وأتباعه يفدون إليها من داخل البلاد وخارجها.

شجرة موبي أدباوباب اعرق شجرة في السنغال (وفي افريقيا). تشكل ختم السنغال الرسمي (كما شجرة الارز في لبنان).



البحيرة الفريدة في العالم، مياهها وردية اللون في النهار وزرقاء عند الاصيل.

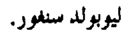


زعماء، رجال دولة وسياسة

* **ديانيه، بليز:** راجع النبذة التاريخية.

* **سنغور، ليوبولد سيدار Senghor,L.S.** (١٩٠٦–): سياسي ورجل دولة وشاعر وأديب سنغالي. صاحب نظرية «الزنوجية»، ورئيس جمهورية السنغال من آب ١٩٦٠ إلى كانون الاول ١٩٨٠. يعني إسمه: «الأسد الباسل الذي لا يُهان».

ولد في جول (السنغال) في عائلة تنتمي لقبيلة سيرير في اقليم السودان الجنوبي (مالي حاليًا). في السابعة من عمره دخل مدرسة البعثة الكاثوليكية بالقرب من جول. ثم التحق بمدرسة الليسيه في داكار. في ١٩٢٦، التحق بالتعليم الثانوي في مدرسة داكار العليا وأنهى هذه المرحلة في ١٩٢٨. في ١٩٣٨، عين استاذًا للغة الفرنسية في ليسيه مارسلان برتيلو بالقرب من باريس حيث التقى سيزير الذي كان يعمل على إطلاق نظرية «الزنوجية» Négritude. وبعد ان امضى عامًا في الجبهة أثناء الحرب العالمية الثانية اعتقلته السلطات الالمانية ثم اطلقت سراحه في ١٩٤٢، فعاد إلى التدريس. وبعد الحرب عين سنغور استاذ اللغات والحضارات الافريقية في المدرسة الوطنية الفرنسية لأقاليم ما وراء البحار. وفي ١٩٤٥، انتخب نائبًا عن السنغال في الجمعية التأسيسية للجمهورية الفرنسية الرابعة وشغل منصب امين سر الدولة في حكومة ادغار فور (١٩٥٥–١٩٥٦). أسس الاتحاد التقدمي السنغالي مع مامودو ديا (محمود ضيا). في ١٩٥٧، أسس «المؤتمر الافريقي»، وفي استفتاء ١٩٥٨، استطاع، بحكم منصبه امينا عامًا للاتحاد السنغالي التقدمي ان يقنع المواطنين بضرورة التصويت إلى جانب فرنسا. وفي ١٩٦٠، ترأس اتحاد مالي، وفي آب (١٩٦٠) انتخب رئيسًا للجمهورية السنغالية واستمر في هذا المنصب حتى





ليوبولد سنغور.

اعتزاله في ١٩٨٠. واعتبرت الاوساط الدولية اعتزاله سابقة ديمقراطية في الحياة السياسية الافريقية (راجع النبذة التاريخية وباب «الاحزاب»).

اشتهر سنغور كمثقف وأديب وشاعر إلى جانب صفته السياسية، خاصة لجهة ما كتب حول الخصوصية الافريقية، أو «الزنوجية» Négritude.

في ٧ نيسان ١٩٦٦، أقيم اول مهرجان عالمي للفنون الزنجية في داكار، تمكن فيه سنغور من ان يجمع من حوله عشرات من كبار المفكرين والكتاب والمثقفين الذين جاءوا من انحاء العالم، لا سيما من الولايات المتحدة الاميركية. وأثار المهرجان جدلاً كشف الغطاء عن صراع ثقافي عميق يدور بين تعاملين مع الشأن الافريقي: تعامل ينادي بـ«الشخصية الافريقية» ويمثلها زعماء الدول والمناطق التي كانت خاضعة للاستعمار الانكليزي، وتعامل ثان ينادي بـ«الزنوجية» ويمثلها مثقفون ومسؤولون ينتمون إلى بلدان كانت (أو كانت لا تزال) تخضع للاستعمار الفرنسي. ولم تمنع حمى النقاشات بين الانكلوفونيين وبين الفرنكوفونيين ذلك المهرجان الاول والفريد في نوعه الذي رعاه الرئيس والاديب والشاعر سنغور من ان يلعب لاحقًا دورًا كبيرًا في بعث العديد من الفنون الافريقية، كما في تحريك الشخصية الافريقية للبحث عن الجذور وعن الهوية (عن «الزنوجية»، راجع «افريقيا»، ج٢، ص٢٠٦).

وبين ١٣ و١٥ آب ١٩٩٠، جرى احتفاء كبير بسنغور نظمته مدينة اصيلة المغربية باشراف وتنسيق الصحافي والكاتب اللبناني شربل داغر. وقد صدرت في اوائل ١٩٩٤، عن دار نشر أديفرا EDIFRA أعمال هذا الملتقى في كتاب يحوي ٢٨ مداخلة تلقي نظرة سخية إلى سنغور الانسان وإلى المكانة التي يحتلها في مجال الادب أو السياسة. ومن بين الشخصيات التي ساهمت في هذا الاحتفاء: العاهل المغربي الحسن الثاني، الرئيس السنغالي عبدو ضيوف، الرئيس العاجي (سابقًا) هوفويت بوانيي، الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، عبد الله العروي، وغيرهم. وفي تصدير الأعمال كتب شربل داغر: «في زمن الانغلاق الاتني، حدثنا سنغور عن حوار الحضارات، في زمن يعرض فيه الناس علامات تمايزهم الثقافي، حدثنا هو عن التمازج والاختلاط...».

*** ضيوف، عبدو (ديوف، أبدو)** **Diouf,A** (١٩٣٥-): سياسي واداري، وأحد أعمدة السياسة السنغورية ونظامها الحزبي والسياسي في البلاد، وخليفة سنغور على رأس الجمهورية السنغالية منذ ١٩٨٠. ولد عبدو ضيوف في لوغا (السنغال)، وتلقى دراسته الثانوية في داكار، والجامعية في داكار وباريس. انضم في ١٩٦١ إلى حزب الاتحاد التقدمي السنغالي (الذي أنشأه سنغور). عين مديرًا للتعاون التقني ووزيرًا للتخطيط في ١٩٦٠، ثم امينًا عامًا مساعدًا لمجلس الوزراء (١٩٦١)، فأمينًا عامًا لمجلس الوزراء (١٩٦٤-١٩٦٥). وكان قبل ذلك حاكمًا لمقاطعة سين سالوم (١٩٦١-١٩٦٢)؛ ثم مديرًا لمكتب رئيس الجمهورية (١٩٦٣-١٩٦٥)، فوزيرًا للتخطيط والصناعة (١٩٦٨-١٩٧٠)، ورئيس وزراء «منطقة حوض السنغال». عين في ١٩٧٠ رئيسًا للوزراء حيث عمل بدقة على ادارة شؤون البلاد وفق توجيهات الرئيس سنغور. رئيس الجمهورية منذ ١٩٨٠ (راجع النبذة التاريخية).

*** غيّي، أمادو لامين Gueye Amadu Lamine** (١٨٩١-١٩٦٨): سياسي وزعيم اشتراكي سنغالي. أولى السياسة اهتمامًا باكرًا. فكان في ١٩١٢ من مؤسسي مجموعة «الشباب السنغالي». حصل على دكتوراه في الحقوق والعلوم السياسية من جامعة باريس (١٩٢١)، ومارس المحاماة في داكار، ثم عين قاضيًا في جزيرة

المارتينيك (في الكاريبي)، فجزيرة ريونيون (في المحيط الهندي). انتخب في ١٩٢٤ عمدة لمدينة سان لويس السنغالية. وبعدها فشل مرتين على التوالي في الفوز بمقعد السنغال في المجلس النيابي الفرنسي. التحق بالحزب الاشتراكي الفرنسي وأصبح زعيمًا لفرعه في السنغال في ١٩٣٧. وبعد بعث الحياة السياسية إثر انتهاء الحرب العالمية، انتخب نائبًا عن السنغال في الجمعية التأسيسية الفرنسية. وقد تقدم إليها بمشروع قانون يقضي باعتبار جميع سكان المستعمرات الفرنسية مواطنين على قدم المساواة مع الفرنسيين. وقد عرف هذا النص في ما بعد بـ«قانون ألامين غيّي».

شهدت افريقيا الفرنسية في هذا الوقت تطورًا مهمًا، وهو نشأة «التجمع الديمقراطي الافريقي» بزعامة فليكس هوفويت بواني (ساحل العاج). وقد لعب هذا التجمع دورًا اساسيًا في مسيرة افريقيا الفرنسية باتجاه الاستقلال. غير انه فشل في فرض نفسه في السنغال. فقد أوصى الحزب الاشتراكي الفرنسي غيّي وسنغور بعدم الاشتراك في الاجتماع التأسيسي للتجمع في باماكو، مخافة من تحالفه مع الشيوعيين الفرنسيين، وكانت النتيجة إبقاء السنغال مؤقتًا خارج مسيرة الاستقلال.

في ١٩٤٧، نشب نزاع بين غيّي وسنغور. فخرج الأخير من الحزب الاشتراكي وأسس «الكتلة الديمقراطية السنغالية» التي اخذت تتعاظم قاعدتها على حساب الاشتراكيين. وفقد غيّي اثر ذلك مقعده في المجلس النيابي الفرنسي في ١٩٥١، بعد ان كان قد وضع قانونًا آخر حمل إسمه ايضًا يقضي بتساوي حقوق الاوروبيين والافارقة في الخدمة المدنية في اقاليم ما وراء البحار الفرنسية.

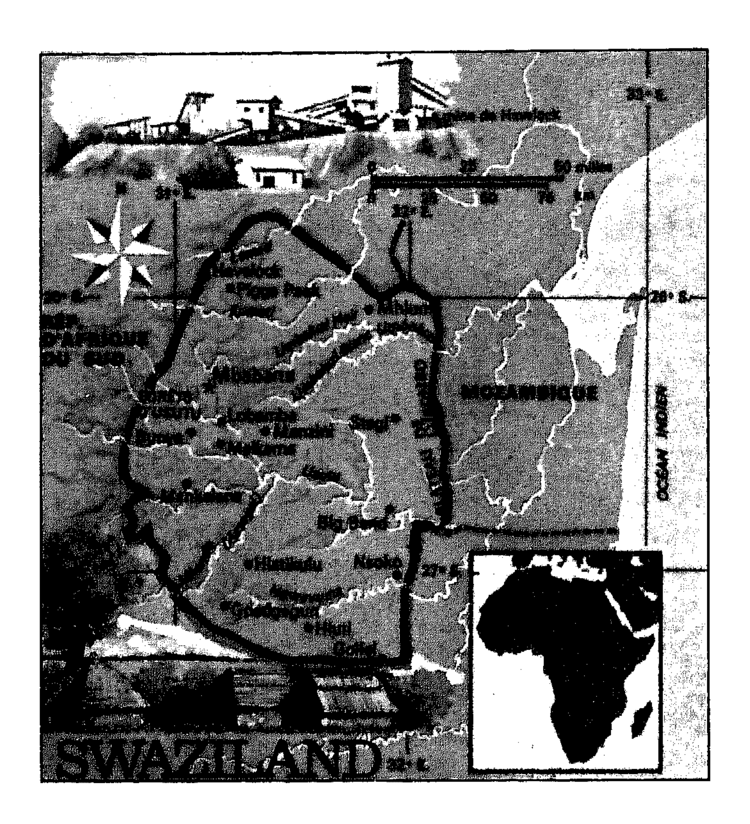
في ١٩٥٧، أنشأ غيّي حزبًا جديدًا هو «الحركة الاشتراكية الافريقية» بالاشتراك مع دجيبو باكاري من النيجر، وفيلي دابو سيسوكو من السودان الفرنسي (مالي حاليًا). وأعلنت الحركة تأييدها القانون العام الصادر في ١٩٥٦ الذي وضع إطارًا مؤسساتيًا لمسيرة الحكم الذاتي في المستعمرات الفرنسية. وكان هذا القانون يتضمن فكرة الاتحاد بين مختلف اقاليم افريقيا الغربية الفرنسية (AOF).

في ١٩٥٨، حصل تقارب جديد بين سنغور وغيّي. إذ اتفق «المؤتمر الافريقي» بزعامة سنغور و«الحركة الاشتراكية الافريقية» على تأسيس «حزب التجمع الافريقي». وهذا على صعيد افريقيا الفرنسية عامة. أما على صعيد السنغال، فقد اتحد حزب غيّي وحزب سنغور ليشكلا «الاتحاد التقدمي السنغالي». وقد أعلن غيّي في مؤتمر حزب التجمع المنعقد في كوتونو عن تأييده لفكرة الاستقلال الفوري. غير ان الحزب قرر اطلاق يد فروعه في تحديد موقفها من الاستفتاء حول الاستقلال الذي قرّر ديغول إجراءه. وكانت نتيجة الاقتراع ان صوتت كل الاقطار، باستثناء غينيا ضد الاستقلال الفوري.

وفي ١٩٥٩، انتخب غيّي رئيسًا للجمعية الوطنية السنغالية، وقد بقي في هذا المنصب حتى وفاته. وفي حزيران ١٩٦٠، أعلن استقلال اتحاد المالي الذي كان قد تشكل قبل سنة من السنغال والسودان الفرنسي (مالي). لكن الاتحاد لم يدم أكثر من شهرين. وردّ فشله إلى اقدام موديبو كيتا، رئيس وزراء مالي، على دعم غيّي لرئاسة الاتحاد، بدلاً من سنغور كما كان متفقًا في الاصل. قبل وفاته، كان غيّي نشر كتابًا حول سيرته الذاتية بعنوان «مسيرة افريقية».

* **نياس، الشيخ أحمد:** راجع باب «الاحزاب»، وباب «الصوفية السنغالية».

* **واد، عبد الله:** راجع النبذة التاريخية، وباب «الاحزاب».



سوازيلاند

بطاقة تعريف

الاســم: مملكــة نغــوان Ngwane ســابقًا. و«سـوازيلاند» مـن إسـم قبـائل «سـوازي» Swazis، وهي فرع من قبائل البانتو.

الموقع: جنوبي القارة الافريقية. تحيط بها جنوب افريقيا وموزمبيق، ولا منفذ لها على البحر.

المساحة: ١٧ ألفًا و٣٦٣كلم م.

العاصمــة: مبابـان Mbabane، وتقـع شـرقي البلاد، وتعد نحو ٦٠ ألف نسـمة، وكـانت أول مركز تجاري بريطـاني في البـلاد. وتـأتي بعدهـا مانزيني Manzini. أمـا لوبمبـا Lobamba، وتعـد نحو ٣ آلاف نسـمة فهـي مقـر الملكيـة والمجلس التشريعي.

اللغات: الانكليزية والسوازية (رسميتان)؛ وهناك الأفريكانية (اللغة المحلية الخليط التي تعود إلى ايام البوير)، ولغة الزولو.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٨٥٠ ألـف نسـمة، منهم نحـو ٢،١٪ بيـض. يعتنقـون المسـيحية (٧٧٪)، والمعتقـدات الاحيائيـة المحليـة (٢٣٪). أكثريتهم الساحقة سوازيون.

الحكم: ملكي. سوازيلاند عضو في الكومنولث. الدستور المعمول به صادر في ١٣ تشـرين الاول ١٩٧٨. الملك الحالي مسواتي الثالث (مولـود ١٩٦٨) الـذي نصـب ملكـا في ٢٥ نيسـان ١٩٨٦، وبدأ يحكم منذ ١٩٨٩. رئيس الـوزراء أوبيد دلاميـني (منـذ ١٢ تمـوز ١٩٨٩). المجلس التشـريعي قـائم على أسـاس قبلـي (٤٠ عضـوًا منتخبًا و١٠ أعضاء معينين)؛ مجلس الشيوخ مـن ٢٠ عضـوًا نصفهـم منتخبًـا، والنصـف الآخـر معينًا.

الاحزاب: الملك الحالي منع الاحزاب، وكذلك

كان قد حظرها سلفه الملك سوبهوزا الثاني في ١٩٧٨. وأهم الاحزاب التي كانت ناشطة في البلاد:

حزب إيمبو كودفو الوطني: هو حزب الملك الرسمي. تشكل في ١٩٦٤ على أساس الحفاظ على النظام الملكي وعلى العادات والتقاليد المحلية، ونادى بالتعايش العنصري وبالصداقة مع جميع جيران سوازيلاند بما في ذلك النظام العنصري في جنوب افريقيا. كان رئيسه الجنرال مافيغو دلاميني، من الأسرة المالكة.

حزب نغيوان الوطني الحر: قومي وطني، من دعاة الوحدة الافريقية. طالب باصلاح الدستور وتقليص سلطات الملك. كان رئيسه دكتور أمبروز زوان.

الحزب التقدمي السوازيلاندي: حزب صغير تأسس في ١٩٢٩ على انقاض الرابطة التقدمية السوازيلاندية. كان رئيسه قبل حل الاحزاب ج.ج. نكوكو.

الاقتصاد: يعمل في الزراعة ٤٩٪ من اليد العاملة، وتساهم بنحو ١٨٪ من الناتج العام. ويعمل في الصناعة ١٨٪ (٢٧٪)، وفي الخدمات ٣٢٪ (٤٤٪)، وفي المناجم ١٪ (٢٠٪).

لا تحتل الزراعة أكثر من ١٠٪ من مساحة البلاد، وأكثر من نصف الاراضي الزراعية يملكها السكان البيض. وأهم المزروعات الذرة التي تشغل نحو ٤٤٪ من مساحة الاراضي المزروعة، وهي مخصصة للاستهلاك المحلي؛ ثم قصب السكر الذي يعتبر اول زراعة للتصدير (نحو ٥٥٪ من مجموع الصادرات الزراعية ونحو ١٨٪ من الناتج العام).

في سوازيلاند ثروات منجمية مهمة، وأهمها الأمينت الذي يضع البلاد في المرتبة الحادية عشرة في العالم بانتاجه؛ ثم الحديد، والفحم الحجري.

الصناعة ضعيفة جدًا، وكادت تكون منعدمة قبل نحو عقدين، وكان عدد كبير من اليد العاملة يذهب إلى جنوب افريقيا للعمل في مناجمها. ومنذ الثمانينات، بدأت بعض الصناعات في الأخشاب، وتكرير السكر، والنسيج.

هناك نحو ٢٢٤كلم من خطوط سكة الحديد تربط منطقة المناجم في نغوينا قرب مبابان العاصمة حتى حدود موزمبيق حيث تتصل بخط يصل إلى ميناء ماباكو. وهناك نحو ٢٧٥٠كلم من الطرقات (ليست كلها معبدة). ويقع المطار الدولي في ماتسابا قرب مانزيني.

نبذة تاريخية

يعتبر السوازيون انهم يعودون بأصلهم إلى فرع من فروع قبائل البانتو الذين استوطنوا جنوب شرقي افريقيا (موزمبيق) في القرن الخامس عشر أو السادس عشر. ويقولون انهم وصلوا إلى اقليم سوازيلاند الحالي في اواسط القرن الثامن عشر. وكانوا بادىء ذي بدء يشكلون قبائل صغيرة متفرقة قبل ان يتوحدوا بقيادة قبيلة دلاميني (كبرى قبائلهم) التي لا تزال منها الأسرة المالكة.

في السنوات التي تلت ١٨٤٠، كان على رأسهم ملك يدعى مسواتي، وكانوا يعيشون حالة حرب دائمة ضد قبائل الزولو التي كانت تستوطن جنوبي البلاد. وقد طلب مسواتي حماية البريطانيين له ولشعبه، لكنهم رفضوا الطلب. وعلى أثر الاتفاق المعقود بين بريطانيا وجنوب افريقيا في ١٨٤٩ وجد السوازيون أنفسهم، رغمًا منهم، تحت حماية جمهورية ترانسفال التي كان بول كروجر رئيسًا لها.

بعد حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢)، أمسكت الحكومة البريطانية بيدها ادارة شؤون سوازيلاند، و لم يعد من حق ملك السوازيين (وكان يلقب بـ«الزعيم الأكبر»)، ولا من حق مجلسه، ممارسة أي حق من حقوق السيادة إلا على الافارقة الاصليين. وفي ١٩٠٣، أصبحت سوازيلاند محمية بريطانية، وفي ١٩٠٧، مستعمرة بريطانية. وفي ١٩٢١، أنشىء «مجلس مشورة اوروبي» بهدف مساعدة الادارة الرسمية في كل شأن متعلق بالاوروبيين في البلاد. وقد ألغي هذا المجلس في ١٩٦٤ حين أصدر الانكليز دستورًا للبلاد ينص على إنشاء مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي. ومخافة من ان يلغي هذان المجلسان عادات البلاد ومؤسساتها التقليدية، عمد السوازيون إلى انتخاب جميع اعضاء المجلس التشريعي من اعضاء الحزب الذي أسسه زعيمهم الأكبر سوبهوزا الثاني (١٨٩٩-١٩٨٢) الذي أصبح ملك ورئيس دولة سوازيلاند منذ ١٩٧٦، وهو ابن الملك بهومي، وتولى شؤون قبيلته منذ ١٩٢١، ومؤسس حزب أمبوكودفو في ١٩٦٤، وقد اعترفت به بريطانيا رسميًا (كملك ورئيس الدولة) في نيسان ١٩٧٦. وقد شهدت الستينات ظهور الاحزاب في سوازيلاند.

في ١٩٦٦، وضع سوبهوزا الثاني دستورًا جديدًا ألغى بموجبه التمثيل الاوروبي في المجلس المنتخب. وعلى أساس هذا الدستور، فاز حزب الملك في انتخابات ١٩٧٦ بجميع المقاعد بالرغم من ان حزب الدكتور زوان نال ٢٠٪ من الاصوات. إلا ان هذا الأخير عاد في انتخابات ١٩٧٢ وفاز بثلاثة مقاعد. وفي ١٩٧٣، علق الملك الدستور وحلّ حزب زوان وباقي الاحزاب والبرلمان. وبعد أربع سنوات، ألغى الدستور السابق، ووضع دستورًا جديدًا استبدل بموجبه المجلس النيابي بنظام المجالس القبلية. وأول انتخابات جرت على هذه الطريقة التقليدية كانت في ١٩٧٨. فكان ان ظهرت حركة يسارية وزعت في آب ١٩٧٨ منشورات تهدد حياة الملك وتطلق على نفسها إسم «حركة تحرير سوازيلاند» (سواليمو).

حافظت سوازيلاند، على رغم سياستها المعادية للتمييز العنصري، على علاقات ود مع جنوب افريقيا. انضمت إلى منظمة الوحدة الافريقية، ووقعت بيان لوساكا الذي يدين التمييز العنصري. وكانت سوازيلاند الوحيدة في المنطقة التي لم تقطع، في ١٩٧٣، علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل.

في آب ١٩٨٢، مات الملك سوبهوزا الثاني بعد ٦٠ عامًا من الحكم. وجرى اختيار خليفته بين نحو ٦٠٠ شخص من أبنائه وأحفاده، ولكن وفق عملية معقدة، بدأت باختيار «أم ملكة» تقوم مقام الوصية ويتم في عهدها اختيار الملك، وبعد موتها تتابع إحدى زوجات سوبهوزا المهمة إلى ان يتم اختيار الملك الذي سيحمل إسم مسواتي الثالث. وفي ١٩٨٦، اعتلى هذا العرش، وبادر لتوه إلى ضرب كل تقليد ديمقراطي كان سوبهوزا يسمح به؛ فمنع المظاهرات الشعبية واعتقل العديدين.

وقبل اعتلاء مسواتي الثالث العرش، أعلن، في ٣١ آذار ١٩٨٤، عن اتفاق (كان وقع في ١٩٨٢) بين جنوب افريقيا وسوازيلاند للتعاون الامني ومكافحة الارهاب، وهو يشبه الاتفاق بين جنوب افريقيا وموزمبيق (وقع في ١٩٨٤ كذلك)، إذ استهدف في الدرجة الاولى نشاطات اعضاء المؤتمر الوطني الافريقي الذي كان يتخذ من سوازيلاند قاعدة من قواعد عمله خارج جنوب افريقيا.

*** ماخوسيني دلاميني Makhosini Dlamini**

(١٩١٤-١٩٧٨): سياسي ورجل دولة وأول رئيس وزراء لمملكة سوازيلاند الافريقية. ولد في بلدة إسيكونغوين في مقاطعة شيزيلوين. تعلم في مدرسة فرانسون الانجيلية، ثم أكمل دراسته في مدرسة سوازيلاند العليا الوطنية ومعهد أومينو مولو للمعلمين في ناتال (جنوب افريقيا). عمل في التدريس من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٠. في ١٩٥٠، نصب زعيمًا لمنطقة إسيكونغوين، ثم عمل سكرتيرًا لمجلس سوازيلاند الوطني، ودرس الادارة العامة في كلية توركواي الفنية في لندن. وفي ١٩٦٤، أصبح زعيمًا لحركة أمبكودوفوا الوطنية، ثم عضوًا في المجلس التشريعي حتى ١٩٧٦، ثم رئيسًا للوزراء في ١٩٧٦.

في نيسان ١٩٧٣، ألغى الملك سوبهوزا الدستور، وحل البرلمان وتسلم كامل السلطة التنفيذية والتشريعية، ولكنه ابقى ماخوسيني رئيسًا للوزراء. وفي آذار ١٩٧٦، أقيل من منصبه وعين مكانه مافوخو دلاميني، أحد أقربائه.



في مأتم الملك سوبهوزا الثاني الامير مايكل دو كانت ممثلاً المملكة المتحدة (آب ١٩٨٢).

السودان

بطاقة تعريف

الاسم: كان في القديم «النوبة» (أي بلاد الذهب) في اللغة الاصلية، ثم «مملكة ميروي»، وبعدها «مملكة سنار» (من ١٦٠٥ إلى ١٨٢١). ثم أصبح يُعرف بـ«السودان الانكليزي-المصري».

الموقع: في افريقيا. يحيط به اثيوبيا (وطول حدوده معها ٢٢١٠كلم)، وتشاد (١٣٠٠كلم)، ومصر (١٢٦٠كلم)، وافريقيا الوسطى (١٠٧٠كلم)، وزائير (٦٦٠كلم)، وأوغندا (٤٦٠كلم)، وليبيا (٣٨٠كلم)، وكينيا (٢٤٠كلم)، ويبلغ طول شاطئه (على البحر الأحمر) ٨٧٠كلم.

المساحة: مليونان و٥٠٥ آلاف و٨١٣كلم م. أكبر الاقطار الافريقية مساحة. يشكل ٨،٣٪ من مجموع مساحة القارة الافريقية، و١،٧٪ من مساحة الكرة الارضية.

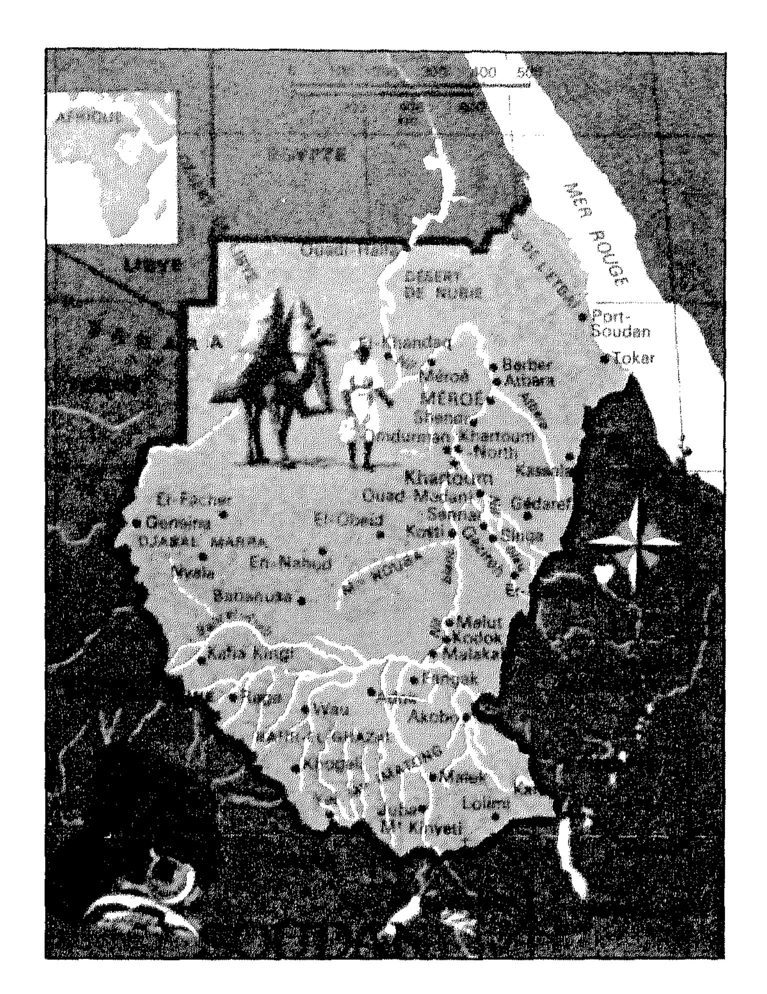
العاصمة: الخرطوم. أهم المدن: أم درمان، واد مدني، بور سودان، العبيد، جوبا، فاشر، عطبرة، وغيرها (راجع باب «مدن ومعالم»).

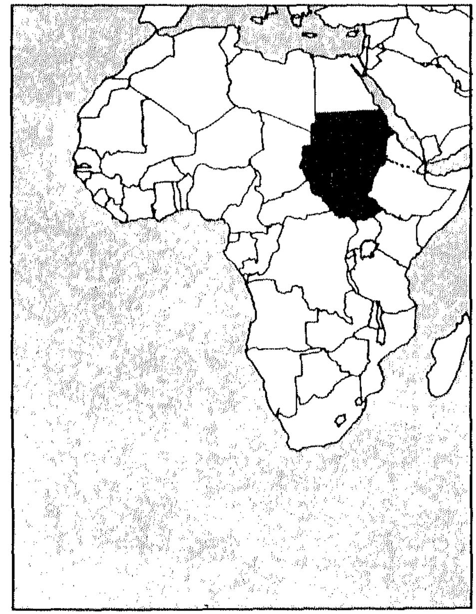
اللغات: العربية (رسمية). وهناك الانكليزية، ولغة قبائل الدينكا ومنها يتفرع عدد من اللهجات، ونحو ٢٠٠ لغة ولهجة قبائلية محلية.

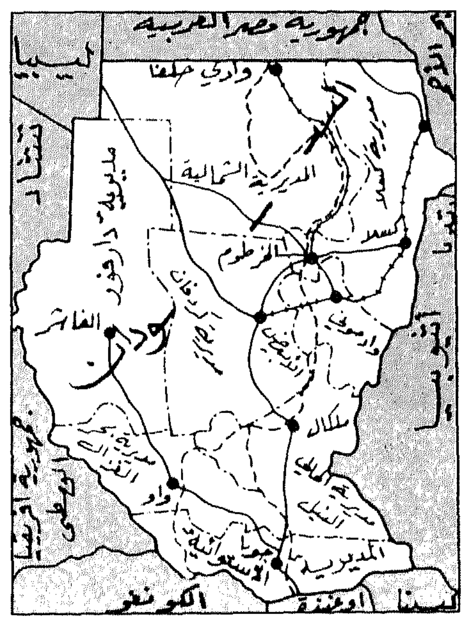
السكان: كان عددهم ١٠،٥ مليون نسمة في إحصاء ١٩٥٦، فأصبح نحو ١٥ مليونًا في احصاء ١٩٧٣، ثم ٢١،٦ مليونًا في إحصاء ١٩٨٣، ونحو ٢٨ مليونًا في إحصاء ١٩٩٣. وتشير التقديرات إلى انهم سيبلغون أكثر من ٣٥ مليونًا في العام ٢٠٠٠. نحو ٧٠٪ منهم مسلمون سنيون، وهناك اقلية مسيحية كبيرة تعد نحو ٢،٥ مليون نسمة بين كاثوليك وبروتستانت خاصة في الجنوب، إضافة إلى اقلية من الاقباط (راجع «نوبيون» في باب «الاحزاب»)، وأقلية أخرى لا تزال تعتنق المعتقدات الدينية الافريقية الاحيائية.

نصف السكان يتجمعون في نحو ١٥٪ من البلاد. ويتكاثف السكان على ضفاف النيل وحول الخرطوم. وسكان شمال السودان مزيج من اصول عربية وافريقية، يتكلمون العربية ويدينون، في الأغلب، بالاسلام، وتغلب عليهم الحياة القبلية. أما الجنوب فتلغب عليه القبائل النيلوتية وفي مقدمتها الدينكا والنوير والشلك (راجع باب «جنوب السودان»). وهناك نحو مليوني سوداني في مصر للدراسة أو للعمل.

الحكم: جمهوري. علق العمل بدستور تشرين الاول ١٩٨٥ في حزيران ١٩٨٩، أي مع قيام نظام الحكم العسكري الحالي. واستعيض عنه بمراسيم دستورية، ابرزها كان المرسوم الدستوري العاشر الذي صدر في ١٤ شباط ١٩٩٤ ممهورًا بتوقيع الرئيس عمر حسن البشير والذي عين بموجبه لواء الشرطة جورج كونفور نائبًا ثانيًا لرئيس الجمهورية. وكان رئيس الجمهورية قد تخلى، منذ تشرين الاول ١٩٩٣ عن جميع مناصبه العسكرية السابقة محتفظًا لنفسه بصفة رئيس جمهورية السودان. وجاء تعيين جورج كونفور، وهو مسيحي كاثوليكي من قبيلة الدينكا، في سياق تطبيق التقسيم الاداري


AFRIQUE
EGYPTE
LIBYE
MER ROUGE
Ouadi Halfa
DÉSERT DE NUBIE
Port-Soudan
Tokar
El-Khandaq
Méroé
Berber
Atbara
MÉROÉ
Shendi
Omdurman
Khartoum North
Khartoum
Kassala
El-Facher
Geneina
DJABAL MARRA
Ouad Madani
Sennar
Gédaref
El-Obeid
Kosti
Singa
Nyala
En-Nahud
Babanusa
Malut
Kodok
Malakal
Kafia Kingi
Fangak
Raga
Wau
Akobo
BAHR EL GHAZAL
Maridi
Lolimi
Juba
Mt Kinyeti




جمهورية مصر العربية
ليبيا
وادي حلفا
المديرية الشمالية
الخرطوم
الفاشر
ملكال
واو
الكونغو

الجديد في السودان الذي قسم إلى ٢٦ ولاية بدلاً من ٩ ولايات، وأصبح الجنوب عشر ولايات. ويرأس كل ولاية وال يساعده خمسة وزراء ووزير سادس، في الولايات الجنوبية، لشؤون السلام (راجع باب «جنوب السودان»). وكان الجنوب قبل هذا المرسوم مقسمًا إلى ثلاث ولايات. وكذلك قسمت إلى ثلاث ولايات كل الولاية الشرقية (على الحدود مع أريتريا وأثيوبيا) وولاية كردفان في وسط السودان التي تشهد حربًا اهلية أخرى في جبال النوبة. أما الولاية الشمالية على الحدود مع مصر فقسمت إلى ولايتين، فيما قسمت الولاية الوسطى حيث منطقة الجزيرة الغنية زراعيًا إلى أربع ولايات، في حين بقيت منطقة الخرطوم العاصمة ولاية واحدة.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة بنسبة ٧٢٪ منها على الزراعة التي تساهم بـ٣٧٪ من الناتج العام، و٩٪ على الصناعة (١٥٪ من الناتج العام)، و١٨٪ على الخدمات (٤٨٪)، و١٪ على المناجم (صفر).

لا يزال عماد الاقتصاد السوداني الزراعة والرعي. والجزء الاساسي من الزراعة في السودان إنما هي الغابات ومواردها والحيوانات ونتاجها والشواطىء والانهار الداخلية واسماكها. تبلغ مساحة الاراضي الصالحة للاستغلال الزراعي ما يزيد عن ٢٠٠ مليون فدان، ولا يزيد المستغل فيها زراعيًا عن ٨٪، والذي يروى هو أقل من ٤ ملايين، ونصف هذه المساحة المروية في منطقة الجزيرة، والباقي ترويه مياه الفيضان المنحدرة من نهري غاش وبركه (في شرقي السودان) ومياه النيل. وثمة مشاريع مشتركة بين السودان ومصر حول مياه النيل. وغابات السودان تزود البلاد بالصمغ العربي (وهو مادة للتصدير) وانواع الخشب.

كما ان السودان غني بحيوانه البحري. فمصايد الاسماك الداخلية تغطي ما مساحته ٢٠ ألف كلم م.، والمصايد البحرية تمتد ٧٠٠كلم على شواطىء البحر الأحمر.

والقطن هو أهم منتوج زراعي من حيث قيمته الاقتصادية. فهو المحصول الاول على جدول الصادرات والمحصل الرئيسي للنقد الاجنبي. والذرة هي منتوج السودان الزراعي الاساسي بالنسبة إلى السكان لأنها أساس خبزهم. وقصب السكر أخذ، منذ السبعينات، يحتل منزلة خاصة في الزراعة (تواكبها عناية بصناعة السكر، في سنار وميلوت ومونقلا).

إن عددًا من الصموغ تنتجها غابات السودان، وقد كانت مادة للتصدير منذ ألفي سنة على أقل تقدير. في مقدمتها الصمغ العربي الذي يقدر بنحو ١٣٪ من صادرات السودان. ولا يسبقه في التصدير سوى الفول السوداني.

أما عن الصناعة، فحلج القطن كان اول صناعة شجعت في مطلع القرن الحالي. وقد ازداد الاهتمام به مع التوسع بزراعة القطن، بحيث ان «موسسة الجزيرة» وحدها تملك أكبر مجموعة في العالم من محالج القطن. ومن القطن يستخرج الزيت من بذره. ويقشر الفول السوداني تمهيدًا لتصديره. أما المعادن الموجودة في السودان فقليلة، ولا تعادل سوى ١٪ من قيمة الصادرات، وهي تصدر بشكلها الخام، وتشمل النحاس والحديد والميكا والكروميت. والصناعات التي عرفها السودان حتى ١٩٦٠ هي الصابون والمرطبات وعصر الزيوت. أما بعد ١٩٦٠ (أي بعد الاستقلال) فقد أخذت الحكومة تعنى بالصناعة وتنظمها وتشرف عليها، وتضع الخطط بصددها، وتشجعها، خاصة صناعة الأقمشة والملبوسات وصناعة السكر.

بدأ في ١٩٧٣ التنقيب عن النفط. وهناك حاليًا

نحو ١،٥ مليار طن من الاحتياطي. وطول الأنابيب النفطية التي تصل حتى البحر الأحمر ١٤٤٠كلم، والانتاج الحالي اليومي نحو ٥٠ ألف برميل.

«وتبقى الحقيقة المرة، بعد تعاقب أكثر من خمسين وزارة، منذ استقلال السودان، ضمت أرقى المؤهلات العلمية، ما زال تسعة ملايين مواطن يواجهون خطر الموت جوعًا، وهناك سبعة ملايين بين مغترب في الخليج أو مقيم في الشقيقة مصر أو يجتر احباطات اللجوء في دول الجوار أو غربي أوروبا وشمالي أميركا. وما زالت البلاد تصنف في مؤخرة قائمة الدول الأكثر تخلفًا، ولم يتجاوز العمر الافتراضي لمواطنيها حاجز الاربعين عامًا، وما يزال أكثر من ٨٠٪ من مواطنيها يرزحون تحت نير الأمية. وبعد كل هذه السنوات، لا يزال أكثر من نصف سكان السودان يعيشون خارج دائرة الاستفادة المباشرة من سلطة الدولة وخدماتها، بل ما زالت هناك مناطق كاملة تعيش في تخلف لا يصدق وبدائية لا تليق بالقرن الحادي والعشرين. وإلى ذلك، تواجه البلاد حربًا أهلية شرقًا وجنوبًا وغربًا استغرقت أكثر من ثلثي سنوات الاستقلال وخرّبت الموارد المادية والبشرية المتاحة للتنمية» (صلاح بندر، كاتب سوداني، «الحياة»، العدد ١٢٤٤٦، تاريخ ٢٧ آذار ١٩٩٧، ص ١٨).

نبذة تاريخية

«شيء من التاريخ»: مصر- السودان: «موقع السودان بين البحر المتوسط والشرق الاوسط من جهة، واواسط القارة الافريقية من جهة ثانية، جعل منه جسرًا كبيرًا للاتصال بين المنطقتين. وكانت مصر، ولا تزال، نقطة الاتصال بين السودان وحوض البحر المتوسط والشرق الاوسط. ومن المفيد ان يتقرى الواحد منا الشعوب والحكومات التي احتلت مصر (أو اقامت فيها دولة) كانت تشعر بالحاجة إلى ان يكون لها نفوذ في السودان ايضًا، هذا إذا لم يصل الامر إلى الفتح والاستعمار. على ان سكان شمال السودان كانوا معرضين لواحد من خيارات ثلاثة: إما ان يقبلوا بسيطرة الحكم المصري (وطنيًا كان أم أجنبيًا) أو ان يقيموا لهم دولة مستقلة أو ان يقوموا هم باحتلال مصر. والحد التقليدي الفاصل بين مصر والسودان هو المنطقة الواقعة بين الجندل (الشلال) الاول والثاني. والخيارات الثلاثة عرفها السودان وجرّبها عبر تاريخه الطويل.

وثمة منطقة في السودان الشمالي تعرف تاريخيًا باسم كوش (وتمتد هذه إلى الجزيرة بين النيل الازرق والنيل الابيض إلى حيث يلتقيان في الخرطوم الحالية). وهذه كانت في فترة التوسع المصري الامبراطوري القديم (١٥٣٠-٧٥٠ق.م.) واقعة تحت النفوذ المصري الفعلي. ومع ان الكوشيين خلعوا النير المصري فقد ظلوا جزءًا من المدنية المصرية، إلى حد انهم كانوا يعتبرون انفسهم حماة هذه المدنية والمنافحين عنها والعاملين على نشرها جنوبًا. ومنذ اواسط القرن الثامن ق.م. تقوى الكوشيون بحيث انهم احتلوا مصر بالذات واقاموا فيها الاسرة الخامسة والعشرين. وفي ايام ترحاكا (٦٨٨-٦٦٣ق.م.) وسّع هذا الامبراطور مجال فتوحاته بحيث اعاد امبراطورية مصر القديمة التي وصلت في ايام تحوتمس الثالث (في القرن الخامس عشر ق.م.) إلى شمال شرقي سورية، فاحتل ترحاكا فلسطين وسورية. لكن فتوح ترحاكا لم تستمر طويلاً، فقد جاء الاشوريون مصر (٦٦٦ق.م.) واحتلوها، وجاء بعدهم الكلدانيون فالفرس فاليونان. أما مملكة كوش فقد استمرت نحو ألف سنة بعد ذلك، وتوسعت جنوبًا، ونقلت العاصمة من نبتا إلى ميروي على نحو ١٦٠كلم شمالي الخرطوم الحالية. وقد انتهى امر مملكة ميروي سنة ٣٥٠م لما هاجمت مملكة أكسيوم المسيحية حوض النيل. وقامت بعد ذلك الممالك النوبية التي وصلت إليها المسيحية من مصر في اوائل القرن السادس للميلاد» (د.نقولا زياده، استاذ التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت سابقًا، مجلة «شؤون عربية»، العدد ٨، تشرين الاول ١٩٨١، ص٢٤٤).

الفتح العربي الاسلامي: لما احتل العرب مصر (٦٣٩) كان ثمة دولتان نوبيتان مسيحيتان في شمالي السودان (في المنطقة التي كانت مملكة ميروي من قبل). وقد عقد العرب في مصر معاهدة مع الدولة الواقعة إلى الشمال من هاتين الدولتين النوبيتين. وقد دامت هذه المعاهدة نافذة مدة ستة قرون تقريبًا. وخلال هذه المدة أخذ كثيرون من العرب (البدو الذين جاءوا مع الجيوش الفاتحة من شبه الجزيرة العربية، والمناخ الصحراوي السائد في شمالي السودان متشابه مع ما اعتادوا عليه من منشئهم) بالهجرة إلى المناطق السودانية الشمالية، وكان الاسلام ينتشر معهم بين السكان الاصليين. وقد ازدادت هجرة العرب إلى تلك الجهات ايام الفاطميين والايوبيين، وبشكل خاص ايام المماليك الذين قامت دولتهم في ١٢٥٠ بحيث ان المنطقة اصبحت مسلمة عربية على وجه العموم. وابتدأت اللغة العربية تدخل السودان للمرة الاولى، وتحل شيئًا فشيئًا مكان اللغات الاخرى المستعملة كاليونانية والقبطية. وقد بلغت هذه العملية (أي انتشار الاسلام والعروبة) نهايتها بالقضاء على الدولة النوبية المسيحية (١٥٠٤) وقيام دولة الفونج، أو «السلطنة الزرقاء» كما لقبها العرب، الاسلامية مكانها.

وقد تأسست السلطنة الزرقاء (الفونج) التي دامت من ١٥٠٤ إلى

١٨٢١، نتيجة لتحالف بين القواسمة (وأصلهم من شبه الجزيرة العربية) والفونج (أصلهم افريقي)، وامتدت على قسم كبير من السودان، واتخذت سنار عاصمة لها، ومنها ابتدأ المذهب المالكي بالانتشار بعد ان اصبحت مركزًا تجاريًا ودينيًا مهمًا (تقع سنار على بعد ٢٧٠كلم جنوبي الخرطوم).

ابتدأ تفكك السلطنة الزرقاء (الفونج) في القرن الثامن عشر بسبب تمرّد عدد من القبائل على السلطة المركزية، بينما ابتدأت تنشأ في شرق غربي السودان قوة جديدة عرفت بمملكة دارفور وعاصمتها طرة.

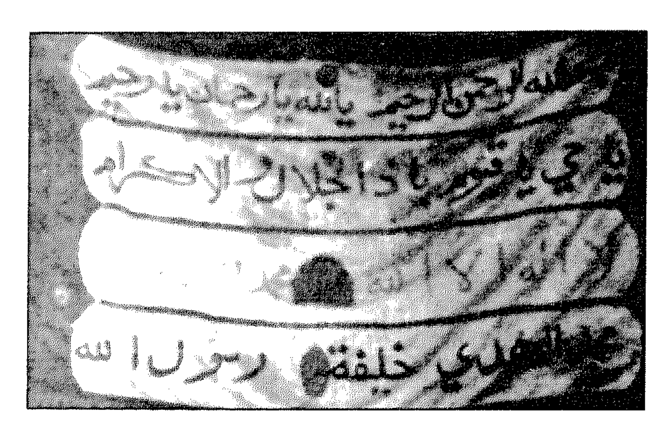
وصمدت المملكة الجديدة قرنين ونصف قرن من الزمن حتى فتحت قوات محمد علي السودان.

دولة محمد علي: بالرغم من حالة الانحلال التي كانت تعيشها مملكة دارفور. فقد لاقت القوات الفاتحة مقاومة عنيفة. وقد قتل اسماعيل باشا ابن محمد علي في المتمة قرب مدينة شندي شمالي الخرطوم على يد قبيلة الجعليين بقيادة الملك نمر ما حدا بالقوات الغازية إلى ممارسة سياسة القوة لتأديب سكان المنطقة وإخضاعهم.

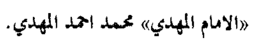
كان محمد علي باشا قد تولى شؤون مصر في ١٨٠٥، وكان رجلاً شديد الطموح، واراد ان يجعل مصر قوية غنية، فكان بين ما خطط له ان يحتل السودان، طمعًا في ذهبه وفي رقيقه، الاول ليملأ خزينته والثاني للحصول على الجنود اللازمين لحروبه وفتوحاته. ومع ان الفتح تم له في ١٨٢١ عندما استسلم له آخر ملوك سنار (مملكة دارفور)، ومع ان مصر توسعت بحيث انها وصلت في سيطرتها إلى رأس حفون في ايام الخديوي اسماعيل (١٨٧٧)، ومع ان المصريين ظلوا يحكمون السودان حتى ١٨٨٥، فإن أملي محمد علي في السودان لم يتحققا. فلم يعثر على الذهب إذ إن مناجم العلاقي المعروفة في العصور الوسطى كانت قد استنزفت، ولأن السودانيين لم يستطيعوا ان يكونوا عنصرًا مهمًا في الجيش المصري. لكن ثمة منجزات تحققت في السودان على يدي محمد علي وخلفائه.

فبعد ان تحققت السيطرة التامة لمحمد علي اتخذت مدينة الخرطوم (ملتقى النيل الابيض بالنيل الازرق) للمرة الاولى في تاريخها عاصمة السودان. وابتدأ محمد علي تنظيم ادارة السودان معتمدًا اسلوب المحافظة على سلطة زعماء القبائل مع اخضاعها لسلطة نائب له في السودان، ولقبه «حكمدار». وشهد السودان مرحلة من الاستقرار السياسي انعكست على التنمية الزراعية. فقد ابتدأ استصلاح الاراضي ونقل الخبرات المصرية إليه. لكن سرعان ما ابتدأ الفساد يعم الادارة في السودان ويطغى على كل ايجابيات الازدهار الاقتصادي في الفترة التي انتقلت فيها السلطة في مصر إلى الخديوي اسماعيل بعد وفاة محمد علي في ١٨٤٩.

فمع وصول الخديوي إلى الحكم في مصر والبدء في حفر قناة السويس، ابتدأت مصر تتخبط في ازمتها المالية التي سببتها الديون، ورافق هذا كله ازدياد تدريجي لسيطرة بريطانيا.



راية الثورة المهدية.


«الامام المهدي» محمد احمد المهدي.



مع تفاقم الامور، واندلاع ثورة عرابي، تدخلت بريطانيا وقمعت الثورة في ١٨٨٢. وقد عين اللورد كرومر حاكمًا عامًا لمصر والسودان. وفي السودان اندلعت ثورة المهدي، ونجحت في ان تقيم دولتها التي استمرت حتى ١٨٩٨ (راجع باب «جنوب السودان»، وباب «الاحزاب»، و«أم درمان» في باب «مدن ومعالم»).

اتفاقية ١٨٩٩، «الحكم الثنائي»:
أبرمت هذه الاتفاقية في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩ بين كرومر المعتمد البريطاني وبطرس غالي وزير خارجية مصر لتنظيم ما سمي بالحكم الثنائي المصري-الانكليزي للسودان. وكانت بريطانيا اجبرت حكومة مصر على سحب الجيش من السودان في ١٨٨٤ بسبب ما حققته الثورة المهدية هناك من انتصارات حاسمة. قاد كيتشنر مع عدد من الضباط الانكليز حملة الجيش المصري لاعادة فتح السودان من ١٨٩٦ حتى ١٨٩٨ حيث انهزم المهديون في معركة أم درمان الفاصلة. وقد أجبر الانكليز مصر على توقيع اتفاقية ١٨٩٩ بدعوى ان فتح السودان تم بجهود البلدين. ونصت الاتفاقية على رفع العلمين المصري والانكليزي على السودان، وتعيين حاكم عسكري له تختاره بريطانيا ويعينه خديوي مصر ويفصل بالطريقة ذاتها. واعتبرت الاتفاقية الحاكم العسكري هو مصدر التشريع والقوانين في السودان ولا تطبق القوانين المصرية هناك إلا بأمر منه. وضمنت الاتفاقية للانكليز حكم السودان مع الاحتفاظ لمصر بمركز شكلي بحيث كان كيتشنر اول حاكم عام هناك. احتفظ لمصر في السودان بفرقة عسكرية. وبعد ثورة ١٩١٩ استغل الانكليز مقتل السردار، فأجبروا حكومة مصر على سحب تلك الفرقة، ولكن بعض الوحدات المصرية ما لبثت ان عادت بعد معاهدة ١٩٣٦.

بعد استتباب الحد الادنى من الامن البريطاني، والتصدي للمطامع الفرنسية في السودان، ابتدأ التخطيط لربط القطاعات الاقتصادية السودانية بالاقتصاد البريطاني ومتطلباته، فبدأ بناء السكك الحديدية، والمرافىء وتنظيم زراعة القطن.

أما في مصر فقد ابتدأت ترتفع الشعارات المطالبة بانهاء الانتداب البريطاني واستقلال مصر ابتداء من ١٩١٨. وانتقل أثر هذه الحركة إلى السودان الذي كان يعيش تحت وطأة هزيمة الثورة المهدية. فتأسست تنظيمات سياسية وأهمها «جمعية اللواء الابيض».

«اللواء الابيض»: إحدى الجمعيات السودانية السرية التي كانت تعمل على بعث الوعي القومي وتدعو إلى وحدة وادي النيل.

تأسست في الخرطوم في اوائل ١٩٢٤ برئاسة النقيب (اليوزباشي) علي عبد اللطيف وكل من صالح عبد القادر (وكيلها العام) وعبيد حاج الامين (امين المال) وعضوية حسن صالح وحسن شريف. وكان من اهدافها المعلنة ضم السودان إلى مصر. وتعتبر انعكاسًا سودانيًا للحركة التحريرية التي نهض بها المصريون في

الشمال، وقد ربطت كفاحها بكفاح شعب مصر وكانت من مؤيدي حزب الوفد المصري. وقد ظهرت علنًا في كل من واد مدني وعطبرة وبورسودان، وانتشرت اخبارها في جميع انحاء السودان بفضل عمال البريد والبرق والهاتف الذين كان معظمهم ينتمون للجمعية.

رفعت شعار «وحدة وادي النيل» واتخذت لها راية رسم عليها النيل من منبعه لمصبه وكتب تحته «إلى الامام». وكان نص القسم المفروض على كل منتسب إليها: «أقسم بالله ثلاثًا، وبكتابة هذا القرآن وبكل يمين مقدس ألا أخون هيئة هذه الجمعية وأن أكون جادًا مخلصًا على مبادئها وألا أتنحى عنها مهما كان الموقف حرجًا ومهما كنت نائيًا عنها والله على ما أقول وكيل». وكان كل عضو يدفع اشتراكًا شهريًا قدره عشرون قرشًا في حين كان النادي المصري في السودان يدفع خمسين جنيهًا في الشهر بالاضافة للمساعدة التي كان يقدمها إليها المصريون المقيمون في السودان من اجل تغطية مصاريفها. وقد بدأت نشاطها السياسي بمظاهرة صغيرة في الخرطوم في ١٧ تموز ١٩٢٤ ومظاهرة أكبر في أم درمان في ١٩ حزيران، كما شاركت في انتفاضات ١٩٢٤ التي قام بها طلاب المدرسة الحربية يوم ٢٢ تموز، وكانت هذه آخر عمل سياسي جماهيري قامت به الجمعية حيث اعتقل آخر عضو في اللجنة التنفيذية للجمعية عبيد حاج الامين.

تصاعد المعارضة، مؤتمر الخريجين: بدأت التظاهرات والاحتجاجات تعم مصر والسودان. وشهد العام ١٩٢٤ اغتيال الحاكم البريطاني العام للسودان اثناء زيارته لمصر، ما أدّى إلى رد فعل بريطاني عنيف، إذ فرض على حكومة سعد زغلول آنذاك توقيع اتفاق مذل يقضي بتغريم مصر ٥٠٠ ألف جنيه وإلغاء مشاركتها في حكم السودان كما نصت عليه اتفاقية ١٨٩٩.

وفي الفترة التي نالت مصر فيها استقلالها كانت حركات المعارضة تنمو في السودان. وفي ١٩٣٨، قام «مؤتمر الخريجين» (الذي قيل فيه إنه بمثابة «خزان» كل الاحزاب السياسية التي ظهرت في ما بعد)، وهو اتحاد للمتعلمين السودانيين بقيادة اسماعيل الازهري كما انه تنظيم سياسي في جوهره، بالاندماج بالحزب الوطني الاتحادي (وقد أسسه السيد علي الميرغني) الذي كان يطالب بالوحدة مع مصر وتؤيده طائفة الختمية. وفي ١٩٤١، تأسس حزب الأشقاء، وفي ١٩٤٣ تأسس حزب الامة (الوجه السياسي لطائفة الانصار) وقائده عبد الرحمن المهدي ويدعو إلى نظام اسلامي واستقلال السودان، وفي ١٩٤٦، تأسس الحزب الشيوعي السوداني، وتبعه بعد وقت قصير تنظيم الاخوان المسلمين (راجع بابي «الاحزاب» و«زعماء، رجال دولة وسياسة»).

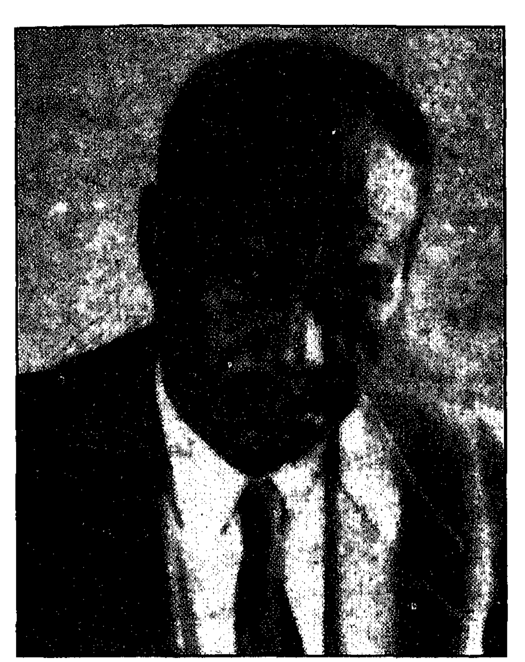
التباعد عن مصر: نجح البريطانيون في مطلع العشرينات في تكوين تيار سوداني قوي معاد لمصر التف حول شعار «السودان للسودانيين» الذي كانت تنادي به صحيفة

«حضارة السودان» التي كانت أول صحيفة سودانية سمح الانكليز بانشائها، وكان يملكها الزعماء الدينيون الكبار الثلاثة: علي الميرغني زعيم الطائفة الختمية، عبد الرحمن المهدي زعيم طائفة الانصار، والشريف يوسف الهندي زعيم الطائفة الهندية (طريقة صوفية ايضًا).

كان الميرغني ينطلق في معاداته لمصر من ولائه للانكليز الذين اعادوه إلى السودان من المنفى، واعادوا توطيد نفوذه الذي قضت عليه الثورة المهدية. وكان عداء عبد الرحمن المهدي لمصر يقوم على منطلقات تاريخية وايديولوجية. فالثورة المهدية قامت ضد الحكم التركي الذي كانت مصر مركزه، وقد حارب الاتراك الثورة المهدية بجنود مصريين وكانت القاهرة عاصمة محمد علي. وحينما اجتاح الانكليز السودان وقضوا على الدولة المهدية، كان ذلك ايضًا باسم مصر وبجيش قوامه جنود مصريون. وعليه، لم يكن من الصعب استثارة العداء الذي يكنه المهديون لمصر.

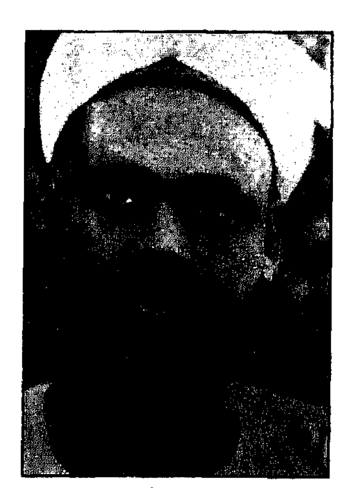
عندما قامت ثورة ١٩٢٤ السودانية ضد الحكم البريطاني ورفعت شعار الاتحاد مع مصر، قاومها انصار تيار «السودان للسودانيين»، ووصفت صحيفة «حضارة السودان» الثورة بأنها انتفاضة «رعاع».

مع هذه الثورة (١٩٢٤) كانت خيبة السودانيين كبيرة من مصر. إذ كان الثوار السودانيون يتوقعون عونًا مصريًا لكنه لم يأت، والسودان يغلي بالمظاهرات والاضرابات المنادية بجلاء الانكليز والوحدة مع مصر. وفي تلك الاثناء تعرض الحاكم



عبد الله خليل.

العام البريطاني للسودان سير لي ستاك Sir Lee Stack للاغتيال إبان زيارة للقاهرة، فانتهزت بريطانيا الفرصة لتصفية النزاع مع مصر حول السودان، فأصدرت إنذارًا للحكومة المصرية باجلاء كل قواتها عن السودان وسحب كبار موظفيها. وكان ان استقالت حكومة سعد زغلول حتى لا تنفذ تلك المطالب المهينة. وقد حسب الثوار السودانيون ان ساعتهم حانت، فتمردت بعض وحدات الجيش السوداني وتحركت للانضمام إلى الوحدات المصرية، أملاً في ان يشترك الجيشان في هبّة واحدة تنهي الحكم البريطاني. لكن القوات البريطانية تصدت للوحدات السودانية وقضت عليها عن بكرة ابيها. ولم تتحرك الوحدات المصرية، بل نفذت أمر الاجلاء بعد تلقي الاوامر بذلك من الملك فؤاد شخصيًا. فقد كان ذلك



عبد الرحمن المهدي في أقدم صورة له، تعود الى قبل الحرب العالمية الاولى

صدمة كبيرة للوطنيين السودانيين، وكانت ردة فعل بعضهم عنيفة، إذ تحولوا عن السياسة كليًا، بينما انضم آخرون إلى التيار «الواقعي» المحافظ. وكان أبرز مثال لذلك الضابط عبد الله خليل، أحد قادة التيار الثوري في ١٩٢٣-١٩٢٤، والذي انصرف بعد الثورة و«الخيبة من مصر» إلى خدمة الحكومة، حتى وصل إلى رتبة لواء (اميرالاي) في الجيش. وفي الاربعينات انضم خليل إلى حزب الامة، ثم اصبح رئيسًا للوزراء في ١٩٥٦. ورافق تحوله هذا كراهية عميقة في نفسه لمصر والمصريين طبعت كل تصرفاته في ما بعد.

وأدت تحولات السياسة السودانية في الثلاثينات إلى تصدع الحلف الداخلي المعادي لمصر. ذلك ان نفوذ عبد الرحمن المهدي تزايد وقوي تحالفه مع البريطانيين، ما أدّى إلى إطلاق اشاعات عن ان البريطانيين يعتزمون تتويج عبد الرحمن المهدي ملكًا على السودان. وأدى هذا إلى إثارة حفيظة علي الميرغني الذي قرر، نكاية في الانكليز، التحالف مع الحركة الوطنية التي انبعثت مرة أخرى في الثلاثينات تحت مظلة «مؤتمر الخريجين» (١٩٣٨) واصبحت تنادي مرة أخرى بالوحدة مع مصر، وتواجه (بزعامة الميرغني) الحركة الاستقلالية المتحالفة مع الانكليز وقوامها حزب الامة (المهدي) والحزب الجمهوري الاشتراكي (حزب قبلي) وانضم إليهما في الخمسينات الحزب الشيوعي السوداني.

واستمرت مختلف الاتجاهات والتيارات المعادية لمصر وللوحدة معها تتغذى من خيبات ضربت «الصورة المثالية التي لمصر» في أذهان السودانيين ومشاعرهم خاصة منهم الفئة المثقفة. فبعض الطلاب الذين تحدوا السياسة البريطانية ضد السفر للدراسة في مصر منذ ١٩٢٣ وما بعده، صدموا بما واجهوه في مصر من اهمال رسمي وشعبي، ومن تعال عرقي وثقافي لم يكن له مكان في صورتهم المثالية عن مصر. وقد اضطر بعض هؤلاء إلى العودة إلى السودان، وانضموا بسرعة إلى التيار الاستقلالي. لكن تيار الهجرة إلى مصر استمر، وظل المثاليون يغالبون الواقع. ويروي أحد هؤلاء في مذكراته («الوسط»، العدد ١٨٢، تاريخ ٢٤ تموز ١٩٩٥، ص ٢٥، نقلاً عن «مذكرات عبد اللطيف الخليفة»، الخرطوم، ١٩٨٨، ص ٤٣):

«أكثر ما كان يصدمنا في أيامنا الاولى، ونحن نتعرف على مجتمع القاهرة، نظرة المصريين للسودان، وما كانوا يحملونه في اذهانهم من صور شوهاء، يرفضها شعورنا، وتأباها كرامتنا. وكم كنا نثور

ونضطرب... ونحمل على المصريين حملة شعواء، ونحمّلهم المسؤولية. ولكننا عندما تقدمنا في معرفة الاحوال ومذلة المشاكل، تبين لنا انه من الضروري ان نشرع في اتخاذ وسائل عملية لازالة ما نشكو منه. فالمصريون ترسبت في اذهانهم افكار قديمة عن السودان، فالسودان من قرون يصدّر لهم العبيد، كما تصدّر لهم بيئاته الفقيرة المجدبة من يقوم بخدمتهم في البيوت...».

وصلت العلاقات بين الشعبين إلى منعطف أخير بعد معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا التي اعادت إلى مصر شيئًا من نفوذها على السودان. صدمت هذه المعاهدة السودانيين لأنها لم تذكر لهم أي دور، ما اعاد بعث الحركة الوطنية التي وإن كانت تتطلع إلى مصر، إلا انها أدركت ان مصر لا يمكن الاعتماد عليها كليًا لتعبر عن صوت السودانيين.

المنعطف الثاني كان ثورة ١٩٥٢ في مصر، وبروز اللواء محمد نجيب الذي كان يتمتع بشعبية واسعة في السودان حيث اعتبر «نصف سوداني»، وبعده جمال عبد الناصر. فأعطت هذه الثورة دفعة قوية لتيار الوحدة بعد ان تراجع بسبب استغلال اعداء الوحدة اتفاقية ١٩٣٦ واهمالها للسودانيين، ولقرار النحاس باشا في ١٩٥١ إلغاء الاتفاقية من جانب واحد، وإعلان فاروق ملكًا على السودان، مرة أخرى من دون استشارة السودانيين أو تحديد دور لهم في دولة الوحدة. وكانت الثورة متجاوبة مع الوحدويين السودانيين، وكان قادتها على قدر كبير من التفهم لمطامح الحركة الوطنية السودانية، وتمكنوا، في الوقت نفسه، من طمأنة حزب الامة والاستقلاليين إلى نيات مصر، ولم يترددوا في توقيع اتفاق مع كل الاحزاب السودانية (١٩٥٣) منح السودان حق تقرير المصير.

الاستقلال: اضطر نمو الاحزاب السياسية وحركات المعارضة السلطات البريطانية إلى ان تقرر إنشاء أول هيئة تمثيلية للشعب السوداني تمثلت في المجلس الاستشاري لشمال السودان (وصلاحياته محدودة جدًا). ثم أنشئت الجمعية التشريعية في ١٩٤٧، وقد أعطي رئيسها مبدئيًا صلاحيات شبيهة بصلاحيات رئيس مجلس العموم البريطاني، كما انها تنتخب من الشعب.

قاطع حزب الأشقاء انتخابات الجمعية التشريعية في ١٩٤٩، وألقي القبض على زعيمه ومؤسسه اسماعيل الازهري، بينما نال حزب الامة (عبد الرحمن المهدي) أكثرية المقاعد. ولم تمض فترة طويلة حتى وعى السودانيون محدودية الاطر السياسية الجديدة (الممنوحة من بريطانيا) وبدأوا المطالبة بحلها. وقد أسست الختمية «الجبهة الوطنية» في السنة نفسها (١٩٤٩) ورفعت شعارات طالبت فيها ان يكون السودان «دومنيون» مع مصر. إلا انه سرعان ما انفصل عن الجبهة عدد من الزعماء القبليين، وأسسوا الحزب الجمهوري الاشتراكي الذي اتسم بعدائه الشديد لحزب الامة، متهمًا إياه بالعمل على فرض ملكية مهدية على السودان.

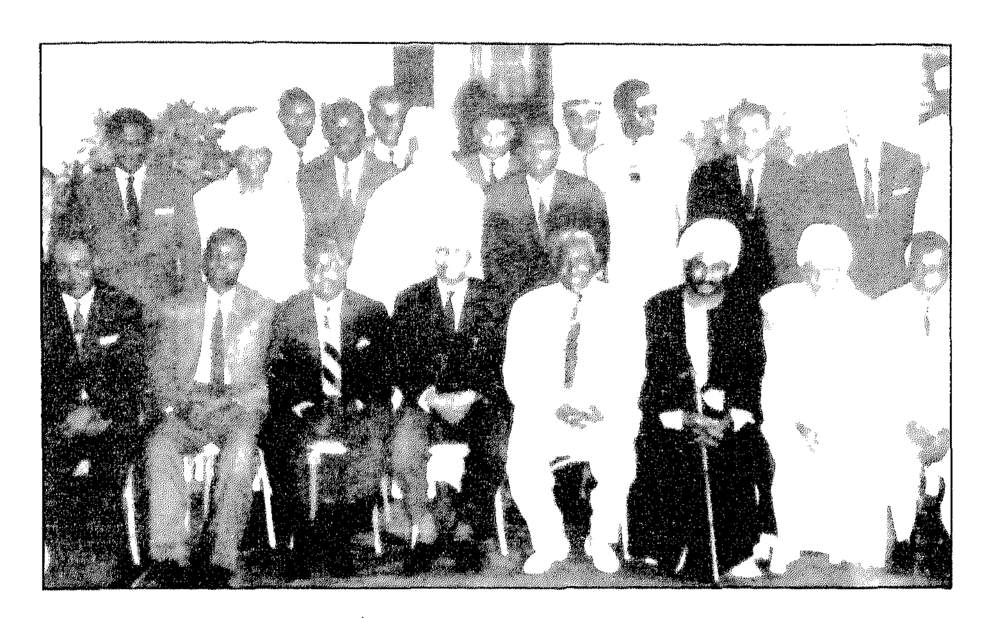
في ١٢ شباط ١٩٥٣، أبرمت اتفاقية سياسية بين محمد نجيب (وكان رئيسًا لوزراء مصر) ورالف ستيفنسون السفير البريطاني. وكانت حكومة الوفد المصرية قد أعلنت، في تشرين الاول ١٩٥١، إلغاء اتفاقية ١٨٩٩ المنظمة للحكم الثنائي البريطاني-المصري للسودان مع إلغاء معاهدة ١٩٣٦ المنظمة للوجود العسكري الانكليزي في مصر. وبعد قيام ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢، بدأت محادثات مصرية بريطانية تتعلق بوضع السودان، ومهد لها الطرف المصري بالاسهام في توحيد الاحزاب السودانية الهادفة لوحدة النيل. وقد نصت الاتفاقية على الاعتراف بحق السودانيين في تقرير مصيرهم والاختيار بين الاستقلال التام وبين الوحدة مع مصر. وحددت فترة انتقال لانهاء الادارة الثنائية للسودان وانسحاب القوات البريطانية والمصرية منه، وتكوين جمعية تأسيسية سودانية منتخبة يكون لها تقرير المصير، ونظمت الاجراءات والضمانات الكفيلة بتحقيق هذه الاهداف.

في ١٩٥٣ كذلك، حصل السودان على الحكم الذاتي للشمال، بينما حافظت بريطانيا على مركزها في الجنوب (راجع «جنوب السودان»). وأسفرت الانتخابات التي جرت في السنة نفسها عن نجاح الحزب الوطني الاتحادي بأكثرية ملحوظة. فعين اسماعيل الازهري رئيسًا للحكومة الجديدة. وابتدأت سلسلة من التحديات بين حزب الامة والسلطة الجديدة، وقد تمحورت الخلافات حول مطلب الوحدة مع مصر الذي يرفعه الحزب الوطني الاتحادي منذ تأسيسه.

في أول كانون الثاني ١٩٥٦، أعلن رسميًا استقلال السودان (في ظل حرب أهلية-راجع «جنوب السودان»)، وتألفت حكومة جديدة برئاسة اسماعيل الازهري رئيس الحزب الوطني الاتحادي الذي نال حزبه أغلبية مقاعد البرلمان، بينما لم يحرز حزب الامة سوى مقاعد قليلة نسبيًا، ابقته في المعارضة البرلمانية بقيادة المحامي محمد احمد محجوب.

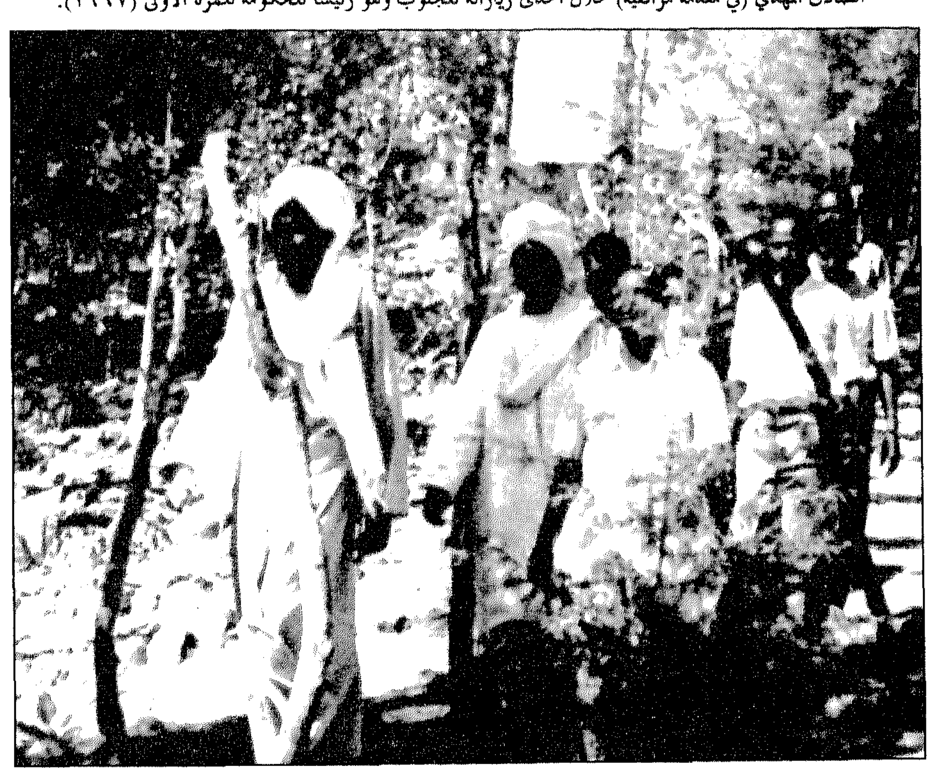
انقلاب الفريق ابراهيم عبود: لم يستطع النظام الديمقراطي الاستمرار في ظل الحرب الاهلية. ففي ١٩٥٨، قاد الفريق ابراهيم عبود قائد الجيش السوداني (وهو عضو في طائفة الختمية) انقلابًا عسكريًا ابيض، واستولى على السلطة بدعم من حزب الامة وحزب الشعب الديمقراطي. وسلمت مقاليد الحكم إلى مجلس أعلى للقوات المسلحة يرأسه الفريق عبود نفسه يساعده مجلس الوزراء يضم ٧ عسكريين و ٥ مدنيين. وقد حلّ النظام الجديد الاحزاب السياسية، وفرض الرقابة على وسائل الاعلام، كما سعى إلى تقوية العلاقات مع الحكومة المصرية، وتنشيط المشاريع الزراعية في السودان فضلاً عن العديد من المحاولات التي قام بها للتوصل إلى تسوية مع التنظيمات الجنوبية.

وكانت الاحزاب الجنوبية الانفصالية، كالاتحاد الوطني السوداني الافريقي (سانو)، وجبهة الجنوب، والحزب



الحكومةالديمقراطية الاولى التي شكلها الصادق المهدي (الثالث جلوساً من يمين الصورة)، في ١٩٦٧.

الصادق المهدي (في مقدمة مرافقيه) خلال احدى زياراته للجنوب وهو رئيساً للحكومة للمرة الاولى (١٩٦٧).



الليبرالي، تزيد من قوة تنظيماتها وفعاليتها العسكرية. وفي هذه الاثناء كانت الاحزاب الشمالية (الممنوعة) تتكتل من جديد، وتظهر قوتها، ما حدا بالسلطة ان تعتقل في ١٩٦١ عددًا من قادة الاحزاب، مثل محمد أحمد محجوب، عبد الخالق محجوب، اسماعيل الازهري، مبارك زروق، وغيرهم.

أما في الجنوب، فقد حاول النظام اتباع سياسة تعريب المديريات (الولايات) الجنوبية، فضيق على عمل الارساليات الاجنبية، وعمل على تعليم اللغة العربية وتنشيط الدورة الاقتصادية لربطها بالشمال.

عودة الديمقراطية: لم تنجح محاولات الفريق عبود في ضبط الفسيفساء السياسية في السودان، وقد أرغم على التنحي عن السلطة السياسية اثر انتفاضة شعبية عارمة. فعادت الحياة الديمقراطية البرلمانية إلى البلاد في ١٩٦٤، وتألفت حكومة جديدة برئاسة سر الختم خليفة تضم اعضاء من حزب الامة والحزب الوطني الاتحادي والحزب الشيوعي السوداني وبعض السياسيين الجنوبيين.

لكن الحكومة الجديدة، وكذلك الحكومات المختلفة اللاحقة (راجع باب «الاحزاب») فشلت في إيجاد تسوية مع الحركات الانفصالية الجنوبية (راجع باب «جنوب السودان»). وحجبت الشرعية في شتاء ١٩٦٥ عن الحزب الشيوعي السوداني، وعزل عن الاشتراك في الحكم وحظر، بسبب مواقفه المؤيدة بشكل عام لمطالب الجنوبيين ومطالبته بدستور ديمقراطي يؤمن الحريات الاساسية التي جاء بها ميثاق ثورة تشرين الاول ١٩٦٤ التي اطاحت حكم الفريق عبود.

وبعد سنة من هذا القرار الخاص بابعاد الشيوعيين وعزلهم، حاول عدد من الضباط الشيوعيين القيام بانقلاب باء بالفشل. وفي ١٩٦٨، حلت الجمعية التشريعية واجريت انتخابات جديدة في نيسان ١٩٦٨ نال فيها الحزب الاتحادي الديمقراطي الأكثرية في المجلس.

«الضباط الاحرار»، محمد جعفر النميري: امام تخبط الحكومات في معالجة ازمات السودان، واستحالة نجاح أي تخطيط اقتصادي في ظل الحرب الاهلية الدائرة، وبينما كان التيار الناصري يلاقي تجاوبًا في ارجاء العالم العربي، لم يكن بوسع السودان البقاء بعيدًا عن هذه التحولات التي انطلقت من مصر. فاستولت، في ١٩٦٩، مجموعة من «الضباط الاحرار» بقيادة محمد جعفر النميري على السلطة في السودان معلنة التزامها بالمبادىء الناصرية.

تقرّب النظام الجديد في بداية حكمه من الشيوعيين والحزب الاتحادي الديمقراطي، وادخلهم في جبهة وطنية رفعت شعار «بناء اشتراكية سودانية» تتلاءم مع الظروف الخاصة بالسودان، وامتنع النظام الجديد عن اعطاء الحكم الذاتي لولايات الجنوب الثلاث.

ترأس النميري «مجلس قيادة الثورة»، وعين بابكر عوض الله رئيس القضاء السوداني، رئيسًا للحكومة الجديدة، وأسس

الاتحاد الاشتراكي السوداني داعيًا الاحزاب السياسية لحل نفسها والانتماء إليه. وعلى الصعيد الاقتصادي، عمل النظام على تأميم المصارف والمؤسسات الاجنبية بالاضافة إلى عدد من الشركات السودانية الكبرى، ودعم العلاقات مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية على المستوى السياسي والاقتصادي. إلا ان العلاقة الجبهوية بين سلطة النميري والحزب الشيوعي السوداني لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما اتهم الشيوعيين بتأييدهم مطالب الحركات الجنوبية التي يدعو بعضها إلى الانفصال، ورفضهم الانصهار في الاتحاد الاشتراكي. وفي شباط ١٩٧١، أصبح الحزب الشيوعي ممنوعًا في السودان مرة أخرى. إلا ان اتجاهات السلطة الجديدة، كالتمثل بالاشتراكية المصرية، والتقرب من الاتحاد السوفياتي لم ترق لتنظيم الاخوان المسلمين ولا لحزب الامة (زعيمه الصادق المهدي)، وقد اصبحا، مع الحزب الشيوعي، في المعارضة لنظام النميري، كل من منطلقاته.

تغيير في سياسة النميري: في شباط ١٩٧٠، انتفض المهديون (الانصار وحزب الامة) ضد حكم النميري، لكنهم هُزموا في جزيرة آبا حيث قتل الامام الهادي المهدي.

وفي تموز ١٩٧١، نفذ الحزب الشيوعي السوداني انقلابًا كاد يطيح نظام النميري، حتى انه سجن ليومين قبل ان يعود إلى السلطة بمساعدة من ليبيا ومصر. وبعد فشل الانقلاب قام بحملة اعتقالات واعدامات (راجع «الاحزاب» و«زعماء، رجال دولة وسياسة»). وقد شكل هذا الانقلاب محطة رئيسية في تغيير سياسة النميري. فبدأت العلاقات مع الاتحاد السوفياتي تضعف، وبدأ الانفتاح على الصين واوروبا والولايات المتحدة الاميركية بالاضافة إلى الدول العربية النفطية المحافظة. كما عمل النميري علي تحسين علاقاته مع الدول الافريقية أملاً في الوصول إلى حل لمشكلة الجنوب.

وفي ١٩٧٢، وبعد مباحثات طويلة ساهمت فيها اطراف دولية عديدة تمّ في



الفريق جعفر النميري يستعيد سلطته بعد ثلاثة ايام من انقلاب ١٩ تموز ١٩٧١. وفي اليوم التالي، أي في ٢٣ تموز بدأت حملة «التطهير».

أديس أبابا توقيع اتفاقية بين النميري وممثلين عن الاحزاب الانفصالية في الجنوب، وتقضي باعطاء حكم ذاتي اقليمي للمديريات (الولايات) الجنوبية الثلاث مع مجلس تنفيذي اعلى ومجلس نواب محلي منتخب، على ان ينضم مقاتلو التنظيمات الجنوبية إلى الجيش السوداني، وقد طعمت قياداته بضباط جنوبيين.
وبالرغم من محدودية هذه الاتفاقية، إلا انها وضعت (لسنوات) حدًّا لحرب أهلية بين الشمال والجنوب وصل عدد ضحاياها إلى نحو ٥٠٠ ألف قتيل وجريح.

لم تكن اتفاقية أديس أبابا كافية للجم التناقضات الداخلية، فقد استمر مسلسل الانقلابات ضد النميري. وشهدت سنة ١٩٧٦ ثاني أهم محاولة انقلابية قادها العميد محمد نور سعيد الذي أعدم بعد فشل الانقلاب الذي سقط فيه مئات القتلى.

وبسبب التهديدات الداخلية المستمرة، ازداد تقرب السلطة من كل قوة تتوسم فيها الحماية، فوقعت العديد من الاتفاقيات الدفاعية والاقتصادية مع مصر (في عهد أنور السادات)، وازدادت انفتاحًا على الغرب إلى حد نداء النميري للولايات المتحدة الاميركية والحاحه عليها ودعوته لها لبناء قواعد عسكرية لها في السودان، وذلك بعد فشل انقلاب ١٥ آذار ١٩٨١ (وهو الانقلاب الخامس عشر ضد النميري) الذي أثبت مرة أخرى عدم الاستقرار السياسي الذي يطغى على تاريخ السودان الحديث.

علاقات النميري مع مصر: حكمت هذه العلاقات، منذ بدء عهد الرئيس النميري، «النظرة الامنية المشتركة»، ولا سيما في ما يتعلق بالاوضاع القائمة على حدود البلدين ليبيا وتشاد إضافة إلى البحر الاحمر. وبات شبه مؤكد (بعد التقديرات الدولية وبعد تصريح لوزير الدفاع المصري في نهاية آذار ١٩٨١) بأن مصر تحتفظ بوجود عسكري على الاراضي السودانية.
وكان السودان خرج على إجماع الدول العربية و لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع مصر على أثر توقيع الرئيس المصري أنور السادات على معاهدة السلام مع اسرائيل.
و لم تتغير هذه العلاقات بعد اغتيال السادات في تشرين الاول ١٩٨١، بل ازدادت وثوقًا مع بدء عهد الرئيس المصري حسني مبارك (وما ساعد على ذلك الانفراج الواسع الذي طرأ على علاقات الدول العربية مع مصر). وبذل السودان ومصر جهودهما لترسيخ المعاهدة الامنية الموقعة بينهما في ١٩٧٤. وقد توجت هذه العلاقات بتوقيع الرئيسين، النميري ومبارك، «ميثاق التكامل» (١٢ تشرين الاول ١٩٨٢) الهادف إلى توحيد البلدين على مراحل، وإنشاء مجلس أعلى للتكامل ويضم رئيسي البلدين؛ وبرلمان وادي النيل ويضم ٦٠ عضوًا من البلدين ولا تكون له صفة تشريعية بل صفة المراقبة ورفع التوصيات إلى المجلس الاعلى، ثم إلى مجلس الشعب إذا كان الامر يحتاج إلى قانون؛ وصندوق التكامل وهو المؤسسة المالية التي يحتاج إليها كل مشروع تكاملي.

وكان دعم مصر لنظام النميري يصل

إلى حد ارسال قوات لها إلى السودان كما حدث عقب اتهام النميري ليبيا بأنها وراء الطائرة التي اغارت على أم درمان في آذار ١٩٨٤، وتقديم السودان شكوى ضدها إلى مجلس الامن. وبعد ايام من الحادث، زار مبارك الخرطوم، وأعلنت واشنطن اثناءها انها تساعد السودان على إقامة نظام دفاعي أشد فاعلية. وفي اجواء الحديث عن اكتشاف ألغام في البحر الاحمر والاجراءات الدولية لتعطيلها (صيف ١٩٨٤)، دعا السودان إلى مؤتمر للدول المطلة على البحر الاحمر، لكن رفض اثيوبيا (كانت تطل على البحر الاحمر قبل انفصال أريتريا) واليمن الجنوبية الاشتراك فيه عطّل المؤتمر إلى أجل غير مسمّى.

عودة الحرب إلى الجنوب: في آذار ١٩٨٣، عادت مسألة الجنوب (بعد هدوء بدأ مع إتفاقية أديس أبابا) تثار من جديد على أثر اعتقال بعض المسؤولين الجنوبيين لمعارضتهم مشروع الرئيس النميري القاضي بتقسيم البلاد إلى أقاليم، وتقسيم الجنوب، الذي منحته اتفاقية أديس أبابا حق التمتع بحكم ذاتي، إلى ثلاثة أقاليم. وكان مشروع النميري طرح قبل ذلك بنحو سنة، أي في ١٩٨٢، لكن السلطات أرجأت تنفيذه نظرًا للمعارضة الشديدة التي لقيها في الاوساط الجنوبية. وفي ١٦ ايار ١٩٨٣، نشب تمرد مسلح في بور، وبرز جون قرنق قائدًا له من خلال إنشائه «حركة تحرير شعب السودان» مؤكدًا ان حركته تسيطر على جميع الاراضي في جنوب السودان.

وتفاقمت الامور في نيسان ١٩٨٤ عقب قرار النميري تطبيق الشريعة الاسلامية في السودان واعلان حال الطوارىء في سعي منه إلى ارضاء الحركة الاسلامية. وعاد ورفع حال الطوارىء في ايلول ١٩٨٤ مرتدًا على الاخوان المسلمين ومؤكدًا تمسكه بالحزب الواحد (الاتحاد الاشتراكي).

انتفاضة نيسان ١٩٨٥: حقق الجنوبيون صمودًا عسكريًا (وانتصارات احيانًا) وبدا الجيش الحكومي في حال من عجز وارتباك، والمعارضة (وقوامها حزب الامة والحزب الاتحادي) في حال نهوض شعبي متنام. وجاء التغيير من الشمال عبر اضراب عام اعقبته انتفاضة شعبية عارمة في ٦ نيسان ١٩٨٥، فاستلم السلطة مجلس عسكري موقت بقيادة الفريق سوار الذهب وعهد إلى حكومة مدنية بادارة شؤون البلاد ريثما تتم الانتخابات العامة.

كان التحرك الشعبي بدأ قبل يوم الانتفاضة (٦ نيسان ١٩٨٥) بنحو شهر، وذلك اثر الاعلان عن زيادة في اسعار المواد الاولية وعن رفع الدعم الحكومي عن العديد من المواد استجابة لتعليمات صندوق النقد الدولي. فما إن تم الاعلان عن تلك الاجراءات حتى قامت اولى المظاهرات، وكان في مقدمة الصفوف يومها الالوف من الاطباء والمحامين واساتذة الجامعات والطلاب الذين راح يتزايد انخراطهم في صفوف الحركة الشعبية المعارضة، حين بات واضحًا لهم ان الاجراءات التي يقدم عليها النميري تطال الشعب كله بما في ذلك

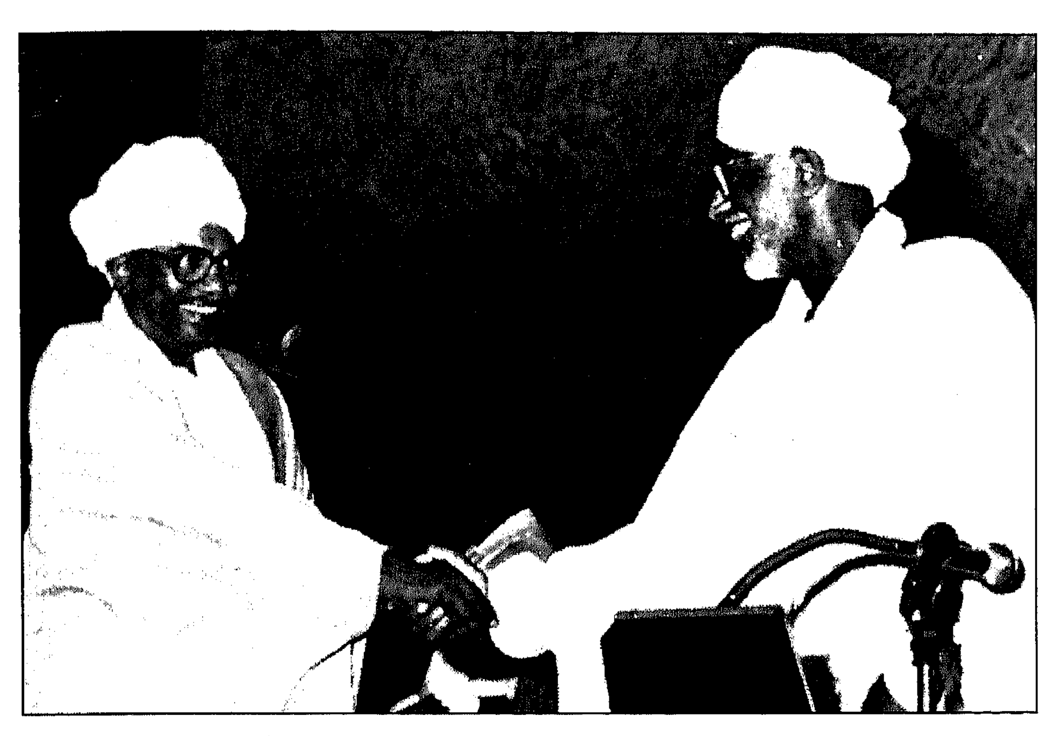
الطبقات المتوسطة التي كان بعض شرائحها ساند نظامه منذ بداية السبعينات. وتفاقمت التظاهرات في المدن الرئيسية من الخرطوم إلى عطبرة وواد مدني، والتي راحت تطلق شعارات ضد حكم اوصل البلاد إلى حافة الجوع، مؤديًا إلى التدهور الاقتصادي وانخفاض سعر العملة الوطنية واخطار المجاعة التي اجتاحت البلاد جديًا في ١٩٨٣ و١٩٨٤. وقد أتى هذا كله في إطار ازدياد النزوح من الارياف إلى احزمة البؤس في المدن وحولها، واستشراء الحرب الاهلية في الجنوب التي أدت إلى تغلب قوات جون قرنق على الحاميات العسكرية الحكومية، واعدام المعارضين واتساع دائرة القمع، ثم وصول الامر إلى ذروته مع انكشاف دور النميري في تهريب يهود الفالاشا إلى اسرائيل. وبعد سلسلة تظاهرات شهر آذار، دعت الشرائح المثقفة من الطبقات الوسطى يوم ٢ نيسان إلى «اضراب سياسي عام يستمر حتى ازالة النظام القائم». وبالفعل بدأ هذا الاضراب في اليوم التالي (٣ نيسان)، وصاحبته مظاهرات عنيفة على شكل امواج بشرية تدفقت على مدن السودان الرئيسية، وأدّى إلى شل المؤسسات، وتواصل الشغب حتى يوم ٦ نيسان، حيث قام الفريق سوار الذهب بحركته التي لقيت دعمًا من صغار الضباط في اول الامر، ثم شملت الجيش كله، مما اضطر النميري للتخلي عن أية مقاومة فبقي منفيًا في الخارج (في ٦ نيسان كان في زيارة لمصر بعد وصوله إليها من الولايات المتحدة، ولا يزال مقيمًا في مصر).

بعد سنة، نفذ المجلس العسكري الموقت ما كان قد وعد به وأجرى انتخابات عامة في ١-١٢ نيسان ١٩٨٦. ففاز حزب الامة برئاسة الصادق المهدي بالأكثرية، وحلّ الاتحاد الديمقراطي في المركز الثاني، وبعده الجبهة القومية الاسلامية. وشكل المهدي حكومته، لكن الاتجاهات الدينية المتعاظمة التي كان يقودها قريبه الدكتور حسن الترابي زعيم الجبهة القومية الاسلامية حالت دون قيام المهدي بمفاوضات جدية مع المتمردين الجنوبيين.

ثم سرعان ما وجد المهدي نفسه يقارع حليفًا آخر في السلطة، غير الترابي وجبهته الاسلامية، هو الحزب الاتحادي الديمقراطي الذي اعاد تنظيم نفسه على مستوى الكوادر والقواعد، ونجح في عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ في السيطرة على ٧٠٪ من قوى الانتاج وخصوصًا الاتحادات المهنية والنقابية وقطاع الاعمال، وبالتالي اعاد التوازن الجماهيري بينه وبين حزب الامة.

أدّى هذا الامر إلى فقدان السيد الصادق المهدي ثقته في الغالبية البرلمانية التي يتمتع بها، ما دفع به إلى تبديل، وتعديل، حكوماته الواحدة تلو الاخرى من دون ان يؤدي ذلك إلى استقرار حكمه، وكانت أهم النقاط في صورة عدم الاستقرار السياسي:

- مظاهرات انتفاضة السكر في ٢٧-٢٨ كانون الاول ١٩٨٨ التي أدت إلى تراجع الحكومة عن زيادة سعر السكر، وتاليًا ظهور الفجوة بين قوى الانتاج والحكم.



حسن الترابي (الى يمين الصورة) يهنىء الرئيس البشير بعد اداله القسم الدستوري رئيساً للجمهورية.

- مذكرة القوات المسلحة في ٢٠ كانون الاول ١٩٨٨ التي أدت إلى خروج الجبهة الاسلامية من حكومة الصادق «حكومة الوفاق الوطني»، فكانت بمثابة انقلاب دستوري.

- استقالة الحكومة ثم تشكيل «حكومة الوحدة الوطنية» في القصر الجمهوري بدلاً من الجمعية التأسيسية، فأضعف هذا الامر من الشرعية الدستورية والديمقراطية لرئيس الوزراء.

- تباعد (بعد تعاون) بين زعيمي الاتجاهين الاسلاميين، رئيس الحكومة الصادق المهدي وزعيم الجبهة الاسلامية حسن الترابي. فبعد تعاون على كثير من المواقف: في احداث تشرين الاول ١٩٦٤ التي أدت إلى إسقاط نظام الفريق عبود، في احداث حل الحزب الشيوعي، في مؤتمر القوى الحديثة في وجه الرئيس اسماعيل الازهري عندما حل الجمعية التأسيسية في ١٩٧٦، في أغلب مراحل الصراع مع جعفر النميري، في المصالحة الوطنية في ١٩٧٧، ثم عندما تولى الترابي في وزارة المهدي الأخيرة وزارة الخارجية مرة ووزارة العدل مرة أخرى، بعد كل هذا التعاون دبّ الخلاف بين الرجلين وأدّى هذه المرة إلى تدبير الجبهة القومية الاسلامية (بزعامة الترابي) انقلاب «الانقاذ» العسكري على آخر حكومة للصادق المهدي في ١٩٨٩ فأطاح ديمقراطية المهدي واستولى على السلطة السياسية، ولا يزال إلى اليوم (نيسان ١٩٩٧).

الحكم العسكري-الجبهة الاسلامية:

جاء انقلاب الفريق عمر البشير (٣٠ حزيران ١٩٨٩، اعتقال الصادق المهدي وإبقاؤه معتقلاً حتى ١٠ كانون الثاني ١٩٩٠) ليقيم دكتاتورية عسكرية تحت مظلة الجبهة الاسلامية القومية التي أمسكت فعليًا بالسلطة بقيادة زعيمها حسن الترابي، ورغم انها لم تحصل إلا على ١٧٪ من اصوات آخر عملية ديمقراطية جرت في البلاد (انتخابات نيسان ١٩٨٦).

«كان السبب المباشر لهذا الانقلاب كامنًا في خوف الترابي والاسلاميين السودانيين من ان يجري الصادق المهدي مفاوضات مع جون قرنق تؤدي إلى إبعاد الدولة عن أحكام الشريعة. فأول ما اتخذه النظام العسكري-الاسلامي الجديد من اجراءات هو إعادة اطلاقه العمليات العسكرية ضد ثوار الجنوب وبمساعدة من ايران، وحرمان التمرد في الجنوب من قاعدته الخلفية بالعمل على إسقاط نظام منغيستو هايلي مريام في اثيوبيا في ايار ١٩٩١، وتأجيج الصراعات القبلية الداخلية بين مختلف الفصائل الجنوبية المتمردة تمهيدًا لجرها إلى طاولة مفاوضات الحكم في الشمال.

وتسنى للجيش الحكومي، في ١٩٩١-١٩٩٢، ان يحقق عددًا من الانتصارات الميدانية في الجنوب عن طريق دفع قوات المتمردين نحو المناطق الحدودية مع البلدان المجاورة وحصرهم هناك، بهدف اعادة سيطرة الحكومة على المناطق الزراعية الغنية واستثمار الآبار النفطية المكتشفة في المنطقة، خاصة وان الثروات الطبيعية في الشمال تتراجع بصورة مستمرة بفعل الجفاف والتصحر.

إن هدف الترابي (ويبدو ان ثمة عددًا من رفاق دربه لا يقاسمه إياه) من محاولات النهوض السوداني يتعدى الوضع السوداني الداخلي إلى دور اقليمي ودولي من خلال التجربة الاسلامية في الحكم.

فمنطقة القرن الافريقي هي الخطوة الاولى باتجاه الهدف النهائي. فاثيوبيا المسيحية وسط عالم إسلامي هي على طريق التفكك منذ ان دخلت قوات جبهة التحرير التيغرية إلى أديس أبابا في ايار ١٩٩١، ومنذ استقلال اريتريا (بدعم عسكري ولوجيستي سوداني) في ايار ١٩٩٣. وكذلك، لا تخفي الخرطوم تدخلاتها في التشاد وفي كينيا حيث تروّج لنجاح تجربتها الادارية والسياسية.

وإزاء العالم العربي، يتهيأ السودان لدور سني كي لا يترك الامر بيد المملكة العربية السعودية من جهة، ومصر من جهة أخرى. ويبدو انه يقدم الدعم لعناصر عدم الاستقرار في هذين البلدين، خاصة في مصر التي يشعر إزاءها بعقدة الدونية كونها كانت قد صادرت دوره لفترات طويلة. وبدعمهم للاسلاميين في تونس والجزائر، يأمل القادة السودانيون باقامة نظام اسلامي عربي يخرج السودان من عزلته. ومن هذا المنظور يمكن فهم موقف الترابي المؤيد للرئيس العراقي صدام حسين في حرب الخليج رغم بغضه للبعثيين ورغم توقعه فشل صدام حسين في هذه الحرب، لكنه حاول، من خلال هذا الموقف، كسب تعاطف

وتأييد العروبيين له في مختلف البلدان العربية.

لكن هذا النظام الدكتاتوري، الذي يحكم تحت شعار الاحكام الدينية، موشك على ايصال البلاد إلى الافلاس والمجاعة، و لم ينجح حتى باسترضاء ابناء الشمال الذين يرون أنفسهم وقد حُرموا من الحريات وتردّت أوضاعهم المعيشية واصبحوا فريسة لسياسة اقتصادية متمحورة فقط حول نشاطات المصارف الاسلامية التي تتصرف بثروة البلاد وتوزع الحصص على الازلام» (إيف لاكوست، «المعجم الجيوبوليتيكي للدول»، فلاماريون، ١٩٩٤، ص ٥٣٢-٥٣٣).

الحكم والمعارضة (كرونولوجيا ١٩٩٣-١٩٩٧)

١٩٩٣: في شباط، زار البابا يوحنا بولس الثاني السودان، والتقى الرئيس عمر البشير، وشدد في كلماته على ضرورة ان يتمتع المسيحيون السودانيون بالحرية في ممارسة شعائرهم، وحضّ الحكومة السودانية على احترام حقوق الانسان، واعتبار انه «لا يمكن تبرير أي حرب بدوافع دينية». وفي غضون ذلك حذرت واشنطن من خطر مجاعة تحيق بجنوب السودان «لها ابعاد مماثلة لما حصل في الصومال».

في نيسان، نقل الاعلام العالمي على لسان نائب في مجلس العموم البريطاني زار السودان ان وزير العدل السوداني أقرّ له بوجود مراكز اعتقال يسمّيها المواطنون «بيوت أشباح»، وان الوزير «عاجز عن وقف هذه الممارسات لأن هناك جهاز أمن تديره الجبهة الاسلامية القومية».

في اواخر حزيران، وبمناسبة الذكرى الرابعة للانقلاب العسكري الذي اطاح النظام الديمقراطي في ٣٠ حزيران ١٩٨٩، كثر الكلام على تحضيرات تجريها الحكومة والمعارضة في السودان وخارجه لعقد مؤتمر دستوري شامل يجمع كل الفرقاء السودانيين: التجمع الوطني الديمقراطي باحزابه (وتشمل الحركة الشعبية لتحرير السودان، أهم فصيل جنوبي) ونقاباته وفصائله المسلحة. وغرض المؤتمر التوصل إلى اتفاق ملزم لكل الاطراف ويفضي إلى السلام تحت رعاية دولية. لكن أكثر اصوات المعارضة اعترضت على المؤتمر لأنه ينقذ الحكومة و«يعفيها من جرائمها»، وكذلك التيار الأكثر تزمتًا في الحكومة العسكرية الاسلامية، ومعه أثرياء الحرب الاهلية وأثرياء الجبهة الاسلامية، عارضوا انعقاد المؤتمر، فتوقف كل حديث عنه.

في آب، توترت علاقات السودان مع الولايات المتحدة الاميركية التي وضعت الخرطوم في قائمة الارهاب والتعاون مع ايران. وسارت في

الخرطوم تظاهرات منددة بالولايات المتحدة، وتكلمت هيئات شعبية عن «معركة طويلة» و«فيتنام ثانية» تنتظر الاميركيين.

في ١٣ تشرين الاول، استقبل البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان زعيم الجبهة الاسلامية القومية الامين العام للمؤتمر الشعبي العربي الاسلامي حسن الترابي وبحث معه في نشاطات مجلس الحوار بين الأديان. ودعا الترابي ايطاليا واوروبا إلى لعب دور نشط في معالجة الصراع في جنوب السودان على غرار ما قامت به في موزمبيق.

وفي ١٦ تشرين الاول، اتخذ مجلس قيادة «ثورة الانقاذ الوطني» (الاسم الرسمي لحكم البشير-الترابي) الحاكم قرارًا مفاجئًا بحل نفسه «طوعًا» وكلف رئيسه الفريق عمر حسن البشير تولي منصب رئيس الجمهورية وتعيين نائبين للرئيس أحدهما شمالي والآخر جنوبي. وتمت هذه العملية بموجب ثلاثة مراسيم: الاول، حدّد المبادىء الموجهة لسياسة الدولة وينص على ان الاسلام هو الدين الهادي للغالبية؛ وعلى تأكيد الوحدة الوطنية والشورى في الحكم وتقسيم الثروة بعدالة؛ الثاني، نص على تعيين الفريق البشير رئيسًا للجمهورية؛ والثالث، نصّ على توزيع سلطات مجلس قيادة الثورة بين رئيس الجمهورية والمجلس الوطني الانتقالي. ولاول مرة، منذ توليه الحكم، تخلّى البشير عن حقيبة وزارة الدفاع.

واتخذ البشير جملة قرارات وأكثر من الخطابات حولها واعدًا بأن هذه القرارات وقفة مراجعة شاملة لمزيد من الانفتاح في الداخل والخارج، ومزيد من الحريات. في غضون ذلك نقلت اخبار واشنطن ان لقاء نظمته «لجنة الشؤون الافريقية» في الكونغرس الاميركي بالتضامن مع «معهد السلام» في واشنطن لبحث ملف السودان، انتهى بأن هناك «تكريس لحالة اللااتفاق بين اطراف المعارضة في الشمال، وحالة اتفاق المعارضة في الجنوب على الانفصال. فقضية العلاقة بين الدين والدولة التي ظلت موضوع جدل دائم في دوائر التجمع المعارض فجّرت الخلاف مجددًا بين اطراف اليسار الشمالي الحريص على شراكة جون قرنق وبين حزب الامة الخائف من رد فعل جمهوره في الداخل. وقرنق الذي يخطب مساندة التجمع (تجمع احزاب المعارضة) من خلال تبني طروحات قومية يجد نفسه مشدودًا لحل انفصالي تماشيًا مع أجنحة أخرى في الجنوب».

في الاسبوع الاول من كانون الاول، عقد في الخرطوم «المؤتمر الشعبي العربي والاسلامي» الثاني بدعوة من زعيم الاسلاميين السودانيين حسن الترابي، «لمناقشة قضايا الامة» وعلى رأسها افغانستان والصومال والبوسنة وفلسطين ومشاريع النهضة الاسلامية وواقع المسلمين في ظل النظام الدولي الجديد. وكان المؤتمر تظاهرة دعم للسودان وتتويجًا للترابي «زعيمًا للحركة الاسلامية الحديثة». والجانب الأهم في التوصيات التي خرج بها المؤتمر هو الجانب الفكري وليس السياسي الذي كان إلى حد كبير معتدلاً في تناوله مختلف قضايا البلدان الاسلامية. ومثلما عملت الحكومة على ان تفيد من المؤتمر فعلت المعارضة الشيء نفسه فوصفته من القاهرة بأنه «محور للتآمر باسم الشعوب العربية والاسلامية وهو مواصلة للمخططات التي أقرها المؤتمر الاول في ١٩٩١. فالترابي يريد توحيد العناصر المتطرفة لتنفيذ هذه المخططات التي تهدف إلى زعزعة الاستقرار في المنطقة كما ظهرت نتائجها في مصر والجزائر وتونس والولايات المتحدة خلال العامين الماضيين». لكن التجمع المعارض كان منقسمًا على نفسه وتتبادل اطرافه مختلف الاتهامات.

وضع التجمع المعارض في اواخر ١٩٩٣: أضحى هذا التجمع شتاتًا وبلغت خلافاته أوجها في اواخر ١٩٩٣. يتكون من

احزاب «تقليدية»، وأخرى «تقدمية» تسمي نفسها «قوى حديثة». وبدا إثر تقديم الحزبين الكبيرين (الامة والاتحادي الديمقراطي) مذكرة في تشرين الثاني ١٩٩٣ إلى زعماء دول منظمة الهيئة الحكومية لمكافحة الجفاف وللتنمية (إيغاد) في شأن فرص حل المشكلة السودانية ان عدم الثقة بينهما وبين الاحزاب اليسارية والنقابات أمر مستحكم. وعندما اقترحت الحركة الشعبية لتحرير السودان (قرنق) عقد مؤتمر سوداني في هارار (صيف ١٩٩٣) واقترحت الدولة المضيفة دعوة الحكومة السودانية إلى حضوره، توجست القوى الحديثة وبعض القوى التقليدية، وماتت الفكرة مع انها كانت ستكون على الارجح مأزقًا حقيقيًا للنظام. ذلك ان المعارضة لا تضع أي اعتبار للحكومة، مع انها لم تشرح كيف ستسقط تلك الحكومة، وماذا ستفعل بعد اسقاطها، كما فشلت عمليًا في اثبات وجودها منذ إطاحتها في ١٩٨٩ من خلال فشلها في إيجاد هيكلية ملائمة لمتطلبات العمل خارج السودان بحيث تقدم نفسها بديلاً عن الحكم القائم. ويمكن رصد وضعها منذ إطاحتها في حزيران ١٩٨٩ إلى آخر ١٩٩٣، من خلال النقاط التالية:

– كان من أهم عيوب التجمع المعارض ان الحركة الشعبية لتحرير السوادان (قرنق) المتحالفة مع «التجمع الوطني الديمقراطي» المعارض عمدت كثيرًا إلى تهميش التجمع الذي قصر نفسه على العمل الاعلامي والاجتماعات السياسية. وكم أطلق ممثلو الحركة في اوروبا والولايات المتحدة تصريحات تنال من الاحزاب وتشكك فيها.

– تهميش المثقفين المنتمين إلى التجمع، ما دفعهم إلى عدم احترام السياسيين، وإلى الانزواء رغم انتمائهم إلى المعارضة.

– لم تتردد القوى اليسارية والمستقلة في التجمع من وصف نفسها في ديباجة «ميثاق التجمع» بأنها القوى التي تصنع الثورات لتأتي القوى التقليدية فتسرقها.

– غياب السيد محمد عثمان الميرغني زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي عن الساحة، في ما عدا تصريحات يطلقها في اوقات متباعدة، رغم انه أكبر زعماء المعارضة في الخارج.

– قادة وفاعليات كثيرة في التجمع مرفوضة تمامًا لدى دول الخليج العربية وبعض الدول العربية الأخرى التي تفتح الباب للمعارضة السودانية. وهؤلاء تحديدًا هم الشيوعيون واليساريون. فإذا تقررت دعوة ممثلي الاحزاب التقليدية إلى دولة من هذه الدول يبدأ الشيوعيون التشكيك في زملائهم المدعوين، مثلما وجهت اتهامات للسيد الميرغني إثر قيامه بزيارة الكويت بعيد حرب الخليج.

– من أهم عناصر الخلل في التجمع غياب البعد العسكري، إذ إنه عجز تمامًا (حتى آخر ١٩٩٣) عن إنشاء فصيل عسكري مسلح خاص بالمعارضة، وبقيت «العسكرية» في يد الحركة الشعبية لتحرير السودان (قرنق) ما أعطاها هامشًا كبيرًا للحركة داخل التجمع وأضعف باقي الاطراف.

– والمعارضة، نتيجة عدم تنظيمها الهيكلي، لم تملك أي قدرة على الاعلام وعلى انسياب المعلومات، ولا تصدر حتى نشرة بلغة حية (انكليزية أو فرنسية)، ووحدها حركة قرنق تصدر نشرة بالانكليزية (راجع باب «الاحزاب»). كان هذا وضع المعارضة بصورة عامة حتى آخر ١٩٩٣.

١٩٩٤: استكمالاً لما ورد اعلاه حول ازمة المعارضة، بدأ العام ١٩٩٤ بتعميق هذه الازمة إلى حد تهديد التجمع بالتفكك، إذ دعا بونا ملوال، أبرز مثقفي الجنوب من قبيلة الدينكا ووزير الاعلام السابق في عهد النميري، إلى فك التحالف بين الحركة الشعبية لتحرير السودان والاحزاب

الشمالية في «التجمع» التي اعتبرها أقرب إلى «الجبهة الاسلامية القومية» بزعامة الترابي منها إلى الحركة الشعبية. وتكمن خطورة دعوة ملوال في انه عضو لجنة التنسيق العليا في التجمع وسياسي مستقل يمثل الشريحة الجنوبية المثقفة الأكثر اقترابًا من الدوائر الغربية المهتمة بالوضع في السودان خصوصًا في واشنطن ولندن.

في كانون الثاني، نفت الحكومة السودانية ما جاء من اتهام على لسان رئيس اريتريا أسياس أفورقي بأن مقاتلين اسلاميين من جنسيات عدة (افغانستان، المغرب، تونس وباكستان) شنوا، مع قوات اريترية معارضة، هجومًا على قواته الحكومية انطلاقًا من الاراضي السودانية. ونشبت، نتيجة ذلك، ازمة بين البلدين. وفي محاولة للضغط على أسمرا، وجهت الخرطوم دعوات لقادة فصائل اريترية معارضة للاجتماع في الخرطوم. وكانت السلطات السودانية اغلقت مكاتب التنظيمات الاريترية في الخرطوم بعد استقلال اريتريا وتولي أفورقي السلطة هناك. وفي حين حاولت الخرطوم احتواء الازمة، ارتأت أسمرا تصعيدها ونقلت رسائل إلى الخارج أبرزها رسالة إلى الرئيس المصري حسني مبارك، ومذكرة إلى مجلس الامن تتهم الخرطوم بدعم متطرفين. فردت الخرطوم برسالة نفي للاتهامات الاريترية. وبعد اريتريا، حذرت اثيوبيا السودان من «محاولات تصديره افكاره العقائدية».

في شباط، شُن هجوم بالأسلحة على مسجد جماعة «انصار السنة المحمدية» في أم درمان (٢٠ قتيلاً)، وأطلقت النيران على مقر منظمة الدعوة الاسلامية، ومنزل رجل الاعمال الخليجي اسامة بن لادن (يلعب دورًا في افغانستان مع تنظيم «طالبان»). وقيل ان المتهمين اعضاء في جماعة «التكفير والهجرة». ووقعت معارك مسلحة بين القوات الحكومية ومقاتلي الحركة الشعبية لتحرير السودان (قرنق) على مشارف مدينتي نيمولي وكايا قرب الحدود الاوغندية، وأجبر أكثر من ١١٠ آلاف مدني للنزوح جنوبًا إلى منطقة الحدود مع أوغندا.

في ٢٧ آذار، أصدر مجلس الجامعة العربية بيانًا مفاده «ان حريق الثوب السوداني المندلع في جنوبي الوطن بات يهدد بفعل رياح التدخلات الخارجية الامن ا لاستراتيجي لمصر ودول اخرى في الجوار الاقليمي». وبعد يومين، زارت مندوبة الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة مادلين أولبرايت (وزيرة خارجية الولايات المتحدة حاليًا) السودان في «خطوة أولى لمعالجة المشكلات التي تعترض مسار العلاقات السودانية-الاميركية. وهذه المشكلات: الاتهامات الاميركية عن ضلوع السودان في مساندة الارهاب، وخرق حقوق الانسان والحرب الاهلية في الجنوب. وكانت المساعدات الاميركية للسودان (عدا معونات الاغاثة) توقفت منذ ١٩٩٠، والمساعدات من السوق الاوروبية المشتركة توقفت منذ تشرين الاول ١٩٨٩.

في آخر ايار، اختتم الرؤساء السوداني (عمر البشير)، والنمساوي (توماس كليستيل) والاوغندي (يويري موسيفيني) في فيينا محادثات وصفت بأنها «مهمة» تناولت تسوية الخلافات الاوغندية-السودانية وسبل دعم مبادرة دول الهيئة الحكومية للتنمية ومكافحة الجفاف (إيغاد) لحل النزاع في جنوب السودان. وأحيط الدور النمساوي بدرجة عالية من السرية.

في ٢٠ حزيران، اعتقلت السلطات الصادق المهدي بتهمة «قيادة مخطط يهدف إلى تنفيذ عمليات تخريب واغتيال». وقبل ساعات من اعتقاله، أعدّ بيانًا أكد فيه ان «المبدأ الأساسي الذي نعمل على هديه باخلاص شديد هو ما سميته الجهاد المدني، وهو السعي إلى تحقيق الديمقراطية في السودان من دون اراقة دماء ومن دون تدخل أجنبي». وفي اليوم التالي، حذّر قادة حزب الامة

(الذي يتزعمه المهدي) من لندن انهم سيلجأون إلى العمل المسلح إذا تعرض المهدي للأذى.

في ٢٩ تموز، اختتمت مفاوضات السلام السودانية في نيروبي برعاية كل من كينيا واثيوبيا وأوغندا واريتريا من دون التوصل إلى اتفاق، وتركّز الخلاف حول موضوعي حق تقرير المصير للجنوبيين والعلاقة بين الدين والدولة. والمتفاوضان هما فصيلا «الحركة الشعبية لتحرير السودان» اللذان اظهرا تقاربًا في مواقفهما من نقطتي الخلاف، من جهة، والوفد الحكومي السوداني من الجهة الأخرى.

في ١١ آب، طرأ تطور سياسي جديد في السودان على صعيد علاقاته مع ليبيا، إذ وقعت حكومتا البلدين في الخرطوم على محضر اتفاق لتفعيل آلية «ميثاق التكامل» الذي وقعه الفريق عمر البشير والعقيد معمر القذافي قبل عامين، ويشمل التعاون الاقتصادي والسياسي.

وفي آب كذلك انشق عدد كبير من قياديي «الحركة الشعبية المتحدة لتحرير السودان» المنشقة عن زعيم التمرد في جنوب السودان العقيد جون قرنق، وأعلنوا عزمهم السعي إلى اعادة توحيد الحركة الام، «الحركة الشعبية لتحرير السودان»، وعدم رغبتهم الاستمرار في العمل تحت قيادة الدكتور رياك مشار.

في ١٥ آب، أعلنت باريس ان السلطات السودانية اعتقلت الارهابي إيليتش سانشيز راميريز المعروف بـ«كارلوس» وسلمته إلى السلطات الفرنسية قبل يوم واحد من هذا الاعلان (أي في ١٤ آب). وكان كارلوس عرضة للملاحقة الدولية له منذ أكثر من ٢٠ عامًا، وقد وصفه الخبير الامني البريطاني ديفيد يالوب بـ«الموسوعة الحية للارهاب في الشرق الاوسط». وكان كارلوس وصل إلى السودان قبل أشهر فقط، وامتنع السودانيون عن تحديد اسم الدولة التي اتى منها كارلوس. وأهم العمليات التي اتهم كارلوس بتنفيذها في فرنسا تفجير في شارع ماربون ومحاولة تفجير قطار كان مقررًا ان ينقل عمدة باريس رئيس «التجمع من اجل الجمهورية» (والرئيس الحالي) جاك شيراك. وجرى اعتقاد واسع ان القاء القبض على كارلوس شكل «انجازًا» للنظام السوداني المدرج منذ عام على لائحة الدول الداعمة للارهاب. ويوفر القاء القبض عليه إمكانية إظهار حسن نيته



كارلوس في الخرطوم قبيل تسليمه.



كارلوس في سن العشرين.

(السودان) في محاولة لكسر الحظر الدولي المفروض عمليًا عليه منذ انقلاب ١٩٨٩». وجاء في «الوسط» (العدد ١٣٧، تاريخ ١٢ ايلول ١٩٩٤، ص ١٣) ان سودانيين مقيمين في بريطانيا «شاهدوا الترابي محاطًا بحراسه الشخصيين في شوارع لندن في حزيران ١٩٩٤. وهي الفترة نفسها التي قام بها بزيارة سرية لباريس، اثر حضوره ندوة في اسبانيا. ويعتقد انه تفاوض مع الفرنسيين إبان زيارته السرية على صفقة تسليم كارلوس. وتؤكد السلطات الفرنسية انها ابلغته شخصيًا طلبها في شأن الارهابي الدولي في شباط ١٩٩٤. وتؤكد معلومات وثيقة الصلة بالترابي انه اتبع تلك الزيارة بزيارة أخرى لباريس في آب ١٩٩٤ اجتمع خلالها طويلاً مع وزير الداخلية الفرنسي الذي يعرف السودانيين معرفة جيدة أهلّته ليفوز برئاسة جمعية الصداقة السودانية-الفرنسية إبان السبعينات. وربما لذلك نُسب إلى باسكوا قوله لخاصته ان الترابي أتى بنفسه لحل مشكلة كارلوس لأنه ادرك جيدًا اننا واثقون من وجود كارلوس في الخرطوم. وقد أتى لتحويل كارثة محتملة على السودان، وهي امور للترابي خبرة كبيرة فيها».

في ايلول، اجتمعت قمة دول «الهيئة الحكومية للتنمية ومكافحة الجفاف» (إيغاد) في نيروبي، وحضرها رؤساء هذه الدول الخمس (الرئيس السوداني عمر البشير، والكيني دانيال آراب موي، والأوغندي يويري موسيفيني، والاريتري أسياس أفورقي، والأثيوبي ملس زيناوي)، وقرّرت الاستمرار في المبادرة للتوصل إلى حل للحرب الاهلية المندلعة في جنوب السودان.

في تشرين الاول عقد «مؤتمر حوار الاديان» (حضور من ٣٠ دولة)، دعا فيه الترابي إلى «تكوين جبهة اسلامية-مسيحية عريضة تضم الامم المتدينة»، وإعادة تشكيل الامم المتحدة ومجلس الامن على هذا الاساس. وأثير في المؤتمر جدل واسع حول حقوق المسيحيين في السودان بعد ان قال مسيحيون سودانيون امام المؤتمر انهم يتعرضون لاضطهاد ديني.

في تشرين الثاني، أعلن الترابي في رسالة جوابية بعث بها إلى الحاخام الاكبر لليهود في فرنسا استعداده لـ«تشكيل جبهة تضم المسلمين والمسيحيين واليهود للدفاع عن الاديان والسلام العالمي ومواجهة القوى المادية الظالمة». وقال في رسالته للحاخام صموئيل سيرات: «لا أحد ما يدعوني إلى رفض الحوار مع اليهود. ودعاني الاسلام إلى البر والقسط مع أهل الكتاب». وكان سيرات بعث برسالة إلى الترابي بعد حادثة تفجير الباص في تل أبيب في ١٩ تشرين الاول ١٩٩٤ وانتقده لوصفه العملية بأنها عمل بطولي.

الشهر الأخير من ١٩٩٤ كان شهر التوتر الشديد (إلى حد شفير الحرب) بين السودان واريتريا. ففي ٦ كانون الاول، قطعت اريتريا علاقاتها الدبلوماسية مع السودان بعد فترة من التوتر والاتهامات المتبادلة استمرت طوال سنة. وتتهم اريتريا السودان بدعم معارضين اريتريين ينتمون إلى جماعة «الجهاد الاسلامي» الاريترية وتدريبهم. وجرى حشد للقوات العسكرية على الحدود بين الطرفين، وكذلك اشتباكات بالاسلحة الثقيلة. وقامت اليمن بوساطة بين الدولتين اللتين أجرتا محادثات في صنعاء. وعقد قادة المعارضة السودانية في الخارج اجتماعات في العاصمة الاريترية (أسمرا) وناقشوا تحركًا جديدًا للمعارضة في ظل المتغيرات الاقليمية، كما حصلوا من أسمرا على تسهيلات تساعدهم في تكثيف نشاطهم المعارض لحكم الرئيس عمر البشير والجبهة الاسلامية القومية.

١٩٩٥: في ٣١ آذار، افتتح الترابي جلسات الاجتماع الثالث لـ«المؤتمر الشعبي العربي

الاسلامي» في الخرطوم امام وفود أتت من ٨٠ دولة (البعض أطلق على هذا المؤتمر إسم «الاممية الاسلامية»). ولوحظ غياب شخصيات كثيرة كانت من مؤسسي هذا المؤتمر في ١٩٩١، مثل ياسر عرفات الذي تعرض في جلسات المؤتمر الاخيرة لهجوم لاذع من الوفود بما فيها الفلسطينية، وقد وردت توصية صريحة بادانة اتفاق أوسلو ومفاعيله. وكان قلب الدين حكمتيار عضوًا مؤسسًا غاب عن المؤتمر الاخير ليمثله شاب طاجيكي من اعضاء حزبه في ما انتقل التمثيل الحقيقي لصالح جماعة رباني. وكان راشد الغنوشي مؤسسًا ثالثًا، لكن استجابة السودان للضغط العربي والدولي حالت دون حضوره. وكان جورج حبش ونايف حواتمة من المؤسسين الاوائل الذي غابوا عن هذا المؤتمر بسبب الغلبة الكاسحة على حضوره لبعثات مسلمة غير عربية وتراجع التمثيل العربي فيه، الأمر الذي انعكس في هذه الدورة بمطالبة المؤتمرين بتغيير الاسم ونزع كلمة «العربي» منه ليصبح «المؤتمر الشعبي الاسلامي». وشدّد المشاركون في المؤتمر على ضرورة الانفلات من قبضة الغرب والخلاص مما وصفوه بـ«الخناق العسكري والاقتصادي والثقافي الذي يطوق به الغرب رقاب المسلمين».

في نيسان، زار وفد ايراني على رأسه رئيس مجلس الشورى (البرلمان) الايراني علي ناطق نوري. وفي البيان المشترك، أكد البلدان «استمرار نهج الشورى بينهما وتبادل الخبرات في تحكيم الشريعة الاسلامية، وتنشيط تنفيذ الاتفاقات» التي وقعها البلدان خلال السنوات الخمس الماضية.

في ١٨ ايار، كشفت الحكومة السودانية عن اسبابها لاعتقال رئيس الوزراء السوداني السابق الصادق المهدي وزعيم حزب الامة، بقولها إنه «محتجز لمساءلته في شأن مسؤوليته عن التصريحات التي أدلى بها الامين العام للحزب عمر نور الدائم (وكانت السلطات صادرت بيته) والاتفاق الذي وقعه مع قادة التمرد في بلدة شقدوم في جنوب السودان في كانون الاول ١٩٩٤». وتوالت ردود فعل منددة باعتقال الصادق المهدي، وهدّد حزب الامة (ومعه طائفة الانصار) معتبرًا ان المساس بحياة المهدي سيوصل السودان إلى حمام دم. وقامت السلطات باعتقالات جديدة طاولت العديدين من حزب الامة وطائفة الانصار. وهذه هي المرة الخامسة التي يعتقل فيها المهدي منذ انقلاب ١٩٨٩.

في اواخر حزيران، اختتم قادة المعارضة السودانية اعمال مؤتمرهم في أسمرا باتفاق واسع تجاوز حال الشتات التي عاشتها المعارضة منذ انقلاب البشير في حزيران ١٩٨٩. وأقر قادة المعارضة هيكلية جديدة لـ«التجمع الوطني الديمقراطي» مؤلفًا من مجلس قيادة يرأسه زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي السيد محمد عثمان الميرغني، ومكتب تنفيذي امينه العام مسؤول العمل الخارجي في حزب الامة مبارك الفاضل المهدي. وتجاوز المؤتمر خلافات برزت في شأن تفاصيل بعض القضايا، واجاز بالاجماع اتفاقًا قضى بقبول تقرير المصير لجنوب السودان وعدم استخدام الدين في السياسة ووضع آليات لاسقاط حكم البشير وللحكم في الفترة الانتقالية التي تعقب ذلك. ومن أبرز قرارات المؤتمر اتفاق على ايقاف الحرب في الجنوب بمجرد تولي المعارضة السلطة يرتكز على الاتفاقات في شأن علاقة الدين والدولة وتقرير المصير ونظام حكم البلاد يعطي صلاحيات واسعة للاقاليم ويرفع الغبن عنها.

وفي اواخر الشهر نفسه (حزيران)، وصل التوتر بين مصر والسودان إلى درجة لم يبلغها منذ استقلال السودان عن الحكم الثنائي المصري-البريطاني في ١٩٥٦. واستخدم الرئيسان، حسني مبارك (مصر) وعمر البشير (السودان) لهجة حادة وتبادلا الاتهامات. واستقبل الرئيس المصري وفدًا من المعارضة السودانية جاءت لتهنئته على سلامته

من محاولة الاغتيال التي تعرض لها في أديس أبابا (٢٦ حزيران ١٩٩٥). وزاد التوتر أثر اشتباك في منطقة حلايب الحدودية (راجع باب «حلايب») بين دوريتين مصرية وسودانية.

واستمر التوتر بين البلدين في تموز، واتهمت القاهرة تنظيم الترابي بمحاولة اغتيال الرئيس المصري في أديس أبابا. واستدعت السودان معظم افراد بعثتها الدبلوماسية من القاهرة، فيما اعتبر الرئيس المصري ان الرئيس السوداني هو «مجرد سكرتير للترابي».

في ٢٦ آب، أطلق سراح المهدي، وأمّ داره في أم درمان عشرات الآلاف من المهنئين.

في ايلول، اعتقل عشرات الشيوعيين واليساريين بتهمة تنظيمهم تظاهرات كانت مدن السودان تشهدها من حين إلى حين.

في كانون الاول، وقعت اشتباكات ضارية بين قوات الحركة الشعبية لتحرير السودان والقوات الحكومية في ولايتي غرب الاستوائية وشرقها قرب الحدود مع أوغندا التي تبادلت والسودان اتهامات بدعم الطرف الآخر متمردين معارضين للطرف الاول.

١٩٩٦: شهد السودان خلال هذا العام تطورات غلبت البعد الخارجي في معالجة قضيته وحصلت احداث رسمت الوجهة التي تسير فيها تفاعلات مستقبله لسنوات مقبلة، وأهمها طرح قضية السودان في مجلس الامن وفرض عقوبات دبلوماسية محدودة، وفتح جبهة جديدة للحرب على الحدود مع أريتريا في شرقي السودان. وبدأ العام ١٩٩٦ بتصعيد الضغط الخارجي من خلال مطالبة مصر واميركا واثيوبيا بعقوبات دولية عليه، وانتهى بهرب رئيس الوزراء السابق ابرز زعماء المعارضة السودانية الصادق المهدي إلى اريتريا طالبًا تكثيف الضغوط والعزلة الدولية على الخرطوم. وعلى الصعيد الداخلي شهدت البلاد اجراء انتخابات برلمانية واختيار الدكتور حسن الترابي رئيسًا للمجلس الوطني (البرلمان) في أول منصب رسمي يتخذه منذ الانقلاب العسكري في حزيران ١٩٨٩.

في كانون الثاني، في اليوم الاول افتتح البشير مؤتمر التنظيم الحاكم الذي شارك فيه أربعة آلاف ممثل لمناطق البلاد وقطاعات سكانها. في اليوم الرابع، اتهمت الخرطوم اثيوبيا واريتريا بالتحرش بها واعلنت صد هجوم لمتمردي الجيش الشعبي (الحركة الشعبية لتحرير السودان) بقيادة قرنق الذي عاد إلىالعمل من اثيوبيا واريتريا على حدود السودان الشرقية التي طرد منها عقب سقوط نظام الرئيس الاثيوبي السابق منغيستو هايلي مريام في ١٩٩١. وكان هذا الحدث بداية لتطورات مهمة، إذ شهد العام (١٩٩٦) إقامة معسكرات للمعارضة السودانية في اريتريا وتنفيذ قوات المعارضة هجمات عدة في شرق السودان. وفي اليوم الثامن، أعلنت مصر انها تنسق مع اثيوبيا والولايات المتحدة لطرح قضية السودان في مجلس الامن للمرة الاولى وطلب عقوبات ضد السودان الذي بات متهمًا بايواء مشاركين في محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أديس ابابا (١٩٩٥). واعتذرت مصر في الفترة نفسها عن عدم استضافة مؤتمر للمعارضة السودانية في القاهرة فانتقل المعارضون السودانيون إلى أسمرا لتصبح مقرًّا رئيسيًا للمعارضة، خصوصًا بعد ان سلمت مبنى السفارة السودانية فيها إلى رئيس التجمع الوطني الديمقراطي (تجمع احزاب المعارضة) السيد محمد عثمان الميرغني. وقرّر التجمع اقامة جناح عسكري له سلّم قيادته للقائد العام السابق للجيش السوداني الفريق فتحي أحمد علي على ان ينسق مع زعيم التمرد في الجنوب العقيد جون قرنق. كما جرى التركيز على تشكيل مجموعات عسكرية شمالية تساعد في تخفيف الضغط العسكري الحكومي على قوات قرنق وتفتح جبهة جديدة للحرب. وفي

منتصف الشهر، درس مجلس الأمن شكوى اثيوبيا ضد السودان، لكنه رفض مناقشة شكوى تقدمت بها الخرطوم من هجوم اثيوبي على مناطق في الحدود. وفي نهاية كانون الثاني، تلقت الخرطوم ضربتين قويتين من مجلس الامن والولايات المتحدة. إذ دان مجلس الامن الخرطوم وطالبها بتسليم المتهمين المصريين الثلاثة (محاولة اغتيال الرئيس المصري)، في حين سحبت واشنطن العاملين في سفارتها في الخرطوم ونقلتهم إلى نيروبي بحجة الخوف على حياتهم من هجمات.

في ٣ شباط، أعلن عن فتح باب الترشيح للانتخابات الاقليمية والبرلمانية والرئاسية؛ وعند اغلاق باب الترشيح في منتصف الشهر كان عدد المرشحين للرئاسة ٥٠ مرشحًا غالبيتهم غير معروفين. وتزامن ذلك مع جهود من اجل تحقيق مصالحة بين الحكومة والمعارضة الشمالية قادها الشيخ حمد الجعلي. لكن هذه المحاولة لم تثمر، وأعلنت المعارضة تأييدها الذهاب في العقوبات إلى أبعد حد داعية خصوصًا إلى حظر على النفط والسلاح.

في ٦ آذار، أجريت الانتخابات وأعلن عن فوز البشير لفترة رئاسية مدتها خمس سنوات. واعتبرت المعارضة ان الانتخابات «مسرحية لم تتمتع بصدقية». وأعلن في الخرطوم عن الكشف عن محاولة انقلابية كان يخطط لتنفيذها اثناء فترة الانتخابات العقيد عوض الكريم النقر. واتهمت الخرطوم جهات خارجية وحزبيين بانهم وراء المحاولة. وفي ٢٦ آذار، خطف سودانيان طائرة سودانية كانت في رحلة داخلية وتوجها بها إلى اريتريا التي اعادت الطائرة والركاب واحتجزت الخاطفين.

في ١٠ نيسان، وقعت الحكومة السودانية اتفاقًا لتحقيق السلام مع فصيلين رئيسيين في حركة التمرد في الجنوب انشقا قبل خمس سنوات عن قرنق. وأقر الاتفاق مع الزعيمين رياك مشار وكاربينو كوانين اجراء استفتاء في الجنوب بعد فترة انتقالية. وفي ١٨ نيسان، فرض مجلس الامن عقوبات دبلوماسية على السودان قضت بالحد من تحركات الدبلوماسيين السودانيين في الدول وخفض البعثات الدبلوماسية السودانية. وفي ٢١ نيسان، ظهر في افغانستان مصطفى حمزة المتهم الاول في محاولة اغتيال الرئيس المصري الذي تطالب اثيوبيا السلطات السودانية بتسليمه. وفي ٢٢ نيسان، أعلن تنظيم «قوات التحالف السودانية» بقيادة العميد عبد العزيز خالد تنفيذ اولى عمليات المعارضة الشمالية التي تنطلق من اريتريا.

في حزيران، في اليوم الاول جاءت اول إشارة إلى إمكان مغادرة المهدي السودان إذ أعلن خطيب الجمعة في مسجد أنصار المهدي في أم درمان ان الانصار «قد يضطرون إلى المواجهة الشاملة أو الهجرة من السودان» إذا لم ترد «الممتلكات والحقوق السياسية لهيئة شؤون الانصار». وفي اليوم السادس، فرضت الحكومة زيادات جديدة على اسعار الخبز والوقود، ونظمت المعارضة تظاهرة كبيرة احتجاجًا على الغلاء. وفي اليوم الحادي عشر، وجه قادة المعارضة في الداخل مذكرة شديدة اللهجة إلى الرئيس عمر البشير طالبوه فيها بـ«التنحي فورًا عن الحكم منعًا لانزلاق الوطن إلى فتنة تعصف بكيانه ودرءًا لأي حلول خارجية قد تفرض عليه». واعتبر الصادق المهدي ان مذكرة المعارضة «آخر حل غير ملطخ بالدم». وفي ٢٢، اجتمع الرئيسان حسني مبارك وعمر البشير أثناء القمة العربية للمرة الاولى منذ محاولة اغتيال مبارك قبل عام. وبرز إثر اللقاء خلاف مصري-اثيوبي في شأن نوع العقوبات على السودان إذ رفضت مصر أي عقوبات اقتصادية تؤثر على المواطنين. وأعلن عن اتفاق بين الرئيسين على آلية لتسوية الخلافات، لكن لقاءات بين مسؤولين امنيين في البلدين فشلت في تحقيق

التقارب الذي سعى إليه لقاء القاهرة. وبعد ايام، أعلن الامين العام للحزب الاتحادي الديمقراطي السيد الشريف زين العابدين الهندي ان «طلائع» ستسبقه في زيارة الخرطوم للبحث في مبادئه لمعالجة الازمة السودانية مع مسؤولين سودانيين وفتح حوار شعبي واسع.

في ١٢ تموز، أوقفت السلطات السودانية صحيفة «الرأي الآخر» المستقلة وسط اجواء تشدد مع وسائل الاعلام المستقلة والاعلاميين. وفي ٢٥، نجحت روسيا وفرنسا والمانيا في عرقلة المساعي الاميركية لتشديد العقوبات على السودان بدعوتها إلى دراسة الاضرار التي يمكن ان تلحق بالسودانيين نتيجة فرض عقوبات ذات طابع اقتصادي خصوصًا الحظر الجوي. وتكرر هذا الموقف عند مراجعة العقوبات مرة أخرى قبل نهاية العام.

في بداية آب، صعدت مصر واريتريا حملتهما ضد السودان. وفي ١٦، أعلن عن كشف محاولة تمرد في اوساط الجيش في مدينة بورسودان ضمن خطة للاستيلاء على ميناء السودان الرئيسي. وفي ٣١، وقعت اشتباكات بين طلاب في جامعة أم درمان الاهلية احرق خلالها مؤيدون للحكومة جزءًا من مباني الجامعة.

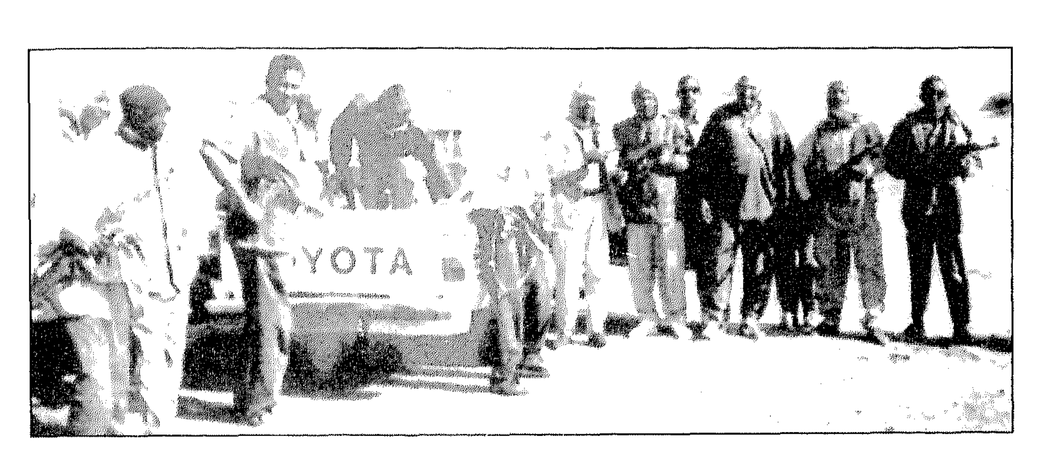
في بداية ايلول، اندلعت تظاهرات في العاصمة السودانية اثر ازمة خبز وقتل ثلاثة اشخاص في مواجهات مع قوات الامن. في ٨، وصل الرئيس الايراني هاشمي رفسنجاني إلى الخرطوم آتيًا من كمبالا ضمن جولة افريقية في زيارة استمرت يومين ووقع خلالها اتفاق أوغندي-سوداني برعاية رفسنجاني قضى بوقف التصعيد بين البلدين والحد من نشاط المعارضة في البلدين على المنطقة الحدودية. لكن الاتفاق تعثر بعد صدور تصريحات من كمبالا تتهم السودان بدعم المتمردين الاوغنديين. وقالت الخرطوم ان الرئيس يويري موسيفيني خضع لضغوط اميركية لافشال الاتفاق. وفي ٢٨، اقال البشير والي الخرطوم بدر الدين طه بسبب فشله في معالجة ازمة الخبز التي تسببت في اعمال شغب.

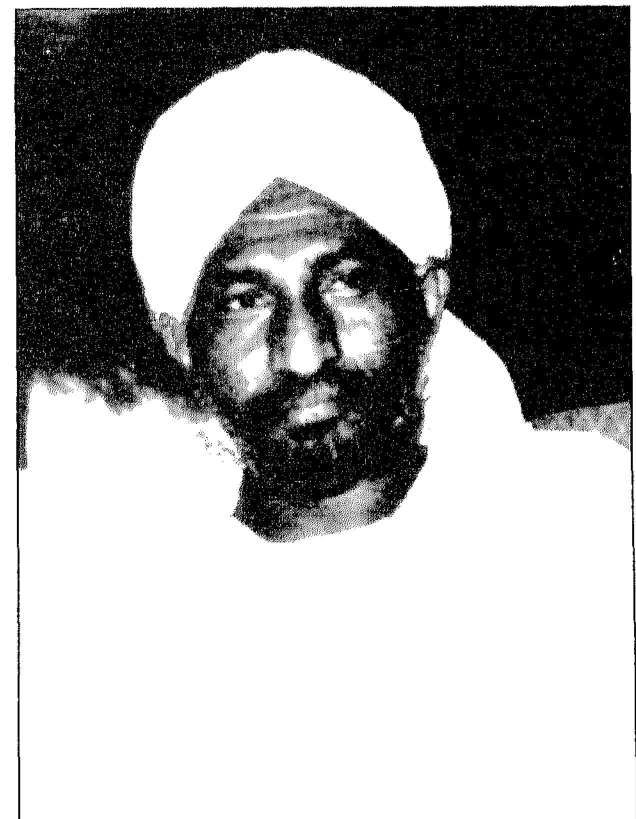
في ٩ تشرين الاول، عينت المعارضة السودانية جون قرنق قائدًا لقواتها ونفذت اول عملية مشتركة لفصائلها في منطقة الحدود السودانية- الاريترية.

في ١١ تشرين الثاني، كشف عن تقديم الولايات المتحدة مساعدات عسكرية قيمتها ٢٠ مليون دولار لتأهيل جيوش اثيوبيا واريتريا واوغندا لمحاصرة السودان ودعم المعارضة السودانية. وفي ٢٤، أصدر الرئيس الاميركي بيل كلينتون قرارًا بمنع المسؤولين السودانيين من دخول اميركا. وفي ٢٥، زار وزير الخارجية السوداني علي عثمان محمد طه الرياض واجرى مع المسؤولين السعوديين محادثات تناولت خصوصًا الوضع في البحر الاحمر والقرن الافريقي.

في ١٠ كانون الاول، نجح الصادق المهدي في مغادرة السودان سرًا، وظهر في أسمرا معلنًا ان خروجه سيحرم حكومة البشير من استخدامه كرهينة في حال نفذت المعارضة عملية عسكرية ضد الحكومة. وفي ٢٧، وصل المهدي إلى مصر في اطار جولة عربية وافريقية أكد انها تهدف إلى تكثيف الضغط الدولي على حكم البشير. وفي آخر يوم من ١٩٩٦، اجتمع في القاهرة الصادق المهدي والميرغني رئيس التجمع الوطني الديمقراطي المعارض، فيما كانت الخرطوم تشهد تحركات غير عادية من أجل التعبئة.

١٩٩٧: في ٩ كانون الثاني، اعتبر المراقب العام لجماعة «الاخوان المسلمين»، صادق عبد الله عبد الماجد ان البلاد «تعيش صراعًا سياسيًا مؤسفًا بين الحكومة والمعارضة الشمالية خصوصًا انه يوشك على ان يتحول صراعًا دمويًا». في ١٣، أعلنت الحكومة حال التعبئة





الصادق المهدي، وابنه عبد الرحمن.
فوق: الصادق (الثالث من اليمين) مع مرافقيه وحراسه في رحلة الفرار من الاقامة الجبرية من ام درمان الى اسمرا (كانون الاول ١٩٩٦).



العامة في الوحدات العسكرية السودانية كافة، واعترفت بسقوط مدينتي الكرمك وقيسان الاستراتيجيتين على الحدود مع اثيوبيا في يد العقيد جون قرنق.

وفي منتصف كانون الثاني، تسارعت التطورات السياسية والعسكرية. فاستقبل الرئيس المصري، حسني مبارك، نائب الرئيس السوداني، وأكدت مصر ان امنها القومي يبدأ من أقصى حدود السودان وانها «تدعم دعمًا كاملاً وحدة السودان» في وجه التهديدات الخارجية. واعتبرت الولايات المتحدة ان اثيوبيا «طرف» في القتال الدائر في شرقي السودان. وبدا ان المعارضة الشمالية فتحت جبهة جديدة على الحدود مع اريتريا بهدف عزل الخرطوم عن بور سودان. وتوالت البيانات العسكرية من الطرفين: الحكومة والمعارضة (جون قرنق قائد القوات المعارضة)، فيما الحكومة السودانية تصب جهدها لكسب دعم مصر لمواجهة «الغزو»؛ والاجواء المخيمة على البلاد بأسرها اجواء حرب.

لكن بعد ثلاثة ايام (أي في ١٨ كانون الثاني)، عاد الرئيس المصري واغلق باب إمكان تقديم مصر دعمًا للسودان، واعتبر ان لا غزو خارجيًا وما حدث شأن داخلي. وفي اليوم التالي، توقع رئيس القيادة العسكرية المشتركة لـ«التجمع الوطني الديمقراطي» السوداني المعارض الدكتور جون قرنق «نهاية قريبة للنظام السوداني»، واعتبر تصريحات الرئيس حسني مبارك الاخيرة عن السودان «قراءة صحيحة للاوضاع وتساعد في وحدة السودان»، وأكد، بعد يوم واحد، ان قواته استولت على ١١ حامية سودانية؛ فيما دعا الصادق المهدي الجيش السوداني والشرطة إلى إطاحة النظام. وشهدت الخرطوم توزيع بيانات صادرة عن حزبي الامة (الصادق المهدي) والشيوعي (التيجاني الطيب) حضت المواطنين على الخروج في تظاهرات و«دعم الانتفاضة الوشيكة التي ستقتلع نظام الحكم في السودان». وفي غضون ذلك أعلنت الولايات المتحدة، للمرة الاولى، انها وافقت على منح مساعدات لاثيوبيا واريتريا وأوغندا لمساعدتها في الدفاع عن اراضيها ضد هجمات يشنها متمردون تدعمهم الخرطوم.

في اواخر كانون الثاني هدأت بعض الشيء جبهات المعارك، وتصاعدت وتيرة الاتصالات السياسية، وبرزت منها اتصالات دولة الامارات بالاطراف السودانية، فاستقبلت (٢٨ كانون الثاني) رئيس التجمع الوطني الديمقراطي محمد عثمان الميرغني، واعلنت ان الصادق المهدي سيزورها قريبًا، في ما بدا انه مدخل لوساطة محتملة قد يقوم بها رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان للتقريب بين الاطراف السودانية المتصارعة.

وخلف هذه الاحداث، وفي سياق تعليقات وتحليلات لها، ذكر ان الحرب على الحدود الشرقية للسودان اندلعت بعد خسارة شركة «أراكيس» الاميركية لصفقة نفطية في المنطقة وفوز شركة كندية بها.

في أول شباط، وبعد سريان كلام على دعم ايراني كبير (إلى حد جسر جوي) للحكومة السودانية، تردد ان زيارة نائب الرئيس السوداني الفريق الزبير محمد صالح لطهران (وكان هو نفسه زار القاهرة والتقى الرئيس مبارك قبل نحو اسبوعين) لم تود إلى النتائج التي كانت ترتقبها الحكومة السودانية. وبشأن مبادرة رئيس دولة الامارات العربية المتحدة لانهاء النزاع المسلح في السودان، فقد أعلن رئيس التجمع الوطني الديمقراطي المعارض ان لقاءه مع الشيخ زايد لم يتناول مبادرة وساطة، في حين أكدت الخرطوم ان الحوار يمكن ان يحدث «بعد انتهاء العدوان الخارجي». وفي ٣-٤ شباط، زار الرئيس السوداني نيروبي وطلب من ا لرئيس الكيني دانيال آراب موي مواصلة وساطته في النزاع القائم بين



البشير (الى يمين الصورة) مستقبلا الرئيس الايراني رفسنجاني.

الخرطوم والمتمردين السودانيين. وبدأ نائب الرئيس السوداني جولة على ليبيا وتونس والمغرب لشرح وجهة نظر السودان في القتال الاخير على حدوده المشتركة مع اثيوبيا واريتريا. وفي ٥، دعت دولة الامارات إلى بلورة جهد عربي مشترك لدعم مبادرتها لانهاء الخلاف بين الحكومة والمعارضة في السودان. وفي اليوم التالي، جرى كلام على ان الجانبين (الحكومة والمعارضة) وافقا على مبادرة رئيس دولة الامارات، في وقت استقبل الشيخ زايد (رئيس دولة الامارات) الصادق المهدي. وفي ١٨، أعلنت الخرطوم عن موافقتها على وساطة يقودها مستشار الرئيس الاريتري أسياس أفورقي السيد محمد ابو القاسم حج محمد لايجاد «مخرج للازمات القائمة» بين السودان واريتريا من جهة، وبين النظام ومعارضيه من جهة أخرى. وفي اليومين التاليين، أكدت المعارضة، ونفت الحكومة، انضمام لواء في الجيش الحكومي إلى المعارضة في شرقي البلاد. وارسلت الحكومة مبعوثًا خاصًا لاطلاع الرئيس المصري، حسني مبارك، على المساعي الاماراتية.

في ٣ آذار، افتتح الرئيس البشير حقلاً نفطيًا في جنوبي البلاد (ولاية اعالي النيل) تتولى شركة قطرية-سودانية العمل فيه (قدر إنتاجه بخمسة آلاف برميل في اليوم). وجاء افتتاح الحقل بعد يوم واحد من توقيع السودان اتفاقات مع شركات صينية وماليزية وكندية لتطوير حقول النفط في غربي البلاد وجنوبيها وانشاء خط انابيب من مواقع الانتاج إلى ميناء بورسوادان. وفي اليوم نفسه (٣ آذار)، قال، من القاهرة، رئيس الحزب الاتحادي الديمقراطي السوداني المعارض رئيس التجمع الوطني الديمقراطي محمد عثمان الميرغني ان الشعب السوداني حسم أمره لاطاحة النظام الحاكم في الخرطوم. ونقلت جريدة «الحياة» (٥ آذار ١٩٧٩، ص٧) من الرياض خبرًا مفاده ان ١٥ ضابطًا سودانيًا متقاعدًا وجهوا رسالة إلى الرئيس السوداني اتهموه فيها بأنه «سلم رقبة القوات المسلحة لحزب الجبهة القومية الاسلامية لتخدم فكرًا معينًا» وطالبوا بحل سريع للمشكلة

السودانية يتمثل في الجلوس إلى «طاولة المفاوضات مع جميع الاطراف السودانية المعارضة». وتناولت الرسالة عمليات التسريح التي طاولت نحو ٥ آلاف ضابط سوداني واتهمت الحكم بانه «حاول إضعاف ا لقوات المسلحة بتشريد الغالبية لعدم ثقته في ولائهم». وأوضحت ان القوات الموجودة في شمال السودان لم تشارك في القتال ضد قوات المعارضة. وزادت الرسالة ان «الاسس التي قامت عليها العسكرية السودانية هي اعتماد القومية السودانية لا التحزب اساسًا للعلاقة بين جميع ضباط وافراد القوات المسلحة». وطالب الضباط السابقون البشير بابعاد رئيس البرلمان الدكتور حسن الترابي باعتبار ان ذلك «مطلب ملح لغالبية أهل السودان تشاركهم فيه اطراف عربية وافريقية وغربية».

في ٤ آذار، وجه الصادق المهدي (من خارج السودان) نداء إلى انصاره إلى «الهجرة شرقًا للمساهمة في المهمة التاريخية»، واطلق على ندائه إسم «نداء الهجرة». ومما جاء فيه: «تصدينا لهذا النظام الظالم باسلوب الجهاد المدني فكشفنا اخطاءه وخطاياه وحاولنا زحزحة طغيانه بالحسنى (...) وواصلنا جهادنا المدني سبع سنوات وزيادة صابرين على الأذى والبلاء، لكن النظام لم يراع نصحًا فدخلنا مرحلة ثانية متعددة الاساليب نمارس كل انواع الضغط على النظام لترجيح ضده الموازين، وليتحرك الشارع السياسي في انتفاضة تحرير تدعمها القوات المسلحة السودانية والشرطة».

في ٩ آذار، بدأت جولة من المعارك (بين قوات قرنق والقوات الحكومية) في المناطق القريبة من الحدود مع أوغندا وزائير، وبدأت معها بيانات متضاربة عن نتائج هذه المعارك والمدن والحاميات التي سقطت بيد هذا الفريق أو ذاك. وانتصف الشهر على استمرار المعارك وعلى بروز مدن الكرمك وقيسان وييي كأهداف استراتيجية لكل من الطرفين؛ وسياسيًا، على بدء المكتب التنفيذي للتجمع الوطني الديمقراطي سلسلة اجتماعات في أسمرا تمهيدًا لاجتماع هيئة قيادة التجمع، وعلى وصول الاجتماعات التي ترعاها ايران (بشخص وزير خارجيتها علي أكبر ولايتي) بين مسؤولين سودانيين وأوغنديين إلى طريق مسدود.

في ٢٠ آذار، أعلن الجيش الشعبي (بقيادة قرنق) ان مدينة ييي الاستراتيجية باتت في قبضته، وانه اسر مئات من السودانيين.

في ٢١ آذار، زار الرئيس السوداني (عمر

طفل سوداني في «مخيم السلام» في الخرطوم حيث يعيش ٢٨ الف عائلة نازحة من جنوب السودان بسبب الحرب المستعرة في مناطقهم منذ ١٩٨٣ (شباط ١٩٩٧).



البشير) دولة الامارات واجتمع مع الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي جدّد اهتمام الامارات باطلاق مبادرتها لتحقيق الوفاق بين ابناء الشعب السوداني الواحد. وقال البشير، إبان الزيارة، ان السودان يتعرض لغزو خارجي من الحدود الأوغندية والزائيرية بعد ان سيطر التوتسي على الاوضاع في منطقة الحدود مع السودان. وقال ان الازمة حاليًا ناجمة عن الخلاف بين الحكومة والمعارضة الشمالية وبين الحكومة وحركة التمرد بقيادة جون قرنق اضافة إلى عدوان خارجي. ودعا البشير إلى توسيع المبادرة الاماراتية لتشمل محاور الازمة الثلاثة.

الوضع العسكري والسياسي الحالي للمعارضة: يمكن إجمال هذا الوضع بالنقاط التالية (وذلك حتى اواخر آذار ١٩٩٧):

- تميزت عملياتها، في مرحلة أولى (من ٢٠ نيسان حتى ٤ تشرين الثاني ١٩٩٦) بمحدوديتها وبهدف جس النبض ورفع الروح المعنوية من خلال شن اغارات ونصب كمائن صغيرة.

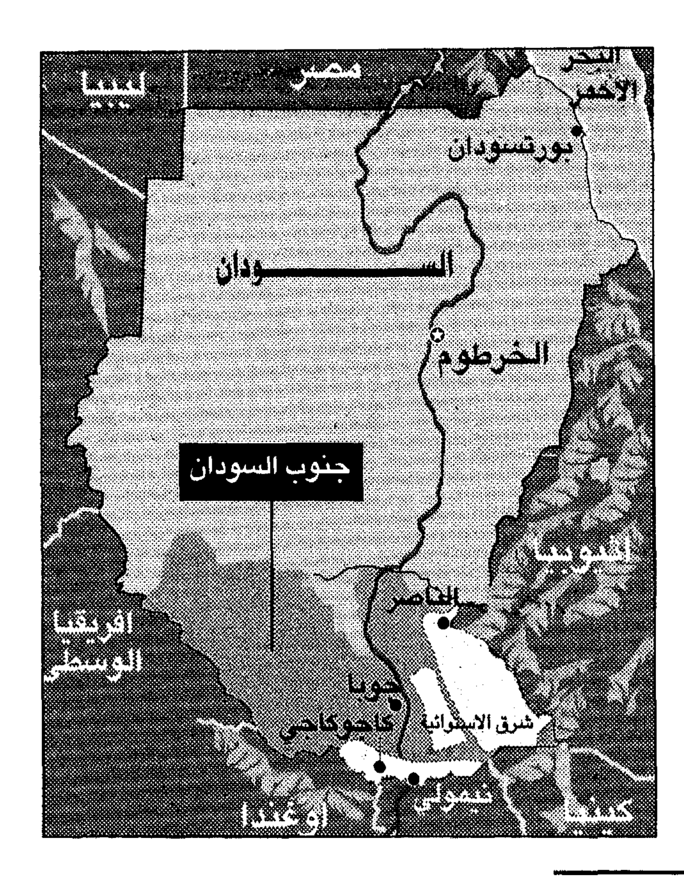
- أعقبت هذه المرحلة وقفة تعبوية للتحضير والاعداد لتنفيذ مرحلة ثانية.

- بدأت المرحلة الثانية في ١٢ كانون الثاني ١٩٩٧ باتخاذ المعارك شكل حرب عصابات شاملة شرقي السودان وجنوبيه. فأصبح ما يجري في السودان حربًا حقيقية بين قوى المعارضة والقوى الحكومية.

- بدأت قوات المعارضة العملية الهجومية اعتمادًا على قواعدها في اريتريا واثيوبيا، عبر عمليات رئيسية في الاتجاه الشرقي، وعمليات ثانوية في الاتجاه الجنوبي، أي الاتجاه الذي يلتقي ومسرح عمليات حليفها قرنق. ويتميز الاتجاه الشرقي بأنه يحقق لقوات المعارضة فرصة توجيه الضربات القتالية في منطقة حيوية وحساسة وغير متوقعة. إذ تعتبر هذه المنطقة أقرب مناطق الحدود للعاصمة الخرطوم إضافة إلى احتوائها على مدن ذات أهمية استراتيجية مثل بورسودان وكسلا والدمازين والروصيرص. فبور سودان هي الميناء الاول للسودان، والدمازين تضم أكبر محطة لتوليد الطاقة الكهربائية التي تمد الخرطوم بـ٨٠٪ من احتياجاتها، وفي الروصيرص يقع سد يمد المناطق الشمالية من السودان بالمياه.

- استطاعت قوات المعارضة احتلال مناطق جماميت وجمش وتوجان في شمال شرقي ولاية كسلا، وأصبحت على مسافة ٦٥كلم من مدينة الدمازين. وعلىالمحور الاوسط، احتلت مدينة ماتري (٦٠كلم من شرقي الدمازين). وعلى المحور الجنوبي الشرقي استطاعت هذه القوات احتلال الكرمك وقيسان الحدوديتين. وعلى الاتجاه الجنوبي، تمكنت قوات قرنق من الاستيلاء على مدن ملكال وتوفيقية وكايا وييي. ويعني ذلك ان قوات المعارضة احتلت نحو ١٥ مدينة وبلدة، وسيطرت على منطقة تصل إلى ١٢٠٠كلم وبعمق يمتد من الكرمك جنوبي النيل الازرق إلى جمش في الشمال قرب البحر الأحمر، أي تمّ احتلال نحو ٥ آلاف كلم م. بما يشكل ٣٠٪ من ولاية النيل الازرق. كما استطاعت قوات قرنق السيطرة على جنوب السودان ما عدا المدن الرئيسية جوبا (عاصمة جنوب السودان)، وواو، راجا. وفي ٢٧ آذار ١٩٩٧، أعلن قرنق أن قواته بدأت عملية تهدف إلى قطع الطريق بين ميناء بورسودان ومدينة الخرطوم؛ في وقت أعلنت المعارضة تحقيق انتصارات جديدة بالاستيلاء على ثلاثة مواقع متاخمة للحدود الاريترية-السودانية، إلا ان الخرطوم أكدت أنها أحبطت هذه المحاولات. والاعلان الجديد من قوات المعارضة يمثل نقطة تحول في مسار القتال، إذ ستصبح هذه المرة الاولى التي يحاول فيها قرنق قطع الامداد الرئيسي للعاصمة السودانية.

الجديـر ذكـره ان العمـل العسـكري للمعارضة جاءت بدايته من خـلال خطوات اتخذ القـرار بهـا في اجتماعـات المعارضـة في أسمـرا في كـانون الاول ١٩٩٤، مـرورًا بـاعلان إنشـاء «التجمـع الوطـني الديمقراطـي» خـلال المؤتمـر التمهيدي الاول الذي عقد في اول آب ١٩٩٥ في اسمرا ايضًا، ليتبنى الحل العسكري كسبيل لاسقاط النظام القائم بعد ان تمّ تشـكيل الجنـاح العسـكري من قوات الجيش الشعبي لتحرير السـودان (قرنق) وقوات التحالف السودانية وبعض العناصر المنشـقة عـن الجيـش السـوداني. وراهنـت المعارضـة، منـذ البدايـة، ولا تـزال، علـى حـدوث انتفاضـة شـعبية اعتمادًا على تردي الاوضـاع الاقتصادية وامكـان تفكك الجيش السـوداني وعـدم استعداده للدفـاع عن النظام القائم، وخصوصًا ان الجبهـة الاسـلامية القومية (حسن الـترابي) لم تتمكـن حتـى الآن مـن بناء قوات عسكرية مواليـة لهـا وخاصـة بهـا ترفـد الجيش الحكومي في دفاعه عن النظام في الخرطـوم.



جنوب السودان

توصيف جغرافي: يقـع معظـم جنـوب السـودان بـين خطـي العـرض ٤-١٠ شمـالي خـط الاستواء. لذلك تغلب على مناخه الامطار الموسمية الغزيـرة، وتتـدرج النباتـات الطبيعيـة بـين الغابـات المطـيرة والسـافانا الغنيـة، ولديـه رصيـد هـائل مـن الاراضي الزراعية البكر الخصبة (تبلـغ نحـو نصـف مليـون كلـم م.)، وتصلـح لزراعـة الشـاي والـبن والكاكاو والموز والارز والتبغ. ولديه رصيد هـائل كذلك من الثـروة الشجـريـة والاخشـاب

واكتشافات بترولية مؤكدة، و٧٠٪ من مصادر مياه النيل الابيض.

على رغم كل هذه الثروة، وبسبب الحروب المستمرة وافرازاتها التي تؤدي إلى عدم الاستقرار وتحطيم البنى التحتية اللازمة للتطور، يعاني الجنوب وضعًا مأسويًا، إذ حالت الحرب دون وضع خطط متوسطة وطويلة الأجل للنمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي.

توصيف سكاني: الاحصاء الرسمي الحكومي للسكان في ١٩٩٣ أعطى الارقام التالية لعدد السكان: العدد الاجمالي لسكان السودان نحو ٢٦ مليون نسمة (تحديدًا ٢٥ مليونًا و٦٦٨ ألفًا و٨٢٩ نسمة)؛ العدد الاجمالي لسكان الشمال نحو ٢٠ مليونًا (تحديدًا ١٩ مليونًا و٨١٢ ألفًا و٢٤٩ نسمة)؛ العدد الاجمالي لسكان الجنوب نحو ٦ ملايين (تحديدًا ٥ ملايين و٨٥٦ ألفًا و٥٨٠ نسمة). أما مجموع الجنوبيين القاطنين في الجنوب فنحو ٤ ملايين، ومجموع الجنوبيين المنتقلين إلى الشمال نحو مليونين.

أما القبائل التي يتألف منها سكان الجنوب فأهمها:

١- الدينكا المعتبرة أكبر قبيلة في السودان. فرع منها، ويدعى «دينكا بور»، يقطن منطقة بور وما حولها، وله امتدادات في منطقة البحيرات والجزء الحدودي بين اقليم بحر الغزال والاقليم الاستوائي، وإلى هذا الفرع ينتمي العقيد قرنق. وقطن فرع آخر ويدعى «دينكا بحر» اقليم بحر الغزال وشمال وجنوب بحر العرب في مناطق ابيي وواو وأويل ويحدها من الجهة الشرقية النهر (المجرى الرئيسي) ومنطقة السدود.

والدينكا قوم معتز بنفسه، يتمتعون بالقامات الفارعة الطويلة والاعتداد بتراثهم. وهم مسالمون، ويعتبرون في الغالب رعاة ابقار، ومن أغنى قبائل الجنوب، ولديهم نظام اجتماعي واداري أهلي متوارث ومتطور.

وعلى رغم ان مناطق اعالي النيل وبحر الغزال في الجنوب هي موطن الدينكا، فإن بعض مثقفيهم يقولون إنهم استوطنوا الاراضي الممتدة حتى الخرطوم الحالية. بل يقولون ان كلمة «خرطوم» نفسها مأخوذة من لغة الدينكا (يقولون إن «خر» تعني النهر أو البحر، و«توم» تعني الالتقاء، أي ان الكلمة تفيد معنى التقاء النهرين الابيض والازرق اللذين يتكون منهما نهر النيل).

٢- الشلك، هم سكان الجزء الشمالي من اعالي النيل، وإليهم ينتمي الدكتور لام أكول زعيم الحركة الشعبية المتحدة المنافسة لقرنق. ثمة اعتقاد بأن الشلك نزحوا من افريقيا الشرقية تحت إمرة بطلهم المقدس «نياكانق» وهو بنظرهم يحتل مرتبة وسطى بين الانسان والله، ويمثل روح القبيلة. ملك القبيلة يقال له «الرث»، ويتم اختياره وفق أسس، أولها ان يكون منحدرًا من سلالة البطل المقدس نياكانق، وليس فيه أي عيب. الرث الثالث والثلاثون الحالي أنيق آني نصب في ١٩٧٥. والشلك معروفون ببأسهم في القتال.

٣- النوير، قبيلة نيلية، يعرف عن ابنائها شدة المراس والصلف، وهم أشبه بالزولو في جنوب افريقيا. وإلى هذه القبيلة ينتمي رياك مشار زعيم الفصيل الجنوبي المنشق عن قرنق.

٤- تأتي بعد ذلك القبائل النيلية الاستوائية (أكبرها الزاندي والتبوسا والباري وكاكوا وكوكو، ومادي التي ينتمي إليها اللواء جوزف لاغو الرئيس السابق لجنوب السودان). كل هذه القبائل التي يقال لها «الاستوائيون»، يسكنون اقليم الاستوائية، وهم يختلفون عن النيليين في طول القامة والسحنة. فالاستوائيون في مجملهم قصار القامة ويميلون نحو البدانة وسحنتهم برونزية اللون وتمتاز تقاطيعهم بالدقة والجمال. محبون للحياة. أكبر قبائل مناطق غربي الاستوائية هي قبيلة

«الزانـدي»، وأكـبر قبـائل شـرقي الاسـتوائية هـي قبيلة التبوسا، وعدد قبائل الاستوائية ٧٠ قبيلة.

ويعتبر معظم الدراسات ان أكثر من نصف سكان الجنوب يعتنقون الديانات الافريقية التقليدية (الإحيائية). وتشكل المسيحية، بمختلـف مذاهبهـا، خاصـة البروتسـتانتية الأنغليكانيـة، نحـو ٢٢٪ مـن السـكان، والاسـلام نحـو ٢٦٪ (وغالبيـة مسـلمي الجنوب من سكان اقليم بحر الغزال الغربي).

توصيـف تـاريخي-اجتمـاعي (صـراع القبـائل): الامـين العـام المسـاعد للشـؤون الاسـتراتيجية في الحـزب الاتحـادي الديمقراطـي السوداني، مضوي الـترابي، كتـب في هـذا الشأن («الحيـاة»، العـدد ١٢١٣٥، تـاريخ ١٧ ايـار ١٩٩٦، ص ١٨) مقالـة مطولـة موثقـة بدراسـات استقصائية، هذا موجزها:

في الجنوب كيانان اجتماعيان يوجد بينهما من المرارات ومن الصراعات أكثر مما بين الجنوب ككل وبين الشمال ككل («ولا أريـد هنـا، يقـول الكاتب، ان ادعي ان الشـمال ككيـان هـو كيـان موحـد الرؤيـا والهـدف»): كيـان قبـائل النيليـين الدينك وفروعهم قبائل الشـلك، النويـر والأنـواك، متناقض في عاداتـه وتقـاليده وثقافتـه مـع المجموعـة الاسـتوائية. وكيـان المجموعـة الاسـتوائية (قبـائل الزاندي والتبوسا وفروعهما)، وهـي مجموعـة إتنيـة مشـتركة بـين السـودان (اقليـم الاسـتوائية) ودول الجـوار الجنوبـي (زائـير، أوغنـدا، شمـالي كينيـا)، ولديهـا حلـم «دولـة الاسـتوائية الكـبرى» The Grand Equatorial على غرار حلم دولـة الأكـراد الكبرى.

بين النيليين أنفسهم صراع: تشكل الدينكا وحدها ٧٠٪ من المجموعة النيلية، الشـلك والنويـر ٣٠٪ وهم يواجهون مشكلة سيطرة الدينكـا علـى الجنـوب بكـامل اقاليمـه الثلاثـة بثقلهـم السـكاني وارتفاع نسبة التعليم والثراء النسبي بينهم.

وبين الدينكا نفسـها صـراع نفـوذ وسـلطة رغم الوحدة الثقافية بين دينكا بور (٢٠)٪ الأكثر تعليمًا وثقافة والاوسع نفوذًا في مؤسسات الدولـة، والأكثر ارتباطًا بالغرب لكثافـة النشـاط التبشـيري الكنسي، وبين دينكا بحر الغزال (٨٠٪ من مجموع

الرئيس البشير والى يساره ملك (رث) قبيلة الشلك في جنوب السودان يحييان تجمعاً لرجال هذه القبيلة في الخرطوم في ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٣.





فتاة ومحارب من الشلك



الدينكا) التي يغلب عليها الوثنية كمعتقد، وبعض الجيوب الاسلامية واقلية مسيحية في اقليم البحيرات.

تمرد النوير (جزء من الكيان النيلي) ضد مركزية الدولة بدأ منذ ١٩٠٢ بقيادة زعيمهم الروحي مود دينق. ولم تخضع هذه القبيلة لسلطة الدولة إلا في ١٩٣٠، أي بعد ثلاثة عقود من اعادة فتح السودان بقيادة الجنرال البريطاني كيتشنر في ١٨٩٨.

وكذلك، على خط الصراع القبلي الداخلي في جنوب السودان، نقرأ المحطات الاساسية التالية:

– بعد اتفاقية أديس ابابا في ١٩٧٢، بين نظام النميري وحركة «الانيانيا الاولى» بقيادة الجنرال جوزف لاقو (وهو من المجموعة الاستوائية) والقاضي ابيل الير (وهو من دينكا بور)، شعر النوير انهم مهمشون، فقاموا بتمرد «أكوبو» التي نتجت عنه نشأة «الانيانيا الثانية»، وانتشر تمردهم في منطقة اعالي النيل.

– في ١٩٨٣، رفض النوير تولي العقيد قرنق قيادة التمرد. ورفضهم جاء على اساس قبلي ولأن قائدهم العقيد صمويل قايتو اقدم في الرتبة العسكرية من قرنق. فانفصلوا عن الحركة الجديدة وتحالفوا مع الحكومة والجيش السوداني، فتشكل ما تعارف عليه وقتها بـ«القوات الصديقة» بقيادة عبد الله شول وريك مشار الذي عاد ولعب دورًا في اتفاقية كوكادام (١٩٨٦) بين قوى الانتفاضة والحركة الشعبية (قرنق).

– أصبحت الحركة الشعبية بعد ذلك تحالفًا بين دينكا بور بقيادة قرنق، وقبائل الشلك بقيادة لام اكول، وقبائل النوير ويمثلهم ريك مشار. ثم ما لبث ان خرج من هذا التحالف الاستوائيون بعد ان اعتقل قرنق جوزف أدوهو، وقبائل دينكا بحر الغزال بعد ان اعتقل قرنق ايضًا مؤسس التمرد

العقيد كاربينو، وحدثت ايضًا تصفيات جسدية راح ضحيتها بين ١٩٨٤ و١٩٩١ ثمانية من كبار قادة الحركة.

والمعروف ان هذا التحالف القبلي (الحركة الشعبية) نشأ في ظلال الحرب الباردة (قبل بدء البيريسترويكا في الاتحاد السوفياتي)، وفي إطار الاستفادة إلى أقصى حد من نظام هايلي مريام منغيستو الماركسي في اثيوبيا ومشاكله المعقدة مع نظام جعفر النميري الغربي التوجه في ايامه الاخيرة. وتبنت الحركة الشعبية (تحالف القبائل الجنوبية) خطًا اشتراكيًا صارخًا تمثل في بيان الحركة الاول ١٩٨٣. وبعد الانتفاضة ضد نظام النميري في ١٩٨٥، تبنت الحركة خطًا عرقيًا في الصراع مع حكومة الشمال العربية التوجه والثقافة، ثم بدأت في التدرج المذهبي حتى أضفت صبغة الصراع الديني على مذهبيتها. وجاء الانقلاب الاسلامي الاصولي في الشمال، والنظام المنبثق عنه (لا يزال قائمًا) الذي أعطى حرب الجنوب صفة «الحرب الاسلامية الجهادية»، ليعطي دمًا جديدًا للحركة الشعبية في الجنوب.

– لكن نتيجة للطبيعة القبلية للصراع وظلاله التاريخية عادت الانقسامات الداخلية في بنية الحركة الشعبية بدءًا من ١٩٩٢.

ففي هذا العام قاد مشار ولام أكول انقسامًا داخل الحركة عرف باسم «مجموعة الناصر» كان جوهره خروج معظم الشلك والنوير من جسم الحركة الام بعد ان شعر كلاهما بسيطرة الدينكا المطلقة على مقاليد الامور السياسية والعسكرية، وتبنيا خطًا متشددًا يدعو إلى انفصال الجنوب التام بالمزايدة على قرنق الذي كانت اطروحاته تظللها نظرة وحدوية مشروطة. واستفاد النظام السوداني (في الشمال) من الانقسام وشدّد ضرباته على حركة قرنق واستطاع استعادة معظم اعالي النيل وكل بحر الغزال وشرق الاستوائية (عمليات ١٩٩٣ و١٩٩٤ و١٩٩٥).

– في نهاية ١٩٩٤، تمرد رئيس اركان الحركة الشعبية وليم نون باني، وهو من قبيلة النوير، على رئيسه قرنق، واطلق سراح القائد التاريخي للحركة العقيد كاربينو الذي توجه إلى قبيلته دينكا بحر الغزال، ولم يبق في جسم الحركة التي يتزعمها قرنق غير دينكا بور يقاتلون النظام في موقعهم الجغرافي المفتقد لعمقه الاستراتيجي في غربي الاستوائية.

– «مجموعة الناصر» التي انشقت على قرنق في السابق انشقت على نفسها واصبح مشار وصديقه اللدود لام أكول كل في خندق، وبالتالي تمّ اكتمال حلقة التناقض القبلي: الشلك تحت قيادة لام أكول، النوير تحت قيادة مشار، دينكا بحر الغزال تحت قيادة كاربينو، ودينكا بور تحت قيادة قرنق.

– أكدت تقارير المنظمات المعنية بحقوق الانسان في ١٩٩٤ و١٩٩٥ ان مجموع عمليات القتل والحريق والابادة التي دار رحاها بين المجموعات القبلية المتقاتلة في الجنوب أكبر وأكثر من تلك التي تمت بين الحركة الشعبية (الجنوبية) والجيش الحكومي منذ ان نشب التمرد في الجنوب في ١٩٨٣ بقيادة قرنق. ولم تجد غالبية أبناء الجنوب ملاذًا لها غير الشمال، إذ تؤكد تقارير غير رسمية وجود مليوني مواطن من سكان الجنوب في الشمال.

– من آخر صور مسلسل الصراع الدموي الجنوبي-الجنوبي ما حمله بيان «حركة استقلال جنوب السودان»، بزعامة الدكتور رياك مشار (وزع البيان في الخرطوم في آذار ١٩٩٧)، عن ان قوات «الحركة الشعبية» (بزعامة قرنق) هاجمت مواقع لحركة الاستقلال وقتلت ودمرت، وإن الهجوم «يأتي في وقت تبذل فيه الكنائس والمجتمع الدولي والقوى المحبة للسلام جهودًا للتقريب بين المواطنين بهدف استقرار حركة استقلال الجنوب حتى ترد على قوات قرنق». وكان مؤيدو مشار

سيطروا على منطقة أكوبو في اعالي النيل، كما كانت الحركة (مشار) عقدت اتفاقًا مع الحكومة السودانية في نيسان ١٩٩٦.

إذا كانت هذه لمحة عن الصراع الداخلي القبلي في الجنوب، فماذا عن صراع الجنوب مع الشمال؟.

نبذة تاريخية: صراع الجنوب-الشمال:

بعد ان بقيت المقاطعات الجنوبية قرونًا طويلة بعيدة نسبيًا عما يدور في الشمال، دخلتها قوات محمد علي لتربطها به عبر علاقات تبعية. وقد فرض محمد علي على الجنوبيين دفع الجزية، وابتدأت تنتشر تجارة الرقيق، وقد بلغ عدد الرقيق الذين كان يتم «تصديرهم» إلى مصر نحو ١٠ آلاف سنويًا.

في مسلسل التنازلات الخديوية للبريطانيين أن أصبح الجنرال غوردن حكمدارًا (حاكمًا) على السودان يساعده عدد من المعاونين ابرزهم صاموئيل بيكر وإدوارد شنيتزر. فحاول غوردن تثبيت سيطرته في مختلف مناطق السودان، خاصة في الجنوب حيث اعاد احتلال منطقة بحر الغزال وعمل على إجهاض كل حركة معارضة ناشئة، ولكنه ألغى تجارة الرقيق المزدهرة في الجنوب (بعض المراجع يشدّد على انه كان إلغاء نظريًا فحسب).

في ١٨٩٩، تم توقيع اتفاقية معروفة باتفاقية «السيادة المشتركة»، وتنص على إخضاع السودان نظريًا لسلطة انكليزية-مصرية. وقد رسمت ضمنها حدود السودان، وهي الحدود نفسها التي نعرفها اليوم، واخضعت المديريات الجنوبية: بحر الغزال، الاستوائية، واعالي النيل لسلطة الشمال، مما كان سببًا رئيسيًا لاندلاع الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب استنزفت طاقات السودان.

قبيل الاستقلال، اتخذت بريطانيا إجراء زاد من الشرخ بين الشمال والجنوب. ففي ١٩٥٣، اعترفت بنيل السودان حكمه الذاتي، وحافظت في الوقت نفسه على مركزها في الجنوب (إدارة



رياك مشار.

بريطانية مباشرة أو شبه مباشرة لمديرياته)، إضافة إلى حقها بادارة السياسة الخارجية للسودان.

فبينما كان الشمال يشق طريق تحرره من نير الاستعمار، كانت بريطانيا تسعى لعزل الجنوب من مختلف التيارات التحررية. ومنذ هجرة القبائل العربية وتمركزها في الشمال الصحراوي للسودان بعد الفتح العربي، بقي دخول اللغة العربية إلى الجنوب محدودًا. وقد بقيت التنظيمات القبلية واللغات المحلية سائدة بالرغم من انتشار الاسلام. وان سياسة الترهيب التي اتبعها محمد علي، وتجارة الرقيق التي راجت انطلاقًا من الجنوب، كانت من العوامل الاساسية التي منعت انصهار الجنوبيين مع أهل الشمال.

عمل الانكليز على تطبيق سياسة فصل الجنوب اجتماعيًا وسياسيًا عن الشمال. فبعد محاولة التقرب من الجنوبيين وإلغاء تجارة الرقيق بدأ تشجيع الحركات الانفصالية إبان الدولة المهدية. لكن اتفاقية ١٨٩٩ عادت واخضعت مديريات الجنوب للشمال. ومع نمو النزعة الاستقلالية في مصر والسودان، اتخذت بريطانيا عددًا من التدابير، منها منع انتقال الجنوبيين إلى الشمال وتشجيع

الارساليات الاجنبية. لكن العوامل الموضوعية داخليًا قصّرت عمر الاستعمار وفتحت باب الجدل بين الساسة الشماليين والجنوبيين حول مستقبل العلاقة بين شمال السودان وجنوبه، حيث كان مؤتمر جوبا وقراراته ثمرة لهذا الجدل الذي لعب فيه الشماليون دورًا قياديًا في تحديد مصير موحد للسودان.

واعتبر مؤتمر جوبا أهم مسعى لحل مشكلة الجنوب قبل اندلاع الحرب الأهلية (١٩٥٥). وقد عقد في كبرى مدن مديريات الجنوب الثلاث، أي مدينة جوبا في ١٢-١٣ حزيران ١٩٤٧، وخلص إلى تأكيد وحدة السودان، والتحذير من مخاطر فصل الجنوب عن الشمال، وقد شارك فيه القادة الجنوبيون والشماليون تحت رعاية السلطات البريطانية.

بعد قيام الحكم الذاتي في ١٩٥٥، اختلفت الآراء حول كيفية تقرير مصير السودان الذي نصت عليه الاتفاقية المصرية-البريطانية في ١٩٥٤. إذ تم الاتفاق بعد ذلك بين الاحزاب الكبيرة على ان يقرر برلمان الحكم الذاتي المنتخب مصير البلاد، و لم يستثنِ الجنوبيين غير المنضوين في تلك الاحزاب من هذا الاتفاق، شرط ان ينظر في ان تكون العلاقة بين الجنوب والشمال علاقة فدرالية عندما يوضع دستور دائم للبلاد، بناء على المبادرة الوفاقية التي تبناها رئيس حزب الامة آنذاك الذي نجح في استقطاب آراء الجنوبيين حولها.

محاولات الحل: لكن لا مؤتمر جوبا (١٩٤٧)، ولا المبادرات الوفاقية قبيل الاستقلال منعت اندلاع الحرب في الجنوب (١٩٥٥). هذه الحرب التي كانت سببًا رئيسيًا في فشل حكومة اسماعيل الازهري رئيس «الحزب الوطني الاتحادي» واستيلاء الفريق ابراهيم عبود، قائد الجيش السوداني على السلطة، ما أجّج الحرب وجعلها تمتد، في مرحلة أولى، حتى ١٩٧٢. أما محاولات الحل فأهمها:

١- الطاولة المستديرة: بعد نجاح حركة تشرين الاول ١٩٦٤ التي اطاحت حكم الفريق



جون قرنق.

عبود، قررت القوى السياسية السودانية ان مشكلة الجنوب ذات ابعاد دينية وعرقية وثقافية واقتصادية ولا يمكن ان تحل عسكريًا، بل سياسيًا. فعقد مؤتمر المائدة المستديرة (١٦-٢٩ حزيران ١٩٦٥)، دعيت كل الاحزاب السودانية بالاضافة إلى حزب «الاتحاد الوطني السوداني الافريقي» (سانو) الذي كان يمثل القيادة السياسية للتمرد في الجنوب. إلا ان المؤتمر لم يفلح في الوصول إلى حل، ولعل السبب الاساسي كان يرجع للتشدد في المواقف، فضلاً عن عدم حضور حركة «أنانيا» (فصيل سياسي-عسكري في الجنوب). إلا ان المؤتمر انتهى إلى تكوين لجنة من ١٢ شخصًا لتواصل السعي لايجاد حل. ولقد لعب وليم دنيق الذي كان يقود حزب سانو دورًا معتدلاً طوال عام كامل حيث ساعد هذا الاعتدال على استبعاد الوضع القائم في الجنوب وقتذاك واستبعاد الانفصال والاتفاق على نظام حكم اقليمي، ولكن اختلف على امرين: الاول، في ما إذا كان الجنوب يشكل اقليمًا واحدًا أم ثلاثة اقاليم؛ والثاني، كيفية اختيار رئيس الحكومة الاقليمية.

٢- في عهد النميري: إثر نجاح الانقلاب العسكري الذي تزعمه المشير جعفر النميري صدر بيان في حزيران ١٩٦٩ التزم حل المشكلة باعطاء الجنوب حكمًا ذاتيًا اقليميًا. وتسارعت اتصالات عبر وسطاء اقليميين وكنسيين (مجلس الكنائس العالمية، وهو مجلس ناشط بصورة خاصة في جنوبي السودان ومنطقة القرن الافريقي) دوليين أسفرت في ٣ آذار ١٩٧٢ عن توقيع اتفاق أديس ابابا بين الرئيس النميري وقائد الثوار الجنوبيين اللواء جوزف لاغو. غير ان قرار النميري إعادة تقسيم «الاقليم الجنوبي» إلى ثلاثة اقاليم، على غرار الوضع الاداري الذي سبق اتفاق السلام، أوقد جذوة الحرب الاهلية من جديد في ١٩٨٣ بقيادة العقيد جون قرنق قائد «الحركة الشعبية لتحرير السودان» وجناحها العسكري «الجيش الشعبي لتحرير السودان». وبعد عامين من تجدد هذه الحرب، كوّن النميري لجنة لدرس المشكلة وتقديم توصيات في شأن حلها، واختار لرئاستها سر الختم الخليفة رئيس وزراء اول الحكومات التي تعاقبت بعد حركة تشرين الاول ١٩٦٤. وقبل ان تباشر اللجنة مهمتها، اتصل النميري برجل الاعمال الغربي تايني رولاند ورجل اعمال عربي طالبًا وساطتهما، عارضًا تعيين العقيد قرنق نائبًا اول لرئيس الجمهورية وحاكمًا مطلقًا لجنوب البلاد. غير ان الاخير رفض العرض. ثم ما لبثت ووقعت انتفاضة نيسان ١٩٨٥ التي اطاحت نظام النميري.

٣- في عهد سوار الذهب: ورفضت الحركة الشعبية لتحرير السودان اجراء أي مفاوضات مع الحكومة السودانية الانتقالية التي تزعمها المشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب. وعندما بعث رئيس الحكومة الدكتور الجزولي دفع الله رسالة إلى الحركة في شأن مستقبل الحرب، ردت باحتلال مدينة الناصر في مديرية اعالي النيل. وفشلت مبادرات عدة قام بها وزير الدفاع الانتقالي العميد عثمان عبد الله شملت مساعي وساطة قامت بها ليبيا واثيوبيا واليمن الجنوبي.

٤- في عهد الصادق المهدي: وكذلك رفضت الحركة الشعبية (قرنق) التفاوض مع حكومة رئيس الوزراء الصادق المهدي. وعندما وافق قرنق على مقابلة رئيس الوزراء المنتخب تمسك بأنه يلتقيه بصفته رئيسًا لحزب الامة وليس للحكومة. غير ان حركته تفاوضت، في ١٩٨٦، مع الاحزاب الشمالية ووقعت معها ما عرف بـ«اعلان كوكادام»، وهي بلدة اثيوبية اجتمع فيها الطرفان. وفي ١٩٨٧، عقد اللواء عبد العظيم الصديق رئيس هيئة الاركان في القيادة العامة للقوات المسلحة، واللواء صلاح مصطفى مدير الاستخبارات العسكرية، اجتماعًا في لندن مع اللواء أروك ثون أروك نائب رئيس هيئة اركان

قوات الحركة الشعبية. و لم يسفر الاجتماع عن نتيجة تذكر. وفي ١٨ تشرين الثاني ١٩٨٨، وقع قرنق والسيد محمد عثمان الميرغني رئيس الحزب الاتحادي الديمقراطي اتفاق سلام اثر مفاوضات عقدت في أديس ابابا. غير ان مماطلة حزب الامة في عرض الاتفاق على مجلس الوزراء والبرلمان المنتخب، ورفض الحزب وشريكه حزب الجبهة الاسلامية القومية (صاحب المواقف المتشددة من مطالب الجنوب، والذي يتزعمه الدكتور حسن الترابي) تأييد الاتفاق دفعا بنحو ١٥٠ ضابطًا في الجيش إلى التقدم بمذكرة إلى الحكومة لدفع عملية السلام ووقف الحرب. وكانت هذه المذكرة ضربة قاضية للائتلاف بين حزبي الامة والجبهة الاسلامية. فقامت الجبهة، ردًا على اتفاق الميرغني وقرنق وعلى مذكرة الضباط الذين طالبوا بوقف الحرب، بانقلاب حزيران ١٩٨٩، فبدأ نظام الفريق عمر البشير بزعامة حسن الترابي.

٥- في عهد الفريق البشير: جرت اتصالات ومفاوضات عدة بين حكومة السودان في عهد الفريق عمر حسن أحمد البشير (لا يزال قائمًا، ربيع ١٩٧٧) وبين مناوئيها الجنوبيين، أهمها:

أ- المفاوضات الرسمية الاولى بين الحكومة والحركة الشعبية في آب ١٩٨٩، في أديس أبابا، و لم تسفر عن نتيجة.

ب- جولة ثانية من المفاوضات في كانون الاول ١٩٨٩ في نيروبي تحت رعاية الرئيس الاميركي السابق جيمي كارتر.

ج- بدأت نيجيريا اتصالات مع طرفي الحرب السودانية في ١٩٩١، وبعدما قطعت مساعيها شوطًا متقدمًا وقع انشقاق كبير في الحركة الشعبية في ايلول ١٩٩١، اسفر عن انفصال مجموعة يقودها الدكتور رياك مشار والدكتور لام أكول وهما محاضران سابقان في كلية الهندسة في جامعة الخرطوم. فتأجلت المفاوضات التي كان مقررًا ان تعقد في نيجيريا في تشرين الاول ١٩٩١.

د- في ١٩٩٢، فوجئت الساحة السياسية السودانية بمفاوضات سرية (في المانيا) بين حكومة السودان والفصيل المنشق عن قرنق، اسفرت عن توقيع «اتفاق فرانكفورت» الذي وعدت فيه الحكومة باجراء استفتاء لتقرير مصير الجنوب.

هـ- في ايار ١٩٩٢، عقدت جولة أولى من المفاوضات برعاية نيجيريا في أبوجا عاصمة الجنوب.

و- في شباط ١٩٩٣، عقد اجتماع رفيع المستوى بين الدكتور علي الحاج ممثلاً الحكومة السودانية والعقيد قرنق في عنتيبي (أوغندا).

ز- في ايار ١٩٩٣، عقدت الجولة الثانية من مفاوضات أبوجا، وأعلن اثناءها الجيش السوداني انه استرد كبويتا مقر القيادة العسكرية للحركة الشعبية. وفي تموز، أعلن انه استرد توريت التي كان قرنق يتخذها عاصمة للاراضي التي يسيطر عليها في الجنوب.

ح- في ايلول ١٩٩٣، كونت منظمة الهيئة الحكومية للتنمية ومكافحة الجفاف (إيغاد) لجنة رباعية برئاسة كينيا، تضم اثيوبيا واريتريا وأوغندا، لحل مشكلة جنوب السودان وعقدت اللجنة اول مفاوضات سلام تحت رعايتها في نيروبي في ايار ١٩٩٤.

ط- عقدت اللجنة الجولة الثانية من المفاوضات بين الفرقاء السودانيين (الشمال والجنوب) في تموز ١٩٩٤، وأصدرت إيغاد ما عرف بـ«اعلان المبادىء» الذي رأت ان يرتضيه الطرفان ليكون اساسًا للتسوية.

ي- استأنفت لجنة إيغاد مساعيها مرة ثالثة في ايلول ١٩٩٤ في نيروبي. واعلنت الحكومة قبل المفاوضات انها قررت تغيير رئيس وفدها الدكتور علي الحاج واحلت محله الدكتور غازي صلاح الدين، وهو أحد المتشددين في قيادة الجبهة

الاسلامية القومية (التي يتزعمها الترابي).

ق- منذ انفضاض جولة ايلول ١٩٩٤، توقفت المفاوضات الرسمية بين الجانبين، غير ان لقاء غير مباشر عقد في برشلونة (اسبانيا) في ايلول ١٩٩٥ بمبادرة من منظمة الامم المتحدة للتربية، والثقافة والعلوم (أونيسكو) حضرته شخصيات جنوبية وشمالية سودانية وصفت بأنها مستقلة.

ل- في ٢٣ حزيران ١٩٩٥، عقد لقاء في اسمرا اتفق فيه على ضرورة حسم القضايا الرئيسية التي ظلت معلقة منذ مؤتمر جوبا في ١٩٤٧. ووقعت عليه، في ما بعد، الحركة الشعبية. وكانت هذه الحركة انضمت للتجمع الوطني الديمقراطي السوداني بتوقيعها على ميثاقه (القاهرة، آذار ١٩٩١).

م- في ٢٩ نشرين الثاني ١٩٩٥، عقدت منظمة التضامن المسيحي التي تتزعمها عضو مجلس اللوردات البريطاني البارونة كوكس المعروفة بتشددها ضد الحكومة السودانية ندوة في لندن حضرها قادة المعارضة السودانية وممثلو لجنة إيغاد الرباعية (كينيا، اثيوبيا، اريتريا وأوغندا). غير ان غياب الحكومة السودانية عن الندوة وتشكيكها في نيات كوكس والمعارضين السودانيين زاد من احتمالات استمرار الحرب والنزف الذي تسببه.

هذه الندوة واحدة في سلسلة نشاطات قامت بها المعارضة الجنوبية (والمعارضة السودانية عمومًا) على المسرح الدولي في السنتين الاخيرتين، برغم التباين في الآراء، بدءًا بندوة اطلنطا التي دعا إليها مركز كارتر، ثم ندوة واشنطن التي عقدها «معهد السلام الاميركي» و«لجنة افريقيا الفرعية» لمجلس النواب الاميركي. وتكمن اهمية هذه الندوة في انها حملت لاول مرة وبوضوح تام مطلب تقرير المصير من قبل القوى الجنوبية.

(راجع «كرونولوجيا احداث السنوات الاخيرة» في النبذة التاريخية، وراجع «الاحزاب»).

الوضع الاداري للجنوب: تقسيمات يضعها الشمال: حين أعلن الرئيس جعفر النميري تعيين جوزف لاغو، زعيم «إينيانيا-واحد» نائبًا له في ١٩٨٢ كان يخطط لتنفيذ تطورات مهمة في الجنوب. ولم يكن هذا التعيين بعد عشر سنوات من اتفاقية أديس أبابا للسلام التي وقعها النميري نفسه باشراف الامبراطور هايلي سيلاسي بمثابة مكافأة لجوزف لاغو على موالاته بقدر ما كان تغطية لما سيلي هذا القرار من خطوات تمثلت بتقسيم الجنوب مرة أخرى إلى ثلاث ولايات عوضًا عن الولاية الواحدة بحسب اتفاقية أديس أبابا، كذلك الاعلان عن قوانين الشريعة الاسلامية والبدء بتطبيقها في مختلف ولايات السودان في ايلول ١٩٨٣. وأدت هذه الخطوات إلى اشتعال حريق التمرد الذي كان قد بدأ في ثكنة بور في ١٦ ايار من العام نفسه (١٩٨٣) بزعامة كاربينو بول وجون قرنق لاحقًا. وفي العام نفسه ايضًا (١٩٨٣) أعلن النميري نفسه إمامًا بايحاء من زعيم الجبهة القومية الاسلامية الدكتور حسن الترابي، في حين كان اللواء جوزف لاغو (المسيحي) نائبه واستمر حتى سقوط نظام النميري في نيسان ١٩٨٥.

وبعد ١٢ عامًا على هذا ا لتقسيم (الجنوب ٣ ولايات) المسبوق بتعيين جوزف لاغو نائبًا للرئيس، أصدر الرئيس الحالي عمر البشير المرسوم الدستوري العاشر (١٤ شباط ١٩٩٤) الذي قسم السودان إلى ٢٦ ولاية بدلاً من ٩ ولايات، جاعلاً من جنوب السودان ١٠ ولايات. وعين الرئيس، بموجب المرسوم نفسه، اللواء جورج كونفور نائبًا ثانيًا لرئيس الجمهورية إلى جانب اللواء الزبير محمد صالح النائب الاول للرئيس. والمعروف ان اللواء كونفور انه موال للخرطوم منذ كان ضابطًا في سلاح الشرطة داخل مدينة جوبا عاصمة ولاية الاستوائية خلال الحرب الاهلية الاولى، وكان شارك في مفاوضات السلام التي رعتها نيجيريا بين

الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان في ١٩٩٢ و١٩٩٣ من دون احراز أي تقدم في سير المفاوضات نظرًا للخلاف حول تطبيق الشريعة الاسلامية في جنوب السودان والعلاقة بين الشمال والجنوب ودرجة الحكم اللامركزي وعملية تقاسم الثروة والقرار السياسي بين شطري السودان.

بموجب التقسيمات الادارية الجديدة (السودان كله ٢٦ ولاية، منها ١٠ ولايات للجنوب) التي نص عليها المرسوم الدستوري العاشر (١٤ شباط ١٩٩٤) ضاعت خطوط التماس القبلية المتوارثة منذ مئات السنين في جنوب السودان، وغابت بالتالي معادلات وتوازنات قبلية ومناطقية ومذهبية حكمت اللعبة السياسية هناك. وسينتج هذا التقسيم بالضرورة معادلات سياسية جديدة رأت الحكومة السودانية، على الارجح، انها تفيدها من حيث ان هذا التقسيم كفيل ببعثرة حسابات دقيقة صاغتها الحركة الشعبية لتحرير السودان بزعامة جون قرنق في قتالها الحكومة في الشمال.

أما ولايات الجنوب العشر فهي: اعالي النيل، بحر الجبل، البحيرات، جونقلي، شرق الاستوائية، شمال بحر الغزال، الاستوائية، غرب بحر الغزال، الوحدة، وآراب. ثماني ولايات منها على كل منها وال مسيحي.

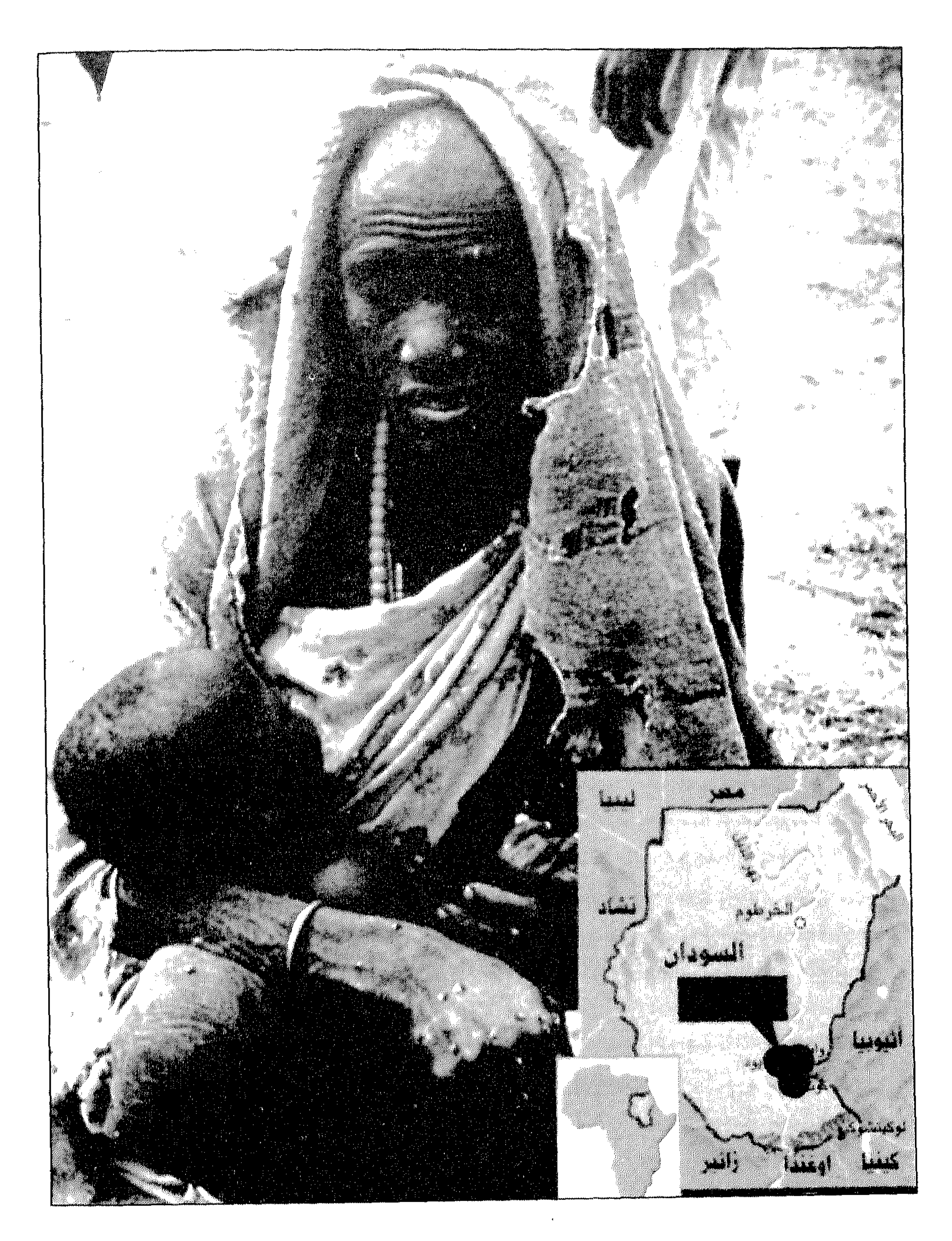
مدن «المعقل والبؤس» الجنوبية الثلاث:

هي المدن الثلاث التالية: واط، كونفور وإيود التي تشكل مثلثًا يقع في الجنوب، قريبًا من اثيوبيا وكينيا وأوغندا وزائير. أهميته في انه شكل معقل الانتفاضات التي عرفها الجنوب السوداني منذ بداية الحرب الأهلية وصولاً إلى انتفاضة «الحركة الشعبية لتحرير السودان» في ١٦ ايار ١٩٨٣ التي تزعمها العقيد جون قرنق، وإلى الانشقاق عن قرنق الذي قاده رياك مشار في ١٩٩١، وفي انه قدم النخبة السياسية المثقفة، والمقاتلين، والموقع الاستراتيجي الذي يصل انتفاضات الجنوب بالعمق الافريقي المساند لها، ويعزل ولاية اعالي النيل شمالاً وولاية الاستوائية جنوبًا.

سميت منطقة المدن الثلاث «مثلث الموت» (بين ١٩٩١ واواخر ١٩٩٣، أي قبل ان تهدأ العمليات العسكرية فيها التي نشبت نتيجة لانشقاق مشار وأكول) نظرًا للاوضاع المأساوية التي عاشها اهل المدن الثلاث التي تشكل منطقة فاصلة بين مواطن الانتشار القبلي لقبائل الدينكا المترامية جنوبي المثلث نحو ولاية الاستوائية، ومواطن انتشار قبائل الشلك والنوير اللتين تقطنان ولاية اعالي النيل وشمالي ولاية بحر الغزال.

تقع واط وإيود عند الزاويتين الشرقية والغربية للمثلث، وهما أكثر توغلاً نحو الشمال من كونفور الواقعة عند الزاوية الجنوبية.

كان تعداد سكان واط نحو ٣٠٠ ألف قبل بدء الاضطرابات (١٩٩١)، وتعداد إيود نحو ١٥٠ ألفًا. وتقطن هاتين المدينتين قبائل النوير التي ينتمي إليها مشار، وقبائل الشلك التي ينتمي إليها أكول (في حين ينتمي قرنق إلى الدينكا). أما كونفور فلم يبق فيها سوى نحو ٥٠ ألفًا، غالبيتهم من المقاتلين.



صورة من جنوب السودان في ١٩٩١-١٩٩٣ («الوسط»، العدد ٨٣، تاريخ ٣٠ آب ١٩٩٣).

مثلث حلايب

تعريف جغرافي ومعالم: تقع حلايب عند أقصى الحدود الشرقية الشمالية للسودان على ساحل البحر الأحمر، وأقصى الحدود الجنوبية الشرقية لمصر. أما الجزء المتنازع عليه بين السودان ومصر فمثلث قاعدته خط عرض ٢٢ ورأسه منطقة تسمّى بئر شلاتين، طول كل من ضلعيه ٢٠٠كلم وطول قاعدته نحو ٣٠٠كلم. أما مساحته فتبلغ ١٨،٥ ألف كلم م.. وتسيطر عليها القوات المصرية.

والمنطقة صحراوية تتصل من جهة الشرق بسلسلة جبال البحر الاحمر، وهي جبال علبة وأم الطيور والدبكة ونوروب وبارنا زوجا، وترتبط بهذا البحر عبر ممرات. مناطقها السكنية هي ثلاث مدن: حلايب، الشلاتين، ابو رماد، وقرى صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ٤٠٠ شخص تنتشر على الساحل شرقًا وعلى اراض منبسطة.

ومدينة حلايب في الاصل ميناء كان في التاريخ القديم مركز تجمع حجاج بيت الله من غربي افريقي وشمالي المغرب. واندثرت أهمية المكان وانتقل المركز إلى ميناءي سفاجا (في مصر) شمالاً وبور سودان (في السودان) جنوبًا.

في المنطقة (حلايب) تلال هي عبارة عن فتات صخور جرفتها المياه على مدى الزمن لتستقر في الوادي. والنباتات نادرة، والشجيرات تنمو بينها اعشاب يعيش عليها السكان الذين يعتمدون على الرعي. وفي شمالي المثلث «الوادي التوأم» حيث للوادي فرعان يطلق على أحدهما «العطشان» والثاني «الريان» حيث تهطل الامطار.

وأهم معالم المثلث التاريخية والدينية دير الأنبا انطونيوس في جبل سيجه غربي الشلاتين، وكان محل إقامة ابو الحسن الشاذلي المغربي احد رواد التصوف الاسلامي.

الدراسات المصرية بشأن هذا المثلث تتحدث عن انه يحوي ثروة هائلة من المعادن، خاصة الذهب والفوسفات والمانغنيز، ويشير بعضها إلى ضعف احتمالات وجود النفط بكميات تجارية.

النشاط الاقتصادي الرئيسي هو الرعي وتربية الماشية خاصة الابل، والزراعة المحدودة وصيد الحيوانات. وتمثل حلايب مركزًا تجاريًا بضائعه الحبوب والجلود والفحم والاخشاب والاقمشة والسبحات والخناجر والسيوف والاعشاب الطبيعية والماشية. ومركزها التجاري عبارة عن اكشاك خشبية (سوق عام) متواجدة في الشلاتين وابو رماد، اضافة إلى الباعة المتجولين بين القرى ويعمل بعض الاهالي في مشاريع التعدين والمرافق والخدمات التي أنشأتها مصر حديثًا، ما أدّى إلى نشوء مجتمع جديد إلى جانب المجتمع التقليدي، مجتمع فرضه العمل في مناجم الفوسفات والمانغنيز.

ويلاحظ منذ دخول المثلث حتى آخر نقطة منه على الحدود السياسية عند رأس حدارب، وفوق جبل علبه على بعد ٤كلم من ابو رماد، ان هناك خطة توطين وتحديث (مصرية) وحركة نشطة خاصة في ثلاث قرى هي «حماطة» و«برانيس» و«ابو الحسن الشاذلي» لاستيعاب ٣ آلاف أسرة. وأنشئت في حلايب والشلاتين وابو رماد وحدات سكنية تستوعب ٥ آلاف أسرة. والخطة تتحدث عن رفع عدد سكان المثلث إلى ٦٠ ألفًا مع حلول العام ٢٠٠٠. وعلى طول الحدود، من الجهتين، جنود مصريون وجنود سودانيون.

السكان: الرأي الغالب حول أصل السكان المحليين المتوزعين على قبيلتين: البشارية والعبابدة، أن نسبهم يعود إلى الصحابي الزبير بن

العوام. ويستند هذا الرأي إلى الحملة التي قادها عبد الله بن ابي سرج في غزوه لمملكة «البجا» التي كانت قائمة في ذلك الوقت في الصحراء الشرقية المصرية، وانتشر الاسلام في بطون البجا التي امتزجت بذرية الزبير بن العوام. وتضم البجا ستة بطون هي: الألباب، الشنيتراب، العامرات، العمودات، البشارية والعبابدة. وتستند هذه القبائل في تنظيم شؤون حياتها وحل منازعاتها إلى «السوالف» وهي مجموعة من الاعراف والتقاليد الصارمة الموضوعة من ا لاجداد.

وثمة رأي يقول بأصول فرعونية لقبائل حلايب مستندًا إلى سمات وراثية، وكون هذه القبائل من أصل واحد هو قبيلة «البجا» التي كانت عنصرًا رئيسيًا في جيش الفرعون رمسيس الثاني الذي طرد الهكسوس من مصر. وكلمة «البجا» تحريف لكلمة «ماجوي»، أي المحارب في اللغة الهيروغليفية، نظرًا إلى ان هؤلاء أبلوا بلاء حسنًا في الحرب. ويعزز هذا الاعتقاد وجود نقوش في معبد «أدفو» في صعيد مصر تمثلهم إلى جانب الفرعون رمسيس الثاني.

حتى اواخر ١٩٩٢، كان عدد محدود جدًا من اهالي حلايب يحمل وثيقة «جواز سفر» عليه فقط تأشيرة المملكة السعودية (لاداء فريضة الحج)، وافراد قليلون ذهبوا إلىالقاهرة، ولم يكونوا يحملون بطاقة هوية، وكانت الأنساب محفوظة عن ظهر قلب.

أما منذ اواخر ١٩٩٢، اصبح ابن حلايب يحمل بطاقة هوية، وبطاقات تموينية للحصول على السلع، وذلك مع بدء مصر تنفيذها خطة الدولة الخمسية الثالثة (١٩٩٢-١٩٩٧)، وقيد «المواطنين» في حلايب في الجداول الانتخابية والتنقيب عن المعادن والبترول وإنشاء محميات طبيعية ورصف الطرق الرابطة بين مدن المثلث: حلايب، شلاتين وابو رماد، وبناء مدارس ووحدات سكنية.

نشوء النزاع على مثلث حلايب: ظل مثلث حلايب مثار نزاع بين مصر والسودان على رغم تعاقب الانظمة في الخرطوم والقاهرة. وبقي مقياسًا حقيقيًا للعلاقة بين البلدين منذ تفجر المشكلة في ١٩٥٨، أي بعد عامين فقط من استقلال السودان. لكن نشوء هذه المشكلة كان نتيجة احتلال مصر وبريطانيا السودان إثر انتصارهما على جيوش الدولة المهدية في معركة أم درمان (كرري) في ١٨٩٩، حيث اتفقت دولتا الحكم الثنائي (مصر وبريطانيا) على إنشاء حكومة لادارة السودان الذي اتفق على ان يكون خط العرض ٢٢ درجة شمالاً خطًا حدوديًا فاصلاً بين البلدين.

ومثل هذا الخط قد يكون واضحًا ومقبولاً في المناطق الصحراوية الواقعة شرقي نهر النيل وغربيه، ولكنه لا يكون واضحًا ومقبولاً في منطقة (مثل مثلث حلايب) عند مجرى نهر النيل وتلال البحر الاحمر وسواحله. فاضطرت الدولتان إلى اعادة النظر باتفاق ١٨٩٩ وادخال التعديلات عليه في ١٩٠٢ أخذت بالاعتبار تعرجات قائمة، فألحقت منطقة «حلفا دغيم» بالسودان، و«أدندان» بمصر.

أما على تلال البحر الاحمر وساحله فقد طلبت نظارة الداخلية المصرية من حكومة السودان في ١٩٠٣ ان تتولى ادارة الاراضي التي تمثل امتدادًا طبيعيًا لسكن قبائل البجا التي تقطن اساسًا في السودان ولكن لها وجود شمالي خط العرض ٢٢ شمالاً في مناطق حلايب وأبو رماد وبئر شلاتين. أدى ترسيم ذلك الحد الاداري لتبيان اماكن وجود القبائل السودانية شمالي خط العرض المذكور إلى ظهور الرقعة الارضية التي تظهر على الخرائط في شكل مثلث. وبقيت حكومة السودان تدير المثلث طوال عهد الاستعمار وبعد الاستقلال دون تعديل مكتوب للاتفاق الاساسي في ١٨٩٩.



حول بقعة ماء في صحراء حلايب.



العلم المصري على تلة في حلايب.



رقصة شعبية في حلايب.



النزاع في عهد عبد الناصر: «لم يكن الرئيس المصري جمال عبد الناصر مرتاحًا خلال عامي ١٩٥٧-١٩٥٨ للتكهنات التي انصرفت إلى ترجيح احتمال فوز حزب الامة بغالبية مقاعد البرلمان السوداني، واستمرار الاميرالاي عبد الله بك خليل رئيسًا للحكومة السودانية. وعرف عن البيه (كما يناديه رفاقه) عدم شغفه بالتعاون مع مصر وعداؤه المفرط لسياسات الوحدة العربية التي انتهجها عبد الناصر. ومن الجانب الآخر، كانت تراود عبد الناصر شكوك كبيرة في ان يكون الاميرالاي عبد الله خليل قد شجع بريطانيا على ضرب قواته في حرب السويس (١٩٥٦). ولأسباب يمكن فهمها امر عبد الناصر بعض الوحدات المصرية بالتحرك صوب حلايب واعادتها إلى السيادة المصرية حسب نصوص اتفاق ١٨٩٩. وقابل الاميرالاي اجراء عبد الناصر باجراء عسكري مماثل، وزاد على ذلك باعلان التعبئة العامة في السودان، وهدّد بالتقدم بشكوى إلى مجلس الامن الدولي متهمًا مصر بمحاولة احتلال اراض سودانية. غير ان بعض مستشاريه، وفي مقدمهم الرئيس الراحل محمد أحمد محجوب -وزير الخارجية في حكومة الاميرالاي نفسه- طلب منه التريث وإتاحة مجال للتفاوض مع عبد الناصر. وفاوض محجوب الرئيس عبد الناصر، واتسمت محادثاتهما بالصراحة والوضوح. وعندما شعر عبد الناصر، من أكثر من جهة، بحساسية الموقف السوداني وما قد ينتج من حرج بسبب المواجهة العسكرية، والمداولات السياسية في ردهات مجلس الامن الدولي. وبعد أخذ ورد في الموضوع، ولقاءات عدة بينهما، قال الرئيس عبد الناصر لمحجوب، وزير خارجية السودان آنذاك، ولعلها كانت إحدى نفحاته العاطفية العربية المعروفة: «يا عم خدوا حلايب وخدوا معاها أسوان لو عايزين، انا لا اسمح للدماء العربية ان تنسكب على ارض مصر والسودان مهما عظم الامر». وأمر الرئيس عبد الناصر بانسحاب الوحدات العسكرية المصرية من منطقة حلايب. ذاك كان جمال عبد الناصر» (شريف التهامي، وزير النفط السوداني ١٩٧٨-١٩٨٥، عضو في البرلمان السوداني، «الحياة»، العدد ١٠٩٢٩، تاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٩٣، ص ١٠).

حيثيات موضوع النزاع وقانونيته: النزاع على حلايب كان الخلاف الاول من نوعه بين الحكومتين السودانية والمصرية في عهد عبد الناصر (مصر) والاميرالاي عبد الله بك خليل (السودان). ففي اواخر كانون الثاني ١٩٥٨ بعثت القاهرة بمذكرة إلى الحكومة السودانية ابلغتها ان القانون الذي أصدرته تمهيدًا لانتخابات برلمانية احريت في ٢٧ شباط ١٩٥٨، خالف اتفاق ١٨٩٩ في شأن الحدود المشتركة إذ ادخل منطقة تقع شمالي مدينة وادي حلفا واخرى تحيط بحلايب وشلاتين ضمن الدوائر الانتخابية السودانية. وشددت المذكرة على حق مصر في استرجاع تلك المناطق التي يديرها السودان شمالي خط العرض ٢٢. فطلبت الخرطوم عقد اجتماع طارىء لمجلس الامن لمناقشة الوضع على الحدود، خصوصًا بعدما ارسلت إليها تعزيزات مصرية ضخمة. وبررت الحكومة السودانية طلب تدخل المجلس بضرورة «وقف الاعتداء الوشيك»، فدعا مندوبي البلدين للمشاركة في مناقشة المسألة.

عقد الاجتماع في ٢١ شباط ١٩٥٨، وذكر مندوب السودان ان مصر طلبت ضم منطقتين على الحدود كانتا منذ نصف قرن جزءًا من ا لاراضي السودانية، وطلبت ان يشارك سكانهما في استفتاء تصادف موعده مع اجتماع المجلس، وارسلت إليهما لجان انتخابية. واشار إلى ان السودان كان يعد لاجراء انتخابات في ٢٧ شباط، مؤكدًا استعداد بلاده للبحث في المسألة مباشرة مع مصر بعد عملية الاقتراع.

أما مندوب مصر الذي نفى ارسال تعزيزات إلى حلايب، فاعلن ان بلاده قررت تسوية موضوع الحدود بعد الانتخابات السودانية، وشدد على حقها في المنطقة المتنازع عليها مؤكدًا ان حكومته لجأت دائمًا إلى اسلوب التفاهم مع الخرطوم.

شكلت تلك المناسبة الوحيدة منذ عرف النزاع الحدودي بين البلدين فرصة لكل منهما ليبيّن الاسس القانونية التي تستند إليها مطالبته بحق السيادة على حلايب. فالحكومة السودانية تؤكد حقها في ادراج المناطق التي وضعت تحت ادارتها منذ نحو ستين سنة ضمن دوائرها الانتخابية، في حين تدفع الحكومة المصرية بعدم قانونية هذا المطلب وتصر على ان استثناء تلك المناطق من الخضوع للنظام الاداري المصري لا ينفي بقاءها ضمن سيادة مصر. ويرد السودان مصرًا على ان الاراضي الواقعة شمالي خط العرض ٢٢ اصبحت جزءًا من اراضيه حسب التعديلات الادارية والاتفاق المبرم في ١٩ شباط ١٨٩٩ الذي انشأ خط الحدود.

التنقيبات الاولى عن النفط في حلايب:
بعد محاولات متعددة ومضنية تمكنت شركة «شفرون» الاميركية للبترول من العثور على النفط للمرة الاولى في سهول وسط السودان في تموز ١٩٧٩. وقد اثار هذا الحدث ردود فعل كبيرة في اوساط شركات التنقيب العالمية. وتمكنت شركة «تكساس إيسترن» الاميركية من الحصول على امتياز للتنقيب عن النفط في المياه الاقليمية على شواطىء البحر احمر (بما فيها شواطىء مثلث حلايب) في ٨ كانون الاول ١٩٧٩. ولم يبد الجانب المصري (وكان الرئيس انور السادات) أي رد فعل على النبأ، ولا على بدء الشركة تنقيباتها سوى ان السلطات المصرية اعتقلت بعض العاملين في التنقيب، وما لبثت ان أفرجت عنهم إثر زيارة قام بها الرئيس السوداني جعفر نميري لمصر ومحادثاته مع الرئيس انور السادات الذي بدا انه كان يعلم، وفق الأنباء المتواترة في حينه، ان المنقبين لم يعثروا على النفط هناك، فقال «اتركوا الاميركان ينقبوا».

واستمرت شركة «تكساس إيسترن» في اعمال التنقيب في شاطىء البحر الاحمر، وقامت بدراسات جيولوجية وجيوفيزيائية للمنطقة، وأنشأت ٤٤٣ محطة جاذبية جيوفيزيائية، و٢١٠٥ محطات سيزمية زلزالية، وحفرت بئرًا وحيدة بلغ عمقها ٤٠٠٠م. ولم توفق في العثور على نفط وغاز طبيعي بكميات تجارية في المنطقة، إلا ان البئر أعطى مؤشرات لوجود بعض المواد الهايدروكربونية. وأنهت الشركة اعمالها في ١٩٨٣.

النزاع في بداية هذا العقد الاخير: كانت مصر قدمت اول تأييد واعتراف بالانقلاب العسكري (ثورة الانقاذ) في آخر حزيران ١٩٨٩. لكن سرعان ما ظهر، خلال الاشهر التالية، التعارض في السياسات والتوجهات لدى الحكومتين السودانية والمصرية. وثمة رأي (يبدو انه الراجح) يعتقد ان مشكلة حلايب لم تكن المصدر الحقيقي للخلاف، بدليل ان هذه المشكلة أثيرت بعد ان وصل الخلاف إلى ذروته. إذ من المعروف ان الحدود، وما يقترن بها من معاني السيادة والكرامة الوطنية هي الأكثر تلبية لحاجة الحكم (أي حكم) للتأييد الشعبي الداخلي.

والمعروف ان الخلاف بين السودان ومصر وصل، بعد إثارة هذه المشكلة، إلى مستوى غير مسبوق. وتزاوجت في هذا الخلاف ابعاد اقليمية باخرى ثنائية، بخلاف الخط المعتاد للخلافات السابقة بين البلدين التي كان يغلب عليها الطابع الثنائي. إذ كان تأثير ازمة الخليج قد امتد ليحدث توترًا حادًا بين البلدين نتيجة تعرض السفارة

المصرية في الخرطوم لاعتداءات خلال تظاهرات في كانون الثاني ١٩٩١ عقب نشوب حرب الخليج. ورفعت في هذه التظاهرات شعارات عدائية ضد الحكم في مصر لم يسبق لها مثيل من دون تدخل من السلطات السودانية.

على هذا النحو اعتبر ان إثارة مشكلة حلايب للمرة الاولى في عهد نظام البشير (الرئيس السوداني) في تشرين الاول ١٩٩١ هي من تداعيات الخلاف السياسي بين الجانبين الذي كان قد وصل إلى ذروته، وليست سببًا له. لكن الموقف المصري هذه المرة جاء مخالفًا لموقفها في ١٩٥٨، أي عندما سعت القاهرة إلى تهدئة مشكلة حلايب عبر سحب قواتها، ما اتاح التوصل إلى ترتيبات ادارية مقبولة من الطرفين، «إذ اعطت السودان دورًا مهمًا في الادارة و لم تُمس السيادة المصرية في الوقت نفسه». أما هذه المرة، وتحديدًا ابتداء من ١٩٩٢، دخلت القاهرة بقواتها إلى حلايب وادرجت المنطقة ضمن خطتها الخمسية الثالثة ١٩٩٢-١٩٩٧.

كرونولوجيا احداث السنوات الاخيرة:

عادت أزمة النزاع على حلايب من جديد وهبت في شباط ١٩٩٢ إثر احتجاج مصر لدى شركة «بتروليوم انترناشيونال» الكندية على قيامها بالتنقيب عن البترول في مثلث حلايب، الامر الذي أدّى إلى إلغاء الشركة تعاقدها مع الحكومة السودانية.

١٩٩٣: سكنت الازمة بعض الشيء لتعود وتنفجر مجددًا في اوائل كانون الثاني ١٩٩٣ عندما قدّم وزير الخارجية السوداني علي سحلول مذكرة (ثانية) إلى رئيس مجلس الامن الدولي حول ان «التطورات الاخيرة في حلايب تنذر بحدوث مواجهة مسلحة بين البلدين». واوردت المذكرة أكثر من ٢٠ حادثًا في منطقة حلايب، وانتهت بالقول: «إن ما أشرنا إليه من تدخل عسكري ومدني منظم من قبل جمهورية مصر العربية في الاراضي السودانية يؤكد بوضوح نواياها الهادفة إلى فرض الامر الواقع، وضم حلايب بالقوة إلى مصر. ومع تأكيد حرص السودان على اتباع كل الطرق السلمية والودية في معالجة هذا النزاع بين البلدين الشقيقين، فان جمهورية السودان تحتفظ لنفسها بحق استعمال كل الوسائل اللازمة، بناء على ما جاء في ميثاق الامم المتحدة للدفاع عن وحدة اراضيها وسيادتها. ونأمل بأن يضطلع مجلسكم الموقر بمسؤولياته كاملة بالعمل على سحب الوجود العسكري والمدني المصري من منطقة حلايب واعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل بدء مسلسل الاعتداءات».

وفي ٣٠ حزيران ١٩٩٣، التقى الرئيسان حسني مبارك (مصر) وعمر البشير (السودان) لمناسبة عقد القمة الافريقية التاسعة والعشرين في القاهرة، وقررا إنشاء آلية لإنهاء الخلافات عبر اجتماعات دورية لوزيري خارجية البلدين وبهدف تجميد الازمة.

لكن هذا التجميد عاش لأشهر قليلة. إذ عادت الاوضاع وتصريحات المسؤولين (منذ مطلع تشرين الثاني ١٩٩٣) في كل من الخرطوم والقاهرة إلى ما كانت عليه قبل لقاء الرئيسين. فبدأ الحديث عن «عدم التفريط في السيادة» على مثلث حلايب، وعن دعم حكومة الخرطوم للجماعات الدينية المتطرفة واعمال العنف (هذا من جانب القاهرة)، وعن ان «حلايب ارض سودانية» (من جانب الخرطوم).

وفي هذه الاجواء تجاهل وزير الخارجية المصري عمرو موسى اقتراح نظيره السوداني حسين ابو صالح عقد الاجتماع الثاني بينهما، في إطار الآلية التي اتفق عليها الرئيسان، في الخرطوم، في ١٤ تشرين الثاني ١٩٩٣ لاستكمال مناقشة جوانب النزاع على حلايب (كان اللقاء الاول في

تموز ١٩٩٣ في القاهرة). وزادت الازمة اشتعالاً بعد إصدار ابو صالح تصريحات قال فيها «حلايب سودانية»، وقيام القاهرة بخطوات كانت جمدت منذ لقاء الرئيسين، كعقد المجلس المحلي لمحافظة البحر الاحمر في مدينة شلاتين في المثلث والحديث عن استئناف تنفيذ مشروعات التنمية كرصف طرق وتدشين ميناء جديد في ابو رماد وغيرها. ورافق الازمة عن حديث وساطات وتدخلات من جانب دمشق وطرابلس.

أما الاطار السياسي العام الذي أحاط بمسألة حلايب فكان مرتبطًا بالتطورات في الخرطوم وما يتعلق بالسودان على الساحة الدولية. إذ كانت الدوائر السياسية المصرية ترى ان الجبهة القومية الاسلامية بزعامة الدكتور حسن الترابي تقوي قبضتها على السودان بعد إلغاء مجلس قيادة الثورة وتنصيب البشير نفسه رئيسًا للسودان، ما يؤدي إلى مزيد من المتاعب امام السياسة المصرية على مسرح عملها الدولي، خاصة لجهة تعاطيها مع الاسلاميين في دول عربية واسلامية، وحتى داخل مصر نفسها.

١٩٩٤: بدأت سنة ١٩٩٤ باستمرار ازمة حلايب وبمراوحتها مكانها. في ٣٠ كانون الثاني افتتح الرئيس السوداني ميناء جديدًا في مدينة أوسيف الواقعة جنوبي مدينة شلاتين (قاعدة المثلث) وشمالي ميناء سواكن السوداني. وردت مصر باعتبار هذا العمل «زيارة قام بها الرئيس السوداني للاراضي المصرية». في ٢٢ تموز رفع السودان مذكرة إلى مجلس الامن طلبت احالة النزاع على حلايب إلى شكل من اشكال التحكيم الدولي. وبعد يومين قدّم السودان كذلك مذكرة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية وضحت موقف الحكومة السودانية من هذا النزاع. وفي آب، أعلن رئيس مجلس الصداقة الشعبية العالمية في السودان (يضم الاتحادات الطلابية وجمعيات الصداقة والمنظمات الفئوية والجماهيرية والجمعيات الاكاديمية والمهنية) الدكتور مصطفى عثمان اسماعيل «ان المجلس سيتحرك نحو القاهرة مستخدمًا العلاقة الشعبية لدفع النظامين الحاكمين في البلدين نحو وقف تعميق الخلاف إذا فشلت السياسة في وقف التدهور والتصعيد لانه من الصعب حل مشكلة حلايب في الاطار الرسمي فقط». لكن الرئيس السوداني اتخذ خطوة تصعيدية (في اواسط تشرين الاول) باعلانه ان سحب الجيش المصري من حلايب شرط لتحسين العلاقات بين الخرطوم والقاهرة، وبقوله: «إذا لم يصلنا عمرو موسى (وزير الخارجية المصري) ويوقع اتفاق سحب الجيش المصري فإن أي حديث عن تحسين العلاقات يصبح بلا قيمة». القمة الاسلامية (كانون الاول، الدار البيضاء) خففت بعض الشيء من توتير الازمة إثر طرح الملك المغربي الحسن الثاني مبادرة لعقد لقاء بين مبارك والبشير.

١٩٩٥: في شباط، وبعد ايام قليلة من بحث مجلسَ الشورى المصري تعديل الدوائر الانتخابية واستبعاد منطقة حلايب وشلاتين من هذه الدوائر في بادرة حسن النية من الجانب المصري، قرر السودان إدراج حلايب ضمن دوائره الانتخابية، الامر الذي اعتبر تصعيدًا جديدًا في الازمة، خاصة وان الرئيس البشير صرّح (في ٢٥ شباط) ان «على المصريين الا يتوقعوا حدوث انفراج في علاقة الخرطوم مع القاهرة في ظل وجود المعارضة (أي المعارضة السودانية) والقوات المصرية في حلايب».

وبعد ان لاحت فرصة للوصول إلى حل سلمي، عاد مجلس الشعب والشورى المصريين وقررا تضمين منطقتي ابو رماد وحلايب في دائرة انتخابية مصرية (اوائل ايار).

في حزيران، اعتبر الرئيس السابق جعفر

النميري (من القاهرة) في حديث مع «الحياة» (العدد ١١٧٩٤، تاريخ ٧ حزيران ١٩٩٥، ص ٥) ان مثلث حلايب الحدودي ارض مصرية استخدمتها حكومة الرئيس عمر البشير وحكومة رئيس الوزراء السابق عبد الله خليل (حزب الامة) لأسباب أخرى.

وفي تموز، شكل الرئيس المصري حسني مبارك لجنة برئاسة نائب رئيس الوزراء وزير التخطيط الدكتور كمال الجنزوري لمتابعة خطة لتنمية مثلث حلايب ضمن خطة تنموية عامة (خطة ١٩٩٢-١٩٩٧). وتركز خطة إنماء حلايب على حفر آبار مياه جوفية، وإنشاء ميناء في شلاتين، واسكان الأسر البدوية، واستكمال توطين ٤٥٠٠ أسرة من أسر العاملين في المؤسسات المصرية، وإنشاء سوق تجارية وحجر صحي، ودعم طريق رأس بناس-حلايب (بطول ٣٦٠كلم)، وربط المثلث بخطوط الاتصالات الهاتفية الدولية والمحلية، ومحطات لتحلية المياه، وإنشاء قرية للصيادين ومستشفى مركزي، واستغلال الموارد المعدنية، والتنقيب عن النفط والغاز. وفي اواسط تموز، أطلقت اذاعة «حلايب المصرية المحلية» بثًا تجريبيًا. ورد السودان بتحديد دعوته الموجهة إلى مجلس الامن «ليضطلع بمسؤولياته كاملة ويولي الاعتبار اللازم لمسألة العدوان المصري على السودان»، فيما اشترطت القاهرة لانهاء التوتر مع الخرطوم اعتراف السودان بالسيادة المصرية على حلايب»، وان لا تحكيم دوليًا في هذا الخصوص.

وفي كانون الاول، تجدد التصعيد الذي شهده تموز واتهم الرئيس المصري حسني مبارك السودان بـ«التآمر»، وردّ الرئيس السوداني عمر البشير بـ«تحرير» حلايب.

١٩٩٦: وعشية الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في السودان (آذار) اتهمت الخرطوم الجيش المصري بقصف القوات السودانية في حلايب، فيما أعلنت مصر انها منعت اجراء الانتخابات في المثلث «لأنه أرض مصرية». وأثناء زيارة قام بها البشير (في ايار) للملكة العربية السعودية، اعاد البشير التأكيد، في خطاب امام السودانيين العاملين في السعودية ان «حلايب سودانية، وستظل كذلك، ولن يتم التنازل عنها لمصر، واننا نريد ان تكون حدودنا مع الاشقاء والجيران لأجل التواصل مع الشعب المصري في الشمال، لقد دعونا إلى التحكيم الدولي أو العربي أو الافريقي لكننا نحبذ ان يتم ذلك في إطار ثنائي مع اخواننا المصريين»

الاحزاب

المهدية: لا يستقيم كلام، أو يفيد، على حزب أو حركة أو ثورة عرفها السودان في تاريخه الحديث، دون البدء بـ«المهدية»، الثورة الام. هذه «الثورة التي كانت نبذًا شاملاً لغلواء الاستبداد وآلة السلطة الزمنية التي تقمع رعاياها. وكانت رفضًا فكريًا وعدم القبول والاعتراف بحاكمية الولاة العثمانيين. فوجب التحرك ثوريًا لمثله وفق الشرائط المسنونة... قام الامام المهدي بحركة نقد شاملة للموجود الديني والثقافي والتربوي. هذه التعرية النقدية ابرزت فراغًا هائلاً فجّر زخم الاقتناع والاقناع الذي وظّفه المهدي في مجادلته علماء السوء وصياغة الانسان السوداني في مشروع مناهض ومواز. ارتكز هذا الاصطفاء على حكمة «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ردًا شاملاً على عنجهية النزاعات القبائلية في سودان القرن التاسع عشر» (الحارث إدريس الحارث، دبلوماسي سوداني سابق، «الحياة»، العدد ١٠٩٢٣، تاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٩٣).

في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، وبموازاة مع ثورة عرابي ونتائجها في مصر، كانت تنمو في السودان بذور معارضة سياسية دينية، ما لبثت ان اندلعت ثورة تعرف بـ«الثورة المهدية» التي هزمت الوجود البريطاني وأنشأت دولة استمرت نحو عقد ونيف (١٨٨٥-١٨٩٨). وقد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى قائدها محمد أحمد المهدي.

ولد محمد أحمد المهدي في ١٨٤٣ بالقرب من دنقلا. وبعد انهاء دراساته الدينية، عرف بنزعته الصوفية وتنسكه، وذاع صيته في طول البلاد وعرضها.

لم يكن المهدي راضيًا عن سير السلطة في الخرطوم متهمًا إياها بالاساءة إلى تعاليم الاسلام الاصلية، فدعا إلى شنّ حرب جهاد ضد الاستعمار والسلطة الموالية له. وبالفعل، ما إن أعلن المهدي بدء الثورة في ١٨٨١ حتى لاقى تجاوبًا من مختلف المناطق في السودان، واستمرت الذراع العسكرية للثورة (الدراويش) تزداد قوة وتنظيمًا مستمدة زخمها الاساسي من طائفة الانصار (وهؤلاء-الانصار-لا يكونون حزبًا بل جماعة ذات زعامة دينية، ومن اكثريتهم يتألف حزب الامة حاليًا، وعددهم نحو مليونين. ويقابل جماعة الانصار جماعة الختمية وهم أتباع السيد علي الميرغني).

وقعت المجابهة الاولى بين المهديين والانكليز في قلي، وانتهت بانتصار الدراويش انتصارًا تامًا. وكذلك انتصر انصار المهدي في معركة شيكان شرقي الابيض ضد القوات البريطانية بقيادة هكس باشا.

وبعد ان منيت بريطانيا بهذه الهزيمة، عيّن الجنرال غوردن مندوبًا لها في السودان بهدف إيجاد حل مع المهديين. إلا ان الدراويش، تابعوا حملتهم لتحرير السودان وحاصروا مدينة الخرطوم واحتلوها في ١٨٨٥ وقتل غوردن في قصره.

بعد سقوط العاصمة، تابعت الحركة المهدية انتشارها لتشمل القسم الاكبر من السودان واتخذت أم درمان عاصمة للدولة الجديدة. وبعد ستة أشهر، توفي المهدي واصبح الخليفة عبد الله احد أهم رجال الثورة المهدية واقوى انصار المهدي شخصية رئيسًا للدولة المهدية المستقلة التي استمرت حتى ١٨٩٨.

وفي فترة قيام هذه الدولة، انتهجت بريطانيا سياسة مراقبة ما يجري في السودان انطلاقًا من مصر. واستمر هذا الوضع حتى ١٨٩٦ حين عاد البريطانيون وشنوا حملة عسكرية على دنقلا مستخدمين قوات الجيش المصري بالرغم من معارضة الخديوي عباس الثاني الذي كان على نقيض ابيه مبغضًا للانكليز، ورغم احتجاجات السلطنة العثمانية على الاقتتال بين جيش مصر

المسلم والمهديين المسلمين. إلا ان بريطانيا تابعت حملتها على السودان باسم «مصلحة مصر»، بينما كانت تسعى عمليًا لاثبات قوتها في المنطقة امام زحف القوات الفرنسية التي بدأت تشق طريقها من افريقيا الوسطى نحو النيل.

واستمرت الحرب ضد المهديين بقيادة اللورد كيتشنر إلى ان ألحق بهم هزيمة نهائية في ١٢ ايلول ١٨٩٨ عندما انتصر الجنرال غرانفيل على جيش الخليفة (الدراويش) بقيادة الامير عبد الرحمن النجومي، وكانت مجزرة كبرى قتل فيها أكثر من ٢٠ ألفًا من المهديين في جبال كرري على بعد بضعة كيلومترات شمالي العاصمة أم درمان. بيد ان الخليفة عبد الله التعايشي سحب بقية جيشه واعاد تنظيمه في منطقة أم دبيكرات، واستعد للقاء آخر مع القوات البريطانية في الموقع نفسه. وأثناء المعركة قتل الخليفة وابنه شيخ الدين وبعض قادته في ١٨٩٨. ومع هذه الهزيمة، انتهى حلم الدولة المهدية بمتابعة تحرير مصر وبعث الاسلام الاصيل (راجع «أم درمان» في باب «مدن ومعالم»).

في السنوات القليلة التي قامت خلالها (١٨٨٥-١٨٩٨) دولة الثورة المهدية كان لها دور كبير في دعم الحركات المعادية للاستعمار على المستوى المعنوي والمادي، كما انها تخطت في تأثيرها مصر ودول المغرب العربي لتصل إلى المشرق خاصة في دعم التيارات الفكرية وحركات التحرر العربي.

الاسرة المهدية مع المهدي وبعده:

(احتوت الحلقة الاولى من سيرة حياة الصادق المهدي، الزعيم الحالي لحزب الامة، مقدمة كتبها الصادق بنفسه، وفيها عرض لأسرة آل المهدي والحياة الخاصة لأبنائها ومراحل تعليمهم وثقافتهم وفكرهم ودخولهم العمل العام-«الوسط»، العدد ١٢٦، تاريخ ٢٧ حزيران ١٩٩٤، ص ١٠-١٦- ومنها هذا الايجاز):

جد الصادق المهدي هو الامام عبد الرحمن الابن الاصغر للامام محمد أحمد المهدي مؤسس المهدية وباني دولتها (١٨٨٥-١٨٩٨)، وجدته هي السيدة أم سلمة بنت المهدي كذلك. ويقال ان أصل أسرة المهدي من الحجاز وتنتسب إلى الحسن بن علي، وهذا النسب معروف ومدون في النجف الاشرف في العراق حيث تسجل كل انساب الأشراف. وقد نزحت الاسرة من الحجاز إلى مصر، ومنها جنوبًا إلى السودان حيث عاشت في جزر على نهر النيل لا تزال تعرف بـ«جزائر الاشراف»، ومنها جزيرة لبب التي ولد فيها الامام محمد أحمد المهدي (قائد الثورة المهدية، ومؤسس الزعامة الحالية للأسرة) بالقرب من مدينة دنقلا، أشهر مدن شمالي السودان. ويوجد في جزيرة لبب كيان ديني يتبع للطريقة الشاذلية منذ نحو ٦٠٠ سنة. ومحمد أحمد هو ثالث ابناء عبد الله، وكان مختلفًا عن والده وشقيقيه الذين تعاطوا الأعمال الكسبية (صناعة المراكب) بنزوعه لدراسة علوم الدين والمعارف المتاحة في زمانه، وأخذ نفسه بالشدة البالغة والتقشف. بعد خلوته في جزيرة أبا، انطلق في الدعوة. وحرص المهدي، في كل مصاهراته، على ان تكون من اجل توحيد الارحام لكل أهل السودان. وكان بيت المهدي، ولا يزال، يمثل عصبة لكل قبائل السودان حيث لا توجد قبيلة ليس لها وجود في اسرة المهدي.

وعهد المهدي بخلافته لعبد الله وهو من قبيلة التعايشة في جنوب غربي السودان. وكان من المؤكد ان يجد هذا التعيين معارضة من بعض آل المهدي وأقاربهم وكبار رجال الدولة من أهل وسط السودان الذين تعارف الناس على تسميتهم «ناس البحر»، يعني أهل النيل.

ونشأ أبناء اسرة المهدي على احداث السيرة العامة المنبثقة من ذكرى المهدي ورجاله وبطولاته وانجازاته.

ونشأ الجيل الثاني والثالث من آل المهدي

على صدى نهاية الدولة المهدية والتنكيل الذي لحق بالاسرة بعد موقعة كرري واستباحة مدينة أم درمان والمعاملة السيئة التي وجدها آل المهدي من الحكومة الاستعمارية. واستشهد من اسرة المهدي ابنه محمد في كرري، ثم ابنه الصديق في أم دبيكرات، فابناه الفاضل والبشري في الشكابة. وعومل الباقون من افراد الاسرة معاملة سيئة. فقبض عليهم وأرسلوا إلى منفى في مدينة رشيد شمالي مصر. وهناك عاشوا حياة صعبة، وتعرضوا لامراض فتاكة مثل السل والربو فمات منهم عبد الله ونصر الدين والطاهر.

وكان عبد الرحمن (جد زعيم الأسرة الحالي وزعيم حزب الامة الصادق المهدي) الابن الاصغر للمهدي في سن الثالثة عشرة، وبقي على قيد الحياة. فاعاد ترتيب البيت وكيان الانصار لاحقًا (راجع «حزب الامة» في هذا الباب، وراجع «الصادق المهدي» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»). يقول غراهام توماس، وهو اداري بريطاني متقاعد عمل في الخرطوم إبان العهد الاستعماري، ان حفدة مؤسس الاسرة الامام محمد أحمد المهدي، يراوح عددهم حاليًا بين ٦٠٠ و٧٠٠ شخص.

حزب الامة (وطائفة الانصار): كان يتزعم هذا الحزب، وطائفة الانصار، الامام عبد الرحمن المهدي وابنه السيد الصديق؛ أما الصادق المهدي (الزعيم الحالي) فكان مستنكفًا عن خوض غمار السياسة والزعامة، وكتب مذكرة لجده (عبد الرحمن) ووالده (السيد الصديق) بقراره ورأيه في الاحباط السياسي القائم وتفضيله العلم.

وكان الحزب، قبيل انقلاب الفريق ابراهيم عبود في ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٨، صاحب الغالبية والحزب الاقوى؛ ولكنه كان منقسمًا إلى فريقين: فريق يقوده عبد الله خليل الامين العام للحزب ورئيس الوزراء ويرى ان المشاكل والازمة السياسية قد تطيح الاستقلال نفسه ولهذا من الافضل اللجوء إلى الجيش؛ والفريق الآخر يقوده الصديق المهدي رئيس الحزب ويرى عدم اللجوء إلى العسكر لئلا يكون حل الازمة في أيدي غير الحزب. كما ان الخلاف برز في موضوع ائتلاف حزب الامة. فمجموعة عبد الله خليل رأت ضرورة التحالف مع حزب الشعب الديمقراطي الذي يرعاه السيد علي الميرغني، بينما رأى فريق الصديق ضرورة التحالف مع الحزب الوطني الاتحادي الذي يتزعمه السيد اسماعيل الازهري.

وحسم انقلاب عبود كل الخلاف وتمت عملية التسليم والتسلم التي باركها الامام عبد الرحمن المهدي والسيد عبد الله خليل. ولكن سرعان ما تبين للأخير خطأه وغيّر موقفه من الانقلابيين الامر الذي كلفه دخول المعتقل في الرجاف.

اختار الصادق الوقوف في الجانب الذي يقوده والد الصديق. فرفض الانقلاب والحل العسكري وقدّم استقالته من وزارة المال وبقي إلى جانب والده الصوت المعارض الرئيسي لحكومة ١٧ تشرين الثاني، خصوصًا بعد وفاة جده عبد الرحمن المهدي في آذار ١٩٥٩، وتولي الصديق إمامة الانصار. واستمر هذا الاخير في معارضته ومقاومة الحكم العسكري بارسال المذكرة تلو الاخرى، وقد جمعها في ما بعد إبنه الصادق في كتابه «جهاد في سبيل الديمقراطية» الذي ضم كل مراحل العمل السياسي لمواجهة حكومة ابراهيم عبود.

ونجح الامام الصديق (والد الصادق الزعيم الحالي للحزب) في جمع كل القوى السياسية إلى جانبه في «الجبهة القومية» واستمر رمزًا للمعارضة حتى وفاته في تشرين الاول ١٩٦١، وخلفه في زعامة الانصار اخوه الامام الهادي المهدي. في حين استمر الصادق في عمله في هيئة قيادة الانصار وحزب الامة والجبهة القومية. وأدى تفكيره في

تجديد صيغة الحزب إلى فترة تعتبر أسوأ الفترات في تاريخ الحزب، إذ شهدت الانشقاق وقيام جناحين: جناح الصادق، وجناح عمه الامام الهادي المهدي. واستمرت هذه الفترة حتى ١٩٦٩ عندما توحد الحزب على برنامج اطلق عليه «الاصلاح والتحديد». ولكن قبل ان يهنأ الحزب بوحدته الجديدة كان النميري قد انقضّ على السلطة، فعاد حزب الامة إلى قيادة المعارضة عن طريق الجبهة الوطنية حتى ١٩٨٥ عندما حدثت الانتفاضة التي أودت بحكم النميري. فقام الحزب يعمل على تطوير اجهزته، فظهر حتى انقلاب البشير في ٣٠ حزيران ١٩٨٩ كأكبر الاحزاب وأفضلها تنظيمًا.

أما زعامة طائفة الانصار فكانت موضع خلاف (متواز في أكثر الاحيان مع خلافات سياسية) بين أسْرة المهدي استمر حتى ١٩٩٥، حيث اتفقت على تعيين إمام جديد للانصار خلفًا للامام الراحل الهادي المهدي. وكان الصادق المهدي وعمه أحمد المهدي وولي الدين الهادي المهدي قد عقدوا اجتماعات متواصلة انتهت إلى اتفاق على تعيين احمد المهدي رئيسًا لهيئة شؤون الانصار وإمامًا عامًا لطائفة الانصار. وهكذا عادت إمامة الانصار بعد ٢٥ سنة على مقتل الامام الهادي في ١٩٧٠ على ايدي الجيش في شرقي البلاد في عهد الرئيس النميري.

واعتبر اتفاق إعادة الامامة إلى طائفة الانصار أحد أكبر المكاسب التي تحققت لحزب الامة والانصار بعد اطاحة حكومة الصادق المهدي في ١٩٨٩، واعتقال قيادات عدة من الانصار. والجدير ذكره ان الصادق وعمه أحمد المهدي كانا على خلاف منذ ١٩٦٧، إذ ساند أحمد المهدي انقلاب جعفر النميري بعد المصالحة الوطنية في ١٩٧٧، ثم أعلن تأييده للفريق عمر البشير في ١٩٨٩، إلا انه سرعان ما عاد إلى ابن اخيه الصادق وعارض حكومة الانقاذ بشدة ما أدّى إلى اعتقاله أكثر من مرة.

وعلى صعيد زعامة حزب الامة، هناك مؤشرات تدل على ان الحزب يعيش مرحلة انتقالية لعل أوضح أثارها هو تحول مركز صنع القرار من داخل عائلة المهدي إلى كوادر حزبية لم يعرف عنها الانتماء للطائفة بالعقيدة أو النسب أو العائلة. فمنذ ١٩٨٦، لم يكن لآل المهدي أو أصهارهم من عدد في هرمية الحزب القيادية يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة في قائمة تعد نحو ألف إسم. وانحسار نفوذ آل البيت المهدوي يرجع إلى دعوة «حزب الامة الجديد» التي اطلقها الصادق المهدي عقب انتفاضة ١٩٨٥، ومحاولاته توسيع الحزب ليشمل حتى الاقباط وأبناء الجنوب. ومن المعروف ان مبارك الفاضل قد احكم سيطرته على دوائر العمل المالي والامني والاعلامي والدبلوماسي للحزب في الخارج منذ ١٩٩٣. وقد جرى حديث حول ان مبارك الفاضل يخطط لابعاد الصادق المهدي وتولي مقاليد القيادة في الحزب حاضرًا ومستقبلاً.

الختمية: جماعة (طائفة) دينية-سياسية اسلامية أسسها محمد عثمان الميرغني، وتعتبر من أكبر الطوائف الدينية عددًا في السودان، وقد نشأت في الاطار العام نفسه الذي نشأت فيه الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية، والحركة السنوسية في ليبيا.

ففي ١٨٣٠، أوفد أحمد بن ادريس الفاسي، وهو مفكر اصلاحي مغربي كان يعيش في الجزيرة العربية، تلميذه محمد عثمان الميرغني (١٧٩٣-١٨٥٣) إلى السودان ليعيد للاسلام هناك نقاءه واصالته. وقد نظم الميرغني أتباعه ومريديه في جمعية دينية-سياسية عرفت بالميرغنية أو الختمية واتخذت مقرها في قسالة على الحدود السودانية الاريترية. وكانت الختمية في أوج توسعها وانتشارها حين اندلعت الثورة المهدية،

فأثرت على نفوذها وشعبيتها. فما كان من زعمائها المتحدرين من الميرغني إلا ان تعاونوا مع الادارة البريطانية-المصرية التي كانت الثورة المهدية قد انتفضت ضدها. ويعتبر شمالي السودان وشرقيه المعقل الرئيسي للختمية.

بعد الحرب العالمية الاولى، أخذ الختميون يتحالفون مع حزب الاشقاء الذي كان اسماعيل الازهري قد أسسه على اساس المناداة بـ«وحدة وادي النيل». وقد توصل الازهري، بفضل تأييده اتباع الختمية له، إلى الوصول إلى منصب اول رئيس وزارء في جمهورية السودان المستقلة (١٩٥٦). وقد ظل تأثير هذه الجميعة قويًا في السياسة السودانية من خلال تأييدها التقليدي للتقارب مع مصر، ومن خلال دعمها للقوى المحافظة في البلاد ومعارضتها للاحزاب اليسارية. أما وجودها السياسي فقد تمثل في تأييدها أو تبنيها لعدة احزاب سياسية ابتداء بحزب الاشقاء وانتهاء بالحزب الاتحادي الديمقراطي. وزعيمها (وكذلك زعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي المعارض) هو السيد محمد عثمان الميرغني (يحمل الاسم نفسه الذي حمله المؤسس) الذي يقودها، حاليًا، ويقود حزبه في الاتجاه المعارض للحكم. وآخر تحرك له، في سياق المعارضة كان اجتماعه، في آذار ١٩٩٧، مع ممثلين للحركة الشعبية لتحرير السودان (بزعامة جون قرنق) حيث أكد لهؤلاء القادة الجنوبيين «العلاقة الاستراتيجية بين الحزب الاتحادي والحركة الشعبية واتفاقهما الكامل على تفضيل وحدة السودان على حق تقرير المصير».

الحزب الاتحادي الديمقراطي: هو هذا التنظيم الذي وصلت إليه (واتفقت عليه) «الختمية» و«حزب الاشقاء» و«حزب الشعب الديمقراطي» و«الحزب الوطني الاتحادي»، وتأسس في ١٩٦٧، وعلى رأس زعمائه البارزين اسماعيل الازهري، والشريف حسين الهندي، والسيد علي الميرغني.

أفضل توصيف موجز لهذا الحزب انه تحالف بين القوى الحديثة في المدن وبين طائفة الختمية في شرقي السودان وشماليه واواسطه. لكن هذا التحالف، الذي بدأ منذ الاربعينات وقبل ان يكتسب الحزب إسمه الحالي مع تأسيسه في ١٩٦٧، «تراث شفوي» غير موثق. فقد كان على الدوام يؤخذ بعين الاعتبار في المشاورات التي تجري وراء الكواليس وعند اختيار الوزراء واتخاذ القرارات الحاسمة، لكن ذكره لا يرد في اية وثيقة حزبية رسمية.

تكاثرت انقسامات الاتحاديين عقب انتفاضة ١٩٨٥ التي اطاحت النميري، واخفقوا في عقد مؤتمر للحزب طوال السنوات التي اعقبت ١٩٨٥، ثم عادوا بعد ١٩٨٩ وعقدوا سلسلة من المؤتمرات في الخارج وضعت الحزب على درب الديمقراطية الداخلية، مدركة ان الهجمة الاسلامية الاصولية على الحزب تستهدف محوه من الوجود ولا يمكن ردها إلا باعادة ترتيب صفوفه وتهيئته تنظيميًا.

أما العلاقة الحالية للاتحاديين بحزب الامة فتعود إلى الخمسينات عندما كان الصادق المهدي زعيمًا لاتحاد الطلبة السودانيين في المملكة المتحدة، وخلال عمله امينًا عامًا في الجبهة القومية التي عارضت حكومة عبود في الستينات أو في قيادة الجبهة الوطنية التي عارضت جعفر النميري في السبعينات، أو في حكوماته (حكومات الصادق المهدي) الائتلافية مع الاتحاديين عقب انتفاضة ١٩٨٥. وكان اتفاق حزب الامة مع الاتحاديين على عدم التنافس على المناصب الرئاسية وان تؤول رئاسة الوزراء إلى حزب الامة ورئاسة مجلس السيادة للحزب الاتحادي الديمقراطي التي حفظت للسيد اسماعيل الازهري مكانته.

وبعد تولي «ثورة الانقاذ الوطني» (انقلاب البشير) الحكم في ٣٠ حزيران، وجد الزعماء

السياسيون (خاصة زعماء حزبي الامة والاتحادي) انفسهم داخل سجن كوبر خصوصًا الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني اللذين وجدا الفرصة لمراجعة المواقف السابقة، وقررا استئناف العمل المشترك. واعتبر الصادق ان الحزب الاتحادي ليس في الصورة التي كانت مرسومة في اذهان ابناء المهدي وشباب حزب الامة، وهو انه حزب مصر داخل السودان بل هو حزب سوداني ايا كانت درجة الاتفاق والاختلاف مع قياداته.

أما على صعيد التحولات داخل الحزب الاتحادي الديمقراطي، خاصة لجهة زعامة الميرغني وطائفة الختمية التاريخية عليه، فهناك تحركات واسعة داخل السودان وخارجه لمواجهة هذه الزعامة، تقوم بها القيادات الشابة لايجاد قاعدة اقتصادية بديلة لتلك التي يوفرها السيد الميرغني. ويعمل عدد من شباب الحزب على تكوين شبكة موازية لنفوذ الميرغني تستقطب كوادر رئيسية خاصة في دول المهجر العربي وتواصل ما انقطع بموت الشريف حسين الهندي، وتدعم كل ذلك بالتحركات التنظيمية والسياسية والفكرية التي يقوم بها شباب الامانة العامة للحزب الاتحادي في الخليج وغربي اوروبا وشمالي اميركا وداخل السودان.

الحركة الاسلامية (الجبهة الاسلامية القومية): كانت «حركة التحرير الاسلامي» وسمّت نفسها لاحقًا «جبهة الميثاق الاسلامي»، وأخيرًا «الجبهة الاسلامية القومية».

بدأت علاقة الصادق المهدي بنشاط الاسلاميين في السودان في جامعة الخرطوم التي دخلها بداية الخمسينات لفترة محدودة قبل سفره إلى أوكسفورد، وذلك على اساس الارضية الاسلامية المشتركة. وقد هيّأ لقيادتهم اجتماعًا مع الامام عبد الرحمن المهدي للاعداد لعمل اسلامي مشترك. ودار حوار مثمر ولكنه لم يتحول إلى تحالف. كما ان خلافًا وقع داخل الحركة الاسلامية على موضوع الاستقلال أدّى إلى انشقاق مجموعة كبيرة بقيادة بابكر كرار. كما حدث خلاف لا تزال آثاره حتى الآن بين تنظيمي «الاخوان المسلمين» في مصر والسودان، لكنه لم يظهر بسبب سياسة التشدد التي اتبعها الرئيس جمال عبد الناصر مع الاسلاميين في بلاده وموقف الاسلاميين في السودان في مواجهة أي تقارب مع مصر الناصرية.

وحدث الانسجام والتنسيق الكاملان بين الصادق والحركة الاسلامية في منتصف الستينات لمواجهة «الخطر الشيوعي» ولايجاد صيغة للتكامل بين القوى الاسلامية. وظهر التعاون حتى الثمانينات في شكل «المجلس الاسلامي» في لندن، و«جماعة الفكر والثقافة» في الخرطوم، وأثمر في وثائق وبيانات ونشاط مشترك في مجال الاقتصاد تمثل في «دار المال الاسلامي» بمشاركة اسلاميين آخرين من غير السودانيين وقيام «منظمة الدعوة الاسلامية». واستمر هذا التعاون حتى وقع الخلاف الكبير والفراق بعد اعلان النميري تطبيق الشريعة الاسلامية، وشرع فيها ابتداء من ١٩٨٣. إذ رأى الصادق وحزب الامة ان هذا الطرح مخالف لكل الضوابط المتفق عليها للتطبيق الاسلامي عبر المجلس الاسلامي العالمي، وعبر جماعة الفكر والثقافة الاسلامية والحوارات الطويلة المتراكمة. بينما رأت جماعة الجبهة الاسلامية انه توجه اسلامي ينبغي دعمه ومحاولة ترشيده من الداخل إن لزم.

وزادت مسافة هذا الافتراق عندما شاركت «الجبهة الاسلامية القومية» في دعم انقلاب ٣٠ حزيران ١٩٨٩ وما سار فيه الانقلاب من برنامج حزبي لحل مشكلات البلاد، بينما رأى الصادق ان مشاكل السودان الكبرى يمكن ان تحل قوميًا وديمقراطيًا، وان الشورى والحرية والعدالة فرائض سياسية اسلامية لا يمكن

تطبيق الاسلام بمعزل عنها (راجع «حسن الترابي» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

الحزب الشيوعي السوداني: في مطلع ١٩٤٦، تكونت في السودان منظمة شيوعية حملت إسم «الحركة السودانية للتحرر الوطني»، واشتهرت باسمها المختصر «حستو»، على غرار التنظيم الشيوعي المصري «حدتو» (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) الذي تربّى معظم قادة «حستو» في كنفها.

وفيما كان حزب الامة ينادي بانفصال السودان عن مصر، فإن أحزاب «الاشقاء» و«وادي النيل» و«الاحرار الاتحاديين» اسلاف «الحزب الوطني الاتحادي» (وحاليًا «الحزب الاتحادي الديمقراطي»)، نادوا بوحدة وادي النيل (مصر والسودان). أما «حستو» فرفع شعار «الكفاح المشترك للشعبين المصري والسوداني ضد الاستعمار».

وضمت النواة المؤسسة لـ«حستو» مثقفين وطلبة وعمالاً. وقد تميزت «حستو»-والحزب من بعدها (الحزب الشيوعي السوداني)- بمسايرتها للمشاعر الدينية، فكانت مؤتمراتها وندواتها تفتتح بآيات من القرآن الكريم، كما احتل رجال دين اسلامي عدة مقاعد في اللجنة المركزية للحزب، وأمّ المساجد للصلاة كثير من اعضاء الحزب وقياداته. كما ان مواقف الحزب الشيوعي السوداني من القومية العربية والوحدة العربية تميزت بالمرونة والتفهم قياسًا بغيره من الاحزاب الشيوعية العربية. فكانت علاقة الشيوعيين السودانيين بالرئيس المصري جمال عبد الناصر جيدة على الدوام على الرغم من الخصومة الشديدة التي حكمت العلاقة بين عبد الناصر والاحزاب الشيوعية العربية في أكثر الاحيان.

تولى عوض عبد الرازق منصب السكرتير العام لـ«حستو»، لكنه سرعان ما فصل عن الحركة في ١٩٤٩ بسبب تعاطفه مع شعار «وحدة وادي النيل» وميوله «اليمينية»، وحل محله عبد الخالق محجوب فيما احتل الشفيع أحمد الشيخ موقع سكرتير اتحاد نقابات عمال السودان. وفي ١٩٥٣، أسس الشيوعيون تنظيمًا علنيًا لهم اطلقوا عليه إسم «الجبهة المعادية للاستعمار» وتولى قاسم أمين رئاستها، ومثلها في اول جمعية تأسيسية (برلمان) سودانية في ١٩٥٤، حسن الطاهر زروق عن إحدى دوائر الخريجين.

في ١٩٥٩، اعتقل الحكم العسكري (ابراهيم عبود) عددًا من قادة الحزب (الشفيع أحمد الشيخ، عبد الخالق محجوب، الدكتور عز الدين عامر، جوزف قرنق، أحمد سليمان، وغيرهم). وكان الحزب الشيوعي أحد أعمدة الجبهة الوطنية التي تشكلت من الحزب الوطني الاتحادي وحزب الامة والحزب الشيوعي في مواجهة الحكم العسكري. إلا ان الحزب الشيوعي انسحب من الجبهة في ١٩٦٢ معترضًا على السياسات التي اقدمت عليها قيادة هذه الجبهة خاصة بعد وفاة الصديق المهدي، زعيم الانصار والاب الروحي لحزب الامة في ٢ تشرين الاول ١٩٦١.

حول اسلوب اسقاط حكم عبود العسكري (اضراب سياسي عام أو «الكفاح المسلح») انشق فريق صيني الميول عن الحزب الشيوعي السوداني.

في صيف ١٩٦٤، وافقت الحكومة على إنشاء اتحاد لنقابات العمال. وقد انتخبت ٥٥ نقابة من ٦٣ الشفيع أحمد الشيخ سكرتيرًا عامًا مساعدًا للاتحاد. وأعلى اضراب سياسي عام يوم ٢٤ تشرين الاول ١٩٦٤. وبعد يومين، أعلن عبود تخلي المجلس الاعلى للقوات المسلحة عن سلطاته وحل مجلس الوزراء. وشكل سر الختم خليفة الوزارة الجديدة التي ضمت ممثلاً واحدًا عن كل حزب من الاحزاب السياسية السودانية القائمة، حيث مثل احمد سليمان الحزب الشيوعي

السوداني، كما مثل الشفيع أحمد الشيخ اتحاد العمال، وفاطمة ابراهيم اتحاد المرأة والحاج عبد الرحمن اتحاد المزارعين، وجميعهم من الحزب الشيوعي. وهكذا خرج الحزب الشيوعي السوداني إلى العلن، وتضاعف حجم عضويته عما كان عليه عند انقلاب عبود (نحو ٥٠ ألف عضو).

في نيسان ١٩٦٥، جرت انتخابات نيابية حاز فيها الحزب الشيوعي على ١١ مقعدًا عن دوائر الخريجين الـ١٥، من اصل ١٧٣ مقعدًا هي مجموع مقاعد الجمعية التأسيسة.

وتذرعت الحكومة بحجة قوية لحل الحزب الشيوعي السوداني حين اقدم طالب سبق له الانتساب إلى الحزب الشيوعي السوداني إلى مهاجمة الدين الاسلامي. فأمرت الحكومة بحل الحزب الشيوعي ومصادرة ممتلكاته وسحب رخصة صحيفته «الميدان»، وطرد اعضائه من الجمعية التأسيسة، وذلك في حزيران ١٩٦٥. لكن المحكمة العليا في السودان، برئاسة بابكر عوض الله، اصدرت حكمها ببطلان قرار الحكومة السوداني بحل الحزب الشيوعي، وقاد بابكر عوض الله مسيرة شعبية ضخمة طافت شوارع العاصمة السودانية منددة بموقف الحكومة والجمعية التأسيسية هذا.

وعاد الحزب الشيوعي يمارس نشاطه سرًا. وفي ١٩٦٦، جرت انتخابات نيابية لملء مقعد نائب دائرة أم درمان المتوفى ونجح في هذه الانتخابات عبد الخالق محجوب، وسقط في مواجهته أحمد زين العابدين سكرتير الحزب الوطني الاتحادي.

أقرت قيادة الحزب (رغم معارضة فريق منها) الاشتراك في حكومة الانقلاب الذي نفذه «الضباط الاحرار» في ٢٥ ايار ١٩٦٩. ونتيجة للمسار الذي انتهجه الحكم والقاضي بحل كل الاحزاب السياسية في السودان وإحلال «طليعية القوات المسلحة» في الحياة السياسية السودانية، انشق الحزب الشيوعي على نفسه بين جناح موال للسلطة (مكي-ابراهيم-سليمان)، وجناح يتزعمه عبد الخالق محجوب ردًا على مشروع الحكم لحل الحزب بتقديم مشروع جبهة وطنية ديمقراطية. وعقب وفاة عبد الناصر اعتقل عبد الخالق محجوب. واستفحلت الازمة بين الحزب والسلطة بعد تحفظ الحزب على الاتحاد الثلاثي الذي صادقت عليه حكومات مصر وسورية وليبيا في تشرين الثاني ١٩٧٠، واعترض على دخول السودان طرفًا رابعًا في الاتحاد.

أفلح عبد الخالق محجوب في الافلات من سجنه في معسكر الشجرة العسكري. ووقع الانقلاب العسكري الذي قاده هاشم العطا (١٩ تموز ١٩٧١). لكن الدبابات المصرية (وهذا ما تحدثت عنه-من دون نفي-الوسائل الاعلامية العالمية في حينه) تدخلت من جبل الاولياء قرب الخرطوم، كما تدخلت الطائرات الحربية المصرية من مطار وادي سيدنا، وافشلت الانقلاب واعادت السلطة إلى النميري بعد يومين فقط من الانقلاب. وعلى اثر ذلك أعدمت الحكومة السودانية ثلاثة من اعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني: عبد الخالق محجوب، الشفيع أحمد الشيخ وجوزف قرنق، فضلاً عن فريق آخر من الضباط الشيوعيين وغير الشيوعيين الذين كان لهم دور في الانقلاب، وهم: هاشم العطا، بابكر النور، فاروق حمد الله، عبد المنعم محمد أحمد، محجوب ابراهيم، معاوية عبد الحي، محمد أحمد الريح، محمد أحمد الزين، بشير عبد الرازق وأحمد ابراهيم. وانتهى التعاون بين الحكم والجناح المتعاون معه من الشيوعيين (مكي-ابراهيم-سليمان).

بعد اسبوعين من هذه الاعدامات، عاد الحزب الشيوعي مجددًا إلى السرية وانتخبت لجنته المركزية محمد ابراهيم نقد امينًا عامًا للحزب. ومنذ ١٩٧٧، جرت عدة محاولات مصالحة مع الحزب

الشيوعي، على غرار المصالحات التي عقدها حكم النميري مع حزب الامة والحركة الاسلامية (الاخوان المسلمون)، ولكن دون نتيجة تذكر. والجدير ذكره ان الحزب لم يصدر حتى اليوم (وقد مضى ٢٥ عامًا) تقريرًا رسميًا عن تحقيقه في «مذبحة الشيوعيين» (الاعدامات في ١٩٧١).

من الملاحظ (بالمقارنة والتحليل) ان سيرة الحزب الشيوعي السوداني اتجهت من الانفتاح إلى الانغلاق. و«حستو» (الحركة السودانية للتحرر الوطني) كانت تتسع للمطالبين بالاستقلال؛ والجبهة المعادية للاستعمار كانت مناسبة لظروف السودان. ثم بدأ التركيز على «الشيوعي» و«الحزب الشيوعي»، وتزايد في المؤتمر الثالث (١٩٥٦)، ثم المؤتمر الرابع (١٩٦٧)، وهو آخر مؤتمر عقد. ورغم شعار «إجعلوا من الحزب الشيوعي قوة جماهيرية كبرى» فإن القوة الجماهيرية انحصرت في قيادة المنظمات النقابية والفئوية وليس في تكاثر عضوية الحزب الملتزمة. واضاع الحزب فرصة ذهبية في الانفتاح الجماهيري عندما تراجع عن تنفيذ فكرة «الحزب الاشتراكي» الجامع التي طرحت بعد تشرين الاول ١٩٦٤ وايدها عبد الخالق محجوب نفسه في البداية.

بالمقارنة فإن الاسلاميين انتقلوا من الانغلاق إلى الانفتاح. بدأوا بتنظيم «الاخوان المسلمون» في الاربعينات، ثم صاروا «جبهة الميثاق الاسلامي» في الستينات، ووسعوا الدائرة مرة أخرى في الثمانينات حين صاروا «الجبهة الاسلامية القومية». كما انهم اغتنموا الفرصة التي رفضها الشيوعيون ايام النميري واستخدموا حكمه لكي يسيطروا على المدارس وعلى الاقتصاد، وهم يكررون الخطة مع نظام البشير (الحالي) وسوف يغيرون إسم الحزب مرة أخرى عند سقوط البشير كما ألمح د. حسن الترابي.

وقد أدخل انهيار الشيوعية، بالذات في الاتحاد السوفياتي، الحزب الشيوعي السوداني في مأزق فكري خطير. وبرز اتجاهان متناقضان: الاول ويضم معظم شباب الحزب ينادي بالتغيير وإعادة صياغة الحزب على أسس جديدة وحتى تغيير إسم الحزب. والثاني، وعلى رأسه الامين العام للحزب، يتمسك باسم الحزب ومعظم برنامجه. والجدير بالملاحظة ان الحزب لم يعقد مؤتمره الخامس رغم مرور ٢٨ عامًا على المؤتمر الرابع. وتقول إحدى وثائقه ان انقلاب عمر البشير يوم ٣٠ حزيران ١٩٨٩ «اجهض التحضيرات للمؤتمر»، علمًا بأن الفرصة كانت متاحة لعقد المؤتمر بين ١٩٨٥ عندما سقط النميري و١٩٨٩ عندما استولى العسكريون الاصوليون على السلطة، ولكنه لم يعقد.

وهناك نقاش داخلي يدور في أروقة الحزب الشيوعي حول احتمالات المستقبل، ولا يعيبه سوى انه «مفتوح»، بمعنى انه ليس جزءًا من خطة تهدف إلى التوصل إلى رأي أو قرار. وقد ارتفعت معنويات الشيوعيين كثيرًا عندما هرب أمينهم العام، محمد ابراهيم نقد (١٩٩٤) من «الحبس المنزلي» في الخرطوم رغم الرقابة الشديدة التي فرضت عليه، وضاعفوا تصديهم للنظام الحالي بنسبة تزيد عن المتوقع منهم نسبة إلى عدد اعضاء حزبهم وبالمقارنة مع عدد اعضاء الحزبين الكبيرين الأساسيين المعارضين، الامة والاتحادي. وبسبب ظروف تخفي محمد ابراهيم نقد والمطاردة المستمرة له على ايدي اجهزة الامن، برز في الواجهة عضو سكرتيرية اللجنةالمركزية للحزب الشيوعي السوداني التيجاني الطيب (راجع «التيجاني الطيب» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

«التجمع الوطني الديمقراطي»: تجمع معارض للحكم الحالي (١٩٨٩-) مكون من عدد من الاحزاب المعارضة «التقليدية» و«الحديثة». تأسس عقب اطاحة حكومة الصادق المهدي في نهاية حزيران ١٩٨٩، وضم احزاب الامة والاتحاد

الديمقراطي والحزب الشيوعي، ومـا لبثـت الحركـة الشعبية لتحرير السودان بزعامة العقيد جون قرنق ان انضمت إليه في آذار ١٩٩٠.

انجز التجمع مجموعة وثائق دستورية مهمة، ابرزهـا اعـلان نـيروبي واعـلان القـاهرة. وأقـر الدستور البديـل الـذي سيعمل بموجبه بعد تغيير الحكومة الحالية على قاعدة الاقتنـاع بـأن نصوص الدستور تحل اشكالية العلاقة بين الدين والدولـة في السودان وعملية تقاسم الثروة والقرار السياسي بين شمال السودان وجنوبه.

إلا ان التجمع واجهته، في سـنواته الثـلاث الاولى، عقبـات. فالعلاقـة بـين المعارضـة الخارجيـة ممثلة في التجمع، وقيادات المعارضة في الداخـل وفي طليعتها الصادق المهدي زعيم حزب الامة، ومحمـد ابراهيم نقد زعيم الحـزب الشيوعي، وسيد أحمـد الحسين الرجـل الثـاني في الحـزب الاتحـادي، هـذه العلاقة لم يحكمها الانسجام دائمًا خصوصًـا حيـال مسائل شائكة مثل العلاقـة بـين ا لديـن والدولـة، وحق تقرير المصير لجنوب السودان. وجاء «اعـلان واشنطن» في تشرين الاول ١٩٩٣ الـذي اعـترف بحق تقريـر المصـير للجنـوب كأكـبر تحـد للتجمـع (راجع باب «الحكم والمعارضة-كرونولوجيا»).

«اتحاد الاحزاب الجنوبيـة»: وهـو الاتحـاد الـذي يشـارك عـادة في المؤتمـرات (خاصـة مؤتمـر أسمرا) ممثلاً عن الحركة السياسية الجنوبية. ويتـألف من ستة احـزاب هـي: التجمـع السياسـي لجنـوب السودان، حزب الشـعب التقدمـي، حـزب سـانو، مؤتمر الشعب السوداني الافريقي، المؤتمـر الافريقـي السوداني والحزب الفدرالي السوداني. رئيـس هـذا الاتحاد إليابا جيمس سرور. ومـن مجمـل تصريحاتـه قوله: السودان بلد افريقـي وليـس عربيًـا لأن عـدد العرب لا يتجاوز ٣٠٪ من مجمـل سـكانه. وعلـى مـدى تاريخها فـإن البـلاد كـانت تحـت هيمنـة الاحزاب الشمالية التي سـعت بشتى الوسـائل إلى خلق هوية عربية للسودان ودمجـه في عمـوم منطقـة الشـرق الاوسـط. وهـذه السياسـة أدت إلى بلقنـة السودان، دون ان تكون القوى السياسية السودانية الشـمالية واعيـة لذلـك. ووظفـت اللغـة العربيـة لتحقيق تلك الغاية، لكونهـا لغـة الديـن الاسـلامي الـذي تعتنقـه غالبيـة الشـعب السـوداني. وبرأيـه كذلـك ان العلاقـة بـين شمـال السـودان وجنوبـه محفوفـة بالشـكوك ومفعمـة بعـدم الثقـة لاسـباب تاريخية تعود جذورهـا إلى تجـارة الرقيـق، وسياسـة المستعمر البريطاني، ومواقـف الاحـزاب السياسـية الشمالية من سكان جنـوب السـودان. والحـل، في رأيه، يكمن في تأسيس «دولة جديدة علـى قـاعدة حديثـة توفـر العدالـة لكـل ابنـاء السـودان، سـواء أكـانوا مـن الشـمال أو الجنـوب، مـن الشـرق أو الغرب، والاقرار بتعددية البـلاد العرقيـة والثقافيـة، وفصـل الديـن عـن الدولـة، وفتـح بـاب مشـاركة الجميع في صياغـة مسـتقبلهم عـبر نظـام ديمقراطـي يرتكز على أكبر قدر من اللامركزية» (راجع بـاب «جنوب السودان»).

النوبيـون: سـكان جبـال النوبـة، غربـي السـودان. فيهـم المسـلمون والمسـيحيون، والاحيـائيون، أي أصحـاب المعتقـدات الافريقيـة الاصليـة، وهـذه المعتقـدات لا يـزال بعـض مـن طقوسـها متداخـلاً بطقـوس المسلمين والمسيحيين منهم (عن النوبة في التـاريخ، راجـع «أبـرز المواقـع الاثرية في السودان» في باب «مدن ومعالم»).

بـدأ إسمهـم بالـبروز، اعلاميًـا وعالميًـا، عـبر حركتهم السياسـية والعسـكرية المتمثلـة بـ«المؤتمـر النوبـي السـوداني» وبـدء مسـاهمتهم إلى جـانب القـوات الجنوبيـة بقيـادة جـون قرنـق منـذ العـام ١٩٨٤. وهذا المؤتمر عقد عدة اجتماعات له تشير وثائقهـا إلى المنـاداة بالمسـاواة بـين القوميـات والاعـتراف بتمايزهـا وحقهـا في خلـق كيانـات سياسـية مستقلة في إطـار «الوحـدة مـن خـلال

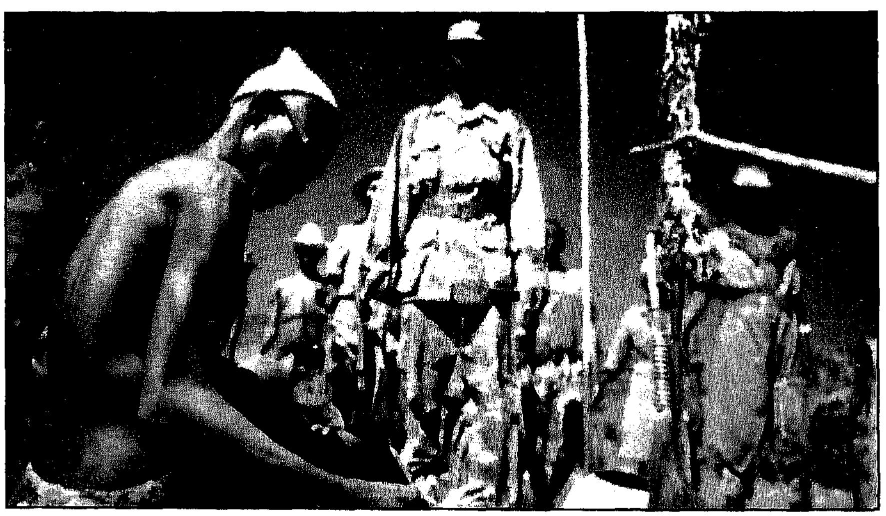
التنوع»، وبديلاً لهيمنة القومية المسيطرة، «إذ إن الاحزاب الحالية تتظاهر بالاعتراف بالقوميات لكن الممارسة الفعلية اثبتت انها تحشر هذه القوميات حشرًا في أطر قومية متسلطة (...) فإن تجربة النوبيين مع القوى الطائفية والقوى الأخرى تؤكد استحالة تطابق مصالح الطرفين».

والمؤتمر النوبي السوداني يؤمن بأنه جزء اصيل وفاعل في حركة القوى الجديد وفي اهدافها وبرامجها، ويؤكد على استقلاليته في استقطاب النوبيين في المهجر وداخل السودان. وآخر اجتماع لهذا المؤتمر عقد في لندن في آب ١٩٩٥.

شهد العام ١٩٩٣ ابرز الاحداث الخاصة بالنوبيين في إطار احداث السودان عامة. ففي شباط، اتهمت المعارضة حكومة الفريق عمر حسن البشير بابادة ستة آلاف مواطن سوداني نوبي، في ليلة واحدة غرب السودان (جبال النوبة)، وبعث أحد زعمائها برسالة عاجلة إلى اللجنة الدولية لحقوق الانسان يطلب ارغام الخرطوم على القبول باجراء «تحقيق مستقل» في هذه الاتهامات التي اوردت إسم ضابط سوداني يعاونه مرتزق من جنوب افريقيا نفذا عملية الابادة هذه. ونفت الحكومة السودانية هذه الاتهامات جملة وتفصيلاً، وانضم إليها، في نفيها هذا، عدد من مثقفي وقادة الجمعيات في منطقة جبال النوبة، فاصدروا (في ١٠ آذار ١٩٩٣) بيانًا جاء فيه ان الانباء التي تتردد عن حدوث عمليات تطهير عرقي لابناء النوبة «تقتضي وجود قوة مسلحة أنشئت على اساس عنصري بغرض تصفية عناصر أخرى».


يوسف كوة.

«كُجور»، حكيم النوبة، يبارك التحاق شبان القرية بـ«الجيش الشعبي لتحرير السودان».



وقال «إن الجيش السوداني قومـي في تكوينـه، ويشكل أبناء النوبة أكبر مجموعة قبلية فيه، وبالتالي لا يمكنه اضطهاد أبناء النوبـة (...) فـالحديث عـن التطهير العرقي في جبال النوبة جاء بعـد ان يئست الاحـزاب مـن العـودة إلى السـلطة فـأصبحت تسـتعدي الـدول والمنظمـات الاجنبيـة علـى السودان». ووقع هذا البيان مسؤولون عن الكنيسة الاسقفية في مدينة كادوقلي (عاصمة الاقليم، جبال النوبة) وهيئـات نوبيـة اسلامية ومسيحية. وكـان نـائب في مجلس العمـوم البريطـاني زار السـودان، ولدى عودته طالب المجتمـع الـدولي بالاسـتمرار في الضغـط على الخرطـوم وبـاجراء تحقيـق دولي في مـا يحدث في جبـال النوبـة. فـردّ عليـه بيـان النوبيـين المذكور: «نؤكد ان تدويل مشكلة جبال النوبة لن يفيد شيئًا، فقد عانينا في منطقــة جبـال النوبـة مـن جرائم الاستعمار البريطاني الذي جعل هذه المنطقة مقفولة، ما تسبب في تخلفهـا بصـورة مزريـة. فمـا الذي يجعـل بريطانيـا صاحبـة الارث الاسـتعماري القبيح تتباكى على جبال النوبة!».

وفي ايلـول ١٩٩٣، دعـت منظمـة اطلــق عليها إسم «تجمع ابناء جبال النوبة» إلى تظاهرة في الخرطـوم للاحتجـاج علـى «التجـاهل والتهميـش الذي عامل به الاستعمار البريطاني» منطقـة جبـال النوبـة في غـرب السـودان، وطـالبت في مذكـرات سـلمتها إلى السـفارتين البريطانيــة والاميركيــة بتعويضــات ماليــة للمنطقــة عــن فــترة الحكــم الاستعماري وتجارة الرقيق بهدف تنميتها. وأعلنت الخرطـوم انهـا ستسـمح للمقـرر الخـاص لحقـوق الانسان التابع للامم المتحدة، كاسبارو بيرو، الذي بدأ زيارة إلى السودان (١٢ ايلول ١٩٩٣) بزيـارة جبـال النوبـة و«الاطــلاع بنفســه علــى الوضــع الانساني هناك». وكان يوسف كـوة، أحـد قـادة منطقة جبال النوبـة وقـائد قـوات قرنـق في المنطقـة اتهـم الحكومـة بأنهـا تشـن حمـلات منتظمـة علـى منطقـة جبـال النوبـة بهـدف منـع المواطنــين مــن الانضمام إلى الحركة. ولم يأت على ذكر «حـرب الابـادة» أو «التطهـير العرقـي» رغـم معارضتـه للحكومة وانضمامه للجنوبيين وقيادته لحركة نوبية سياسية وعسكرية ثائرة ومنضمة للمعارضة بقيـادة جون قرنق.

الوضع الحالي للنوبة علـى لسـان إثنـين مـن قيادييها، مختلفين في نظرتهما وفي موقفهما: يوسف كـوة ومحمـد هـرون كـافي، ومـن خـلال حـوار أجراهما معاوية يس ونشرتهما «الوسـط» (العـدد ٢٣٣، تـاريخ ١٥ تمـوز ١٩٩٦، ص ٢٠-٢٢)، وأهم ما جاء فيه بعد تعريف بالرجلين:

أعلن محمد هرون كافي، أحد أبـرز مثقفـي جبال النوبة (غرب السودان) انشقاقًا عن «الجيـش الشـعبي لتحريـر السـودان» الـذي يتزعمـه العقيـد جون قرنق. وحدا اعلانه بحلفائه السابقين إلى رميه بالعمالة والارتماء في احضان حكومـة الفريـق عمـر البشير، خصوصًا انه أبدى استعدادًا للتفـاوض مـع الحكومة لاحلال السلام في المنطقة التي تحاربها منذ ١٩٨٤. واعتبر قائده المباشـر الكومـاندور يوسـف كـوّة مكـي ان الانشـقاق نـاجم عـن خصومـات شخصية وانه لن يؤثر في التحالف بين ابنـاء جبـال النوبة والجيـش الشـعبي الـذي تتـولى قيادتـه جماعـة معظمها من ابناء قبيلة الدينكا كبرى قبائل الجنوب السوداني.

ومحمـد هـرون كـافي صحـافي وبـاحث معـروف في السـودان، ألّـف كتابًـا عـن شـخصية اجتماعية في جبال النوبة وهو «الكجور». وهـاجر في ١٩٨٠ إلى المملكـة العربيـة السـعودية، وبعـد خمس سنوات انضم إلى ابناء عرقـه الذيـن اختـاروا حمل السلاح بوجه الحكومة المركزية.

أمـا يوسـف كـوة فقـد تخـرج في جامعـة الخرطوم وعاد إلى جبال النوبة حيث انتخـب نائبًـا عـن إحـدى دوائـر هـذه المنطقـة في برلمـان اقليـم كردفان إبان حكم الرئيـس النميـري. وأثنـاء تمتعـه بحصانتـه النيابيـة غـادر مدينـة الابيـض، عاصمـة

كردفان، لينضم إلى قرنق ويؤسس أول قوات نوبية مناوئة للحكومة المركزية. وككل المثقفين والسياسيين في السودان، تبادل كوة وكافي اتهامات بالعمالة وإجراء اتصالات سرية مع الجبهة الاسلامية القومية التي تحكم السودان. وموقفهما هذا يكشف عمق الخلاف بين أبناء جبال النوبة في شأن تحالفهم مع المتمردين الجنوبيين.

ومما قاله يوسف كوة: «كل ريف جبال النوبة بيدنا (أي بيد الجيش الشعبي الذي يتزعمه كوة تحت القيادة العامة لجون قرنق)، لكن المدن الرئيسية بيد الحكومة (...) هناك اتفاق سلام بيننا وبين ميليشيات عرب البقارة (رعاة البقر). وقد اقنعناهم بان الحرب ليست بين نوبة وعرب وإنما هي بين النوبة والحكومة. وهذا الاتفاق ساري منذ ١٩٩٣ (...) منذ ١٩٩٤، تحاول الحكومة اقناعي بالسلام (...) فقلت لرسلها أننا حتى إذا أوقفنا حرب النوبة فإن حرب الجنوب لن تتوقف. وعندما يئس مني هؤلاء الاخوة ذهبوا إلى كافي الذي وجدوا فيه ضالتهم. وهو لا يقود أي قوات، وما يعلنه هو استسلام (...) بعد انشقاق الدكتور مشار (راجع باب «جنوب السودان»). عن الحركة الشعبية لتحرير السودان التي يتزعمها قرنق، عقدنا مؤتمرًا في اول تشرين الاول ١٩٩٢ حضره ممثلو كل مناطق جبال النوبة الخاضعة لسيطرتنا بدعوة مني. وسألتهم تحديدًا: نواصل القتال أم نوقف الحرب؟ فقرروا بالاجماع استمرار القتال (...) نحن مؤيدون للوحدة. وتقرير المصير لا يعني الانفصال. نريد اقتسام السلطة بالتساوي على كل اقاليم البلاد والثروة بطريقة عادلة. أتركوا كل منطقة تحدد مصيرها بعيدًا عن هيمنة الثقافة العربية. هذا ليس عداء للعرب. هل النوبة عرب؟ أنا لست عربيًا. لكن ذلك لا يمنع أنني اتذوق أم كلثوم وأقرأ اشعار العرب واتكلم العربية وحتى إذا طالبنا بإقامة دولة مستقلة في جبال النوبة فستكون العربية هي لغتها الرسمية. لسنا عربًا ولا نعاني مشكلة هوية، وليست بيننا صراعات دينية. فأنا مسلم وزوجتي مسيحية. هذا التسامح نريد له ان يستمر، ولهذا نقاتل».

أما محمد هرون كافي (المنشق والمتعامل مع الحكومة في الشمال) فقال: «مع ان ابناء النوبة يشكلون نسبة كبيرة من قوات الحركة الشعبية لتحرير السودان حسب اعتراف العقيد قرنق، إلا انه ليس هناك تكافؤ داخل الحركة. فنحن نقاتل في جبالنا، ونقاتل مع قرنق في الجنوب، ونشارك مع ابناء منطقة جبال الأنقسنا (جنوب النيل الازرق)، لكننا مهمشون داخل الحركة (...) كل الاتفاقات التي ابرمتها الحركة مع قوى شمالية معارضة تخلو من نصوص واضحة في شأن جبال النوبة (...) أساس خلافي مع يوسف كوة أنني طالبته بان يكون دخول جبال النوبة في الحركة الشعبية موثقًا باتفاق خطي يحدد التعاون وأسسه، والأهم ماذا سنحصل عليه في نهاية الحرب؟ لكنه رفض وبدأت الكارثة باننا دخلنا حرب التحرير من دون برنامج. ومن أبرز اسباب الخلاف انه غير راضٍ على محاولاتي المستمرة للحصول على إجابة منه عن مصير ١٦ شخصًا من أبرز قادتنا ومثقفينا اعدموا في ظروف غامضة (...) احزاب الشمال المتحالفة مع قرنق لا تساهم بسلاح ولا رجال ولا مال. إنها مشاركة سياسية فحسب. وإذا كنا اتهمناها بعد سقوط النميري بسرقة الانتفاضة، فهي الآن تستعد لسرقة النضال والثورة. كل منها يوقع اتفاقًا مع قرنق على حساب شهدائنا. منطقتنا منذ ١٢ عامًا لا يوجد فيها تعليم ولا صحة ولا تنمية وتقدم كل عام مئات وآلاف الشهداء. لذلك كله رأينا ان نطرح قضيتها بمعزل عن طرح قرنق (...) اسمنا الرسمي هو الحركة الشعبية-الجيش الشعبي لتحرير السودان- قطاع جبال النوبة (اللجنة المركزية)، ونحن متمسكون باسم الحركة لاننا ساهمنا فيها بدماء شهدائنا».

مدن ومعالم

*** أبرز المواقع الاثرية في السودان:** إضافة إلى ما ورد في «الخرطوم» (في هذا الباب، مدن ومعالم)، يمكن ايجاز هذه المواقع كما يلي:

هناك منطقة الحماداب الغنية جدًا بالآثار وتمتد من مدينة ابو حمد حتى مدينة كريمة في شمالي السودان، والعمل جار لانقاذ هذه الآثار من خزان حماداب الذي يهددها والذي هو ضرورة ملحة لايجاد تنمية وفرص عمل عديدة.

كما ان هناك خطة أخرى لانقاذ الآثار التي ستتعرض للدمار عند الشروع في تنفيذ «طريق التحدي» الذي يربط بين مناطق الجيلي والخرطوم وعطبرة وكلها مناطق غنية بالآثار.

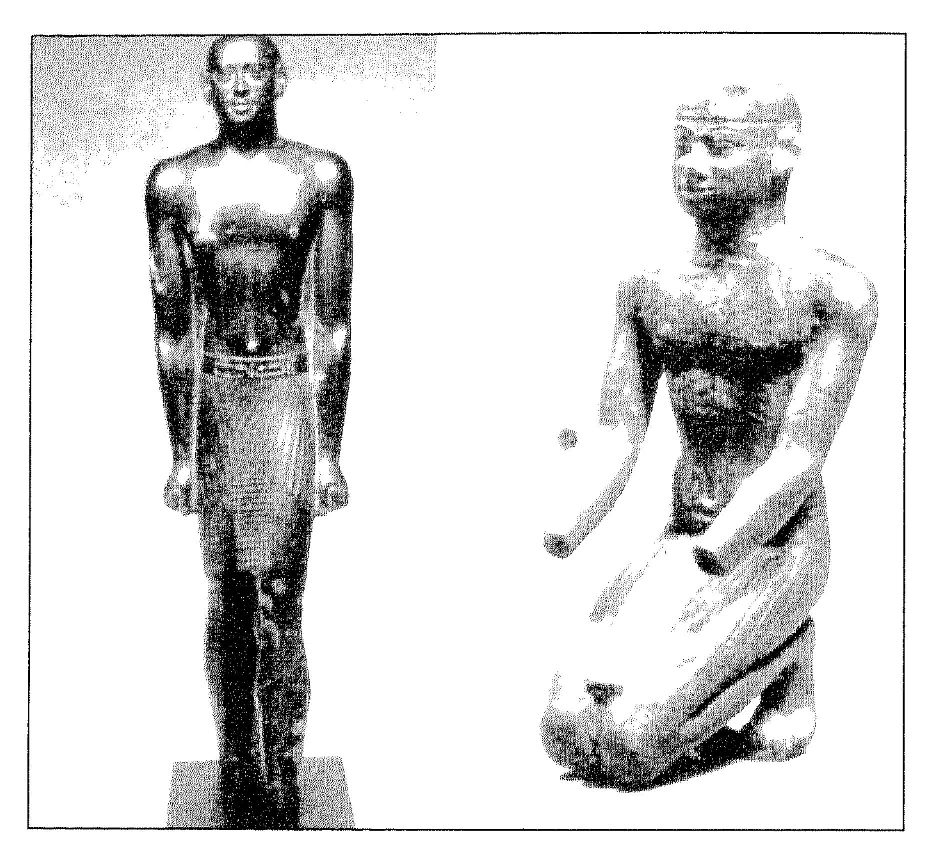
وهناك مواقع اثرية تسمّى «مواقع استراتيجية» لأنها في غاية الأهمية ليس للتاريخ السوداني فحسب بل للتراث الافريقي والانساني بأكمله. ومن أهم هذه المواقع مدينة كرمة شمالي السودان حيث يعمل خبير الآثار السويسري تشارلس بونيه منذ نحو ٣٠ سنة، وهو يحضر إلى السودان سنويًا ومعه فريق عمل متكامل ويمضي شهورًا في منطقة كرمة. وتتولى حكومة بلاده تمويل الحفريات التي اثبتت ان الحضارة التي قامت في هذه المنطقة عرفت فكرة المدينة منذ حوالي ٢٦٠٠ق.م. إذ كشفت عن وجود مدينة متكاملة بها اسوار دائرية ومداخل واستحكامات عسكرية وقصر ملكي ومنطقة عسكرية واخرى صناعية ومستودعات وميناء واسواق. وقبل الخبير السويسري، عمل الخبير الاميركي جورج رايزنر من ١٩١٢ إلى ١٩٢٣، واذهلته الآثار الموجودة في كرمة. لكنه رفض ان يعترف بانتماء هذا التراث إلى الانسان الافريقي، فزعم ان الرجل الابيض كان اقام مستعمرة في هذه المنطقة وأنشأ تلك الحضارة. غير ان الحفريات اثبتت النقيض تمامًا.

ومن الحضارات المهمة في السودان والمنطقة الافريقية بصفة عامة حضارة مروي التي قامت في مناطق جبل البركل والكرو ونوري، بالاضافة إلى عاصمة المرويين وهي ما يعرف حاليًا بمنطقة كبوشية شمالي مدينة شندي. ومن المواقع الدينية المهمة للحضارة المروية في السودان ما يعرف بـ«المصورات الصفراء»، شمال شرقي شندي، وكذلك من الخرطوم حتى منطقة موية القريبة من مدينة سنار.

كما توجد مواقع أثرية مهمة في منطقة البحر الاحمر (شرقي السودان) لأن هذه المنطقة كانت أهم بوابة لدخول الحضارة العربية الاسلامية إلى السودان، وذلك عبر الموانىء التاريخية القديمة مثل باضع وعيداب (شمالي مدينة حلايب) وسواكن.

وقام فريق عمل اثري بالبحث والتنقيب في منطقة حلايب بين ١٩٧٨ و١٩٨٩، وتمكن من اثبات وجود أثار ميناء عيداب التاريخي الشهير بعدما دفنته الشعاب المرجانية، وهو ميناء اسلامي كان الحجاج يمرون به من مناطق مختلفة مثل دول المغرب العربي، ومن شرقي وغربي وشمالي افريقيا، واحيانًا من الشام عندما اغلق الصليبيون موانىء فلسطين. ومن ابرز الشخصيات التي مرت بهذا الميناء الاثري في القرن الثالث عشر الشيخ ابو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية. كما اشتهرت عيداب بوجود أحد أكبر المساجد في العالم الاسلامي آنذاك وهو جامع القسطلاني. وورد ذكر هذا الميناء في امهات كتب التراث العربي، ومؤلفات الرحالة الكبار امثال ابن بطوطة والمسعودي والطبري وابن حوقل وابن خلدون.

كثيرة هي الآثار السودانية الموزعة على متاحف عديدة في العالم. وقد نظّم المعهد العربي في باريس معرضًا خاصًا بـ«ممالك على النيل» (آذار-آب ١٩٩٧) جمع ٤٦٠ تحفة اثرية سودانية من متاحف الخرطوم وبوسطن وفيلادلفيا



تمثال يعود الى السلالة الخامسة والعشرين

تمثال برونزي (القرن السابع ق.م.)

نقوش على جدران معبد دير البحري (١٤٨٠ ق.م.)



ونيويورك وبرلين وميونخ، تعود أولاها إلى العصور الحجرية (العصر النيوليتي في الألف السادس ق.م.). حول هذه الآثار المعروضة في معرض المعهد العربي في باريس، جاء في «الحياة» (العدد ١٢٤٣٩، تاريخ ٢٠ آذار ١٩٩٧، ص ٢١):

عرف السودان منذ زمن بعيد، وذكرت النوبة الممتدة من الشلال الاول شمالاً إلىالخرطوم جنوبًا، في نصوص اليونانيين والرومان امثال هيرودوتس وسترابو وديون كاسيوس وبلليني. إلا ان الفضل يعود إلى البريطاني جيمس بروس في التعرف إلى اول موقع اثري في السودان هو موقع مروي، في حقل اهرام بجراوية الواسع في ١٧٧٢. كما ساهمت حملة محمد علي العسكرية في ١٨٢١ التي شارك فيها عدد من المرتزقة الاوروبيين والمغامرين المهتمين بالآثار والكنوز في اعادة اكتشاف بلاد النوبة. وكان بين هؤلاء الطبيب الايطالي جيوسيبي فرليني الذي عاد إلى السودان في ١٨٣٤ وعثر، في مروي، على كنز الملكة امانيشاخيتو الشهير المعروض كاملاً في معرض باريس.

ومن الرواد في علم الآثار النوبي، الفرنسي فريدريك كايو الذي وضع كتابًا في الموضوع (١٩٢٦). ويعتبر ج.أ. رايسنير من بوسطن بمثابة والد علم الآثار السوداني في المرحلة المعاصرة. فهو بدأ وقاد الحملة الدولية الاولى إلى بلاد النوبة في ١٩٠٧، كما عمل من ١٩١٢-حتى ١٩٣٢ في مواقع اثرية اخرى في السودان. ومنذ ان بدأ اكتشاف المواقع الاثرية في السودان وحتى عهد قريب جدًا، ظلت الحضارة السودانية تشكل فرعًا من علم الآثار المصرية ولم ينظر إليها سوى من منظور مصري.

خلال المرحلة الوسيطة برزت مملكة نبتة، المملكة النوبية الاولى بين ٢٤٠٠-١٥٠٠ق.م. التي امتد نفوذها من الشلال الثالث حيث قامت عاصمتها إلى الشلال الرابع. وتكشف التحف الاثرية عن تفاصيل الحياة والعادات في بلاد النوبة في ا لمراحل المختلفة: عندما كانت تقيم العلاقات التجارية مع مصر مرسلة إلى الشمال الذهب المستخرج من مناجمها الغنية والعاج والابنوس والبخور من افريقيا الوسطى، وعندما احتلها المصريون في الألف الاول ق.م.. وشهدت المرحلة الامبراطورية الفرعونية على نشاط معماري كبير. فتوسعت القلاع في منطقة النوبة السفلى لتستقبل جاليات أكبر من المصريين. وعمل جميع الفراعنة على بناء معابد لهم في النوبة. وهناك مملكتان نوبيتان مستقلتان: مملكة نبتة التي بقيت في التاريخ القوة النوبية الوحيدة التي تمكنت من التغلب على مصر والسيطرة عليها على مدى قرن تقريبًا (٦٥٦-٧٥٠ق.م.)، ثم مملكة مروي التي استمرت من القرن الثالث ق.م. حتى القرن الرابع الميلادي، وعرفت ازدهارًا وطورت كتابة لا يزال علماء الآثار يعملون على حل رموزها.

*** أبو حمد:** راجع «أبرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

*** أم درمان («القبة» والمعركة):** عاصمة الدولة المهدية ١٨٨٥-١٨٩٨. أهم تجمع سكني بعد الخرطوم العاصمة، وهي قريبة منها وغالبًا ما تعتبر ضاحية من ضواحيها مثلها مثل خرطوم الشمال (راجع «الخرطوم» في هذا الباب).

معلمها التاريخي (ولا يزال) الاساسي يدور حول كونها عاصمة المهديين، وأهم تجمع للأنصار، و«القبة المهدية» وما يتعلق بها من معاني ومعتقدات دينية، ومن أحداث أحصها المعركة التي استبسل بها المهديون قبل انكسارهم على يد القائد البريطاني لورد كيتشنر في ١٨٩٨.

في ٢٢ حزيران ١٨٨٥، توفي الامام محمد أحمد المهدي في أم درمان، ودفن في مكان فراشه



انسحاب الخليفة عبد الله من معركة ام درمان في ١٨٩٨.

رسم ر.ت. كيلي («الوسط»، العدد ١٢٦، تاريخ ٢٧ حزيران ١٩٩٤، ص١١).

داخل الغرفة التي اسلم فيها الروح، وهي واحدة من غرف بيته المتواضع المبني من الحجارة والطين. وأمر خليفته عبد الله على الفور ببناء قبة فوق قبر المهدي وعلى كل ركن من اركانها الاربعة برج صغير. وتولى بناء القبة (وفي ما بعد قصر الخليفة عبد الله ذي الطابقين وكذلك المسجد المعروف باسمه حتى الآن في أم درمان وليس بعيدًا عن القبة) مهندس ايطالي وقع في الأسر عند سقوط الخرطوم على يد المهدي واشتهر باسم «المهندس»، وقد بقي في أم درمان طيلة فترة المهدية واعتنق الاسلام وتزوج سودانية.

بقيت قبة المهدي طيلة فترة المهدية رمزًا لشموخ الثورة ومحورًا للممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية إلى ان وصل إلى مشارف أم درمان، في ايلول ١٨٩٨، القائد البريطاني لورد كيتشنر سردار الجيش المصري على رأس قوات بريطانية ومصرية قوامها نحو ٣٠ ألف رجل وتساندها عشر بوارج نهرية مسلحة بالمدافع الثقيلة، ومقاتلون غير نظاميين من القبائل السودانية المتمردة يقودهما ابراهيم بك فرح زعيم قبيلة الجعليين، وعبد العظيم خليفة من قبيلة العبابدة وميسرة ابن الزبير باشا. وكان كيشتنر مدفوعًا بنزعة الانتقام لمقتل الجنرال غوردن على ايدي الانصار المهديين إضافة إلى المخطط الاستعماري.

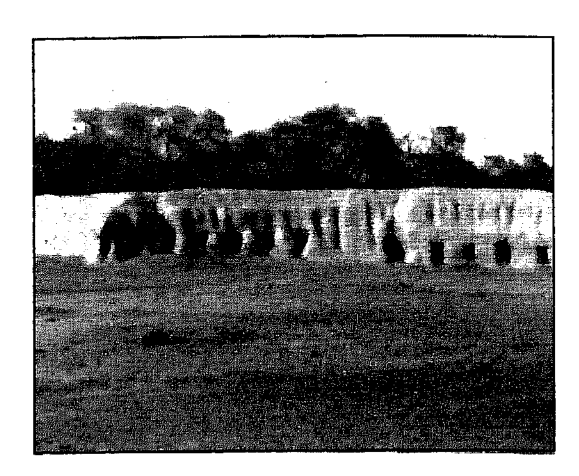
أمر كيتشنر البوارج بأن تنتقل إلى الضفة الشرقية للنيل قبالة أم درمان وامطرتها بالقنابل فأطاحت قمة القبة. فهاج الانصار، وخرج الخليفة عبد الله بجيشه وكان مؤلفًا من ٥٢ ألف مقاتل مسلحين بالبنادق العتيقة والسيوف والرماح والفؤوس. ودارت، في ٢ ايلول ١٨٩٨، حرب طاحنة، وحمل رهط الخليفة من فرسان قبائل البقارة اعباء القتال بصفة خاصة، وهم الذين استأثروا بعد موت المهدي بالحكم، سلطة وثراء، وكانوا في الماضي وقود الثورة وجنودها الذين حملوا ألويتها من كردفان ودارفور حتى غرسوها فوق قصر غوردن في الخرطوم. واستغرقت المعركة سبع ساعات بلغت خسائر الانصار فيها أكثر من ١٠ آلاف قتيل مقابل ٥٠٠ من جيش كيتشنر.

عهد كيتشنر إلى ميجر غوردن ابن شقيق الجنرال غوردن بتنفيذ أمره بتدمير القبة. ففي كتاب «تاريخ السودان» لمؤلفه نعوم بك شقير، وهو شاهد عيان، هذه الرواية: «لغمت القبة فسقطت إلى الارض و لم يبق قائمًا منها إلا اركانها الاربعة. ونبش قبر المهدي واخرجت جثته فحمل رأسه إلى معرض التحف بلندن وبعثرت عظامه».

ومما قيل وروي ايضًا (مسنودًا بوثائق، خاصة لجهة الصحافة البريطانية والاميركية الصادرة في تلك الايام) نقله الكاتب السوداني محمد خيري البدوي («الحياة»، عدد ١٠ آب ١٩٩٣) وجاء فيه:

يقول ولفرد بلنت، في يومياته، ان ميجر غوردن احضر رأس المهدي إلى كيتشنر للاحتفاظ به بين مقتنياته. ولكن بعض حاشيته اقترحوا عليه وضع الرأس في اطار من الذهب أو الفضة لاستخدامها كمحبرة أو كوب للشراب. وارتاح كيتشنر للفكرة في بادىء الامر ثم عدل عنها وقرّر، كما ذكر بلنت، ارسال الرأس إلى متحف كلية الجراحين الملكية في لندن لعرضها مع احشاء نابوليون التي نقلت إلى المتحف المذكور بعد وفاة صاحبها في جزيرة سانت هيلانة.

وعلى الرغم من فرحة الرأي العام في بريطانيا بالانتقام من قتلة الجنرال غوردن ثارت موجة استياء عارمة بسبب الاعتداء الوحشي على قبر المهدي خاصة في اوساط المثقفين والراديكاليين، وشنت الصحافة في لندن واميركا هجومًا عنيفًا على كيتشنر. وزاد من حدة الحملات الصحافية هذه اكتشاف تصرفاته الوحشية اثناء معركة كردي وبعدها، إذ أهمل جرحى الانصار وتركهم ليموتوا في ارض المعركة من دون اسعافهم الامر الذي يخالف التقاليد العسكرية والانسانية المتعارفة.



حصون المهدية في ام درمان.

كما اعتبرت الصحافة البريطانية والاميركية كيتشنر مسؤولاً عن المذبحة التي ذهب ضحيتها مدنيون كثيرون في أم درمان عندما أباح المدينة لجنوده عدة ايام بعد المعركة وانسحاب الخليفة عبد الله. وفي البرلمان البريطاني وجدت الحكومة نفسها في موقف عصيب للغاية، إذ انهالت عليها الاستجوابات والاستنكار من كل جانب.

لاقى كيتشنر حتفه غرقًا عندما نسف الالمان السفينة التي تقله خلال الحرب العالمية الاولى، وكان آنذاك وزيرًا للحربية. ونظم إقبال، الشاعر الهندي المسلم، قصيدة اظهر فيها الشماتة إذ جاء فيها مخاطبًا كيتشنر الذي لم يعثروا على جثته: «لقد حرمك الله من قبر في الدنيا لأنك نبشت قبور الاولياء والصالحين»، في اشارة واضحة إلى اعتداء كيتشنر على قبة المهدي ورفاقه.

في منتصف الاربعينات، أعيد بناء قبة الامام المهدي بعد ان ظلت اطلالاً وانقاضًا متراكمة داخل سور عال من الحجارة ولم يكن يسمح لأحد بالدخول إليها. وقد أعيدت على نحو ما كانت عليه وألحقت بها بعض المرافق بينها استراحة لامام الانصار. وأضيف عليها في عهد الرئيس جعفر النميري مسجد بني على نفقة الدولة. وموقع قبر المهدي ظاهر داخل القبة وإلى جانبه مراقد ثلاثة من خلفائه هم نجله عبد الرحمن، ثم الصديق والهادي حفيدا المهدي. أما الخليفة الاول عبد الله فإنه مدفون في المكان الذي لاقى فيه مصرعه بالقرب من مدينة كوستي الحالية.

احتلت القبة، منذ ١٩٩٣ (ولا تزال) مركزًا في الجدال والأخذ والرد نتيجة وضع السلطات يدها عليها «باعتبارها أثرًا تاريخيًا وقوميًا ولا يجوز ان تبقى جهوية» كما كانت عليه منذ الاربعينات، أي مركزًا لنشاط الانصار طائفيًا وسياسيًا. ومحور الجدل ان هذا الاجراء الحكومي موجه ضد الصادق المهدي، أحد أكبر زعماء المعارضة.

من آثار أم درمان «حصون المهدية» التي تمّ تشييدها كجزء من المقومات الدفاعية لمدينة أم درمان خلال حركة التمرد التي قام بها المهديون في وجه الادارة العثمانية-المصرية.

* **إيود:** راجع «مدن المعقل والبوس الجنوبية الثلاث» في باب «جنوب السودان».

* **باضع:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

* **البركل:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

* **بور سودان:** مدينة سودانية ومرفأ على البحر الاحمر. تبعد ١٢٠٠كلم عن العاصمة. تعد نحو ١،٢ مليون نسمة. تربطها بداخل البلاد خطوط سكة حديد. وميناؤها هو الميناء الاساسي في البلاد، وعليه مصفاة لتكرير النفط يصل إليها خط أنابيب من الخرطوم.

* **حلايب:** راجع باب «مثلث حلايب»،

و«أبرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

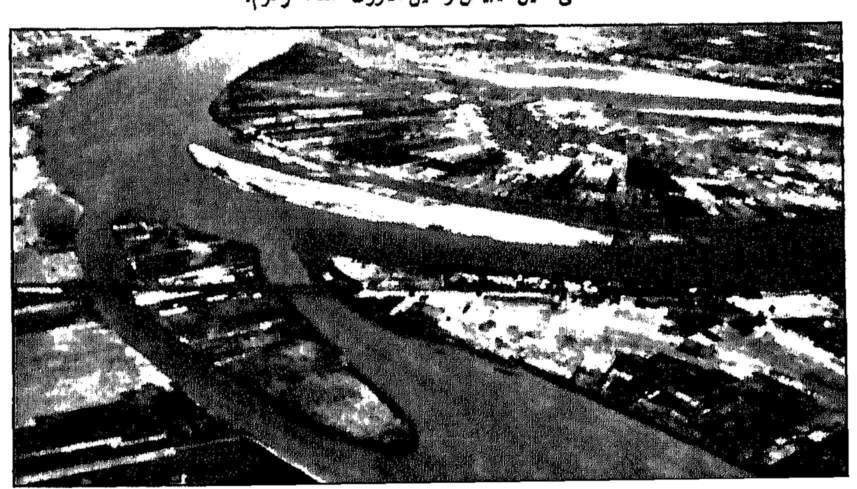
*** الحماداب:** راجع «أبرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

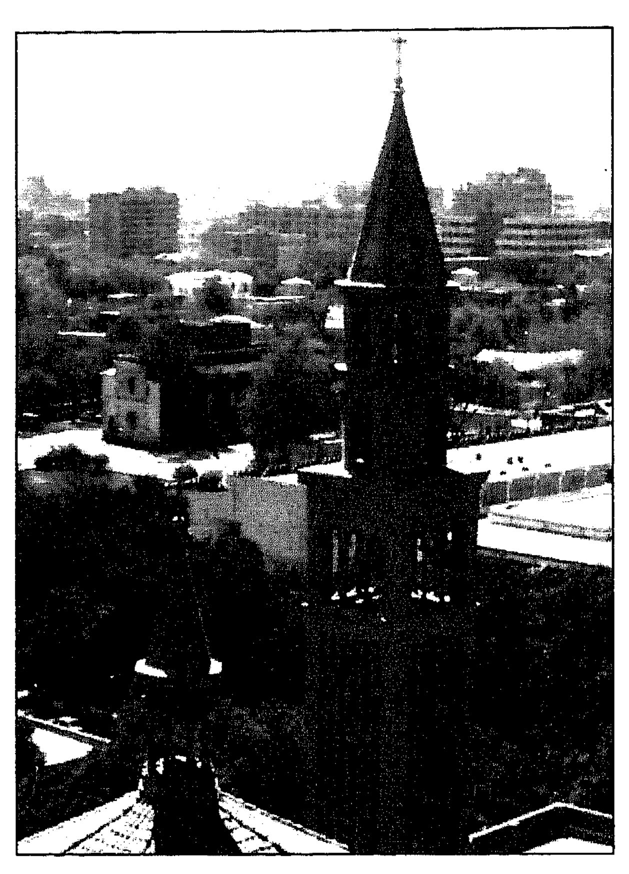
*** الخرطوم (المتحف ودار الوثائق):** عاصمة السودان، تقع عند ملتقى النيل الابيض والنيل الازرق. يصلها بخرطوم الشمال (ضاحية صناعية) جسر على النيل الازرق، وبأم درمان جسر على النيل الابيض. تعد نحو ١،٨ مليون نسمة، وتعد نحو ٥،٥ مليون مع ضاحيتها خرطوم الشمال ومع أم درمان. جامعة. مركز تجاري. عقدة مواصلات. صناعات نسيجية، غذائية وإسمنتية.

كانت معسكرًا انشأه محمد علي في ١٨٢١. لكنها سرعان ما نمت بسبب موقعها البالغ الاهمية. دخلها المهديون إبان ثورتهم منتصرين على القائد البريطاني غوردن (الذي قتل) في ١٨٨٥، وجعل المهديون أم درمان عاصمة لهم. استعادها الحاكم البريطاني كيتشنر في ١٨٩٨ وأعاد بناءها وفق الطراز الحديث، وأصبحت عاصمة السودان طيلة الحكم الثنائي البريطاني المصري، ولا تزال مع الاستقلال الذي بدأ في ١٩٥٦ (راجع «أم درمان» في هذا الباب).

من معالم الخرطوم الرئيسية **متحف السودان القومي** الذي أنشىء في ١٩٦٥ في موقع بارز على ضفاف نهر النيل عند ملتقى النيل الابيض بالنيل الازرق إلى الغرب من حديقة الحيوان وعلى الطريق الرئيسي الذي يربط الخرطوم بمدينة أم درمان. وتكمن اهمية المتحف في القيمة التاريخية لموجوداته والقطع الاثرية المعروضة داخل خزائنه الزجاجية، بالاضافة إلى عدد من المعابد النوبية القديمة التي نقلت إلى فناء المتحف من مواقعها الاصلية في ارض النوبة اقصى شمالي السودان التي غمرتها مياه السد العالي وهي تغطي مساحة نحو ١٩٠ كلم م. داخل الاراضي السودانية، وكانت تلك المنطقة من اهم المناطق الاثرية في السودان إذ كانت توجد فيها آثار الحضارات وبقايا المدنيات من العصر الحجري الاول إلى عهد السلطنة الزرقاء وحتى الحملة التي قام بها محمد علي باشا لفتح السودان. وفي اطار حملة قامت بها مصلحة الآثار في السودان لانقاذ آثار النوبة من مياه السد العالي تمّ نقل اربعة من المعابد النوبية القديمة من مواقعها الاصلية وأعيد بناؤها في فناء المتحف القومي بالطريقة نفسها التي كانت عليها في الاصل. وهذه المعابد هي معبد بوهين، ومعبد سمنة غرب، ومعبد سمنة شرق، ومعبد عكشة.

ملتقى النيل الابيض والنيل الازرق عند الخرطوم.





كنيسة تجاور مبنى وزارة الخارجية السودانية في الخرطوم (مبنى الاتحاد الاشتراكي سابقاً).

ويضم المتحف القومي في الجانب الايمن من فنائه خمسة اعمدة من الغرانيت تم احضارها من كنيسة فرس الواقعة في القرية التي تحمل هذا الاسم، وقد اختفت من الوجود نتيجة اغراقها بمياه السد العالي. وتقول المراجع التاريخية ان هذه القرية كانت اول قرية سودانية من الشمال مباشرة بعد الحدود السودانية المصرية. وفي الطابق العلوي صالة مخصصة للعصر المسيحي وتضم مجموعات من اللوحات والجداريات الكنسية جُمع معظمها من كنيسة فرس قبل ان تغرقها مياه السد.

وهناك متحف آخر في الخرطوم هو متحف التراث الشعبي. والجدير ذكره ان في أم درمان متحف بيت الخليفة عبد الله، وفي مدينة الابيض (غربي البلاد) متحف شيكان، وفي مدينة الفاشر (غربي البلاد) متحف السلطان علي دينار، وفي كريمة متحف جبل البركل، ومتحف في مدينة جوبا.

وفي الخرطوم معلم ثقافي بالغ الاهمية هو «**دار الوثائق القومية السودانية**» التي تحتل مبنى عتيقًا قبالة «دائرة المهدي» على شارع الجمهورية. كانت تعتبر مرفقًا اداريًا مستقلاً، وتعمل وفق قانون خاص بها صدر في ١٩٦٥ وبقي ساريًا حتى صدر قانونها الحالي في ١٩٨٥. وكانت تسمى إبان الاستعمار البريطاني «مكتب محفوظات السودان». وتؤكد المصادر التاريخية ان فكرة حفظ الوثائق تعود إلى ١٩١٦، غير انها لم تدخل حيز التنفيذ إلا في ١٩٢١ عندما كونت اول لجنة لجمع الوثائق والاوراق الرسمية الحكومية. وتحتفظ الدار بأكثر من ١٠ ملايين وثيقة مقسمة على ١٠٥ مجموعات ارشيفية تحتوي على صحف ومخطوطات وملفات ادارية وتقارير سرية ووثائق مؤتمرات مهمة ومطبوعات متنوعة. وهناك مئات

الوثـائق الـتي تتنـاول عهـد دولـتي الفونـج والفـور بالاضافـة إلى فـترة الحكـم الـتركي للسـودان (١٨٢١-١٨٨٤). ولدى الدار مئات الوثائق الـتي تؤرخ لمراحل تطور العاصمـة السـودانية الخرطـوم عـبر مختلـف العصـور، والاحـداث التاريخيـة الـتي جرت في أم درمان والخرطوم إبان الاستعمار.

وكان للوثائق والمستندات التي وفرتهـا دار الوثائق السودانية للجانب المصري اثنـاء نزاعـه مـع اسرائيل حول منطقـة طابـا دور حاسـم في تـأكيد مصريـة طابـا، الامـر الـذي اضطـر هيئـة التحكيـم الدولية إلى حسم النزاع لصالح مصر ما اثار حفيظة الاسرائيليين حتى ان محـاميهم لوثـر بـاخت، وهـو يهودي بريطاني، احتج لدى رئيس المحكمة وطالبـه بعدم الأخذ بمـا جـاء في المسـتندات الـتي احضرهـا الجـانب المصـري مـن الخرطـوم وقـال: «إن مبـدأ تكـافؤ الفـرص بيننـا غـير موجـود. فـالمصريون اسـتطاعوا ان يذهبوا إلىالخرطـوم بينمـا نحـن لا نستطيع ان نذهـب إلى هنـاك للاطـلاع عـن تلـك الوثائق».

وعلى رغم قيـام المؤرخ المصـري الدكتـور يونان لبيب رزق بجولات عـدة في مكتبـات لنـدن واستنبول بحثًا عن وثائق تاريخية تثبت الحق المصري في طابـا غـير انـه لم يعـثر علـى ضالتـه إلا في دار الوثائق السودانية في الخرطـوم الـتي تحتفـظ بوثـائق ترجع إلى فترة الحكم الثنائي البريطاني المصري منذ عهد ونجت باشا قائد الجيش المصـري في السـودان وحـاكمه العام الذي كانت صلاحياتـه تلـك تخولـه الاشراف على منطقة سيناء. وقال الدكتـور رزق: «حصلـت في السـودان علـى مسـتندات اوجعـت قلب الاسرائيليين بعـد ان امضيـت اسبوعًا في دار الوثائق السودانية اطلعـت خلالهـا علـى نحـو ٣٥٠ ملفًا من ملفات مخابرات الجيـش المصـري، وجمعنـا كل هذه المستندات في المذكرة الثانية التي قدمناهـا لهيئـة المحكمـة الدوليـة بتـاريخ ١٢ تشـرين الاول ١٩٨٧، وهنـا كـانت المفاجـأة مـن الجـانب الاسرائيلي فقد فوجئنا به يقـول: «وهـل جـادلكم احد في ان طابا مصرية! إن خلافنا معكم هو حول اين يمـر خـط الحـدود؟ هـل عنـد الجبـل؟ أم عنـد الصخرة الغرانيتية؟ وكانت هذه بمثابة خطوة للوراء من الجانب الاسـرائيلي الـذي كـان يصـر علـى ان طابـا ليسـت تابعـة لنـا، وهكـذا دحضـت كـل الادعاءات الاسرائيلية بحقها في طابا».

* **سواكن:** راجع «ابرز المواقـع الاثريـة في السودان» في هذا الباب.

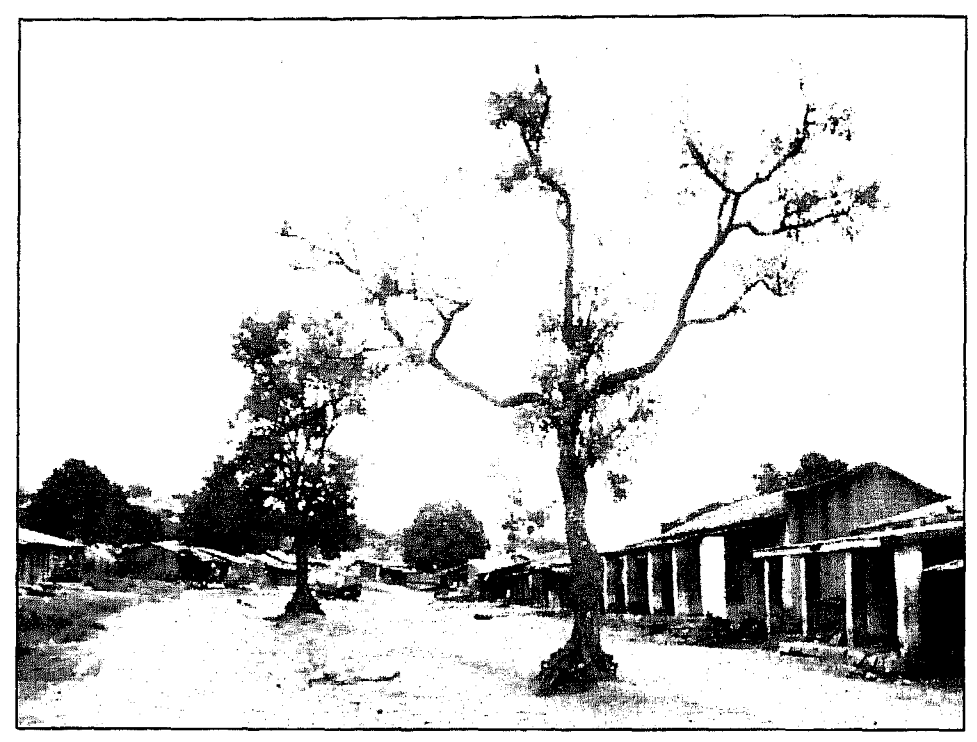
* **شندي:** راجـع «ابـرز المواقـع الاثريـة في السودان» في هذا الباب.

* **العبيـد El-Obeid:** مدينـة في وسـط السودان، في منطقـة كوردوفـان. تبعـد ٦٩٠كلـم عـن العاصمـة، وتعـد نحـو مليـون نسـمة. شـهيرة بتجارة الصمغ العربي والدخن (الذرة البيضاء).

* **العطبرة El-Atbara:** مدينـة سـودانية. تبعد ٣٢٦كلم عن العاصمة. تعد نحـو ٦٥٠ ألـف نسمة. إسمها من إسم نهر عطبرة الذي يجتاز اثيوبيا والسودان (طوله ١١٠٠كلم)، وينبـع شمـالي بحيرة تانا في اثيوبيا، ويلتقي في النيل فيشكل آخر روافده قبل مصبه في المتوسط (راجع «ابرز المواقـع الاثريـة في السودان» في هذا الباب، «مدن ومعالم»).

* **عيذاب:** راجع «ابـرز المواقـع الاثريـة في السودان» في هذا الباب.

* **كايا:** مدينـة سـودانية علـى الحـدود مـع أوغندا. سكانها (في اوائل ١٩٩٣) كانوا يقـدرون بنحو ٥٠ ألفًا، وفرّوا جميعهم إلى منطقـة كوبوكـو داخـل أوغنـدا بسـبب الحـرب الاهليـة (الشـمال-الجنوب)، وعاشوا لأكثر من اسبوعين في العراء.



ساحة كايا (١٩٩٣)

غالبية أهل كايا لا يعتبرون انفسهم عربًا، وغالبية الجنوبيين في السودان لا يعرفون لأنفسهم هوية انتماء سوى الهوية القبلية. إذ ان الحرب المندلعة، بشكل متقطع منذ نحو اربعة عقود، مزقت الروابط بين معظم الاقاليم الجنوبية وبين الخرطوم. وكايا كانت أكثر الاماكن تطورًا في جنوب السودان.

* **كبوشية:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

* **كرمة:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

* **الكرمك:** مدينة سودانية واقعة في القطاع الجنوبي من الحدود الشرقية مع اثيوبيا في منطقة الفونج (موئل اول دولة عربية اسلامية- مملكة الفونج- قامت جنوبي الصحراء الكبرى خلال القرن الخامس عشر واستمرت في حكم السودان ثلاثة قرون تقريبًا، عاصمتها سنار). يفصلها عن الاراضي الأثيوبية خور موسمي نحيل هو «خور رابو» الذي يفصل الكرمك الاثيوبية عن الكرمك السودانية. وترجع شهرة تلك إلى انها البوابة الغربية لمنطقة بني شنقول حيث مناجم الذهب التاريخية، وهي من الاسباب التي أغرت محمد علي باشا والي مصر بغزو السودان في القرن الماضي. و لم تعد لكرمك منذ نضوب معين تلك المناجم اية قيمة استراتيجية، ويدل على ذلك انها الموقع الوحيد الذي تمّ إخلاؤه من دون قتال خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن الجيش الايطالي لم يستطع بعد احتلاله لها الزحف إلى داخل البلاد، وانسحب منها في آخر المطاف من دون قتال يذكر.

لكن الكرمك عرفت اهمية استراتيجية في

الحرب الاهلية الدائرة (على الحدود مع اثيوبيا التي هي إحدى الدول المجاورة للسودان والاكثر اهتمامًا بهذه الحرب). فاحتلتها قوات العقيد جون قرنق دي مابيور (وهذا هو إسمه الثلاثي الكامل) خلال نظام الحكم الديمقراطي الاخير، واخرجته منها القوات الحكومية وكان الصادق المهدي رئيسًا للوزراء وأحمد الميرغني القائد الاعلى للقوات المسلحة. وعاد قرنق واحتلها في كانون الاول ١٩٩٦ متحالفًا هذه المرة مع المعارضة التي من ابرز قادتها المهدي والميرغني نفسهما.

تعد الكرمك نموذجًا للمدينة التقليدية السودانية بما تجمع من اعراق وجاليات اجنبية انصهرت محليًا. تنتمي غالبية سكانها إلى قبيلتي الدوالا والبرتا الافريقيتين. وإثر بعض المعارك التي عرفتها منطقة الكرمك في الحرب العالمية الثانية بين ايطاليا وبريطانيا، بدأ يفد إليها عدد من التجار من شمالي السودان، خصوصًا من مناطق أم درمان ودنقلا وشندي وكركوج والمسلمية والباوقة، وتزاوجوا مع قبائل المنطقة وأضحوا يعرفون بـ«الوطاويط» الذين اضحت الكرمك وطنًا لهم. ونزح إلى المدينة عدد من التجار والمقاولين اليونانيين واليمنيين والقبارصة والصوماليين والاحباش الذين سرعان ما اندمجوا في مجتمعها.

تقديرات عدد سكانها الاصليين، قبل ١٩٨٧، تراوحت بين ٣٠ و٤٠ ألفًا. إلا انها اليوم (ربيع ١٩٩٧) خالية من السكان، وبيوتها مقفرة، ولا وجود إلا لبعض الاستحكامات العسكرية القليلة.

* **الكرو:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

* **كريمة:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

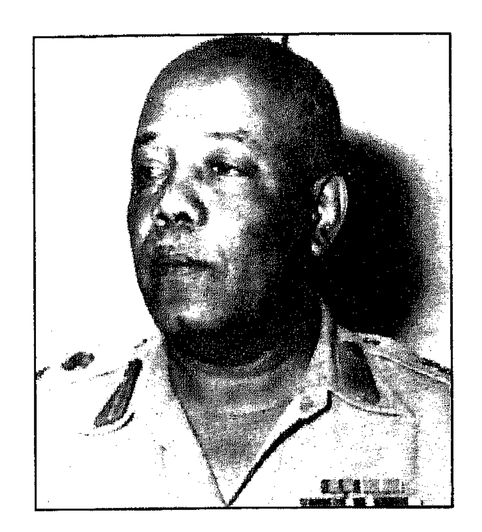
* **كونفور:** راجع «مدن المعقل والبؤس الجنوبية الثلاث» في باب «جنوب السودان».

* **نوري:** راجع «ابرز المواقع الاثرية في السودان» في هذا الباب.

* **واط:** راجع «مدن المعقل والبؤس الجنوبية الثلاث» في باب «جنوب السودان».

زعماء، رجال دولة وسياسة

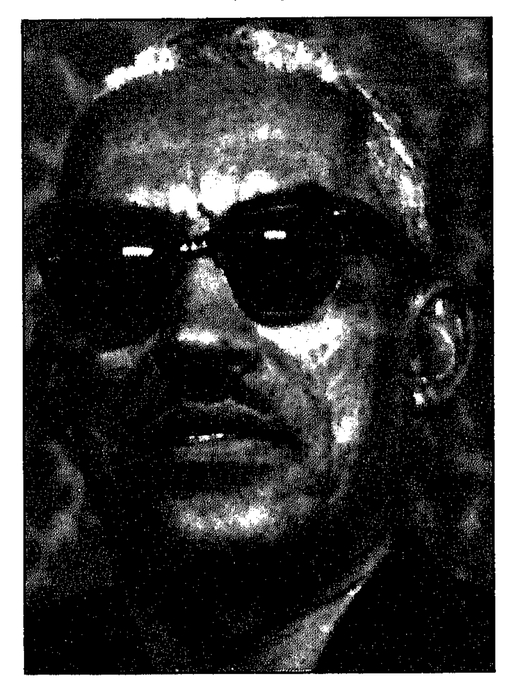
* **ابراهيم عبود (١٩٠٠-):** عسكري (وصل إلى رتبة فريق) ورئيس جمهورية السودان (سابقًا) والقائد الاعلى للقوات المسلحة ورئيس الوزراء ووزير الدفاع. ولد من قبيلة «الثايقية» (شرقي السودان). التحق بقسم الهندسة في كلية غوردن في الخرطوم (١٩١٤)، ثم بالكلية الحربية، وعمل مهندسًا عسكريًا (١٩١٨-١٩٢٥) في إحدى الكتائب السودانية في الجيش المصري. ولما تكونت قوة الدفاع السودانية نقل إليها (١٩٢٥). تدرج في الوظائف العسكرية، وعين في اركان حرب سلاح الهجانة (١٩٤٨). أصبح كبير ضباط اركان حرب قيادة الدفاع السودانية (١٩٥٢) وكان اول سوداني يشغل هذه الوظيفة. تولى



ابراهيم عبود.



بابكر عوض الله.



القيادة العامة للجيش السوداني (١٩٥٦). رأس حكومة عسكرية لحكم السودان في تشرين الثاني ١٩٥٨. جرت عدة محاولات لانقلابات عسكرية في ايامه، فاستطاع التغلب على الموقف، والغى البرلمان، وقضى على نشاط الاحزاب السياسية ومنح المجالس المحلية بعض السلطة وحرية العمل. وفي اعقاب انتفاضة شعبية في تشرين الاول ١٩٦٤، انتقل الحكم من المجلس الاعلى للقوات المسلحة إلى حكومة مدنية، وبقي ابراهيم عبود رئيسًا للدولة عدة ايام، ثم ارغم على التخلي عن سلطاته.

* **إسماعيل الازهري** (١٩٠٠-١٩٦٩): سياسي سوداني. درس في معهد غوردن في الخرطوم وفي جامعة بيروت الاميركية. رئيس قسم التربية في الحكومة السودانية من ١٩٢١ إلى ١٩٤٦. أسس في ١٩٤٣ اول حزب سياسي في السودان هو حزب «الاشقاء» الذي نادى بالاتحاد مع مصر. فاز حزبه في الانتخابات (١٩٥٣). أول رئيس وزراء للسودان المستقل (١٩٥٦). أصبح في ١٩٥٨ زعيمًا للمعارضة بعد ان فقد حزبه الأغلبية النيابية. اعتقله نظام حكم الفريق عبود (١٩٦١-١٩٦٢). لعب دورًا في الاطاحة بحكم عبود وعودة الحياة السياسية المدنية. انتخب في ١٩٦٥ عضوًا ثم رئيسًا للمجلس الرئاسي حتى ٢٥ ايار ١٩٦٩، وبقي بعدها تحت الاقامة الجبرية حتى وفاته.

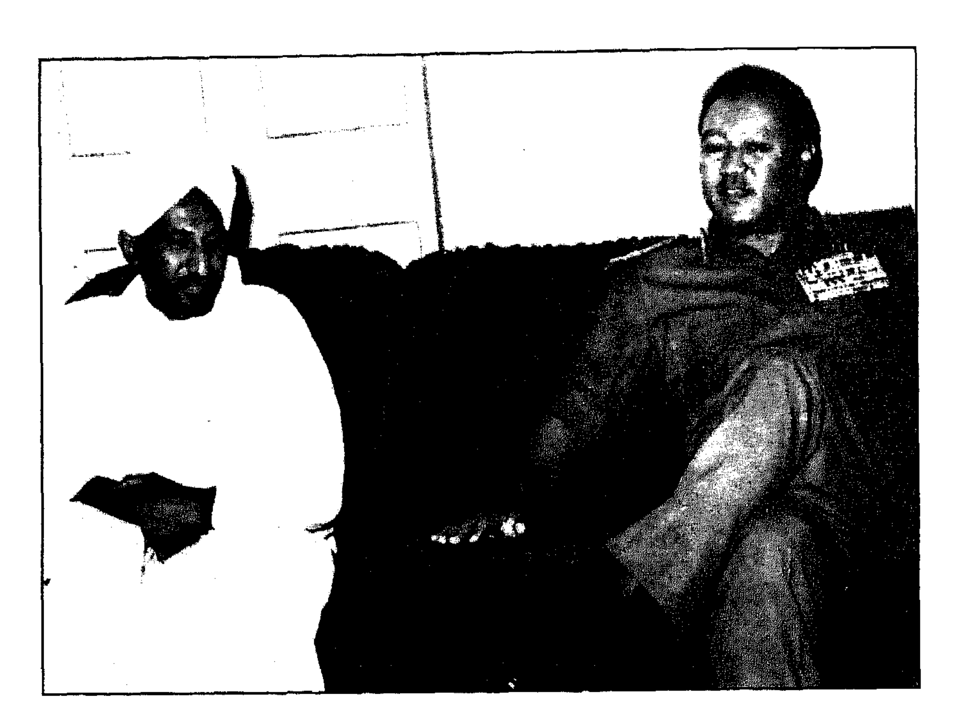
* **بابكر عوض الله** (١٩١٧-): سياسي ورجل دولة سوداني. درس القانون في الخرطوم واصبح قاضيًا (١٩٤٧-١٩٥٤)، واستقال ليصبح رئيسًا لمجلس النواب (١٩٥٤-١٩٥٧). عين بعدها قاضيًا في المحكمة العليا ثم رئيسًا للقضاة (١٩٦٤-١٩٦٩). أصبح رئيسًا للوزراء ووزيرًا للخارجية، ثم نائبًا لرئيس مجلس قيادة الثورة (١٩٦٩-١٩٧٠)، ثم نائبًا لرئيس الوزراء (١٩٧٠-١٩٧١)، ثم النائب الاول لرئيس الجمهورية (١٩٧١).

* **التيجاني الطيب بابكر** (١٩٢٦-):

سياسي سوداني. العضو الابرز في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني بعد تخفي امين عام الحزب محمد ابراهيم نقد إثر فراره من الاقامة الجبرية في ١٩٩٤.

أوجزت «الوسط» (العدد ٢٥١، تاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٩٦، ص ٣٠-٣١) سيرته الذاتية ونقلاً على لسانه:

«ولدت في قرية في شمالي مدينة شندي التي تبعد ١٧٠كلم إلى الشمال من الخرطوم. قريتنا على النيل. تعلمت قليلاً في القرية ثم تلقيت معظم تعليمي في مدينة أم درمان. درست في مدرسة الشيخ بابكر بدري، وهو من رواد التعليم الاهلي وتعليم البنات في السودان، وكان اسمها «الاحفاد» وتعلمت مع احفاده. ولدت في عائلة تضم ١٥ ولدًا. تابعت الدراسة الثانوية في مدرسة أم درمان وهي كانت الثانوية الوحيدة في السودان. درست في صف واحد مع عبد الخالق محجوب. بعد المرحلة الثانوية ذهبت إلى كلية الطب في السودان. خلال ذلك الوقت عرض وزير المعارف في مصر عبد الرازق السنهوري باشا قبول عدد من الطلاب السودانيين وإعطاءهم منحة مقدارها خمسة جنهيات شهريًا فضلاً عن التعليم المجاني والسكن. ذهبت إلى مصر والتحقت بكلية الهندسة. وفور وصولي اتصل بي الشيوعيون ودعيت كي أكون عضوًا في منظمة شيوعية إسمها «الحركة المصرية للتحرر الوطني» وقبلت. كان ذلك في اوائل كانون الثاني ١٩٤٧. قبل ذلك لم يكن أحد منا (لا عبد الخالق محجوب ولا انا) شيوعيًا. بعد خروجنا من ثانوية أم درمان جاء مدرس شيوعي بريطاني ونقل هذه الافكار إلى عدد من الطلاب. تعرف عبد الخالق إلى الشيوعية سنة ١٩٤٦ وكنا نحن خرجنا من الثانوية في ١٩٤٥. لم يذهب عبد الخالق معنا إلى الجامعة في السودان إذ كان قرر باكرًا ان يدرس في مصر التي سبقنا إليها بعدما وصل مقتنعًا بالشيوعية منذ منتصف ١٩٤٦. جاء بعبد الخالق إلى الشيوعية طالب من دفعتنا اسمه محمد احمد داود وهو الذي طلب مني الانضمام إلى الشيوعيين حين وصلت إلى مصر. وداود من النوبيين في شمالي السودان وأصبح شيوعيًا في مصر وكان قبل ذلك في السودان، وكان رئيس تحرير صحيفة يكتب مقالات ملتهبة جدًا ضد الاستعمار. وكانت «الحركة المصرية للتحرر الوطني» منظمة شيوعية بارزة تضم إلى المصريين عددًا من النوبيين والسودانيين. وكان من ابرز المسؤولين فيها هنري كورييل وسليمان الرفاعي وغيرهما. وكانت المنظمة تضم عمالاً. وتولى الرفاعي منصب سكرتير المنظمة بعد ابعاد كورييل. وفي كلية الهندسة انغمست في العمل السياسي وحين جاءت حرب فلسطين كنت اعتقلت في ١٨ ايار ١٩٤٨. كانت التهمة انني شيوعي واعتقلت في سجن «الهايكستاب» الذي كان في السابق معتقلاً لأسرى الحرب الالمان والايطاليين وهو في منطقة القاهرة على طرف الصحراء. امضينا في السجن سنة كاملة وكان معنا عدد من الشيوعيين المصريين واليهود. وقبل ذلك كنت اعتقلت لبضعة ايام خلال السنة نفسها. واتحدت «الحركة المصرية للتحرر الوطني» مع تنظيم آخر وكوّنا «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (حدتو) وحصلت معارك كثيرة. كنت سكرتيرًا لاتحاد الطلاب السودانيين في مصر، وكان الاتحاد تحت نفوذ الشيوعيين، وكان عبد الخالق محجوب عضوًا قياديًا في سكرتيرية اللجنة المركزية للحركة المصرية والحركة الديمقراطية. لكنه لم يعتقل في مصر. وحين جاءت حرب مصر كان مريضًا بالدرن. وحين كان في المعتقل كان في المستشفى القريب وكنا على اتصال. خرجت من السجن وعدت إلى السودان وكان عبد الخالق سبقني إليه في شباط ١٩٤٩. عملت مدرسًا نحو ٢٠ شهرًا وبعدها تفرغت في ١٩٥١ للعمل في الحزب الذي كان تأسس في ١٦ آب ١٩٤٦ على



جعفر النميري (الى يمين الصورة) والصادق المهدي.

يد مجموعة من السودانيين جاءت من حلقات شيوعية في السودان ومصر. تعلم السودانيون الشيوعية من اساتذة انكليز وضابط انكليزي يدعى ستوري. و لم أكن وعبد الخالق في التأسيس. شارك حسن الطاهر زروق وهو اول نائب شيوعي في العالم العربي وعز الدين علي وعبد الوهاب زين العابدين وآخرون. مجموعة بسيطة لا تزيد على ثمانية اشخاص وكان عبد الوهاب زين الدين سكرتير الحركة التي سميت «الحركة السودانية للتحرر الوطني» وكنت من اوائل المتفرغين مع ابراهيم زكريا الذي كان سكرتيرًا لاتحاد النقابات العالمي ثم صار رئيسًا له وتفرغ عبد الخالق في السنة نفسها. وكان هناك الجزولي سعيد وعبد الرحمن عبد الرحيم الوسيلة. عقدنا اول مؤتمر للحزب في تشرين الاول ١٩٥٠ في أم درمان. عقدناه سرًّا بالطبع. نحن حزب سري على امتداد خمسين عامًا باستثناء خمس سنوات. اول برنامج متفهم للظروف هو برنامج الحزب في مؤتمره الثالث في شباط ١٩٥٦ وهو برنامج لحكم وطني ديمقراطي يتدرج نحو الاشتراكية» (راجع «الحزب الشيوعي السوداني» في باب «الاحزاب»).

* **جعفر النميري** (١٩٣٠-): سياسي ورجل دولة سوداني استولى على الحكم في ١٩٦٩ وأطيح في ١٩٨٥.

ولد جعفر النميري في أم درمان في اسرة بورجوازية صغيرة. دخل الكلية الحربية في ١٩٥٠. لم يقم بنشاط يذكر خلال الحقبة الزمنية الحافلة بالاحداث التي سبقت اعلان استقلال السودان في ١٩٥٩. وعندما نشبت الاضطرابات في جنوبي البلاد، ارسل إلى هناك لمحاربة انصار حركة «أنيانيا» الانفصالية؛ وقد عززّت هذه التجربة الحاسمة في حياته، اعجابه الشديد بالزعيم المصري جمال عبد الناصر. شارك في تأسيس جماعة من «الضباط الاحرار» مستوحاة من المثال المصري. اعتقل في ١٩٦٣، وأوفد إلى المانيا بعد خروجه من

السجن، ثم إلىالولايات المتحدة لمتابعة تحصيله العسكري. ولدى عودته إلى السودان، في ١٩٦٦، تعاون مع جماعة من الضباط «التقدميين» المتحالفين مع الحزب الشيوعي السوداني، لاطاحة نظام الحكم القائم.

وفي ايار ١٩٦٩، نجح في الاستيلاء على السلطة، وفي فرض نظام الحزب الواحد، حزب الاتحاد الاشتراكي السوداني. وفي العام التالي، نجا من محاولة انقلابية نظّمها ضده ضباط شيوعيون، أي حلفاؤه بالامس، ووطّد سلطته بعد حملة قمع واسعة أعدم خلالها عددًا كبيرًا من الشيوعيين والنقابيين. وفي ١٩٧٢، انهى الحرب الانفصالية في الجنوب بعد ان وقّع على اتفاقية أديس ابابا التي اعترفت للجنوبيين باستقلال ذاتي. تعرّض لخمس عشرة محاولة انقلابية، وكان، في اعقاب كل محاولة، يبادر إلى تعزيز سلطاته وهيمنته: فقد جمع بين رئاسة الجمهورية، ورئاسة الحكومة، ورئاسة الحزب الواحد، ووزارة الدفاع وقيادة القوات المسلحة؛ بل وصل إلى حدّ انه ترأس وكالة الانباء الوطنية ومارس رقابة مباشرة على نشاط مصرف بلاده المركزي. وبينما كانت صلاحياته تنمو وتتوسع، كانت اوضاع السودان الاقتصادية تتردّى وتتراجع، حتى بات السودان يرزح تحت نير الديون الخارجية ويكابد من مجاعة مستعصية

في ١٩٨٣، استبدل النميري القانون المدني بالشريعة الاسلامية، وقرّب منه الاخوان المسلمين الذين غدا زعيمهم، حسن الترابي، مستشاره الاول. كما اعتقل الصادق المهدي زعيم جماعة الانصار وزج به في السجن. وقد اثارت هذه الاجراءات موجة من الاستياء، وأدت، في ما أدت إليه، إلى تجدد الاضطرابات في الجنوب الذي تتألف غالبية سكانه من المسيحيين ومن اتباع الديانات الافريقية (الاحيائية). وفي نيسان ١٩٨٥، وفيما كان النميري في زيارة للولايات المتحدة ولمصر، أطيح وتولى خلافته اللواء سوار الذهب. وكان السودان في عهد النميري قد غدا إحدى نقاط ارتكاز «قوات التدخل السريع» الاميركية في الخليج وفي تشاد.

جرت بعد إطاحته محاكمة سياسية لاقطاب نظامه كما اتهم هو نفسه بالتواطؤ في تهجير الفالاشا إلى اسرائيل، لقاء مبالغ طائلة من الولايات المتحدة والمنظمات الصهيونية العالمية (راجع «اثيوبيا»، ج١، ص ١٠٦-١٠٩).

استمر يقوم ببعض النشاطات السياسية ويدلي بتصريحات وآراء. ففي ايار ١٩٩٤ على سبيل المثال، وبمناسبة مرور ٢٥ سنة على توليه السلطة بانقلاب ٢٥ ايار ١٩٦٩، اقام احتفالاً في لندن حيث دعا إلى حوار مع القوى الوطنية السودانية لوضع وثيقة وفاق وطني تستند إلى وحدة السودان واعتماد التعددية الحزبية للاصلاح السياسي. وفي المناسبة نفسها افتتح فرعًا في لندن لمنظمة انسانية يرأسها هي منظمة «تشايلد إيد».

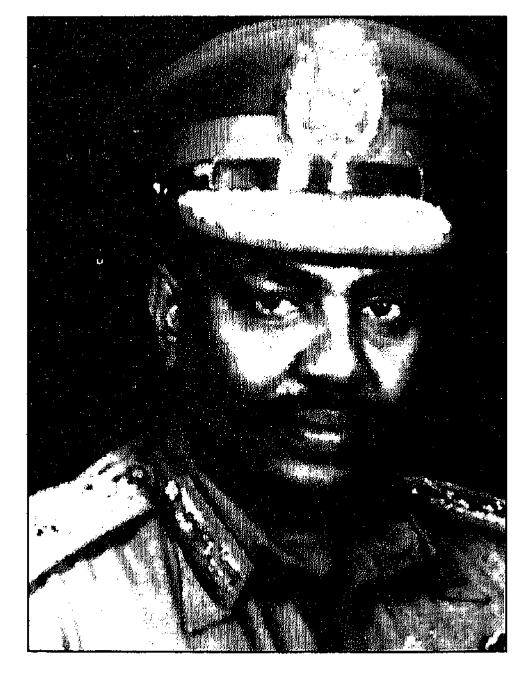
*** حسن عبد الله الترابي** (١٩٣٢-): زعيم سياسي وديني سوداني. ولد في مدينة كسلا شرقي السودان (على الحدود مع اريتريا) حيث كان والده قاضيًا، وعالمًا وقورًا طاغي الشخصية. تنقل عبد الله بحكم الوظيفة في بعض مدن السودان، وكان القطار يحمل اطفاله في كل المناسبات إلى محطة ود الترابي والقرية التي تحمل الاسم نفسه (والواقعة على بعد نحو ٢٤٠كلم جنوبي الخرطوم على شاطىء النيل الازرق) حيث ضريح احد الاجداد، حمد الترابي الذي ادعى المهدية أثناء الحج في مكة المكرمة في منتصف القرن السابع عشر، فضرب وعاد إلى سلطنة الفونج حسيرًا كسيرًا.

من «الحياة»، تيارات، العدد ١١١٤٠، ١٤ آب ١٩٩٣ هذه السيرة لحسن الترابي بقلم خالد المبارك:

بعد سنوات الطفولة حمل القطار حسن


حسن الترابي.

عمر حسن البشير.

عبد الله الترابي، في نهاية الاربعينات، إلى مدينة ود مدني، حيث عبر النيل الازرق إلى مدرسة حنتوب الثانوية، وهي واحدة من ثلاث مدارس كبرى أنشأها البريطانيون كالمعسكرات بعيدًا عن صخب المدن واختاروا لها التلاميذ المتفوقين من كل مدراس البلاد. و لم ينضم الترابي في تلك المدرسة إلى «الكيزان»، وهو الاسم الذي كان يطلق على الاخوان المسلمين آنذاك تصغيرًا لشأنهم وازدراء بعزلتهم الاجتماعية وتزمتهم المجافي لروح الثقافة الشعبية عند مسلمي السودان. بل انصرف إلى التحصيل واشتهر بالذكاء الحاد والانطواء، «و لم تكن هناك ذرّة واحدة من الخشونة أو العنف في شخصيته»، كما شهد بعض زملائه في تلك الفترة. لذلك لم يلتفت إليه الشيوعيون، وكانوا الأكثر عددًا والافضل تنظيمًا لأنهم كانوا يستقطبون اصحاب «الشخصيات القيادية». بيد ان الفتى لفت نظر الاساتذة البريطانيين الذين لاحظوا بعد الشقة بينه وبين باقي ا لتلاميذ، فنصحوه بأن يختصر سنوات الدراسة. وبالفعل انجز امتحان الشهادة الثانوية بعد ثلاث سنوات فقط واحرزها بامتياز، فحمله القطار إلى محطة الخرطوم في شارع فكتوريا (شارع الاقصر الآن)، واتجه نحو كلية الحقوق، بينما بقي ابناء دفعته سنة رابعة في حنتوب. وكانت الخرطوم في مطلع الخمسينات مدينة زاهية تستشرف الاستقلال الوطني الوشيك. وفي الخرطوم، تغيرت شخصية حسن الترابي، وانضم إلى تنظيم «الاخوان المسلمون» في ١٩٥٤ الذي شهد انعقاد اول مؤتمر للحركة، فصار حسن رئيسًا لفرع الكلية الجامعية.

وبعد عام أكمل الدراسة بتفوق وارسلته الكلية إلى انكلترا، فقضى عامين إثنين نال خلالهما شهادة الماجيستر وتعرف على طالب اسمه الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي. وتأثر الترابي في انكلترا بتراث الاشتراكيين الفابيين (راجع «الجمعية الفابية» في «بريطانيا»، ج ٥، ص ١٨٣) إلى حد

جعله يقترحهم نموذجًا لنشاط الاخوان المسلمين في السودان. غير ان المكتب التنفيذي للحركة رفض هذه الفكرة في ١٩٦٢.

وسافر الترابي، مرة أخرى، وكانت إلى فرنسا، ورجع في ١٩٦٤ يحمل شهادة الدكتوراه في القانون الدستوري. لكن الجامعة كانت عند عودته مركزًا للنشاط المعارض للحكم العسكري الاول. فانغمس في هذا النشاط ولعب دورًا بارزًا في ثورة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٤ التي انطلقت شرارتها من الجامعة. وصار عميدًا بالانابة لكلية الحقوق. غير ان نقطة التحول في حياته السياسية حصلت حينما انتخب رئيسًا لـ«جبهة الميثاق الاسلامي» (الواجهة الجماهيرية لتنظيم الاخوان السري) في كانون الاول ١٩٦٤.

جنى الترابي ثمرات موقفه من ثورة تشرين الاول، ففاز بأعلى الاصوات في الدوائر المخصصة للمتعلمين، وهكذا هجر قبة الجامعة إلى قبة البرلمان حيث صار قائدًا لسبعة نواب اصوليين، فدعم ذلك الفوز مكانته الحزبية.

في غضون ذلك كان الترابي قد تزوج شقيقة الصادق المهدي في ١٩٦١، ووثق بذلك وشائجه مع احد مركزي الدوائر الحاكمة في السودان. بيد ان محاولاته الجادة للخروج بجناحي التنظيم من العزلة النسبية واجهتها اعتراضات مريرة من بعض قادة «الاخوان المسلمون» العاملين في التنظيم السري، وعلى رأسهم شخصيات ذات ثقل مثل الصادق عبد الله عبد الماجد (صديق سيد قطب) وجعفر شيخ ادريس ومحمد صالح عمر، الاستاذ في كلية الحقوق-قسم الشريعة. وحدث الصدام المروع في مؤتمر عقد في مطلع ١٩٦٩ (قبل انقلاب نميري) واسفر عن انتصار الترابي واختياره رئيسًا للتنظيمين معًا.

من سخرية القدر ان الانقلاب اليساري الذي قاده نميري كان اشبه بمنحة من السماء لحسن عبد الله الترابي، إذ اجبر كثيرًا من الاصوليين المتشككين في اهليته للقيادة على الالتفاف حوله ومساندته في ظروف المد الشيوعي. ثم اصطدم النظام، في مرحلته الاولى الحمراء (المدّ الشيوعي)، بالانصار والاصوليين الذين قرروا حمل السلاح إلى جانبهم، وقتل في ذلك الصدام (١٩٧٠) محمد صالح عمر أكثر منافسي الترابي الاصوليين ضراوة ومصداقية والزعيم السابق لتنظيم الاخوان، كما قتل السيد الامام الهادي المهدي، عمّ السيد الصادق المهدي ومنافسه على القيادة السياسية لطائفة الانصار. وهكذا ساعد النميري على دعم موقف الصادق المهدي سياسيًا، وهو الصديق والصهر لحسن الترابي.

ثم اختلف النميري مع الحزب الشيوعي ووجه له ضربات مميتة في ١٩٧١، حينما شنق زعيمه المبتكر عبد الخالق محجوب وافقد الحزب توازنه. وكانت تلك هدية أخرى على طبق من ذهب تقدم للترابي وخططه واحلامه.

ومن ناحية أخرى، توفي اثناء حكم النميري معظم القادة «المتمركسين» (ماركس) العلمانيين للحزب الاتحادي الديمقراطي وعلى رأسهم اسماعيل الازهري والشريف حسين الهندي وعبد الماجد أبو حسبو. فتحسنت فرصة الاصوليين في منازلة حزب الوسط هذا واختراقه. ولما غيّر النميري اتجاهه وصالح المعارضة والاصوليين بقيادة الترابي في ١٩٧٧، استمر الاخير في حصد الثمار السياسية بلغة أخرى: كان الفائز عندما جنح النظام نحو اليسار، وصار الفائز عندما مال النظام يمينًا. هكذا عمل ببراعة على جبهات عدة أهمها المدارس والمؤسسات الاقتصادية والمالية. كما افاد من المصالحة والمشاركة في حكم النميري لتسخير القنوات الرسمية ومن اجل تكوين قواعد متينة للتنظيم الاصولي في دول الخليج واوروبا والولايات المتحدة. وقدّم نظام النميري في مرحلته الاخيرة اكبر خدمة لحسن الترابي وحزبه عندما اعلن عن تطبيق قوانين ايلول ١٩٨٣ الاسلامية التي نفذت

بموجبها احكام قطع الايدي والصلب، كما شنق المفكر محمود محمد طه وأحرقت كتبه.

ولما انهار نظام النميري في ١٩٨٥، كان المتوقع ان يدفع الترابي ثمن تحالفه الطويل معه. لكن المناور البارع غيّر إسم الحزب إلى «الجبهة الاسلامية القومية» في الشهر نفسه (نيسان ١٩٨٥) الذي سقط فيه الحكم، ونظّم حملة اعلامية هائلة تلقي الضوء على تعاون الآخرين مع حكم النميري. ثم استخدم ورقة «الجنوب» بذكاء. وجاءته المساعدة هذه المرة ايضًا من جهة غير متوقعة هي جون قرنق الذي رفض التنسيق مع القوى التي اطاحت نميري، بل حاربها بعنف وكان كل انتصار يسجّله بمثابة إضافة لرصيد الترابي والجبهة الاسلامية (ألدّ اعداء قرنق).

وأخذت الجبهة تتقرب من الجيش وتنظّم الضباط المتقاعدين وتجمع التبرعات، استعدادًا لحماية الشمال ضد الخطر القادم من الجنوب. ونجحت الحملة وفاز الاصوليون بـ٥١ مقعدًا في انتخابات ١٩٨٦، فصاروا ثالث الاحزاب في الجمعية التأسيسية. لكنهم كانوا أول الاحزاب وأكثرها مقدرة على التعبئة عن طريق المساجد وغيرها. غير ان حلاوة النصر شابتها المرارة، لأن الترابي شخصيًا سقط في دائرة الخرطوم التي رشح نفسه فيها. ولكنه كان سقوطًا يشبه الفوز إذ واجه تحالفًا من الاحزاب الاخرى كلها، ولم يكن الفارق في الاصوات كبيرًا. واظهر ذلك السقوط مدى تعلق اتباعه به، إذ شوهدوا في المدارس وهو ينتحبون ويتشنجون من الغضب وخيبة الامل، فقد صارت لـ«الشيخ» مكانة طائفية بحق، يأمر فيطاع ويخلع الناس احذيتهم قبل الدخول لمقابلته (تمامًا كما يفعل بعض اتباع السيدين محمد عثمان الميرغني والصادق المهدي).

في ٣٠ حزيران ١٩٨٩، سجّل الترابي اعظم انتصاراته حينما استولى الجناح العسكري لحزبه، بالتنسيق مع السودانيين الافغان، على السلطة في انقلاب أطاح حكومة السيد الصادق المهدي المنتخبة ديمقراطيًا. وكان توقيت الانقلاب مهمًا إذ احهض المحاولة الجادة للتوصل إلى اتفاق سلام بين الحكومة والحركة الشعبية لتحرير السودان التي بدأت تدرك خطر تعنتها السابق، فوقعت اتفاقات مع السيد محمد عثمان الميرغني واتفاقات أخرى شملت حزب الامة وقوى اليسار، وصار السلام قاب قوسين أو أدنى.

وهكذا صار الترابي «الأب الروحي» للحكم العسكري، يحرّك الامور باسلوب التحكم من بعيد. واتسع نطاق نشاطه لينتشر في العالمين العربي والافريقي، ثم تطور فعمل على انشاء شبكة تنظيمات اصولية عالمية تهدف إلى تهميش مكانة مصر والسعودية، ثم سعى إلى التحرك العالمي «إيمانًا بعالمية الرسالة الدينية التي تنزع نحو المطلق ولا يحتويها ظرف المكان».

تتلخص الاعتراضات عليه (حتى اواخر ١٩٩٣) في انه سياسي وليس رجل دين. والدليل الاول ان مؤلفه الاساسي «الحركة الاسلامية في السودان» لا يضم آية قرآنية واحدة، وهو امر غير مألوف في كتابات رجال الدين؛ ثم مبايعته جعفر نميري إمامًا (وفق نهجه-الترابي-السريع إلى السلطة)، واستحداث اساليب اساسها ما أطلق عليه تعبير «الفقه الامني» الذي يجوز بموجبه «اتخاذ وسائل المراقبة والاستعلام والتجسس على الآخرين والنيل منهم من حيث لا يعلمون»، وتعيين عناصر «لا تظهر على الملأ» وتصير «فعاليات خفية» لاختراق الاحزاب الاخرى والمؤسسات الرسمية.

ثم انه جاهر بضرورة ان تتخلص الحركة من «علة التنظير المفرطة التي اصيبت بها بعض الحركات» وتعمد إلى «تفادي الايغال في التفقيه والولع بتعاطي الفقهيات التقليدية بأكثر مما يستدعي العمل». فصارت الحركة تحت تأثيره وقيادته تفضل «التفكر على التفقيه، والمشاورات على المجادلات، فهي لا تجنح للتشقيق النظري

للقضايا الخلافية، ولا لالقاء الفتاوى الفقهية الحاسمة».

أفضى هذا التهميش المقصود للتراث الاسلامي في الفقه وشؤون الحكم إلى تغليب المصلحة الحزبية الآنية العاجلة. وكانت النتيجة اجراءات غريبة ابتدعها الترابي مثل «تباين ألوان التدين بين الاعضاء»، و«نشر انماط التدين المتجدد». وترجم هذا عمليًا في «تخفيف شرائط العضوية إلى نهج جماهيري تتفاوت فيه نسب التزام الاعضاء وانماط ادائهم وادوار عطائهم»، أي ان ابواب العضوية فتحت امام بعض الذين لا يتم التحقق من امانتهم أو صفاء تدينهم أو استقامة سلوكهم؛ وبما ان الهدف الاساسي صار «اتخاذ السلطة مطلبًا» فإن هؤلاء بتدينهم «المتجدّد» وبعدهم عن كتب التراث الاسلامي، لم يتورعوا بعد انقلاب عمر البشير الاصولي عن قتل المواطنين وإذلالهم وتعذيبهم في «بيوت الاشباح» بلا وازع ولا تردد.

من زاوية أخرى، فإن المصارف والمؤسسات المالية والتجارية التي ساعدت على ارساء دعائم التنظيم، وعلى تمويل الحملة الانتخابية، تحولت، عقب الانفراد بالسلطة في ١٩٨٩، بؤرًا للمحسوبية والتجاوزات والفضائح التي شملت بعض اقرب المقربين لحسن الترابي. وبلغ التنافس حول المواقع والوظائف، لا البر والتقوى، درجة ان العاملين في الهيئة العامة للثقافة والفنون اقاموا يوم ٢٢ حزيران ١٩٩٣ احتفالاً حضره وزير الثقافة والاعلام شخصيًا، احتجاجًا على اقالة أحمد عبد العال، الامين العام للهيئة، وتحدث المحتفى به صراحة عن الذين تآمروا عليه.

وعدلت لائحة العضوية بحيث تسمح بانضمام الجماعات، وليس الافراد فقط، إلى الجبهة الاسلامية القومية، فاستهدف ذلك ضم بعض الطرق الصوفية الثانوية بـ«الجملة»، بعد استقطاب الابناء الذين يرثون قيادة هذه الطرق عن آبائهم. وهكذا فإن الترابي الذي قضى عمره يهاجم طائفتي الختمية والانصار، ويعيب على الحزبين المتحالفين معهما إفادتهما من مبدأ الوراثة في السياسة، يلجأ الآن إلى مبدأ الوراثة لزيادة عضوية الجبهة. وليس خافيًا في هذا السياق ان نجل الترابي الأكبر، صديق، صار ينوب عنه الآن في المناسبات الاجتماعية (راجع ابواب «النبذة التاريخية»، و«الحكم والمعارضة»، و«الاحزاب»).

* **سر الختم خليفة** (١٩١٧-): سياسي سوداني (رئيس وزراء). من مواليد جنوبي السودان. تخرج من كلية غوردن في ١٩٣٦، وعمل في التعليم، وسافر في بعثة إلى أوكسفورد. عمل مفتشًا في وزراة المعارف ونائبًا لمدير التعليم في منطقة جنوبي السودان، ثم عميدًا للمعهد الفني في الخرطوم. تولى منصب الوكيل الدائم لوزارة المعارف في منتصف ١٩٦٤. اختير رئيسًا للوزراء ووزيرًا للدفاع في الحكومة المدنية الانتقالية التي تشكلت في اعقاب حركة تشرين الاول الشعبية ١٩٦٤. تولى رئاسة مجلس دفاع القوات المسلحة السودانية في تشرين الثاني ١٩٦٤. قدم استقالة وزارته في ١٨ شباط ١٩٦٥، ثم كلفه مجلس السيادة السوداني بتشكيل وزارة جديدة مهمتها التحضير للانتخابات العامة، فشكلها من ممثلي احزاب: الوطني الاتحادي، الامة، الجنوبيين، الشعب الديمقراطي، جبهة الميثاق الاسلامي، الحزب الشيوعي. أجرت حكومته الانتخابات في الشمال فقط، وحاولت حل مشكلة الجنوب، وهيّأت الأسباب لعقد مؤتمر المائدة المستديرة (١٦-٢٩ آذار ١٩٦٥) في الخرطوم. قدم استقالته في تشرين الثاني ١٩٦٥، وبعدها عمل سفيرًا للسودان في روما (١٩٦٥-١٩٦٧) ثم في لندن (١٩٦٨-١٩٦٩). عين وزيرًا للتعليم العالي والبحث العلمي (١٩٧٢-١٩٧٥).

* **الشفيع أحمد الشيخ** (١٩٢٤-١٩٧١): زعيم نقابي سوداني. امين عام اتحاد النقابات في السودان، ونائب رئيس الاتحاد العالمي لنقابات العمال. ولد في مدينة سندي (شمالي الخرطوم). ينتمي إلى قبيلة الجعليين، وهي من اشهر قبائل العرب في السودان. تلقى تعليمه الاولي في مدينة سندي، والمتوسط في مدرستي بربر وبور سودان الوسطى. التحق بمدرسة الصناعات العليا (في مدينة عطبرة) وتخرج فيها في ١٩٤٢. عمل في السكة الحديد في عطبرة. شارك بعد الحرب العالمية الثانية في تأسيس أول تشكيل نقابي (هيئة شؤون عمال السكة الحديد) التي صارت في ١٩٤٨ نقابة عمال السكة الحديد. بعد صدور اول قانون لنقابات العمال، اختير الشفيع سكرتيرًا عامًا مساعدًا للنقابة، وكان عمره ٢٤ عامًا. وفي العام نفسه حوكم للمرة الاولى امام محكمة برئاسة قاضي المحكمة العليا البريطاني بتهمة إصدار منشور باسم النقابة يحرض فيه على كره الحكومة الاستعمارية. كما تعرض للمحاكمة في العام التالي وحكم عليه بالسجن مدة سنتين. اختير سكرتيرًا عامًا لاتحاد نقابات عمال السودان في اول مؤتمر للاتحاد في ١٩٥١. رفع شعارات حق تقرير المصير والكفاح المشترك مع الشعب المصري، واتخذ موقفًا مستقلاً من القيادات السياسية الطائفية بمختلف فرقها واحزابها. شارك بدور بارز في ربط اتحاد نقابات عمال السودان بالحركة العمالية العربية والحركة العمالية الدولية، خاصة الاتحاد العالمي للنقابات، وقد أصبح نائبًا لرئيس هذا الاتحاد منذ ١٩٥٧. وفي ١٩٥٨ حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات بتهمة معارضة النظام العسكري. وخلال فترة سجنه منح وسام السلام العالمي، وتقلد هذا الوسام بعد قيام ثورة تشرين الاول ١٩٦٤. انتخب رئيسًا للجنة تعديل القوانين العالمية بعد حركة ايار ١٩٦٩، وهي لجنة تشكلت من العمال ومن اصحاب العمل والحكومة. أعلن تأييده لحركة ١٩ تموز ١٩٧١ التي قادها الرائد هاشم العطا، وبعد ثلاثة ايام اعتقل وحكم عليه بالاعدام ونفّذ الحكم.

* **الصادق المهدي** (١٩٣٦-): زعيم سياسي وديني سوداني. حفيد الامام عبد الرحمن المهدي. عن سيرته كتب خالد المبارك («الحياة»، تيارات، العدد ١٥ تموز ١٩٩٤):

ولد الصادق المهدي يوم ٢٥ كانون الاول ١٩٣٦، وترددت صرخة ميلاده في الوقت الذي كان فيه البريطانيون وغيرهم من المسيحيين السودان يحتفلون بأعياد ميلاد السيد المسيح عليه السلام. وكان مولده بشيرًا بمرحلة جديدة في تاريخ السودان، إذ تزايد الوعي الوطني عند طلائع الخريجين وشرعوا في اتصالات تبلورت في ١٩٣٨ في إنشاء «مؤتمر الخريجين» (المعطف الذي خرجت من تحته الاحزاب السياسية). وأسس جده عبد الرحمن المهدي «حزب الامة» في ١٩٤٥ حينما كان الصادق في التاسعة من عمره. وكان عبد الرحمن رجلاً بعيد النظر واسع الحيلة إذ أدرك ان لا قبل له بمناطحة الاستعمار، وآثر ان يصانعه «فنسج ثوبًا من الحرير» حول آرائه كما تقول إحدى وثائق الحزب، وركّز على تنمية الدعائم المالية للأسرة (التي لم ترث قرشًا واحدًا من مؤسسها محمد أحمد المهدي الذي حرر السودان ودخل الخرطوم فاتحًا في ١٨٧٥).

رفع حزب الامة شعار «السودان للسودانيين» في مواجهة شعار «وحدة وادي النيل». وكان الصادق المهدي في الثامنة عشرة من عمره حين أصيب حزب الامة بنكسة كبرى إذ فاز الاتحاديون في اول انتخابات أجريت في السودان في ١٩٤٥ بأغلبية ٥١ دائرة من مجموع ٩٧ دائرة، ولم يفز حزب الامة إلا بـ٢٣ دائرة. بيد ان الخريطة السياسية كانت تتبدل بسرعة مذهلة. فالثورة المصرية (التي ساعدت على ان ينال السودان حق تقرير المصير) انشأت في مصر نظامًا

قوّض التعددية الحزبية وقهر المعارضين. وصُدم السودانيون بأنباء سطوة اجهزة الامن وممارساتها كما ان التجار والموظفين والعمال والمزارعين (عماد جماهير الاتحاديين في المدن ومراكز الانتاج) تهيبوا في اللحظة الحاسمة أثر المنافسة المصرية العالية الكفاءة على ارزاقهم ومواقعهم. فشهد السودان تحولاً غريبًا ومدهشًا، إذ تولى الاتحاديون المفوضون من قبل الشعب تنفيذ برنامج منافسيهم في حزب الامة. أي ان حزب الامة خسر الانتخابات بينما كسب برنامجه الجولة، وأعلن الاستقلال دون وشائج عضوية بمصر.

لم يكن الصادق في سن تسمح له بالمشاركة في تلك المرحلة. إذ تركز جهده على طلب العلم في كلية كمبوني في الخرطوم، ثم كلية فكتوريا في الاسكندرية، فكلية العلوم (جامعة الخرطوم حاليًا) حيث كان يرغب في دراسة الزراعة. وسافر بعد ذلك إلى بريطانيا فدرس العلوم السياسية والاقتصاد في جامعة أوكسفورد، وتخرج بامتياز، ثم رجع إلى الوطن حيث صار رئيسًا للوزراء بمجرد بلوغه سن الثلاثين (١٩٦٦). وكان بالطبع قليل الخبرة في السياسة وفي الحياة، ولم نشعر (يقول كاتب هذه السيرة، خالد مبارك) حينما كنا في قيادة اتحاد طلاب الجامعة بأية «فجوة أجيال» حينما دعانا رئيس الوزراء الشاب للقاء في مكتبه لـ«التفاكر»، وحاورنا في تواضع شديد مؤكدًا ان مكتبه مفتوح على الدوام للنظر في اية انتقادات أو مقترحات بناءة.

وكما هو متوقع فإن، تطورات الاحداث فتحت اعين الصادق المهدي بقسوة بالغة على حقائق دنيا السياسة العملية، إذ أدرك ان دعوة التحديث التي حملها معه من اوكسفورد ستجر إلى صدام مرير يشرخ القاعدة الحزبية التي أتت به إلى سدة الحكم.

كان والده، الصديق، قد توفي في ١٩٦١ وخلفه «إمامًا» على الانصار شقيقه، أي عم الصادق، الهادي المهدي. وشهدت الفترة بين ١٩٦٣ وانقلاب النميري في ١٩٦٩ شدًا وجذبًا وانقسامًا مروعًا في الحزب وفي أسرة المهدي، كان من نتائج ذلك سقوط حكومة السيد الصادق بعد تسعة أشهر فقط. ثم حدثت مصالحة لكن التوحيد الحقيقي للقوى خلف الصادق لم يكتمل إلا بعد ان اصطدم الامام المهدي بنظام النميري عسكريًا فقتل في ١٩٧٠، ولم يعد هناك منافس مقنع يتصدى لآراء الصادق الجديدة.

ولعل المكايدة الحزبية (داخل حزب الامة وخارجه) هي المسؤولة عن إنكار انجازات الصادق المهدي عبر السنين، ونوجز بعضها في:

أولاً: عقد مؤتمرًا للحزب في ١٩٨٦ ورضي ان يصير رئيسًا بالانتخابات وليس بالوراثة.

ثانيًا: أصدر بيانًا تأسيسيًا للحزب اعترف فيه لأول مرة «ان لشعبنا بشعب مصر الشقيقة علاقة خاصة نرجو ان تتجسد في شكل اتفاقات تحقق مصالح الشعبين». وهذا تحول كبير في حزب نشأ على اساس التوجس من مصر ومعاداتها والرعب من الهجرة المصرية.

ثالثًا: وضع حدًا لتنظيم الميليشيات شبه العسكرية التابعة للانصار (والتي طالما ارعبت منافسيهم) واعاد تنظيم الحزب على اساس وحدات تمثل مختلف الفئات والقطاعات.

رابعًا: وضع لوائح داخلية للحزب وحافظ على وحدته حتى صار في انتخابات ١٩٨٦ أكبر الاحزاب السودانية (إذ فاز بـ١٠٠ دائرة من مجموع ٢٦٢ بينما فاز الاتحاديون-الذين خاضوا الانتخابات منقسمين ودون ان يعقدوا مؤتمرًا- بـ٦٣ دائرة فقط).

خامسًا: كتب عددًا من الاطروحات اوضح فيها غزارة علمه وقدم فكرًا اسلاميًا مستنيرًا. ففي كتابه «الدولة في الاسلام» (نشر في ١٩٩٢)، اشاد بافكار جمال الدين الافغاني ومحمد

عبده واكد ان «الدولة في الاسلام مدنية». كما اعترف بثمرات الحضارة الغربية مثل حل مشكلة انتقال السلطة من يد ليد سلميًا واقامة مؤسسات تكفل حقوق الانسان الاساسية وخضوع العسكريين للسلطة المدنية المنتخبة. وانتقد في كتاب «الاعتدال والتطرف في الاسلام» (١٩٩٢) الفكر الاسلامي المتطرف لسيد قطب، بينما رصد في «مشروع سلام عادل في السودان» (١٩٩٢) اخطاء الشمال واخطاء الجنوب بموضوعية وتجرد، وقدّم سبع نقاط تصلح اساسًا للاتفاق، على رأسها: «السودان وطن متعدد الاديان والاعراق والثقافات وتقوم العلاقة بين المجموعات الوطنية فيه على التسامح والتعايش السلمي وكفالة حقوق المواطنة».

سادسًا: توصل إلى «هدنة فكرية» مع أقصى اليسار انتقل فيها-كما كتب-من مقولة «شيوعيون لعنهم الله» إلى مقولة «شيوعيون هداهم الله». وتوقفوا هم-دون اعلان او تحليل جديد- عن دمغ حزب الامة بأنه «كان يتعاون مع الاستعمار، ويضم في داخله كتلة الاقطاعيين ونظار العشائر والمثقفين الذين يمالئون الاستعمار» كما كتب زعيمهم عبد الخالق محجوب.

سابعًا: استمال اعدادًا هائلة من سكان المدن والمثقفين، ودفع الحزب نحو موقع الوسط الذي كان الحزب الاتحادي يحتله منفردًا. واسس مركزًا للابحاث والدراسات خاصًا بالحزب، جاء في احدى وثائقه (١٩٩٠): «اننا في وطن واحد نريد ان نحافظ على وحدته. وفي وطننا قتال نريد ان نوقفه. فماذا يضيرنا ان نؤجل تطبيق بعض الاحكام الشرعية العقابية حتى يُتفق بشأنها».

يأخذ البعض على الصادق انه مفكر وباحث اولاً وثانيًا، وسياسي ثالثًا. وينتقده البعض لأنه لم يتوصل إلى اتفاق مع الحركة الشعبية بعد انهيار حكم النميري. في حين ان اللوم يقع على جون قرنق قائد الحركة الشعبية كما شهد محللون محايدون لأنه لم يبد اليقظة اللازمة لاجهاض انقلاب ٣٠ حزيران ١٩٨٩ قبل وقوعه، رغم التقارير والتحذيرات التي وصلته.

أما الإشكال الأكبر لاعضاء حزبه وللتجمع المعارض فهو التصريحات الذي يدلي بها من حين لآخر والتي تترك انطباعًا بأنه لا يقدم نفسه (والمعارضة) كبديل مختلف بل كاستمرار معدل للنظام الحاكم. ومن ذلك قوله في كتاب «تحديات التسعينات» (١٩٩٠) الذي اكمله وهو داخل سجون النظام العسكري: «علة كثير من الحركات الاسلامية هي الجمود والتطرف. الجبهة الاسلامية في السودان مبّرأة من هاتين العلتين، لكنها مستغرقة في الميكيافيلية». وعندما يقول سجين سياسي هذا عن حركة احتضنها وساعدها وصاهر قائدها حسن الترابي، فلدغته وانقلبت عليه، فإن الاشفاق على مصيره في الجولات القادمة يبدو مبررًا (هذا الكلام يعود إلى ما قبل تموز ١٩٩٤، أي قبل خروج الصادق من السودان وقيادته للمعارضة).

ومهما يكن من امر، فالصادق عملاق سياسي سوداني لا يمكن تجاوزه، وهو امين لا ترقى إلى سيرته المالية أو الشخصية الشبهات (إلى هنا ينتهي كلام خالد مبارك في المرجع المذكور).

اعتقل الصادق خمس مرات بين ١٩٨٩ وآخر ١٩٩٦، وبين اعتقال واعتقال كانت السلطات تضعه تحت المراقبة الشديدة وهو في منزله. لكنه نجح، في كانون الاول ١٩٩٦، من الخروج من البلاد قاصدًا أسمرا وفق خطة سرية دبّرها وقادها ابنه عبد الرحمن الصادق المهدي الذي كان ضابطًا ملازمًا قبل تسريحه. (راجع ابواب النبذة التاريخية، والكرونولوجيا، والاحزاب).

* **صديق المهدي** (١٩١١-١٩٦١): زعيم سياسي وديني سوداني. والد الصادق المهدي.

عمل من اجل التخلص من النفوذ البريطاني في السودان وتحقيق استقلاله. تلقى علومه في كلية غوردن، ورأس حزب الامة منذ تأسيسه في ١٩٤٥. اتفق مع اسماعيل الازهري وعبد الله خليل وغيرهما للعمل على انهاء الحكم العسكري الذي تزعمه ابراهيم عبود، واجراء انتخابات وسن دستور جديد للسودان (راجع «الصادق المهدي» في هذا الباب).

*** عبد الخالق محجوب (١٩٢٦-١٩٧١):**

سياسي سوداني وأبرز زعيم للحزب الشيوعي السوداني. درس لمدة عام في كلية دار العلوم في جامعة القاهرة. انضم للحزب الشيوعي السوداني في ١٩٤٦، وتدرج إلى منصب السكرتير العام. اختير امينًا عامًا لحزب الجبهة المعادية للاستعمار ثم رئيسًا له في ١٩٥٩. عارض في ١٩٦٥ قرار الجمعية التأسيسية السودانية بحل الحزب الشيوعي السوداني. اعتقل أكثر من مرة قبل الاستقلال وبعده لمواقفه السياسية وكان آخرها في ١٩٧١. وتمكن من الهرب من معتقله في اواخر حزيران ١٩٧١. ايد حركة ١٩ تموز ١٩٧١ التي قادها هاشم العطا. وكان الحزب الشيوعي قد وزع منشورًا في اليوم التالي للحركة يرحب بالحركة. وفي اعقاب فشلها (بعد يومين) ألقي القبض عليه (٢٥ تموز ١٩٧١) وحوكم في مقر قيادة سلاح المدرعات امام مجلس عسكري بتهمة «إثارة المعارضة ضد ثورة ٢٥ ايار بغرض إطاحة نظام الحكم وبث عدم الثقة ونشر البلبلة». حكم عليه بالاعدام شنقًا، ونفذ الحكم في ٢٨ تموز ١٩٧١ (راجع «التيجاني الطيب بابكر»، في هذا الباب).

*** عبد الله خليل (الاميرالاي):** راجع «نبذة تاريخية»، و«مثلث حلايب».

*** علي بن الميرغني (١٨٧٩-١٩٦٨):**



عبد الخالق محجوب.

رجل دين سوداني وزعيم طائفة الختمية التي اسسها جده محمد عثمان الميرغني والمعروفة بعدائها للمهدية وبتأييدها للسياسة المصرية ولوحدة وادي النيل.

التجأت عائلته إلى مصر في ١٨٨١ هربًا من الثورة المهدية وعاد إلى الخرطوم في ١٨٩٨ بعد ان استعاد البريطانيون سلطتهم على السودان، واصبح حينها زعيم طائفة الختمية خلفًا لوالده. وقد اولاه البريطانيون رعاية خاصة فقلدوه اوسمة عديدة واستقبله الملك جورج الخامس (١٩١٩) في لندن. وفي المقابل، ظل الميرغني طيلة عهدهم ينادي بالوحدة مع مصر التي نصت عليها معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا، إلا ان الميرغني واجه معارضة شديدة من قبل دعاة الاستقلال الملتفين حول حزب الامة وطائفة الانصار، أي اتباع المهدي.

وبعد ان نال السودان استقلاله في ١٩٥٦، شجع الميرغني اتباعه على تفكيك حزب الاشقاء الذي دخل في ائتلاف مع حزب الامة لتشكيل الحكومة. وبعد انتخابات ١٩٥٨، انضم إليهما حزب الوحدة الوطني (الذي كان يؤيده الميرغني قبل تخلي قادته عن فكرة الوحدة).

بدأ نفوذه يضعف بعد انقلاب ١٩٥٨، وانسحب من الحياة السياسية اثر انقلاب ١٩٦٤.

إلا انه شجع في ١٩٦٧ عملية توحيد الحزب الشعبي الديمقراطي وحزب الوحدة تحت إسم الحزب الوحدوي الديمقراطي. حين توفي في اوائل ١٩٦٨، شيّعه اكثر من ١٠٠ ألف سوداني (راجع عن وريثه «محمد عثمان الميرغني» النبذة التاريخية، والكرونولوجيا، والحزب الاتحادي في الاحزاب).

*** علي عبد اللطيف** (١٨٩٢-١٩٤٨): عسكري وزعيم وطني سوداني، اقترن إسمه بالدعوة إلى وحدة وادي النيل. قاوم الاستعمار البريطاني في اعقاب الحرب العالمية الاولى، فتعرض للاعتقال والسجن (١٩٢٢-١٩٢٣). أسس جمعية «اللواء الابيض» (راجع باب معالم تاريخية) في ١٩٢٣ لمتابعة الدعوة الوحدوية وتحرير السودان من استعمار بريطانيا. حكم عليه بالاعدام ثم نال تخفيفًا إلى السجن المؤبد. نقل إلى مصر في ١٩٣٨ لكي يقضي السنوات العشر الاخيرة من حياته في مستشفى الامراض العقلية.

*** عمر البشير** (١٩٤٥-): سياسي وعسكري ورئيس الجمهورية السودانية الحالي.عن الأسرة التي ولد فيها وسيرة حياته، جاء في ملحق «تيارات» («الحياة»، عدد ايار ١٩٩٣):

هاجرت أسرة كفوري من لبنان إلى السودان إبان الحكم الثنائي الانكليزي-المصري، ونالت الجنسية السودانية. لكن آل كفوري لم يتجهوا إلى بيع الاقمشة أو التصدير والاستيراد كما عمل معظم الاسر اللبنانية والسورية التي استقرت في السودان، بل اختاروا مجالاً حيويًا وغير مطروق هو مزارع انتاج الالبان ومشتقاتها. وتخصصت مزرعة كفوري في توزيع الحليب على المنازل بالسيارات، وكان موقع المزرعة في الخرطوم بحري... واشتهر آل كفوري بحسن معاملة السودانيين العاملين معهم. وبين الذين عملوا معهم بتفان عشرات السنين موظف «كاتب ألبان»، وفد إلى العاصمة من منطقة شندي بحثًا عن الرزق الحلال، واسمه حسين احمد البشير.

اختار الرجل ان يسكن الحي الشعبي المجاور لمزرعة كفوري. وكان شديد التدين فخورًا بابنه البكر الذي صار معلمًا ثم توفي في شرخ الشباب. وتعلقت آمال الاسرة بالابن الثاني، عمر، الذي ولد في شندي، معقل قبيلة الجعليين التي اشتهرت بالشجاعة والكرم وساهمت في نشر اللغة العربية والاسلام في السودان وافريقيا الغربية.

تعلم عمر في الخرطوم بحري، ثم انتقل إلى مدرسة الخرطوم الثانوية عبر جسر النيل الازرق من مزرعة كفوري حيث منزل الاسرة. وعلى رغم ان المدرسة التي احتلت بعض ثكنات الجنود البريطانيين التي اخليت عند جلائهم في ١٩٥٥، كانت تمور بالتيارات السياسية المتصارعة، وتشهد ندوات فكرية منتظمة، بحكم جوارها لمباني جامعة الخرطوم، إلا ان الطالب عمر البشير لم يحفل بالقضايا السياسية. وعلى رغم ذكائه الفطري، فإنه لم يهتم بالدروس أو المذاكرة، كما لم يعرف بالانضباط عندما انضم إلى «الكديت» (التدريب العسكري المدرسي)، بل كان من الفوضويين الذين يطلقون النكات ويتحدون التعليمات ويعاقبون مرارًا وتكرارًا من قبل «الصول» (مشرف النظام) المسؤول.

لكن الرفض الشامل والتمرد انحصرا عند الفتى عمر في «الشيطنة البريئة». و لم يعرف كطالب بسوء الخلق أو ا لانحرافات. وانقضت سنوات الدراسة الاربع هكذا. وبما ان الأب كان فقيرًا يجاهد ليربي «نصف دستة» (نصف دزينة) من الاطفال، آثر عمر ان ينضم إلى الكلية الحربية. فطلابها ينالون رواتب شهرية قبل التخرج، ثم ان احتمال إحرازه نتيجة تؤهله الدراسة الجامعية كان صفرًا أو تحت الصفر.

بيد ان الكلية الحربية كانت حلم الآلاف، بل مئات الآلاف. فقام الأب باتصالات محمومة

بالاتحاديين والختمية الذين ظل على اتصال بهم طوال حياته، وكان يصوّت لهم بانتظام. والراجح انهم استخدموا نفوذهم لمساندة طلب عمر حسن أحمد البشير، فتم قبوله في الكلية الحربية بعد ان احتاز كل معايناتها.

كان نشاط الاصوليين في الجيش قد انتظم بعد ثورة تشرين الاول ١٩٦٤، وهي الفترة التي قبل فيها عمر البشير في الكلية الحربية. لكنه لم يستجب لاتصالتهم، فقد كان متأثرًا بوالده، وكانت ميوله أقوى نحو جمال عبد الناصر والقوميين العرب. وحدثت النقلة النوعية في موقفه عندما ارسله الجيش إلى التدريب في «المركز الاسلامي الافريقي» إبان حكم الرئيس جعفر النميري. وهذا المركز الذي أنشىء بتمويل غير سوداني، ما لبث ان صار واجهة للاصوليين السودانيين الذين وظفوه لاستقطاب الضباط وغيرهم. وتخصص المركز، الذي غير اسمه ليصير «جامعة افريقيا» في تنظيم دورات تدريبية دينية تختتم بتذاكر سفر مجانية ونثريات بالدولار لأداء العمرة أو الحج. وأدرك بعض قادة الجيش خطورة دورات المركز، وقال احدهم لنميري: «هل تريد ضباطًا أم أئمة مساجد؟!»، لكن الرئيس كان متواطئًا مع الاصوليين، راضيًا عن اختراقهم القوات المسلحة.

وانضم عمر البشير إلى التنظيم الاسلامي اثناء دراسته في المركز الاسلامي، وعرف الاصوليون مقدراته، فأخذوا يحيطونه بهالة من التمجيد، ويبالغون في نسب المواقف القتالية المتميزة إليه. ومن ذلك انهم اثاروا ضجة كبرى حول مساهمته في «معركة ميوم» الشهيرة في جنوبي البلاد حيث كان الضابط القائد. وواقع الامر ان التخطيط لمعركة ميوم إنما وضع في العمليات العسكرية في الخرطوم، واشترك في القيادة الفعلية وتحقيق المفاجأة التكتيكية ضباط مجهولون لم تسلط عليهم اضواء الاعلام الاصولي.

واعترف عمر البشير نفسه للتلفزيون السوداني انه وصل إلى ارض المعركة في السابعة صباحًا، واشرف على الجزء الثاني من المعركة التي بدأت في ا لخامسة صباحًا.

بيد ان البشير برز كمعارض بارع عند سقوط نظام النميري في ١٩٨٥، إذ شارك في لقاءات اللواء عثمان عبد ا لله بالاحزاب والنقابات، ثم تفرغ للتفاوض مع النقابات، وافلح في تهميشها، على رغم انها اضطلعت بالدور الاساسي في قيادة الانتفاضة. وجدير بالذكر انه عندما استولى على السلطة في ١٩٨٩، إستدعى بعض القادة النقابيين الذين سبق له ان فاوضهم، وطلب منهم ان يؤيدوا الانقلاب.

ومن غرائب السياسة في السودان ان انقلاب الاصوليين بقيادة البشير والسودانيين الافغان، ما كان لينجح لولا «الطيبة السودانية» الشهيرة. فقيادة الجيش في عهد السيد الصادق المهدي كانت تعرف ان لعمر البشير نشاطًا ما واتصالات مريبة، ولهذا استدعاه اللواء فتحي احمد علي ولفت نظره ووبخه، وجاء قرار نقله إلى مواقع العمليات الحربية في الجنوب كاجراء وقائي يبعده عن العاصمة. ثم ان سباقًا حقيقيًا نشأ داخل الجيش بين الاصوليين والبعثيين (وآخرين)، وفي هذا السياق قام البعثيون بنشر معلومات كاملة عن الانقلاب الذي يعد له عمر البشير. ونشرت مجلة «الدستور» التي كانت تصدر في لندن الخبر ومعه صورة العميد عمر البشير، ووزع العدد داخل السودان. وهدّد عمر البشير المجلة برفع دعوى في المحاكم، لكن قيادة الجيش لم تحقق معه او تفصله. كما ان ملفًا كاملاً عن نشاط الاصوليين أُعد، بأكثر من نسخة، وسلم إلى المسؤولين. ويلاحظ ان عمر البشير لم يكن «الخيار الاول» للاصوليين الذين اختاروا للقيادة اللواء مختار محمدين، وكان ضابطًا شجاعًا، لكنه توفي بعد ان اصيب بجروح خطيرة في صدام عنيف مع مقاتلي «الحركة

الشعبية لتحرير السودان». وهكذا صار عمر البشير في الواجهة، بعد ان كان «احتياطيًا».

لقد حصلت وقائع عدة تبين حقيقة الصلة ومركز السلطة الفعلية (في السنوات الاولى من حكم البشير)، أي «الجبهة الاسلامية القومية». فبعد الانقلاب مباشرة، أعلن البشير ان موضوع «قوانين سبتمبر» يمكن حله بسهولة، وذلك بعرضه على استفتاء شعبي. و لم يكن هذا رأي الجبهة. فاضطر البشير، بعد اسابيع، إلى التراجع عن فكرة الاستفتاء. وعندما اعتقل ضباط بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم في نيسان ١٩٩٠، ارجأ البشير التوقيع على تنفيذ احكام الاعدام، فقيل له: لقد نفذت الاحكام بالفعل. فوقّع بعد ذلك بمفعول رجعي. أما الحادثة التي تدل أكثر من غيرها على عبور الفريق البشير الخط الفاصل بين الطيبة والضرورة السياسية التي تبيح كل شيء في سبيل السلطة، فهي توقيعه على الأمر باعدام رجل الاعمال الشاب مجدي محجوب. استنجدت والدة مجدي بوالدة عمر البشير التي تدخلت كأم ونالت من ابنها وعدًا بالابقاء على حياة مجدي (الذي أدين بتهمة حيازة العملات الاجنبية). لكن مجدي أعدم، وبعد اعدامه بأشهر أعلن الاصوليون خطة «تحرير الاقتصاد» التي شملت السماح بحيازة العملات الاجنبية. كما ان الفريق ينكر حتى اليوم ان التعذيب يمارس في السودان، علمًا ان الوزراء المختصين اعترفوا بحدوثه علنًا.

هذه النبذة من سيرة حياة الرئيس عمر البشير بدأتها زاوية «بروفيل» في تيارات «الحياة» (في العدد المذكور) بطرح هذا التساؤل: «ما العلاقة بين هذه الكلمات الثلاث: الافغان، لبنان والسودان؟».

مع لبنان، كانت العلاقة من خلال آل كفوري، كما تقدم ذكره. اما مع الافغان، فقد جاءت الفقرات التالية:

في ثمانينات القرن الماضي، عندما كان السودان يمور بالاضطرابات التي تزامنت مع تصاعد المشاعر القومية والاسلامية في الشرق الاوسط، اقترح بعض قادة الدول الغربية تنصيب جمال الدين الافغاني ملكًا على السودان لتحقيق استقراره. لكن جمال الدين رفض العرض. وبعد قرن سافر عشرات الاصوليين السودانيين إلى افغانستان لمنازلة الاتحاد السوفياتي باسلحة الاستخبارات المركزية الاميركية، وقتل منهم عدد، ثم انسحب السوفيات من افغانستان، وطن جمال الدين الاصلي، وهم يلعقون جراحهم. وعاد السودانيون الافغان إلى الخرطوم فأسند إليهم الدور الحاسم في الانقلاب على السلطة المنتخبة ديمقراطيًا بالتنسيق مع تنظيم الاصوليين داخل الجيش.

كاد أمرهم ينكشف في البداية إذ أخطأوا في الذهاب إلى الخياط (الترزي) عابدين عوض، الذي يصمّم ويخيط الازياء العسكرية منذ ايام الحكم الاستعماري. وقد اعتاد الترزي في الماضي ان يلبي طلبات المدنيين الذين يطلبون ازياء عسكرية لمناسبات خاصة أو تنكرية، وكان يعلمها لهم مع تعديلات طفيفة. أما الزبائن الجدد فطلبوا أكثر من ١٣٠ زيًا عسكريًا لضباط برتب محددة. تساءل الرجل. لكن ضابطًا اصوليًا زاره مستعجلاً الانجاز ومبينًا ان الطلب رسمي ولا غبار عليه.

افلت السودانيون الافغان من مراقبة الاستخبارات العسكرية لأنها كانت ترصد تحركات الضباط ولا تحفل بالمدنيين. وهكذا نجح التنسيق والتمويه في وصول الاصوليين إلى السلطة، وتوّج العميد عمر حسن أحمد البشير حاكمًا على السودان محققًا بذلك «الصلة الافغانية» التي لم تتم في القرن الماضي (راجع: «حسن الترابي» في هذا الباب؛ و«الجبهة ا لاسلامية القومية» في باب الاحزاب؛ والنبذة التاريخية والكرونولوجيا).

* **فاروق عثمان حمد الله (–١٩٧١):**

ضابط وسياسي سوداني. أحيل للاستيداع في ١٩٦٦ بعد اشتراكه مع عدد من الضباط في تقديم مذكرة إلى قيادة الجيش السوداني يطالبون فيها بتطوير تدريب وتسليح الجيش اثر اشتراكهم في حملة القضاء على التمرد في جوبا (جنوبي السودان). ويقول فاروق عثمان في هذا الصدد «إن الجندي كان ينزف الدم في الجنوب حتى يموت دون وجود اسعافات اولية وان بعض الوحدات كانت تقضي ثلاث سنوات بلا غيار أو اجازات وان بعض الوحدات حوصرت سنة كاملة وكانت تمون بالطائرات وبعض الجنود كانوا يشترون الملابس من جيوبهم الخاصة». وبعد تسريحه عمل موظف مدنيًا بقسم الاسعار في وزارة التجارة. انضم للتنظيم السري لثورة ٢٥ ايار ١٩٦٩. اشترك في قطع المواصلات التليفونية ليلة قيام الثورة واختير عضوًا في اول مجلس لقيادة ثورة ٢٥ ايار ١٩٦٩ ووزيرًا للداخلية. واجهت وزارته مسؤولية الامن خلال احداث آبادو دنو بادي في اواخر آذار ١٩٧٠، اعفي من منصبه في تشرين الثاني ١٩٧٠ مع المقدم بابكر النور عثمان مساعد رئيس الوزراء للاقتصاد ووزير التخطيط، والرائد هاشم العطا مساعد رئيس الوزراء للقطاع الزراعي ووزير الثروة الحيوانية بتهمة «عقد صلات بعناصر غريبة امتد نشاطها إلى داخل مجلس قيادة الثورة». رشح رئيسًا للوزراء عقب اندلاع حركة ١٩ تموز ١٩٧١ وكان موجودًا آنذاك في لندن هو والمقدم بابكر النور (الذي اعلن اختياره ايضًا رئيسًا لمجلس قيادة الثورة) واحتجزتهما الحكومة الليبية وهما في طريقهما من لندن إلى الخرطوم بعد هبوط الطائرة البريطانية الاضطراري في بنغازي وسلمتهما للحكومة السودانية في ٢٢ تموز ١٩٧١ في اعقاب فشل الحركة في اليوم التالي، وقد نفذ حكم الاعدام فيه رميًا بالرصاص بعد محاكمة سريعة. («موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٤، ص ٤٤٧).

*** مبـــارك زرّوق** (١٩١٦-١٩٦٥):

سياسي سوداني. درس الحقوق وبدأ ممارسة المحاماة في ١٩٤٣. نشط في العمل السياسي في إطار الجمعيات الثقافية واصبح عضوًا في اللجنة التنفيذية لمؤتمر الجامعيين الذي كان قد تأسس في ١٩٣٨ ونادى بالاستقلال. في ١٩٤٤، انضم إلى اسماعيل الازهري الذي شكل حزب الاشقاء، معارضًا أي تعاون مع السلطات البريطانية ومناديًا بالوحدة مع مصر. وانتخب في ١٩٥٠ عضوًا في مجلس بلدية أم درمان.

كان من مؤسسي «الجبهة الموحدة لتحرير السودان» التي ضمّت نقابات عمالية وطلابية وتيارات سياسية مختلفة. وكان هدفها وضع حد للسيطرة البريطانية المستمرة تحت غطاء الاتحاد السوداني-المصري. في ١٩٥٢، انضم زرّوق إلى حزب الوحدة الوطني. وفي ١٩٥٣، انتخب نائبًا في البرلمان بعدما فاز الحزب بالانتخابات. تولى وزارة المواصلات في الحكومة التي شكلها الازهري والتي قادت السودان إلى الاستقلال في اوائل ١٩٥٦. وبعد سقوط الحكومة، تحول زرّوق إلى المعارضة. وفي ١٩٦٤، شارك في الثورة التي اطاحت حكم ابراهيم عبود، وتولى إثر ذلك وزارة المالية في الحكومة الانتقالية، لكنه توفي قبيل الانتخابات العامة في ١٩٦٥.

*** محمود محمد طه** (١٩٠٩-١٩٨٥):

زعيم «الاخوان الجمهوريين» في السودان، أعدم شنقًا في عهد جعفر النميري لأنه وصف تطبيق الشريعة الاسلامية بأنه «قانون جائر». لقب بـ«غاندي افريقيا» لأنه نبذ العنف في شتى صوره، ورفع صوته أكثر من مرة احتجاجًا على عنف السلطة وارهابها. وعندما نصبت مشانق الشيوعيين في السودان في صيف ١٩٧١، وجه محمود محمد طه رسالة مفتوحة إلى الرئيس النميري دعاه فيها إلى التسامح حتى مع كفار لا يؤمنون

با لله. كما حاول، في اعقاب المحاولتين الانقلابيتين الفاشلتين اللتين استهدفتا نظام النميري في ١٩٧٥ و١٩٧٦، التصدي لحملات القمع الرهيبة التي شنها الحكم ضد معارضيه. كان يكره العنف ولا يرى له أي مبرر. وقد اعرب في كتاب صدر في ١٩٦٥ عن اعتقاده بأن النبي محمد «بعث برسالتين... رسالة فرعية ورسالة اصلية، وقد بلّغ الرسالة الفرعية. أما الرسالة الاصلية فسوف يبلغها رسول يأتي من بعده لأن هذه الرسالة الاصلية لا تتفق والزمن الذي عاش فيه»؛ وفرّق بين الشريعة التي تدخل، على حد قوله، ضمن تعاليم «الرسالة الفرعية» التي تمّ تجاوزها في العصر الحالي، وبين «السنّة» التي تدخل ضمن الرسالة الاصلية والتي تعتبر اساس عقيدة «الاخوان الجمهوريين». وقد أعدم لا بسبب آرائه التي جاهر بها منذ ١٩٦٥، وانما بسبب معارضته للنظام الذي لم يفرض تطبيق الشريعة الاسلامية إلا ارضاء للحركات الدينية المتشددة، وفي مقدمتها حركة الاخوان المسلمين. اثار اعدامه، وهو شيخ في السادسة والسبعين، استنكار كل المفكرين الاحرار وجمعيات الدفاع عن حقوق الانسان («موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٦، ط١، ١٩٩٠، ص ١١٤-١١٥).

* **هاشم العطا** (١٩٣٦-١٩٧١): سياسي وضابط سوداني. ولد في أم درمان. تخرج في الكلية الحربية في ١٩٥٩. عرف بتحصيله ثقافة عالية وعشقه للقراءة لا سيما في تاريخ السودان. شارك في حصار القصر الجمهوري عندما اندلعت احداث تشرين الاول (اكتوبر) الشعبية في ١٩٦٤. من مؤسسي تنظيم الضباط الاحرار الذي قام بحركة ٢٥ ايار ١٩٦٩، وكان يعمل مساعدًا للملحق العسكري السوداني في المانيا الغربية. استدعي لينضم إلى مجلس قيادة الثورة (كان برتبة رائد). تولى في تموز ١٩٧٠ منصب مساعد رئيس الوزراء للقطاع الزراعي ووزيرًا للثروة الحيوانية. تقرر إحالته إلى الاستيداع في ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٠ مع ١٢ ضابطًا آخرين بتهمة «عقد صلات بعناصر غريبة امتد نشاطها إلى داخل مجلس قيادة الثورة». قاد حركة انقلابية في ٢١ تموز ١٩٧١ بهدف «قيام نظام سياسي ديمقراطي يستهدف المشاركة الفعالة من قبل الجماهير بكل الاشكال والوسائل الممكنة في ادارة شؤون البلاد كبيرها وصغيرها بروح المسؤولية الوطنية تجاه قضايا التنمية والثورة الاجتماعية». تولى منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الذي شكل برئاسة المقدم بابكر النور (كان الاخير خارج السودان). وبفشل الحركة بعد يومين فقط، حوكم هاشم العطا امام مجلس عسكري واتهم بالخيانة وحكم عليه بالاعدام الذي نفذ فيه في اليوم التالي.

سورية

بطاقة تعريف

الاسم: راجع باب «سورية الطبيعية» الذي يلي مباشرة «بطاقة تعريف».

الموقع: غربي آسيا، على المتوسط. يبلغ طول حدودها البرية ٢٤١٣كلم، منها طول شاطئها البالغ ١٨٣كلم. يحيط بها تركيا (وطول حدودها معها ٨٤٥كلم بحسب الخريطة «الدولية» التي أقرت ضم لواء الاسكندرون إلى تركيا، ونحو ٧٦٠كلم بحسب الخريطة السورية والعربية التي رفضت، ولا تزال هذا الضم)، العراق (٥٩٦كلم)، الاردن (٣٥٦كلم)، لبنان (٣٥٩)كلم، وفلسطين (دولة اسرائيل، ٧٤كلم). وموقعها امتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية.

المساحة: ١٨٥ ألفًا و١٨٠كلم م.

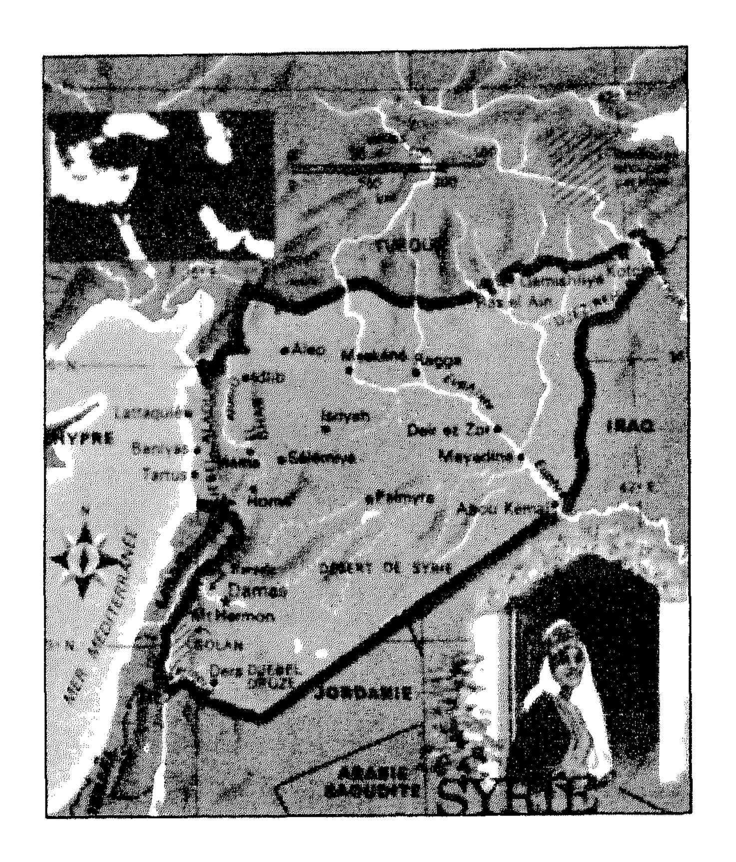
العاصمة: دمشق. أهم المدن: حلب، حمص، حماه، اللاذقية وسواها (راجع باب «مدن ومعالم»).

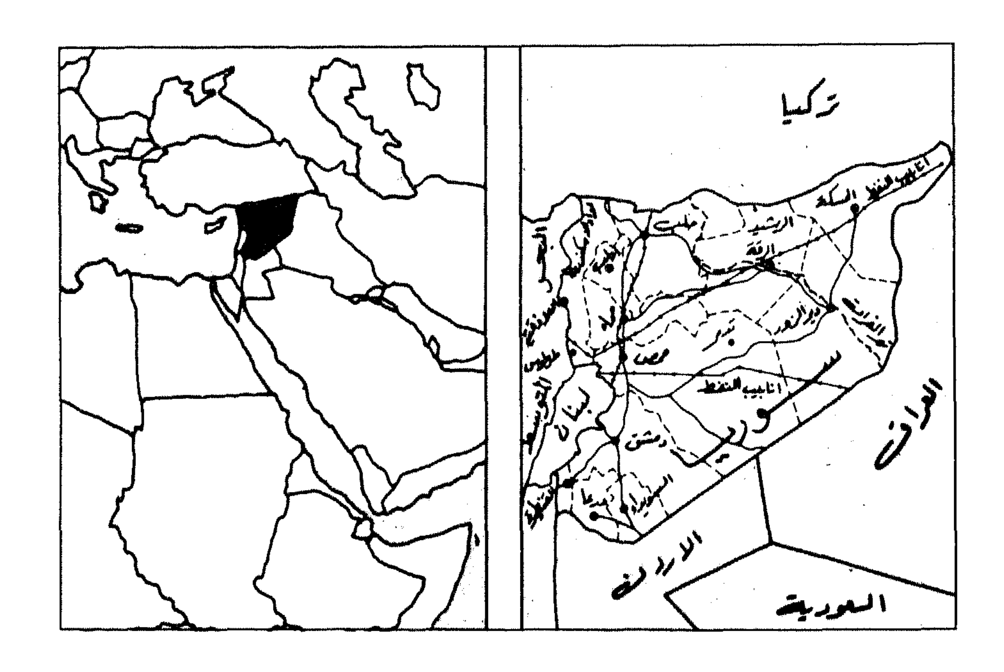
اللغات: العربية (رسمية)، وتتكلمها الغالبية الساحقة من السكان. وهناك لغات الاقليات الصغيرة مثل الشركسية والارمنية، والآرامية (السريانية) والكردية.

الحكم: «جمهورية ديمقراطية شعبية اشتراكية». الدستور المعمول به صادر في ٣١ كانون الثاني ١٩٧٣، وجرى استفتاء شعبي عليه في ١٢ آذار ١٩٧٣ حيث شارك في الاستفتاء ٨٨،٩٪ من مجموع المقترعين، فوافق عليه ٩٧،٦٪ منهم. الرئيس ينتخب لولاية سبع سنوات قابلة للتحديد. رئيس الجمهورية هو الرئيس حافظ الاسد (منذ ١٢ آذار ١٩٧١)، وقد أعيد انتخابه في ٨ شباط ١٩٧٨، وفي ١٠ شباط ١٩٨٥ (٩٩،٩٧٪ من الاصوات)، وفي ٢ كانون الاول ١٩٩١ (٩٩،٩٨٪ من الاصوات). ولرئيس الجمهورية ثلاثة نواب رئيس.

مجلس الشعب (البرلمان) من ٢٥٠ نائبًا منتخبين لمدة اربع سنوات. وسورية مقسمة، اداريًا، إلى ١٤ محافظة. تنضوي الاحزاب العاملة في «الجبهة القومية التقدمية» التي تأسست في ١٩٧٢. ويرأسها الرئيس حافظ الاسد، وأهم احزابها حزب البعث العربي الاشتراكي وامينه العام الرئيس حافظ الاسد (راجع باب «الاحزاب»).

السكان: كان عدد السكان ٦،٣ مليون نسمة في ١٩٧٠؛ واصبح ١٠،٩ ملايين في ١٩٨٧؛ و١١،٣ مليونًا في ١٩٨٨؛ و١٢،٩ مليونًا في ١٩٩٢ (بحسب الكتب التي تصدرها الامم المتحدة، كتاب كل سنتين U.N. World Media Handbook). وبحسب التدرج الاحصائي الذي تعطيه هذه الارقام والبالغ زيادة سنوية متوسطها نحو ٥٠٠ ألف نسمة سنويًا يمكن تقدير عدد السكان الحالي (١٩٩٧) بنحو ١٥،٥ مليون نسمة. وإذا احتسبنا تدرجًا سنويًا على هذا العدد متوسطه ٦٠٠ ألف نسمة، فيمكن تقدير عدد السكان في اواخر العام


TURQUIE
Alep
Meskéné
Ragga
Lattaquié
Baniyas
Tartus
Homs
Palmyra
Deir ez Zor
IRAQ
DESERT DE SYRIE
Damas
Mt Hermon
GOLAN
JORDANIE
ARABIE SAOUDITE
SYRIE


تركيا
العراق
الاردن
السعودية
لبنان
دمشق
حمص

٢٠٠٠ بين ١٧-١٧،٥ مليون نسمة، وذلك على اساس المعدل الذي تعطيه أكثر الدراسات للولادات (١١،٦ بالألف) وللوفيات (٤ بالألف).

يشكل السنّة (بتقديرات متفاوتة) ٦٥-٧٣٪ من مجموع السكان، والعلويون ١٣-١٦٪. وتتوزع النسبة الباقية بين أقليات صغيرة أكبر ها الروم الارثوذكس، ثم الدروز (نحو ١٣٠ ألفًا)، ثم الروم الكاثوليك، ثم السريان اليعاقبة، ثم السريان الكاثوليك، ثم الارمن الكاثوليك، ثم الكلدانيون، ثم الموارنة (نحو ٢٠ ألفًا)، ثم الارمن الغريغوريون، ثم اللاتين (نحو ٧ آلاف). أما اليهود الذين كان تعدادهم نحو ٤٠ ألفًا في ١٩٤٨، أصبح نحو ٤٥٠٠ نسمة في العام ١٩٩٠، و١٤٥٠ نسمة في آذار ١٩٩٣، وقصد أكثرهم الولايات المتحدة في السنوات الاخيرة.

اقليات غير عربية الاصل: وأهم هذه الاقليات التي تقطن سورية اكراد وتعلو نسبتهم في منطقة كرداغ والرباسية أو منقار البطة ولهم حي باسمهم في دمشق؛ وشركس والاصل في وجودهم استغلال السلطة العثمانية لخبرتهم العسكرية بوضعهم على طول خط فاصل بين البادية السورية والمعمورة ابتداء من رأس العين ومنابع الخابور حتى مدينة عمان في الاردن، وذلك في تجمعات وقرى دفاعية تصد غزوات البدو، إلا انهم في ما بعد غيّروا مواقعهم أو انصهروا و لم تعد معرفة باصلهم الا من خلال الكنية (سبباي، الغوري، قانصوه، كوكش، أغتاني، الخ)؛ وتركمان ويقدر عددهم بنحو ٦٠ ألفًا وأهم مراكز تجمعهم في قرى حلب ومحافظة حمص واللاذقية وحماه والجولان؛ وارمن وعددهم نحو ١٠٠ ألف (نسبة غير قليلة منهم هاجرت إلى ارمينيا والولايات المتحدة) ويتركز معظمهم في مدينة حلب التي تضم أكثر من ثلثيهم، وفي مدينة دمشق وفي منطقة كسب وفي الجزيرة العليا والقامشلي؛ وأشوريون يتوزعون في ٣٧ قرية صغيرة ولا يتجاوز عددهم ١١ ألفًا ينتشرون بين قرية تل طويل شمالاً وقرية أم غركان جنوبًا، وهم مسيحيون على المذهب النسطوري واليعقوبي. وباستثناء الأشوريين والارمن تنتمي كافة الاقوام الموجودة في سورية حضاريًا للعرب وللحضارة العربية والاسلامية (راجع باب «سورية الطبيعية»، مناقشة).وتبقى نسبة العرب في كامل سورية ٩٥٪ (من «موسوعة السياسة» المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٨٨).

اللاجئون الفلسطينيون: قدر عدد اللاجئين الفلسطينيين في سورية عام ١٩٤٩ بـ٨٥ ألف لاجيء وفقًا للمجموعة الاحصائية الفلسطينية الصادرة في ١٩٨٨. وأصبح في منتصف ١٩٩٦ (أي بعد ٤٧ سنة) نحو ٣٥٠ ألفًا. يتوزعون على ١٢ مخيمًا وعدد من التجمعات المبعثرة في محافظتي دمشق وريفها والمدن السورية الاخرى. ويعيش منهم نحو ٧٧،٥٪ في دمشق التي تضم ٥ مخيمات واقعة في محيط دمشق وريفها. وبلغت نسبة اللاجئين المسجلين في سورية نحو ١١٪ من المجموع الكلي للاجئين الفلسطينيين المسجلين في مختلف مناطق الأونروا، وشكلوا ما نسبته ٢،٤٪ من مجموع السكان في سورية عمومًا.

يتمتع اللاجئون الفلسطينيون في سورية بجميع ما يتمتع به المواطنون السوريون من حقوق مدنية، لا حقوق سياسية (الانتخابات، الجنسية)، وذلك بموجب القانون رقم ٢٦٠ الصادر في ١٠ تموز ١٩٥٦ الذي يعتبر الفلسطينيين في سورية كالسوريين اصلاً في جميع ما نصت عليه القوانين والانظمة النافذة المتعلقة بحقوق التوظيف والعمل والتجارة وخدمة العلم، مع احتفاظهم بجنسيتهم الاصلية.

وجاءت التطورات السياسية الاخيرة، بدءًا من مؤتمر مدريد واتفاقات أوسلو، لتشكل لدى —

اللاجئين الفلسطينيين في سورية «حالة من الاضطراب وصل حسب ما يقول البعض منهم الدخول في النفق المظلم... إضافة إلى ما يعانونه من اوضاع اجتماعية وازمات اقتصادية مركبة زادت بسبب الاجراءات التي اتخذت في حق الفلسطينيين عمومًا في اعقاب حرب الخليج الثانية بمنعهم من الانخراط في اسواق العمل الرئيسية في الوطن العربي... وإلى ما تعانيه وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (اونروا) بصورة متزايدة في السنوات الاخيرة من نقص في تمويل موازنتها العادية... وتجويف مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية ونقلها إلى سلطة الحكم الذاتي وفصل ٨٥٪ من العاملين فيها بالخارج ووقف الموازنات المخصصة لها على الاغلب وتخفيض بعضها الآخر إلى درجة غير معقولة وتحويل الكثير من المساعدات الدولية إلى السلطة الفلسطينية بما فيها مساعدات الاونروا... (واصبح اللاجئون الفلسطينيون في سورية) يعولون على الموقف السياسي السوري في ما يخص قضيتهم معتبرين ان السلطة الفلسطينية قد انسحبت من بينهم خلسة وتركتهم للمجهول...» (من مقال مطول استند إلى إحصاءات وتحقيقات ميدانية كتبه عبد الكريم محمد، «الحياة»، تاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٩٧).

الاقتصاد: مرّ الاقتصاد السوري منذ ١٩٦٣ (أي بعد ثورة آذار واستلام حزب البعث للسلطة) بثلاث مراحل، تجسدت الاولى بعمليات التحويل الاشتراكي، واتسمت بداياتها بارتباكات في الاجراءات الاقتصادية خصوصًا في المرحلة الممتدة بين ١٩٦٣ وقيام الحركة التصحيحية في ١٩٧٠. ومع هذه الحركة وحتى أوائل الثمانينات قامت السياسة الاقتصادية على مبدأ اساسي هو الاعتماد على الذات. فسنت تشريعات كثيرة لمنع أي تأثير خارجي، ووضعت القيود على الاستيراد وطبقت رقابة صارمة على القطع الاجنبي. ولكن هذه السياسة الاقتصادية لم تأخذ بالحسبان إيجاد مصدر للعملات الصعبة من اجل الخطط التنموية الكبرى، ما أوجد عجزًا مستمرًا في الميزان التجاري إضافة إلى ارتفاع المديونية. وفي الوقت نفسه، تمّ إنشاء بنية تحتية عبر مشروعات اقتصادية وصناعية ضخمة.

منذ منتصف الثمانينات، بدأت المرحلة الثانية. فظهر القطاع الخاص من جديد وقدر رأسماله المشكل بـ٤٠٪ من مجموع الاموال القومية المشكلة حتى ١٩٨٦. وفي نهاية الثمانينات حدث تحول استراتيجي في السياسة الاقتصادية من الصناعة إلى الزراعة. فصدر العديد من التشريعات التي تضمنت انشاء شركات صناعية-زراعية لانتاج وحفظ المنتوجات الزراعية. وشاركت الحكومة في إنشاء حوالي ١٢ شركة مشتركة من القطاعين العام والخاص، وراح الاقتصاد يتحول تدريجيًا من اقتصاد اشتراكية الدولة إلى اقتصاد موجه متعدد الجوانب تمسك الدولة بسلطة القرار فيه.

المرحلة الثالثة كانت مع بداية التسعينات، ويتم تحديدها من قبل بعض الاقتصاديين بتاريخ صدور القانون رقم ١٠ للعام ١٩٩١ الذي منح المستثمر اعفاءات جمركية عند الاستيراد من الخارج وحصل على ضمانات لحماية الاموال المستثمرة وارباحها، كما سمح القانون رقم ١٩ للمغتربين باستيراد تجهيزات صناعية وجلب سيارات. وسُمح بحرية الاستثمار للقطاع الخاص في كل المجالات عدا النفط. واجريت دراسات للسماح بفتح فروع للبنوك الاجنبية في المناطق الحرة، كما قامت الدولة بتوحيد سعر صرف الليرة لتحرير صرف الدولار، وبذلك استقرت الليرة السورية بفضل السماح للمصدرين ـــــ

بالاحتفاظ بـ٧٥٪ من عائدات التصدير بالعملات الاجنبية من اجل الاستيراد. وظهرت نتائج هذه الاجراءات في ازدياد الثقة بالاقتصاد السوري ونقده، «ولكن الآراء ما زالت متضاربة حول جدوى هذه التعديلات وهل ستؤدي إلى تحول نحو اقتصاد السوق؟» (نبيل سمان، «الاقتصاد السوري والرأسمالية الجديدة»، دمشق ١٩٩٥).

ومع ان الحكومة فتحت المجال امام القطاع الخاص للعمل في المجالات التي كانت للقطاع العام واعطته تسهيلات عدة، فانها لا تزال تعلن تمسكها بالقطاع العام، وتؤكد على دوره وأهميته وتتبنى مفهوم التعددية الاقتصادية الذي يقوم على وجود القطاعات الخاص والعام والمشترك.

وعلى الصعيد القطاعي، اظهرت الارقام الرسمية (١٩٩٧) نموًا متتاليًا للنشاط السياحي، من ٢،٢٥٣ مليون زائر في العام ١٩٩٥ إلى ٢،٤٣٥ مليون زائر في ١٩٩٦، فيما من المقدر ان تزيد عائدات السياحة إلى حوالي ٥٠ مليار ليرة، ما نسبته ٩،٥٪. وعلى الصعيد الزراعي استمرت الزراعة السورية على وتيرتها المتسارعة في ظل الارقام القياسية التي سجلتها محاصيل القمح والقطن والشعير، إلى محاصيل الخضار والفاكهة.

وحقق الميزان التجاري السوري، ولأول مرة، في ١٩٨٩، فائضًا بنحو بليون ليرة سورية بسبب الصادرات النفطية. لكنه ما لبث ان تراجع في الاعوام اللاحقة بسبب وقف العمل بميزان المدفوعات مع الاتحاد السوفياتي (المنهار). وتحتل دول الاتحاد الاوروبي المركز الاول بالنسبة إلى الصادرات السورية التي شكلت، في ١٩٩٦، نسبة ٥٧٪ بدلاً من ٣١٪ بين ١٩٨٩ و١٩٩٥. وبالنسبة إلى النفط في سورية، فقد أعلن في نيسان ١٩٩٧، وعلى لسان المدير الاقليمي لـ«منظمة الامم المتحدة للتنمية الصناعية» (يونيدو) مهدي الحافظ، عن احتمال نفاد احتياط النفط السوري بعد عشر سنوات. ودعا الحافظ الحكومة السورية إلى ضرورة البحث عن البدائل عبر التنقيب في مناطق جديدة وتطوير صناعة النسيج لتوفير القطع الاجنبي. لأن الصادرات النفطية السورية توفر نحو بليوني دولار سنويًا وتشكل نحو ٦٣٪ من الصادرات السورية.

يفسر الخبراء النمو الاقتصادي في سورية بمجموعة اعتبارات، ابرزها الاستقرار وسياسة الانفتاح المتدرج لتجنب اية اثار جانبية على المستويين الاجتماعي والمعيشي. والميزة التي نجحت الحكومة في تحقيقها تمثلت في حماية الاقتصاد الوطني من الانعكاسات التي واجهتها اقتصادات مجاورة مثل لبنان والاردن، في ١٩٩٦، من جراء تعثر مفاوضات السلام، وانهيار الآمال التي كانت معقودة عليها لجذب استثمارات جديدة.

تتوزع اليد العاملة بنسبة ٢٨٪ منها في الزراعة، وتساهم بـ١٣٪ من الناتج العام؛ و٢٥٪ في الصناعة (٢٠٪ من الناتج العام)؛ و٤٦٪ في الخدمات (٤٩٪)؛ و١٪ في المناجم-الفوسفات، الرخام، الجيبس، الليينيت والأسفلت- (وتساهم بـ١٨٪ من الناتج العام).

سورية الطبيعية
(مناقشة)

(خصّ الصديق الاستاذ ايلي الخوري-الحائز على شهادة جدارة في العلوم الاجتماعية-الموسوعة بمبحث هذا الباب «سورية ا لطبيعية». وقد استند إلى مراجع عديدة، أهمها: ١- أنطون سعادة، «نشوء الامم»، و«الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية» و«لواء الاسكندرون»؛ ٢- فيليب حتي، «تاريخ سورية» و«خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الادنى»؛ ٣- جيمس ميلارت، «أقدم الحضارات»؛ ٤- جورج قرم، «تعدد الاديان وانظمة الحكم»؛ ٥- صموئيل كرايمر، «ألواح من سومر» و«كتبوا على الطين»؛ ٦- عبد العزيز علون، «سورية والشام: صراع وتبادل مواقع»):

في التحديدات الجغرافية السابقة

تمهيد: ان دارس التاريخ السوري يواجه عدة مصاعب متعلقة بمدلول الكلمة «سورية» ومتعلقة بالاخطاء والمغالطات العلمية التي تعترضه في معظم الاصول التاريخية والتي تستوجب توضيحًا وتصويبًا لا يمكن ان يتمّا من دون الانطلاق من نظرة واضحة وفهم علمي للارض وجغرافيتها وللاجتماع البشري وللتاريخ على وجه العموم.

وفي هذا المجال يستطيع دارس التاريخ ان يستفيد مما تقدمه العلوم الاجتماعية اليوم وخلاصته هو ان الارض مع كونها وحدة جوّية، مقسّمة إلى بيئات طبيعية متمايزة هي السبب المباشر لتوزّع النوع البشري إلى جماعات؛ وان كل جماعة بشرية (مجتمع) قد انشأت تاريخها بتفاعلها مع وعلى البيئة الطبيعية التي تشغلها؛ وان البيئة تقدم الامكانيات لا الحتميات ويعني ذلك ان التاريخ غير مكتوب في طبيعة الارض؛ وان وحدة المجتمع هي التي تعين التاريخ القومي. وهذه بعض القواعد المبدئية-القابلة للمناقشة والنقد-التي سننطلق منها في بحثنا هذا.

في عملية استعراض للتواريخ التي كتبت عن سورية، نجد ان بعضها يقصر تعريف سورية على «سورية البيزنطية أو الاغريقية المتأخرة الممتدة من طوروس والفرات إلى السويس» وان بعضها الآخر يقصر تعريف سورية على البقعة ما بين كيليكيا وفلسطين مخرجًا فلسطين منها. ويستعمل معظم المؤرخين تسميات غائمة مطاطة مثل المشرق، البلاد الشرقية، الشرق الادنى، الشرق الاوسط، الهلال الخصيب... ويحدد بعضهم التسمية الاخيرة بقوس يمتد من الخليج الفارسي إلى شواطىء البحر المتوسط إلى مصر التي يضعونها في قسمها الاسفل (مصب النيل) ضمن الهلال. ولكن هذا التحديد يفتقر إلى الدقة بشكل واضح. والاستاذ كروبر الذي أورده في كتابه «الانتروبولوجيا» يقول في ذلك: «ولكن مصر ضمن هذا الهلال الخصيب تعتبر منفصلة عنه، فهي في افريقيا ويفصلها عن خط الخصب المتواصل تيه سيناء، وهي فوق ذلك خط خصيب محاط بالصحراء من جميع النواحي، ولكن الاقطار الاسيوية ضمن الهلال تتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقًا». والمؤرخ السوري فيليب حتي ايضًا، في كتابه «خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الادنى» يصف الهلال الخصيب بأنه حزام يشبه نصف دائرة، ارضه صالحة للزراعة ومحاط من جميع جوانبه بصحار وجبال وبحار، وان طرفه الشرقي يشمل العراق وان طرفه الغربي يشمل وادي مصر. لكنه يعود فيقول ان «وادي نيل مصر يكاد ان يكون معزولاً من جميع جوانبه. أما العراق فبلاد مفتوحة للمخارج من جميع جوانبه».

الاســم: المرجّــح ان تســمية «الهــلال الخصيب» اعتمدها الاستاذ جيمس هنري برستد مؤسس المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو منبّهًا إلى ان هناك ثمة وحدة جغرافية وحضارية بين الشام والعراق.

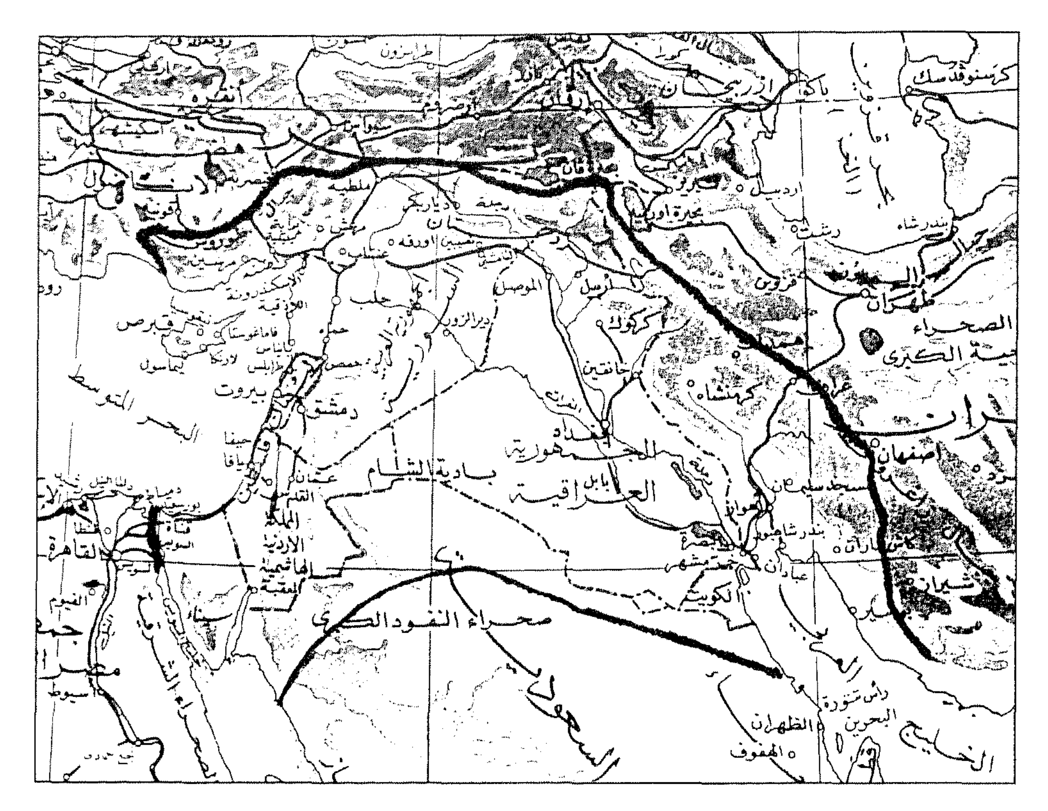
والواقع ان مسألة التنبه للوحدة الطبيعية الجغرافية بين الشام والعراق ليست حديثة إذ إن هذه الوحدة جعلت من سورية وحدة سياسية، حتى في الازمنة الغابرة، ظهرت في عقد المحالفات اثناء اخطار الحملات المصرية وغيرها، وفي الحملات السورية على مصر من ايام «الهكسوس» كما ظهرت مكتملة فيما بعد في تكوين الدولة السورية في العهد السلوقي.

ولو انتقلنا إلى اصل الكلمة لوجدنا ان اسم سورية يظهر بشكل شرين Shryn في آداب اوغاريت. وكانت احدى مناطق شمالي الفرات معروفة عند البابليين باسم سوري SU-RI ويرجّح جمهور العلماء ان الاسم مشتق من اشور التي ما بين النهرين. وفي العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم واطلق على المساحة الواقعة بين طوروس وسيناء ضمنًا وبين البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية. وكانت فلسطين عند هيرودتس قسمًا من سورية، وكان اسم سيروس Syrus (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية وامتدت ولاية سورية الرومانية من الفرات إلى مصر. ويقول الدكتور عبد العزيز علون: «وما تكرار المؤرخ اليوناني الكبير هيرودتس في عام ٤٤٠ق.م. لمصطلح سورية في كتاباته إلا دليلاً قاطعًا على ان إسم سورية ليس إسمًا طارئًا او جاء ابن ساعته في القرن الخامس ق.م. ونحن نقول هنا ما هو أبعد من ذلك حتى؛ فنرى ان ورود الجذر «سر SYR» في كثير من كلمات اللغات المجاورة أو اللغات السورية ما هو إلا إشارة إلى ارض شعب مبدع كان يتمركز فيما بين المتوسط والفرات باعتبارها منطقة سورية الجوفة COELE SYRIA كما كان يشير إليها كتاب الفترة الهيلينستية أو منطقة جنوب غربي آسيا التي كان يشير إليها السلوقيون في القرن الثالث ق.م.».

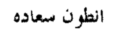
والحقيقة ان فقد سورية سيادتها على نفسها ووطنها بعامل الفتوحات الخارجية الكبرى عرّض البلاد إلى تجزئة واطلاق تسميات سياسية متجزئة عليها. «ففي العهد البيزنطي-الفارسي بسطت الدولة البيزنطية سيادتها على سورية الغربية كلها، واقتصر اسم سورية على هذا القسم، وبسطت الدولة الفارسية سيادتها على سورية الشرقية (ما بين النهرين أو اراضي اشور وبابل القديمة) واطلقت عليه إسم «ايراه» الذي عرّبه العرب فصار العراق». وقد نتج عن هذا الاقتسام ابهام في حدود سورية، وزاد الامر تفاقمًا هجوم الصحراء... وتقلص العمران بسبب الحروب والغزوات المتتالية.

ويذكر المؤرخ المسعودي الذي عاش في اواخر العصر العباسي، في كتابه التنبيه والاشراف: «ان الروم يسمون بلادهم ارمانيا. ويسمون البلاد التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشام والعراق سورية. والفرس إلى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية فيسمون العراق والجزيرة والشام «سورستان» إضافة إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون ويسمون سريان ولغتهم سورية وتسميهم العرب النبط».

وبعد نشو الامبراطورية العثمانية، عامل الاتراك الولايات السورية التي كانت تحت سيطرتهم كوحدة. وكان الفلسطينيون يعرفون بالسوريين الذين في فلسطين. والموسوعة البريطانية Encyclopaedia Britannica الصادرة في عام ١٩١١ في طبعتها الحادية عشرة تعرف فلسطين على انها الثلث الجنوبي من منطقة سورية. واستعمل اسم «سوري» في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية وغيرها حتى العصر الحديث



سورية الطبيعية


انطون سعاده



كتسمية تشمل سكان سورية كلها. وقد كان لبنان بالنسبة للمستشرقين والمؤرخين والسياسيين الاجانب «سلسلة جبال من سورية» وقد ورد هذا المعنى حرفيًا في القاموس الفرنسي لعام ١٩٠٩ إذ يقول Le Liban est une chaine de montagnes en Syrie ولكن مع نهاية الحرب العالمية الاولى بسطت بريطانيا وفرنسا سيطرتها على سورية الطبيعية وجزّأتها حسب المصالح والاغراض السياسية. وحصلت التسميات: فلسطين، شرق الاردن، لبنان، سورية (الشام)، كيليكيا، العراق، الكويت، فتقلص اسم سورية إلى منطقة الشام المحدودة.

سورية بين الواقع الطبيعي والتجزئة السياسية

الحدود الطبيعية: في مطالعتنا للابحاث الانتروبولوجية المعاصرة ولمؤلفات علماء الآثار والتاريخ والجغرافيا الثقات نجد إجماعًا على وجود وحدة جغرافية-زراعية-اقتصادية-استراتيجية في المنطقة الواقعة شرقي المتوسط ما بين آسيا الصغرى وايران من جهة والجزيرة العربية من الجهة الأخرى والتي نحن بصدد تسميتها «سورية الطبيعية». هذا المصطلح الذي قام انطون سعاده بتعيينه في احد مبادىء حزبه «الحزب السوري القومي الاجتماعي»، وهو المبدأ الاساسي الخامس الذي ينص على ان الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامة السورية. وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الاحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق. ويعبر عنها بلفظ عام: الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص.

وفي تفصيل هذا المبدأ، نجد ان الحدود الشمالية للوطن السوري تتكون من سلسلة جبال عالية تشكل قوسًا طبيعيًا يمتد من الشمال الغربي حيث ترتفع جبال طوروس-وراء أضنه ومرسين المدينتين السوريتين القائمتين في سهول كيليكيا الخصبة التي يرويها نهرا سيحان وجيحان-مشكلة الحد الطبيعي بين سورية وآسيا الصغرى، ومن جبال طوروس ايضًا تبتدىء اصول النهرين السوريين الكبيرين دجلة والفرات. ويمتد قوس الجبال الشمالية نحو الشرق إلى جبال البختياري أو زغروس وهي الجبال الفاصلة بين سورية وايران. واخيرًا تنعطف هذه الجبال حول منطقة الاهواز أو الاحواز السورية التي يليها خليج العجم حيث تنتهي حدود سورية الشرقية. ويشكل قوس الصحراء الغربية والبحر الاحمر الحدود الجنوبية. واخيرًا يشكل البحر السوري (البحر الابيض المتوسط) الحدود الغربية.

أما جزيرة قبرص فهي تقع في حضن خليج الاسكندرون. وذراعها ممتدة نحو هذا الخليج السوري. انها قطعة من الارض السورية في البحر، إذ ان تكوينها الجيولوجي من تكوين هذه الارض، وموقعها الجغرافي يجعلها تابعة لها ومركزها الاستراتيجي يكسبها اهمية عظيمة لسلامة الوطن السوري. واسم قبرص كنعاني ويعني النحاس (قيبرو) ولم يزل هذا الاسم الكنعاني للنحاس حيًا في اللغة الانكليزية Cupper. وكان السوريون الكنعانيون اول من استوطن هذه الجزيرة. وفيها ولد الفيلسوف السوري الكنعاني زينون عام ٣٤٥ق.م. مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة والذي ارتحل إلى اثينا حيث علم ومات عام ٢٦٥ق.م. وكان قد رفض لقب المواطن الاثيني الذي عرض عليه شعبيًا ورسميًا طوال حياته وأصرّ على لقبه الفينيقي السوري. ويقول مونتسكيو: «استطاعت الرواقية وحدها ان تربي مواطنين

احرارًا وان تنشيء رجالاً عظامًا».

وقد تم استيلاء العثمانين على قبرص عام ١٥٧١. وفي ٤ حزيران عام ١٨٧٨، وبناء على اتفاق استعماري تعهدت انكلترا بموجبه بحماية تركية من الاطماع الروسية، تخلىّ الباب العالي لانكلترا عن ادارة الجزيرة واحتلالها مقابل جعالة مقدارها ٢٢٩٣٦ صرة من النقود. وقد كتب يومئذ اللورد ساليسبوري، وزيرالخارجية البريطانية، إلى السفير البريطاني في استنبول يقول: «ان لقبرص ميزة مزدوجة، فهي قريبة من آسيا الصغرى ومن سورية معًا. وسوف تتيح لنا من دون ابداء أي فعل عدائي ظاهر... ان نكدّس الآلات الحربية وان نحشد عند الاقتضاء القوات اللازمة للقيام بعمليات في آسيا الصغرى وسورية...» نقلاً عن هوروفيتز Hurewitz في كتابه «الدبلوماسية في الشرقين الادنى والاوسط» ص ٣٤٧. وهذا ما يؤكد صحة القول ان قبرص هي حضن سورية في البحر وانه لكي لا تكون شواطيء سورية منكشفة لعدو مقبل من البحر من الضروري الاحتفاظ بهذه الجزيرة السورية (الدليل إلىالعقيدة السورية القومية الاجتماعية ص ١٣٥). وهذه الجزيرة باتت جمهورية مستقلة تتنازعها دولتان لا علاقة قومية لهما فيها هما تركيا واليونان.

اتفاقيات ومؤتمرات التجزئة السياسية: ما كادت السلطنة العثمانية تضعف حتى برزت اطماع الدول الغربية وخاصة فرنسا وبريطانيا في السيطرة على سورية بعد ان قامت باحتلال الشمال الافريقي. وكان محمد علي الكبير قد ضم سيناء عام ١٨٤١ إلى مملكته المصرية، وما تزال. ويقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الحيزكي في كتابه عجائب الآثار الصادر في مطلع القرن التاسع عشر: «انه من المؤكد ان من يولد في منطقة العريش في الجزء الشمالي من شبه جزيرة سيناء هو واحد من السوريين».

واثناء الحرب العالمية الاولى، اتفقت فرنسا وبريطانيا وروسيا على اقتسام تركة «الرجل المريض»، ثم ما لبثت فرنسا وبريطانيا منفردتين ان عقدتا اتفاقًا سريًا في ١٦ ايار ١٩١٦ عرف بمعاهدة سايكس-بيكو كان نتيجته تقسيم سورية إلى قسمين بخط يمتد من الشمال الشرقي قرب المنطقة المعروفة اليوم بجزيرة ابن عمرو إلى الجنوب الغربي في الناقورة. فما كان جنوبي هذا الخط وشرقيه كان حصة بريطانيا، وما كان شمالي هذا الخط وغربيه كان حصة فرنسا. ووضعت فلسطين تحت ادارة دولية باشراف الحكومة البريطانية تمهيدًا لاعطائها لليهود. وحدّد الاتفاق هذا التقسيم على الخارطة بانتظار انتهاء الحرب.

ويقول حاييم وايزمن في مذكراته ان اليهود كانوا وراء اخراج روسيا-قبل اخراجها الذاتي بالثورة البولشيفية-من الاتفاقية الثلاثية لعام ١٩١٥، ويقول ايضًا ان وساطته عجلت في الاتفاق البريطاني الفرنسي.

وفي ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ استطاع اليهود الحصول على وعد من الحكومة البريطانية، بلسان وزير خارجيتها (أرثر بلفور)، باعطائهم «وطنًا قوميًا» في فلسطين لقاء مكاسب بريطانية مالية- وسياسية (راجع «وعد لفور»، الجزء الاول من الموسوعة، ص ٣٥٦).

وبعد انتهاء الحرب استولت بريطانيا وفرنسا على المناطق المقسمة وفق الاتفاقية. وفي ٢٥ نيسان ١٩٢٠ أقرّ المجلس الاعلى الحليف هذا التقسيم في مؤتمر سان ريمو؛ وفي ١١ آذار ١٩٢١ باتفاق لندن..ثم في ٢٤ تموز ١٩٢٤ بمعاهدة لوزان، تنازلت فرنسا عن كيليكيا السورية لتركية. (راجع الجزء ٦ ص ٣٠٢).

وكما جزأت بريطانيا حصتها بعدئذ إلى مستعمرة فلسطين، وادارة شرق الاردن، وامارة الكويت، ومملكة العراق، هكذا جزأت فرنسا حصتها إلى دولة لبنان، ودولة دمشق، ودولة حلب

عام ١٩٢٠. وفي آذار ١٩٢٢ فصلت جبل العلويين وجبل الدروز عن دمشق واعلنتهما «مستقلين». ثم جمعت هذه «الدول» الشامية باتحاد فدرالي في ٢٨ حزيران ١٩٢٢ بقرار صادر عن المفوض السامي في بيروت.

وفي ٢٣ حزيران تنازلت فرنسا عن لواء الاسكندرون السوري لتركيا التي كانت قد اتبعت سياسة انتهازية واضحة مقابل سياسة انهزامية للحكومة الشامية، تمثّلت بشخص رئيس الوزراء جميل مردم الذي اعتبر ان نزع اللواء عن جسم الوطن خسارة لتركيا لانه سيسبب لها المشاكل وليس خسارة لسورية (راجع الجزء ٦ ص ٢٥٨).

ولم ينهض في سورية غير الحزب السوري القومي الاجتماعي لمقاومة الدسائس السياسية والاتفاقات الانترنسيونية المجحفة. فأرسل انطون سعادة مذكرة إلى العصبة الامية من بيروت بتاريخ ١٤ كانون الاول ١٩٣٦ ووقع باسمه وبصفته زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي، جاء فيها:

«ان الحزب السوري القومي الاجتماعي يعدّ كل عمل يقصد منه بتر لواء الاسكندرون عن جسم سورية، أو وضع حدود لسيادة الامة السورية على هذا اللواء، خرقًا لحرمة سيادة الامة السورية وللمادة الثانية والعشرين من عهد الجمعية الامية ولكمال الارض الوطنية السورية.

ان الحزب السوري القومي الاجتماعي يحتجّ بشدة على المناورة التركية الرامية إلى فصل قسم من الارض السورية عن الوطن السوري بحجة ان في جزء من الارض السورية عددًا قليلاً من الاتراك.

ان الحزب السوري القومي الاجتماعي يطلب من الجمعية الامية وخصوصًا الامم المتمدنة والصديقة ان تؤيد الاثباتات السورية، وان لا تعطي حلاً شاذًا لمسألة الاسكندرون يشجّع على ايجاد حال محرجة في الشرق الادنى تتحول عاجلاً أو آجلاً إلى مصدر نزاع».

وارسل سعادة مذكرة ثانية إلى المفوض السامي الفرنسي في ٨ كانون الثاني ١٩٣٧، عارضًا عليه المساعدة لصدّ عدوان مسلح محتمل من قبل تركيا على سنجق الاسكندرون، بعد سريان شائعات تقول ان تركيا تحشد جيشها للهجوم على اللواء اثر انعقاد مجلس الوزراء التركي في اسكيشهر اواخر عام ١٩٣٦ لبحث مسألة السنجق.

كما ارسل سعادة مذكرة ثالثة إلى الحكومة الشامية في كانون الثاني ١٩٣٧ يوضح فيها مسألة الاسكندرون القومية. ويفصّل الموقف الواجب اتخاذه من قبل الحكومة الشامية. وكان الجواب سلبيًا، وتمّ سلخ الاسكندرون.

أما في الجزء الجنوبي من سورية، فكانت العصابات اليهودية مدعومة من الانتداب البريطاني تقوم باعمالها الارهابية المتصاعدة والاستيلاء على الارض وبتسهيل تدفق اليهود إلى فلسطين. وحصل نتيجة لذلك عدة صدامات كان اعنفها ثورة ١٩٣٦، التي ما كادت ان تبدأ بإرباك اليهود حتى صدر قرار ملوك ورؤساء الدول العربية في انشاص مصر عام ١٩٣٦ بطلب وقف الثورة، وقد تبع هذا القرار ارسال بعثة اللورد «بيل» البريطاني لدراسة مقدرة ارض الكيان الفلسطيني على استيعاب السكان، واوصت بتقسيم فلسطين. وقد رُفضت مقترحات هذه اللجنة وتجددت اعمال المقاومة التي بقيت ارتجالية. واستغل اليهود ظروف الحرب العالمية الثانية واستطاعوا ان يعلنوا قيام دولتهم في ١٥ ايار ١٩٤٨، بعد صدور قرار التقسيم عن هيئة الامم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧. هذه الدولة التي تشكل نواة لمملكة اليهود الموهومة، التي وضع خريطتها زعماء اليهود والتي تشمل مجمل البلاد السورية وقسمًا من العربية السعودية وقسمًا من مصر. وهذه الارض هي التي يخطط اليهود لاغتصابها، وكل تصريح أو

قول يهودي ينافي هذا المخطط هو للتغطية فحسب، ومن قبيل التكتيك والضرورات السياسية المرحلية على طريق هدفهم الاساسي الذي تثبته (صراحة في أكثر الاحيان) الوثائق اليهودية.

في التاريخ الحضاري

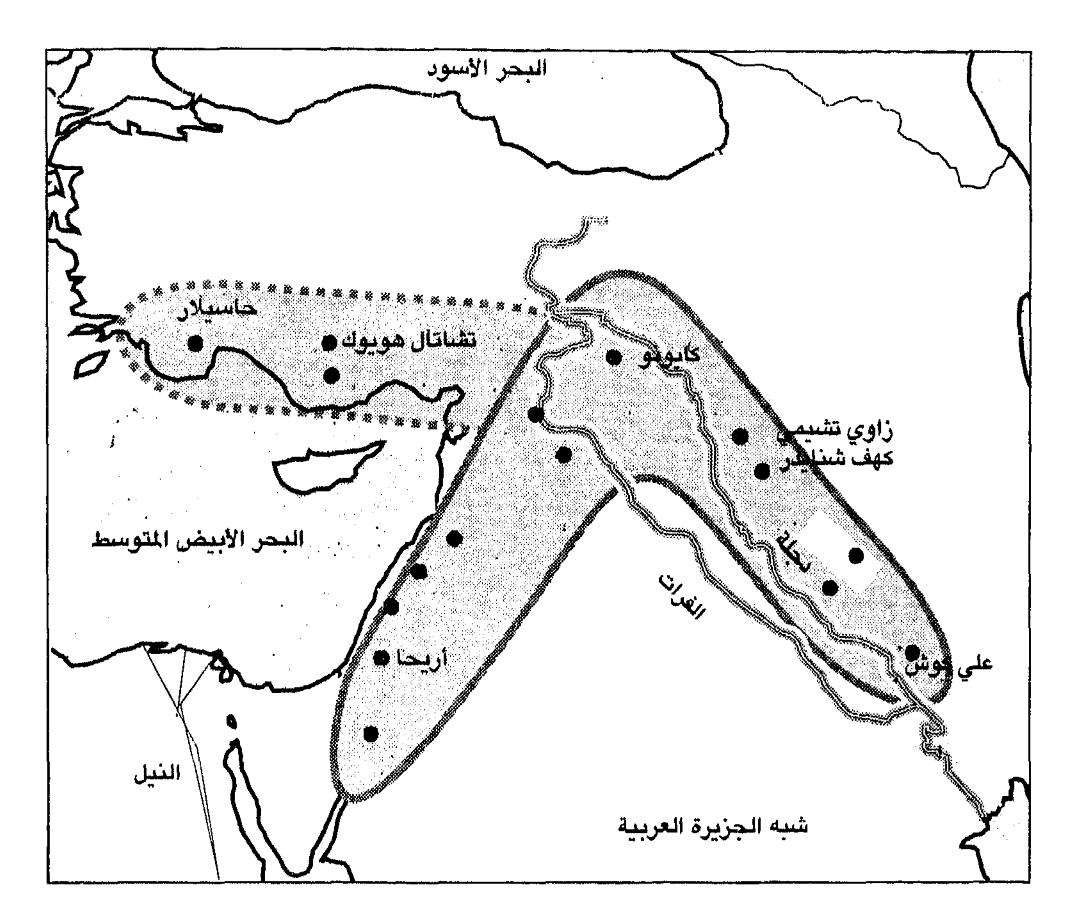
تعويذة أشورية تربط حركة الكون بدقائق امور الحياة: يبدأ عالم الفلك الاميركي كارل ساغان كتابه «الكون» بالمقدمة التالية: كانت أغلب الاحداث الدنيوية في احاديث الناس وعاداتهم في الازمنة القديمة مرتبطة بالاحداث الكونية الكبيرة، ولعل المثال المثير في هذا المجال هو التعويذ ضد الدودة التي كان الاشوريون في عام الف قبل الميلاد يرون فيها سبب الالم في الاسنان. تبدأ التعويذة من نشو الكون وتختتم بعلاج ألم الاسنان.

فبعد ان خلق آنو (Anu) السماء، وخلقت السماء الارض وخلقت الارض الانهار، وخلقت الانهار، وخلقت الانهار الاقنية وخلقت الاقنية المستنقعات، وخلقت المستنقعات الدودة، ذهبت الدودة باكية إلى شاماس، وانهالت دموعها امام أيا قائلة: «ماذا ستقدم إلي من غذاء؟» وماذا ستقدم إلي من شراب؟ سأعطيك التين المجفف والمشمش. ماذا تعني لي هذه الاشياء، التين المجفف والمشمش؟ ارفعني ودعني اعش بين الاسنان وعلى اللثة. لانك كنت قد قلت: ايتها الدودة، فليعضدك «أيا» بقوة يده. (وأما التعويذة ضد ألم الاسنان): وعلاجك هو الجعة من الدرجة الثانية، والزيت الذي تمزجينه معها، وتقرئين التعويذة ثلاث مرات ثم تضعين الدواء على الاسنان.

ان من يقرأ هذه التعويذة لا بد ان يلاحظ التسلسل في عملية الخلق ونشو الحياة ووحدة الوجود المادي الروحي، إذ لم تكتف التعويذة بفعل الايماء النفسي الذي تتركه لدى المريض، بل ايضًا قدّمت علاجًا ماديًا هو الجعة من الدرجة الثانية. ويعتبر هذا العلاج الاشوري لوجع الاسنان متوافقًا في المبدأ مع النظرية العلمية للنشوء والارتقاء ومع احدث النظريات الطبية العصرية.

الاسهام الاول: الثورة الزراعية: في الحقيقة لو اردنا تفصيل انجازات سورية الحضارية، واسهاماتها في التطور النفسي الثقافي للبشرية، لاعوزنا ذلك لمجلدات على طراز «قصة الحضارة» لـ«ول ديورانت»، ولكن هذه المرة عن سورية فقط. والمشكلة ما تزال حتى الآن تكمن في عدم توفر فريق مؤهل من الباحثين وعلماء الاجتماع والآثار والانتروبولوجيا، وفي غياب مراكز الابحاث، وفي ان التنقيبات الاثرية ما تزال في بداياتها.

ورغم ذلك فإن علماء الآثار اليوم والانتربولوجيين على وجه الخصوص (نذكر منهم العالم الانتربولوجي الفرنسي المعاصر جاك روفييه J. Ruffié)، يجمعون على ان انحسار الجليد عن المنطقة الممتدة شرقي البحر المتوسط (أي سورية) حدث في الالف العاشر قبل الميلاد، وأدى ذلك إلى خروج الانسان من المغاور والكهوف، ليجد امامه انواعًا من القمح البري والشعير الذي كان ينمو طبيعيًا على السفوح الجنوبية لجبال طوروس، والذي أصبح بديلاً غذائيًا عن الحيوان الذي كان يصطاده. ثم ما لبث ذلك الانسان ان احدث اعظم ثورة ثقافية في العالم القديم، ثورة التخلي عن الصيد والقنص وابتكار الزراعة والتي يسميها العلماء بالثورة النيوليتية. ومع ابتكار الزراعة استقر ذلك الانسان قرب مورد الغذاء والماء، وبدأ انشاء الحواضر السكنية الاولى، التي ظهرت لعصر يعود في بعض الاماكن إلى ما قبل ١٢٨٠٠ سنة مضت والتي يمثلها الدور النطوفي (نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين). وترافق ذلك مع تدجين الحيوان، وقد



ء«الهلال الخصيب موطن الثورة التكنولوجية الأولى»: تحت هذا العنوان نشرت «الحياة» (العدد ١٢٢١٧، ٧ آب ١٩٩٦ ص١١) الخريطة أعلاه، وألحقتها بالتعليق التالي: «الثورة التكنولوجية الأولى في التاريخ التي أدت إلى ابتكار الزراعة وقعت قبل نحو عشرة آلاف عام في الهلال الخصيب الذي يضم جزءًا من ايران ومعظم العراق وسورية ولبنان وفلسطين والاردن ويمتد إلى العقبة، ويشمل سهل الاناضول في تركيا والضفاف الشمالية الشرقية للبحر المتوسط حتى بحر إيجه. وأدت الثورة الزراعية إلى مضاعفة السكان عشرات المرات وزحفهم بحثًا عن اراض جديدة في كل الاتجاهات شرقًا إلى ايران وشبه القارة الهندية وشمالاً إلى اوروبا. جرى الزحف السكاني بمعدل كلم واحد سنويًا واستغرق فترة تبلغ نحو ٤ آلاف عام حتى وصل إلى بريطانيا والدنمارك واسبانيا. وتشير النقاط في الخريطة إلى مراكز اكتشفت لتدجين حبوب الحنطة والشعير والحيوانات التي تعتبر أهم مكونات الثورة الزراعية آنذاك».

امتدت ثقافة الانسان النيوليتي (انسان العصر الحجري الحديث) لتشمل الهلال السوري الخصيب، وشكّلت بيئة الهلال الصالحة ووحدته المناخية، الخلفية الضرورية الملائمة لنشوء هذه الثورة العظيمة.

ومنذ وقت مبكر، بدأ السوريون باستخراج المعادن وما لبثوا ان ابتكروا المحراث والدولاب، مما وفّر جهدًا انسانيًا عظيمًا، أصبح بالامكان توجيهه لسد الحاجات الاخرى. وفي مجال الزراعة يقول عالم الجغرافيا الفرنسي فيدال دولابلاش «ان عالم البحر المتوسط اقتبس زراعة البستان عن الشاطىء السوري ما بين طرابلس وجبل الكرمل».

الكتابة، الدولة والشرائع: ولقد ادى ازدياد الحاصل الزراعي إلى نمو عدد السكان، فنشأت المدينة، وفي المدينة ارتقت الشؤون العقلية، كالطب والفلك والرياضيات والنحت والنقش وفنون الحرب. وفي الالف الرابع قبل الميلاد ظهرت الكتابة. ويقول الدكتور الكسندر ستيبتشفيتش في مؤلفه «تاريخ الكتاب» ان «السومرين هم اول من ابتدع الكتابة التصويرية ثم طوروها إلى ان حوّلوها إلى نظام كتابي تطغى عليه السمات الصوتية. وقد استطاع السومريون ان يدوّنوا بهذه الكتابة ادق المفاهيم التجريدية وارق المشاعر. واقدم الاساطير المدونة هي «اسطورة التكوين أو الإينوماإيليش»، وهي ملحمة في سبع لوحات فخارية (لوحة لكل يوم من ايام التكوين) عثر عليها بين بقايا الملك اشور بانيبال في نينوى. وفي هذه الاسطورة دلالة واضحة على اتجاه الفكر السوري إلى الوجود وإلى تحسين هذا الوجود ونفي الفوضى والشر عنه. ومن الاساطير الاخرى ملحمة جلجامش المشهورة.

وقد كشف عالم الآثار صموئيل كرايمر عن ان احد النصوص المدونة على رقم طيني يعود إلى حوالي ٢٠٠٠ق.م.، تمّ العثور عليه في بقايا مدينة نيبور، المركز الديني والثقافي للسومريين، ما هو إلا فهرس لاحدى المكتبات وعلى الوجه الامامي والخلفي لهذا الرقم الطيني نجد سجلاً لاثنين وستين كتابًا في موضوعات مختلفة، حتى ان ان الكتب الـ١٣ الاخيرة تنتمي إلى مجموعة الحكمة.

وقد كانت تستخدم الكتابة لغايات علمية في الدرجة الاولى إذ ان ٩٥٪ من النصوص المعثور عليها تتعلق بأمور التجارة والادارة وشؤون الدولة.

وفي سورية تأسست اولى الدول في العالم وهي دولة سرغون الاكادي. واول برلمان معروف في تاريخ الانسان المدون، التأم في جلسة خطيرة حوالي ٣٠٠٠ق.م. وكان مؤلفًا من مجلسين: مجلس اعيان (شيوخ) ومجلس عموم (نواب) وذلك في مدينة اوروك.

وعلى الشاطىء السوري «نشأت المدينة البحرية، التي اوجدت اتجاهًا جديدًا في الدولة، وانشأت الامبراطورية البحرية التي كانت اول امبراطورية بحرية في العالم».

وفي الحقيقة ان السوريين الكنعانيين هم «اول قوم رحلوا في سبيل الاكتشافات والعلم، وكانت رحلة حنون الفينيقي القرطاجي احدى الرحلتين العلميتين الجغرافيتين اللتين حدثتا في العالم المتمدن وكلتاهما فينيقيتان. فقد ارتحل حنون حوالي ٥٢٠ق.م. بستين مركبًا «كبيرًا» واستطاع ان يصل إلى ما وراء غمبيا (غامبيا) على الساحل الافريقي الغربي. وقد سبق الفينيقيون كولومبوس بحوالي ٢٤٤٠ سنة من اكتشاف القارة الاميركية حيث وجدت اثار عديدة في كل من هايتي والبرازيل وكوبا والبيرو وبوليفيا والمكسيك وبنسلفانيا وغيرها، واحدى هذه الكتابات تعرف بـ«كتابة بارايبا» وترجمة نصها هي التالية: «نحن ابناء كنعان من صيدون مدينة الملك. والتجارة رمتنا على هذا الشاطىء البعيد، ارض الجبال.

وقدّمنا ذبيحة بخور للآلهة والآلهات في السنة التاسعة عشرة لحيرام، ملكنا القدير. واتينا من عصيون جابر، على البحر الهادىء. ذهبنا بعشرة سفن، وكنا في البحر معا سنتين حول ارض حام ثم انفصلنا بيد بعل، فافترقنا عن رفقائنا واتينا إلى هنا اثنا عشر رجلاً وثلاث نساء، على هذا الساحل البعيد، الذي انا متعشترت الرئيس، استوليت عليه. نأمل ان تؤيدنا الآلهة والآلهات».

واذا انتقلنا إلى مسألة الشرائع نجد ان اقدمها في العالم هي شريعة أورنامو التي اكتشفت في مدينة نفر وتعود لعام ٢١٥٠ق.م. وتليها قوانين اشنونة التي اكتشفت في تل ابو حرمل (١٩٧٠ق.م.) وشريعة لبيت عشتار ١٩٠٠ق.م. وشريعة حمورابي ١٧٩٢ق.م. هذه الشريعة التي سنت «كي تشرق العدالة على الارض، وكي ينقشع الشر والظلم وكيلا يضطهد القوي الضعيف» وقد تناولت هذه الشريعة الاحكام المدنية الحقوقية والجزائية فنصت على التملك وواجبات الجندي وملكه واحوال المعاملة والحقوق التجارية والاحوال المدنية الشخصية.

وفي مدرسة بيروت تطورت الحقوق اثناء الحكم الروماني وبلغت مستوى عاليًا جعل لهذه المدرسة الفضل الاكبر في حل قضية «الحقوق الامبراطورية والحقوق الشعبية» وقد برز في هذه المدرسة مشترعان سوريان هما بابنيان واولبيان. وموقع بيروت من الامبراطورية الرومانية، أهّل عشرة اباطرة سوريين لحكم روما نفسها، اهمهم على الاطلاق كركلا (وهو من بعلبك) والكسندروس سفيروس، وسبتيموس سفيروس.

وفي فن العمارة كشفت الحفريات عن تراث لا يقل في اهميته عن المكتشف في الملاحم والقوانين كقلعة بعلبك وتدمر والجنائن المعلقة ومباني البتراء.

وفي شؤون الطب والفلك والرياضيات والهندسة والفلسفة والحرب أعطت سورية عظماء ونوابغ امثال طاليس واقليد وفيتاغور وسنخونياتن وفيلون الجبيلي وموخوس وفرفوريوس وديوجين وهاني بعل واخيرًا وليس آخرًا افرانس الفيلسوف الصوري الذي حذّر الامبراطور الروماني Vespasian من السلطة المطلقة ومن اليهود محللاً نفسيتهم إذ يقول: «ان اليهود في ثورة منذ زمن طويل، وليس ضد الرومان وحسب، لكن ضد الانسانية. وسلالة من البشر تجعل نفسها في عزلة عنيدة، ولا تستطيع المشاركة مع باقي الجنس البشري في مسرات مائدته... هي منفصلة عنا بمسافة اعظم من هذه التي تفصلنا عن سوسة (عاصمة ايران) أو بأكثر من المسافة التي تفصلنا عن الهند. فأي مبرر إذن نجده في معاقبتهم على الثورة ضدنا، نحن الذين يكون من الافضل ان يبقوا بعيدين عنا». وفي الواقع ان ما ذكرناه لا يعدو كونه نقطة في بحر عطاءات سورية للعالم.

(إلى هنا ينتهي مبحث ايلي الخوري).

«الهلاليون»

إن نقاشًا تاريخيًا، ثقافيًا وعقائديًا، كان زاخمًا في اجواء استقلالات «البلدان السورية» التي تزامنت ونكبة فلسطين، قال في سياقها انطون سعادة («أعداء العرب اعداء لبنان»، تحت عنوان «نحن سوريون لا هللخصبيون»، ص ١٨١، عن «كل شيء» العدد ١٠٠، تاريخ ٢٥ شباط ١٩٤٩): «مهما كانت عقولنا قاصرة في فن خلق الاوطان وإبداع «القوميات» فإننا نرى ان اصعب مشكلة ستواجه العقلية النايورجعية بعد عملية خلق البلاد الجديدة هي مشكلة النسبة القومية إلى الهلال الخصيب(...) أيها النايورجعيون «القوميون»، إن سورية الطبيعية التاريخية افضل من مرعى الهلال الخصيب. وان السوريين افضل من الهللخصبيين! وإن الاعتراف بما اعلنته الحركة السورية القومية

الاجتماعية خير من المكابرة في الحق».

هذا النقاش، او شبهه إلى حد كبير، عاد في السنوات الاخيرة (خاصة على أثر المكتشفات الاثرية الاخيرة في سورية والبالغة الأهمية-راجع الباب التالي- وبالأخص بسبب، وفي اجواء الاحداث المصيرية والتحولات الكبرى في المنطقة) وعرف زخمًا كبيرًا في سورية ولبنان، عكسته غزارة المؤلفات والمنشورات وكثرة المنتديات والمؤتمرات. فخلال شهر واحد (نيسان-ايار ١٩٩٧) عقد في بيروت ثلاثة مؤتمرات (الجامعة الاميركية، انطلياس، سن الفيل)، رعاها واشترك فيها قادة سياسيون ودينيون، وكتاب ومثقفون، تمحورت حول الآرامية والسريانية، تاريخًا وحضارة ودورًا ووجودًا؛ وتفاوت الطرح فيها بين قائل بأن العرب المسلمين قد تمكنوا، خلال القرون الاولى من الفتح العربي الاسلامي، من صهر آراميي-سريان سورية الطبيعية في البوتقة العربية وفي سياق عملية تفاعلية حضارية غاب عنها قهر الفاتحين بمقدار كبير لم تعرف مثيلاً له عمليات الانصهار في تاريخ أي شعب من الشعوب الاخرى (الدكتور شفيق ابو زيد)؛ وطرح لا يرى هذا الانصهار، ولا الأصل السامي الواحد، ويدعو لقومية «هلالية» ولو كان ابناؤها موزعين على «اوطان سورية» أو «أوطان عربية» (الدكتور عماد شمعون، رئيس «الجبهة الآرامية الثقافية»).

الطرح الاول هو الطرح المتداول على نطاق واسع، والغالب في مناهج الدراسة وفي اصدارات الكتب والمؤلفات التاريخية والسياسية؛ الثاني، أوجزه الدكتور عماد شمعون، وخصّ به هذه الموسوعة، تحت عنوان «الهلاليون ابناء الحضارة الواحدة»، وجاء فيه:

التسمية واقدم شعب: ان اقدم تسمية عُرفت بها شعوب الهلال الخصيب هي التسمية الآمورية. وهذا ما أكده د. أنيس فريحة قائلاً: «ان الاموريين هم أقدم شعب عاش في سورية الكبرى، وان لغة كتاباتهم لا تختلف كثيرًا عن لغة الآراميين» («معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية»، مكتبة لبنان، ط٤، ١٩٩٦، ص ١٤-١٥).

ويقول د. فيليب حتي: «ان أول شعب هام اقام في بلاد الهلال الخصيب هو الشعب الذي سماه جيرانه السومريون في الشرق بالاموريين، والاله امورّو، إله الحرب، هو أحد أبرز آلهة الاموريين، و«الآموريون الذين يأتون في اول قائمة شعوب الهلال الخصيب يليهم قدمًا الكنعانيون، ومن ثم الآراميون». و«ان الكنعانيين قد تابعوا النظم والعادات الدينية التي كان يتبعها ابناء جنسهم الآموريون الذين أتوا قبلهم». و«ان اللغة الآمورية اختلفت عن اللغة الكنعانية من حيث اللهجة فحسب. ويمكن اعتبار اللغة الآمورية بالواقع لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية أو الفينيقية» (د. فيليب حتي، «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين»، دار الثقافة، بيروت، ج١و٢، ١٩٥٨، ص ٧٠ و٨٣ و٨٤). وان الالفاظ مثل «لبنان، وصيدون، وبترون، وعجلتون، وريفون، وفيطرون، وحصرون» وما شاكلها أمورية الصيغة (الأب بطرس ضو، «تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري»، ط٢، ١٩٩٧، ص ١٩-٢٠).

ويقول الأب بطرس ضو (المرجع المذكور، ص ٣٠): «ان الوجود الاموري لم يكن محصورًا بلبنان بل كان وجودًا منتشرًا في كل من فلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين».

ان هؤلاء الاموريين الذين يعود ذكرهم في التاريخ إلى ما قبل الالف الثالث قبل الميلاد، والذين كانت عاصمتهم الكبرى «ماري» على ضفاف نهر الفرات والذين حكموا بابل بقيادة المشترع العظيم حمورابي الاموري، كان لهم مدن اخرى على شواطىء الساحل الفينيقي مثل مدينة «اوغاريت» الكنعانية التي ربط العالم شيفمان

ثقافتها بالحضارة الامورية قائلاً: «لقد كانت الثقافة الاوغاريتية بمختلف مظاهرها جزءًا مكملاً للحضارة الكنعانية الامورية في منطقة آسيا الامامية المطلة على المتوسط» (أ.ش. شيفمان، «ثقافة اوغاريت»، ترجمة د.حسّان اسحق، الابجدية للنشر، ط١، ١٩٨٨، ص ١٣١).

ويقول العالم «Wellhansen»: «ان الاموريين هم الكنعانيون والكنعانيون هم الاموريون إنما التفرقة بالزمن. فانهم كانوا اولاً يسمون اموريين ثم عُرفوا فيما بعد بالكنعانيين» (أنيس فريحة، المرجع المذكور، ص ١٤).

قد شبه الرب الاموريين في كتاب التوراة بصلابة اشجار بلادهم وبعظمتها، حتى أخذ يفاخر امام شعبه اليهودي قائلاً: «وانا قد أبدت من وجهكم الاموريين الذين مثل قامات الارز قاماتهم وصلابتهم كالبلوط» (عاموس ٢/٩).

ان هذا الشعب الاموري الابي الاصيل لبلاد الهلال الخصيب قد تعاقبت عليه تسميات مختلفة. ففي القرن الخامس عشر ق.م. عُرف في بلاد ما بين النهرين بالشعب الاشوري ومن ثم بالشعب الكلداني، وعلى طول الساحل الفينيقي في فينيقيا الاولى عُرف بالشعب الكنعاني ومن ثم بالشعب الفينيقي، وفي الداخل في فينيقيا الثانية عُرف بالشعب الآرامي ومن ثم بالشعب السرياني.

ولكن بالرغم من هذه التسميات المتنوعة والمتعددة، تمكنت شعوب الهلال الارامي الخصيب من التوحد مجددًا تحت تسمية جديدة شاملة (وذلك قبل ولادة يسوع المسيح بزمن بسيط) وهي التسمية السريانية التي ما زالت حيّة حتى يومنا هذا بعد الفي سنة ميلادية، تمامًا كما كانت التسمية الامورية تسمية شاملة قبل الفي سنة ميلادية.

ان الاموريين والاكاديين والبابليين والكنعانيين والاراميين والاشوريين والكلدانيين والفينيقيين والسريانيين... ليسوا سوى تسميات متعددة لحضارة واحدة بدأت مسمارية وانتهت آرامية-سريانية، من مشارق نهر دجلة في نينوى حتى المتوسط في جبيل.

تهافت مصطلح «السامية»: هذه الشعوب الهلالية التي تنتمي بمجملها إلى حضارة هلالية مشتركة تختلف تمامًا في تاريخها ولغتها ومعتقداتها عن عرب البادية في شبه الجزيرة العربية. مما يجعل من التسمية «السامية» تسمية متهافتة جمعت خطأ بين حضارة شعوب الهلال الخصيب وبداوة شعوب شبه الجزيرة العربية.

أوغست لودفيل شلوتزر (Shloezer) النمساوي الاصل، هو اول من اطلق مصطلح السامية في العام ١٧٨١، وجاء من بعده العالم ايشهرن (Eichhern) ليعمم هذا المصطلح جامعًا جذافًا بين حضارة شعب الهلال الخصيب وبداوة شعب شبه الجزيرة العربية، مستندًا إلى نصوص الخلق التوراتية الميتولوجية، وإلى الجذر الارامي للغة العربية.

ان ارتكاز الآخذين بمصطلح «السامية» ينطوي على مغالطتين اساسيتين: المغالطة الاولى وهي تسليمهم بتوزيع شعوب الارض على ثلاثة انسال اسطورية. فعلى نوح واولاده ان يوجدوا اولاً كي يكون لهم اعقاب، لأن قصة الطوفان التوراتية ليست سوى رواية أخذت عن روايات دوّنتها شعوب بلاد ما بين النهرين على اثر المصائب والنكبات التي كانت تتعرض لها من جراء فياضانات نهري دجلة والفرات، وذلك قبل مئات السنين من تاريخ تدوين قصة الطوفان التوراتية.

والمغالطة الثانية، تعود إلى تضارب تحديد مفهوم السامية كهوية جامعة لشعوب الشرق الاوسط والتحديد التوراتي مصدر هذه التسمية. لأن اليهود وهم اصحاب النظرية، لم يعترفوا بالكنعانيين والفلسطينيين والاكاديين والبابليين

والاموريين على انهم شعوب من نسل سام، بل من نسل حام. وعليه فعلى الآخذين بالمصطلح التوراتي، ان يحترموا مضمون مصطلحهم، أي ان يحترموا الترتيب اليهودي في توزيع الشعوب والأمم فلا يجعلوا بين البابليين والكنعانيين والاموريين الحاميين، وبين اليهود والعرب الساميين.

فبنو حام هم: كوش وكنعان...، وكوش هو الذي وَلَدَ نمرود الذي اسس مملكتي بابل وأكّد...، والذي بنى نينوى في بلاد أشور. وكنعان هو الذي وَلَدَ صيدون والاموري والاروادي... (سفر التكوين، ١٠/٦-٢).

وبنو سام هم: عيلام (أي الفرس) وأشور وارام وارفكشاد...، ومن سلالة ارفكشاد وُلد يُقطان (أو قحطان جد العرب الجنوبيين) وحضرموت وسبأ (سفر التكوين، ١٠/٢٨-٢١ و١١/٢٦). وتذكر التوراة انه من ابناء يافت تشتّت الناس في جزر الامم (سفر التكوين، ١٠/٥).

«هؤلاء عشائر بني نوح بحسب سلالاتهم وأممهم. ومنهم تشتّتت الامم في الارض بعد الطوفان» (سفر التكوين، ١٠/٢٣).

ان قيمة كتاب التوراة ككتاب تأريخي، لا تعدو عن كونه يحتوي على بعض الكلمات أو التسميات التي قد تتقاطع احيانًا مع مكتشفات الحفريات الاثرية. أما على مستوى تسلسل الاحداث وترابطها، وتحديد أمور الخلق أو غيرها من المسائل، فهو كتاب مبهم، كثير التضارب والتناقض، قليل الفائدة علميًا. فالاشوريون في سفر التكوين هم غير اهل نينوى، علمًا ان نينوى هي مدينة الاشوريين الكبرى. والعيلاميون-الفرس يصبحون والعرب اخوة بحكم تحدرهم من نسل سام.

مسيحيو الهلال الخصيب: ان احفاد الحضارة الهلالية وورثتها والشهود الاحياء لها هم المسيحيون المشرقيون السريان. لأن السواد الاعظم بمعدل يتجاوز الـ٩٠٪ من المسلمين الذين يقطنون بلاد الهلال الارامي الخصيب يعتبرون انفسهم عربًا لغة وقومية.

ان المسيحيين السريان ابناء الحضارة الهلالية هم موزعون اليوم من حيث انتمائهم الديني على مجموعتين كبيرين هما: السريان الشرقيون الموزعون بدورهم على الكنيستين الاشورية والكلدانية، السريان الغربيون الموزعون على كل من الكنائس التالية: كنيسة السريان الموارنة، والسريان الارثوذكس والسريان الكاثوليك والروم الارثوذكس، والروم الكاثوليك، والبروتستانت، واللاتين.

وان المسيحيين السريان ابناء الحضارة الهلالية هم موزعون اليوم من حيث انتمائهم الوطني على أكثر من دولة عربية مشرقية كالعراق وسورية ولبنان.

والسريان في لبنان ابناء الكنائس السريانية الشرقية والغربية «متمسكون بلبنان وطنًا نهائيًا بحدوده المعترف بها دوليًا... وان مفاعيل تحقق مشروع سورية الكبرى لا تقل خطورة بالنسبة الينا عن مفاعيل تحقق مشروع الوطن العربي» (بمثل هذه الصيغة، أي بصيغة، «نحن ابناء الجبهة الآرامية الثقافية»)، أنهى الدكتور عماد شمعون مبحثه).

الحدود الحالية للجمهورية العربية السورية

(من باتريك سيل، «الاسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ترجمه للعربية المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، ص ٣١-٣٤):

الانفصال والوحدة، الاقلية والاغلبية، النزعة الهامشية والتيار الرئيسي، الجزء والكل-هذه كلها متناقضات لا تزال ترقد تحت سطح السياسة

والمجتمع في العالم العربي. فهل هذا العالم لا يعدو كونه فسيفساء من المجتمعات القديمة المتنافرة؟ أم هو وحدة تعيش في جوهرها حياة واحدة، ولغة واحدة وتطلعات واحدة؟ إن معظم العرب يعتقدون بان هذه الصفة الاخيرة صحيحة ويلقون بمسؤولية تجزئتهم على تدخل الاجانب الخبثاء، وهذا الشعور حادّ في سورية بشكل خاص.

إن كل تلميذ سوري ينشأ على كراهية اتفاقية سايكس-بيكو المعقودة في ١٩١٦ ووعد بلفور الصادر في ١٩١٧. فهما الاداتان اللتان يرى العرب انهما مزقتا سورية الطبيعية. ورغم ان سورية الطبيعية لم تكن موحدة ابدًا تقريبًا، فإن هذه البقعة كانت في اذهان سكانها كيانًا متجانس الحضارة، مشدودًا بروابط اقتصادية، ومعروفًا طيلة قرون باسم بلاد الشام، وكانت لمدنها الرئيسية شخصيتها المحافظة على خصوصيتها المتميزة وعائلاتها البارزة أو المتزعمة، ولكن كان هناك كذلك شعور بان القدس ويافا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس ودمشق وحمص وحماه واللاذقية وحلب والاسكندرونة كلها اسرة واحدة، وكانت دمشق أهمها باعتراف الجميع.

وخلال عشر سنوات في ثلاثينات القرن التاسع عشر كانت مصر تحكم سورية الطبيعية من دمشق كوحدة واحدة للمرة الاولى منذ عهد الخلفاء الامويين قبل ذلك بألف ومائتي عام. وعندما انتهى الاحتلال المصري عادت بلاد الشام إلى الحكم العثماني وأعيد تقسيمها إلى ولايات... غير ان هذه التقسيمات لم تكن أكثر من حدود لسلطات محلية لا تضع أية عراقيل في وجه التجارة أو الاستقرار أو الروابط العائلية (فالتقسيم الحقيقي آنذاك كان بين سورية الطبيعية هذه وبين الحدود العربية المواجهة لفارس أي ما يسمى اليوم بالعراق).

وعندما انهت الحرب العالمية الاولى الامبراطورية العثمانية التي زاد عمرها على اربعمائة عام، فإن ولايتها العربية بقيت تحت رحمة بريطانيا وفرنسا وهما من القوى الكبرى المنتصرة التي كانت قد رتبت فيما بينها سرًا امر اقتسام سورية الطبيعية، فأخذت فرنسا القسم الشمالي الذي سيعرف باسم الجمهوريتين السورية واللبنانية بينما استولت بريطانيا في الجنوب على ما أصبح فلسطين وشرق الاردن. ولقد اوضح سكان المنطقة كلها انهم يريدون ان تكون سورية الطبيعية مستقلة وغير مجزأة. وفي تموز ١٩١٩ قامت هيئة منتخبة اطلقت على نفسها إسم المؤتمر الوطني السوري فاستنكرت اتفاقية سايكس-بيكو ووعد بلفور وطالبت باستقلال ووحدة سورية-فلسطين ولقد تأكدت لجنة كنغ-كرين من التأييد الشعبي الساحق لهذا المطلب. وكانت هذه لجنة اميركية لتقصي الحقائق زارت عشرات المدن والقرى وتلقت ما يقرب من ألفي عريضة. ولكن ذلك ذهب ادراج الرياح لأن القوى الاوروبية حصلت في ١٩٢٠ على انتداب على الدول الجديدة والتي اقتطعتها من الولايات العثمانية السابقة. ورغم ان الانتداب قد فهم على انه شكل من اشكال الوصاية على الامم الحديثة، فإن فرنسا قد حطمت الحكومة العربية التي أسسها الامير فيصل في دمشق ثم اقامت على انقاضها نظامًا استعماريًا. ثم اعادت تشكيل المنطقة بما يلائمها ويلائم اصدقاءها المحليين.

عمدت فرنسا اولاً إلى فصل وتقطيع اوصال كبيرة من سورية في آب ١٩٢٠-موانىء صور وصيدا وبيروت وطرابلس ووادي البقاع والمنطقة الشيعية في شمالي فلسطين- وألحقتها بجبل لبنان_ إقطاعية المسيحيين الموارنة الذين في حمايتها، وذلك لتخلق ما يُسمّى بدولة لبنان الكبير. وهكذا فقدت دمشق بجرة قلم كل منافذها على البحر ورأت آفاقها تتقلص بعنف. ووقع تقطيع آخر في تشرين الاول ١٩٢١ عندما تخلت فرنسا لتركيا عن اجزاء كبيرة من ولاية حلب السابقة، فجاءت

بالاتراك إلى مسافة لا تزيد على ٥٠كلم من المدينة. واقتطع المزيد من اراضي وممتلكات حلب عندما اعطت فرنسا خليج الاسكندرون-أنطاكيا في شمالي سورية صفة «الوضع الخاص» حيث كانت تعيش اقلية تركية كبيرة (وبعد أقل من عشرين عامًا سلمت المنطقة بكاملها لتركيا). ثم تابعت فرنسا تقطيع اوصال ما تبقى من البلد الذي عُهد إليها به وجعلته اربعة اجزاء. ففي ايلول ١٩٢٠ جعلت دمشق وحلب عاصمتين لدويلتين منفصلتين. وفي آذار ١٩٢٢ فصلت جبل العلويين وجبل الدروز عن دمشق وأعلنتهما «مستقلين»، وبالاضافة إلى ذلك فقد وضعت الجزء الشمالي الشرقي من سورية (الذي كان في معظمه بدويًا) تحت الحكم الفرنسي المباشر حيث راحت تشجع النزعة الانفصالية هناك بتوطين المسيحيين والاكراد في تلك المنطقة (راجع العنوان الفرعي من المبحث قبل السابق:«اتفاقيات ومؤتمرات التجزئة السياسية»).

صحيح ان هذه الحدود الداخلية المصطنعة قد كُنِسَت في آخر الامر ولكن سورية لم تسترجع مناطقها المفقودة. وعندما انسحب الفرنسيون نهائيًا في ١٩٤٦ كان البلد قد تقلص إلى ١٨٥ ألفًا و١٩٠كلم م. من أصل ٣٠٠ ألف كلم م. كانت هي مساحة الولايات السورية ايام الامبراطورية العثمانية. و لم يتعاف السوريون بسهولة من صدمة هذه الجراحة الاستقطاعية، إذ ظل شعورهم بأن بلدهم قُلّص عما يجب ان يكون عليه مصدرًا لخيبة الامل والاحباط لديهم.

(إلى هنا ينتهي كلام باتريك سيل. ويلاحظ انه، بكلامه عن تقطيع اوصال سورية اكتفى بالكلام على الاجزاء التي كانت خاضعة للانتداب الفرنسي، أي بمساحة الـ٣٠٠ ألف كلم م.، و لم يأت على ذكر المساحة المضاعفة تقريبًا- فلسطين، شرق ا لاردن، العراق-التي كانت خاضعة للانتداب البريطاني، مع انه ذكر مرارًا عبارة «سورية الطبيعية»... «البقعة التي كانت في اذهان سكانها كيانًا متجانس الحضارة، مشدودًا بروابط اقتصادية، ومعروفًا طيلة قرون باسم بلاد الشام...»).

آخر المكتشفات الأثرية

حفريات «أم التليل»: في آخر ١٩٩٦، أعلن ان نتائج التحليل المخبري لقطع الصوان التي اخرجت من موقع «أم التليل» في حوض الكوم السوري (وسط سورية) أعادت طرح مسألة في ما إذا كان إنسان «نياندرتال» الذي عاش قبل نحو ٤٧ ألف سنة هو جد الانسان الحديث أم لا، وطرحت كذلك تساؤلاً آخر يتعلق بالمصدر الذي حصل منه نياندرتال على القار (قطران) الموجود على هذه القطع الصوانية. وقال باحثون فرنسيون ان هذا الانسان استخدم القار منذ نحو أربعين الف سنة، الامر الذي يعتبر خرقًا للقناعة السابقة حيث كان الخبراء يعتقدون ان استخدام القار لم يبدأ سوى منذ ٩ آلاف سنة او منذ ١٢ الف سنة (العصر الحجري الاخير) كما دلت الاكتشافات في موقع «الجرف الاحمر» قرب حلب، عندما عثر الخبراء على انصال ثبتت إلى قطع خشبية بواسطة القار لتستخدم في الحصاد. والسؤال المهم الذي طرحه العلماء وأثار جدلاً بينهم: ما هو مصدر هذا القار؟ وهل هو محلي أم مستورد؟ وقال البروفسور سلطان محسين رئيس مديرية الآثار والمتاحف السورية ان مصدر القار «لم يحدد إلى الآن بدقة، ربما يكون في مكان ما من البادية السورية على بعد ٥٠كلم من الموقع، وظننا انه في دير الزور على بعد ١٠٠كلم منه، وربما في الاناضول». لكن دراسات فريق من الخبراء الفرنسيين اظهرت انه «لم يتم تسخين القار قبل استخدامه وحسب، بل تم استقدامه من حقل غير محلي». واعتبر الخبراء «هذه مفاجأة اخرى يحملها الينا انسان نياندرتال المحير». ويعني ذالك ان اناس نياندرتال كانوا يتنقلون ويتبادلون البضائع والمواد الاولية مع آخرين. لكن السؤال اللاحق الذي يطرحه العلماء مع من؟ هل فعلوا ذلك مع انسان ما قبل التاريخ أم مع اجداد الانسان الحديث الذين عاشوا في شكل متجاور في تلك الفترة؟ («الحياة»، ٢٩ كانون الاول ١٩٩٦، ص ١).

إيبلا وماري، أقدم مملكتين في سورية: في نهاية خمسينات هذا القرن (أي منذ نحو ٤٠ سنة) عثر فلاحون من قرية مرديخ (على بعد ٦٠كلم من حلب لجهة الجنوب) على حوض منحوت أولته ادارة متحف حلب أهمية بالغة لاحتوائه على منحوتات لرجال ملثمين يمثلون ملوكًا وجنودًا يقفون فوق مجموعة من الاسود. وبدأت بعثة ايطالية دراسة الحوض، وبدأت التنقيب في موقع تل مرديخ (١٩٦٤) بعد ان تمكنت من تحديد تاريخ إنجاز هذا الحوض، وادركت انه كان قاعدة لمدينة مزدهرة في الألف الثالث والثاني ق.م.، ثم اسفرت تنقيباتها عن نتائج باهرة اهمها وثائق إيبلا الملكية المكونة من آلاف الالواح الطينية الحاوية على كتابة مسمارية التي عثر عليها بين ١٩٧٤ و١٩٧٦، وهي تعد أقدم وثائق معروفة إلى اليوم في العالم.

واسفرت الدراسات، التي لا تزال مستمرة، عن تدوين العلماء لتاريخ مملكة إيبلا وفق المراحل الاساسية التالية:

تمكنت مدينة إيبلا، بفضل موقعها الجغرافي، من تحقيق ازدهار اقتصادي قائم على زراعة متطورة للحبوب والزيتون والعنب وتربية المواشي، كما لعبت دورًا رائدًا في التجارة وفي تطوير الصناعات والحرف بسبب سيطرتها على الكثير من المواد الاولية والمعادن مثل الخشب والفضة والنحاس التي كانت تحصل عليها من جبال لبنان وطوروس والأمانوس. وحوالي العام ٢٤٠٠ق.م. كانت إيبلا وماري اعظم مملكتين في سورية، وسيطرت إيبلا سياسيًا على مساحة واسعة من سورية الداخلية. فمن ناحية الشرق، امتدت اراضيها حتى حدود الصحراء العربية، وشكلت

جبال النصيرية حدودًا لها من ناحية الغرب، وفي الجنوب بسطت نفوذها حتى منطقة حمص، بينما امتدت حتى جبال طوروس من الشمال.

وبسبب تفوقها، نافست إيبلا القوى المجاورة. فتعرضت لهجوم سرجون الأكدي الذي كان أسس امبراطورية مركزية في بلاد ما بين النهرين. وبعد حصار سرجون دمرت إيبلا العام ٢٣٠٠ق.م. ونزح عنها سكانها، ولم تسترجع المدينة نفوذها إلا بعد ثلاثة قرون. لكنها دمرت من جديد في ١٦٠٠ق.م. عندما غزاها جيش الحثيين القادم من بلاد الاناضول. ومع هذا الهجوم دمّرت إيبلا نهائيًا وتحولت إلى مدينة مهجورة.

تمكن العلماء، بفضل الالواح التي عثر عليها (أكثر من ١٧ ألف لوح) من تحديد لغة اهل إيبلا، وهي أقدم لغة سامية عرفت انتشارًا في سورية الشمالية، وقد عكست المراحل المهمة التي قطعتها إيبلا في مجال تطوير المعرفة وتنظيم السلطة. فلقد انجز مثقفو إيبلا أقدم قواميس معروفة في تاريخ العلوم الانسانية وأوجدوا تحديدات كاملة للكلمات السومرية، ما مكنهم من الانتقال بسهولة من لغة إلى أخرى. والرأي الغالب لدى العلماء ان لغة إيبلا، التي عاصرت زمانيًا اللغة الأكادية، يجب اضافتها إلى قائمة اللغات السامية كلغة تاسعة تربطها أوثق العلاقات مع الأكادية القديمة والامورية؛ ويقولون ان وحدة لغوية وحضارية امتدت خلال الألف الثالث ق.م. من الساحل السوري إلى ما وراء الخابور. ومن المتفق عليه ان إيبلا تشكل نموذجًا كاملاً للمدينة-الدولة، وهذه ظاهرة سياسية انتشرت لاحقًا في مدن كثيرة من حوض المتوسط.

الجدير ذكره ان العلماء كانوا يعرفون بوجود إيبلا (قبل ان يتم اكتشافها كما ورد اعلاه)، لكنهم كانوا غير قادرين على تحديد موقعها. وقد ورد إسمها في الوثائق التاريخية وفي معبد الكرنك الفرعوني التي ترد فيه لائحة باسم المدن السومرية-الفلسطينية التي استولى عليها الفرعون تحوتمس الثالث. ولمدة تجاوزت الثمانين عامًا كان المنقبون يبحثون عن إيبلا ضمن منطقة شاسعة تشمل سهل انطاكيا وجبال الأمانوس المشرفة على سهل كيليكيا واراضي الفرات. ولم يكن يخطر على بالهم ان إيبلا واقعة في سورية الشمالية في منطقة حلب.

جاء اكتشاف إيبلا ضمن سلسلة من الاكتشافات شملت بلاد ما بين النهرين وسورية، وقادها في البداية مغامرون وقناصل اوروبيون مثل القنصل الفرنسي بول إميل بوتا الذي بدأت معه أولى التنقيبات التي كشفت عن المرحلة الآشورية. وبعدهم، جاء دور العلماء والمنقبين الاثريين الذين تم على يدهم اكتشاف مدينة ماري السورية الواقعة على الفرات بالقرب من العراق، وتعرف هذه المدينة بموقع تل الحريري، وقد تولى اعمال التنقيب فيها منذ ١٩٣٣ حتى ١٩٧٨ الفرنسي أندريه بارو، ما سمح بتحديد المراحل التاريخية التي ازدهرت فيها المدينة والكشف عن آثار ووثائق ذات اهمية قصوى في تبيانها للتألق الذي عرفته ماري في الالف الثالث والالف الثاني ق.م. وتأسست فيها سلالات حاكمة مستقرة كان ملوكها يسبغون على انفسهم «صفات قدسية». وبرأي عدد من العلماء انه من الممكن ان تكون «ماري» هي موقع الخزان البشري وليس الجزيرة العربية، يضاف إلى ذلك ان الصلات بين السومريين والشعب المقيم في منطقة ماري تعود لفترات ابكر من تلك بين الرافدين وشبه الجزيرة العربية.

أوغاريت: وفي الحقبة نفسها التي اكتشفت فيها ماري، ادت التنقيبات الاثرية في موقع رأس شمرا القريبة من اللاذقية على الساحل السوري إلى اكتشاف مدينة أوغاريت على مساحة ٣٦ هكتارًا التي اقامت علاقات تجارية ودبلوماسية مع ماري

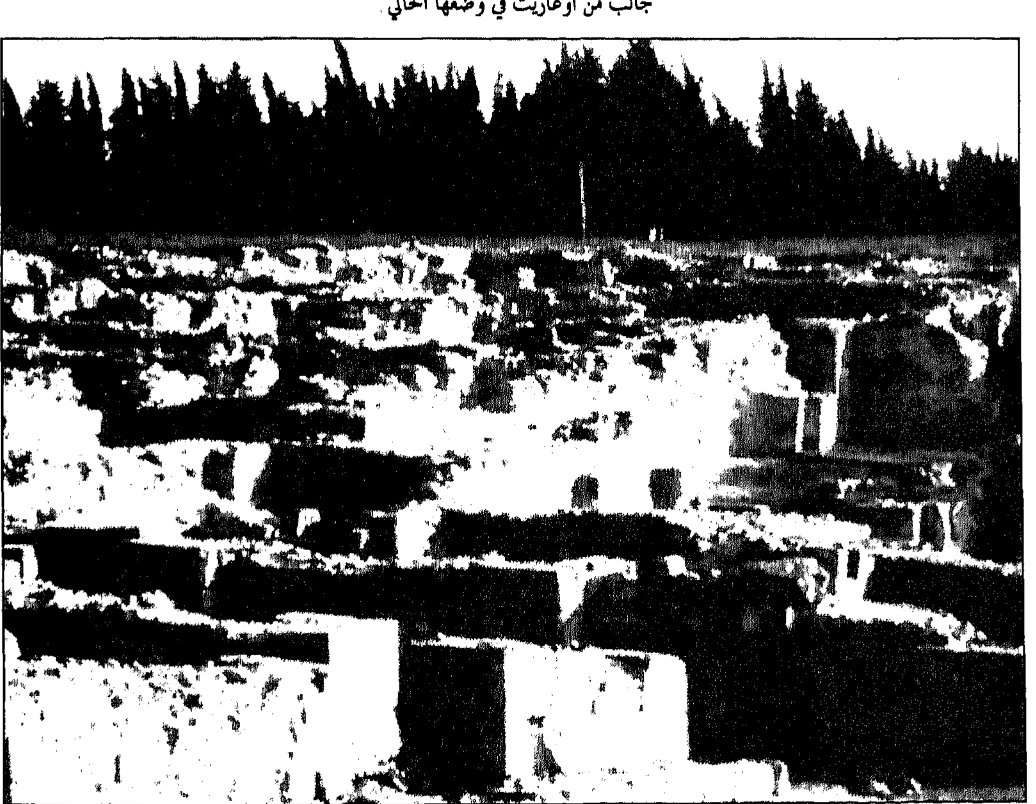
ومصر الفرعونية، وحققت مرحلة متقدمة من الانجازات الحضارية المتجسدة في آلاف النصوص المكتوبة التي تمزج بين الميتولوجيا والطقوس الدينية والاسطورة؛ كما دلت هذه الآثار على ان المدينة كانت مأهولة منذ ما قبل الألف السابعة ق.م. وكان اكتشاف أوغاريت في اواخر العقد الثالث من هذا القرن (أي منذ نحو ٦٥ سنة).

اختار الكنعانيون (الفينيقيون)، الذين بدأ تاريخهم حوالي مطلع الالف الثاني ق.م. مدينة أوغاريت ليقيموا فيها حضارة عظيمة، وربطوها بمدنهم التي أنشأوها على ساحل المتوسط: صيدا، صور، بيروت، جبيل. كما جرى الاتصال بينها وبين بلاد ما بين النهرين وشعوب بحر إيجة، ومصر، وآسيا الصغرى. وتبادلوا مع الشعوب التي عرفوها سلعًا وفكرًا ودبلوماسية. غير ان اعظم مآثرهم هو اختراع الابجدية، وهي أقدم ابجدية معروفة حتى هذا التاريخ، وتشبه بألفاظها الفاظ احرف اللغة العربية وترتيبها، ثم طوّر سكان جبيل هذه الابجدية فكانت اساسًا للابجدية الآرامية والنبطية والعربية، ثم انتقلت إلى الاغريقية ثم اللاتينية، وكانت بذلك أهم انعطافة حضارية فكرية في التاريخ.

وتدل تنقيبات الطبقة الاولى من أوغاريت على ان اهم منشآتها المكتشفة هو القصر الملكي ومساحته ١٠ آلاف م.م.، وفيه مجموعة من الغرف المعدة لسكن الملك وحاشيته واعوانه وموظفيه وحراسه وخدمه ومركباته وخيوله، وفيه قاعدة كبرى لاستقبال الضيوف، وقسم خاص بالوثائق الكتابية (الديوان)، وارضه مرصوفة، وفيه قاعدة السفراء.

كانت أوغاريت مدينة عريقة عرفت عهدًا ذهبيًا، ازدهرت فيها صناعات عدة، منها: الفضة،

جانب من اوغاريت في وضعها الحالي.



الاسلحة، صنع التماثيل والعربات والاقمشة والعاج. ويشير علماء الفنون إلى ان اساليب البناء وصناعة حفر الاختام والفخار في أوغاريت متأثرة بالفن المصري وبفن العالم الايجي (الاغريقي)، ومنها: الصحن الذهبي، وعلب الزينة واواني الشرب، واللوحة العاجية المكتشفة في القصر في ١٩٥٢، وهي أكبر قطعة عاجية وجدت في المنطقة، موجودة الآن في المتحف الوطني في دمشق.

العموريون والحوريون: شغل العموريون حيزًا كبيرًا من دراسات العلماء، وأثاروا مشكلات تتعلق بموطنهم واصولهم العرقية، وبتشكيلهم ممالك عدة متنافسة. بعض العلماء يردهم إلى شبه الجزيرة العربية، والبعض الآخر يردهم إلى البادية السورية. وقد ورد ذكرهم مرات عديدة في الروايات التوراتية. وينقسم رأي العلماء ايضًا حول موطنهم: رأي يقول بأنه يضم المنطقة الواقعة بين الفرات والبحر المتوسط، ورأي يحدده بمنطقة في سورية الجنوبية هي جبل البشرى. وثمة نصوص سومرية تتحدث عن العامورين، أهمها نصوص ماري التي توضح ان ماري كانت المنطقة الرئيسية للمرور بين مملكة «عموروم» وبلاد بابل.

وثمة شعب سوري آخر لا يزال يكتنفه الغموض، وهو «الحوريون» الذين يعودون إلى فجر التاريخ. وكانت اساطير الحثيين ومقاطع من التوراة وتحف فنية عثر عليها منذ نحو ٥٠ سنة تضمنت إشارات إلى الحوريين والاله الملك الذي كان يقيم في عاصمتهم المسماة أوركش. ويعتقد الدكتور جيورجيو بوتشيلاتي (بروفسور علم الآثار في جامعة كاليفورنيا) انه نجح اخيرًا في حل لغز الحوريين باكتشافه لمدينة أوركش في رابية كبيرة تدعى تل موزان في أقصى شمال شرقي سورية في سهل الخابور، وانه عثر على مستودع لأختام تصور احد ملوك الحوريين، توبكيش، إلى جانب زوجته الأكادية أفنيتوم؛ ويعود تاريخ المستودع إلى فترة تراوح ٢٣٠٠-٢٥٠٠ق.م.. وتبلغ مساحة المدينة المكتشفة حوالي ١،٢كلم م. وعدد سكانها كان يراوح بين ١٠ و٢٠ ألف نسمة في أوج ازدهارها. وقال الدكتور بوتشيلاتي («الحياة»، ٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٥، ص١): «إن المدن بدأت في الشرق الادنى قبل حوالي ٥ آلاف سنة، وحتى الآن لا نعرف سوى نوعين من هذه الحضارة المعنة في القدم: السومريون في الجنوب، والساميون في الشمال الغربي في اتجاه إيبلا وماري (...) الآن عثرنا على نوع ثالث ومواز من الحضارة المدينية التي كانت متمركزة في سفوح جبال طوروس وسهل الخابور. ويوجد هناك عدد من المدن التي كنا نعتقد لفترة انها تعود إلى حضارة متميزة، ولكن لم يكن يوجد أي إثبات على أنها حورية. وحصلنا الآن على إثبات بأن هذه الحضارة كانت حورية، وان المدينة هي أوركش، المدينة الرئيسية لهذه الحضارة».

سرقة الآثار واهتمام الحكم الحالي: ورد في إحدى رسائل جبران خليل جبران إلى ماري هاسكل (٣ آذار ١٩١٢) قوله: «إن في سورية أنفس كنز في رأي رودان وهو يدرك ان سورية لن تتمكن من الاحتفاظ به طويلاً، ما دام العالم قد عرف أين هو الكنز، والعالم ليس أكثر من الدول القادرة والمستعمرة (...) ما برحوا يحفرون في صدرها طيلة المئة سنة المنصرمة، وما عثروا عليه مدفونًا في صدرها المقدس كان ليكون تاجًا نبيلاً يتوج رأسها، وكان يمكن لنا، ان نفخر بان عندنا واحدًا من أثمن المتاحف (توفيق صايغ، «اضواء جديدة على جبران»، بيروت ١٩٩٦).

ويشير الدكتور جورجي كنعان ان التنقيبات التي اجريت في ١٩٩٠ في بعض المواقع أثبتت ان بعض المدن الكنعانية مثل أريحا وبيت شان وجازر ومجدو وأورشليم وجبيل وأوغاريت،

تسبق التاريخ. وهذا ما يؤكد ما ذكره جبران في رسالته، جاهرًا «صحيح ان تراثنا الحضاري العظيم أفنته تدميرًا وحرقًا سنابك الغزو البربري، وبعثرته احداث جامحة وعاديات الدهور المظلمة، ولا يزال الكثير من مناثرنا الحضارية مدفونًا تحت انقاض التراب، ولكن ما سلم منه، أو قل ما اكتشف حتى الآن، موزع في جامعات ومتاحف العالم» (محمد القيسي، «الحياة»، ١٣ تشرين الاول ١٩٩٥).

أما عن اهتمام الحكم الحالي في سورية بالمكتشفات الأثرية وإحاطتها بما تستحق من حماية ودراسة، فيقول باتريك سيل («الاسد، الصراع على الشرق الاوسط»، ترجمه للعربية «المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع»، ص٧٤٣-٧٤٥): «في عملية تكوين أمة، استعمل الاسد والبعث التاريخ، وعلم الآثار، والمنجزات الثقافية الحضارية والعلمية للعرب. ومن الآراء الشائعة ان سورية ظلت نائمة عشرة قرون، وقد نزعت عنها طبيعتَها السيطرةُ الاجنبيةُ، وحان وقت تحريكها وإحيائها، ومن الشروط المسبقة لذلك فهم الماضي. ومن المناسبات النموذجية لذلك المؤتمر الذي عقد في مدينة الثورة التي لا تزال خامة جديدة في نيسان ١٩٨٥ في بلد سد الفرات، حول تاريخ العلوم عند العرب (...) ثم ان المكتشفات الاثرية في إيبلا جنوبي حلب... وفي ماري على نهر الفرات... قد أعطت دفعًا عظيمًا لروح الاعتزاز الوطني لدى سورية (...) وقد زود ذلك كله السوريين بدليل على تفوقهم القديم على العبرانيين في الجنوب، وعلى تساويهم مع الحضارت العظيمة في مصر ووادي الرافدين. وكان السوريون غالبًا ما يغتاظون من استخدام اسرائيل للعهد القديم لتبرير فعلاتها السياسية المعاصرة. غير ان هذه المكتشفات جاءتهم بالراحة والعزاء. فأرشيف إيبلا، كما وصفه مكتشفه، البروفسور باولو ماتياس، من جامعة روما كان يصور حضارة عالمية عليا قبل ابراهيم بألف سنة، وكما قال الدكتور عفيف بهنسي مدير الآثار والمتاحف في سورية تعليقًا على حملة تشويش شنها من يُسمون بـ«الأثريين التوراتيين» في اواخر السبعينات: «لقد أصبح الآن بالامكان اثبات ان التوراة لا يمكن اعتمادها كمرجع للتاريخ العالمي، فهي تتكلم عن مدن صغيرة واحداث عديمة الاهمية بالمقارنة مع الاحداث الكبرى والشخصيات الهامة التي تتحدث عنها الواح إيبلا». وبالنسبة إلى المواقع الاثرية المحددة في سورية والبالغ عددها ٣٥٠٠ موقع معظمها لا يزال مدفونًا في باطن الارض، يثق الدكتور بهنسي بأنه سيتم العثور على «إيبلات» أخرى. ولقد تم بناء زهاء ٣٠ متحفًا في مختلف انحاء البلاد بتشجيع من الاسد لتضم تراث سورية الذي لا يضاهى».

في التاريخ القديم

الساميون والكنعانيون: «منذ العام ٣٠٠٠ق.م.، تتيح لنا المعطيات التاريخية ان نتابع بوضوح أكثر التنقلات الكبرى للشعوب المترحلة وسياسة التوسع للبلدان المستقرة. فقد أصبح الممر السوري الفلسطيني (لبنان-سورية-فلسطين) الواقع ما بين البحر المتوسط والصحراء والرابط بين آسيا وافريقيا، محط انظار مجاوريه بالاجمال. وهكذا سنجد ثلاثة مراكز انتشار كبرى تتدفق موجاتها معًا أو بالتوالي، عبر المناطق السورية، مغيرة أو مدمرة منشآت المستقرين. فالبادية السورية العربية راحت تطلق على فترات متوالية جماعات من الرحل لاحتلال الاراضي الزراعية. ومن جهة أخرى، فإن بلاد الرافدين كانت تندفع دومًا نحو سورية الشمالية للوصول إلىالمتوسط. كما كانت تندفع مصر باتجاه فلسطين وفينيقيا (لبنان وسواحل سورية) للدفاع بصورة افضل ضد أي هجوم محتمل يأتيها من بلاد الرافدين أو من آسيا. ويضاف إلى مراكز التوسع أو الهجوم الثلاثة هذه، التي كانت تطمح على الدوام ببلاد الممر السوري-الفلسطيني، منذ اواخر الالف الثالث، الشعوب النوردية (الشمالية): هندو-اوروبيون مقيمون منذ اواخر الألف الثالث ق.م. في آسيا الصغرى وارمينيا وايران واليونان الخ... وآسيويون من مختلف الاجناس آتون من ابعد المناطق(...) وحوالي العام ٢٩٠٠ق.م. زادت الموجة السامية-الكنعانية (الخارجة من البادية السورية) في الطابع السامي لبلدان الهلال الخصيب. وهؤلاء الغزاة الجدد باتوا يدعون كنعانيين في فلسطين، وكنعانيين-فينيقيين في لبنان، وآموريين في سورية، وآكاديين في بلاد ما بين النهرين. وكانوا جميعًا شعوبًا سامية حملتها موجة مد سامي واحدة. وراحت نزعتهم الاساسية تتشعب. فالكنعانيون اصبحوا تجارًا وبحارة في لبنان، في حين ان كنعانيي فلسطين وكنعانيي (الاموريين) سورية والأكاديين (البابليين في ما بعد) في بلاد الرافدين، راحوا يتعاطون بصورة خاصة الزراعة والتجارة البرية. وهكذا، ومنذ الألف الثالث، نجد بلدان الهلال الخصيب يسودها العنصر السامي، وقد بقيت الحال إلىايامنا هذه. أما اللهجات السامية في تلك العصور، من كنعانية وفينيقية وأمورية وعبرية وآشورية-بابلية...، فقد خلفتها في الألف الاول ق.م. اللغة السامية الآرامية التي اضمحلت في الالف الاول بعد الميلاد امام اللغة العربية السامية» (جواد بولس، «لبنان والبلدان المجاورة»، بيروت، ط٢، ص ٥١-٥٣).

الأموريون: حوالي ٢٣٠٠ق.م. خرجت موجة جديدة من الساميين الاموريين في سورية وراحت تتوسع حتى وصلت دلتا النيل، كما اكتسحت ارض الفرات حيث ساندت الأكاديين الساميين هناك، فأخضعوا السومريين، وبرز منهم زعيم مدينة صغيرة اسمها بابل، هو «سوموابم»، فأصبح قوة مرهوبة الجانب واعلن نفسه، ملكًا، فكان مؤسس مملكة بابل الاولى. وأخضع الاموريون ايضًا أنحاء فينيقيا وفلسطين.

«كانت سورية في الألف الثالث والثاني ق.م. تعرف خلال جغرافية ارض الرافدين باسم «أمورو»، وهي كلمة سامية تعني «الغرب» (...) وبعد ألفي سنة تقريبًا (حوالي ١٢٠٠ق.م.)، أصبحت بلاد أمورو تعرف ببلاد «آرام»، وأصبح سكانها الآراميين الذين يذكرهم التاريخ. وبعد فتح الاسكندر الكبير لبلاد الآراميين (٣٢٢ق.م.)، اصبحت بلاد آرام تعرف باسم «سورية» وهي لفظة من اصل إغريقي (...) وعلينا ان نفترض ان المدن الامورية في الالف الثالث، مثل حلب وحماه ودمشق، كانت شبه مرافىء للصحراء ومحطات ما بين ارض الرافدين وفينيقيا ومصر، وهي قديمة

(...) فإن الحفريات الحديثة اظهرت لنا وجود حياة مدنية مستقرة في دمشق يعود تاريخها للألف الرابع ق.م. (...) ومع ان اللغة الامورية دام استعمالها في التخاطب قرابة ألفي عام، فقد اختفت، لأنها لم تدون على ما يبدو، و لم تترك أثرًا منها امام اللغة الآرامية التي خلفتها في سورية بعد ١٢٠٠ق.م. ...» (جواد بولس، المرجع المذكور، ص ٧٦-٧٨؛ وراجع باب «سورية الطبيعية» الوارد أعلاه).

الآراميون: ظهر ذكر الآراميين للمرة الاولى في التاريخ في وثائق الملك الاشوري تغلات بيلاصر الاول الذي عاش بين القرن الثاني عشر والقرن الحادي عشر ق.م. في شمالي العراق. ثم توالت النقوش الآشورية المسمارية لتذكر من حين لآخر قبائل الآراميين التي كانت على صراع شبه دائم مع التوسع الآشوري المستمر في مناطق الهلال الخصيب. وكذلك أتت التوراة على ذكر الآراميين (ورد في بعض اسفار العهد القديم عن صراع دولة دمشق الآرامية مع دولة داود العبرية). والمصدر الثالث والأهم هو النقوش الآرامية نفسها التي تنقل اخبار الآراميين من القرن التاسع والثامن ق.م.، إضافة إلى ذكرهم في بعض الكتابات الهيروغليفية المصرية التي تورد كلمة «آرام» كاسم لمنطقة تواجد الآراميين في سورية والعراق.

ويتفق المؤرخون ان الآراميين شعب سامي، ظهروا اولاً في مناطق شمالي سورية، ثم امتدوا إلىالمناطق الوسطى من الهلال الخصيب، وأسسوا لهم دويلات عدة كان اشهرها وأقواها دولة «آرام دمشق». «وقد طغت موجاتهم على سكان البلاد من أموريين وحوريين وحثيين فامتزج فيهم من امتزج وطرد من البلاد من طرد (...) وعلى مرّ الزمن اخذ هذا الشعب بجميع اسباب الحضارة الأمورية والكنعانية الراقية التي جاء ليقيم في كنفها. ولكن القوم الجدد (الآراميين) احتفظوا بشيء واحد هام: لغتهم. فهم من هذا القبيل يختلفون تمامًا عن جيرانهم الجنوبيين، والعبرانيين والفلسطينيين الذين توطنوا البلاد في اواخر القرن الثالث عشر ق.م. ذلك بان الآراميين احتفظوا بلهجتهم السامية الاصلية التي نسميها الآرامية وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح والتي شاعت واصبحت لغة الناس في منطقة غربي آسيا بكاملها.والعجيب في انتشار هذه اللغة وفي صيرورتها لغة البلاد (سورية) بأجمعها أنها لم تنتشر بفضل عوامل سياسية بل بفضل عوامل تجارية. فقد كان التوسع التجاري لا التوسع السياسي سببًا في نشرها في البلاد. ففي القرن الثامن ق.م. حلت الآرامية محل الكنعانية التي كانت لغة سورية، وظلت اللغة السائدة في البلاد إلى الفتح العربي في القرن السابع للميلاد، عندما أخذت العربية تحل محلها» (د. فيليب حتي، «تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية»، دار الثقافة، ط٣، ١٩٧٨، ص١١٠).

غلبة العربية على الآرامية التي توجها الفتح العربي في القرن السابع للميلاد، سبقها تزاوج حضاري يعود إلى قرون سابقة. فالباحث في جامعة أوكسفورد، شفيق ابو زيد، يقول في هذا الصدد («الحياة»، العدد ١١٧١١، ١٥ آذار ١٩٩٥، ص١٨):

«دلائل كثيرة تشير، خصوصًا النقوش الآرامية التي تم اكتشافها خلال هذا القرن (القرن العشرون) في مدينة قيماء في المملكة العربية السعودية، إلى ان التزاوج الحضاري بين العرب والآراميين بدأ من دون أدنى شك خلال الألف الاول ق.م. هذه النقوش وغيرها من الدلائل التاريخية تؤكد ايضًا ان بعض القبائل الآرامية سكن في شبه الجزيرة العربية خصوصًا في المنطقة الشمالية الغربية المحاذية للعراق. ومن ناحية أخرى هناك قبائل عربية متعددة دخلت الهلال الخصيب خلال فترات مختلفة من التاريخ، وسكن بعضها في مناطق

الآراميين. وهذا الاختلاط الاتني والحضاري واضح خلال التاريخ، ونذكر على سبيل المثال البتراء (راجع الأنباط والبتراء في ج١، ص١٨٢-١٨٤) وتدمر.

كان شعب تدمر مؤلفًا من أكثرية آرامية وأقلية عربية، والتاريخ يشهد على الاندماج الكامل بين الفئتين. وكما لعبت الاقلية الآرامية دورًا كبيرًا في تاريخ الأنباط، كذلك لعبت الاقلية العربية دورًا كبيرًا في سياسة تدمر وانتشارها التجاري العالمي. حتى ان هندسة مدينة تدمر، التي هي مزيج من الفن السوري بشتى اشكاله الآرامية واليونانية والرومانية، تُظهر بصمات التأثير العربي في نواح عدة، خصوصًا في الشعائر الدينية.

ومما ذكره شفيق ابو زيد (في المرجع المذكور): «منذ مطلع القرن الثاني للميلاد بدأت اللغة السريانية تحل مكان الآرامية، وهي شبيهة إلى حد بعيد بأمها التي انبثقت عنها. وسنجد ان النصارى المتحدرين من الحضارة الآرامية، أي النساطرة واليعاقبة والموارنة والملكيين السوريين، لعبوا دورًا كبيرًا جدًا في بنيان الحضارة العربية التي لولا مشاركتهم العظمى لما عرفت الازدهار التي ما برحنا نفتخر به حتى يومنا هذا. على كل حال، ما قام به اجدادهم الآراميون من محبة ووحدة تجاه اخوانهم العرب استمر واضحًا عند الفتح الاسلامي لبلاد الشام وما بين النهرين خلال العقد الثالث من القرن السابع».

الدول-المدن المتنازعة، سيطرة الاشوريين ثم البابليين:

ثم البابليين: في عودة إلى جواد بولس (في المرجع المذكور، ص١١٦-١٥٨) يمكن ايجاز المحطات المهمة في تاريخ سورية الآرامية وفق الصورة الموجزة التالية:

أسس الآراميون في سورية ممالك صغيرة، ولكنها قوية نسبيًا. وبعد ان احتلوا سورية بقليل، أصبحت إمارات الأموريين القديمة: حلب وحماه وحمص ودمشق وحوران وغيرها دولاً آرامية مستقلة، كانت اهمها دمشق وحلب. وكان ملك دمشق الآرامي، كما كان اسلافه الأموريون، الملك الاقوى والاهم بين ملوك سورية الآراميين الآخرين. وهكذا «غدت مملكة دمشق... تسيطر على العالم الآرامي في سورية، وهي التي قادت، في ما بعد، المعارك ضد العبرانيين. وملك دمشق هو الذي تدعوه النصوص التوراتية والكتابات الآرامية «ملك آرام» (نقلاً عن Dupont-Sommer, LES ARAMEENS, P.٢٩).

وبعد ان دمرت شعوب البحر والشمال المملكة الحثية، في آسيا الصغرى، ظهرت في سورية الشمالية امارات حثية كانت أهمها كركميش (جرابلس) وحماه. فأصبحت سورية العليا (سورية الشمالية ومنطقة دمشق) تحتضن رواسب من الآسيانيين (حثيين وحوريين) في إطار غالبية من الآراميين (والأموريين والكنعانيين).

وكالأسلاف الاموريين والكنعانيين، انهك الآراميون انفسهم (وكذلك العبرانيون والفلسطينيون) بنزاعات داخلية. فخلال قرون عديدة، كانت «هذه الممالك الصغيرة تتخاصم في ما بينها مندفعة بكبرياء عنيدة. وكان ملوكها الصغار يتآمر واحدهم على الآخر أو يتقاتلون في ما بينهم، ويطلب واحدهم مساندة ذلك الاجنبي على الآخر».

ومنذ ١١٠٠ق.م. بدأت الغزوات الآشورية تنزل من السهول العليا لأرض الرافدين متدفقة على مناطق الحثيين ومناطق الآراميين في سورية. لكن بعد مدة، استعاد ملكا دمشق وحماه استقلالهما. «وفي عهد سليمان (٩٥٥-٩٣٣ق.م.)، قاتل ملك دمشق بنجاح ملوك الآشوريين في الشمال وملوك اسرائيل في الجنوب». وتدوم الحالة هكذا حتى القرن الثامن ق.م. حيث تمكن الآشوريون من تلقف الدول-المدن الآرامية السورية الواحدة بعد الأخرى. إذ ما

كانت أشور لتصبح امبراطورية كبيرة دون ان يكون لها منفذ على البحر.

في ٧٣٨ق.م. احتل الآشوريون سورية الشمالية، وحولوها إلى ولاية آشورية، فدفع الجزية لهم ملوك دمشق وجبيل وصور وكركميش. وبعد اربع سنوات، اجتاحوا فلسطين واحتلوا غزة التي لجأ ملكها إلى مصر. وقد أقيم حكام آشوريون على المناطق المتاخمة للجزيرة العربية ولمصر.

إن العهد الآشوري كان مشغولاً دومًا بالثورات المتواصلة في بلاد كنعان القديمة. فقد ثارت القبائل المجاورة للبحر الميت وممالك يهوذا واسرائيل ودمشق وفينيقيا، تارة منفردة، وطورًا متحدة في ما بينها. ولكن في اغلب الاحيان كان الفرعون يتهرب ويترك حلفاءه يُسحقون» (عن Contenau).

في ٧٣٢ق.م.، ثارت دمشق، فاحتلها الملك الآشوري بناء على طلب من ملك يهوذا. فنهب الهيكل والقصر وقتل الملك، ثم أجلى قسمًا من السكان، وأقيم على المدينة حاكم آشوري. وفي ٧٢٠ق.م.، ثارت مدن حماه ودمشق والسامرة وسميرا بتشجيع من مصر. فهُزم هؤلاء المتحالفون في قرقر على العاصي. سُلخ ملك حماه حيًا ونقلت إلى مدينته جماعة كبيرة من الآشوريين وعين قائد عسكري حاكمًا عليها. ثم تابع الآشوريون سيرهم نحو الجنوب، فهزموا المصريين في رفح، جنوبي غزة، ونفوا ملكها (٧٢٠ق.م.). وعلى الشاطىء الفلسطيني، تم احتلال جميع المدن المتمردة ونفي ملوكها إلى أشور. أما الجنود المصريون فقد ردوا إلى بلادهم. وفي ٦٧١ق.م. وصل الآشوريون إلى مصر (دلتا النيل) «بمساعدة رؤساء العشائر العربية في الصحراء».

في ٦٢٦ق.م.، ثار حاكم بابل الكلداني، نابوبلاصر، وقضى على الحكم الآشوري واعلن نفسه ملكًا. فانتهى عهد السيادة الآشورية على غربي آسيا. وقد اعتبر هؤلاء انفسهم ورثاء أشور فادعوا السيادة على سورية وفينيقيا، على ما كان عليه الآشوريون من قبل. وفي هذه الفترة، استطاعت مصر ان تنفض عن كاهلها الحكم الآشوري وتتحدى الكلدانيين-البابليين في امر السيادة والسيطرة على هذه المنطقة التي بقيت المحور وساحة القتال بين ملوك بابل وفراعنة مصر.

وفي ٥٣٩ق.م. (أي بعد ٨٧ سنة)، حلت الامبراطورية الفارسية محل الامبراطورية البابلية الجديدة أو الكلدانية. والجدير ذكره هنا ان ثورة الحاكم البابلي، نابوبلاصر، التي خلعت النير الآشوري واسست الامبراطورية البابلية الكلدانية، قامت بمساعدة وباشتراك من ملك المساديين في ايران، وتوصلت إلى تدمير نينوى في ٦١٢ق.م. «ولا تزال نينوى حتى يومنا هذا مدفونة تحت انقاضها».

الامبراطورية الفارسية الأخمينية، الإيالة السورية: كان اندفاع الفرس غربًا-وهم شعب هندو اوروبي- نحو شواطىء المتوسط نذيرًا بزوال سيادة الشعوب السامية، تلك السيادة التي لم يستطيعوا استردادها إلى ان قام العرب المسلمون، بعد مرور ألف عام، بفرض سيادتهم على المنطقة. كانت الامبراطورية الفارسية التي أسسها قورش (٥٥٠-٥٣٠ق.م.) والتي وسّع حدودها ابنه قمبيز وداريوس، مترامية الاطراف. كانت تمتد شرقًا من نهر كوش الهندي ونهر الاندلس وما وراءه إلى البحر الايجي غربًا، ومن القوقاس شمالاً إلى المحيط الهندي جنوبًا. وقد كانت هذه المرة الاولى التي ضمت بلدان هذه المناطق تحت حكم قوي مركزي واحد. «وقد صك الفرس النقود المعدنية الموحدة وادخلوها كعامل جديد في عالم التجارة، وانتشرت اللغة الآرامية انتشارًا واسعًا جعل منها لغة عالمية في كل المنطقة (د. فيليب حتي، المرجع المذكور، ص١٨٥)؛ إذ «لمَ يتح التوسع السريع للامبراطورية الاخمينية الكبيرة وقتًا لنشر اللغة

والكتابة الفارسيتين. فكانتا تستعملان بين اقلية من الطبقة الحاكمة فقط. ولذلك لم تعم اللغة الفارسية الولايات والاقاليم. فاللغة السامية الارامية هي التي خلفت اللغة البابلية كلغة عالمية للتجارة والدبلوماسية. وتبنى الأخمينيون اللغة والكتابة الارامين اللتين اصبحتا رسميتين من مصر حتى الهند» (جواد بولس، المرجع المذكور، ص١٦٠).

قسّم داريوس الاول مملكته إلى ٢٠ إيالة كانت سورية الايالة الخامسة، وقد شملت لبنان وفلسطين وقبرص. وقد اختيرت مدينة صيدا (دور عظيم الفائدة، بالاساطيل البحرية، قدّمه الفينيقيون للفرس في فتوحاتهم، وكان ملك صيدا بمثابة امير البحر الاول) لتكون عاصمة الايالة. وعرفت المدن الفينيقية ازدهارًا واسعًا طيلة نحو قرن وثلاثة ارباع القرن.

سورية الشمالية مركز الامبراطورية الاغريقية–السلوقية: كان فيليب المقدوني، الذي بوّأ بلاده مركز الزعامة بين الدول الاغريقية، قد أعدّ العدة لتحرير المدن الاغريقية في آسيا الصغرى (وبحر إيجه) من قبضة الفرس. لكن القدر لم يمهله فوقع قتيلاً بطعنة خنجر. فكان على ابنه الاسكندر ان يحقق هذا الأمل.

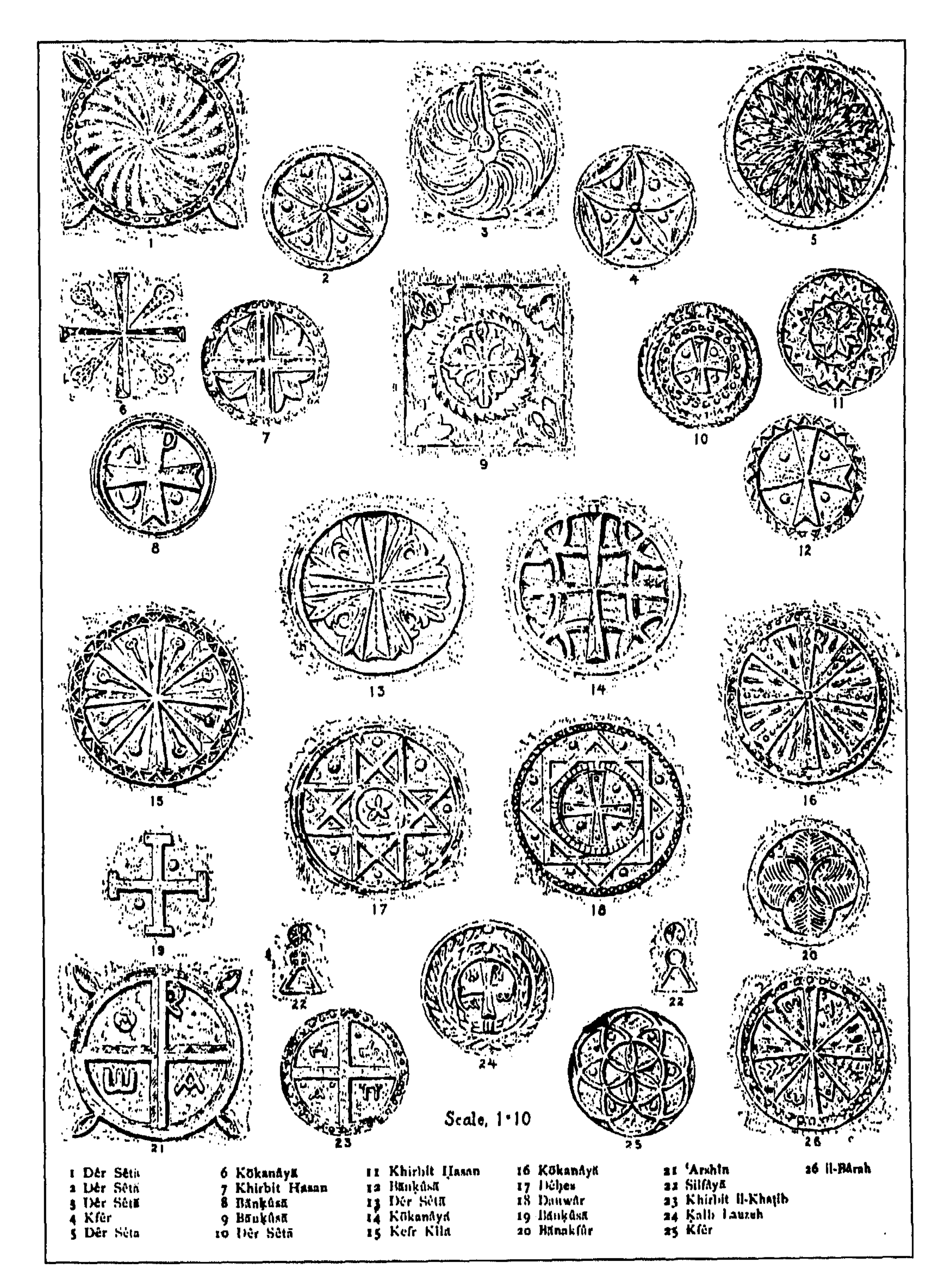
زحف الاسكندر في ربيع ٣٣٤ق.م.، وعبر الدردنيل واجتاح آسيا الصغرى التي كانت إيالة فارسية، وتابع سيره جنوبًا إلى المضايق الكيليكية في جبال طوروس. وما كاد يسير قليلاً في السهول المنخفضة في شمالي سورية حتى التقى بدرايوس الثالث، فهزمه في مضيق ضيق بالقرب من إيسوس، فلاذ داريوس بالفرار. وإحياء لذكرى هذا الانتصار بنى الاسكندر على ساحة الحرب هذه مدينة سماها «الاسكندرونة».

رأى الاسكندر من الحكمة ان يؤمن المواصلات البحرية والبرية. فعدل عن اللحاق بالجيش الفارسي المنهزم شرقًا وتابع زحفه جنوبًا. غير انه ارسل كتيبة من الفرسان شقت طريقها في وادي العاصي باتجاه دمشق لتحتلها، إذ كانت دمشق آنذاك مقر اركان الفرس في سورية. أما هو فقد سار في محاذاة الشاطىء، فأخذت المدن الفينيقية تتساقط امامه حتى وصل إلى مصر بعد ان لاقى مقاومة عنيفة في صور وغزة.

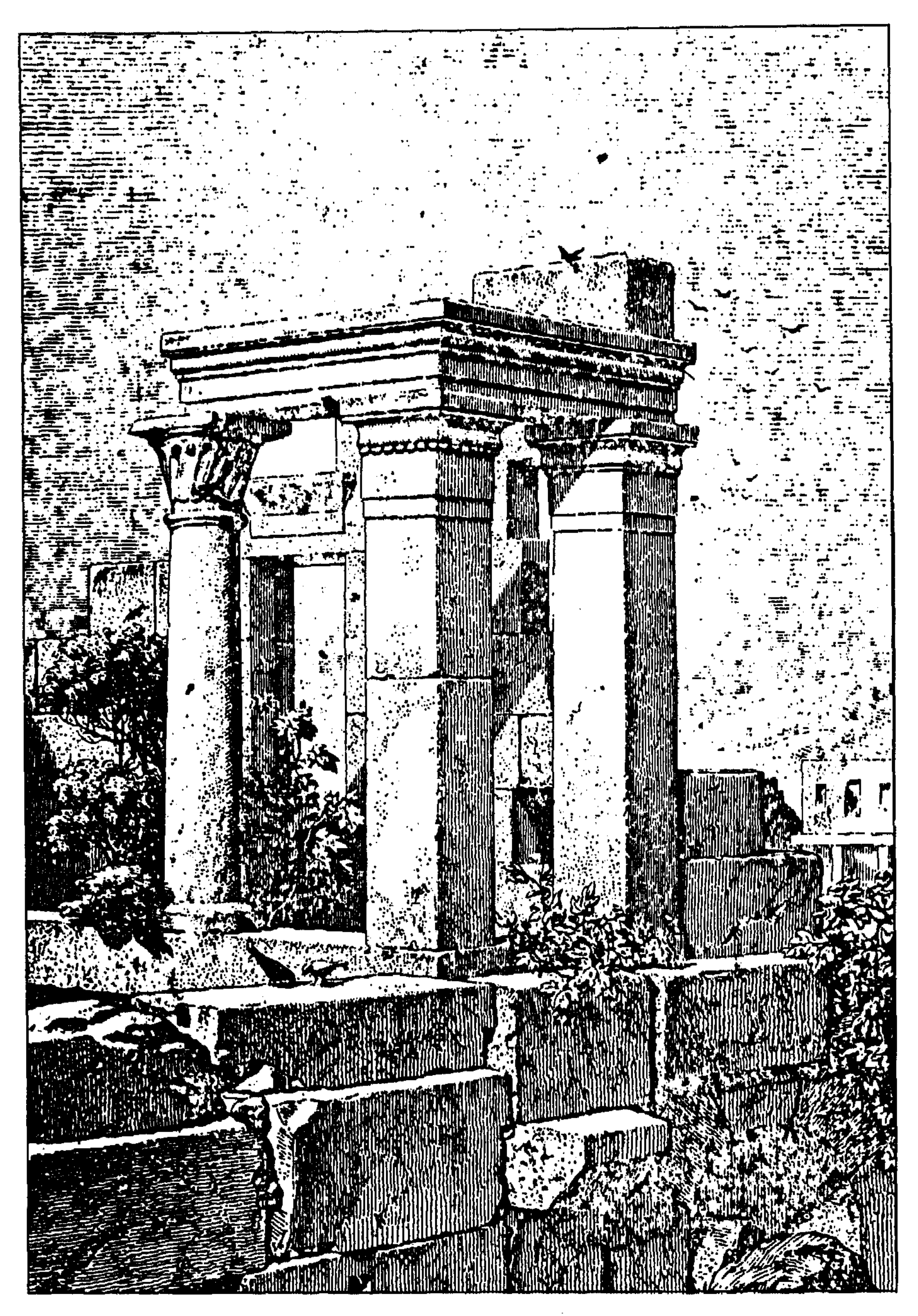
بعد ان خضعت سورية الشمالية ودمشق للاغريق المقدونيين، أصبحت بعد موت الاسكندر وبعد تقسيم امبراطوريته (٣٠١ق.م.) بيد القائد سلوقوس مؤسس الامبراطورية والسلالة السلوقية التي اتخذت من انطاكيا، على العاصي، عاصمة لها. وامتدت الامبراطورية السلوقية، التي كانت تكمن قوتها في سورية العليا وبلاد الرافدين (انطاكيا على العاصي، وسلوقيا على الفرات)، إلى آسيا الصغرى وايران، وامتازت بتنوع شعوبها وحضاراتها. لكن المركز السياسي لهذه الامبراطورية كانت سورية الشمالية من المتوسط حتى الفرات. ومن هنا إسم «مملكة سورية» الذي يطلقه عليها بعض الكتاب المعاصرين، واقتصر حكم السلوقيين في آخر المطاف على هذه المنطقة.

لقد أسهم عنصران في تمتين وحدة هذه الامبراطورية وهما: الاسرة المالكة والثقافة الهلنستية. وكلمة هلنستية تعني مجموعة الحضارة الاغريقية، وتنطبق ايضًا، وبنوع أخص، على انتشار العنصر الهليني والافكار الهلينية خارج بلاد الاغريق، أي تلك الحضارة المختلطة، الاغريقية الاصل التي دامت قرنين ونصف القرن، أي من فتح الاسكندر حتى الفتح الروماني في ٦٤ق.م.

كانت انطاكيا العاصمة، وتمّ تجهيزها بمرفأين على المتوسط هما سلوقيا واللاذقية، وعرفت ازدهارًا واسعًا، واصبحت تقارع أثينا (لا بل حلّت محلها في القرن الثالث ق.م. برأي بعض المورخين)؛ وبعدها، على العاصي، افاميا، ولاريسا وغيرهما. هذه المنشآت زرعت في البلاد الآرامية اشكال المدنية الاغريقية من فن وديانة ومنشآت



«الاقراص ذات الرموز المسيحية في زخارف سورية القديمة» (بطرس ضو، «تاريخ الموارنة»، ج٢)



تاج عمود من الطراز المسيحي السوري في قرية كوكنايا السورية (بطرس ضو، «تاريخ الموارنة»، ج٢)

عامة والعاب واعياد... لكن اللغة الآرامية ظلت اللغة الغالبة ولغة العامة في سورية. واكثر من ذلك فقد نشطت اكثر من قبل، إذ أخذت ا لآرامية تحل محل اللغة (أو اللهجة) الكنعانية في فينيقيا، وانتشرت كذلك «شرقًا حيث اصبحت في الامبراطورية الايرانية، مثلاً، إحدى اللغتين الرسميتين المعترف بهما» (د. فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص ٢١٩).

«ويجب ان نتذكر بأن هذا التغلغل الحضاري لم يكن ذا مجرى واحد، أي من الغرب إلى الشرق. فكما ان الشرقيين تمغربوا كذلك تمشرق الاغريق ايضًا. فقد دمج الاغريق آلهة سامية في عداد آلهتهم، فأصبح الاله بعل زوس واصبح ملقارت هرقل، واصبحت الطقوس الرمزية التي كانوا يقيمونها لتموز وعشتروت طقوسًا رمزية اغريقية يقيمونها لأدونيس وأفروديت. وكان بعض الملوك السلوقيين يضيفون اسمًا ساميًا إلى اسمائهم. والحقيقة ان العالم الاغريقي اخذ عن الحضارة الشرقية ما لا يقل عما اخذه الشرقيون عنهم (د. فيليب حتي، المرجع المذكور، ص ٢١٩).

الولاية الرومانية السورية: في ٦٤ ق.م.، سيطر القائد الروماني بومبي على سورية وفينيقيا وفلسطين، ووحدها في ولاية رومانية، وذلك بعد ان دمّر الامبراطورية الارمنية للملك ديكران. فأجبر «حاكم عنجر (فيلارك) على دفع ألف وزنه، ومن ثم احتاز حرمون وسار نحو دمشق... وكان الملك النبطي (الحارث) قبل بدفع ضريبة مع الاعتراف بالسلطة الرومانية فأقره بومبي، بالمقابل، على دمشق، نظرًا لثقة المواطنين به»

R. Dussaud, "La Pénétration des Arabes en) (Syrie avant l''Islam, P.١٥٥

ضم بومبي سورية إلى الامبراطورية الرومانية، فجعلها إقليمًا عرف في ما بعد بالاقليم السوري، وجعل فينيقيا وفلسطين جزءًا من هذا الاقليم، وقسّمها في عدة وحدات سياسية وادارية مختلفة (مدن او اقاليم) خاضعة للحاكم الروماني المقيم في انطاكيا. ومن اجل اضعاف قوة والي سورية، قام الامبراطور سبتيموس سفيروس (بعد ذلك بنحو قرن وثلث القرن، أي في العام ١٩٥ ميلادي) بتقسيم سورية إلى عدة ولايات: سورية المجوفة وتشمل سورية الشمالية وعاصمتها انطاكيا، وفينيقيا وتشمل فينيقيا والبقاع (هليوبوليس، «بعلبك») وحمص، ثم سورية–فلسطين (اليهودية القديمة)، ثم سورية الولاية العربية وتشمل بلاد الانباط قبلاً، في شرقي الاردن).

كانت الامبراطورية الرومانية، في اتساع رقعتها، أعظم امبراطورية ظهرت حتى ذلك الحين: من الاطلسي والبحر الشمالي إلى الفرات، ومن نهر الرين والدانوب إلى الصحراء الكبرى في افريقيا. وفرض الرومان في هذه الرقعة المترامية سلمًا واستقرارًا سياسيًا عرف باسمهم: «السلم الروماني» **Pax Romana**.

لما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى (نسبة إلى الجهة الجغرافية من مركز الامبراطورية، روما)، فإن الادارة الرومانية اهتمت بتأسيس مراكز عسكرية على اطراف الصحراء لحماية الأهلين من هجمات البدو. فأنشأ الرومان على الحدود الشمالية والشرقية سلسلة من الحصون والقلاع للمراقبة والواحات المحصنة لحماية سورية من الفرثيين إلى الشمال ومن البدو إلى الشرق. ووضعوا مفارز عسكرية عند العيون والابار لحمايتها، وكتائب رومانية حلّ عناصرها من اهل البلاد المجندين في نقاط استراتيجية.

وقد كان عدد سكان سورية في العهد الروماني نحو ٦–٧ ملايين نسمة. ولا تزال في سورية آثار مدن وقرى كانت في ايام الرومان مزدهرة، ويشهد على ذلك ما فيها من آثار الآبار وأقنية الري.

ومن السمات الحضارية والازدهار

الاقتصادي والتجاري لسورية ايام العهد الروماني، جاء في كتاب د. فيليب حتي (المرجع المذكور، مستندًا بدوره إلى أكثر من ١٠ مراجع لمؤرخين اجانب، ص ٢٤٢-٢٥٢):

«في الواقع ان السوريين انشأوا علاقات تجارية مع جميع المدن الموانىء في الغرب. ولم يقنع هؤلاء التجار السوريون الفينيقيون بالبقاء في مدن الموانىء بل كانوا يوسعون تجاراتهم مع داخلية البلدان التي كانوا ينزلون على شواطئها متتبعين الطرق النهرية والبرية الرئيسية (...) ففي ايطاليا نجدهم في زفنا وتريستا وأكيليا (عند رأس البحر الادرياتيكي)، ونجدهم في صقلية ودلماسيا وسالونة، وفي اسبانيا نجدهم في اماكن بعيدة في داخلية البلاد مثل قرطبا. وقد عثر على نقش في مدينة ملقا يعود تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي، يذكر فيه كاتبه شركة تجارية سورية (...) وقد استهوتهم بشكل خاص بلاد الغال (فرنسا). فإننا نجدهم في وادي نهر الجيرون في مدينة بوردو، وفي وادي نهر الرون في مدينة ليون. وكان هنالك عدد كبير في مدينة توف بالقرب من لوكسمبورغ (...) كانت الجالية الفينيقية في مدينة اورليان تشعر كأنها جزء من المدينة أو كأنها في وطنها. فإنه في العام ٥٨٥ الميلادي لما دخل الملك غونترند **Gontrand** هذه المدينة استقبلته الجالية الفينيقية بـ«أهازيج بلغتهم السورية» (...) عند مستهل القرن الرابع للميلاد تجد اولئك السوريين اللبنانيين من تجار وجنود وعبيد ومستعمرين ينقلون الدين المسيحي إلى اوروبا، ولم يكونوا بأقل حماسة في نشره عن آبائهم واجدادهم الذين نقلوا إلى الغرب ديانة الفينيقيين وطقوسهم وشعائرهم الوثنية. وقد ظهر أثرهم المسيحي في الغرب بصورة خاصة في التقشف والتزهد والرهبنة والنواحي العاطفية. كان تعلقهم بالصليب واتخاذه شعارًا دينيًا من بين العناصر التي ادخلها الفينيقيون إلى اوروبا في القرن السادس. وقد كانت جاليتهم في روما أثناء القرن السابع والثامن من القوة بحيث انهم قدموا إلى السدة البابوية عددًا من البابوات. هؤلاء البابوات السوريون هم الذين اقاموا جميع الاعياد الكاثوليكية التي تدور حول تعظيم مريم العذراء».

وحول اللغة، يقول حتي: «كان السيد المسيح يضرب امثاله للناس ويلقي عظاته على الجماهير باللغة الآرامية. وعندما دوّن تلاميذه سيرة حياته دونوها بالآرامية، ولكنها لم تصلنا بل انها ترجمت في اوائل العهد الامبراطوري الروماني إلى لغة اغريقية ركيكة. ولكن بالرغم من هذا فإن أثرها الروحي كان أبعد غورًا في مجرى الحضارة من كل ما خلفه لنا الادب الاغريقي-اللاتيني. وعندما تنصرت هذه المنطقة أصبحت السريانية (وهي لهجة آرامية) لغة الكنائس في كل من سورية ولبنان والعراق، مع العلم بأنه كانت هنالك فوارق طفيفة في هذه اللهجات. وقد اتسع انتشار السريانية كلغة ادبية اتساعًا كبيرًا بعد القرن الثالث للميلاد. وقد كان لترجمة الاناجيل إلى اللغة السريانية (بلهجة أديسا، أي الرها كما عرفها العرب وأورفا كما هو اسمها حاليًا) اثر بعيد في احلال هذه اللغة محلًا ادبيًا مرموقًا، فاصبحت بذلك اللغة الادبية. وعندما تنصر الآراميون، سكان سورية ولبنان، تبنوا لهجة أديسا الآرامية وجعلوها لغة الكنيسة والادب ولغة الطبقة الراقية، واصبحوا يعرفون باسم جديد «سريان» (أي سكان سورية). أما اسمهم القديم «آراميون» فقد كان يذكرهم بوثنيتهم. ولذلك تخلوا عنه واصبح هذا اللفظ «آرامي» في عقولهم، حتى وفي معاجمهم اسمًا مرادفًا للوثنية. وهكذا اختفى الاسم السامي القديم «آراميون» وحل محله الاسم الاغريقي الجديد «سريان» أي أهل سورية، واصبحت اللغة السريانية عوضًا عن الآرامية. ولم تحتل السريانية في لبنان مركزًا هامًا إلا بعد ان توطنه الموارنة».

في التاريخ الوسيط

سورية في الفترة البيزنطية (٣٣٠-٦٤٠): انقسمت اراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى إمارتين بريتوريتين، كما كانت في عهد الامبراطور ديوكليسيان (٢٨٥-٣٠٦)، وهما: إمارة إليريا للغرب، وإمارة الشرق. وكانت الاماراتان تداران بواسطة اميرين بريتوريين هما نائبان عن الامبراطور يقيمان في القسطنطينية. وكانت الامارة منقسمة إلى ابرشيات والابرشية إلى ولايات. وكانت امارة الشرق تشمل ابرشية الشرق وابرشية مصر. وكانت ابرشية الشرق منقسمة إلى ١٥ ولاية هي: سورية، سورية الممتازة (Salutaris)، فينيقيا (اللبنانية)، فلسطين الثانية، فلسطين الممتازة، العربية (شرق االاردن)، الفراتية، اورزحين (إديسا)، بلاد الرافدين، كيليكيا، كيليكيا الثانية، إيزوريا (جنوبي آسيا الصغرى) وقبرص.

وقد بقيت انطاكيا، عاصمة الولاية الرومانية السورية، العاصمة الادارية لأبرشية الشرق. وكانت دمشق وحمص مدينتين اقليميتين. واستفادت حلب من نشاط اقتصادي كبير في اثناء الفترة البيزنطية.

حملت الامبراطورية البيزنطية، منذ ظهورها «الصفات الاساسية التالية: شكل هلّيني مسيحي، مع سلطة وراثية ومطلقة على نمط الممالك الآسيوية، دولة شرقية أي تيوقراطية دينية وذات ادارة بيروقراطية مغرقة في المركزية (...) فالسلطة الامبراطورية كانت مطلقة، ولم يكن هناك أي مجلس من الاعيان أو من ممثلي الشعب. وحتى الكنيسة ذاتها... كانت تخضع للامبراطور وتعترف بسلطانه، إذ كان يقرر العقائد كما يقرر الحرب والسلم. ولم يكن يخضع للقانون لأنه هو مصدر القانون» (جواد بولس، «لبنان والبلدان المجاورة»، ص ٢١٨، استنادًا إلى A. Bailly, Byzance, P.١٥،١٦).

فقامت النزاعات والخلافات الدينية (خصوصًا في القرن الخامس) ونشأت المذاهب والملل، هزّت العالم الشرقي وهدّدت الوحدة السياسية للامبراطورية واضعفت قواها الدفاعية. وبصورة موازية تقريبًا، بدأت التقاليد القومية، الآرامية والقبطية، تستيقظ في سورية وفي مصر. وأدت الازمة الدينية في القرن الخامس إلى الانقسامات والخلافات الداخلية، وشجعت الميول الانفصالية. وفي الشرق المتوسطي قادت المماحكات اللاهوتية، التي كانت تستثير الجماهير، إلى تناسي «النفور القديم العميق بين مصر الحامية وسورية السامية للوقوف ضد العالم الاغريقي وعاصمته القسطنطينية» (C.Diehl, Gr., Memento Encycl. Larousse, I, P.٢٢٠).

وأدت المجادلات والصراعات الدينية، في ظل حكم جوستنيان (٥١٨-٥٦٥) إلى انفصال حقيقي بين انصار المذهبين اللاهوتيين: الخلقيدونيين والمونوفيزيين؛ وقد خلق هذا الانشقاق في الامبراطورية، وفي سورية ومصر بنوع خاص، جماعتين أو كنيستين منفصلتين، راحتا تمثلان فئتين متباينتين ومتخاصمتين: الكنيسة الرسمية الخلقيدونية، وكنيسة ا لمنشقين المونوفيزيين المدعوين ايضًا اليعاقبة. واستيقظت الاسس الثقافية الآرامية القديمة في سورية، وكانت روح المعارضة السياسية تعتمد على العواطف الدينية، وقد استعملت اللغة السريانية كلغة للطقوس الكنسية، وكان البطاركة والاساقفة والقساوسة ينشطون في التذكير بالاصول السامية للكنيسة. وتميزت هذه النزعة اكثر ما تميزت في مدارس انطاكيا وإديسا ونصّيبين التي شاركت بنشاط، منذ القرن الرابع حتى القرن السابع، في ترسيخ العقيدة المسيحية.

وكما كانت سورية عند الفتح الروماني

(قبل سبعة قرون)، كذلك كانت في السنوات التي سبقت الفتح العربي، إذ إنها «عادت آرامية وعربية» (جواد بولس، المرجع المذكور، ص٢٢٣). وبعد ان يئست من الاضطهادات الدينية وتعسف النظام الامبراطوري البيزنطي وفوضى ضرائبه، لم تبد اية مقاومة لصد العرب المسلمين.

الوضع في سورية في سنوات ما قبل الفتح العربي الاسلامي: «لو ان امرءًا جرؤ في مستهل القرن السابع ميلادي ان يتنبأ ان جيوشًا لم يعلم بها من قبل أحد، و لم يشعر بقوتها من قبل أحد، ستخرج من الجزيرة العربية-التي لم تكن مركزًا من مراكز الحضارة والعمران- لتتحدى القوتين العالميتين، فارس وبيزنطية، فتقوض اركان الاولى وتسلخ عن الثانية أغنى مقاطعاتها، نقول، لو ان امرءًا تنبأ ان شيئًا من هذا سيحدث لاتهم بالغفلة والخبال. ولكن هذا ما وقع فعلاً. فان الجزيرة العربية، الجافة القاحلة، تغيّرت، وكأن تغيرها كان بفعل عصا سحرية، إلى منبت ابطال وعظماء لم يعرف العالم لهم مثيلاً لا في نوعهم ولا في عدِّهم. وكل ذلك تم بقيادة النبي» (د.فيليب حتي، المرجع المذكور، ص٢٨٨).

في ٦٣٣، أي بعد وفاة النبي بسنة واحدة، تمت جميع الاستعدادات لغزوة البلدان المجاورة. وكان، إلى شمالي المسلمين في شبه الجزيرة، قوتان تصطرعان للسيطرة على غربي آسيا، وهما: فارس وبيزنطية، وقد دام صراعهما قرونًا مما استنزف قواهما وخلّفهما دولتين منهوكتي القوى.

كان كسرى (فارس) هاجم سورية في ٦٠٨، ولبنان في ٦٠٩، وهاجم خليفته فلسطين وخرّب بين المقدس في ٦١٥. وقد جعل الفرس من المنطقة بكاملها-باستثناء المدن الساحلية-إيالة فارسية من ٦١١ إلى ٦٢٢. ولكن الروم (البيزنطيون) استعادوا جميع هذه المناطق في ست حملات متوالية بين ٦٢٢ و٦٢٩، ولكنهم أهملوا امر الحصون المتاخمة للجزيرة العربية وسحبوا بعض حامياتها. وكان اهل البلاد يشكون فداحة الضرائب التي كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية تفرضهما على سكان المنطقة لمتابعة حروب لم يكن لهم فيها اية مصلحة. فاستحالت الشكوى إلى تململ وتذمر. اضف إلى ذلك الانقسام العقائدي بين مختلف الكنائس المسيحية.

كان السكان الساميون (الآراميون) في سورية ومختلف مناطق الهلال الخصيب-يرون في العرب شعبًا تربطهم بهم روابط القربى العرقية. فكانوا اقرب إليهم من اسيادهم الغرباء الذين ينتمون إلى العرق الهندو-اوروبي. يضاف إلى هذا نزول قبائل عربية علىاطراف الهلال الخصيب. فقد كان الغساسنة على حدود سورية، واللخميون على حدود العراق عاملاً سهّل مهمة الفاتحين الجدد الذين كانوا قومًا أشداء ذوي بأس، يهزأون بالموت لا بل يعدونه ثوابًا، وكان الاسلام يوحّد قلوبهم، كما كانت غنائم الحرب وتحسين الاحوال المادية دافعًا رئيسيًا من دوافعهم. وهذا البلاذري، المعتبر أفضل وأعدل من أرّخ للفتوحات الاسلامية يخبرنا ان أبا بكر عندما دعا أهل الحجاز ونجد واليمن للجهاد كان «يرغبهم فيه (أي في الجهاد) وفي غنائم الروم فسارع اليه الناس من بين محتسب وطامع».

فتح سورية: ما إن مضى على وفاة النبي (توفي ٦٣٢م.) عام واحد حتى كان هنالك ثلاثة جيوش تتجه شمالاً من المدينة، على رأس واحد منها عمرو بن العاص، وعلى رأس الثاني يزيد بن ابي سفيان، وكان هذان القائدان قريشيين، وكان حامل راية يزيد اخاه معاوية مؤسس الدولة الاموية في دمشق. وقد سار عمرو على محاذاة الساحل إلى العقبة، وسار القائدان الآخران في طريق تبوك ومعان (جنوب شرقي البتراء في بلاد أدوم القديمة).

وكان عمرو، فاتح مصر، القائد الاعلى إذا اقتضت الحال توحيد الجيوش. ثم التحق بهم ابو عبيدة ابن الجراح، وهو صحابي مدني، وقد اصبح في ما بعد القائد العام في سورية.

كان الامبراطور البيزنطي هرقل، آنذاك، في حمص. وكان هذا الامبراطور قد اعاد وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية، فصار الناس ينظرون إليه انه حامي المسيحية. فلما بلغه خبر الجيوش العربية التي هزمت جيشه في وادي العربة، ثم في داثن قرب غزة، أرسل نجدة بقيادة اخيه تيودورس، فتغيرت الحال قليلاً. غير ان الخليفة في المدينة ارسل إلى خالد بن الوليد الذي كان على رأس جيش زاحف من الجزيرة نحو العراق ان يسرع إلى نجدة اخوانه على الحدود السورية. فعبر الصحراء السورية على رأس جيش قوامه حوالي ٨٠٠ فارس في خلال ١٨ يومًا، وهو عمل يعدّ بحق من اعمال البطولة الخالدة التي سجلت انتصارًا قياسيًا، في زمانها، في قهرها الصحراء. وعندما تمّ الاتصال بين خالد وبين الجيش العربي في سورية، ضمن الجيش العربي النصر. ولما بلغ هرقل ما اصاب جيشه، رحل إلى القسطنطينية، وعندما جاوز الدرب الذي يصل ارض الشام بأرض بيزنطية، قال قولته الشهيرة: «سلام عليك يا سورية، سلام لا لقاء بعده» Vale Syria et Ultimatum Vale.

وننقل، في ما يلي، حرفية ما كتبه المؤرخ اللبناني جواد بولس (في كتابه المذكور، ص ٢٣٠-٢٣٤):

في ٦٣٥، حاصر العرب دمشق (إن عرب الجزيرة وآراميي سورية وبلاد الرافدين، وكنعانيي فينيقيا، ينتمون إلى عنصر واحد هو العنصر السامي، ولغاتهم متقاربة في ما بينها). وأدت المفاوضات مع اسقف المدينة إلى انسحاب الجنود البيزنطيين نحو الشمال. فضمن المسلمون للأهلين من المسيحيين بقاء ارضهم وبيوتهم وكنائسهم وحرية عقائدهم الدينية، مقابل الالتزام بدفع ضريبة والتعهد بدفع جزية كان مبلغها اقل مما كان يدفعه هؤلاء للبيزنطيين. ومنذ ان تمّ هذا الاتفاق، فتحت دمشق ابوابها للفاتحين الجدد في ٦٣٥. وباستثناء معركة اليرموك الشهيرة (٢٠ آب ٦٣٦) وحصار القدس، لم تجد الجيوش الاسلامية مقاومة تذكر.

«كان سقوط دمشق حدثًا ذا اهمية كبرى. فهذا الفتح وضع نهاية لعهد دام ما يقارب ألف سنة من السيطرة الغربية (إغريقية-رومانية-بيزنطية)، وقد عادت منذئذ المدينة إلى مدارها الساميّ، واتجهت من جديد نحو الشرق والصحراء. كانت اللغة والثقافة الساميتان، ومع المونوفيزية، تشكل عناصر معادية للكنيسة الارثوذكسية المتكلمة باليونانية. فاستقبل سكان دمشق الفاتحين بدون تحفظ، لكونهم اقرب إليهم من البيزنطيين بأصلهم وبلغتهم وبدينهم. بل هم لم يروا في الاسلام غير شيعة مسيحية منشقة، أملوا ان ينالوا حرية أكثر معها. وفي دمشق أكثر من أي مكان آخر، (...) لم تستقطب الهلينية سوى عدد قليل من الشعب الذي كان بمجموعه يتكلم اللغة الآرامية» (نقلاً عن Elisséef, Dimaskh, Encyclopédie de l'Islam, Nouv. Ed., II, P.٢٨٨).

قسم الفاتحون العرب، الذين كان يرئسهم الخليفة المقيم في المدينة، بلدان المشرق (سورية وفلسطين ولبنان) إلى عدة حكومات عسكرية سمّيت «جند» (اجناد)، كانت مراكزها بعيدة عن البحر (وكانت المدن الساحلية لا تزال بيد الروم قبل ان تتساقط الواحدة بعد الأخرى بيد العرب)، وهي: دمشق، حمص، فلسطين، الاردن وقنسرين. وقد الحقت مدن فينيقيا الساحلية بالحكومة العسكرية في دمشق، أي «جند دمشق».

وفي سنة الفتح نفسها، أي في ٦٣٥، قام الخليفة عمر بن الخطاب، ثاني خلفاء النبي، بتعيين عربي بارز حاكمًا لجند دمشق، هو يزيد بن ابي

سفيان، الذي يلتقي بنسبه بجد النبي الأعلى «عبد مناف». وبعد موت يزيد في ٦٣٩، خلفه في الحكم على جند دمشق أخوه معاوية، وكان احد كتبة النبي. وقد اصبح معاوية نفسه، في ما بعد، خليفة (٦٦١-٦٨٠) الخلفاء الامويين (٦٦١ حتى ٧٥٠) الذين اتخذوا دمشق مقرًا لهم وعاصمة سياسية للامبراطورية العربية الاسلامية الفتية، بدلاً من المدينة.

«حصلت دمشق بسرعة كبيرة على طابع مقدس، حيث كانت التقاليد تحفظ الشهرة لأمكنة بارزة كان أمّها الانبياء، فتزايدت حركة الحج إليها. وكان الحجاج يأتون بشكل خاص إلى جبل قاسيون، إلى مغارة آدم، ,إلى مغارة الدم حيث افترض مقتل هابيل، ثم إلى مغارة جبرائيل وإلى قرية برزه حيث يكرم مكان ولادة ابراهيم. ويفترض كذلك مكان لقبر موسى (بن عمران) في حي «قدم» الحالي. ويذكر إسم يسوع، عيسى بن مريم، بين الانبياء الذين شرّفوا المدينة، إذ اقام في «ربوة» فوق التلة الهادئة... وسينزل في نهاية العالم على المنارة البيضاء... في الجامع الكبير، ليحارب المسيح الدجال (...) وقد دفع الأمويون العاصمة الجديدة إلى الأوج. وخلال قرن من الزمن، غدت المركز الديني لعاصمة الخلافة والقلب لواحدة من الدول الكبرى التي عرفها العالم» (استنادًا إلى المرجع المذكور اعلاه، ص ٢٨٨).

أما انطاكيا، فقد أُبعدت عن دورها، الذي دام ألف سنة، كعاصمة لسورية الاغريقية-الرومانية-البيزنطية. و لم تذكر هذه المدينة إلا نادرًا في عهد الخلفاء المسلمين الاول. «ويبدو انها بقيت مركزًا نشيطًا للحياة الفكرية». واما حمص، فقد قبلت عند الفتح العربي دفع فدية للعرب الذين دخلوها بدون قتال في ٦٣٧. وقد اختيرت كمركز رئيسي لجند حمص، فغدت في عهد العرب مدينة هامة محصنة بقلعة منيعة. ومنذ ٤٥٢، كانت حمص عاصمة كنسية بعد ان رسخت فيها المسيحية (...) «وبين القبائل العربية المقيمة في المنطقة، يجب ذكر بني تنوخ.... وعند الفتح العربي، جاءت من الجنوب قبائل عربية متعددة، في حالة مزيج بين البداوة والاقامة، للاستقرار في المنطقة. وقد غدت حمص عندئذ مركزًا هامًا لليمنيين، ضمن منطقة بني كلب، وهم من كبار مربي الخيول... وفي وقعة صفين، سنة ٦٥٧، وقف سكان حمص إلى جانب علي، وانتشر المذهب الشيعي وتفوّق نفوذه في المنطقة زمنًا طويلاً (...) وعن حماه (وكان إسمها ابفاميا) فقد سلمت للعرب بموجب اتفاقية ٦٣٦-٦٣٧، والحقت بجند حمص حتى القرن العاشر (...) وكذلك ألحقت حلب بجند حمص، ثم بجند قنسرين. و لم تقم حلب بأي دور إداري أو سياسي في عهد الخلافة الاموية (...) لم تتغير حياتها إلا ببطء بعد الفتح الاسلامي، لأن المسيحيين بقوا فيها كثيري العدد ويعانون من الخلافات نفسها التي كانت بينهم في الماضي، ولأن المنطقة ظلت طوال قرن تقريبًا حتى اصبح عدد المسلمين فيها كافيًا لبناء مسجد كبير بارز لهم» (نقلاً عن المرجع المذكور، أي «موسوعة الاسلام»-بالفرنسية-ص ٨٨ و٤١٠).

«امبراطورية الخلفاء الامويين، العاصمة دمشق، دولة عربية إسلامية محورها سورية، واتجاهها نحو العالم المتوسطي (٦٦١-٧٥٠)»:

(هذا هو العنوان، بحرفيته، الذي وضعه المؤرخ اللبناني جواد بولس (في كتابه «لبنان والبلدان المجاورة»، مؤسسة بدران وشركاه للطباعة والنشر، بيروت، ط٢ منقحة ومصححة من المؤلف، ١٩٧٣، ص ٢٣٤)، وقد اخترناه، واخترنا مادته (٢٣٤-٣٣٥) كونهما يوجزان، باعتقادنا، أكثر الكتابات والدراسات التاريخية، حول تلك الفترة من تاريخ سورية والمنطقة، موضوعية. ذلك لأننا اعتقدنا في الوقت نفسه، ان هذا الخيار يساعدنا

على ان نطرح جانبًا أكداس ما وقفنا عليه من مراجع، ترشح من بعضها «عقائدية» غير جائزة في التأريخ، ويفرط بعضها الآخر في تفصيل وتحليل جوانب معينة دون الأخرى لا تحتملها كتابة معجمية أو موسوعية):

كانت امبراطورية الخلفاء الأمويين، كسابقتها المباشرة دولة الخلفاء الراشدين، دولة عربية اسلامية. ولكن، بينما كانت دولة الراشدين تتخذ مدينة النبي (المدينة) عاصمة لها وترتكز على الحجاز، مهد الاسلام، بحيث تشكل دولة تيوقراطية اسلامية واقليمية، كانت الامبراطورية الأموية تتخذ من دمشق عاصمة لها وترتكز على سورية التي كانت الآرامية (المسيحية) لا تزال تشكل الأكثرية في بنيتها البشرية. فهي دولة عربية اكثر منها دينية، وتتجه نحو العالم المتوسطي.

هكذا كانت امبراطورية الامويين: «مملكة عربية». فالقبائل العربية التي خرجت من الجزيرة هي التي قامت بالفتوحات وكوّنت الدولة. وقد أصاب مَن وصف «الاجيال الاسلامية الاولى بأنها كانت تنظر إلى الاسلام على انه دين عربي، يضع الشعب العربي في مركز متميز (...) ونجد الخليفة الاموي مشغولاً بالامور السياسية أكثر منه بالتوجيه الديني، وكان الدنيوي لديه غالبًا على الروحي، ولكن اندماجهما بقي كاملاً (...) وفي هذه الامبراطورية العربية الاسلامية، التي اتخذت عاصمة لها مدينة دمشق، لعب سكان هذه المدينة، الآراميون بلغتهم والمسيحيون بدينهم، دورًا نافذًا في الادارة خلال عهد الخلفاء الامويين الاول. فقد أصبح سرجون بن منصور، وهو سوري مسيحي، المستشار الرئيسي لمعاوية، ثم لابنه وخليفته يزيد الاول، وقد انتقلت مسؤوليته بالوراثة إلى ابنائه. وكانت الدواوين غاصّة بالكتبة المسيحيين».

لقد بنت دولة بني أمية قوتها السياسية والعسكرية على القبائل العربية، أكانت هذه القبائل من البدو الرحل أم من الذين استوطنوا واقاموا في مكان معين. ولكن هذه القبائل العربية لم تنس تقاليدها الخاصة وخصوماتها الوراثية، فانقادت إلى صراع داخلي بين عرب الشمال (القيسيين) وعرب الجنوب (اليمنيين أو الكلبيين). وقد دام هذا الخلاف طوال عهد الدولة الاموية، وكان السبب الرئيسي في دمارها سنة ٧٥٠.

حلت اللغة العربية والدين الاسلامي محل اللغة الآرامية والدين المسيحي. ولكن ذلك تمّ ببطء وبالتدريج. وفي الواقع، إن الفتح العسكري لبلدان الشرق المتوسطي حدث في أقل من عشر سنوات بينما عملية التعريب ونشر الاسلام بين الأكثرية العظمى لهذه البلاد، لم تتم إلا خلال عدة قرون. ومن المهم هنا الاشارة إلى ان الاسلام دين سمح، وكان الخلفاء الاولون أودّاء للحرية. فبقيت على شأنها سورية وفلسطين وساحل لبنان ومصر وأرض الرافدين، إلى نهاية القرن العاشر تقريبًا، حتى غدت الاكثرية بين سكانها من المسلمين، بينما اللغة العربية لم تصبح لغة شعوب هذه البلاد إلا في اوائل القرن الثالث عشر.

من اجل تثبيت الفتح على السواحل الفينيقية، ولمقاومة خطر البحرية الرومية، قام معاوية بوضع خفراء غير عرب على الشواطىء جاء بهم من بعلبك وحمص وانطاكية. وحوالي ٦٦٣، جاءت جماعات من الاعوان الفرس فاقامت في صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة، للدفاع عن البلاد ضد الغزوات البيزنطية. وقام معاوية بإنشاء اسطول بحري عربي كان ربابنته وملاحوه من المسيحيين. وفي ٦٤٩، هاجم جزر قبرص ورودس وكريت. وفي ٦٥٥، هزم الاسطول البيزنطي عند الساحل الجنوبي للاناضول. و«هذا الاسطول الفتي الذي كان يعد كما يروي المورخون العرب، ١٧٠٠ قطعة، كان بقيادة لبنانيين وسوريين معظمهم من المسيحيين». وكأسياد لسورية وفينيقية وفلسطين وارض الرافدين ومصر، نهج الامويون نهج الفرس

(الاخمينيين والبارثيين والساسانيين) بالعمل لفرض سيطرتهم على البحر، والاعتماد على الفينيقيين الذين «قادوا فوق الامواج جموع العرب الذين كانوا يخافون من البحر».

في ٦٧٤، قام اسطول بحري عربي قوي بمحاصرة البوسفور وبتهديد القسطنطينية التي لم تنجو إلا بفضل ابتكار «النار الاغريقية». وعلى أثر محاولة جديدة من المسلمين انتهت بنكبة ٦٧٧، انسحب الاسطول العربي. وفي ٧١٨، كانت بيزنطية اعادت بناء قوتها البحرية والعسكرية، فدحرت الجيش والاسطول العربيين اللذين كانا عادا لحصار القسطنطينية وتمكنت من اعادة سيطرتها على شواطىء آسيا الصغرى فتنازل العرب عن البحر وتركوه للبيزنطيين. ولكن الحرب بين الدولتين لم تتوقف. وأصبح البحر محظورًا على العرب، وانقطعت المواصلات البحرية بين الشرق والغرب، وأصبح هناك حضارتان مختلفتان «متبغاضتان» (أسست لمقولة شهيرة لا تزال تتردد حتى اليوم في احيان كثيرة: «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا»). وقد كانت كل واحدة منهما مواجهة للاخرى على شواطىء المتوسط التي كانت مفتوحة قبل ذلك لجميع الامم والشعوب. و«غدا الشاطىء المتوسطي للبرزخ السوري جبهة عسكرية بين الامبراطورية الاموية والامبراطورية الرومانية-البيزنطية منذ فشل المحاولتين الامويتين لفتح القسطنطينية» (أرنولد توينبي).

تحطمت الوحدة الاقتصادية القديمة للبحر المتوسط، وقد بقيت حطامًا حتى الحقبة الصليبية. وغدت المدن الساحلية (الفينيقية) مقفرة بائسة بعد ان نزح عنها أهلوها إلى الجبل؛ وقد بقيت المدن السورية الداخلية (دمشق وحلب وحمص) كمحطات للطريق البرية الكبرى بين العراق ومصر، واصبح البر، لعدة قرون، باستثناء فترات متقطعة، الميدان الرئيسي للحياة الاقتصادية، وبرزت الاقطاعية كنتيجة حتمية للتقهقر الاقتصادي.

وكان هذا الانقطاع الكامل تقريبًا للنشاط التجاري البحري، مع تفوق الجبل على المدن الساحلية، بالاضافة إلى ما حدث عبر عملية تاريخية طويلة من استبدال اللغة والدين، هو ما حمل على اعتقاد البعض بأن الفينيقيين قد اضمحلوا بعد الفتح العربي، دون ان يتركوا عقبًا لهم من سلالتهم، واعتقاد البعض الآخر انهم بقوا في بلادهم، وبخاصة في المنطقة الجبلية من لبنان، وإن استبدلوا اللغة والدين ونوع العمل (من نشاط اقتصادي تجاري بحري إلى نشاط اقتصادي ريفي زراعي).

سورية إبان الخلافة العباسية: الخلافة هذه كانت عاصمتها بغداد، وكانت دولة اسلامية محورها العراق واتجاهها نحو ايران والقارة الآسيوية.

كان من الاسباب الداخلية لانهيار الخلافة الاموية في ٧٥٠ عدم كفاءة الخلفاء الاخيرين، ومن الاسباب الخارجية تكتل الاحزاب المناوئة لهم: العلويين والعباسيين وجل أهل العراق والفرس وغيرهم. وقد أدعى العباسيون، أي ابناء العباس عم النبي، بانهم أحق بالخلافة من بني امية. واما الشيعة، أتباع علي، فقد كانوا يعتبرون الخلفاء الامويين في دمشق مغتصبين للخلافة، وقد كانوا على جانب عظيم من المنعة في العراق حيث اتخذ علي الكوفة مقرًا لخلافته. وقد كانت معركة الزاب (احد الروافد التي تصب في دجلة) الشهيرة في كانون الثاني ٧٥٠ نهاية للدولة الاموية وبداية للدولة العباسية. ووقعت دمشق في ايدي العباسيين في ٢٦ نيسان ٧٥٠، ثم اخذت المدن السورية بالاستسلام صلحًا الواحدة تلو الأخرى للقائد عبد الله بن علي، عم العباس. واصبح عبد الله هذا اول حاكم عباسي لدمشق. وقد هدم الابنية الاموية والتحصينات الدفاعية. ومنذئذ بدأت حقبة

قائمة في تاريخ دمشق، فانتقلت إلى رتبة مدينة اقليمية، بينما اصبحت عاصمة الخلافة في العراق (الكوفة، ثم بغداد). «لكن حالة من التمرد الكامن سيطرت في العاصمة السورية، وكانت سلطة الحكام العباسيين تصطدم بها بلا انقطاع (...) انتهت «المملكة العربية» مع انتهاء الخلافة الاموية، وفي الوقت ذاته، فقدت سورية سيطرتها التي مارستها طوال قرن على الشرق الاسلامي...».

أبعد العباسيون العناصر العربية عن الادارة والجيش. و لم يبق من التراث الذي حمله عرب الجزيرة معهم سوى اللغة العربية والدين الاسلامي. ولهذا «كان الفتح العربي قصيرًا جدًا... و لم يبقَ احد في الجزيرة وراء موجة الهجوم الاولى لكي تخلفها، فالصحاري العربية ليست امكنة احتياط لتصدير الرجال للخارج (...) لم يكن الجيش العباسي يعتمد على التنظيم القبلي. فقد كان جيشًا من المأجورين، وبوجه عام، كانت تؤخذ عناصره من غير العرب»، من المرتزقة الايرانيين والاتراك والبربر، وفي ما بعد من السلاف والزنوج (...) وبينما كانت قوة الخلفاء الامويين تقوم على قوة ومعاضدة القبائل العربية، كانت قوة الخلفاء العباسيين تقوم على كونهم من سلالة العباس، عم النبي».

استمر ذكر الامويين حيًّا في سورية. «فكان الخوف من عودة الامويين يمنع العباسيين من النوم». وفي عهد الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣)، تم القضاء على ثورة انفصالية في شوارع دمشق كان قام بها احد الذين ادعوا النسب للامويين. ومن جهة ثانية لم يستطع العباسيون إحراز مكاسب كبيرة في صراعهم ضد البيزنطيين، فبقوا في وضع الدفاع تقريبًا.

بعد وفاة المأمون في ٨٣٣، أحسّ الخلفاء العباسيون ان السلطة الزمنية بدأت تفلت من يدهم، فراحوا يركزون نفوذهم على السلطة الروحية. وقد «أضحت مملكتهم، منذئذ، نسيجًا من الفجور والطغيان والتعصب الديني. وتحول بلاط بغداد إلى حفلات التهتك ستروها بإظهار غيرة على الدين. فبدأ التعصب ينتشر. وقد أجبر المتوكل (٨٤٧-٨٦١) غير المسلمين على ارتداء ثياب ذات لون اصفر، وامر بهدم الكنائس التي بنيت بعد الفتح العربي، وسرّح الموظفين المسيحيين...». فانتقص تدريجيًّا عدد الرعايا المسيحيين الذين راحوا، بمعظمهم، يعتنقون الدين الاسلامي.

في القرن التاسع، بدأت الدولة العباسية الواسعة تتفتت. واستيقظت الشخصية الذاتية القديمة للسلالات العرقية ضمن حدودها الطبيعية، فشكلت من جديد دولاً مستقلة. وكان اول انفصال عن بغداد حدث في ٨٢٢ عندما انفصلت خراسان (في ايران الشرقية) عن بغداد. وفي ٨٧٢، استقلت مصر، ثم استولت على فلسطين ولبنان وسورية. وبدأ ما سمّي بالدولة المصرية-السورية، أو دولة الاتراك الطولونيين والاخشيديين التي عمرّت من ٨٧٢ إلى ٩٦٩.

خلال العهد الاخشيدي، وتحديدًا في ٩٤٤، استولى الامير الحمداني العربي الشهير سيف الدولة (٩٤٤-٩٦٧) على حلب واستقل بها. وبذلك اصبحت حلب، للمرة الاولى منذ بدء الاسلام، عاصمة دولة ومقرًا لحاكم، واشتركت في حروب البيزنطيين. لكن في ٩٦٢، وقعت في قبضة الامبراطور نيسيفور فوكاس، وتركها في حالة خراب و لم تنهض حتى وقت طويل.

ثم جاء عهد الدولة المصرية-السورية للخلفاء الفاطميين (٩٦٩-١١٧١). ففي ٩٦٩، جاء جيش فاطمي من افريقيا الشمالية بقيادة القائد الشهير جوهر واستولى على دلتا النيل، ثم على وادي النيل. ومن دون ان يضيع وقتًا، قام جوهر باخضاع فلسطين والشواطىء اللبنانية ودمشق (٩٦٩-٩٧٠)، ثم ارسل جيشًا لفتح حلب، فاعترف الامير الحمداني فيها بسلطة الفاطميين.

وفي ١٠٠٢، ضمت حلب إلى الممتلكات الفاطمية. وفي ظل حكم الخلفاء الفاطميين «كانت دمشق في وضع صعب، إذ كان الحمدانيون يضغطون عليها من الشمال والفاطميون من الجنوب. هذا إذا لم نذكر الغارات البيزنطية ونشاط القرامطة وغزوات التركمان... جاء حكم الفاطميين ليزيد الوضع صعوبة في المدينة، فكان الجنود المغاربة العاملون لحساب القاهرة يسيئون معاملة الاهالي. وهو قرن من الفوضى السياسية والتدهور. وكانت الفتن احيانًا تتحول إلى فواجع».

ثم جاء عهد الاتراك السلجوقيين (الذين كان نفوذهم، في بغداد وعلى الخليفة، قد بدأ يحل محل النفوذ الفارسي، والعربي طبعًا). ففي سنة ١٠٧١، انتزع السلطان السلجوقي ألب ارسلان القدس وفلسطين من الفاطميين. وفي ١٠٧٦، استولى على دمشق ومنطقتها. وفي ١٠٧٩، اضحى الامير السلجوقي «تتش»، الحاكم على سورية الجنوبية، متخذًا دمشق عاصمة له. وفي ١٠٨٦، انتزع السلجوقيون حلب وسورية الشمالية من الامراء المرداسيين العرب الذين كانوا يحكمونها منذ ما يقارب نصف قرن. وفي ١٠٩٦، تقاسم إبنا تتش سورية بينهما، واشتبكا في حروب دامية اتاحت الفرصة للفاطميين الذين كانوا يسيطرون على الشواطىء اللبنانية، فانتزعوا القدس والقسم الاكبر من فلسطين سنة ١٠٩٨.

عند هذا التاريخ (أي اواخر القرن الحادي عشر)، كاد استقلال الولايات (تحت حكم غريب عن شعوبها) عن الدولة الاسلامية ان يكون تامًا. وفي سورية، ومع العهد الفاطمي، والسلجوقي، اصبحت الفوضى مستعصية، فبرز المغامرون من جميع الجهات، وراحت المدن ترى حكامها يتغيرون بسرعة، وجلهم من الغرباء، كما راح السكان يدفعون فدية عن حياتهم ويعيشون في رعب مستمر، ولا يجرؤون على إظهار ميولهم.

الوضع في سورية قبيل الغزو الافرنجي-الصليبي: «إن التجزئة السياسية لسورية وتعدد المذاهب الدينية... قد فتحا الباب على مصراعيه للغزو الاجنبي. وكان الشعب، الذي عانى من الذل والفقر طوال عدة قرون من الجور العباسي والفاطمي والسلجوقي والتركي، لا يبالي عند تبدل من يسوده. ففي تلك الحقبة التي انتهت آنذاك (نهاية القرن الحادي عشر)، كان المغامرون الغرباء والمرتزقة الاتراك والبربر يحتلون المسرح... وجميعهم، في حرب بعضهم ضد البعض الآخر يحاولون التوسع على حساب جيرانهم... كانت الارض الصالحة للزراعة تخص الاقطاعيين العسكريين من الاتراك السلجوقيين ومن امراء التركمان، الذين كانت قبائلهم تنتشر آنذاك في سورية... وفينيقيا ولبنان. وكان السلطان والامراء المحليون يمنحونهم هبات من الارض كإقطاعات لهم، لكي يدفعوا أجور الفرق العسكرية التي كان عليهم ان يعيلوها. وبهذه الطريقة انتقلت افضل الممتلكات السورية إلى ايدي المغامرين الغرباء، الذين كانوا يتدافعون لجني الثروة على حساب البلاد ومواطنيها الاساسيين» (جواد بولس، المرجع المذكور، ص ٣٠٤، نقلاً عن المورخ اليسوعي الشهير لامنس Lammens).

وكان الدين يمثل القومية والوطن، وكان المجتمع الطائفي-السياسي قد حلّ محل المجتمع القومي، وكانت الجماعات الطائفية تعتبر نفسها غريبة عن الاخرى، وكانت كل فئة تسعى للسيطرة على الفئات المخالفة لها بالرأي، وإذا كانت لم تصل إلى حد إبادتها أو طردها حين تقدر على ذلك، فلأن الفئات المغلوبة كانت تشكل مصدر ثراء للغالب، فتكون قطيعًا من العبيد او عمال الارض، يقومون بدفع الضرائب وبأعمال السخرة.

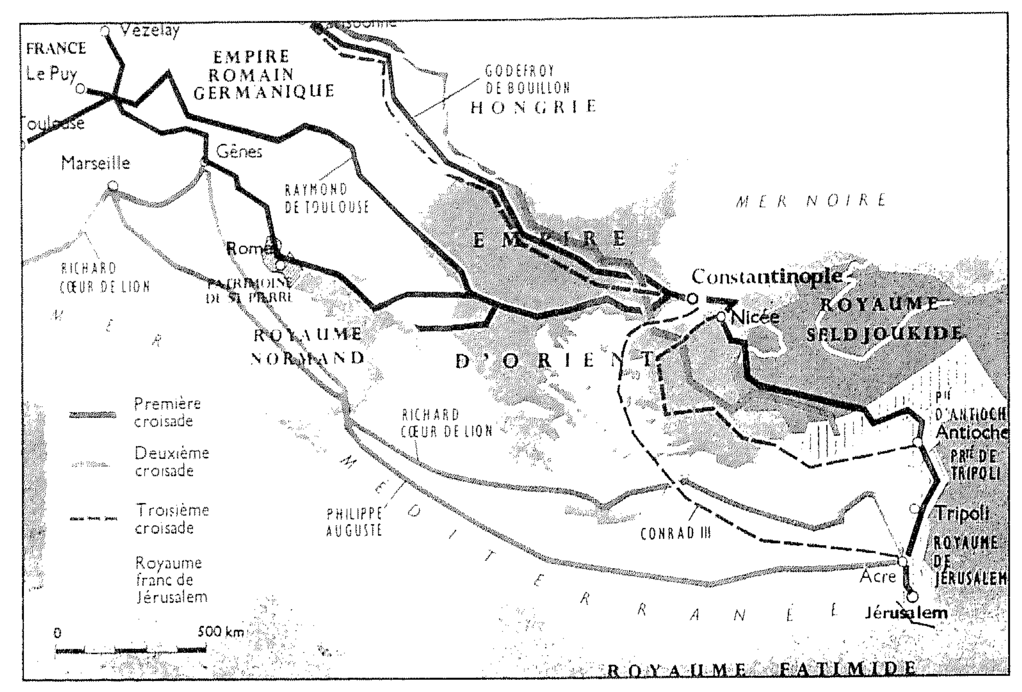
وبالاضافة إلى الطوائف المسيحية، التي كانت تشكل في سورية ولبنان وفلسطين اقليات

هامة، كانت الشعوب الاسلامية في هذه البلدان، بأغلبيتها الكبرى، مؤلفة من عناصر شيعية، خاضعة ومستغلة من متسلطين سنيين غرباء الاصل، هم الاتراك السلجوقيون الذين أتوا حديثًا من آسيا الوسطى فاعتنقوا الاسلام وتبنوا المذهب السني. وحسبما يروي الرحالة العربي الاندلسي ابن جبير، الذي تجول في سورية، (التي كانت خاضعة للفرنجة، وفي سورية الداخلية الاسلامية) بين ١١٨٢ و١١٨٥، كان عدد الشيعة في هاتين المنطقتين يفوق عدد السنة. وكان الشيعة، بطوائفهم المختلفة، يقيمون في الهضاب الجبلية اللبنانية وجبال العلويين بنوع خاص، بدءًا من ارض الجليل (وجبل عامل) حتى انطاكيا. وقد حمل العداء بين الطائفتين (السنة والشيعة) الشيعة المحليين إلى عدم مشاركتهم السلجوقيين في مقاومة هؤلاء ضد الغزاة الافرنج الصليبيين. وعندما امتدت الموجة الصليبية الاولى نحو الجنوب، بعد انتزاع انطاكيا من ايدي الامراء الاتراك السلجوقيين (١٠٩٨)، استقبلت في البلاد التي اكتسحتها بلامبالاة من جانب الشيعة وبعطف من جانب المسيحيين المواطنين الذين كانوا رعايا السلطان السلجوقي، ولكنهم، وبسبب دينهم، «رعايا من الدرجة الثانية».

وقد أدان بعض المؤرخين العرب العلاقات التي نشأت، في هذه الفترة، بين الفاطميين والصليبيين. «فقد ذكر إبن الاثير، ان الفاطميين كانوا قلقين من قوة جيرانهم السلجوقيين، الذين تركوا لهم في فلسطين مناطق لا قيمة لها، فاستحثوا الفرنج للتدخل، داعين اياهم لإقامة امارة بين الدولتين» (المرجع المذكور، ص ٣٠٥-٣٠٦، نقلاً عن ج. وايت G.Wiet، «مصر العربية، تاريخ الدولة المصرية-بالفرنسية-ج٤، ص٥٩؛ وكذلك استنادًا إلى ابن الاثير، «الكامل في التاريخ»، أخبار سنة ٤٩١هـ ج٨)؛ واعتقادًا من القاهرة بأن «غزوة الفرنج توقف تقدم الاتراك نحو مصر،... تلقى الحكام الفاطميون في فينيقيا اوامر بعدم الاشتباك مع الصليبيين. و لم يفكر احد بالتعرض لهم... فرغبة في ابعاد الفرنج (عن عاصمته) قام امير طرابلس (الفاطمي) ابن عمار بارسال هدايا ومؤن لهم (...) و لم تكن الحالة افضل في المعسكر السني، إذ إن الامراء المسلمين الصغار كانوا يسالمون الفرنج من اجل مؤامرات يحوكها البعض منهم ضد الآخر» (Wiet).

أما الصورة الشاملة (أو العنوان الكبير) للوضع السياسي والعسكري لسورية، قبيل الغزو الافرنجي الصليبي، فقد اوجزها د. فيليب حتي (في مرجعه المذكور سابقًا، ص ٣٤٢-٣٤٣) بالفقرة التالية: «بعد معركة منزكرت (ملازكرت) التي وقعت عام ١٠٧١ والتي انتصر فيها القائد السلجوقي ألب ارسلان علىاعدائه من البيزنطيين وأسر امبراطورهم اصبحت آسيا الصغرى وسورية في متناول الاتراك والتركمان. وقد كانت هذه اول مرة وطدت هذه الشعوب الوافدة من اواسط آسيا اقدامها في منطقة الشرق الادنى. ومن آسيا الصغرى تمكنوا من تهديد القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، تهديدًا مباشرًا. وقد كان بعض حكام المدن السورية يمتون إلى السلاجقة الروم بصلة القرابة، ولكنهم كانوا يدينون بالولاء إلى سلاجقة بغداد».

الافرنج عند بدئهم الغزو: بعث الامبراطور البيزنطي، ألكسيوس كومنينوس، النداء تلو الآخر إلى البابا يستجيره طالبًا العون ليجابه الخطر الذي احاق بممتلكاته الآسيوية. واخيرًا، استجاب البابا أوربان الثاني، فالقى في ٢٦ تشرين الثاني ١٠٩٥، خطابًا حماسيًا شديدًا في مدينة كليرمونت في جنوبي فرنسا (عاصمة المقاطعة الفرنسية الجنوبية التي كانت إلى زمن عرضة لهجمات المسلمين من اسبانيا). وما إن حلّ ربيع ١٠٩٧ حتى لبّى النداء جيوش، قدّرها المؤرخون



الحملات الصليبية الثلاث و«دول الشرق اللاتينية»:

الزيح الاسود يشير الى الحملة الاولى التي انطلقت من تولوز ولوبي وفيزيلي (فرنسا)، وباريسبون (الامبراطورية الرومانية الجرمانية)، وقادها ريمون دو تولوز وغودفروي دو بويون ووصلت الى القدس.

الزيح الرمادي يشير الى الحملةالثانية التي انطلقت من مارسيليا وجنوا وباريسبون، وقادها ريتشارد قلب الاسد وفيليب اوغست، ووصلت الى عكا.

الزيح المتقطع يشير الى الحملة الثالثة التي انطلقت من باريسبون، وقادها كونراد الثالث، ووصلت الى عكا؛ واخرى انطلقت من نيقيا الى انطاكيا.

منطقة الازياح العمودية: دول الشرق اللاتينية («مملكة القدس اللاتينية»).



رجل الدين الصليبي بطرس الناسك يستحث الجنود الصليبيين على الحرب امام ابواب القدس (منمنمة تعود الى القرن الثالث عشر).

بنحو ١٥٠ ألف رجل تجمعوا في القسطنطينية، وحملوا شارة الصليب شعارًا، ولذلك عُرفوا بـ«الصليبيين». وأما كلمة «الإفرنج»، فهي تعريب لكلمة Franks، أي «إفرنسيون»، ومنذ ذلك الوقت اصبحت الكلمة تطلق على الاجانب الاوروبيين.

«وما لا شك فيه ان بعضًا منهم كانت تحدوهم حوافز دينية، ولكن اكثرهم كانوا يضمرون امورًا دنيوية. وكذلك قوادهم، فإن بعضهم كان يأمل في الحصول على إمارة أو ملك. وكان بينهم جماعة من التجار-وجلّهم من مدن تجارية كمدينة جنوا والبندقية وبيزا- يحلمون بأعمال تجارية تدرّ عليهم الارباح. ولا ننسى ان نذكر جماعة المجرمين والاشقياء والخطاة الذين كانوا يطلبون المغفرة عن طريق الحج إلى الارض المقدسة التي داستها قدما المسيح (والتي كانت خطب البابا ورجال الدين تركز على انتزاعها من «الكفرة»). وكان هنالك شبان يشعرون بشيء من النقمة وعدم الرضا في الحياة، فكان حمل شارة الصليب عندهم نوعًا من العزاء الذي يناله الانسان الذي يذبح ذبيحة أو يقدم قربانًا. وكان هنالك مغامرون يفتشون عن مغامرة رائعة مثيرة يشتركون فيها. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، إذا نحن نظرنا إلى الحروب الصليبية نظرة شاملة بعيدة، نجد انها تتمة لسلسلة من الصراع الطويل الامد بين الشرق الذي بدأ بالحروب التي وقعت بين داريوس الفارسي والاغريق (الاسكندر) واستمرت بين البيزنطيين والمسلمين وظلت إلى يومنا هذا» (د. فيليب حتي، المرجع المذكور، ص ٣٤٣-٣٤٤).

وفي الحملة الصليبية الاولى، سقطت المدن الساحلية (بدءًا من إنطاكيا) تباعًا وقامت فيها الامارات الصليبية، بعد سقوط القدس في ١٠٩٨. فخضعت بيروت في ١١٠٠، وطرابلس في ١١٠٩ وكانت عاصمة بني عمار و«الميناء الأكثر نشاطًا في سورية» وبعد صمود عشر سنوات، واحترقت مكتبتها الشهيرة أثناء نهب المدينة، وصيدا في ١١١٠، وصور «المكان الأكثر حصانة في سورية» بعد حصار خمسة أشهر. واستمرت الحملات الصليبية بحروب ومعارك بين كر وفرّ في مدن ساحلية ومناطق، وثبات في مدن ومناطق أخرى، حتى جاء المماليك الذين تمكنوا من تحقيق نصر نهائي على الصليبيين وإخراجهم من البلاد في ١٢٩١.

سورية في الحقبة الصليبية: على غرار الاسلوب الاقطاعي السائد في اوروبا في هذه الحقبة، تمّ تقسيم البلدان المحتلة إلى اربع دول إفرنجية: مملكة القدس، كدولة رئيسية ذات سيادة وثلاث دول إقطاعية تابعة: كونتية طرابلس وإمارة انطاكيا وكونتية إديسا (الرها) على ضفتيّ الفرات. وقد شملت «مملكة القدس اللاتينية» التي كانت عاصمتها المدينة المقدسة، المنطقة الممتدة من بيروت حتى عسقلان، وفي الداخل حتى نهر الاردن. وعند تأسيس هذه المملكة، في أول الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٨)، كان المواطنون، بغالبيتهم الكبرى من المسلمين، مع نسبة قليلة من المسيحيين ونسبة اقل من اليهود والسامريين وغيرهم. وكما كان الأمر في العهد الاسلامي، فإن مسيحيي البلاد جهزّوا الادارة المحلية بالعديد من الموظفين. وقد شملت التسمية العامة: «سوريون» الملكيين والموارنة والارمن والمونوفيزيين اليعقوبيين وغيرهم. وكانت اللغات المتداولة عديدة في مدة سيطرة الإفرنج. فإلى جانب اللاتينية، اللغة الرسمية للكنيسة والدولة، كانت اللغة الفرنسية لغة البارونات، والايطالية لغة البحارة والتجار، أما السكان الوطنيون فكانت لغتهم الطاغية قد اصبحت العربية، تلتها الآرامية، ثم السريانية (وهي لهجة آرامية كانت مستعملة في شمالي لبنان).

ورغم ان فلسطين كانت قد غدت، في الحقبة الصليبية (حتى استعادها صلاح الدين في

١١٨٨) مسرح الصراع، فإن هذا الوضع لم يحل دون مواصلة التبادل الاقتصادي بين مصر وسورية، إذ كانت القوافل تخضع إلى «رسوم العبور» التي كان الإفرنج يجبونها، كما كان تجارهم الذين يقيمون خاصة في عكا ينشطون في الاتجار مع المدن الاسلامية في الداخل. وعن الوضع الاقتصادي، بصورة عامة، نقل جواد بولس (المرجع المذكور، ص ٣١٠-٣١١) عن الرحالة والمؤرخ الشهير ابن جبير فقرات مهمة، هذا بعضها:

«حاز المسلمون على تسهيلات كي يستقروا ويقيموا في اراضي الكفار (...) كانوا يتمتعون بالطمأنينة التامة على اشخاصهم وممتلكاتهم (...) واجتزنا قرى ومزارع متتابعة، سكانها كلها مسلمون. وهم يعيشون في ظل الافرنج، في رفاهية، نعوذ با لله من هكذا إغراء. يؤدون لهم نصف الغلة، عند أوان ضمها، وجزية، على كل رأس، دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضًا. ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من المقاطعات في ساحل سورية هي للمسلمين. وكثيرون منهم يقارنون بين حالتهم وحالة إخوانهم في المناطق الخاضعة للمسلمين، وهي بعيدة عن الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: ان يشتكوا من جور حكامهم ويمدحوا تصرف الافرنج، اعدائهم الطبيعيين. فإلى ا لله المشتكى من هذه الحال».

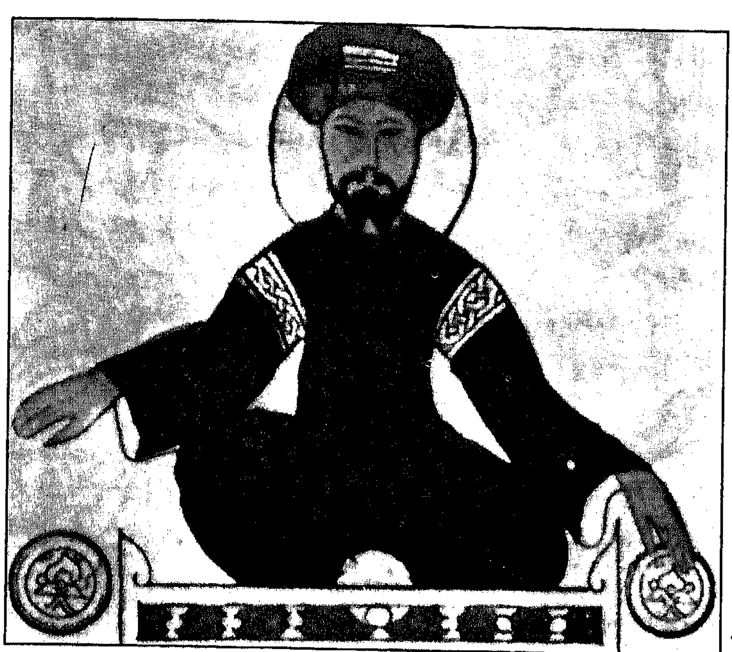
أما عن سورية التي لم يستطع الصليبيون إخضاعها فهي تلك المناطق من سورية التي اطلق عليها المؤرخون عبارة «سورية الداخلية» أو «سورية المسلمة» التي بقي فيها الأتابكة والاتراك السلاجقة مستقلين وشبه مستقلين. وكانت سورية هذه المستقلة مقابلة، جغرافيًا، للمشرق البحري الذي خضع للصليبيين: فلسطين ولبنان وشواطىء الشمال السوري.

ففي دمشق، كان التركي طغتكين، أتابك (عامل) الامير التركي السلجوقي دقاق، ثم خليفته في ١١٠٤، قد حكم البلد أكثر من ٣٠ سنة. وقد تمكن طغتكين من اعادة النظام إلى دمشق التي كانت قد عاشت نحو ثلاثة قرون في الفوضى، وبفضله قامت في دمشق حركة إصلاحية كبرى. لكن بعد موته (١١٢٨) عادت المدينة وانزلقت في الفوضى.

أما حلب، فبعد سنوات من عدم الاستقرار، استلم الحكم فيها (١١٢٩) الأتابك الشهير عماد الدين زنكي، وهو امير تركي سلجوقي من الموصل. وخلفه في ١١٤٦ إبنه نور الدين (١١٤٦-١١٧٤) الذي أكمل فتح كونتية الرها (إديسا) في ١١٥٠، فبدأت بذلك الفتح أولى انهزامات الصليبيين الكبرى في المنطقة.

نور الدين زنكي: كحاكم عادل، وكقائد عسكري منتصر، تمكن نور الدين من فرض احترام سلطة الحكم على السكان. واليه يعود فضل تأسيس المدارس الأولى في حلب التي راحت تساند جهوده الرامية إلى إحياء «المذهب السني الصحيح» في مواجهته للمذهب الشيعي الامامي الذي كان مذهب اكثرية السكان منذ زمن الامراء الحمدانيين. وقد أنشأ نور الدين في حلب مستشفى ودارًا للعدل.

بعد استرداده كونتية الرها بأربع سنوات فقط، استولى نور الدين على دمشق (١١٥٤) وجعل فيها مقره. وهكذا تحققت الوحدة السياسية لسورية الداخلية («سورية المسلمة»)، فتكرست، مع نور الدين، وحدة سورية من جبال كيليكيا حتى روابي الجليل. ولأول مرة منذ عهد الامويين، عادت دمشق لتكون عاصمة دولة مسلمة واسعة، موحدة ومستقلة. «وقد طبعت سياسة نور الدين المدينة بطابعها، فتكفلت بدور الحماية للمذهب



منمنمة فارسية تمثل صلاح الدين الايوبي.

الصحيح في وجه الهراطقة والفرنج الكفار... وأصبح الهدف الأوحد هو انتصار الاسلام السني، وجميع الجهود تركزت على الحرب المقدسة» (جواد بولس، المرجع المذكور، ص ٣١٤، نقلاً عن «إليسيف»، الموسوعة الاسلامية-بالفرنسية- ج٢، ص ٢٩١).

صلاح الدين الايوبي: كان نور الدين يعلم ان الخلافة الفاطمية في مصر قد شاخت ووهنت، وان ضعفها سيشكل إغراء يدفع بالصليبيين لغزوها. فارسل أحد ضباطه، أسد الدين شيركويه وإبن أخ هذا الأخير، صلاح الدين، ليعملا ما في وسعهما لتحقيق أهداف رئيسية ثلاثة: قلب الخلافة الشيعية الفاطمية واستبدالها بخلافة سنية، توحيد سورية ومصر، ومتابعة الحرب ضد الصليبيين حتى النهاية. في ١١٦٩، مات شيركويه وكان قد أصبح سيد القاهرة فعليًا، فخلفه صلاح الدين كوزير في البلاط الفاطمي. فأخذ يترقب الفرص لتحقيق الهدف الاول، قلب الخلافة الفاطمية.

وبينما كان الخليفة الفاطمي، العاضد، وكان عمره ٢٠ سنة-يعاني سكرة الموت في ١١٧١، أمر صلاح الدين ان يذكر الخليفة العباسي في بغداد، المستضيء، في صلاة الجمعة عوضًا عن ذكر الخليفة الفاطمي. و لم يرافق هذه الخطوة شيء من الاحتجاج والمقاومة. وبعد ثلاث سنوات، حقق صلاح الدين الهدف الثاني، وحدة سورية ومصر، إثر موت نور الدين في دمشق الذي خلفه أحد أبنائه، اسماعيل، وهو صبي في الحادية عشرة من عمره. فلم يجد صلاح الدين صعوبة في اغتصاب الملك منه، خاصة وان الخليفة العباسي في بغداد سارع إلى اصدار براءة حكم كان صلاح الدين قد طلبها منه يعينه بموجبها حاكمًا على مصر وسورية. وقد ضمت القيروان والنوبة والحجاز واليمن وجزء من العراق الشمالي إلى مملكة صلاح الدين. وهكذا قامت السلطنة الايوبية على انقاض الخلافة الفاطمية في مصر والأتابكة في سورية. وشرع صلاح الدين في الاستعداد لتحقيق الهدف الثالث: طرد الصليبيين.

التحم الجيشان، جيش المسلمين، جيش

صلاح الدين، مع جيش المملكة اللاتينية في ٣ تموز ١١٨٧ في حطين على مقربة من بركان هامد يرتفع نحو ٥٧٠م. فوق سطح بحيرة طبرية في الجليل بالقرب من المكان الذي القى فيه السيد المسيح «عظة الجبل» الشهيرة. وانتصر جيش صلاح الدين، ونجا عدد قليل من الجيش اللاتيني. وبعد طبرية، سقطت عكا في يد المسلمين، ثم نابلس وتبنين ويافا من دون مقاومة تذكر. ثم صيدا وبيروت وجبيل، و لم يبق على الشاطئ اللبناني في ايدي الافرنج سوى صور (حصون منيعة من جهة البر) وطرابلس. أما بيت المقدس فقد استولى عليها المسلمون في ٢ تشرين الاول ١١٨٧. وعند نهاية ١١٨٩، استرد المسلمون كلا من طرطوس وجبلة واللاذقية وعسقلان وغزة. وفي ١١٩٠، استسلمت للمسلمين قلعة الشقيف التي كانت حاميتها تتألف من فرسان الهيكل (Templars)، وقد سمّوا بفرسان الهيكل نسبة إلى هيكل سليمان حيث أنشأوا مقرهم الاول بالقرب من موقع الهيكل في بيت المقدس. وقد تنظمت جمعيتهم هذه حوالي ١١١٩.

تبقى معركة بيت المقدس (القدس) نفسها. وساحة المعركة ليست هذه المدينة، بل مدينة عكا التي اختارها الافرنج للانطلاق منها إلى بيت المقدس. فضربوا عليها الحصار من جميع الجهات بعد ان نظموا حملة صليبية جديدة اشترك فيها اعظم ملوك اوروبا قوة وبأسًا: فردريك بربروسا (ذو اللحية الحمراء) من ألمانيا، وفيليب أوغسطس من فرنسا، وريكاردوس الاول (الملقب بقلب الأسد) من انكلترا. وقد دام هذا الحصار وما رافقه من معارك كانت تعد من اعنف معارك القرون الوسطى وأهمها من ٢٧ آب ١١٨٩ إلى ١٢ تموز ١١٩١. وجاء صلاح الدين على رأس جيش لنجدة حامية المدينة وعسكر وراء جيش الافرنج، وكان قد طلب النجدة من الخليفة العباسي الناصر في بغداد، ولكن حظه من هذه النجدة لم يكن بأحسن من حظ ابن عمار صاحب طرابلس الذي كان قد طلب العون ايضًا من الخليفة العباسي- وكان آنذاك ابا الخليفة الناصر. واخيرًا استسلمت عكا، وسرعان ما استعاد الصليبيون عسقلان واعادوا تحصين يافا واحتلوا الرملة. وبعد ذلك استعدوا للانقضاض على بيت المقدس. وفي ٢ تشرين الثاني ١١٩٢، عقد الصلح بين المسلمين والافرنج (قطباه الرئيسيان صلاح الدين وريكاردوس) بموجبه بقي الشاطئ الفلسطيني من صور حتى يافا، مع هاتين المدينتين للعاهل الصليبي. أما الداخل، بما فيه بيت المقدس (القدس) فكان لصلاح الدين الذي اباح للمسيحيين حرية الحج إلى المدينة المقدسة.

ومع ان دولة الصليبيين في فلسطين تقلصت إلى الشاطئ الصغير الممتد من يافا إلى صور (وقد قسمت إلى منطقتين على غرار ما جرى بعد ذلك بـ٧٥٧ سنة، أي في تقسيم ١٩٤٨)، فهي تابعت حمل إسم «مملكة القدس». ولكن بدلاً من هذه المدينة المقدسة، التي بقيت في ايدي المسلمين، اصبحت منذئذ العاصمة الفعلية لها مدينة عكا.

دويلات ايوبية: عاد ريكاردوس إلى وطنه، وتوفي صلاح الدين في العام التالي (١١٩٣) عن عمر ٥٥ سنة، وقبره قرب الجامع الأموي في دمشق. فتجزّأت مملكته المترامية الاطراف بين أبنائه واخوته وأبناء عمومته.

استولى أحد اولاده على حلب، وآخر على دمشق وثالث على القاهرة. لكن الذي برز بينهم جميعًا كان شقيقه الأصغر الملك العادل سيف الدين (١١٩٩-١٢١٨) الذي استولى على مصر وأكثر المناطق السورية.

بعد العادل، عاد التنافس والخصام، فنشأت دويلات ايوبية متعددة في مصر ودمشق والعراق، وكذلك في حماه وحمص واليمن، ونشبت بينها الحروب التي وفّرت للافرنج فرص استعادة بيروت

وجبيل وتبنين والقدس (١٢٢٩) ويافا والناصرة، وصيدا وصفد وطبرية، وذلك على الرغم من ان حالة الافرنج كانت شبيهة بحالة المسلمين من حيث التنافس والعداء وشبك المؤامرات بعضهم ضد البعض الآخر. ولم تعد إليهم الروح الصليبية إلا في منتصف القرن الثالث عشر عندما انبرى ملك فرنسا لويس التاسع والتحق بالصليبيين بدءًا من مصر حيث مني بهزيمة ووقع في الأسر. وبعد ان افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال، جاء إلى صيدا (شباط ١٢٥٠) واقام فيها اربع سنوات فأعاد بناءها ورمّم حصونها؛ وكذلك اعاد بناء حصون قيسارية (قيصرية) ويافا.

وقد عرفت دمشق، عاصمة دولة ايوبية، تزايدًا في السكان خلال حكم الايوبيين. ونمت فيها العلاقات التجارية، وعرفت انطلاقة صناعية، واصبحت ليس فقط مركزًا كبيرًا للحياة الثقافية الاسلامية، بل ايضًا مركزًا دينيًا هامًا. وتحققت فيها نهضة في الهندسة المدنية، واصبحت «مدينة المدارس»؛ فكان القرن الثالث عشر ألمع حقبات التاريخ في حياة مدينة دمشق. وإلى هذه الحقبة يعود تاريخ معظم المنشآت التي لا تزال في مقدمة آثار دمشق أهمية اليوم.

وفي حلب، امتدت سلطة الايوبيين الذين تعاقبوا على الحكم فيها على جميع اراضي سورية الشمالية، وجعلوا من المدينة مركز دولة قويًا مزدهرًا، واتسعت ضواحيها، ونشطت صناعاتها، وأعيد بناء تحصيناتها، كما اعيد بناء قلعتها بكاملها. وكانت حلب في الحقبة الايوبية اجمل المدن وأنشطها في جميع بلدان الشرق الاسلامي.

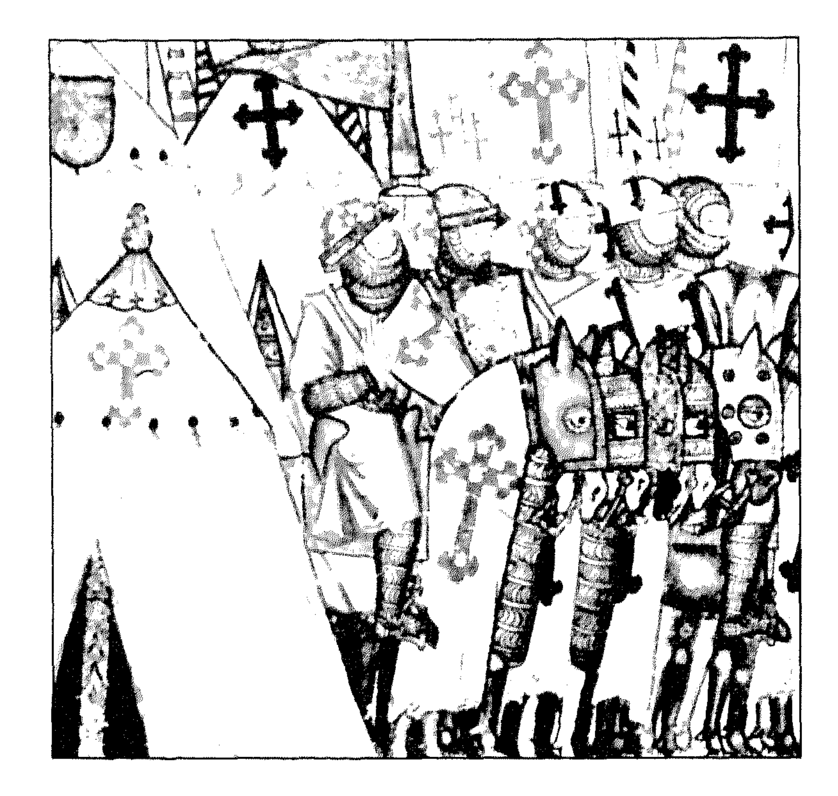
المماليك يخلعون الايوبيين: تميز منتصف القرن الثالث عشر بحادثين على غاية من الخطورة: قيام دولة المماليك، وغزوة المغول التي عرضت المنطقة بأجمعها إلى فترة خراب وفوضى.

«كان المماليك (مفردها مملوك ومعناه العبد والمولى) جماعة عسكرية ينتمي افرادها إلى الاتراك أو المغول أو الشركس استولت على الحكم من ١٢٥٠ إلى مقدم الاتراك العثمانيين في ١٥١٧. ولا يعرف شيء عن نسب هؤلاء المماليك، لأنهم كانوا يبتاعون في سوق النخاسة في البلاد الروسية أو القفقازية (القوقاز). واول من نظم امرهم الملك الصالح ايوب (١٢٤٠ و١٢٤٥-١٢٤٩) إذ ابتاع جماعة منهم ليكونوا بمثابة حرس له. وينقسمون إلى جماعتين: المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٩٠) نسبة إلى مقرهم الذي كان على جزيرة صغيرة في نهر النيل (والعامة في مصر تسمّي النيل بحرًا)، والمماليك البرجية (١٣٨٢-١٥١٧) نسبة إلى ان مقرهم كان ابراج القلعة التي بناها صلاح الدين في القاهرة. وكان اول من استولى على الحكم منهم مملوك تركي اسمه عز الدين أيبك (١٢٥٠-١٢٥٧) الذي كان قد تزوّج شجرة الدر أرملة سيده الملك الصالح، التي استولت على الحكم إلى فترة قصيرة بعد موت زوجها» (د. فيليب حتي، المرجع المذكور، ص ٣٧٢). واتخذ أيبك لنفسه لقب سلطان.

في ١٢٥٨، استولى المغول على بغداد، فاستسلمت المدينة للنهب والمذابح، وقتل الخليفة العباسي المستعصم با لله، وقضي على الخلافة العباسية. وفي الموصل، أعلن العاهل الايوبي خضوعه؛ وفي حلب، وبعد شهر من المقاومة، سقطت المدينة ونهبها المغول، وقتلوا من أهلها ٥٠ ألف نسمة (١٢٥٩)؛ واستسلمت دمشق وهرب اميرها نحو الجنوب، ثم اندفع الفاتحون نحو غزة.

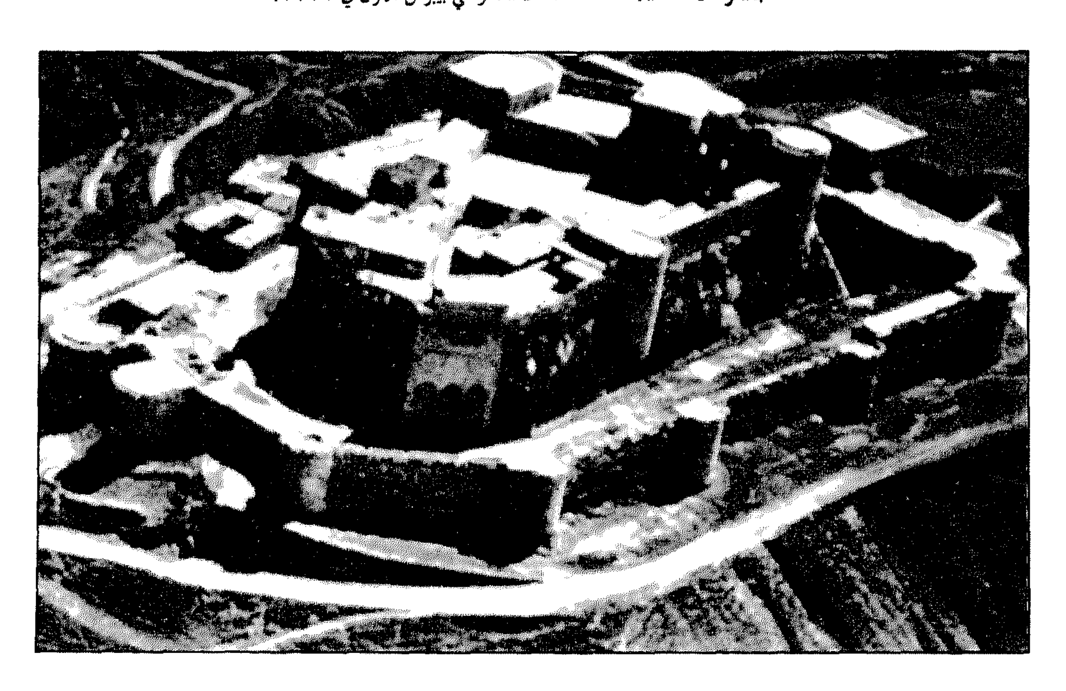
وبينما كان الايوبيون يتنافسون، في ما بينهم، على الاستذلال للمغول، اتخذ المماليك (في مصر) المبادرة، وعزموا على مجابهة المغول اولاً، ليتفرغوا بعدها للصليبيين.

في عهد دولة المماليك المصرية-السورية: بعد معركتين وقعتا في فلسطين، اندحر المغول على يد سلطان المماليك قُطز، وتقهقروا إلى ما وراء نهر



فرسان صليبيون إفرنج.

حصن الكرك (Krak)، الذي كان، منذ ١١٤٢، مكان اقامة وعسكرة فرسان صليبيين (كان يتسع لنحو الفين منهم) سُمّوا في ما بعد بـ«فرسان مالطا». اسقطه السلطان المملوكي بيبرس الاول في ١٢٧١.



الفرات (١٢٦٠). فدخل قُطُز باحتفال إلى دمشق حيث استقبل كبطل محرّر. وتابع مطاردة الجيش المغولي المنهزم إلى ان جلاه عن سورية. لكن قُطُز لقي مصرعه بطعنة خنجر في عنقه طعنه بها خلسة قائد جيشه بيبرس الذي اغتصب الملك لنفسه (١٢٦٠-١٢٧٧).

كان بيبرس السلطان الرابع بين المماليك البحريين، وهو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك (كان بيع في سوق النخاسة في دمشق، وهو فتى). ولما انتصر على المغول، عمد إلى توحيد سورية، وأخذ يعد العدة لمهاجمة الصليبيين. فأخذ يضرب الحصار على المدينة تلو الاخرى إلى ان اخضع جميع المواقع الحصينة التي كانت بيد الصليبيين. ففي ١٢٦٣، سقطت الكرك، وفي ١٢٦٥ قيسارية وأرسوف، ثم صفد في ١٢٦٦، ويافا وشقيف عرنون في ١٢٦٨، وكذلك انطاكيا التي كانت اقدم دولة لاتينية اسسها الافرنج، فقد أحرقت بكنائسها وقلاعها. وفي ١٢٧١، سقط حصن الاكراد (في كونتية طرابلس).

وفي عهد خليفته، قلاوون، اسقط المماليك طرابلس (١٢٨٩) ودمروها تمامًا. ولم يبق في يد الافرنج مركز عسكري ذو شأن سوى عكا. وقد حاصرها السلطان الأشرف (١٢٩٠-١٢٩٣) ابن قلاوون وخليفته، وأسقطها في يده في ١٨ ايار ١٢٩١. وبسقوط عكا فقدت باقي مدن الساحل التي كانت بيد الافرنج كل امل بالمحافظة على كيانها، فتساقطت الواحدة تلو الاخرى، وبغضون ايام متوالية. وسقط «حصن عتليت» (Chateau Pelerin)، بعد اسبوعين من سقوط طرطوس (٣ آب ١٢٩١)، وكان آخر موطىء قدم للافرنج. وقد عبّر المؤرخ ابو الفداء (عاصر هذه الاحداث) عن شعور المسلمين إذ ذاك بقوله: «وهكذا تحررت سورية ومدنها الساحلية من الافرنج... والحمد لله». أما جزيرة أرواد، فقد ظلت في يد الفرسان الداوية (نظام رهبنة صليبية، قبل ان ينقلبوا إلى جنود يحترفون الحرب) مدة ١١ سنة اخرى. وعلى العتبة فوق مدخل القلعة الخربة في الجزيرة يرى المرء رسم شعار مما يدل على صلتها القديمة بالشعوب اللاتينية. وبسقوط ارواد يسدل الستار على آخر مشهد من الحقبة الصليبية في المنطقة (هذه الجزيرة، ارواد، استعملها الفرنسيون، ابان الانتداب، منفى للمبعدين السياسيين).

في عهد السلاطين المماليك، الذين كانوا يقيمون في القاهرة، غدت ممالك الايوبيين القديمة، في سورية ولبنان وفلسطين، مراكز «نيابة»، تؤلف كل منها دولة متميزة نوعًا ما، رئيسها «النائب» (نائب السلطان)، المعين من قبل السلطان تابعًا له. وقد قسمت هذه البلاد إلى ست نيابات هي: دمشق وحلب وحماه في سورية، وصفد والكرك في فلسطين، طرابلس على الشاطىء اللبناني. وكانت تسمية «الشام» تعني احيانًا دمشق ومنطقتها، واحيانًا تعني مجموعة النيابات الست في هذه البلاد، أي مجموع البلدان التي تؤلف سورية الجغرافية. وكان السلطان يعين، إلى جانب النواب، ضباطًا من المماليك للاشراف عليهم ومراقبتهم. وكان جيش كل نيابة يتألف، كما كان في عهد الايوبيين، «من الاتراك ومن شعوب مماثلة»، وكانت كل نيابة تقسم إلى ولايات، يحكم كل منها وال. وقد ضمن هذا الحكم المركزي لبلاد المشرق قرنين من الاستقرار تخللتهما اعمال وحشية رافقت غزوة تيمورلنك في ١٤٠٠-١٤٠١.

كانت نيابة دمشق أهم المراكز النيابية وأعلاها رتبة. ففيها كان يقيم السلاطين المماليك بين وقت وآخر إذ كانت ثاني مدينة في الدولة ومركزًا لنائب كان يتم اختياره من المماليك البارزين.

«عرفت دمشق، في حدود ١٣١٢، حاكمًا ذا شأن، هو النائب «تنكز»، الذي أقر الامراء بسلطته. وكنائب فعلي للسلطان في سورية

فرض نفسه على سيده قرابة ربع قرن. وقد مهّد الازدهار، الذي ظهر في هذه الفترة، للحياة الفكرية كي تتفتح. كان هذا العصر هو الذي عاش فيه المصلح الاسلامي ابن تيمية والمؤرخ الصفدي... وفي ١٣٤٠، فقد «تنكز» حظوته فجأة والقي القبض عليه، ثم سجن في الاسكندرية، حيث مات مسمومًا. ومن ١٣٤٠ حتى ١٣٨٢، وهو الزمن الذي زار فيه ابن بطوطة المشرق، تعاقب على القاهرة إثنا عشر سلطانًا من المماليك البحريين... وفي الوقت ذاته شغل ما يقارب الاثني عشر حاكمًا منصب «النائب» في دمشق... فقد كان الصراع مستمرًا وكانت نيرانه تستعر بطموح هذا او ذاك (...) وباتت سورية، التي مزقتها خصومات الامراء المماليك ونزاعاتهم، فريسة سهلة المنال لتيمورلنك الذي... وصل دمشق عام ١٤٠١. ففي معسكره المرابط بالقرب من المدينة، استقبل ابن خلدون (المؤرخ الاسلامي الشهير) في زيارته الخالدة الذكر... وما إن سلمت إليه المدينة حتى اعمل فيها السلب والنهب... وقد خلفت الحرائق ضحايا عديدة واحدثت اضرارًا فادحة... وعندما غادر تيمورلنك دمشق، في السنة ذاتها، اصطحب معه، إلى عاصمته سمرقند، ما تبقى في المدينة من محترفين ومن عمال مهرة. ويعتبر هذا الاجلاء الجماعي من اكبر الكوارث في تاريخ دمشق... وكان على البلاد التي اهرقت دماؤها ان تواجه آلاف المصاعب... كانت الحروب الاهلية تولد حاجات كبرى إلى المال، ولم يكن الامراء يترددون بمضاعفة الضرائب على الاملاك حتى ان السلطان ذاته كان يلجأ إلى وسائل عنيفة ليحصل على المال الذي لا تؤمنه له الضرائب. فلم يكن يتردد في خلع حكام لكي يضع يده على ثروتهم. حتى ان الفساد في عهد المماليك الآخرين وصل إلى «القضاة»، الذين كانوا يحكمون ببعض القضايا خلافًا للقانون، مقابل اموال تدفع لهم» (جواد بولس، «لبنان والبلدان المجاورة»، مرجع مذكور سابقًا، ص ٣٢٦-٣٢٧، نقلاً عن ن. إليسيف N.Elissef، الموسوعة الاسلامية، بالفرنسية، ج٢، ص٢٩٣-٢٩٤).

أما نيابة حلب التي يحتل نائبها المرتبة الثانية بعد دمشق فلم يكن مصيرها أفضل حظًا من مصير دمشق. وتعود مكانة حلب إلى موقعها الجغرافي على الحدود الشمالية للدولة، حيث كانت تؤمن الحماية لها. ولكنها مع ذلك لم تنهض إلا ببطء من تحت انقاض الكارثة التي حلت بها عام ١٢٦٠ على يد المغول. وقد أبقاها الخوف المتواصل من حملة جديدة يقوم بها المغول شبه مقفرة ما يقارب نصف قرن. وبعد ان استتب الأمن فيها، لم تمكنها ثورات حكامها ونزوات جيوشهم وجور نظام الضرائب المملوكي من استعادة نشاطها. وقد فتك فيها الطاعون في ١٣٤٨، وتبعه على الأثر الدمار الذي خلفه تيمورلنك في ١٤٠٠. ومنذ مطلع القرن الخامس عشر، وبعد ان اصبحت حلب ملتقى للقوافل التي كانت تنقل التجارة ما بين اوروبا وفارس، غدت مركزًا اقتصاديًا شديد الحيوية، فازدهرت بسرعة.

انهيار دولة المماليك: الخلافات على السلطة شكلت السبب السياسي الداخلي الرئيسي، واكتشاف رأس ا لرجاء الصالح في جنوبي افريقيا (١٤٩٨) الذي حوّل طريق الهند والصين عن بلدان مصر وسورية والعراق إلى المحيط الاطلسي والبحر الهندي وقضى على واردات الدولة المملوكية، شكّل السبب الخارجي-الاقتصادي الرئيسي لانهيار دولة المماليك.

اما السبب المميت المباشر فجاء نتيجة ضربة عسكرية فجائية. إذ إن الجيش المملوكي، المؤلف اساسًا من اتراك وشركس واكراد وغيرهم من العناصر الآسيوية، سحقه جيش تركي آسيوي آخر، هو جيش انكشارية السلاطين العثمانيين، في معركتين ضاريتين، الاولى في مرج دابق قرب

حلب (١٥١٦)، قتل فيها السلطان المملوكي قانصوه الغوري، والثانية قرب القاهرة (١٥١٧)، سقط فيها السلطان المملوكي تومانباي أسيرًا بيد العثمانيين الذين اعدموه.

إن الانتصار الساحق الذي أحرزه العثمانيون قضى نهائيًا على سلطنة المماليك. أما سلطة الزعماء والامراء المماليك، كحكام في المقاطعات أو الاقاليم المصرية، فقد ظل قائمًا خلال القرون الثلاثة التالية. ذلك انهم كانوا يملكون اراضي زراعية خصبة. فكانت سلطة الباشاوات الاتراك المعينين في القاهرة من قبل الدولة العثمانية، سلطة إسمية فقط. ومنذ القرن الثامن عشر حكم ا لمماليك مصر فعليًا من جديد.

ففي اواخر القرن الثامن عشر، قاوم المماليك، لا العثمانيون، عسكريًا حملة بونابرت. وفي ١٨١١، قضى نهائيًا على سيطرة المماليك في مصر محمد علي باشا، الالباني الاصل، الذي استقل عن الدولة العثمانية (١٨٠٥-١٨٤٨). وهكذا انتهت سيطرة المماليك على مصر بعد خمسة قرون ونصف القرن تقريبًا (١٢٥٠-١٥١٧ ثم ١٥١٧-١٨١١)، من الحكم المطلق.

إن انهيار سيطرة المماليك على بلدان المشرق، وامتداد سيطرة الاتراك العثمانيين على هذه البلدان يشكلان منعطفًا هامًا في تاريخ المنطقة ويفتح مرحلة جديدة في تسلسل الاحداث في هذا التاريخ هي اطول المراحل حتى الآن، إذ إنها استمرت اربعة قرون كاملة (١٥١٧-١٩١٨).

(في التاريخ الحديث، وما يليه من ابواب وموضوعات، في الجزء التالي، العاشر).

Encyclopédie Historique et Géographique

Continents, Régions, Pays, Nations,
Villes, Sujets, Signes et Monuments

Tome IX

PAR

Massoud Khawand

تمّ طبع الجزء التاسع

في ايار ١٩٩٧

وتليه الأجزاء الأخرى تباعًا

Ed. Mai 1997

